

تفسير
عرائس البيان
في
حقائق القرآن

تأليف
الشيخ الفاضل بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقاي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تمحيه
للشيخ أبي محمد فريد الدين

المجلد الأول

أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة الأنفال

HY HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN KIRJASTO



107 207 4228



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

عَمَّا يُسَبِّحَانِ فِي

حَقَائِقُ الْقُرْآنِ

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقاي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد الزيري

الجزء الأول

المحتوى :

أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة الأنفال

LIPISTON
PEDEKUNNAN
STO
١٨



دار العلم
الكتاب العالمية
أسسها محمد علي بيضون
سنة ١٣٧١ هـ

DKI

**Title : 'Arā'is al-Bayān
fi Ḥaqā'iq al-Qur'ān**
classification: Exegesis of the Qur'an

Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadī
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed In : Lebanon
Edition : 1st

**الكتاب: عرائس البيان
في حقائق القرآن**

التصنيف : تفسير قرآن

المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

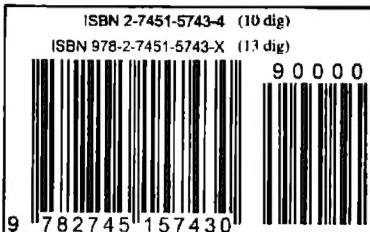
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)

سنة الطباعة : 2008

بلد الطباعة : لبنان

الطبعة : الأولى (لوتان)



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أنظمة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على استوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohammad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Anzoun, al-Quebbah, عزمون، القبّة
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg. مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12 هاتف: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠/١١/١٢
Fax: +961 5 804813 فاكس: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon ص.ب. ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان
Riyad al-Solah Beirut 1107 2280 رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٨٠

<http://www.al-ilmiyah.com>
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التقديم

الحمد لله المنعم المحسن الدّيان، الملك القدوس العزيز الرحمن، المحمود بكل لسان، في كل حالٍ وسائر الزمان، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ورزقه قلبًا مدرّكًا للأشياء بالحجة والبرهان، ثم كرمه بمواهب فضله من الخلافة والعرفان، وفضله بعرائس العقائد الحقّة من محجة الإسلام والإيمان، التي لم يطمئنهن قبل أصناف الملائكة ولا طوائف الجنان، وأوضح الحق بكتابه المجيد، وخطابه الحميد الفرقان كلامًا يحق الباطل بين يديه ويزهق منه الشيطان، وله في كشف الحقائق والنبیان شأن لا تكتننه الأفكار والأذهان حيث لا توازيه الزبر، ولا تساويه الكتب في الفصاحة والبيان.

ومهدّ للطائعين من عباده المتقين بالجنان الجنان، وبشرهم بأكبر من ذلك وأجل الأكوان الرضوان، وهدد المعاندين الطاغين بالقهر والنيران، لجهة الكفر والكفران، وهبّا لهم أنواع النكبة من المذلة وسوء الخسران، وحين حدثت في الشوارع والطرائق صعاب المزالق والمضايق، وخلطت الشرائع بأوهام ممّوهة وكلام زاهق، بعث الرسول ﷺ إلى أهل المغرب والمشارك بالآيات البيّنة، والخوارق النيرة التي تضيء الآن كالبدر، ولم تكشف مع تراكم ليالي العوائق من الحوائج والطوارق.

فبيّن لهم جهارًا أسرار الحقائق، وصدع بكشف القناع عن وجوه الدقائق، من دون أن يفرق بين المخالف والموافق، ويخصص المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، صلى الله البارئ الخالق عليه، وعلى آله وصحبه المتسبين إليه بخير العلائق، ما أظلم الظلام، وأشرقت المشارق، ويميز الجيد من الزائف، والردى من الرائق، وما ابتسمت الأزهار بالرياح في الخدائق، وتنسمت الرياحين والشقائق على عوالي الأعلام والشواوق.

ويعدّ .. فلما كان علم التفسير أحسن العلوم الإلهية كلها، وأعز من سائر الفنون وأجلها إذ هو للعقائد الدينية أقدم الأصول وأهمها، ولإدراك المسائل الفقهية رأس المباني وأهمها، ولاستنباط الأحكام الظاهرة الشرعية بناء وأساس، ولاكتساب المعارف الباطنة من الطريقة والحقيقة، والمعرفة مصباح ونبراس، وإلى الأول منها قد التفت أكثر الناس قديمًا وحديثًا، وتوجهوا نحو التفسير على وجه الشريعة تصنيفًا وتآليفًا، ولم يتعرضوا للثاني إلا قليلًا، فإنه مسلك أدق وخطب جليل، إذ هو بحر لا يدرك ساحله، وصراط قلّ من أن يسلم سالكه، ولا يعبره إلا من أتى الله بقلب سليم أو وفق من الله العظيم، لهذا الأمر الجسيم.

----- عرائس البيان في حقائق القرآن / الجزء الأول

كان كتاب «عرائس البيان في حقائق القرآن» أجلُّ ما صنف في هذا الباب، من مؤلفات نخبة أولي الألباب، المستغرق في بحار الأنوار، المشاهد للستر وسر الأسرار، الباقي بربه والفاني عن نفسه، العارف بالرمز الخفي والجلي، الشيخ «أبو نصر بن روزبهان البقلي الشيرازي» - قدس الله سره - من فاز بالجاه المتكاثر والمناقب والمفاخر، وأوتي مناصب الدنيا بحسن الأخلاق، وخير المآثر، المستجمع لأصناف الفرح والسرور، المستغني عن التعرض بالاسم والرسم لغاية الظهور، أمام الله فيضه على مر الدهور والشهور.

فإليك أيها المحب الصوفي المتعطش لنهر الحقائق المتدفق بمعاني الوجد الرائق، فتنهل من درر الأسرار والأنوار الفوائد.

قد قمت بتحقيقه وتخرجه والتعليق عليه، من معين المحققين المتحقيقين بأسرار الذكر الحكيم، وتلك خصوصية الغارمين الذي في بحر الشهود غارقين، هاثمين.

كتبه

العبد الفقير الحقير إلى الله السميع البصير

الراجي عفو الله العلي الكبير

بجاه سيدنا البشير النذير ﷺ

تراب أقدام أصحاب الوراثة النبوية

أحمد فريد المزيدي

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ الإمام العلامة المتكلم المفسر الفقيه الصوفي المحقق، شطّاح فارس: أبو محمد روزبهان بن أبي نصر البقلي، الفسوي، الشيرازي المصري؛ المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية.

أصله من «شيراز» زار مصر، ففُضِيَ في القاهرة والإسكندرية زمنًا، حتى عرف باسم «روزبهان المصري» ثم عاد إلى شيراز، واستمر بالوعظ والتذكير خمسين سنة في الجامع العتيق بمدينة شيراز، واشتهر في هذه السنوات الخمسين الأخيرة بلقب شطّاح فارس.

ويعد روزبهان من أعظم صوفية الإسلام، واعتبره الفرس من مفاخر إقليم فارس، ومن مقدسات شيراز!

وقد ترك الشيخ روزبهان العديد من المؤلفات، منها:

- تفسير القرآن بعنوان «عرائس البيان في حقائق القرآن»، (كتابنا هذا).
 - منطق الأسرار في بيان الأنوار وهو «شرح الشطحيات» بالعربية والفارسية.
 - شرح كتاب «الطواسين» للحلاج، بالعربية والفارسية.
 - الأنوار في كشف الأسرار.
 - سير الأرواح - المصباح لمكاشفة الأرواح - مشرب الأرواح.
 - كتاب القدسية.
 - مكنون الحديث.
 - حقائق الأخبار.
 - تقسيم الخواطر (بتحقيقنا).
 - الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل.
 - كتاب العقائد.
 - عبر العاشقين.
 - رباعيات من الشعر الفارسي.
- ويقول الشيخ في الفصل الحادي والثلاثين من «عبر العاشقين»: بعنوان كمال

المعشوق ما نصه: إن الله سبحانه وتعالى ذاته القديمة موصوفة أزلاً وأبداً بصفاته القديمة، ومن جملة صفات الحق: (الأول، العشق) وقد عشق ذاته بذاته، فهو العشق والعاشق والمعشوق، فصار العشق واحداً، صفة له قائمة به لا تغير فيها؛ بل هو عاشق بنفسه لا يجوز له التغير الحدثاني وأعرف محبة الحق في أن يكون علمه لم يزل محباً بنفسه لنفسه؛ كمال المحبة، فالمحبة صفة الحق، فلا تخطئ في الاسم، فإن العشق والمحبة أمر! إنه لم يزل علماً بنفسه وناظراً إلى نفسه بنفسه، لا يوجد انقسام في أحديته، ولما أراد - تعالى - أن يفتح كنز الذات بمفتاح الصفات، تجلى على أرواح العارفين بجمال العشق، وظهر لهم بصفات خاصة، وأنهم حصلوا في كل صفة لباساً، فمن العلم علماً، ومن القدرة قدرة، ومن السمع سمعاً، ومن البصر بصرًا، ومن الكلام كلامًا، ومن الإرادة إرادة، ومن الحياة حياة، ومن الجمال جمالاً، ومن العظمة عظمة، ومن البقاء بقاءً، ومن المحبة محبةً ومن العشق عشقاً؛ كانت كل هذه (هو) فيهم، وأثرت الصفات فيهم، والصفة قائمة بالذات، فأصبحت صفتهم قائمة من أثر ذلك؛ لا يوجد من (الحلول) شيء في العالم: العبد عبدٌ والرَبُّ ربٌّ.

فأصل العشق قديم، وعشاق الحق قدماء! عشقهم بالروح، والعشق لألباب الأرض القديمة الذي التف حول شجرة روح العاشق، والعشق سيف يقطع رأس الحدوث من العاشق، وهو ذروة قاعدة الصفات، فما وصلتها روح العاشق إلا واستسلمت للعشق، وكل من صار معشوقاً للحق، وعاشقاً للحق، لا يستطيع النزول من تلك الذروة، ويصير في العشق متحدًا بالعشق؛ ولما اتحد العاشق والمعشوق صار العاشق والمعشوق بلونٍ واحد، وعندئذٍ يصبح العاشق حاكماً في إقليم الحق، فعندما غلب عليه الحق، أصبح قالب صورته جنائياً، ونفسه روحانية، وروحه ربانية.

العشق كمال من كمال الحق، فإذا اتصل بالعاشق، تحول من الحدوث المحض إلى الجلال الإلهي، ويصبح باطنه ربانياً ويطلب معدن الأصل، ولا يتغير من حوادث الدهور وصروف الزمان وتأثير المكان؛ فإذا بلغ عين الكمال، تزول ستائر الربوبية! والعاشق الرباني يذهب بالمعدن الأصلي، وليس في العشق مقصود، فالعشق مع المقصود ليس بموجود:

العشق والمقصود كفر والعاشق برئ من روحه

وليس للصورة مكان في العالم العشق؛ لأن العقل والنفس ليسا معاً في طريق

العشق، فالعشق هو الطائر الطاهر للروح - والعشق والروح، كالحماء والصقر:
العشق لا يقبل النفس الحية والصقر لا يصطاد الفأرة الميتة

الأمر والنهي منسوخان في طريق العشق!

والكفر والدين حجباً عن سراي العشق!

والآفاق محترقة بإشراق العشق!

والكون مضمحل تحت حافر فرس العشق!

عند من كان العشق مرشده يكون الكفر والدين ستار بابه

وجوهرة العشق عجنت من الأزل، ولم يكن في ذلك العالم للروح والعقل من

طريق؛ كل من ظهر له طريق العشق، يخطف جوهر أوصافه من هذه التربة:

أم كان في الكائنات من جزء وكل هي أطواق قناطر العشق

العشق أرقى من العقل والروح «لي مع الله» هو وقت الرجال

وليس في العشق مجوسية ولا كفر، ولا شراسة ولا بلاهة، وصفة العشاق كمال

الحيرة.. والخضوع صفة المتيمن.

يجعل خُلُ العشق الطفلَ شيخًا ويجعل العشق الباشق صَيَّادَ البَعُوضَةِ

والجنة مأوى الزاهدين، والحضرة مأوى العاشقين! ليس في العشق فجاجة،

وليس في طريقه عجز ولا ضعف.

وكل ما قلناه ليس من صفة العشق العاشق.. ونهاية العشق بداية المعرفة..

والعشق في المعرفة مبني على الكمال؛ وإذا اتحد العاشق بالمعشوق، بلغ مقام التوحيد.

وإذا تحير في المعرفة، فقد أحرز مقام المعرفة.. ونهاية العشق إلى هذين المقامين؛ فإذا صار

عارفًا، تبدو صفات الحق من صفاته.

ذاك الذي تكلم بالشطحيات، إنما أراد أن يقول الحديث السبحاني (ما في الجبة)

وسر (أنا الحق) وإذا لم تعرف ذلك، فاستمع إلى قول أسد مرج التوحيد وفارس ميدان

التجريد أبي بكر الشبلي - رحمه الله - فإنه وجد رمز ذلك الحديث ذات يوم في مجلس

الموحدين، وحيث إنهم بلغوا ذلك العالم؛ صار قلوبهم ربانيًا، وقولهم أزليًا وأبديًا.. كما

قال أبو سعيد الخراز - رحمه الله تعالى -: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبة، وأنباء

عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويختبرون عنها بعبارات الأزلية.

من مصادر الترجمة:

- شذ الإزار المعروف بهزار مزار للشيرازي (٢٤٣، ٢٤٧).
- تاريخ التصوف لقاسم غانم (ص ٥٦٧).
- مقدمة فوائح الجمال، يوسف زيدان (ص ٤٩).
- معجم المؤلفين لكحالة (١٧٥ / ٤).



نماذج من صور المخطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَبِّ وَفِي لَأَمَام

الحمد لله الذي كان في ازل الازال موجودا بوجوه ذاته كقوة صفاته وصناته بمعادن جوده وتقاض
بذاته عن الاضداد وتنزه صفاته بصفاته عن الالناد قدومه متعال عن الكون والفساد وازاله مسد
الى ابد الابد تنفرد بوحده نبيه عن الاله اكن ذاك كبر ان وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحديث ان علم في القديم
ما يبين بارادته من العدم والحي بمقادير القلدة واليه على اللوح المحفوظ ما تشي وشتم لم ينزل متكلم بكلامه
القديم وعالم بسله الازل الكريم فاوجد جوهر البية بقوته القدسية وكلما له الازلية في فضله القدوة وابع
منه فطرة الخليفة وانج من اديان القديس المقدورات بجمع الاثوية والباسلام بودية واعطى عن تلك الجوهر
وطبيعة الازلية فطرة احم على جميع العالم وعلم الاله اكلها وجعله من جميع البرية اصلها انخرج من تنصير الارواح
والاشياخ واختار منها فقه الاشياء والرسول والاولياء بالرسالة والولاية ونحاط بهم بخطاب الاله وكلامه الالهي
ليدعوا به عباد الله الخدمته وشوقهم الى مشاهدته واجتمع من بينهم في الازل روح المصطفى صلوات الله عليه
يا فضل الدرجات والكرم المماناة واصطفاه المقام المحمود وكرمه الكرم واليود ونحاط به باشرف كلامه واكرم فروقانه
وقائه الذي فيه بيان مكتون اسرار ذاته والوان صفاته وعمائيل علومه النبوة وغرائب اياته الازلية وارسله
الى كافة البرية ليجدهم به الى الحق والحقيقة ثم اعطى انتمه الظاهرة الى بداهل الظاهر من العلماء والحكام حتى
شرعوا في احكامها وحدودها ورسومها وشرائعها وجعلوا خالصة اهل صفوته غيبة اسرار خطابه واعطاه
مكتون اياته وتجل من كلامه بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وارتقا هم بعقولهم واسرارهم واعلمهم علومهم
حقائقه ونوادير قائمه وصف بروح عقولهم بكسوة وانوار جمال قدس قلوبهم لاسناء جلاله وجعلها مواضع وديع خفي بمو
خطابهم اذ في كتابين نحو امراض اسرار والطيف اشارات من علوم المتشابهات ومشكلات الايات وشرعهم ما في الخفاء

والمرئيين والمنعمين في قبض العرش متشابهة بدين احسانهم الصفوة التي حرموا ان يارازال الازال ويا بحد الانبياء
 وطالبه يوصل الوصل وعرفان العرفان وبقوة الله بقرته كالغلاف حول الشمس كمال شوقها بالاحسان بنيرات
 كذلك في بحر معرفة هناك بنيران الكبرياء ثمانية في سطوات الجلال باتية بسبجات الجلال مستشفا
 عن خل الجبابرة من ستة عن طيران النمل كيف يخلو كذا في تمام ان سراس فهو اجنح في الناس من بيت الناس
 سبحانه من صفاهم بصفاة عن كل كد ورو برهم بقدره عن كل علة الوسواس في الصدور والقلوب
 في الخصور والنور والسرو وكيف ليس حركات الانسانية الى من استغرف في بحار الوحدة لانية لا باس بان
 طوى على الصدور وسواس وهو اجنح من قبل الامتحان فان الارواح في يمين الرحمن والقلوب بايمن بيت
 من اسباب الرحمن والرحمن لله الذي راد صخرة الى التي موهبة الاتقيى كين شكي عند خواص المعمورة الى
 حبیب الله وصفية حمدات الله وسلاوة عليه وتمام الى انما نحن في القسنا مائة ما خلاص اهل تان نكحاه
 اذ قال ودين وجب تقوية والواحدة قال ذلك من بين الايمان وقال ابو عمرو والجار رحل من الزور ستة فتيهم
 بشرة اشياء اولها الحمد من نعم الله بالتي على والفساخة والثانية الامس فاكسرو بها جاعة الاجل والثالثة
 انتم بشرة وادت الدنيا فتانله بزوال الدنيا في طول السكينة الى انما السور فاكسرو برقية العدل والنامسة
 البارز فاكسرو بقرينة الشنة والعدواني والسادسة الكبر فاكسرو بالتي انتم من السابحة الى انتم فاكسرو
 الى من فاكسرو بقرينة حجة تهمس والثامنة من سب ان نيك والتمس من الناس فاكسرو بالاختار من والتمس
 السلب العلوي والرفعة فاكسرو بالتمسج والتمسج المذموم والتمسج فاكسرو بالجوهر والمعنون الله تعالى لا انقطاع له
 والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج والتمسج

مقدمة المصنف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي كان في أزل الأزال، موجودًا بوجوده، وذاته كنوز صفاته، وصفاته معادن جوده، تقدّست ذاته بذاته عن الأضداد، وتنزّهت صفاته بصفاته عن الأنداد، قدمه متعالٍ عن الكون والفساد، وأزله مسرمد إلى أبد الآباد، تفرّد بوحْدانيته عن الأماكن والأكوان، وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان، علم في القدم ما بيّن بإرادته من العدم، وأجرى بمقاديره القلم، ورقّم على اللوح المحفوظ ما قضى وقسم، لم يزل متكلمًا بكلامه القديم، وعالمًا بعلمه الأزلي الكريم، فأوجد جوهر البسيط بقوته القديمة، وكلماته الأزلية في فضاء القدرة، وأبدع منه فطرة الخليقة، وأخرج من أديان القدر المقدورات بصنع الألوهية، ولباس العبودية، واصطفى من تلك الجوهرية، وطبيعة الأولية فطرة آدم ﷺ على جميع العالم، وعلمه الأسماء كلّها، وجعله من جميع البرية أصلها، وأخرج من عنصر الأرواح والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية، وخاطبهم بخطابه الأزلي، وكلامه الأبدي؛ ليدعو به عباده إلى خدمته، وشوقهم إلى مشاهدته، واجتبي من بينهم في الأزل روح المصطفى ﷺ بأفضل الدرجات، وأكرم المدائن، واصطفاه المقام المحمود، وكمال الكرم والجود، وخاطبه بأشرف كلامه، وأكرم فرقانه وقرآنه، الذي فيه بيان مكنون أسرار ذاته، وألوان صفاته، وعجائب علومه الغيبية، وغرائب آياته الأزلية، وأرسله إلى كافة البرية؛ ليهديهم به إلى الحق والحقيقة.

ثم أعطى أزمته الظاهرة إلى يد أهل الظاهر من العلماء والحكماء؛ حتى شرعوا في أحكامها وحدودها ورسومها وشرائعها، وجعل خالصة أهل صفوته غيبة أسرار خطابه، ولطائف مكنون آياته، وتجلّى من كلامه، بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وأرواحهم وعقولهم وأسرارهم، وأعلمهم علوم حقائقه، ونوادر دقائقه، وصفى دروج عقولهم بكشوف أنوار جماله، وقدّس فهمهم لثناء جلاله، وجعلها مواضع ودائع خفي رموز خطابه، وما أودع كتابه من غوامض أسرار، ولطيف إشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الآيات، وعرفهم معاني ما أخفاه في القرآن بنفسه حتى عرفوا بتعريفه إياهم، وكحلّهم بنور قربه ووصاله، وأطلعهم على غيبات عرائس الحكم والمعارف والكواشف، ومعاني فهم الفهم، وسر السر الذي ظاهره في القرآن حكم، وفي باطنه إشارة وكشف، الذي استأثره الحق

لأصفيائه، وأكابر أوليائه، وغرباء أحبائه من الصديقين والمقربين، وستر هذه الأسرار والعجائب على غيرهم من علماء الظاهر، وأهل الرسوم الذين هم في حظٍّ وافرٍ من الناسخ والمنسوخ والفقه والعلم، ومعرفة الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

وتلك الصفوة الصادقة الذين فتح الله على قلوبهم من لطائف دقائق كتابه، وما كتم على أسرار غيرهم من سنيّ فضائل مكاشفاته، نطقوا على حسب مقاماتهم بين يدي جبروته، وقدر سيراتهم في ميادين ملكوته بإشارات شافية، وعبارات كافية من قلوب صافية، وعقول راسخة، وأرواح عاشقة، وأسرار مقدسة، وهم في إدراك إشارات القرآن بالتفاوت، كتفاوتهم في درجات المعانيات، والمكاشفات، والحالات، والمداناة، ورؤية المغيّبات، وما لاح لأسرارهم من أنوار الأزليات والأبديات، وما بلغوا فيها نطقوا، وأخبروا قعر بحار القرآن؛ لأنه صفات الرحمن، ولا يدرك جميع حقائقه أهل الحدثان.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ السفير الأعلى، وسيد أهل الآخرة والأولى، وشفيح الورى الذي سافر بيداء الأزال والآباد، ودنا من القدم حتى لم يبق بينه وبين الحق؛ إلا قاب قوسين أو أدنى، عليه التحية الأسنى والبركات الأنمى، وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدجى.

أما بعد ...

فإن أطيّار أسراري لما فرغت من الطيران في المقامات والحالات، وازتفعت من ميادين المجاهدات والمراقبات، ووصلت إلى بساتين المكاشفات والمشاهدات، وجلست على أغصان ورد المداناة، وشربت شراب الوصال، وسكرت برؤية الجمال، ووهت في أنوار الجلال، وصحت من مقام القدس بذوق الأنس، وتلقفت من فلق الغيب شقائق دقائق القرآن، ولطائف حقائق العرفان، فطارت بأجنحة العرفان، وترنّمت بألحان الجنان في أحسن البيان بهذا اللسان في رموز الحق التي أخفاها على فهم أهل الرسوم.

وما تصدّيت لهذا الأمر إلا بعد خاطري بالمعرفة والحكمة الربانية، واقتديت بالصدر الأول من المشايخ الكرام في تفسير حقائق الكلام، ولما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد من خلق الله إلى كماله، وغاية معانيه؛ لأن تحت كل حرفٍ من حروفه بحرًا من أسرار؛ ونهرًا من أنهار الأنوار؛ لأنه وصف القدم.

وكما لا نهاية لذاته، لا نهاية لصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْحَارٍ مَا تَفَدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

[١٩]

وعن أبي جُحيفة، قال: سألت عليًّا عليه السلام وكرّم الله وجهه: هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله شيء من الوحي سوى القرآن! قال: لا فالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدًا فهمًا في كتابه ^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إن القرآن سبعة أحرفٍ لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حرفٍ حدٌّ ومطلع» ^(٢).

وقال جعفر بن محمد: كتاب الله على أربعة أشياء: العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

وقال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- ما من آية إلا ولها أربعة معاني: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع؛ فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحدُّ: هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو: مراد الله من العبد بها.

قيل: القرآن عبارة، وإشارة، ولطائف، وحقائق، فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.

وقال الجنيد: كلام الله على أربعة معاني: ظاهر، وباطن، وحق، وحقيقة.

وقال جعفر الصادق: يقرأ القرآن على تسعة أوجه: الحق، والحقيقة، والتحقيق، والحقائق، والعقود، والعهود، والحدود، وقطع العلائق، وإجلال المعبود.

وقال الجريري: كلام الله متصل بعبد، والعبد متوقع بالمزيد من ربه في كل حال.

وقال جعفر الصادق: أنزل القرآن على سبعة أنواع: على التعريف، والتكليف، والتعطيف، والتشريف، والتأليف، والتخويف، والتكفيف، ثم نزل أمرًا ونهيًا، ووعدًا ووعدًا، ورخصًا وتأسيسًا، وتمحيصًا، ثم نزل داعيًا وراعيًا، وشاهدًا وحافظًا، وشافيًا، ودافعًا، ونافعًا، فتعرّضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات الأبديات التي تقصر عنها أفهام العلماء، وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنةً للأصفياء، وصنّفت في حقائق القرآن كتابًا موجزًا مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لي من حقيقة القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن بألفاظ لطيفة، وعبارة شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولي

(١) رواه أحمد في مسنده (٧١/٢)، والنسائي (٣٧٣/١٤)، والطبراني في «الأوسط» (١١٠/٦).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٧٦/١)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٥٨/٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٣٦/١).

أقوال مشايخي مما عبارتها ألطف، وإشارتها أظرف ببركاتهم، وتركْتُ كثيرًا منها؛ ليكون كتابي أخفَّ محملًا، وأحسن تفصيلًا، واستخرْتُ الله تعالى في ذلك، واستعنتُ به؛ ليكون موافقًا لمراده، ومواظبًا لسنة رسوله ﷺ وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيفٍ، وسمَّيتها: بـ«عرائس البيان في حقائق القرآن».

وما أصبْتُ ذلك؛ فهو بتأييد الله ونصرته، وما أخطأت فيه؛ فهو لازم لي، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك، إنه غفورٌ حلِيمٌ، جوادٌ كريمٌ، رءوفٌ رحيمٌ.

سورة فاتحة الكتاب

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سُمِّيَتِ الفاتحة فاتحة؛ لأنها مفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب؛ ولأنها مفتاح كنوز لطائف الخطاب، بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان؛ لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المشابهات، ويقتبس بسنائها أنوار الآيات.

﴿بِسْمِ﴾: «الباء»: كشف البقاء لأهل الفناء، و«السين»: كشف سناء القدس لأهل الأنس، و«الميم»: كشف الملكوت لأهل النعوت، و«الباء»: برّه للعموم، و«السين»: سرّه للخصوص، و«الميم»: محبته لخصوص الخصوص، و«الباء»: بدء العبودية، و«السين»: سرّ الربوبية، و«الميم»: منه في أزليته على أهل الصفوة.

و«الباء» من بسم أي: ببهائي بقاء أرواح العارفين في بحار العظمة.

و«السين» من بسم أي: بسنائي سمت أسرار السابقين في هواء الهوية.

و«الميم» من بسم أي: بمجدي وردت المواجيد قلوب الواجدين من أنوار المشاهدة.

وروي عن النبي ﷺ: «إن الباء بهاؤه، والسين سناؤه، والميم مجده»^(١).

وقيل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيته، وبتجليه حسنت المحاسن، وباستناره فتحت المفاتيح.

وحكي عن الجنيد أنه قال: إن أهل المعرفة نفوا عن قلوبهم كل شيء سوى الله، فقال:

لهم قولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: بي فتسموا، ودعوا انتسابكم إلى آدم عليه السلام.

وقيل: إن «بِسْمِ» يبقى به كل الخلق، فلو افتتح كتابه باسمه؛ لذابت تحته حقيقة الخلائق، إلا من كان محفوظاً من نبي، أو ولي.

وروى علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: «بسم»: «الباء» بقاؤه،

و«السين» أسماؤه، و«الميم» ملكه، فإيمان المؤمن ذكره ببقائه، وخدمة المريد ذكره بأسمائه، والعارف فناؤه عن المملكة بالمالك لها.

وأما «الله»: فإنه اسم الجمع لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من

صفاته إلا الله؛ فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته لأجل ذلك، وهو اسم الجمع أخبر الحق عن

(١) رواه الطبري في التفسير (١/ ٨٨).

نفسه باسمه الله، فما يعرفه إلا هو، ولا يسمعه إلا هو، ولا يتكلم به إلا هو؛ لأن الألف إشارة إلى الأثانية والوحدانية، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا الحق تعالى.

وفي اسمه «الله» لآمان: الأولى: إشارة إلى الجمال، والثانية: إشارة إلى الجلال، والصفتان لا يعرفها إلا صاحب الصفات، و«الهاء»: إشارة إلى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو، والخلق معزولون عن حقائقه، فيحتجبون بحروفه عن معرفته «بالألف»: تجلّي الحق من أنانيته لقلوب الموحدين، فتوحدوا به، و«باللام الأولى»: تجلّي الحق من أزليته لأرواح العارفين، فانفردوا بانفراده، و«باللام الثانية»: تجلّي الحق من جمال مشاهدته لأسرار المحبين، فغابوا في بحار حبه، و«بالحاء»: تجلّي الحق من هويته لفؤاد المقرّبين، فتأهوا في بيداء التحير من سطوات عظمته.

قال السبلي: ما قال الله أحدٌ سوى الله، فإن كان من قاله بحظّ، وأنّى يدرك الحقائق بالخطوط.

وقال السبلي: الله، فقيل له: لم لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أبقي به ضدّاً.

وقيل في قوله: «الله»: هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، كما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقة، كأن الذات أشد امتناعاً، عجزهم في إظهار اسمه لهم؛ ليعلموا بذلك عجزهم عن درك ذاته.

وقيل في قوله: «الله»: «الألف»: إشارة إلى الوحدانية، و«اللام الأولى»: إشارة إلى نحو الإشارات، و«اللام الثاني»: إشارة إلى نحو المحو في كشف الهاء.

وقيل: الإشارة في «الألف» هي قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خلقه، فلا اتصال له بشيء من خلقه؛ كامتناع «الألف» أن تتصل بشيء من الحروف ابتداءً، بل تتصل الحروف بها على حدّ الاحتياج إليها، واستغنائها عنهم.

وقيل: ليس من أسماء الله اسمٌ يبقى على إسقاط كل حرفٍ منه إلا الله، فإنه الله، فإذا أسقطت منه «الألف» يكون «الله»، فإذا أسقطت أحد لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت الهاء، وهو غاية الإشارة.

وقال بعضهم: «الباء»: باب خزانة الله، و«السين»: سين الرسالة، و«الميم»: مُلك الولاية.

وقال بعضهم: بالله سلّمت قلوب أولياء الله من عذاب الله، وبشفقته تطرّقت أسرار أصفياء الله إلى حضرته، وبرحمته تفرّدت أفئدة خواص عباده معه.

وقال بعضهم: بالله تحيّر قلوب العارفين في علم ذات الله، وبشفقته توصلت علوم

العالمين في صفات الله، وبرحمته أدركت عقول المؤمنين شواهد ما أشهدهم الله من بيان الله. وقيل بإلهيته تفرّدت قلوب عباد الله، وبتعطفه صفت أرواح محبيه، وبرحمته ذُكرت نفوس عابديه.

وقيل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: تزيّاق أُعطي للمؤمنين، يدفع الله به عنهم سمّ الدنيا وضررها. وقال جعفر الصادق: «بسم»: للعامة، و«الله»: لخاص الخاص.

وقال سهل: «الله»: هو اسم الله الأعظم الذي حوى الأسماء والأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرفٌ مكّني غيبٍ من غيب إلى غيبه، وسرٌّ من سرٍّ إلى سرّه، وحقيقةٌ من حقيقة إلى حقيقته، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قواماً لضرورة الإيمان.

وقيل: من قال بالحروف، فإنه لم يقل الله؛ لأنه خارجٌ عن الحروف والحسوس، والأوهام، والأفهام، ولكن رضي متاً بذلك؛ لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وحكي أن أبا الحسن النوري بقي في منزله سبعة أيام لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم، ويقول في ولهةٍ ودهشةٍ: الله الله، وهو قائمٌ يدور؛ فأخبر الجنيد، قال: انظروا محفوظاً عليه أوقاته، فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان له سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما أن نستفيد منه، أو نفيده، فدخل عليه وهو في وْله، فقال: يا أبا الحسن، ما الذي ولهك؟ قال: أقول: الله، الله، زيدوا عليّ؛ فقال له الجنيد: انظر هل قولك الله الله، أم قولك: إن كان كنت القائل الله الله، فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك، وأنت مع نفسك، فما معنى الّوْله؟ قال: نعم المؤدّب كنت، وسكن من وله.

أما قوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ رَجِمَ على أوليائه باسمه الرحمن، بتعريف نفسه لهم؛ حتى عرفوا به أسماء، وصفاته، وجلاله، وجماله، وبه خرجت جميع الكرامات للأبدال والصدّيقين، وبه تهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمقرّبين، وبه تجلّت أنوار المعارف للتأقياء والعارفين؛ لأن اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ مخبرٌ عن خلق الخلق، وكرمه على جميع الخلق، وفي اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ترويحٌ لأرواح الموحدين، ومزيد أفراح العارفين، وتربية أشباح العالمين، وفيه نزهة المحبين، وبهجة الشائقين، وفرحة عاشقين، وأمان المذنبين، ورجاء الخائفين.

وقال بعضهم: اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ حلاوة المنة، ومشاهدة القرية، ومحافظة الحرم.

وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عونُه ونصرته.

وقوله ﴿الرَّحِيمِ﴾: موهبة الخاص لأهل الخاص، وهو مستندٌ لذوي العثرات،

ومسرة لأهل القربات.

﴿الرَّحْمَنُ﴾: مطية السالكين، تسير بهم إلى معدن العناية، و﴿الرَّحِيمُ﴾: جبل الحق للمجدوبين تجذبهم به إلى حجال الوصلة.

باسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أمنهم من العقاب، وباسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أتاهاهم من نفائس الثواب؛ الأول: مفتاح المكاشفة، والآخر: مراقبة المشاهدة.

باسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾: فتح لهم الغيوب، وباسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾: غفر لهم الذنوب. وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾ مودة وعجبة.

وعن جعفر بن محمد في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إنه قال: هو واقع على المريدين والمرادين؛ فاسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾: للمرادين؛ لاستغراقهم في أنوار الحقائق، و﴿الرَّحِيمُ﴾: للمريدين؛ لبقائهم مع أنفسهم، واشتغالهم بالظاهر.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) شكر نفسه للعباد؛ لأنه عليم عجزم عن شكره، وأيضا: أدب الخلق بتقدم حده امتنانه عليهم على حمدهم نفسه. ولسان الحمد ثلاثة: لسان الإنساني، ولسان الروحاني، ولسان الرباني، أما «اللسان الإنساني»: فهو للعوام، وشكره بالتحديث بإنعام الله وإكرامه، مع تصديق القلب بأداء الشكر.

(١) لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الألوهية دون العكس؛ فإن الألوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوي والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال تربيتها، فكما أن تعين الروح قبل تعين ما دونه؛ فكذا تعين الألوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدم الأب على الابن.

والحاصل: إن الألوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الألوهية والربوبية لا تختصان بالألوهية بعض دون بعض، وربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، ويلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجلال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

وأما «اللسانُ الروحانيُّ»: فهو للخواص، وهو ذكر القلب لطائف اصطناع الحق في تربية الأحوال، وتزكية الأفعال.

وأما «اللسان الربانيُّ»: فهو للعارفين، وهو حركة السرِّ، يصدق شكر الحق جلَّ جلاله بعد إدراك لطائف المعارف، وغرائب الكواشف بنعت المشاهدة والغيبة في قربه، واجتناء ثمرة الأنس، وخوض الروح في بحر القدس، وذوق الأسرار مع مباينة الأنوار.

والحامدون في حمدهم لله، بتفاوت لسانهم في مقاماتهم ومقاصدهم، وأهل الإرادة حمدوه بما نالوا من صفاء المعاملات، مقروناً بنور القرب، وأهل المحبة حمدوه بما نالوا من أنوار المكاشفات، مقرونةً بنور صرف الصفات، وأهل المعرفة حمدوه بما نالوا من جمال المشاهدات، ممزوجاً بعلم الربوبية، وأهل التوحيد حمدوه بما نالوا من سناء خصائص الصفات، وجلال قدم الذات، مشوباً بنعت البقاء، وأهل شهود الأزل بنعت الأنس حمدوه بما لاح في قلوبهم من نور القدس، وقدس القدس، وبما أودع الله أرواحهم من أسرار علوم القدم، وما أفرد مواطن أسرارهم من غصن الأبصار في تعرض الحدثنان عند حقائقها، وما خصها بكشف الكشاف، فحمدهم بالبسط والرجاء والانبساط سَطَطُ، وحمدَه في الاصطلام والمحو خرسُ.

كما قال عليه السلام: «لا أحصي ثناءً عليك»^(١) في قبضه عن تحصيل شكر رؤية القدم، فلسان التحميد لأهل التفرقة، ولسان الحمد في رؤية المحمود صفات أهل الجمع.

وقيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ما قضى وقَدَّر بإدراك، على ما هدى وحفظ، وعلى ما أرشدوا، وعلى ما اختاروا.

وقال أبو الوزير الركبي في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: عن الله، قال: لو عَرَفْتَ ذلك عبدي، لما شكرت غيري.

وقال أبو بكر بن أبي طاهر: ما خلق الله شيئاً من خلقه؛ إلا وألهمه الحمد، ثم جعل فاتحة كتابه، وفرضها عليهم في صلاته.

وقال ابن عطاء: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» معناها الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدنا.

وقيل: معنى «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: أنت المحمود جميع صفاتك وأفعالك.

وقيل: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: لا جامد لله إلا الله.

وذكر عن جعفر الصادق في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قال: من حمده، فقال: من حمد

بصفاته كما وصف نفسه فقد حمده؛ لأن الحمد حاء، وميم، ودال؛ «فالحاء» من الوجدانية، و«الميم» من الملك، و«الدال» من الديمومية، فمن عرفه بالوجدانية والديمومية والمُلك؛ فقد عرفه.

وقال رجل بين يدي الجنيد: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، فقال له: أتممها كما قال الله، قل: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فقال له الرجل: وَمَنْ العالمون حتى يذكروا مع الحق؟! فقال: قلْ يا أخي، فإن الحادث إذا قارن بالقديم لا يبقى له أثر.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنه أظهر نفسه عليهم حتى نالوا من بركاتهم ما هداهم إلى معرفته، فربّاهم بها على قدر مذاقهم، فربّي المريدين بشعشة أنواره، ولوائح أسرارهِ، وربّي المحبين بحلاوة مناجاته، ولذة خطابه، وربّي المشتاقين بحسن وصالهِ، وربّي العاشقين بكشف جماله، وربّي العارفين بمشاهدة بقائه، ودوام أنسه، وحقائق انبساطهِ، وربّي الموحدين برؤية الوجدانية والأنيّة في عين الجمع، وجمع الجمع.

وقيل: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُنطقهم بحمده.

وذكر عن ابن عطاء: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُربي أنفس العارفين بنور التوفيق، وقلوب المؤمنين بالصبر والإخلاص، وقلوب المريدين بالصدق والوفاء، وقلوب العارفين بالفكرة والعبرة.

وقال محمد بن عليّ الترمذي: عَلِمَ الله تواتر نعمه على عباده، وغفلتهم عن القيام بشكرهِ، فأوجب عليهم في العبادة التي تكرر عليهم في اليوم والليلة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فيكون ذلك قيامًا لشكرهِ، وألا يغفلوا عنه، فأبوا ذلك.

وقال بعضهم: ذَكَرَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ثم قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»: أعلم أن منه المبتدأ، وإليه المنتهى.

وقال الحارث المحاسبي: إِنَّ الله بدأ بحمد نفسه، فأوجب للمؤمنين تقديم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في أول كل كتاب، وكل خطبة، وكل قولٍ حسن، وهو أحسن ما ابتدأ به المبتدئ، وافتتح مقالته.

وقال بعضهم: من قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ فقد قام بحق العبودية، وشكر النعمة.

وقال بعضهم: ظهر فَضْلُ آدم على الكل، بقوله حين عَطَسَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

وقال الأستاذ: مُرِّي الأشباح بوجود النعم، ومُرِّي الأرواح بشهود الكرم.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: «بالرحمن»: سبقت رحمته غضبه، و«بالرحيم»: حجب كرمه سخطه، و«الرَّحْمَنُ»: اسم القدم، و«الرحيم»: اسم البقاء، و«الرَّحْمَنُ»: اسم الحقيقة، و«الرَّحِيمُ»: اسم الصفة.

وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالإشراف على أسرار أوليائه، والتجلي لأرواح أنبيائه. وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾: خاص الاسم خاص الفعل، و«الرَّحِيمُ»: عام الاسم عام الفعل.

وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالنعمة، و«الرَّحِيمُ﴾ بالعصمة.

وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالتجلي، و«الرَّحِيمُ﴾ بالتدلي.

وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بكشف الأنوار، و«الرَّحِيمُ﴾ بحفظ ودائع الأسرار.

وقيل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بذاته^(١)، و«الرَّحِيمُ﴾ بنعوته وصفاته.

وقال سهل: بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة؛ لأنه رحمن رحيم.

وقال الواسطي: الرحمانية تشوق الروح شوقاً، والإلهية تذوق الحق ذوقاً.

وقال إبراهيم الخواص: من عرفه بأنه الرحمن الرحيم، لزمه معرفته له بالرحمة، الثقة به في حياته ومماته، والعطف بالرحمة على الخلائق أجمع في الدنيا بالعوافي والأرزاق، وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة والغفران.

قال جعفر الصادق: ﴿الرَّحْمَنُ﴾: العاطف على خلقه لسابق المقدور عليهم المراقب

لهم، و«الرَّحِيمُ﴾: المتعطف لهم في أمر المعاش والعوافي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: الرحمة على وجهين: رحمة لطفه، ورحمة

عطفه، فإشارة باسمه الرحمن إلى لطفه، وإشارة باسمه الرحيم إلى عطفه.

وقال الأستاذ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾: خاص الاسم، عام المعنى، و«الرَّحِيمُ﴾: عام الاسم،

خاص المعنى^(٢).

(١) «الرَّحْمَنُ» في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حیطة الاسم الظاهر.

(٢) «الرَّحِيمُ» في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمُّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعاً فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدينا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى

فالرحمن: بما رَوَّح، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما لَوَّح، فالترويح للمباد، والتلويح بالأنوار.
و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بكشف تجليته، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بلطف توليته.
و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بما أولى من الإيوان، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما أسرى من العرفان.
و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بما أعطى من العرفان، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما تولى من الغفران.
و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما مَنَّ به من الرضوان، و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بما يكرم به من الرضوان.
و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما يكرِّم به من الرؤية والعيان، فالرحمن بما يوفِّق، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بما يحقق، فالتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين والمواصلات للواجدين.

و﴿الرَّحْمَنُ﴾ بما يصنع لهم، والرحيم بما يدفع عنهم، والصُّنع يجمع العناية، والدَّفْع بحسن الرعاية، إلى هاهنا كلام الأستاذ.

أما من اختراعي أن: اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾: محل طلوع أنوار العناية، و«الرحيم»: محل إشراق شمس الكفاية، فبالعناية يُهدى أهل العرفان إلى مشاهدة القدم، وبالكفاية تُحفظ حقائق إيمانهم أبدًا لوجه بقاء الديمومية، فبالرحمن تَأَيَّدَهم، وبالرحيم تَرْقِيهم وتُحَفِّظهم، فالأول: للعناية، والآخر: للكفاية، تَعَمَّدَهم بنور الأزلية بين الصفتين؛ حتى يصيروا بالرحمن مشتاقين، وبالرحيم والهي.

وقال حميد: هل يكون من الرحمن لأهل الإيوان، إلا الأمن والأمان، والرؤية والعيان.
وقال سهل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾: على عباده بالمغفرة والرضوان، و«الرحيم»: عليهم بالعوافي والأرزاق.

قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾: في اسم المالك رجاء المُقْبِلين، وتخويف المُهْلِكين، يجازي مقاساة ألم فراق عاشقين بمشاهدته، ونفائس كرامته، ويجازي عموم المحبِّين بكشف جماله وجلاله، ويجازي المعاملة الصادقين، بإدخالهم في جنانه، وإسكانهم في جواره.
وقال ابن عطاء: يجازى يوم الحساب كل صنفٍ بمقصودهم وهمتهم، ويجازى العارفين

القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهرة؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القلب، فيكون القلب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

بالقرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم، ويجازي أرباب المعاملات بالحسنات.

وقيل: مالك يوم الكشف والأشهاد؛ ليجازي كل نفس بما تسعى.

وقال الأستاذ: مالك نفوس العابدين، فصرّفها في خدمته، ومالك قلوب العارفين، فشرّفها، ومالك نفوس القاصدين، فيتمّها، ومالك قلوب الواجدين، فهيّمها، ومالك أشباح من عبّده، فلاطفها بنواله وأفضاله، ومالك أرواح من أحبّه، فكاشفها بنعت جلاله ووصف جماله، ومالك زمام أرباب التوحيد، فصرّفهم حيث شاء كما شاء، ووفّقهم حيث شاء كما شاء على ما يشاء كما شاء لم تكلّمهم إليهم لحظة، ولا ملكهم من أمرهم سيئة، ولا خطرة أفناهم له عنهم^(١).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإياك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إياك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العناية، بنعت العصمة عن القطيعة.

وأيضًا: إياك نعبد بالمراقبة، وإياك نستعين بكشف المشاهدة.

وأيضًا: إياك نعبد بعلم اليقين، وإياك نستعين بحق اليقين.

وأيضًا: وإياك نعبد بالغيبة، وإياك نستعين بالرؤية.

وقيل: إياك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإياك نستعين على ثبات هذا الحال بك

ولا بنا.

وقيل: إياك نعبد بالعلم، وإياك نستعين بالمعرفة.

وقيل: إياك نعبد بأمرك، وإياك نستعين علينا بفضلك.

قال سهل: إياك نعبد بهدايتك، وإياك نستعين بكلاءتك على عبادك.

قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرغبة، والحياء، والمحبة فأفضلها

(١) وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهو جارية في الدارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيها، فظهر إن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نفس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من لحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

المحبة التي تليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة.

وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قوة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم^(١).

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: اهدنا مرادك منا؛ لأن الطريق المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته.

وأيضاً أرشدنا إلى ما أنت عليه.

وأيضاً اهدنا إنابتك حتى نتَّصف بصفاتك.

وأيضاً اهدنا إلى معرفتك، حتى نستريح من معاملتنا بنسيم أنسك، وحقائق حسنك.

وقيل: معنى اهدنا أي: ملِّ بقلوبنا إليك، وأقمْ بهمنا بين يديك، وكن دليلنا منك إليك حتى لا تقطع عمَّا لك بك.

وقيل أي: أرشدنا طريق المعرفة؛ حتى نستقيم معك بخدمتك.

وقيل أي: أرنا طريق الشكر فنفرح، ونطرب بقربك.

وقيل: اهدنا بفناء أوصاف الطريق إلى أوصافك التي لم تزل ولا تزال.

وقيل: اهدنا هدى العيان بعد البيان؛ لنستقيم لك على حسب إرادتك.

وقيل: اهدنا هدى من يكون منك مبدأه؛ حتى يكون إليك منتهاه.

وقيل: اهدنا الصراط المستقيم على الصراط بالغيوبه؛ لئلا يكون مربوطاً بالصراط.

قال الجنيد: إن القوم لما سألوا الهداية عن الحيرة التي وردت عليهم عن إلهاد صفاته الأزلية، فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية؛ كيلا يستغرقوا في رؤية صفات الأزلية.

قال بعضهم: إليك قصدنا، فقوِّمنا.

وقيل: اهدنا بالقوة والتمكين.

وقال الحسين أي: اهدنا طريق المحبة لك، والسعي إليك.

قال الشبلي: اهدنا صراط الأولياء والأصفياء.

وقال بعضهم: أرشدنا الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

وقيل: أرشدنا في الدنيا إلى الطاعات، وبلغنا في الآخرة الدرجات.

(١) أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضاً كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده.

وقال الأستاذ^(١): أي أزل عنا ظلمات أحوالنا؛ لنستضيء بأنوار قدسك عن التضيؤ لظلال طلبنا، وارفح عنا ظل جهدنا؛ لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك.
قال الحسين: اهدنا إلى طاعتك، كما أرشدتنا إلى علم توحيدك.
قال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - اهدنا أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، والمنهج القويم .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٢)
قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة، وحسن الأدب في الخدمة.

وأيضاً «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطلاّعهم على مكائد النفس والشیطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال، وبسعادة الهداية إلى القرية بعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدّيقين، والمقربون والعارفون، والأمناء والنجباء .

قال أبو عثمان: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: بأن عرّفهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان، وجناية النفس .

وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة.
وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك.
وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة.
وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالرضا بقضائك، وقدرك.
وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء.
وقال حميد: فيما قضيته من المضار والمसार .
وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالإقبال عليك، والفهم عنك.
ويقال: طريق من أفنيتهم عنهم طاقتهم بك؛ حتى لم يقفوا في الطريق، ولم [.....].
عنك خفايا المكر.

وقيل: صراط من أنعمت عليهم؛ حتى يُجسّسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، وخبايل الظنون.
ويقال: من طهّرتهم من آثارهم؛ حتى وصلوا إليك بك.

(١) في تفسيره (٧/١).

ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر إليك، والاستعانة بك، والتبرّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيها قضيته من المسار والمضار.

ويقال: أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة. وقيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدّبوا بالخُلوة عند غليات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيء من أمر الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

وقيل: صراط من أنعمت عليهم؛ بل حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرع. وقيل: صراط من أنعمت عليهم؛ حتى لم تطفئ شمس معارفهم، أنوار ورعهم، ولم يضيفوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية. وقال أبو عثمان: الذين غضبت عليهم وخذلتهم، ولم تحفظ قلوبهم؛ حتى تهوّدوا وتنصّروا.

وقال الأستاذ: الذين صدّمتهم هوازم الخذلان، وأدركتهم مصائب الحرمان. قال أبو العباس الدينوري: وكَلَّتْهم إلى حولهم وقوتهم، وعَرَّيَتْهم من حولك وقوتك. وقيل: هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، وشُغِلُوا في الحلال، باجتلاب الحظوظ، وهو في التحقيق مكرٌ، ومحسوبون أنهم على شيء، وللحق في شقاوتهم سرٌّ، ولا الضّالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصاريף الأقدار.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعني: المفلسين عن نفائس المعرفة. وأيضاً غير المغضوب عليهم بالمكر والاستدراج، ولا الضّالين عن أنوار السبل والمنهاج.

وأيضاً غير المغضوب عليهم بالحجاب، ولا الضّالين عن رؤية المآب. وأيضاً غير المغضوب عليهم بالانفصال، ولا الضّالين عن الوصال. وقال ابن عطاء: غير المخذولين والمطرودين والمهانين، الذين ضلُّوا عن الطريق الحق. وقيل: غير المغضوب عليهم في طريق الهلكى، ولا الضّالين عن طريق الهدى لاتباع الهوى^(١).

(١) هم الذين استعانوا بغير الله، ولَمَّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدّمه عليه، وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنها يتم منه إذا لم

وأما في قوله: ﴿آمين﴾ أي: استدعاء العارفين مزيد القربة مع استقامة المعرفة من رب العالمين، والافتقار إلى الله بنعت الأنظار؛ لاقتباس الأنوار. وأيضاً قاصدين إلى الله بمراتب النوعية والرهبة. وقال ابن عطاء أي: كذلك فافعل، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. وقال جعفر: ﴿آمين﴾: قاصدين نحوك، وأنت أعزُّ من أن تحيِّب قاصداً.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾

﴿الْم﴾^(١) معناه: أن «الألف»: إشارة إلى وحدانية الذات، و«اللام»: إشارة إلى أزلية الصفات، و«الميم»: إشارة إلى ملكه في إظهار الآيات. «بالألف»: أخبر عن فردانية الذات، و«باللام»: أخبر عن سرمدية الصفات،

يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

(١) أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيَّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعيينات؛ كتعيَّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لما خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحاني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط، فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها متمتجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخرج جزئية.

و«بالميم»: أخبر عن سلطانيته في إظهار الآيات.

و«الألف»: سرُّ الذات، و«اللام»: سرُّ الصفات، و«الميم»: سرُّ القدم في ظهور الآيات. أما «سرُّ الذات»: فلا ينكشف إلا بوحداية الذات، و«سر الصفات»: لا ينكشف إلا لمن اتخذ صفاته بالصفات، و«سرُّ القدم»: لا ينكشف إلا لمن خرج من الآيات.

تجَلَّى بالألف لأرواح الأنبياء من سرِّ ذاته، فأفتاها عن البشريات، وكساها من أنوار الذات، فخصائصهم في ذلك إظهار المعجزات، وتَجَلَّى باللام لقلوب العارفين عن سرِّ صفاته، فأفناها عن الكدورات، وألبسها من سناء الصفات، فكرامتهم في ذلك، إظهار الشطحيات، وتَجَلَّى بالميم لعقول الأولياء من سرِّ قدمه، فأفناها عن الشهوات، وأنوارها صفاء القدرة بوسائط الآيات، فشرّفهم في ذلك، إظهار الكرامات.

وقال جعفر الصادق: ﴿المر﴾: رمز وإشارة بينه، وبين حبيبه ﷺ أراد ألا يطلع عليه أحد سواهما، أخرج به بحروف بعيدة عن درك الأغيار، وفهم السرّ بينهما لا غير.

وقال بعضهم: إن الله خصَّ حبيبه ﷺ بهذه الأحرف، والمتقي الذي وصفه الله تعالى: هو الذي عُزل عن الأكوان والحدثان؛ تَوَرَّعا عن إغواء الشيطان، وتَحَلُّفاً بخلق الرحمن.

وقال أبو يزيد: المتقي من إذا قال، قال: الله، وإذا عمل، عمل الله.

وقال الداراني: الذين نُزِع من قلوبهم حب الشهوات.

وقيل: المتقي من اتقى رؤية تقواه، ولم يستند إلى تقواه، ولم ير نجاته؛ إلا بفضل مولاه.

وقال سهل: إذا كان هو الهادي، فَمَنْ يَضِلُّ في ذلك الطريق؛ إلا من سلكه على التجارب لا على العارف، فيضدّه عن مقصده بشؤم تدييره، ويهلكه ولو في آخر القدم.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الأبصار، منكشفاً بنعت الأنوار لعيون

الأسرار.

و«الإيمان بالغيب»: هو تفرُّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى،

و«الإيمان

بالغيب»: شوق القلب إلى لقاء الرب.

وأيضاً «الإيمان»: تصديق السر ما أبصرت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت

مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرِّ السر، واتصاله بروقة بطنان القلب، وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكل.

وأيضاً «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»:

هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم

لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وترائي الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة، فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحارى الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قدس الحق، بنعت بروزه في لباس حقّ اليقين، وحقيقة حقّ اليقين لا تحصل بالتحقيق؛ إلا بعد انسلاخ السرّ عن الاستشهاد والاستدلال.

فإذا فرغَ منها أوصله التأييد إلى مراتب الكشوف، وإيضاح الفرقان، وأورده لصدق تحقيق رؤية الغيب، ساحات استبصار عيون النفوس، واستغنائه بما أنس من عجائب جلال المشهود من سيرانه في عالم الشواهد.

وإذا عاين مكشوفات الغيب ببصر العرفان، دخل في جوف إيواء عزّ الحق، وإغناء الحق بلوائح البيان عن طلب المشاهدة، بالفكر في الحدثان.

وتطلّع له شمس أسرار أنوار القدم، وتخلّصه بجمالها عن اقتباس مصابيح البراهين. وإذا برق السرّ بهذه المعاني، أشرق له حق الغيب بأوصافه، فصار السرّ والغيب متحدّين، ويكون السرّ غيباً بعينه، والغيب سرّاً بعينه، فيغيّب السرّ في الغيب، والغيب في السرّ.

وتحصيل هذا العلم أن: الغيب يصير أهلاً للسرّ، لا يحوي فوه عنه أبداً، وصاحبه في كل حال شاهد المشاهدة يرى في جميع الأنفاس عالم الملكوت، وعالم الجبروت، وهذه صفة قلب محمد ﷺ.

وقال الشبلي: لما صفت أرواحهم، وأشرفت همومهم، أشرفوا على أسرار الغيب بعظم أمانيتهم.

وقال بعضهم: الذين تُصدّق نفوسهم أرواحهم؛ بما أدّت إليهم من خير ما شاهدته قلوبهم، بما غيّب عن نفوسهم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠١﴾
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١٠٢ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا
 ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠٤ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا
 ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ١٠٥ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
 وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٠٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتِ

تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٦٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾

وقال أبو بكر بن طاهر: أشار الحق إلى إخلاص عباده المخلصين؛ بأنهم بذلوا لمحبتهم قلوبهم بالإيمان بالغيب، وبذلوا له نفوسهم بالخدمة والعبودية، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وبذلوا له ما ملكهم، فلم يبخلوا عليه بشيء من ذلك، علماً بأنها عوار في أيديهم، وهو تعالى المالك لها ولهم على الحقيقة، بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .
بأنها أسباب الوصول الحق كلاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: رعونة تشغلها قبول الحق، وتلهيها بقبول الخلق.

وأيضاً أي: غفلة عن ذكر العقبي، وهمة مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذكره.

وقيل: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: بخلوها من العصمة والتوفيق والرعاية.
وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيء عمي عن غيبه، فزادهم الله مرضاً؛ بأن حسن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.
وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرض لا يداوى إلا بالجوع والتقطع.

وقال أيضاً: «مرض»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغفلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تنكروا أولياء الله، ولا تشوشوا قلوب المريدين، بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق.
وأيضاً لا تخربوا مزارع الإيمان في قلوبكم، بالركون إلى الدنيا ولذاتها.

أما قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: فأوقعهم الله في شر الاستدراج، وحببهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوئهم المحاسن، فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا في ترك نصيحة العلماء، ومصادفة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وقيل: ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾: بعصيان الناصحين لهم، ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لأنهم محبوبون عن طرق الإنابة والهداية.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يهديهم إليه.

وأيضاً يُريهم الأعمال، ويُحَرِّم عليهم الأحوال.

وقيل: يُحَسِّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾: لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة

الأحوال، ولم ينالوا عزة معاني القربة، آثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس وبلعام وبرصيصا، وأمثالهم من أهل الخداع.

وقال ابن عطاء: القناعة بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿فَمَا رَیَحْتَ تَحَرُّثَهُمْ﴾: ما ریح من يُبدِّل بي سواي.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: في سابق علمي فلاجل ذلك مالوا عني.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: هذا مثل من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا

بالتحقيق، يعمل عمل الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضاً مثل من استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاعت ظواهره

بالصيت والقبول، فأفشى الله نفاقه بين الخلق؛ حتى يدوه في أخس السخرية، ولا يجد مناصاً من فضيحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الوراق: هذا مثل ضربه الله لمن لم تصح له أحوال الإرادة، فارتقى من

تلك الأحوال بالدعاء إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية لو صحَّحها

بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبقي في ظلمات دعاويه، لا يُبصر طريق الخروج منها.

وقال الواسطي: آمنوا بالغيب، ولما عاينوا الحق في القيامة، علموا حقيقة أن ما آمنوا به

بعيدٌ مما شاهدوا.

وقال بعضهم: الله غيب، وهو مغيب الغيب، والقلب غيب، فإذا آمن الغيب بالغيب،

رُفِعَ الحجاب عن الغيب، فوجد في غيب الغيب صاحب الغيب، وذلك قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قال بعضهم: الذين يؤمنون بالغيب في الغيب للغيب.

وقال الأستاذ: حقيقة الإييان التصديق، ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوفيق،

فالتصديق بالعقد، والتحقيق ببذل الجهد في حفظ العهد.

وفرسان أهل الغيب خمس طوائف: النفوس، والأرواح، والعقول، والقلوب،

والأسرار، ومشاربهم متفاوتة: فمشربٌ صرفٌ بلا مزاج، ومشربٌ عذبٌ بلا أجاج، ومشربٌ

ملحٌ، ومشربٌ ريئٌ، ومشربٌ سائقٌ، ومشربٌ زنجبيل المحبة، ومشربٌ سلسبيل المعرفة،

ومشرب تسنيم المشاهدة، ومشرب عين المكاشفة، وقائد التوفيق يقود طائفة السعادة إلى مناهل القربة، وسائق الخذلان يسوق طائفة الشقاوة إلى موارد الشهود، وموارد النفوس التي تَرُدُّها هي أسنّ المنى، وأحسن الهوى، ومناهل الشهوات، سواحل نهر الغفلات، ومشارب الأرواح التي تَرُدُّها هي سواقي المشاهدات والمكاشفات، وعيون القلوب التي تَرُدُّها هي صفاء المعاملات، وأنوار المناجاة، والأنهار التي تردّها العقول هي مشاهدة الربوبية، وإدراك نور القربة من مرآة الآيات، والينابيع التي تردّها الأسرار هي عجائب كشوف جمال القدم، وشهودها مشهد التوحيد، وحقائق حق الربوبية، ومطالع شمس الصفات، ومشارق أقيار أنوار الذات، فالزهاد أصحاب العقول، ومشربهم الطاعات والعبادات، والمحجوبون هم أصحاب القلوب، ومشربهم الوجود والحالات، والعارفون هم أصحاب الأرواح، ومشربهم المراقبات والأنس والخُلُوات، والموحدون هم أصحاب الأسرار، ومشربهم التفرد عن الأكوان، والتجرد عن الحدثن، والبطّالون هم أصحاب النفوس، ومشربهم الدعاوى والأباطيل، والترهات والمزخرفات.

وقيل: «الغيب»: هو الله تعالى .

وقال بعض العارفين: «الغيب»: هو مشاهدة الكلّ بعين الحق.

وقال أبو يزيد: لا يؤمن بالغيب، من لم يكن معه سراج من الغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: يراقبون أوقات الصلاة؛ لاستنشاق نفحات الصفات، وإقامة الصلاة حفظ آداب العبودية في جناب الربوبية، بنعت الافتقار إلى مشاهدة الملك الجبار؛ لأن في الصلاة قرّة عيون العارفين، ومناجاة المحبّين، ومشاهدة الحق للشائقين.

وقال ابن عطاء: إقامة الصلاة حفظ حدودها، مع حفظ السرّ مع الله ألا يختلج بسرّه

سواه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يطلبون قرب الرزاق بخروجهم عن الأرزاق.

وأيضاً يتقربون إليه بها نالوا منه.

وأيضاً يتخلّقون بخلقه في الإكرام والإعطاء.

وأيضاً يتحدّثون بها وجدوا من أنوار الكواشف، وكرائم المعارف عند السالكين

الصادقين.

وقيل: في الإمساك للذة، وفي الإنفاق للذة، وكلّ ما يُلتذّ به فهو بعيد من عين الحق.

وقيل: يُنفقون مما خصصناهم به من أنوار المعرفة، يفيضون بركاتها ونورها على من

تبعهم.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾ أي: أولئك على حقيقة يقين، متصلة بأنوار المعرفة، أن الله تعالى بلا معارضة النفس، ورب الشيطان، مفلحون من مكائدهما ووساوسهما. وأيضا مفلحون من الله بالله.

وقيل: أولئك الذين لزموا طريق المفاصلة بالانفصال عما سوى الحق ما فلقوا فانقطع الحجب عن قلوبهم فشاهدوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠٧﴾ أي: إن الذين احتجبوا عنا بحفظ البشريات سواء عندهم إنذارك بقطيعتنا عنهم، وتخويفك بعقوبتنا عليهم؛ لأنهم في مهمة الغفلة عن مباشرة المعرفة، لا يقرون باللقاء والمشاهدة؛ لاستغراقهم في بحار الشهوة.

وقيل: إن الذين ضلُّوا عن رؤية مني عليهم في الشبق سواء عندهم من شاهد الأعواض في خدمتي، ومن شاهد المعوض لا تخلص سرائرهم، ولا يثبت لهم الإيمان الغيبي، وإنما إيمانهم على العبادات.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ما نظر إليها منذ خلقها، فحرَّم عليها أنوار ذكره، ومواصلة إلهامه.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: على سمعهم وقر الضلال، فلم يسمعوا حقائق الخطاب، ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي: على أبصارهم غطاء القصر، فلم يبصروا بها طراوة صفة الصانع في الصنع، ولم يتفرسوا بالبصائر ما كشف الله لأهل الإيمان من ملكوت السماوات والأرض.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : عذابهم بعدهم عن قرب مولاهم حتى لم يدركوا بركات كراماته.

وقيل: أهل البصر نظروا من الله إلى الأشياء، فشاهدوها في أسرار القدرة، وأهل النظر استدلوا بالأشياء على الله، فحجبهم عقولهم، واستدلالاتهم عن بلوغ كنه المعرفة بالله. قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «طبع الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرا، وآمنوا علانية».

قال جعفر الصادق: الختم على وجوه: منهم من ختم على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختم على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد، فكل واقف مع ذلك الختم.

وقال سهل: أسبل عليهم ستر شقاوة، فصموا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره^(١).
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هؤلاء
أهل الدعاوى الذين يزئنون ظواهرهم بشعار المخلصين، ويخربون بواطنهم بسوء أخلاق
المنافقين، كلامهم كلام الصديقين، وأفعالهم أفعال المكذبين.

وقيل: إن الناس اسم جنس، واسم الجنس لا تخاطب به الأولياء.
وقال بعضهم: ليس الإيمان ما يتزين العبيد قولاً وفعلاً، لكن الإيمان جزي السعادة في
سابق الأزل، وأما ظهورها على الهياكل، فربما يكون عوارض، وربما يكون حقائق.
﴿تَحَدَّ عُونََ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يخادعون أولياء الله من حيث إقرار الإيمان
بالقلوب، وإخفاء التدهان في النفوس، ﴿وَمَا تَحَدَّ عُونََ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ حين لا يعلمون
تفرس أهل الولاية، فيفتضحون عندهم، وأما خدعهم مع أهل الإيمان، من حيث الظواهر
قولاً وفعلاً، ودسائسهم في البواطن حقداً وبعداً.
وأيضاً يخادعون الله بالفرار، والذين آمنوا بالإقرار.

وقال بعض العراقيين: الخداع والمكر تنبيه من جهة شهود السعيات، والالتفات إلى
الطاعات؛ كي لا يُعتقد فيها بأنها أسباب الوصول للحق كل.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: رعونة تشغلها بقبول الحق، وتلهيها بقبول الخلق.
وأيضاً أي: غفلة عن ذكر العقبي، وهمة مشغولة بحب الدنيا، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾
بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذكره.

وقيل: في قلوبهم مرض، بخلوها من العصمة والتوفيق والرعاية.
وقال بعضهم: يميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيء،
عمى عن غيبه، فزادهم الله مرضاً؛ بأن حسن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.
وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرض لا يداوى إلا

(١) وفسر ابن عطية الختم بثلاثة أوجه: الأول: أنه حسي حقيقة، فإن القلب على هيئة الكف ينقبض مع
زيادة الضلال كما ينقبض الكف إصبعاً، إصبعاً.

الثاني: أنه مجاز عبارة عن خلق الضلال في قلوبهم وأن ما خلق الله في قلوبهم من الكفر والضلال
والإعراض عن الإيمان سمّاه ختماً.

الثالث: أنه مجاز في الإسناد كما يقال: أهلك المال فلانا وإنما أهلكه سوء تصرفه فيه.

قال ابن عرفة: وسكت ابن عطية عن هذا الثالث وهو إنما يناسب مذهب المعتزلة ولما جاءت الآية
مصادمة لمذهبهم تأولوها الزخشري وأطال وقال: إنه مجاز واستعارة.

بالجوع والتقطع .

وقال أيضًا «مرضٌ»: بقلّة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغفلة عنها وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدّى .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تنكروا أولياء الله، ولا تُشوشوا قلوب المريدين بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق. وأيضًا لا تخربوا مزارع الإيمان في قلوبكم، بالركون إلى الدنيا ولذاتها.

أمّا قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: فأوقعهم الله في شر الاستدراج، وحجّبهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوئهم المحاسن، فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويحسبون أنهم يُحسِنون صنعا في ترك نصيحة العلماء، ومصادفة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقيل: هم المفسدون بعصيان الناصحين لهم، ولكن لا يشعرون؛ لأنهم محجوبون عن طريق الإنابة والهداية.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يهديهم إليه، وأيضًا يُريهم الأعمال، ويُجرّم عليهم الأحوال، وقيل: يُحسّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾: لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة الأحوال، ولم ينالوا عزة معاني القرية، أثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة، حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس، وبلعام، وبرصيصا وأمثالهم من أهل الخداع. وقال ابن عطاء: القناعة بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿فَمَا رَیَحْتَ تَحْرِتُهُمْ﴾: ما ربح من يُبدّل بي سواي .

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: في سابق علمي، فلأجل ذلك مالوا عني.

﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي آسَتْوَ قَدْ نَارًا﴾: هذا مثل من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا بالتحقيق، يعمل عمل الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال. وأيضًا مثل من استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاعت ظواهره بالصيت والقبول، فأفشى الله نفاقه بين الخلق حتى يبدوه في أحسن السخرية، ولا يجد مناصًا من فضيحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الوراق: هذا مثل ضربة الله لمن لم تصح له أحوال الإرادة، فارتقى من تلك الأحوال بالدعوى إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية، لو صحّحها

بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبقي في ظلمات دعاويه لا يُبصر طريق الخروج منها .

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءِ أَذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَنُفِرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: صَمَّتْ أَسْمَاعُ أَرْوَاحِهِمْ عَنْ أَصْوَاتِ الْوَصْلَةِ، وَحَقَائِقِ إِلْهَامِ الْقُرْبَةِ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا الْحَقُّ عَنْ صِفَاتِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، بَكْمٌ عَنْ تَعْرِيفِ عِلَلِ بَوَاطِنِهِمْ عِنْدَ أَطْبَاءِ الْقُلُوبِ عَجَبًا وَنِفَاقًا، عُمِّي عَنْ رُؤْيَا خَاتَمَتِهِمُ الَّتِي خَتَمَ لَهُمُ الْحَرَمَانَ وَالشَّقَاءَ، وَأَيْضًا عُمِّي عَنْ رُؤْيَا أَنْوَارِ جَمَالِ الْحَقِّ فِي سَاءِ أَوْلِيَائِهِ، وَحَسَنِ أَفْعَالِهِ فِي آيَاتِهِ.

وقال بعضهم: «صُمٌّ»: لَا يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ، «بَكْمٌ»: لَا يَتَكَلَّمُونَ بِالْإِيمَانِ، عُمِّي لَا يَرُونَ دَلَائِلَ الرَّحْمَنِ.

وقيل: صَمَّتْ أَذَانُ قُلُوبِهِمْ، وَخَرِسَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنِ الذِّكْرِ، وَعَمِيتْ أَعْيُنُ صُدُورِهِمْ عَنِ الْاِعْتِبَارِ.

وقال الجنيد: صَمُّوا عَنْ فَهْمِ مَا سَمِعُوا، وَبَكَمُوا عَنْ عِبَادَةِ مَا عَرَفُوا، وَعَمُوا عَنِ الْبَصِيرَةِ فِيمَا إِلَيْهِ دَعَاوَاهُمْ.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: إِذَا وَجَدُوا مِنْ طَاعَتِهِمْ

حلاوة وعوضًا عاجلاً، فشرعوا فيها، وإذا أحتبس عليهم طريق الكرامات، فتركوا جميع الطاعات .

قال الحسين: إذا أضاءهم مرادهم من الدنيا والدين ألفوه، وإذا أظلم عليهم من خلافٍ بعقولهم قاموا بمجهولين.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعِبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: شَرَّفُوا أَنْفُسَكُمْ بعبادة ربكم.

وأيضاً اشكروا نعمة معرفتي بعبادتي، وقيل: وَحُدُوا رَبَّكُمْ.

وقال جعفر الصادق: بَيَّنَّا رَبوبيته، ثم اعبدوه على حد الهيبة والإجلال، وعاینوا أول تربيَّتكم؛ لتعلموا خصوصيته إِيَّاكم من بين سائر خلقه.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: أشار بهذا إلى ترك المرتع والمنظر، ما دامت الأرض لغرماء الحق، ولعمَّار السماء غطاءً.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾: يَبَيِّنُ للعباد أمر رزقهم، أنه ليس من عند غير الله، حتى يشتغلوا عن عبادة ربه باهتمام الرزق.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: فلا تجعلوا لله شريكاً في طلب رزقكم منه بعبادة ربكم، ولا تبيعوا عبادة الله بهال الدنيا.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إن الله تعالى رازقكم وخالقكم، أي: لا تكونوا مُرائين، وللطاعة بائعين، وللدنيا قبوها مُشترين.

قال سهل أي: لا تجعلوا لله أضداداً، وأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ﴾: إن لأهل المعرفة جَنَّاتٍ العبودية، وجنة الربوبية، وجنة المعرفة، وجنة المحبة، وجنة القربة، وجنة المشاهدة، وجنة المداناة، وجنة الوصلة، وجنة التوحيد، وجنة البقاء، وجنة البسط، وجنة الرجاء، وجنة الانبساط، وجنة السكر، وجنة الصحو، وجنة الملكوت، وجنة المكاشفة، وجنة الحقيقة، وجنة العلم، ولكل جنةٍ منها نهرٌ تجري من تحتها، فجنة العبودية الكرامات، ونهرها حقائق الحكمة، وجنة الربوبية مشاهدة صرف القدرة، ونهرها رؤية تجلِّي الحق في مرآة الآيات، وجنة المعرفة إدراك نواذر الألوهية، ونهرها صفاء الإخلاص، وجنة المحبة مشاهدة الآلاء، ونهرها الرضا بمراد المحبوب، وجنة القربة مباشرة أنوار الصفة، ونهرها خاصية المحبة، وجنة المشاهدة الدهشة في جمال الحق، ونهرها لطائف الإشارة، وجنة المداناة، والاستئناس برؤية الوصال، والتبرُّي من الحداث، ونهرها كشف

غرائب تجلّي الصفات، وجنة الوصلة اللذة في العشق، ونهرها المحبة، وجنة التوحيد التلبّس باللباس الربانيّ، ونهرها الانسلاخ عن اللباس الإنسانيّ، وجنة البقاء التمكين، ونهرها السكينة، وجنة البسط الفرج بالمشاهدة، ونهرها الطمأنينة، وجنة الرجاء الشوق ونهرها الأنس، وجنة الانبساط الاتحاد، ونهرها الفريدة والحكم في الحضرة، وجنة السكر حلاوة الفناء، ونهرها صفاء عيش الروح في المشاهدة، وجنة الصحو المعجزات وتقلّب الأعيان، ونهرها العلم اللدني، وجنة الملكوت رؤية تصاوير أشخاص الأرواح، ونهرها مزيد اليقين، وجنة المكاشفة المراقبة بنعت وجدان صفاء المعرفة، ونهرها أسرار الفراسات، وجنة الحقيقة وجدان الروح في مقام الجمع والفرقة، ونهرها التلوين والتمكين، وجنة علم المجهول الراحة في الشطحيات، ونهرها غوص الروح في بحر الحقيقة^(١).

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾: أهل جنات الرّصلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح، جميعها يدّل بعضهم بعضاً، ويحصل لهم من نور الكبرياء، ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدَم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات.

وأيضاً إذا تمكّن أهل المشاهدة في الجنة غذاء، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيّر بتغيّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية آخره في الألوهية، وآخره في الصمدية أوّله في الأزلية.

وقال السري في قوله: ﴿وَنَشِيرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أخلص سرّه، وعبادته لي.

﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى﴾ أي: نورٌ في أسرارهم وقلوبهم، في الدنيا يستريحون إليه للتوكل والاكتفاء، ونورٌ في الآخرة، بدخولهم الجنان، ومجاورتهم الرحمن.

(١) وقال سيدي إساعيل حقي: أي يحصل لهم جنات القربة معجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم القلبية الصالحة والروحانية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص والهدى والقناعة والعفة والمروءة والفتوة والمجاهدة والمكابدة والشوق والدوق والرغبة والرهبّة والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم والسخاوة والشجاعة والعلم والمعرفة والعزة والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية وغيرها من المقامات والأخلاق تجري من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطفة والفضل.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسمعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حق من ربهم؛ لأنهم صادقوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجدّوا صرفاً صدقاً، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الذين لم يبلغوا مقام المشاهدة، وقفوا في بحر الأشكال، ولم يهتدوا بضرب الأمثال.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾: القرآن بحر عجائب الربوبية، وأخبار غرائب أسرار صفة القدسية، فمن كحلّه الله بكحل نور الحقيقة، يرى بعين السرّ عرائس مشاهدات الصفات ويعشق بها، ويبقى في طلب مزيد حقيقة علومها، ويندرج بمهجته تحت أحكامها برسم العبودية، ومتابعة المخاطبة، ومن أعمى الله قلبه عن مشاهدة تجلّي كتابه، يضل في طريق النكرة، ويغرق في بحر الضلالة.

وقيل: بين العبد وبين الله بحران: بحر الهلاك وبحر النجاة، وقد يهلك في بحر النجاة خلق كثير، كما قال: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾: الإشارة فيه إلى حال أهل الفترة الذين سلكوا طريق أهل القصد، ثم رجعوا إلى ما عليه عادة العوام من الرخص والتأويل، فمن هذا شأنه، فقد زاغ عن محجة المشاهدة، وتحير في أودية الغفلة، وتهميم في سراب فقدان محبوباً عن مشاهدة الرحمن.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أي: كنتم أمواتاً في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم.

وأيضاً كنتم أمواتاً في غطاء الغفلة، فأحياكم بروح المعرفة.

وقال الشبلي: وكنتم أمواتاً عنه، فأحياكم به .

وقال ابن عطاء: كنتم أمواتاً بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجعون عند تحيُّركم عن إدراكه صرف الذات والصفات عن شواهد المعرفة في طلب الحقيقة .

قال فارس: كنتم أمواتاً بشواهدكم، فأحياكم بشواهدة، ثم يُميتكم عن مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجعون عن جميع ما لكم وكنتم له .

وقال الواسطي: وَبَحَّهْم بهذا غاية التويخ؛ لأن الموات والجهاد لا ينازع صانعه في شيء، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ : لا اعتباركم وامتحانكم، حتى يُميز بين الصادق بتركها لوصوله إلى خالقها، وبين المدَّعي بسكونه إليها عن مدبرها .

وأيضاً خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ لتطلبوا في الأشياء خالق الأشياء؛ لأنه أظهر نفسه في مرآة الكون للعارفين والمحبتين .

قال ابن عطاء: ليكون الكون كله لك، وتكون لله، فلا تشتغل بما لك عمن أنت له .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ١٠٠ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

وقال بعض البغداديين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ : أنعم عليكم بها، فإن الخلق عبدة النعم؛ لاستيلاء النعمة عليهم، فمن ظهر للحضرة أسقط عنه بالمنعم رؤية النعم .

وقال أبو الحسين النوري: أعلى مقامات أهل الحقائق، الانقطاع عن العلائق .

وقال ابن عطاء: أحكم التدبير فيهن ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: كما زين ملكوت الأرض بأنوار القدرة للمؤمنين، قصد إلى تزيين ملكوت السماء بهاء العزة للعارفين .

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ١٠١ : لما لم يعرفوا الله تعالى بحق المعرفة، وعجزوا عن

(١) جعل آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضبة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللب، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم .

إدراك الحقيقة، وانصرفوا عن باب الربوبية من هجوم إجلال سَطَوَات العزة عليهم، فأحاطهم الحق جلّ وعزّ إلى آدم باقتباس العلم والأدب في الخدمة؛ حتى يُوصِّلهم بعلم الصفات إلى ما لم ينالوا بالعبادات؛ لأنهم عبدوا الله بالجهل، ولم يعرفوه حق معرفته، وهو عَرَفَ الله بحقيقة العلم الذي علَّمه من العلوم الدلنية، لا جرم أنه أستاذهم في علم المعرفة، وإن سبقوا منه بالعبادة.

وأيضًا لم يرى في الكون محبًا صافيًا كما يريد، فجعل آدم؛ لأجل المحبة؛ لأنه خلق الملائكة؛ لأجل العبادة، فعرفهم عند المشورة مع الملائكة خلّوهم من المحبة؛ بشغلهم عنه بالعبادة.

وأيضًا أراد الملائكة أن يروا الله تعالى، فعلم الحق ضعفهم عن النظر إليه، فجعل آدم لهم حتى يرونه؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وصوّره بصورته، ووضع فيه مرآة روحه، إذا نظروا فيها تجلّى لهم الحق تعالى.

وأيضًا ليس في العالم شاهدٌ جميل يُحبّه الحق، فخلّق بيده، وألبسه صفةً من صفاته، وأحبّه بصفاته؛ لأجل صفاته.

وأيضًا أراد الحق أن يُظهر لهم نفسه في حقائق الصنع، فانصرفوا من الحق إلى الخلق.

وقيل: عصوا الله تعالى باعتراض الحق في مذمة آدم، ومدّح أنفسهم لما قالوا: ﴿أَجْعَلْ

فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ لأن الله تعالى سمّى آدم خليفةً في بدأ الخطاب، والخليفة لا يحيف ولا يجور، فجعلوا من وصفه الله تعالى بخلافته، وعلّمه بخصائص محبته، ومدّحه بالخلافة، وهم عيروه بالفسق والجهالة من سوء الظن، وقلة الأدب، فكشف الله تعالى نقاب القدس عن وجه آدم، وأنور بجياله العالم، فخرجوا من دعواهم، واعترفوا بجهلهم، فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ تحرّكوا من حيث الأعمال، وشأن آدم من حيث

الأحوال برؤية الفعل عن مشاهدة الاصطفائية التي سبقت بنعت الحسن لآدم.

وأيضًا تعرّضوا بنعت المعبودية عند سراق العظمة منه على الربوبية، فأسقطهم الله

عن مقام حقيقة المعرفة، وأحوجهم باقتباس علم أحوالهم عن آدم.

قال بعضهم: لما شاهدوا أفعالهم وافتخروا بها، ردّ الله تعالى وجوههم عنه إلى آدم،

وأمرهم بالسجود له؛ إعلامًا أن العبادة لا تَرِنُ عنده شيئًا.

وقال بعضهم: من استكبر بعلمه، واستكبر بطاعته كان الجهل وطنه؛ ألا تراهم لما

قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ألجأهم إلى أن قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

قال الواسطي: من قال أنا، فقد نازع القدرة.

قالت الملائكة: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وذلك لبُعدهم من المعارف، وهم أرباب الافتخار والاعتراض على الربوبية، بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وقال ابن عطاء: أن الملائكة جعلوا دعاويهم وسيلة إلى الله، فأمر الله النار، فأحرق منهم في ساعة واحدة ألوفاً، فأقروا بالعجز وقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال جعفر: لما باهوا بأعمالهم، وتسيبهم وتقديسهم، ضربهم كلهم بالجهل حتى قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال بعض العراقيين: شروط الخلافة رؤية بداية الأشياء فصلاً ووصلاً، إذ لا فصل، ولا وصل لم ينفصل منه شيء، وأي وصل للحدث والقدم.

وقال بعضهم: عَيَّرُوا آدَمَ واستصغروه، ولم يعرفوا خصائص الصنع به، وأظهر عليه صفات القدم، فصار الخضوع له قرينة إلى الحق، والاستكبار عليه بعداً من الحق.

وقال أبو عثمان المغربي: ما بلاء الخلق إلا بالدعاوى.

ألا ترى الملائكة لما قالوا: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كيف رُدُّوا إلى الجهل حتى قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: علَّمَهُ أَسْمَاءَ الصِّفَاتِ الْخَاصَةِ الَّتِي عَرَفَ بِهَا حَقَائِقَ جَمِيعِ الصِّفَاتِ، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات.

وأيضاً علَّمَهُ أَسْمَاءَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي هِيَ مَدَارِجُ الْحَالَاتِ.

وقال الجريري: علَّمَهُ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ الْمَخْزُونَةِ، فعَلَّمَ بِهِ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ.

وقال ابن عطاء: لو لم يكشف لآدم عِلْمَ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ؛ لَكَانَ أَعْجَزَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهَا.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٠٠ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠١ قَالَ يَتَفَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ١٠٢ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٠٣ وَقُلْنَا يَتَفَادَمُ أَتَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٥﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّا عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾

وقيل: غلب علمه على علم الملائكة؛ لقوة مشاهدة الخطاب من غير واسطة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: ألبس الملائكة لباس العبودية، فأعجبوا بعبادتهم، وألبس آدم لباس الرؤية، ورقم عليه طراز صفاته، وعرضه على الملائكة، فأروه ملتبسا بلباس الحق، فحجلوا عن تعجبهم بعبادتهم، فأمرهم الله بسجود آدم تغييراً لهم، وتعليماً أن عبادتهم لا تزيد بالربوبية، ولا تنقص عن الألوهية.

وأيضاً لما خلقه بخلقه، وصوره بصورته، وألبسه أنواره، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأجلسه على سرير مملكته، فأسجد له ملائكته؛ حتى أكمل له في العبودية صفات الربوبية، فلما سجد الملائكة لآدم، فأبى إبليس عن السجود؛ لأن الملائكة رأوا فيه سر الله تعالى، وعليه لباس الله مصبوغاً بصبغ الله، ولم ير إبليس ما كشف لهم، فأبى واستكبر من غضب الله عليه، وكان من الكافرين، أي: في سابق علمه من المطرودين.

وقال ابن عطاء: لما استعظموا تسييحهم وتقديسهم، أمرهم بالسجود لغيرهم، يريهم به استغناؤه عنهم وعن عبادتهم.

قال الحسن بن منصور: لما قيل لإبليس اسجد لآدم خاطب الحق فقال: ارفع شرف السجود عن سري إلا لك في السجود، حتى أسجد له إن كنت أمرتني فقد نهيتني، فقال له:

(١) قوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلّ فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، كأنه قال لهم: وهل سبّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجليات التي أتملأها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجليات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادّعائهم الإلهية، فقالت بعد العلم: ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

فإني أعذبك عذاب الأبدي ، فقال: أولست تراني في عذابك لي ، قال: بلى ، فقال: فرؤيتك لي تحمّلني على رؤية العذاب ، افعل بي ما شئت ، فقال: أجعلك رجيمًا ، قال إبليس: أوليس لم يحامد سوى غيرك ، افعل بي ما شئت .

﴿يَتَعَادَمَ أَتَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي: اسكن في جوارى من قطيعتي ، وإن تصيبك خطيئة ، فإن في عصيانك في دار العصمة عذر عصاة أولادك من أهل التوحيد في دار المحنة ، واشتياقك إلى نعيمي بعد هجرانك من جوارى ، وبلوغك بعد فئائك في القدم إلى لقائي .

وأيضًا أوصاه بالتمكين عند خداع إبليس ومكره؛ حتى لا يزول قدمه عن مقام التمكين بمقالة العين .

وأيضًا أراد الله أن يعصبا فوكلهما إلى أنفسهما ، وعزلهما عن القربة بإدخالهما في الجنة؛ لأن آدم وحواء طفلا الزمان ، لا يستقران في جبروت الرحمن ، فأجأهما إلى أكل ثمار أشجار الجنان لإفراد القديم عن الحداث؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ . وقال القاسم: السكون في الجنة وَحْشَةٌ من الحق ، وأنه ردّ المخلوق إلى المخلوق ، وهو ردّ النقص إلى النقص ؛ لامتناع الأزل عن الحوادث .

وقال بعضهم: ردّهما في السكون إلى أنفسهما ووكّلهما إليها ، فقال: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ، وفي دعاء المخلوق إلى المخلوق ، إظهار العلل بمعونات الطبع .

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ : أخفى الله تعالى في الشجر أسرار الربوبية لآدم وحواء ، ومنعهما عن قُرْبَاهَا ؛ حتى لا يُشَوِّشَ عليهما عيش الإنسانية ، ولكن هيّجهما بمنعهما عن قرب الشجرة إلى طلب تناولها ، فلمّا قَرِبا الشجرة ، كسا الشجرة أنوار القدس ، وتجلّى الحق سبحانه لهما من الشجرة ، كما تجلّى من شجرة موسى لموسى ، فعشقا الشجرة ووقعوا فيها ، ونسيا ذكر النهي عن قُرْبَاهَا .

قال ابن عطاء: نهى عن جنس الشجرة ، فظنّ آدم أن النهي عن المشار إليه ، فتناول على حد النسيان ، وترك المحافظة لا على التعمّد والمخالفة^(١) .

(١) قال الشيخ نجم الدين -قدس سره-: إن آدم خاطبه مولاه خطاب الابتلاء والامتحان والنهي نهى تعزّز ودلال كأنه قال يا آدم أبحث لك الجنة وما فيها إلا هذه الشجرة فإن الإنسان حريص على ما منع فسكنت نفس آدم على حواء وإلى الجنة وما فيها إلا إلى الشجرة المنهي عنها لأنها كانت مشتبهى القلب ، وكان للنفس فيها حظ ولا يزال يزداد توقّنه إليها فيقصدها حتى تناول منها فطر سر الخلافة والمجبة المحنة والتحقّق بمظاهر الجمال والجلال كالتواب والغفور والعفو والقهار والستار . والحاصل أنه لما =

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝﴾ .

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من المجاورين عن حد العقل إلى حد العشق.

وقال بعضهم: معناه أنه نهاهما عن قرب الشجرة، وقضى عليهما ما قضى؛ لنزها عجزهما، وإن العصمة هي التي تقومهما، لا جهدهما وطاقتهما.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ : الإشارة فيه أن المريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحد، وربما يقع بكلام أهل الخداع في هاوية الهلاك، والمريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكل من يدعوه إلى شيء من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد.

وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المريد عن درجة الحرمة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: مشهد إسباحكم في ملكوت الأرض، ومستقر أرواحكم في ملكوت الحضرة.

﴿وَمَتَّعُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ : «متاعهم» : أنوار تحلي الحق يترادف على قلوبهم؛ ليعيشوا به تسلية عن فقدان المشاهدة.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِن رَّبِّهِ ۖ كَلِمَاتٍ﴾ : «الكلمات» : ما اعتذر الله آدم من إنفاذ قضائه وقدره عليه، فتلقى آدم من ربه تلك الكلمات، فاعتذر بها من الله لخطيئته.

وقيل: هي ربنا ظلمنا أنفسنا.

وقال جعفر بن محمد: قال آدم يا رب ما خدعت إلا بك.

﴿يَبْنَیٰ إِسْرَءِیْلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ يٰبْنَیٰ﴾ أي: اذكروا معونتي في طاعتكم وهدايتي قبل مجاهدتكم، وما كشف لكم من أسرار معرفتي؛ حتى لا تغتروا بمعاملتكم.

﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ .

وقال بعضهم: ربط بني إسرائيل بذكر النعمة، وأسقط عن أمة محمد ﷺ ذلك، فدعاهم

علم الله تعالى أنه يأكل من الشجرة ناه ليكون أكله عصيانًا يوجب توبة وحجة وطهارة من تلوث الذنب كما قال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فأورثه ذلك النهي عن أكل الشجرة عصيانًا بسبب النسيان ثم توبة بسبب العصيان ثم حجة بسبب التوبة ثم طهارة بسبب المحبة. تفسير حقي (١/١٢٨).

إلى ذكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ ليكون نظر الأمة من النعمة إلى المنعم، ونظرت أمة محمد ﷺ من المنعم إلى النعمة .

وقال سهل بن عبد الله: أراد الله أن يخص أمة محمد ﷺ بزيادة على الأمم، كما خص نبيهم ﷺ بزيادة على الأنبياء .

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١٠٦)
فقال للخليل: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقطع سر محمد ﷺ، ورؤيته عما سواه .

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُُونَ﴾^(١٠٧) وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾^(١٠٨) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾^(١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(١١٠) * أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَحْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١١١) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١١٢) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١١٣) يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١١٤) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١١٥) وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١١٦) وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١١٧) وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١١٨) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١١٩) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٢٠) .

ألم تر إلى ربك قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أوفوا بما نقشت في قلوبكم من حقائق إلهامي وخطابي في جميع الأحوال بامتنال أمري، أوفِ بكشف جمالي لكم حين احتجبتكم عن وصالي وقربي .

وأيضاً أوفوا بما أعطيتكم من استعداد معرفتي وعبارة موقع نظري، أوفِ بأن أطلعكم على خرائن سري، وحقائق علمي في سواتر غيبي .

وقال بعض البغداديين: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ ، الذي عهدتم يعني: في الميثاق الأول

بلفظ بلى، فلا ترجعوا في طلب الشيء إلى غيري.

وقيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: أحفظوا ودائعي عندكم لا تظهروها إلا عند أهلها، أوف بعهدكم، وأبشركم مفاتيح خزائن برِّي، وأنزل لكم منازل الأصفياء.

وقال أبو عثمان: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: في التوكل، أوف بعهدكم بكفاية مهماتكم.

وقال أبو سعيد القرشي: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ في حفظ آداب الظاهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم.

وقال بعض العراقيين: أوفوا بعهدي في العبادات، أوف بعهدكم، وأوصلكم إلى منازل الرعايات.

وسئل أبو عمرو البكندي عن قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، فقال وفاء العهد الأمانة، وهو: ألا يخالف سريرتك علانيتك؛ لأن القلب أمانة، والوفاء بالأمانة الإخلاص في العمل، فمن لم يخلص لا يُقيم له يوم القيامة وزناً.

﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾: هذا خطابُ الخاص من الخاص إلى الخاص، أمرهم بإجلال نفسه بخصائص التعظيم مع لب اليقين، خوفاً منه به لا عنه، فإنه جلّ وعزّ خوفهم بنفسه لا عن نفسه. وقال سهل بن عبد الله: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾: موضع اليقين ومعرفته، ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ موضع العلم السابق، وموضع المكر والاستدراج.

قوله: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أي: بي اتقوا منِّي، وبداية التقوى التبرّي من الناسوت للآهوت، ومن الكون للمكوّن؛ حتى بلغ حقيقة التقوى، فاتقى منه به له فرجا الله، وخاف منه.

وقال بعضهم: التقوى على أربعة أوجه: «العامة»: تقوى الشرك، و«للخاص»: ترك المعاصي، و«للعارفين»: تقوى التوسّل، و«لأهل الصفوة»: تقواهم منه وإليه. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: التقوى النظر إلى الكون بعين النقص.

﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: تَحْلُطُوا الكشف بالخيال، والفهم بالوهم، والفراصة بالحسّ، والإلهام بالوسواس، واليقين بالشك، والعبودية بالربوبية، والحقيقة بالرسم، والإخلاص بالرياء، والكرامات بالمكر.

وقال سهل: لا تَحْلُطُوا أمر الدنيا، بأمر الآخرة.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: استعينوا بالصبر في طلب المقامات، والصلاة في طلب المشاهدات، أيضاً استعينوا بالصبر في تركية الأشباح، وبالصلاة في تربية الأرواح.

وقال ابن عطاء: استعينوا على البلوغ إلى ذك الحقائق .

وقال أبو عثمان: استعينوا بهم على رعاية أوقاتكم .

وقال بعض العراقيين: استعينوا بالصبر عن دون الله، والصلاة بالوقوف بحسن الأدب مع الله .

﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: لأن في صوم الرجال إمساكًا عما سوى الله، وفي صلاة أهل الكمال عذوبة القلب من طلب مناجاة الرب، ولا يستعملها إلا من خشع نفسه في العبودية، وعشق قلبه بالربوبية .

وأيضًا أمرهم بالعبودية، وأرشدهم إلى جميع العبادات، وهي الصوم والصلاة، وأضاف تساهلها إلى أهل الخشوع؛ لأنها الكبيرة على العاشقين .

وقال أبو عثمان: لَمَنْ خَشِعَ قَلْبَهُ وَرُوحَهُ، وَسَتَرَهُ بَوَارِدُ الْهَيْبَةِ، وَطَوَالَعُ الْإِجْلَالِ .

وقال بعضهم: لَمَنْ آيَدٍ فِي الْأَرْضِ تَخْصِيصُ الْاجْتِبَاءِ .

وقال ابن عطاء: إنها لكبيرة إلا على من تحقق إيمانه، وخشع سره لعظمته، واحترقت أحشائه خوفًا من قطيعتي .

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾: وصفهم بالظن؛ لأنهم ليسوا من أهل المكاشفة الذين رأوا ربهم بقلوبهم في غيبه، فتوافقت بدايتهم نهايتهم .

وقيل: من وَحَّدَ الله بأفعاله وطاعته، كان توحيده على الظن؛ ألا تراه يقول: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالْصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: لو حَقَّقُوا التوحيد، كانت صلواتهم وخشوعهم عليهم زَيْنًا، فلما ركنوا إلى أفعالهم، كان توحيدهم ظَنًّا، وطاعتهم عليهم شَيْئًا .

قال بعضهم: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾: يَتَّقُونَ، وَإِنَّمَا أَقَامَ الظَّنَّ مَقَامَ اليقين؛ لأن في الظن طرفًا من اليقين، وإنما ذكر الظن إبقاءً على المذنبين، وسرًا على العاصين الذين ليس لهم صفاء اليقين، ولو ذكر اليقين صَرَفًا، لخرجوا من الجملة .

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: أراد الله تعالى أن يقْدُسَ موسى من العادة والطبيعة ورسم البشرية، بصفاء الخُلُوة، ونيران الجوع؛ لتهيئاً له استعداد تحمل أنوار المشاهدة والخطاب، فصار سنةً لأوليائه من طلاب المعرفة والمشاهدة، تلك الأربعين .

وأيضًا أراد أن يربِّيه في كَنَفِ قُرْبِهِ؛ حتى يقدر أن يسمع كلامه القديم؛ لأن تحمُّل الحقائق لا يكون لأحد، حتى يستقيم في الواردات والصادرات من التجلي والتدلي .

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾^(١) أي: آثرتُم تمثال الشيطان على

مشاهدة الرحمن.

وأيضاً جهلْتُم صنع الخالق مِن صُنْع المخلوق.

وقيل: فيه عجل كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده هواه، فقد برّي من

ظلمه.

﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: فارجعوا عن رؤية مواهبه إلى معرفة

نفسه، واقتلوا أنفسكم بسيف همومكم؛ حتى لا يزاكم في قُربه بربكم.

وأيضاً توبوا من رؤية توبتكم عليكم، واقتلوا أنفسكم بمعرفتكم برؤية توبة ربكم

عليها، حتى توصلكم معرفتها ومخالفتها إلى معرفة ربكم.

«التوبة» هاهنا: محو أصول الخيال عند مبادئ المكاشفات، وقتل النفس عند وجدان

المشاهدات، قرباناً من البريات لصفات الأزليات.

وأيضاً فاقتلوا أنفسكم بالمجاهدات بعد معرفة النفوس بعين التكرة على حقيقة

المعرفة، حتى توصلكم إلى عين الجمع، وصرف الاتحاد بلا رسومات البشرية.

وقيل: فاقتلوا أنفسكم في طاعته، ثم توبوا إليه من أفعالكم وأقوالكم وطاعتكم.

قال ابن منصور: «التوبة»: محو البشرية بإثبات الإلهية، وقتل النفس عما دون الله تعالى،

وعن الله حتى ترجع إلى أصل القديم، ويبقى الحق كما لم يزل.

وقيل: إذا كان أول قدم في العبودية التوبة، وهو إتلاف النفس وقتلها، بترك الشهوات

وقطعها عن الملاذ، فكيف الوصول إلى شيء من منازل الصديقين، وفي أول قدم منها، تلف

المهج.

وقيل: توبوا إلى باريكم أي: ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم، واقتلوا أنفسكم

بالتبري منها؛ فإنها لا تصلح لبساط الأنس.

وقال ابن منصور: ما شرع الحق إليه طريقاً؛ إلا وأوائله التلف.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتَوْبُوا

(١) إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا فَتَنَّاهُ بِهَا﴾ [طه: ٩٠]:

أي بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذ سامري الهوى، مع أنه لا بدّ من ذبحه كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى

الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى

الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ آلِهَةً جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٠٥﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾ .

قال الله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: فما دام يصحبك تمييز وعقل، فأنت في عين الجهل؛ حتى يضل عقلك، ويذهب خاطرك، وتفقد نسبتك إذ ذاك عسى ولعل.

وقال الواسطي: كانت توبة بني إسرائيل إفناء أنفسهم، ولهذه الأمة أشد، وهو إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء رسوم الهياكل.

وقال الفارسي: «التوبة»: محو البشرية؛ لإثبات الإلهية.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

وقيل: ألقوا عن أنفسهم كل شيء، لا يقربكم إلى الله تعالى.

أي: طلبتم رؤيتي ومطالعتي؛ بتقليد موسى، وليس لكم مقام المشاهدة، فلما برز لكم ذرة من أنوار ذاتي، فنتيم فيها واحترقتم؛ لأنكم في البداية، وموسى في النهاية.

وأيضا أفنتكم في سطوات عظمتي، وأبقيتكم بأنوار جمالي وجلالي، بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾.

وقال بعض البغداديين: من طالع الذات بغير الحرمة انمحق، ومن طالعها بالحرمة أولى عليه صفات الجبروت والعظمة؛ ليستغيث من ذلك بلسان العجز، سبحانه ثبت إليك.

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾: ظللهم بغيمة القدرة،

وأنزل منها على قلوبهم وابل المعرفة، وأطعمة الحكمة.

وأيضاً لما فرّقهم في تيه الغربة، حلّلهم بأودية الكرامة، وأنزل عليهم مائدة الحضرة بلا كلفة الاكتساب، وكذّ المعاملات.

وقال الأستاذ: لما طوّحهم في شابه الغربة، لم يرض إلا بأن ظلّهم، ولبسة الكفايات جلّلهم، وعن تكلف التكبّب أغناهم، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولّاهم^(١).

قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَهُمْ﴾: لأرواح الخاص مشارب المعارف في بحار الذات والصفات، يعرف كل واحد منها موردها من الحق سبحانه تعالى، ومشربها بالتفاوت، فبعضها في مقام الخيرة، وبعضها في مقام المنة، وبعضها في مقام الوصلة، وبعضها في مقام الفناء، وبعضها في مقام البقاء، وبعضها في مقام الجلال والجمال، وبعضها في صرف الجبروت، وبعضها في عالم الملكوت، وبعضها في مشاهدة القدس، وبعضها في رياض الأنس على حد مقاماتها، وتفاوت سيرها.

﴿عَلَيْهِمْ يُتَابُ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وقيل فيه: شرب كل أحد حيث أنزله رائده، فمن كان رائده نفسه، فمشربه الدنيا، ومن كان رائده قلبه، فمشربه الآخرة، ومن كان رائده سرّه، فمشربه في الحضرة على المشاهدة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طهرهم به عن كلّ ما سواه.

وأيضاً أبلّاهم الله بالنعمة، كما أبلّاهم بالنقمة.

وأيضاً لما عصوا الله تعالى، أخذ عنهم لذة ذلك الطعام، ولم يصبروا على فقد اللذة.

وأيضاً من لم يشكر الله في نعمائه غيرها عليه؛ حتى لم يصبر على بلائه.

وقيل: الناس فيه رجلان: رجل أزيل عنه تدبيره، فهو مستريح في ميادين الرضا راض بأحكام القضاء فيه ساء أو سرّ، فهو في الزيادة أبداً، وآخر ردّ إلى تدبيره واختياره، فلا يزال يتخبّط في تدبيره واختياره إلى أن يهلك.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ

(١) وقال أيضاً: وأنزلنا عليهم المنّ والسّلوى عما نفى عنهم تعب الجوع والجهد والسعي والكد، وفجّرنا لهم العيون عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين؛ ولكن ليست العبرة بأفعال الخلق ولا بأعمالهم إنما المدار على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيها يمضي عليهم من فنون أحوالهم.

الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقَتَابِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ
أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّاتِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ
الَّذِينَ آعَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَلًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخَبُوا
بَقْرَةً ۚ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا
تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْثُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ
فَاقْعُ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ ۚ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْفَن جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذْخَبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا ۚ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا
كَذَٰلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يُتَفَجَّرُ مِنْهُ ۖ أَلَأَنْتُمْ أَنْ تَهْتَكُوا
لِمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ * أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ
مُحَرِّفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا ۚ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا
يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ

بأيديهم ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
 أَيْدِيهِمْ وَيَوْمَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠٥﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُكُمْ
 عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدُهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٦﴾ بَلَى مَنْ
 كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠٧﴾
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠٨﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
 وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
 إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٠٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا
 تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَنْمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: لم يصبروا على كل طعام
 الروحانيين؛ لأنهم أهل الطباع.

قوله: ﴿أَتُتَبَدَّلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أتعبدون طعام
 أهل القربة؛ بطعام أهل الشهوة.

وقيل معناه: أتعارضون حسن اختياري لكم في الأزل، بمخالفة السؤال والدعاء، وما
 يبذل القول لدي.

وقال الواسطي: في هذه الآية ما يتولاه من المَن والسلوى من غير كلفة لهم، فتبع القوم
 شهوة نفوسهم، وما يليق بطباعهم، لما رجع إلى الغناء والضَّر عند ذكرهم.

﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾: ضرب الله عليهم ذلَّة الطغيان قبل وجود
 الأكوان، وقهرهم بلطمة المسكنة في تعبد الشيطان.

وأيضاً ألبس الله قلوبهم حب الدنيا فقراً وسُخْطاً، وألبس سرائرهم بُغْض الآخرة
 خوفاً ومقتاً. وقيل: الذِّلَّة والشَّح والمَسْكَنَة والحِرْص.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخَبُوا بَقَرَةً﴾: «البقرة» هي: النفس الطاغية الأتارة بالسوء
 المهيجَة السجيّة المدمومة التي تثبت الطباع في مزارع الهوى، أمرهم بقتلها عن الحياة الفانية؛
 حتى وصلوا إلى الحياة الباقية، وأدركوا بمخالفتها درجة إحياء الموتى، ومطالعة الغيوب،
 وفتْرُس القلوب.

﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: نفس ليست بذات صَبُوة في الفتور،

ولا بذات عزّة في النفور، ولكنها ذات شوكَة وصولة في شباب الغفلة والشهوة.

﴿صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ أي: تخرج بزيّ المعبودية رياءً وسمعةً، وهو لباسٌ واحد ظاهره سلامة، وباطنه خيانة، خدعت به الناظرين من الجاهلين، وبلسان الواجدين ألبست كسوة القهر بنعت الجمع، فإذا ظهرت من عين الجمع، تجلّى الحقّ منها، وجوّد بصفة الخاص التي لا يدخل فيها رسم الربوبية من القهريات واللطفيات، فأبصرت عيون الناظرين من أهل الجمع تلك الصفة، فسرت أسرارهم، وتبيّجت أنوارهم، فبين الأسرار والأنوار فنوا من النظر إلى الأغيار.

﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: ليست بمذلّة في عبوديتي، ولا عامرة أرض القلب التي هي مزرعة محبّتي، ولا ساقية بذر المحبة في شريعة العقل، وهي محلّ قرار قُربتي ﴿مُسَلِّمَةٌ﴾ أي: فارغة عن العبادات، وهي عنها بمعزل أبدية عن الحكومات، لا رغبة لها في مناجدتي، ولا رهبة لها عن معاقبتي؛ لأنها خلقت من الضلالة وهي آيسة من الهداية.

﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا سمة عليها لأحد؛ لأنها لا تألف الحقّ أبدًا.

وقال بعضهم: لا يصلح لكرامتي، وإظهار ولايتي عليه؛ إلا من يذلل نفسه بالسكون إلى شيء من الأكوان، ولم يسع في طلب الحوادث بحالٍ مسلمة من فنون عوارض الخلاف لا شية فيها، لا أثر عليه لأحد بالسكون إليه والاعتماد عليه، فهو القائم بي والناظر إليّ، والمعتمد عليّ أظهرت عليه آيات قدرتي، وجعلته أحد شواهد عزّي، فمن شاهد استغرق في مشاهدته؛ لأنه قد ألبس رداء العزّ وأنشد على إثره:

هذه إذاً فانظري الدنيا بعيني واسمعي بإذني فيها وانطقي بلساني

﴿فَقُلْنَا أَصْغَرُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: فهم من الآية أن الله تعالى أعلمهم أنّ في قتل النفس إحياء القلب، وفي حياة القلب حياة الروح، وإذا صفت الروح بصفاء حياة القلب عن كدورات النفس، تُحيي جميع الأموات بأنفاسها وآثارها، كما أحيى عيسى الموتى؛ لأنه صافٍ بصفاتها من صفات النفس، فظهرت منه الآيات والمعجزات.

وقيل فيه: إن الله أمر بقتل حيٍّ ليحيي ميتهم، أعلمك بذلك إنه لا يحيي قلبك لأنوار المعرفة؛ ولا لفهم الخطاب، إلا بعد أن تقتل نفسك بالاجتهاد والرياضات، فيبقى جسمك هيكلًا لا صفة له من صفاته، ولا يؤثر عليك بقاء صورتك فيحيي قلبك، وتكون نفسك رسمًا لا حقيقة لها، وقلبك حقيقة ليس عليه شيء من المرسومات.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي: من عبدني لأجل الجزاء والعوض، وسكن بالعطاء عن المعطي، وأحاطت به رؤية أفعاله وأعواضه، أولئك أصحاب البعد، لم ينالوا قرب وصالي، وحقيقة جهالي.

وقيل: بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً برؤية أفعاله، وأحاطت به خطيئته بظنه أن أفعاله وأعماله تنجيّه وتقربه، فهُمْ الْمُبْعَدُونَ عني بما تقربوا به إليّ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الذين شاهدوا الله برسم الأرواح في فضاء الأزليات، وخرجوا من الكائنات تهذيباً للأشباح؛ حتى دخلوا حِجَالِ الأبديات، أولئك أصحاب القُرْبَات، ومشاهدات الصفات، وَسَبَّحَاتِ جِمالِ الذات.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَبْهَتُونَ عَلَيْهِم بِآلَائِهِم وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْسِكُوهُمْ وَهِيَ الْفِتْنَةُ وَهُمْ يُكْرَمُونَ﴾ أي: ثم أنتم هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَبْهَتُونَ عَلَيْهِم بِآلَائِهِم وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْسِكُوهُمْ وَهِيَ الْفِتْنَةُ وَهُمْ يُكْرَمُونَ أفتؤمنون ببعض الكتب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴿٢٠٥﴾

وقيل: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: أيقنوا أن النجاة في سعادة الأزل، وأنه ليس في الطاعات إلا إتباع الأمر، وأنفوا من صالح أعمالهم لعلهم بقصورها عن حقيقة تعبده، أولئك هم الواصلون إلى الرضوان الأكبر.

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ تُمْسِكُوهُمْ أُسْرَىٰ﴾ أي: أن يأتوكم أسارى الشوق، وسكارى العشق ترحتموهم بأصوات شجية، وأقوال مرفقة، تفادوهم برؤية الصفات، وتشغلونهم عن رؤية الآيات.

وأيضاً إن يأتوكم أسارى تنكره «تفادوهم» بشواهد المعرفة.

وأيضاً إن يأتوكم من غيوبات القلوب، تفادوهم برؤية أنوار الغيوب.

وقال أبو عثمان: وإن يأتوكم غرقى في بحر الذنوب، تُدِلُّوهم على طريق التوبة.

وقال الواسطي: إن غرَّتْهم رؤية أفعالهم، تُنْقِذوهم من ذلك برؤية المَن.

وقال الجنيد: وإن يأتوكم أسارى في أسباب الدنيا، تُنْقِذوهم إلى قطع العلائق

والأسباب، فإن الحق أبى أن يتجلى بقلب متعلق بسبب.

وقال بعض البغداديين: وإن يأتوكم أسارى في صفاتهم ونعوتهم تفادوهم أي: تحلُّوا

عنهم وثاق صفاتهم بصفات الحق ونعوته، قوله تعالى حاكياً عنهم، قالوا: قلوبنا غُلْفٌ أي:

مسدودة بعوارض البشريات، محجوبة عن فهم الآيات والمعجزات.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا مُحْضِفٌ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨١) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٢) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٣) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٤) بِسْمَاِ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٨٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٦) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٨٧) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَاِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ ءِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٨) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٩) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٠) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩١) ﴿

وأيضاً قلوبنا في فرج أصابع القهريات، محجوبة عن لطائف الأزليات.

وقيل: حُرِّمَ قسم السعادة بها في الأزل.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾؛ لأنهم محجوبون عن مشاهدة الآخرة،

ومكاشفة الحضرة لغطاء الغفلة والشهوة.

وقال محمد بن الفضل: لعلهم بما قدموا من الآثام والخلاف، وهذا حال الكفار،

فوجب على المؤمن أن يكون حاله ضد هذا مشتاقاً إلى الموت؛ بمكاشفة الغيوب، ورفع

حجاب الوحشة، والوصول إلى محل الأنس؛ ألا ترى أن النبي ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله

أَحَبُّ إِلَهِهِ لِقَاءَهُ» (١). وَإِنْ بَلَالًا لَمَّا حَضَرَ قَالَتْ أَمْرَاتُهُ: وَاحْزَنَاهُ، فَقَالَ: بَلِّ وَاطْرِبَاهُ بِلِقَاءِ الْأَحَبَّةِ. ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٤) أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦) وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا خُنْ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٧) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٨) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشُّرَكِيِّ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠) مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١) ﴿

وقال الواسطي: جعل الموت يقظة للعالم، فمن حجبها به حُجب عن الميت، ومتى يكون في قلبك هية الميت، إذا هبت طوارق الموت.

﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ أي: ما نسخت من صفاتك شيئاً عن ديوان معناني، وهو قليل إلا رقمت فيه من صفاتي، وما رأيتك شيئاً من عجائب علمي، إلا أراك ما هو أشرف منه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْحَارٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].
 وقيل: ما نُقِلَّكَ من حالةٍ إلَّا نُوصَلَّكَ إلى مقامٍ أشرف منها وأعلى، إلى أن تنتهي بك
 الأحوال إلى محلِّ التداني والخطاب من غير واسطة، بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ
 عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُوبِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُلِ
 الْكَافِرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٨) وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ
 مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
 وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٠)
 وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا
 بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
 عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٢)﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: من بذل مُهَجَّتَهُ لله إلَّا لما من الله، وهو
 محسنٌ بلا رؤية المعاملة، ولا بجريان العارضة، بل رؤية الحق بنعت فناء الحق، فله مجالسة
 البقاء عند ربِّه، بزوال خوف الفراق، وحزن الحجاب.

وقيل: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: خَلَصَتْ وجوه أعماله من الرياء، والشرك الخفي.
 ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ
 شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ
 وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٤) وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ
 لَهُ قِنْدَرٌ (٢٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ (٢٧)﴾.

وقيل في قوله: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أعتق وجهه عن عبودية غيره، وهو محسنٌ آداب العبودية، فله أجره عند ربه، دوام المعونة إليه من رضاه، ولا خوف عليهم من فوت حظهم من الحق ولا هم يحزنون؛ بأن يشغلهم عنه بالجنة. قال ابن عطاء: من جعل طريقه ووجهه ومراده وقصده وتدبيره لله، فلا يبقى له وجهٌ إلا إليه، ولا يكون إلا عليه، وهو محسنٌ.

قال: يري الحق بسرّه، ويشاهده بحقائق معرفته، ويطالعه بمعاني إخلاصه. قال عبد العزيز المكي: في هذه الآية حالٌ مخلصٌ في عمله، هائبٌ عن ربه. وقال أيضًا: من أخلص قلبه لله محبةً، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: كاملٌ في محبته، وبالغٌ في مودّته.

﴿فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: فأينما تولَّوا بعيون الأسرار، فتمَّ مكاشفة الأنوار. وأيضًا أشار بهذه الآية إلى مشاهدة المشهود في الشواهد، كما كشف خليله حيث قال: هذا ربي، إذا نظر في دائرة الكون، وفهم هذه الآية، أنه من نظر بعين العقل فقبلته الآيات، ومن نظر بعين الروح فقبلته الصفات. وقال ابن منصور: وجَّهه حيث توجَّهت، وفقدُه أين فُقدت. فقال بعضهم: القصدُ إليه توجُّهك، والطريقة إليه استقامتك منك بفهمك، وعنك بعلمك، ارتبط كلُّ شيء بضده، وانفرد بنفسه.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلق السماوات والأرض، وألبسهما من لباس سنا عِزّه؛ حتى تسكن قلوب أحبائه، بالنظر إلى مشاهدة الصانع في المصنوعات. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقال بعضهم: علّة لكلِّ صنْع صنعه، ولا علّة لكلِّ صنْع صنعه، ولا علّة لصنعه، وليس لكأنه كان؛ لأنه قبل الكون والكان، وأوجد الأكوان، بقوله: ﴿كُنْ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾: لم يسمعوا كلام الله من داخل قلوبهم، فثقلت أسماعهم من وقر الضلال.

وأيضًا ظنّوا أنهم من أهل المخاطبة، وجَهِلوا مقام المشاهدة، وقد أخطئوا فيما ظنّوا؛ لأنهم لا يطيقون رؤية الوسائط، أعنى معجزات النبي ﷺ، ولا فهم خطابه، فإذا كان الأمر كذلك كيف يسمعون صرف الخطاب من حضرة الكمال.

قال الواسطي: كلّمتمهم حيث أنزلت عليهم خطابي فلم يفهموا، وأي آية أشرف من محمد ﷺ، وقد أظهر لهم ذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ «الكلمات»: ما خاطبه الله تعالى مع روحه في سرادق الأزل بنعت السرور، فتَهَيَّجَ بها سرّه حتى التهب بنار محبّته، فيطلب حبيبّه بعد بلوغه إلى الكون بصرف الصفات، فابتلاه الله تعالى بمقام الالتباس، حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ وَلَٰكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٢٣﴾ يٰبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بتجرّده عن اللباس برؤية الصرف، كما قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وأيضا ابتلاه بشغل النبوة، بعد ما أسكره برحيق الخلّة.

وقال بعضهم: أشدّ ما ابتلى الله به إبراهيم، أن حمّله أثقال الخلّة، ثم طالبه بتصحيح شرائطها، وتصحيح شرائط خلّة التجليّ مما سراه ظاهرا أو باطنا، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. وأيضا إني جاعلك في الخلق إماما في مقام التمكين؛ لأنه صار بالنبوة متمكنا، بعد أن كان في الخلّة مُتَلَوِّثًا. وأيضا ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في المقامات؛ لأنّي صاحبهم في الحالات بيني.

وقيل: إني جاعلك سفيراً بيني وبين الخلق؛ لتهذيبهم؛ لاستصلاح الحضرة، وهذه هي الإمامة.

وقال أبو عثمان: «الإمام»: هو الذي يباشر على الظاهر، ولا يؤثر ذلك فيما بينه وبين

رَبِّهِ لَسَبَبٍ، كَالنَّبِيِّ ﷺ قَائِمًا مَعَ الْخَلْقِ عَلَى حَدِّ الْإِبْلَاحِ، وَقَائِمًا مَعَ اللَّهِ عَلَى حَدِّ الْمَشَاهِدَةِ^(١).

قوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: قطع الأنساب والأسباب عن مواهبه للأنبياء والأولياء؛ لأنه اصطفاهم بالآيات والمعجزات قبل وقوع العلامات، وأيضًا من اشتغل بنفسه عن نفسه، اعتزل بنفسه عن نفسه.

وقيل: قطع لن يصل إليه أحد بسبب أو نسب؛ إلا برضا الأزل، وسبق العناية.

وقال الصادق: لا ينال محبتي، ومشاهدة رؤيتي من سكن إلى أحد سواي.

وقال بعضهم: لا ينال قربي من بعد يسره عني.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣١﴾

وقال بعضهم: من رسمته بسمة المعرضين عني، لا يقدر الرجوع إلي.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾ أي: مستأنسًا للراجلين، وأمنًا للخائفين؛ لأن فيه أثر الله تعالى، وهو يتجلى منه للخائفين بلطائف الكرم، فأسكنهم من هيجان الخوف، وتجلّى منه للراجلين لطوائف حسن العدم، فأسكنهم من غليان الشوق.

وقيل أي: مفزعًا للمذنبين وأمنًا أي: من دخله من المؤمنين حافظًا لحدود الله فيه، آمن

من نار جهنم.

وروي عن الشيخ أبي عبد الرحمن السلميّ - رحمه الله - أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله

(١) أي: قدوة بك في بك في التوحيد، أو في الأصول والفروع، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، ومأمورًا باتباعه. البحر المديد (١/١٠٠).

يقول: سمعت أبا القاسم الإسكندراني يقول: سمعت أبا جعفر الماطي، يذكر عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه عن جعفر الصادق عليه السلام قال: البيت هاهنا محمد عليه السلام، من آمن به وصدق برسالته، دخل في ميادين الأمن والأمانة.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: أن طهرا قلبكما؛ لأنه موضع نظري، ومحل زيارتي.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي: للسفرة الأنوار. ﴿الْعَنَكِفِينَ﴾ أي: للسكان الأسرار.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: لعرائس الغيب؛ لأن القلب قبلة الله يزور به أهل الغيب.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي: أفنتا لبقائك في جمال صفاتك.

وقال الجنيد: ظاهر علم الاستسلام، سقوط المسافات، والمدة من البعد، ولا يجدون في إشارتهم كلفة، ولا في ذكرهم الذي به يتقربون مؤنة؛ لأنه استولى عليهم من قربه واكتنافه لهم، والتحنن عليهم، والبر بهم؛ لأنه قد أزاح عنهم أسباب الطالب.

وقال فارس في قوله: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾: أرجنا عن أسباب الطلب بالحيل،

ومطالعة الخير بالعرض. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي: تواضع لجبروتي، وأخلص قلبك عن ملكوتي. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ أي: تعرضت لك لما تريد مني في جميع الأحوال.

وقيل أي: أخلص سرك، فإنه موضع الاطلاع منك، «قال أسلمت» أي: أسلمت إليك سري، فأخلصه لي، فإنك أولى بي مني. وقيل: استأثر، فإن قتلك لا يمهل الطوارق بحر الحوادث، بل يجذب إلى الاستغراق في بلاد القدم، فيقول: أسلمت استأثرت، ومازلت كنت في أسر جبروتك، وقهر عزك.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون مني بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن إلهة مستلمون ﴿٣٨﴾.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: سمعت الروذباري يقول: سلامة النفس في التسليم، وبلاؤها في التدبير.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أوصاهم بقطع العلائق والعوائق، والتعرض

لنفحات الصفات، والعذوبة في المناجاة، والانقياد لمراد الحق، والشفقة على الخلق، ومقاومة النفس، ومراعاة النفس، والمصادقة لله مع الإخوان فيه، والإنصاف معهم، وترك معارضتهم

أحدًا، وأخذ الإنصاف منهم.

وقيل: أوصاهم بالمحاربة إلى الاستسلام الذي أمر به، فصَحَّ من إبراهيم التسليم، فلما أُتِيَ بذبح ابنه لم ينظر إليه؛ لأنه كان أسلم، وصَحَّ له التسليم، فمضى فيه من غير نظرٍ إلى الولد، حتى فُذِيَ، ولما لم يصح ليعقوب من التسليم ما صحَّ للخليل، رجع إلى حد الجزع حين فقد ابنه فقال: يا أسفى على يوسف، لكنني أعتذر ليعقوب عليه السلام في هذه المسألة، وهو أنه يرى في حُسن يوسف جمال الحقِّ، وقد عشقه، ومع ذلك في أوّل العشق، وقد بقي في محلّ الالتباس، والخليل -صلوات الله عليه- قد انفرد بحب الحقِّ للحقِّ، وهذا نهاية مقام العشق؛ لأنه في محلّ التمكين، وابنه يعقوب في محلّ التلوين، فلأجل ذلك قال: يا أسفى على يوسف.

﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى فَنَهَدُوا قُلُوبَ بَنِي إِسْرَءِئِيلَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
 ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَءِئِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ يَسَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
 ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
 ﴿صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

قوله: ﴿صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً﴾: صبغة الخاصية التي خلق آدم على تلك الصفة.

﴿قَالَ يٰٓإِبْرَءِئِيلُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ۖ أَنتَ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وذلك قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾.
 ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال صدر الصوفية، ورئيس البرية عليه السلام: خلق الله آدم عليه السلام على صورته، وهذا صبغ الظاهر الذي ألبسه صورة آدم، وأما صبغ الباطن، هو الذي كسا الله تعالى قلب آدم، ولهذا سجدت الملائكة بين يديه، وأورث الله تلك الصفتين اللتين خصَّ بها آدم أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء، وذلك إذ خلق الله تعالى الأرواح، فحشرها في سرادق حضرته، وكشف لها عن وجهه حجاب العزِّ، وأراها جماله وكماله، وألهمها خصائص علوم الربوبية، ونورها بأنوار الوصلة، وكساها لباس الفردانية، وجلَّلها برداء الكبرياء، وسقاها من شراب الزلفة

بكأس المنة، وطابت بوجهه، وطارت في ملكوته، وعشقت بجمال جبروته، فاكسبت سناء المحبة، واستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبية، وخرجت منها على أسرار الوجدانية، وتلونت بصيغ الصفات، وانصبغت بصيغ نور الذات، فهذه حقيقة صيغ الله تعالى الذي ذكر في كتابه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (١).

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَخَنُّ لَهُ مَخْلُصُونَ﴾ (٢) أمر تقولون إن إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأَسباطَ كانوا هودًا أو نصريّ قل: أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون (٣) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسفلون عما كانوا يعملون (٤) * سيقول السفهاء من الناس ما والله عن قبليهم التي كانوا عليها قل لله الشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم (٥) وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم (٦) قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (٧) *

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ﴾ : صرّفهم بمكر القدم في رؤية حيل الفعل؛ مقرونة بالإرادة عن مشاهدة الأمر في الأمر، وانقيادهم بحظ التسليم عند كون الامتحان؛ حتى تظهر أسباب علم القدم، وما سبق من علمه في تماديهم بنعت الكفر في ميادين الضلال.

وقيل: بيّن الخطاب على مقادير العقول ، ألا ترى كيف بيّن علته في آخر الآية ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعِ قَبْلَتِهِمْ﴾، إحصاءاً منه في صنعه، وما جرى من ضبطه.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قد نرى تقلب عين سرك في سماء الهوى؛

(١) أكد المكرمين منهم بكرامات أكبر منها درجة وأرفع منها منزلة وذلك لأنهم لما خلقوا محتاجين إلى ما لا تحتاج إليه الملائكة أكرموا بالكرامتين اللتين لم تكرم بهما الملائكة، فأحدهما الرجوع إلى الله مضطرين فيما يحتاجون إليه، فأكرموا بكرامة الدعاء ووعدهم عليه الاستجابة. تفسير حقي (٨/ ٢٥٧).

لطلب عيان المشاهدة، وقبلة القربة، وتزول الصفة في الصفة، ووقوع خطاب الخالص في سمع الخاص؛ حتى تصير لك عين الجمع من جميع الوجوه.

وقيل: فيه أعلمه أولاً أنه بمرأى من الحق؛ ليكون متأدباً بأداب الحق، ومن حُسن أدبه، أنه نظر إلى نحو السماء، ولم يسأل، وأجيب على نظره إلى مراده.

﴿فَلَنُؤَلِّقَنَّكُم بِقَبْلَةٍ تَرَضُّنَهَا﴾ أي: نطيقك، ونكشف لك قبلة عين وجودي، ترضى بها وتؤنسها، ولا يكون لك بعد ذلك طريقاً منها إلى نفسك، ولا جهة منها إلى الكون؛ لأن مرادك مرادي، ومرادي مرادك.

وأيضاً إني قبلك حيث توجهت، حتى تكون بلا جهة في الكون في طلب وجودي، وقد أدبه الله بهذا عليه؛ حتى لا يكون له سواه في جميع مَنَاه.

وقيل: أخبره بعد أن جاء إلى مراده، إن مرادك لم يخالف من مرادنا؛ لأن إرادتنا فيك تقلبك إلى الكعبة، وإثباتك عليها، وجعلنا قبلة لك، ولأمتك قبلة؛ لتعلم أن رضاك لا يخالف رضانا أبداً. ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: قولٌ وجهك نحو المراقبة إلى صدرك؛ لأنه مسجد أنوار الحقائق، وهو ممتنع عن الوسواس، وغبار العلائق، وفيه القلب، وهو كعبة الأنس، وفي تلك الكعبة آيات بينات مقامي، وفي الآيات آثار، وفي الآثار آثار صفاتي.

وأيضاً قولٌ وجهك الظاهر نحو الكعبة؛ حتى تراني ملبساً بلباس الآيات، فعينك الظاهر للآيات، وعينك الباطن للصفات.

﴿وَلَيْنَ أُتِيَتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٢) الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٢٣) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٢٤) وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ إِنِّي مَا تَكُونُوا يَا أَيُّهَا اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٦) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٢٧) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ فَادْكُرُوا إِنِّي أَذْكُرُكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴿١٣٤﴾

وقال بعض العراقيين: ترسم معهم برسم الظاهر نحو الكعبة في استقبال الكعبة
ببدنك، ولا تقطع قلبك عن مشاهدتنا؛ فإننا جعلنا الكعبة قِبْلَةً بَدَنِكَ، ونحن قِبْلَةُ قَلْبِكَ.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي: لا تقولوا، ولا تظنوا
لمن يُقْتَلُ في سبيل العشق بسيف الشوق أموات؛ بل أحياء بعد فئائه عن حياة الإنسانية بحياة
الربانية، ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنكم محبسون بين الوجود والعدم، وهم مغلّدون في
بقاء القِدم.

ومَن ذبح نفسه من أربعة مواضع قطع رأس حرصها من الدنيا في مذبح التفرد، وقطع
رأس أملها من إرادة حياتها ووجودها في مصرع التجريد، وقطع رأس رياستها من الخلق في
منجز التوحيد، وقطع رأس ميلها إلى الآخرة في مقتل التحقيق، ألبس الله تعالى روحه أربعة
لباس في أربعة مقام: ألبسها لباس سناء المعرفة في مقام المكاشفة، وألبسها لباس صفاء المحبة
في مقام المشاهدة، وألبسها ضياء الوصلة في مقام القربة، وألبسها لباس أنوار الأناية بنعت
البسط والسلطنة في مقام المخاطبة، وإذا كان بهذه الصفة، فقد فاز من سكرات الميات، وصار
حيّاً ببقاء الصفات.

﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ؕ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً
إِنِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقيل: لأنهم مقتولون في الحق، ومن كان مقتولاً فيه كان حيّاً به، ولكن لا تشعرون
أي: لا يعلمه من نظر إلى الجهاد بعين التدبير، ولم ينظر إليه بعين الرضا.

﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ؕ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾
أي: ولكل روح منهاج وقبلة ومعراج في وجود الذات، وحقيقة الصفات، فعين العيان قبلة
الأرواح القدسية، وصرف الصفات هو قبلة الأرواح الجلالية، وعين القِدم هو قبلة الأرواح
العزة، وعين الأبد هو قبلة الأرواح البقائية، وأنوار المشاهدة هي قبلة الأرواح الشائقة،
وحسن الصفات هو قبلة أرواح المؤانسة، ونفحات بساتين الغيب هي قبلة الأرواح
الروحاني، هو موليتها أي: تلك الروح الرحمانية هي قاصدة إياها بجناح الشوق، مجذوبة

بجبال العشق إلى معدن الألوهية والصمدية، ولكل واحدٍ منها مطلع ومنبع، فبعضها واهات، وبعضها عاشقات، وبعضها مؤنسات، وبعضها فانيات، وبعضها باقيات، وبعضها صاحبات، وبعضها ساكرات من هول المقامات، وكشف المشاهدات، وبروز المعانيات، وإدراك المغيبات، فاستبقوا الخيرات، خاطب بهذا أهل الاستقامة أي: سارعوا صرف الأنانية، فإنه أعلى الدرجات؛ لأنهن أعني أرواح أهل الوسائط في جلي الإرادات، وأنتم أهل النهايات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً أي: أرواح خواص أهل المعرفة، والأرواح السائرة في ميادين الأزلية، يأتي بهن الله جميعاً؛ بعد نحو الإرادات، واضمحلال الرسومات في سرادق البقاء، ويسقي كل روح من الأرواح بكأس الصفاء شراب الوصال، ويكشف لها جمال الحق؛ حتى يكونوا هنالك جميعاً في عموم العطاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قادرٌ على أن ينشق أرواح السابقين والمتصدين روائح عبهر الأنانية، ونسيم ورد الوجدانية في مقام الاستقامة، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي: فاذكروني بلسان الأسرار أذكركم بكشف الأنوار، واشكروا بخالص العبودية، ولا تكفروني بإدراك المعرفة، وأيضاً فاذكروني بالإعراض عن الكون أذكركم بارتفاع البون، واشكر لي ببذل الأشباح، ولا تكفروني بتعذيب الأرواح، وأيضاً فاذكروني في زمان الغفلة أذكركم بإنزال الرحمة، واشكروا لي بقصد القربة، ولا تكفروني بمساوئ البشرية، وأيضاً فاذكروني برؤية ذكري لكم في الأزل قبل ذكركم لي، أذكر نفسي لكم كما ينبغي لي؛ لأنكم لا تطيقون أن تذكروني بحقيقة الذات والصفات، وكيف يذكر الحدث صفات القدم، والألسنة عن وصف ثنائه خرسة، والعيون عن إدراك جماله منظمسة، والأسرار عن البلوغ إلى كنه عظمتة فانية، واشكر لي بتعريف العجز عن أداء الشكر، ولا تكفروني برؤية ذكركم لي؛ لأن ذكركم لي واجب خفي كفركم.

وقال الواسطي: حقيقة الذكر الإعراض عن الذكر ونسيانه والقيام بالمذكور.

وقال بعض العراقيين في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: سريع الحق يحتمل به الموارد، وهو ذكره إياك، ولولا ذكره إياك ما ذكرته.

وقيل: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بجهدكم وطاقتكم لأقرن ذكركم بذكري، فيتحقق لكم الذكر، يسمون حقيقة الذكر أن ينسى كل شيء سوى المذكور، لاستغراقه فيه فتكون أوقاته كلها ذكراً. وأنشد:

لَا لِي أَنَسَاكَ أَكْثَرَ ذِكْرًا وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي

وقال بعض البغداديين: الذكر عقوبة؛ لأنه طرد الغفلة، وما لم تكن غفلة فما معنى

الذكر.

وقال بعض المتأخرين من أهل خراسان: كيف يذكر الحق بعقول مصنوعة أو هام مطبوعة؟ وكيف يذكر بالزمان مَنْ كان قبل الزمان على ما هو به؟ إذ الحق سبق كل مذكور.

وقيل: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ على الدوام ليطمئن قلوبكم بي؛ لأنه يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال بعضهم: أتم الذكر أن تشهد ذكر المذكور لك بدوام ذكرك، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ من حيث أنا، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ من حيث أنا، ولا تذكروني من حيث أنتم فينقطع دوني ذكركم. وقال بعضهم: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتوحيدي، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بِلِقائي، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بطاعتي ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالدرجات، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتوبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمحبة، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالنعمة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالزيد عندكم، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ في أفراحكم، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ في همومكم.

وقال بعضهم: إن الذاكرين على مراتب، قوم ذكروا الله بألسنة ناطقة، وقلوب عارفة حتى وجدوا حلاوة الذكر، وقوم ذكروا الله بأفعال مخلصه، وطاعات مرضية حتى نسوا أنفسهم لوصولهم إلى ما طارت إليه قلوبهم، وقوم ذكروا الله بحالاتهم حتى وقفوا في بحار الحياة؛ لأنهم نظروا إلى ذكر المولى إياهم في الأزل، وبقاء ذكره عليهم إلى الأبد، فوجدوا ذكرهم بين ذكرين عظيمين، فذابوا حياة، فصار الذكر عندهم هباء^(١).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۚ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ۝١٥٧﴾.

والخوف هاهنا على سبعة أقسام: خوف من النفس، وخوف من الشيطان، وخوف من الكفار، وخوف من النار، وخوف من الفراق والقطيعة، وخوف الحجاب، وخوف التعظيم والإجلال لي، فهي ثمرات أشجار المقامات، والحالات السنية، والكرامات العالية، وهذه

(١) قال الشيخ حقي: (أذكركم) بالثواب واللفظ والإحسان وإفاضة الخير وفتح أبواب السعادات وأطلق على هذا المعنى الذكر الذي هو إدراك مسبوق بالنسيان والله تعالى منزّه عن النسيان بطريق المجاز والمشكلة لوقوعه في صحبة ذكر العبد، (واشكروا لي) على ما أنعمت عليكم من النعم والذكر بالطاعة هو الشكر.

كلها بليات أولياء الله في سير أسرارهم في ميادين الوجدانية، وبيداء الأزلية، امتحنهم بهذه الصفات ليظهر صدق إرادتهم في طلب مشاهدة الحق ﷻ، وينفخ بهذه نيران أشواقهم، ويرياح الجذبة، ونسيم الوصلة حتى يحترقوا بها في طب مبتغاهم بنعت الفناء؛ لأن من شرط حقيقة القرية احتراق أرواح السابقين والمقتصدين في أنوار جلال المشاهدة.

﴿وَشَرِّ الصَّابِرِينَ﴾ بحصول مقصودهم من بعد خروجه عن امتحاني، ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ من هذه المصيبات فروا من قهري إلى حجر لطفي، وسلموا أنفسهم لي حتى أفعل بهم ما أشاء، وهذا قوله تعالى حاكياً عن خواص عباده: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

قال الشافعي رحمه الله: الخوف خوف العدو، والجوع شهر رمضان، ونقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الصدقات، وبشر الصابرين على أداائها.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ عليهم بركات أنوار مشاهدة الحق تعالى، و﴿رَحْمَةٌ﴾ يعني رفع الامتحان عنهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ﴾ إلى مقام الأمن بعد غيوبتهم في صرف نور القدس، وصفاء حجال الأنس.

﴿إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ لَيْلَيْنِ وَأَنْهَدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ كُزَّةٌ وَلَهُ حَدٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ الصفا والمروة مخصصان بأنوار التجلي لقوله تعالى: ﴿جاء الله من سيناء، واستعلى من ساعير، وأشرف من جبال فاران﴾^(١)، وهما ملتبسان بصفاء إشراق شمس العزة، ومن صعد إليهما فينبغي أن يري فيهما ضياء لباس القدرة مستغرقاً في نور المشاهدة، وتقديس بنظره إليهما عن كدورات البشرية، ويظهر فيه الأخلاق لمحمودة بنعت صفاء المعرفة، وأيضاً ذكر الصفا والمروة إشارة إلى سرادق الملكوت والجبروت؛ لأن الصفا والمروة حجابان لمكة، ومكة حجاب الحرم، والحرم حجاب البيت،

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/١٥٩).

هكذا سرادق الحضرة، وأيضاً جبل الصفا مصعد العارفين لأجل تصفية الأرواح بنور المعرفة طلباً للمشاهدة، وجبل المروة مدرج الزاهدين لتزكية الأشباح بمدامع الندم، سعيًا في طلب معاملة الآخرة، وطمعًا للجزاء والثوبة، وأيضاً الصفا إشارة إلى الأزل، والمروة إشارة إلى الأبد؛ لأنها من شعائر الله تعالى، وأيضاً الصفا هو الروح، والمروة هي القلب.

وقيل: إن مَنْ صعد الصفا، ولم يصف سره لله لم يتبين عليه من شعائر الحج شيء، ومنْ صعد المروة، ولم يترأى له حقائق المغيبات لم يظهر له من شعائر الحق شيء.

وقيل: إن الصفا موضع المصافاة مع الحق، مَنْ لم يجد لمصافاة الحق معه؛ فليعلم تضييع أيامه، وسعيه في حجه.

وروى الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله- أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا القاسم يقول: سمعت أبا جعفر يقول: عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: الصفا الروح لصفائها عن درن المخالفات، والمروة النفس لاستعمالها المروة في القيام بخدمة سيدها، وقال: الصفا صفا المعرفة، والمروة مروة العارف.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أي: إن في إبداع السماوات والأرض كشوف نور الصفات في نور الأفعال، فظهور نور الأفعال في مسرح الآيات، وأيضاً السماء إشارة إلى الرأس، والأرض إشارة إلى الصورة، وأيضاً السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، وقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: في نقصانها وزيادتهما وذهابهما ومجيئهما اعتبار بطلوع شمس المعرفة من مشرق القربة، وغروبها في مغرب النكرة في وقت الغيبة عن المشاهدة، وظهور ظلم ليالي الهجر في ذهاب نور الوصل، وزوالها بإشراق أنوار تجلّي الحق في قلوب أهل المحبة، وأيضاً أي: اعتبروا بهما في مواجيد الأحوال، واستقرارها فيكم، وفقدانها في وقت انقباضكم عن رؤية البسط والانبساط.

﴿وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: العارفين في جريان القلب في بحار القدم والأبد، وموج بحر الصفات لطلب دار المعرفة من قعر بحر الذات بمنافع المريدين رؤية الصفات الجبروتية في الآيات الملكوتية.

﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ولهم أيضًا في تفكير إنزال الله تعالى من سماء القربة وزن رشاش المشاهدة، وإحيائه القلب الميت من فقد نيل تقربة، ورؤية خصائص المنة.

﴿وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتَةٍ﴾ وأيضًا لهم في إدراك التفرق وشتات سيارات عالم الملكوت في قلوبهم لطائف الخطاب.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لهم في رؤية تصريف الرياح، وتسخير السحاب بين السماء والأرض وجدان تصريف رياح المنّة، وتسخير سحاب الشفقة بين نور الروح ونار القلب، إذا كان الرياح تحرك السحاب وتعصرها حتى تطر قطرات مياه الخطاب على نيران القلب ليسكن بها ساعة عن الإحراق بالتهاب نار الوجد، ﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لأولي النهي علامات صفات القدرة بإدراك بصائرهم الحكمة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ﴿١٠١﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٠٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبِعُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٠٣﴾

الأنداد تقع على كل شيء بمنع العبد عن خدمة سيده، من جعلتها النفس والهوى، كما قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ومنها الخلق لأجل الرئاسة، ومنها الدنيا والشیطان.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يذوقون طعم معرفة الله، ولذة محبته، ولا يرون نور مشاهدته وحقائق وصله وقربه، ومع ذلك محبتهم للخلق محبة معلولة، لأنهم لو لم يجدوا منهم أمواهم يفرون منهم فرار الزحف.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن أهل الإيوان والتوحيد سمعوا خطاب قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، بالسمع الخاص في سابق الدهر، ورأوا مشاهدة جلاله قبل وقوع البلاء، فيبقى في قلوبهم لذة المشاهدة والخطاب، فيجدون مرارة بلائه، وغصص امتحانه، يقبلون منه ببذل نفوسهم، وترك حظوظهم، والوفاء بصدق عقودهم في أمر محبوبيهم.

وقال القاسم: ومَنْ أخرجناهم من جملة الخطاب الخاص مخاطبة الإيَّان أقوام يتخذون أهواءهم آلهة يعبدونها ويحبونها، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ منهم لأهوائهم؛ لأنهم يرون البلاء من الله نعمة، ولا يحجزهم عن محبتهم لربهم ترادف المحن عليهم، بل يزيدهم بذلك محبة له؛ فلذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

وقال الشبلي: مَنْ ادَّعى محبة الله تعالى، ونسي ذكره طرفة عين، فهو المستهزئ والمفتري على الله، ويصنع به ما يصنع بالمفتري.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال: يباهي الله على خلقه بمحبته للمؤمنين له، ويشير أن المحبة أخص ما يتعبد له المتعبدون.

وقال ابن عطاء: أحبوا الله بحب الله، وحب الله حب باقٍ، فصار حبهم باقياً ببقاء حب الله تعالى.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مَعًا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٦١﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦٣﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْتَعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٦٥﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٦٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٦٩﴾ * لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَنَ بِكَوْنِ الْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّابِقِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٠﴾ يَأْتِيهَا

أَذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

الطيبات ما قسم لأهل الإيمان في سابق علم الأزل بنعت الرضا من معاشهم الذي لا يذم تناولها نفس العلم بحال، وهو ما يتفرسه المؤمن بنور الإيمان قبل وقوعه في أوان الحاجة، وأيضًا الطيبات التي تبيح المؤمن إلى ما يرضاه الله من المعاملات السنية، والأخلاق المحمودة، وترك مألوفات النفس، ومتابعة الشهوة، وأيضًا الطيبات ما يحصل من الغيب بلا تصنيع الآدميين؛ لأن ما فيه تصنيع البشر لا يخلوا من المعاملات، وأيضًا الطيبات ما لم تؤكل بالشهوة وثورته الحكمة والعبادة، والطيبات أيضًا ما يؤكل بالسنة، ولا يؤكل بالبدعة، وأيضًا الطيبات إشارة إلى ذكر الحق إذا لم يشب بذكر الخلق، وهو رؤية المذكور بنعت طيران الأرواح بقوة المجاهد في بساتين الصفات.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: طيبات الرزق هو التناول في أوقات الاضطراب مقدار استبقاء المهجة لأداء الفرائض، وهو الذي لا تبعة في أكله بحال.

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: اشكروا الله بمعرفتكم على المشكور إن كنتم تعبدونه بشرط المعرفة؛ لأن العبودية لا تصح إلا بالمعرفة، وهو إغراء من الله تعالى، وتنبيه للمعاندن ليعرفوا أن الشكر لا ينبغي إلا لمن خلق ورزق وأما وأحيا، وقرن هاهنا العبادة بشكر النعمة لتعريف المنعم عليه أن يشكر نعمته أداء عبادته على شرط معرفته.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: من سار في بيداء الحقيقة بنعت سباحة الروح الناطقة في بحار الأزلية عند بدو إرادة المعرفة، واحترق جسم نفسه الأمارة في نيران المحبة، ويخاف أن يتلاشى في سطوات بسط العظمة، فيجوز له بعد اضطرابه، وهذه الصفة في مهمة الوجدانية أن يتناول من حطام الدنيوية لبقاء الصورة، لا جرم على العارف ما دام في مقام العبودية، وعجز البشرية أن يستأنس بمستحسنات المحدثات ملتفتًا بنعت اقتباس أنوار الألوهية من عالم الشواهد.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ سائر تهمة الحديث بنور الأزلية لأهل المعرفة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بأن يخرجهم من ظلمات الإنسانية إلى نور الصمدية.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي: المؤمنون بعهد الأزل بترك المعارضة في

العبودية، والإعراض عما سوى الحق في مقام المعرفة.

وقال بعضهم: الوفاء بالعهد لزوم الحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: الصابرين في دفع صولة صدمات النفوس عند معارضتها كشوف الحقائق، وخرها عند إلقاء الخطرات في ديوان المكاشفات بنعت ترغيبها وترهيبها، وعند تطرق طوارقات القهر أبواب خزائن القلب لتشددها بحثالة عوارض البشرية، والسكون في دفع الخطرات صبرا، خص به الصادقون في طلب مرضاة الحق عند نزول حجار البليات من منجنيق الامتحان.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(١) أي: لكم في قتل النفوس بعد خروجها على القلوب اقتصاصا حياة أرواح المقدسة، فإذا شرعتم في أخذ ديات جنابات النفوس تفوزون من مهلكات القهر.

قال الجنيد: للصابرين ثلاث علامات تعرف في نفسه، الأول: ضبط نفسه عند وجود النفس حظها، والثاني: الدخول في الطاعات عند مطالبة النفس بالتخلف والكسل، والثالث: سكون القلب عند نزول الحكم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٣) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٤) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٥) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ

(١) أي في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لأنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة كما قتل مهلهل بن ربيعة بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع فيما بينهم التشاجر والهرج والمرج وارتفاع الأمن فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه أي حياة لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل إذا قتل لا يقدم على القتل وإذا قتل فقتل ارتدع غيره فكان القصاص سبب حياة نفسيين أو أكثر وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده فإن ضدية شيء لا آخر تستلزم أن يكون تحقق أحدهما رافعا للآخر والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضد لها وقد جعل ظرفا لها تشبيها له بالظرف الحقيقي من حيث إن المظروف إذا حواه الظرف لا يصيبه ما يخل به ويفسده ولا هو يتفرق ويتلاشى بنفسه كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات فكان من هذا الوجه بمنزلة الظرف لها ولا شك فيه إذ جعل الضد حاميا لضده اعتبار لطيف في غاية الحسن والغربة التي هي من نكات البلاغة وطرقها (يا أولي الألباب) أي ذي العقول الخالصة من شوب الأوهام ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس.

عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٨﴾

هذا نداء لأصحاب القلوب، وخطاب مع طلاب هلال المشاهدة في أقطار مساوات الغيوب، أي: يا أهل اليقين فرض عليكم الإمساك عن الكون أصلاً؛ لأنكم في طلب المشاهدة، فواجب أن تصوموا عن مألوفات الطبيعة في مقام العبودية، كما كتب على المرسلين والنبيين والعارفين والمحبين من قبلكم لكي تتخلصوا من رجس البشرية، وتصلوا مقام الأمن والقربة.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أيام زمان الدنيا، يغري بهذا الخطاب أولياءه بترك المطاوعة والمناكحة والمباشرة والمؤانسة والملاعبة، ولذائد العيش في أكل ألوان الشهوات، وشرب مياه الباردات، ولبس الناعمات، أي: اصبروا يا أوليائي عن شهوات الدنيا، فإنها أيام ستقرض عن قريب حتى تفتطروا بلقائي القديم، وتعيشوا في جوارى الكريم.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: مَنْ يكون من المنقطعين مريضاً أو في سفر الوحشة عن وصلتي، فعليه تدارك أيام القدرة بعد إدراكه مقام القبة والمشاهدة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ أي: وعلى الذين يطيقونه الإمساك عن الكون بنعت الزهد عن الدنيا أيام حياته، ولم يعمل عمل أهل الطاعة لقلّة توفيقه وهدايته فدية، وهو خدمة أولياء الله ببذل النفس والمال من الذين تركوا الدنيا لأهلها، وذلك قوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والمساكين الذين صادفوا التلوين، ولم يبلغوا مقام التمكين.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي: فَمَنْ تعدى لعجزه عن حقيقة المعاملة زيادة على الواجب الذي عليه من الموجود بعد مقاساته في المفقود؛ فهو خيرٌ له من طلب الرخص. ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ أي: أن تمسكوا عما يشتغل به أهل الدنيا، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في ثبات حالكم، وقوة إرادتكم.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون ما للصائمين من الفرح فرحة في الدنيا بالمكاشفة، وفرحة في الآخرة بصرف المشاهدة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَلَفَرَقَانٌ فَمَن شَهِدَ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ

عَلَىٰ مَا هَدَيْنَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٨﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٩﴾ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٩٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾

شهر فيه احتراق أكباد أهل العيان من شوق مشاهدة الرحمن، لذلك أنزل فيه القرآن لرقعة قلوب المخاطبين من نيران المجاهدات، وكشف أنوار المشاهدة.
 قيل: أنزل لفضله وتخصيصه من بين الشهور، وافترض الصوم فيه، واستناب القيام في لياليه بالقرآن.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: مَنْ حضر فيه مقام الطلب؛ فليفطم نفسه عن رضاع الطبيعة لمقام الطرب، وأيضاً ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ عن الشراب والطعام، وَمَنْ شهدني؛ فليصمه عن المخالفات والآثام.
 قال الواسطي: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وَمَنْ شهدني وشاهد أمري؛ فليصم أوقاته كلها عن المخالفات، وَمَنْ شهد الشهر على رؤية التعظيم؛ فليمسك فيه عن اللغو واللهو، وَمَنْ شهد على رؤية فعله وصومه؛ فليس لله حاجة في ترك طعامه وشرابه، وهو كما أخبر النبي ﷺ: «رب صائم حظه من الصيام الجوع»^(١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي: إذا سألك أهل محبتي وتوحيدي عن دنوي منهم؛ فإني قريب منهم إليهم، وأنا مباشر أسرار حبههم فؤادهم بصفة الخاص، فانجلي بنفسي من نفوسهم لنفوسهم؛ لأن ظهوري للعموم، وإن لم يروني إلا أهل الخصوص، وفي ضمن الآية إشارة إلى تنزيه الحق عن البنية والأبنية؛ لأنهم أشاروا إلى قرب البين، وبعد الأين؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ من عبادي بلا أين، وبلا بين.

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٧٣/٢)، وابن ماجه (٥٣٩/١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٣٩/٢).

﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: إني أجيب دعوة المخلصين إذا دعوني من قعر قلوبهم بلسان أسرارهم، وإن لم يعلموا إجابتي لهم.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا أدعوهم بأصوات الوصلة عند خطرات كلماتي في قلوبهم إلى مائدة مشاهدي في زوايا صدورهم بنعت إعراضهم عن غيري.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: ليوقنوا فيها كشف لهم من أسرار ملكوتي، وأنوار جبروتي، ولا يسمعوا حديث العدد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى مقام طمأنينة وحقائق التمكين بشرط المعرفة.

قال الشبلي: إذا وجد الحق للعبد للذاذة قربة ارتضاه لنفسه، وتولى سياسة لنفسه، وأدبه بأخلاقه، وأعطاه ثلاثة من أوصاف ذاته: حياة لا موت فيها، وقدرة لا يزول بعجز، وملكاً في جوار الملك، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾.

وقال ابن عطاء في هذه الآية: ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ قال: أضاف عباده إليه إضافة خصوصية لا إضافة ملك، كأنه يريد إذا سألك الخواص من عبادي عني فأخبرهم بأني قريب.

وقال بعضهم: إذا سألك المشتاقون من عبادي عني، فأخبرهم إني أقرب إليهم من كل قريب، وأنا عند ظنونهم بي.

وقال رويم: القرب إزالة كل معترض.

وقال الجنيد، وشيئلاً عن قرب الله من العبد؛ فقال: هو قريبٌ لا بالاجتماع، بعيد لا بالافتراق، وقال: القرب يورث الحياء.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك مجاهدتها، وتعليمها أسرار الأدب، والوقوف على مرادها، واستماع كلامها على شرط التقبل منها، والصبر على انطلاقها عن رق العبودية، واقتحامها في نيران الشهوة.

وقال ابن عطاء: خيانة النفس الوقوف معها حيث ما وقعت.

﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: إذا عكفتم في مساجد القربة لطلب المشاهدة، فلا تميلوا إلى حظوظ البشرية، وهذا من أحسن الأدب، ورد من الله تعالى أدب به أوليائه في مجالستهم حضرته، وأيضاً الاعتكاف وقوف الأرواح على بساط الفردانية لاشتغالها عن الحدوثية بنعت فنائها في أنوار الأزلية.

وقال الواسطي: الاعتكاف حبس النفس، وذم الجوارح، ومراعاة الوقت، ثم أينما كنت، وأنت معتكف.

وقال بعضهم: أهل الصفوة معتكفون بأسرارهم عند الحي لا يؤثر عليهم من جريان الحوادث شيء لاستغراقهم في المشاهدة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أي: فلا تقربوا حدود الحقائق إلا بشرط آدابها بنعت المعرفة، وحسن حقيقة الأدب، وأيضاً رشح الحق أحكام الربوبية حدود في مقام العبودية، ليحجز العباد بها عن هتك أستار القربة؛ لأن في بداية الحدود أسرار العبودية، وفي نهايتها أسرار الربوبية، منع الخلق بها عن الاطلاع على أسرار الأزلية لبقاء الأحكام والشرعية ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أظهر سر القدم بوصف الجبروت في النعوت والآيات، لعل عباده يبصرون بسط سطوات عظمتهم، ويخافون من عقوبته، ويتركون أوصاف البشرية في ديوان الحقيقة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

أي: يسألونك طور أطيّار بساتين الغيب عن نقصان هلال المشاهدة عند الفترة، وزيادتها عند الكشف بنعت تجلّي الأسرار؛ لأنهم إذا غابوا في أوصاف أحكام العبودية احتجبوا بها عن رؤية مشهود الغيب، وإذا خرجوا من وطئات أزمة الابتلاء، رأوا في سماء اليقين نوار أقمّار الصفات، فتأهوا عند ذهاب عقولهم في مجلس الخاص تحت حضيض سوانح الكبراء، وطاشوا في هبوب البليات من تراكم سحاب الوجد عند تدريجها مزن الشوق، فتحيروا بين المنزلين، واستفتوا من أشرف خلق الله حسام حكم الله رئيس البرية محمد ﷺ عن مرسوم هذه الأوصاف كي يخلصوا عن أركان الشواهد بعد جمع الجمع في قلوبهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ وقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ أي: لهذه الأحوال المشتتة في كشف عز السرمدية وذات الأبدية عياناً وغيباً لمواقيت الأرواح في طيرانها إلى أعلى المقامات على ترتيبها، وظهور أوقات المواجيد، وقصورها إلى عالم الصفات، لشق الله تعالى كشف القربة على قدر شوق الشائقين حتى علموا أحكام العبودية في الربوبية، والربوبية في العبودية على قدر بدء الأحوال، وكشف الصفات؛ لأن العارف محتاج إلى حقيقة علم الأحوال والآداب فيها ليستعملها بقدر وجدان أنوار القربة، وصفات المشاهدة.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ

نُشِدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۖ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقْتَلُوا فِيهِ ۚ فَإِنْ قَتَلْتُمْهُمْ
وَقَتَلْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٢﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
لِلشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ ۚ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ
عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾

أمر الله تعالى أهل عرفان الحقيقة بقتال النفس على السرمدية، وقطع بنية دواعي
بشرية لسلامة صدورهم عند اجتماع همومهم بين يديه، وترك تجاوز الحد بإهمالها، والوقوف
على حظوظها.

﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(١) أي: حاربوا أنفسكم على دوام
ترعاية لأوقاتكم بنعت تصفية أحوالكم عن دنس الطبيعة، وخبث الجبلية، وإزالة أوصاف
بشرية حتى لا يكون وقوع خطرات العدو في ديوان الأسرار يعني صدور الصافية، وقلوب
نقية المنورة بنور الأحدية، ويكون بعد جمع أهم أسراركم وطنائ مكاشفات القربة،
وحقائق الإيمان تستولي على بواطن حقيقة النفوس بنعت انفراد الأسرار بين يدي العزيز
نعمّار.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الإنفاق على ثلاثة أحوال:
نفقة الزاهدين، ونفقة المحبين، ونفقة العارفين، أما نفقة الزاهدين بترك جميع الدنيا مع لذاتها
لأهلها حتى استمتع بها الأنام، وبذل نفوسهم لله في أيام الله، وأما نفقة المحبين لإعطاء ما
نالوا من الحق لأهل الحق، وأما نفقة العارفين فبذل الأرواح في مقام الفناء من وجدان غيره
حق في أسرارهم، أمرهم الله تعالى بالإعراض عن الكون مع استطابة أحوالهم بلذائذ المحبة،
والدخول في مقام الإحسان؛ لأن الإحسان أعلى المراتب من رتبة أهل المشاهدة؛ أعلمهم الله
تعالى ألا ينالوا حقيقة المشاهدة إلا ببذل حياتهم لأهل خالصة الحق، وأخبر أن مقام الإحسان
مقرون بالمحبة، لأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومن فاته
لإحسان احتجب عن المشاهدة، وهلك في قبضة بطش النفس متحيراً في هاوية هواها
مصروعاً في ورطة هوساتها.

(١) أي: حتى لا يوجد منهم شرك، فهو كقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إله إلا الله». (ويكون
الدين كله لله) بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق.

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾
 الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ۝ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْتُمْ مَنَسَكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۚ فَمَنْ الْنَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۝﴾.

أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القرية بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلباً بغنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدتهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر لإتمام حقيقة الإجابة، بأن يقولوا: ليكن، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: أصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتكم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تملوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابدلوا أنفسكم هدياً لله ليرشدكم لسفقتة عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضاً فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحلوا من قتل

نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحفظ البشيرة، فأثابها الله بالإحصار في وطئات الطبيعة.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾^(١) يَبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى مَوَاقِيتَ الْعِبَادَةِ لثَلَاثًا يَسَامُوا عِبَادَهُ عَنْ خِدْمَتِهِ، وَيَقْعُوا بِفُتُورِهِمْ فِي مَقْتِهِ، وَأَيْضًا حَتَّى يَسْكُنَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَنْ أَثْقَالِ الْعِبَادَةِ فِي بَسْطِهِمْ بَرُوءَةَ الرَّبُوبِيَّةِ، وَانْتِقَالَهُمْ بِمُشَاهَدَةِ الرَّحْمَنِ عَنْ زَحْمَةِ الْامْتِحَانِ، وَوَقْتُ الْحَقِّ لِأَهْلِ خَالِصَةِ فِي سُلُوكِهِمْ، وَإِتْيَانَهُمْ لِبَسَاطَةِ الْقَرْبَةِ أَحَانِينَ الصَّفَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالْيَقِينِ، وَجَمْعُ لَهُمْ لِيَعْرِفُوا أَنَّ الْقَصْدَ لَا يَتَهَيَّأُ إِلَى بَسَاطَتِهِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمَعْلُومَةِ.

قال النصرآبادي: وَقَّتَ اللهُ الْعِبَادَاتَ بِأَوْقَاتٍ لِيَتَأَهَّبَ لِلْعِبَادَةِ لَهَا قَبْلَ أَوَانِهَا بِأَدَائِهِ الطَّهَارَةَ، وَلَمْ يَوْقِ الْمَعْرِفَةَ لثَلَاثًا يَتَخَلَّى الْعَبْدُ عَنْ مَرَاقِبَةِ الْمُشَاهَدَةِ بِحَالٍ.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أي: اجتنبوا على الالتفات إلى غيري في استقبالكم إلى فاني زادكم في جميع الأحوال، ولا تحتاجون أحداً سواي، وأيضاً إذا أردتم أن تقطعوا أقطار الديمومية وفلوات الأزلية، فتزودوا على مراكب القلوب نور الأنانية لأرواح العاشقة في سير النيوب، وخافوا عن فقدي، فإن خير الزاد في طلب وصلي الافتقار إلى مخافة فقدان قربي، ﴿وَأَتَّقُونَ يَتَأَوَّلِي آلَاءَ الْبَيْتِ﴾؛ لَأَتَّكُم أَهْلَ الْخُصُوصِ بِأَنْوَارِ الْعُقُولِ فَمَنْ يَعْقِلَنِي بِنِعْمَتِ الْعِظْمَةِ لَا تَسْكُنُ رُوعَتِهِ فِي دَارِ امْتِحَانِي.

وقيل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ هو خطاب للخاص؛ لأنه لا زاد للعارف سوى معروفة، ولا للمحب سوى محبوه. وأنشدوا:

إذا نحن أدلجنا فأنت أمامنا كفي بمطايانا بلقياك هاديًا

﴿وَأَتَّقُونَ يَتَأَوَّلِي آلَاءَ الْبَيْتِ﴾ قال الواسطي: عاقبهم لأنه أحبهم.

وقيل: أقبلوا علي يا أصحاب الفهوم السليمة، وأعقلوا عني.

وقال أيضًا: هم من الخصوص، ولم تجعل للعموم فيهم طريقًا.

(١) كما أن الحج بالنفوس أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج في جميع السنّة إلا في وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج - فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهي أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيئه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التي آخرها الجنة، فأما الإرادة التي آخرها الوصلة. تفسير القشيري (١/١٨٩).

﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ﴾ أي: اذكروه بلسان عرفان نعمة تعريف نفسه لكم، كما هداكم إلى معرفته وخصائص قربته، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: إذا بلغتكم مقام مشاهدة المذكور بعد احتراقكم بأنوار ذكره، اشتغلوا بما يشتغل العوام من رسم العبادات؛ لكي لا تنفوا في بحار الوجد ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من فترتكم عن الأحوال واشتغالكم بالأعمال ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ تقصيركم فيما وجب عليكم حق معرفته ﴿رَحِيمٌ﴾ عليكم بأن يردكم إلى حالاتكم ومقاماتكم.

قال ابن عطاء: إذا عمرتم بواطنكم بذكري، واستفرغتم الوسع فيه؛ فارجعوا إلى ما رجع إليه العوام من القيام برسوم العبودية، واستغفروا عن اشتغالكم بغيره، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمطيعين تقصيرهم في طاعاتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعاصين أن يردهم برحمته إلى بابه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة فيه أن لا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر لا بلبسه ولا بخرقه وصبغة؛ بل يكون كواحد من الناس، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً أو بك أو لك أو منك شيء فاستغفر الله عز وجل، وجدد إيمانك فإنه شريك خفي خامر قلبك.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فاذكروني ذكر مَنْ يعلم في جميع الأحيان أنه ولده أحد؛ لأنه ذكر لا يسقط عن الإنسان أبداً في حياته، فهكذا ينبغي ذكر خالق الآباء والأمهات، وأيضاً فاذكروني كذكر الطفل أباه في جميع ما أراد؛ لأنه يأوي إليه في جميع مراده، وأنه يعلم أن ليس له ملجأ إلا أبيه، فأدب الله بهذه الآية شرائط المعبودية بنعت الذكر، وأيضاً ويخ الله عباده بذكرهم غير ربهم، وهذا المعنى مبهم على أكثر المفهوم.

وقيل: معناه أنك تذكر إحسان أبيك إليك، فتذكره بذلك أبدء وإحساني إليك أقدم وأكثر، فاذكروني كما تذكر أباك.

وقال بعضهم: اذكروني بالنعماء يرد عليك زوائد الآلاء.

وقال الواسطي: ذكر عارضي، ودعاء عادي، كيف يرجي بركاته أو نماؤه أو زيادته. سئل أبو يعقوب المكي كيف نذكر الحق كذكر الأب فقال: أعلم أنه إذا ضربك، فإنه أدبك لحبه لك، وإذا سلبك فأعلم أنه أعطاك بقربه منك، وليس يسعك سوء الظن به لشفتته عليك.

وقال ابن عطاء: يوماً لأصحابه اذكروا الله بألستكم حتى لا تتحرك لغيره، واذكروه بقلوبكم حتى لا تتفكروا لغيره، واذكروه بأسراركم حتى تحبى به، واذكروه بأرواحكم حتى

تعلق روحكم بأنواره.

قال الشبلي: بذكر الله طلع الأكياس عن بساتين الأنس، وبذكر الله فاز الأولياء بجوائز الرحمن، وبذكره هامت قلوب العارفين شوقاً إليه.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢﴾ * وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ ﴿٣﴾ *.

حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهدة الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضاً حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضاً بحسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضاً حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صافي على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور. وقيل: حسنة الدنيا الإغراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عندك فهو مشنوم.

وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة. وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء.

وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم. وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أن نحرمانا ذكرك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧﴾ *.

أي: ومن المدّعين مَنْ يعجبك طاماته ومزخرفاته، وما كان بخلاف خاطره، وأخبر تعالى نبيه ﷺ أن قومًا يأتونك ويتكلفون في دقائق الكلام، ويظهرون خصائص الأحوال والكرامات التي كانوا يسمعونها من أهل المعرفة، ويتوقون في الإشارات والغوامض من العلوم، وهم بمعزل عن حقائقها، هؤلاء فراعنة الضلالة، لسانهم لسان الأنبياء، وقلوبهم قلوب الذباب؛ لأن الله تعالى سلب نور الإيمان عن قلوبهم، وألبس بسط الكلام ألسنتهم، ليس لهم في مقامات الأصفياء نصيب، ولا لهم في أغصان أشجار معارفهم وكواشفهم نصيب، ولا على قولهم اعتماد، ولا على عهدهم اتكال، صرف الله وجوههم عن قبلة الحقيقة، ومنعهم عن ملاحظة حق الشريعة، وأقفل أبواب قلوبهم بختم الضلالة، وحجبهم عن إدراك أنوار البصيرة حتى ليس في جراهم من معنى الحقيقة معنى، وهم في كل محفل من الأباطيل دعوى، فالواجب على السالكين الإعراض عن مجالستهم؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه حتى سلموا من شؤم مذهبهم، وقبح مقالتهم، وهؤلاء أهل البدع والأهواء، يفتنون هذه الأمة، ويحجزهم عن طريق الحق، وينكرون أهل الإصابة، ويغرون أهل الإرادة، ويصدونهم عن الطريقة، والله يشهد أنهم لكاذبون في دعواهم، يتلذذون في محاوراتهم مع الصديقين بأسوأ المخاطبات، يغري الخلق رونق لباسهم، وزينة هيئتهم، ويجذبون قلوب الناس بحلو كلامهم، واصفرار وجوههم، واقصرار أكمامهم، وانتفاخ أقدامهم، ليضعوا أقدامهم على أعناق الأنام، ﴿تُخَذِّعُونَ آلَ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم يساعدهم أنوار البصيرة، فهم مربوطون بأحكام الظاهر، لا لعبرة بهذا الحديث إيمان، ولا لهذه الجملة استبصاره، فالواجب صون الأسرار عنهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فأخبر سبحانه أن هؤلاء القوم إذا خرجوا بزيئة الأبرار والأتقياء، لصرف وجوه الناس إليهم، شدوا أوساطهم في جذب الأموال، وجر المنافع حتى فاقوا على الناس كلهم، فإذا خلوا إلى أهل العزة والفتنة، ألقوا بذر الكفر والنفاق والأهواء المختلفة في قلوبهم، وحصدوا زرع الإيمان عن صدور ضعفاء المريدين، وقطعوا وسيلة الألف من بين السالكين في الله، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ الإشارة فيه أي إذا كان لا يجب الفساد لا ينصر أهله ويخذلهم في كل موطن حتى لا يطيقوا أن يطفئوا نور الله بأفواه الضلالة عن سرج قلوب المؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المفسدين المدعين اتقوا الله ولا تظهر خلاف ما تضمرون عن أمر ربهم، واستكبروا وتجبروا وأكثروا فسادهم؛

لأنهم عموا عن رؤية قبائحهم وسواء أفعالهم وهم يظنون أنهم أشرف خلق الله، لذلك لا يقبلون النصيحة، ولا يلتفتون إلى أهل الحقيقة، وإذا أمرهم بمعروف فلا ينتهون لجهلهم على أنفسهم ويحسبون أنهم مهتدون، استولت عليهم حية الجاهلية، واغترتهم شقوق الضلالة، ودمرهم كبرهم في مهالك الشقاوة، أعادنا الله من صحبتهم ورؤيتهم.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ آلِهَادُ﴾ أي: حسبهم نيران الغفلات، وظلمة الجهليات؛ لأن من احتجب بسوء عمله من الله ومن صحبة أوليائه فهو في عذاب الأكبر، حيث لا يرى طرق الرشاد وهو في أقبح المهاد يعني سهاد الكفر التي ترضعه فيها نفس الأمارة ألبان الشهوة من ثدي الضلالة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: أذخلوا في قباب اعتصام الحق بنعت الاستعاذة حتى تصيروا ساكنين تحت مجاري الأقدار، راضين في حقيقة الاختيار، معرضين عن الكائنات، مصرين غيوبات الملكوت، شاهدين بأنوار الجبروت، متقادين لأحكامه، متأهين لذبح النفوس طالباً لمرضاته وشوقاً إلى لقاءه.

وقيل: السلم هو الرضا بالقضاء.

قال الجنيد - رحمه الله تعالى - قال ابن عطاء: اتباع الأوامر والنواهي.

وقال أبو عثمان: السلم هو الخمود تحت مجاري القدرة لك وعليك.

﴿فَإِنْ زُلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ ءَلَيِّنْتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ زين للذين كفروا الحياة الدنيا وسخروا من الذين ءَامَنُوا وَالَّذِينَ أَقْبَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿كَانَ لِنَاسٍ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ قَبَعَتْ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لَيِّنَتْ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءَامَنُوا

مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿٢٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٨٩﴾ ٤.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الإشارة فيه أن مَنْ عرف الحق بنعت الألوهية، ورجع من قربه إلى وطئات نفسه، فقد أشرك وعقوبته أن عجبه الحق عن وصله ومشاهدته، ولم يؤمنه غيره الحق على أسرار ما عاش وإن كان في العبودية طاش.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾^(١) أي: هل ينظرون أهل الغيرة في المحبة إلا إقبال جمال الحق إليهم في لباس المجهول، فإدخالهم في قباب العصمة، وغيبتهم في جلال العصمة، حين أسبل الحق عليهم نقاب الكبرياء حتى يتجلى بمشاهدة الخاص؛ لأنهم أهل الغيرة، فسترهم بغيم النكرة، وشوق لهم بنور الصمدية وجلال الأبدية، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: قضي ما سبق لهم من العناية الخاصة، والمنن الأزلية.

وقال جعفر: هل ينظرون إلا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون برّه ولطفه؛ بل يشاهدون البار اللطيف، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

قيل: وصلوا إلى ما سبق لهم في الأزل من إحدى المنزلتين.

وقال جعفر: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وكشف عن حقيقة الأمر ومغيبه.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ وبخ الله تعالى قومًا من المستدرجين الذين لم يشكروا الله تعالى فيما نالوا منه من خصائص المقامات والكرامات ورؤية حقائق الآيات بأداء الصدق والإنصاف مع أهل القصة من الأنبياء والأولياء من استشارهم رئاسة الخلق على مرافقة الحق، وإنكارهم على أوليائه، وتغيرهم أمانة الله تعالى التي خصّ الله بها خواص عباده، باعوا اليقين بالوهم، والعزيمة بالوهن، فمسح الله قلوبهم طمسًا بذهاب نورها حتى بقوا في ظلمة الحجاب وهو أشد العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وخوف بهذا التوبيخ أهل معرفته ومحبه لثلاثا يلتقوا إلى الدنيا وأهلها، ويشكروا نعمة عرفان قربه ببذل الأرواح في وجدان نور الربوبية، وتحول الأشباح بشرط الخشوع في حق العبودية.

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: زين للذين اغتروا بعاجل الكرامات،

(١) قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. البحر المديد (٤/ ٢٨٨).

وقبولهم بين الخلق بإظهارهم الفراسات، وحجبهم بها عن درجات المشاهدات، ورؤية ما سبق للأولياء من الرعايات والعنايات، ﴿وَتَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يتهاونون أهل نواجيد الذين سبقوا بنور العصمة، وغابوا في مشاهدة مولاهم عن المكر والخديعة.

وقال جعفر: زُيِّنَ للذين جحدوا التوكل زينة الحياة الدنيا حتى جمعوها، واقتخروا بها، ﴿وَتَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من الذين توكّلوا على الله في جميع أمورهم، ونبذوا تدابيرهم وراء ظهورهم، فأعرضوا عنها وهم الفقراء الصُّبر الراضون.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لما رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربهِ وصفاته وذلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلما اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعاً، فأهل الصفوة ساعدتهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمه هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضاً كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربهِ لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعاً في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادقوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادقوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتأهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء الهوية، وساروا في فقار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادقوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهذا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيثار

والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم، ومن هاهنا تفرقت القلوب وانشقاقها عن المويقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: حسبتم أن تدخلوا جنان المشاهدة، ومجالس الأنس بنور المكاشفة قبل ممارستكم مقاساة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وأيضاً حسبتم يا أوليائي أن تدخلوا جنة الوصلة والقربة كأبيائهم الذين سبق لهم منا مقام النبوة بلا مؤن المجاهدة وليس هذه المنزلة لغير الأنبياء ولهم خاصة كرامة لهم تشريفاً وتوقيراً وتفضيلاً على جميع الخلق.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والتمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطعوا ومن يردد منكم عن دينه قيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحب النار هم فيها خالدون ﴿٧٧﴾ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمته الله والله غفور رحيم ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها؛ لكن في درب كل خلق دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفراسات والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استن محجة المثل وأدرك ممالك العليا، ورقى مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومن وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن من باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومن أدرك الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومن أدرك نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومن أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوا حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة؛ بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصبح مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، وبقي القلب فارغاً عن وساوسها، وسر عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال عليه السلام: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا

بِ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: أقل أحيان إقبال الحق على العبادة بنعت بسط آلاء مشاهدة القربة، وازدياد المعرفة على أهل الصفوة، مقرونة بظهور أنوار جماله، مسابقة لهم بشرط الإرادة القديمة في أكتاف طلاب المشاهدة في إزالة مرسومها، متفاوتة بتفاوت بروز سناء تحليّ الجلال والجمال في تقلب دهور الحوادث، فأشجار بساتين الأسحار الأطيّار أرواح الأخيار، وأنوار النهار المبرز بنور القدس لأشباح الأبرار، ولكل وقت من أوقات انكشاف نور الحضرة حرمة بقدر وقوع وقائع أهل القصة والخطرات فيها من النفوس الأمّارة أعظم وهوажسها أكبر؛ لأن الأجرام في مواطن قربه أسخن حجابًا، والحروب في مواطن الأنس أسرع عقابًا.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا﴾ الحساد لا يزالون يمكرون بأولياء الله لكي يوبقهم بأعين الحسادة، وأنفس الأمّارة؛ لأنهم لا يطيقون أن يروا نعم الله على أحبائه وأوليائه، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ وأحسد الخلق بأصفيائه هو الشيطان الذي كل وقت يترصد فاتهم، فالإشارة فيه من الله تعالى لأوليائه أنه يحذرهم من غرة العدو؛ لأنه يحسد بهم نفاسة عليهم بوجدان مشاهدة حضرته، ونوال قربته؛ لأن من نكص على عقب النفس بعد إدراك معرفة الحق فقد هلك مع الهالكين، وسقط عن درجة السالكين العارفين، وبقي في حجاب الغفلة، وظلمات الجهل مع الجاهلين، نعوذ بالله من الخذلان بعد وجدان الإيثار والعرفان.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا كَبِيرٌ مِّنْ نَّفَعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ نَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٣٦) في الدنيا والآخرة يسألك عن التيمم قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَنَحْنُ طَاهِرُونَ فَاحْذَرُوا الْفُسْكَدَ مِنَ الْمَصْلَحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ غَرِيْبٌ حَكِيمٌ (٢٣٧) وَلَا تَكُونُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ وَلَا تَكُونُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ وَتَبِكْ يَدُ غُورٍ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ نَعَلَّهِمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٣٨) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٣٥).

الْمَحْبِضُ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٣١﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِفَعْتُمْ وَفَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَنَشِرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْصَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الخمر حب ما سوى الله؛ لأن زيف بصر السر عن مشاهدة الحضرة إلى الكون بنعت استحسانه حجاب العقل الكل إذا خامر النفس سر القلب باشره الغفلة، وسكرت بإدراك هواها وحظوظها، وسقطت عن مباشرة العبودية، وبتأثيرها احتجبت الروح عن معاينة الآخرة، وبقيت في حجاب النفس عن الوصال، والمقام والمشاهدة، ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ حبل الشيطان والنفس مع القلب، فإذا مال القلب إلى شهوة النفس فقد قامرها وصار مقمورا مسلوبا الإيوان والعرفان، ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أن ظلمة الخمر تغطي نور العقل، ويقوي طرب النفس الأمارة فإذا خمد نور العقل، وارتفعت ظلمة الجهل تفسد النفس مقام الإيوان، وتخربه وهو القلب، وإذا كان القلب خرابا ومنبع الإيوان مضمحلا، فهو قريب من الكفر، والكفر آخر الإثم واللعب بالنرد، وأمثال ذلك، كأنه يعبد الأوثان؛ لأن في الأشغال به اشتباه نور الإيوان تمثال النرد والشطرنج، وتحيل الفهم صور الخيال، وهذا أول أسباب الشرك لأنها أما جميع الخباثات، ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: معرفة أفاتها وسوء عاقبة من يشغل بهما، وأيضا في زواها منافع للناس.

وقيل: فيهما في تناولهما منافع للناس في تركهما، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ العفو عند العارفين ما سوى الحق من الكونين، يعني اتركوا إلى ما شغلكم عني وإن كان لكم فيها خصاصة حتى يكون لكم ذخرا في جميع أنفسكم عوضا لما تركتم، فالخواص ينفقون ما يحبون طالبا لمرضاته وتركوا لمرادهم؛ لأن الحق سبحانه لا يزيد أوليائه شهوة

نكونين والعالمين غيرة على أحوالهم وصونا لأسرارهم، والعوام ينفقوا زوائد أموالهم حصناً
خافوا وحراً بها.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لعلكم تقطعون بواديهما
بُجُنحة الأفكار ليخلص قلوبكم عن وجودهما أنوار أفعال الحق وحسن صنعه القديم، وبه
تبصرون فيها نور صفاته لتبلغوا به مشاهدة حسن جلال ذاته، وأيضاً لعلكم تبصرون بعين
التفكير على صورة الدنيا لباس قهره، خدع أعدائه ليحتجبوا بزهرة الدنيا عن معرفته، وعلى
صورة الآخرة لباس لطفه ابتلاء به أوليائه، وليختبرهم بلذة الآخرة حتى يظهر صدق
دعواهم في محبته عن رعونات بشريتهم.

وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة أي أنها، والاشتغال بهما مما يقطعان
عن الحق.

وقيل: أنها على مكر وخديعة.

ألا ترى أن طاموساً لما قرأ: ﴿إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]،
فقال لو علموا عما نهاهم ما اشتغلوا به.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: يحب التوابين عن وقوفهم في
الغفامات، ويحب المتطهرين بنور المعرفة عن غبار الكائنات، وأيضاً التوابين عن طلبهم إدراك
بطنان القدم بالعقول الناقصة والعلوم المحدثه، والمتطهرين عن رؤية مقدارهم عن صدمة قهر
الكبرياء وسلطان العظمة.

وقال بعضهم: راجعين إليه في كل خطرة من قلبه، وكل حركة من جوارحه.

وقيل: يحب التوابين من الزلة، ويحب المتطهرين من التوهم.

وقيل: يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.

وقال ابن عطاء: يحب التوابين من أفعالهم، والمتطهرين من أحوالهم، وهم قائمون مع
الله بلا علاقة ولا سبب.

قال جعفر: يحب التوابين من [خواطيرهم] والمتطهرين من إرادتهم.

وقال محمد بن علي: التوابين من توبتهم، والمتطهرين من إرادتهم، وقال أيضاً: التوابين
من توبتهم، والمتطهرين من طهارتهم.

وقال أبو يزيد: التوبة من الذنب واحد، ومن الطاعة ألف.

وقال النصر آبادي: أن الله أثنى عليك، وجعل لك قيمة حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وقال الجنيد: دخلت على السري وعليه هم فقال: دخل على فتى من البغداديين، فسألني عن شرح التوبة، فأجبته، فقال لي: وما حقيقتها، فقلت: أن لا تنسى ما من أجله تبت، فقال الغلام: ليس هو هكذا، قال الجنيد فقلت: صدق الفتى، فقال: وكيف هذا؟ قال الجنيد: إذا كنت في حال الجفاء، فينقلني إلى حال الصفاء، فذكرى الجفاء عند الصفا وحشه.

﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ... الآية﴾^(١) علم الله عباده أدب المباشرة بشرط التقوى، وصدق بالنية في شروعه في مطالبة النفس حتى لا ينسوه في جميع أحوالهم، ويكون صحبتهم لله إلا بإجراء الشهوة.

وقال الواسطي: قدموا نية صادقة في جماعكم، وعفة فيما حرم عليكم، فإن ركوب الشهوة من غير نية صادقة غفلة عظيمة.

﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ۖ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۚ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكُ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ

(١) أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (١٨٢/١).

عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِفُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزُمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ فَرْدُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا لَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ سَعَةَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾^(١) أحدهما طلاق النفس وشهواتها والدنيا وما فيها، والثاني طلاق الآخرة وما فيها، فينبغي للعارف أن يطلقها؛ لأن عروس مشاهدة الحق غاز على قلوب المحبين والعاشقين والمشتاقين أن يكون لهم شيء دون الله. وقيل: ندب إلى تفريق الطلاق لثلاث يتسارع إلى إتمام الفراق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصف الله تعالى أهل العناية الذين صدقوا فيها عاينوا في علم لأزل من مشاهدة القدم، وفيها سمعوا من خطاب الحسن بنعت تعريفه لهم جلاله وجماله وعظمته وصمديته وكبريائه وقدرته وحكمته، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من الحدثنان إلى مشاهدة ترحم، ﴿وَجَاهَدُوا﴾ في العبودية للزوم حق الربوبية عليهم، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ما بين مقاديره بنعت الرضا في مراده، ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ وصاله وقربه، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ تقصيره في تزكية الأشباح، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم في تربية الأرواح.

(١) فإمسأك لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكانه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد - (١/١٨٨).

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ (١٧٤) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ زُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَیَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ المحافظة شهود السر مقام الغيب، وخمود النفس عن دواعي الرب، ومراقبة القلب أنوار الكشف، ورعاية الروح مشاهدة الوصل، ومراعاة الأدب ظاهرًا وباطنًا، فأما الظاهر بإقامة الحدود في أركانها، وأما الباطن فبدفع الخواطر المذمومة الشاغلة عن رؤية الآخرة، ثم الغيبة عن الأركان والرسوم برؤية الحق جل جلاله في صلاته، ثم الفناء في حقائق المشاهدة عن ملاحظة وجوده لغلبة سكر الوجد، ومن هذا حاله فهو غائب في سر الاصطلام، ولا يعلم كيفية صلاته لغلبة الوقت ولا غيب عليه؛ لأنه قد بلغ مقام المشاهدة، وهذا مقصود الصلاة، وهو إشارة النبي ﷺ لقوله: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١)، لكن صورة الأحكام تجري على العارف، ويحفظها عليه، وإن لم يعلم شأنه فيها، فهؤلاء القوم يغيبون عن الظاهر لشغل الباطن، والعامية يغيبون عن الباطن شغلًا بالظاهر، فشتان ما بين الطائفتين، فالعوام طاحوا في أودية الغفلات، فيزينون أحكام الظاهر، وأهل المعرفة طاروا في عالم المشاهدات في غيبة عن رسوم الأحكام استغراقًا في بحر أنوار مشاهدات ذو الجلال والإكرام، وأبهم صلاة الوسطى لمراعاة جميع الأوقات، ومراقبة أحيان المكاشفات.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٢١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَتَقِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأُتْبِأَيْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْفَعَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢١٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ جعل هن المتاع تسلياً لقلوبهن لأنهن كابدن مقاساة الفراق لثلا يتضاعف هن البلايا بلاء الهجران وبلاء الحرمان.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن بذل الوجود مع الحياة، والخجل معرفة على تقصيره، وفناء أطماع الأعواض، والفرح بمخاطبة الحق معه، وأيضاً استقرض من عباده ما أعطاهم لترية هم، ويزيد فضله على فضله.

وقيل: مال القرض لترية الفقراء.

وقيل: القرض الحسن ما لا يطالع عليه الجزاء، ولا يطلب بسببه العوض.

وقال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك مما اشتراه، ثم وعدك عليه العوض أضعفاً، بين فيه أن عطاياه ونعمه بعيدتان أن تكون مشوباً بالعلل.

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضاً يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العاشقين في حجال الأنس، فيتجلى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة.

ويقال: القبض سره، والبسط كشفه.

ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين.

ويقال: القبض للمشتاقين، والبسط للعارفين.

ويقال: القبض لمن تولى عن الحق، والبسط لمن تجلى له الحق.

ويقال: يقبضك إياه، ويسطك إياه.

قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويسطك فيما عليه.

وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات ليصغرهم، يسطهم بالنظر إلى الكرم.

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بعد ما مكننا بنور المعرفة، وذوق المحبة، ومصاحبة المرسلين، وآيات النبوة، وإدراك مقام الشهادة، وأيضا أي بعد معرفتنا أن الله تعالى مع أوليائه براية النصر والظفر، وأن من أوصاف أهل المحبة المحاربة مع أعدائه.

وقال فارس: لا يتجرد للحق مَنْ هو قائم مع الحق بسبب أو علاقة أو سكون أو مسكن.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْقُوا بِاللَّهِ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِكنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْظُرُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ...﴾ الآية امتحنهم بمجاهدة نفوسهم قبل محاربة عدوهم، لينظر كيف يكون خلوصهم من جهاد الأكبر قبل شروعهم في جهاد الأصغر؛ لأن مَنْ يعجز عن مجاهدة نفسه لا يصلح لمحاربة غيره، وتصديق ذلك قوله تعالى في حق المبتلين الذين تجاوزوا عن الحد الذي سنن لهم وشربوا من النهر أكثر ما أمرهم ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ والذين أخرجوا عن محاربة نفوسهم، وصرعوها في ميادين الذل والإهانة، فيصلحون لجهاد الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْقُوا بِاللَّهِ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وهذا مثل ضربه الله للدينا وَمَنْ يطلبها؛ لأن الدنيا نهر الشهوات، أجرى الله تعالى بين الخلائق لامتحان العباد ليضل بها قومًا ويهدي بها قومًا، مَنْ شرب منها بقدر الضرورة لقوة العبادة يعبرها بشرط الانفراد، فإنه من أهل الإيقان والعرفان، ويهدي إلى مشاهدة

الرحمن، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهَا بَفَرَطٍ لِحِرْصٍ لِإِبْغَاءِ الْغَفْلَةِ قُوَّةً لِلْمَعْصِيَةِ، يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ الرِّشَادِ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَهُ مِنْهُ أَبَدًا حَتَّى يَدْخُلَ إِلَى النَّيْرَانِ، وَضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا هَذَا الْمَثَلَ فِي قِصَّتِهِمْ لِيَنْظُرَ النَّازِرُ فِيهِ بَعِينَ الْعَتَبَارِ وَلَا تَقْتَبَاسَ الْأَنْوَارِ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ الطَّالُوتُ هُنَا الرُّوحُ، وَهِيَ مَلِكُ الْبَاطِنِ، وَمِثْلُ دَاوُودَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْعَقْلُ وَجُنُودُهُ الْقَلْبُ وَمَلِكُ الْهَامِ وَالْعِلْمُ وَالْفَهْمُ وَالْإِدْرَاكُ وَالْخَوَاضُ، وَمِثْلُ جَالُوتَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْطَانُ وَجَنْدُهُ خَيْلُ الْخَيَالِ وَأَعْوَانُ الشَّهَوَاتِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الرُّوحَ بِالْمُحَارَبَةِ مَعَهُ اخْتِبَارًا لِلنَّفْسِ الْأُمَّارَةِ، فَلَمَّا فَصَلَتِ الرُّوحَ بِجُنُودِهَا، ﴿قَالَ إِنْ أَلَّهَ مُتَّبِعِكُمْ يَنْهَرِي﴾ يَعْنِي نَهْرَ الشَّهْوَةِ الَّذِي تَشْرَبُ مِنْهُ النَّفْسُ بِكَأْسِ الْغَفْلَةِ، وَأَضَافَتْ إِلَيْهِمُ الشَّرْبَ؛ لِأَنَّ الرُّوحَ مُقَدَّسَةً عَنْ رَجَسِ الْبَشَرِيَّةِ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَيُّ: لَيْسَ مِنْ عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ، وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْمَكَاشِفَةِ الصِّفَاتِ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَضَعْمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أَيُّ: مِنْ نُورِ الْقُدُسِ وَعَالَمِ الْأَنْسِ، ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ ^(١) أَيُّ: الْقَلْبُ وَالْحَوَاسِ وَالنَّفْسُ يَغْتَرِفُونَ بِقَدْرِ التَّرَفَةِ حَتَّى لَمْ يَحْتَرِفُوا فِي جَوَارِ الرُّوحِ بَنِيْرَانِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي يَحْصُلُ مِنْهُ نُورُ الْمَعْرِفَةِ، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ يَعْنِي النَّفْسُ وَأَعْوَانُهَا؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ مُلْكُوتِ الْأَرْضِ، لِأَجْلِ ذَلِكَ مَالُوا إِلَى طَعْمَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أَيُّ: الْعَقْلُ وَالْمَلِكُ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ مُلْكُوتِ السَّمَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا لَذَّةُ التَّرْبِيَةِ، أَمَّا شَرْبُ الْقَلْبِ قَدْرَ الْكِفَايَةِ؛ لِأَنَّهُ مَمْزُوجٌ بِخِلَاصَةِ الْجِسْمِ، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أَيُّ: الرُّوحُ وَالْعَقْلُ وَالْمَلِكُ وَالْقَلْبُ وَالْحَوَاسِ، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْتَمِقُونَ اللَّهَ﴾ أَيُّ: بِقَوْلِ أَعْيَانِ الرُّوحِ الَّذِينَ يُوقِنُونَ كَشْفَ الْعَيَانِ بَعْدَ مُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ بِالْعَدَدِ مَعَهَا نُورُ الْيَقِينِ، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ الَّتِي لَيْسَ مَعَهَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى مُرَادِ الْحَقِّ بِنَعْتِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ وَرُؤْيَا كَرَمِهِ الْقَدِيمِ وَتَسْلِيمِهِمْ مِنْ مُبَاشَرَتِهِمْ حَظَّ مَشَاهِدَةِ الْحَقِّ.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَيُّ: بَرَزَ الرُّوحُ وَجَنْدُهَا لِلشَّيْطَانِ وَجَنْدِهِ، ﴿قَالُوا﴾ أَيُّ: الَّذِي عَايَنُوا بِنُورِ الْإِيمَانِ جَمَالَ الْمَشَاهِدَةِ، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيُّ:

(١) الْإِشَارَةُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ ابْتَلَى الْخَلْقَ بِصَحْبَةِ الْخَلْقِ وَبِالدُّنْيَا وَبِالنَّفْسِ، وَمِنْ كَانَتْ صَحْبَتُهُ مَعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى حَدِّ الْاضْطِرَارِ بِمَقْدَارِ الْقَوَامِ، وَمَا لَا بَدَّ مِنْهُ نَجَا وَسَلَامٌ، وَمَنْ جَاوَزَ حَدَّ الْاضْطِرَارِ وَانْبَسَطَ فِي صَحْبَتِهِ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَالنَّفْسِ وَالْخَلْقِ بِمُوجِبِ الشَّهَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ - فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِنْ كَانَ ارْتِكَابَ مَحْظُورٍ، وَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ فِي شَيْءٍ إِنْ كَانَ عَلَى جِهَةِ الْفَضِيلَةِ وَمَالِهِ مِنْهُ بُدٌّ.

احسنا بلذة المحبة حتى يقف في بساط الحرمة، ويشرب مرارة المحنة بجهال المشاهدة، ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ في صدمة القهر، ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ على الشيطان وجنده، ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ يعني جند الله، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بالله الشيطان وجنده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ يعني العقل الشيطان، ﴿وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمَلَكُ﴾ يعني سلطنته وولاية القلب على جميع الجنود النفس وأعوانها، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني المعرفة على أحكام المحبة والقربة والمشاهدة والمكاشفة.

قال عبد العزيز: يُقَالُ أَنَّ دَاوُدَ عليه السلام رَمَى بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، وَفِي الْإِشَارَةِ إِنَّهُ رَمَى بِالنَّفْسِ، وَطَلَّقَ الدُّنْيَا، وَخَلَفَ الْهَوَى، فَهَزَمَ اللَّهُ جَالُوتَ الشَّيْطَانَ وَقَتَلَ.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: من علوم الغيب حتى صارت منفردة بالرؤية مشاهدة الغيب وعجائبه، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ﴾ أي: دفعه بجنود الملكوية جنود الإنسانية، ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني منظر نور الإيثار والمعرفة في صدر طلاب المشاهدة والقربة، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني يتجلى العالم الأرواح فيغلبن على النفوس الأمارة والشياطين المردة، وأيضا يتجلى بمشاهدة القهر لعالم النفوس والشياطين حتى يسرفوا بمطامعهم بعض حقائق القلوب من عالم الأرواح، وتجربوا ديوان الناقل في ديوان الغيب.

قال أبو عثمان: أَنَّ هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، يَعْنِي النَّهْرُ أَنَّ مَنْ أَطْمَأَنَّنَ إِلَيْهَا وَأَكْثَرَ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا وَمَقْتَهَا فَهُوَ الَّذِي هِيَ اللَّهُ لِقَرْبَةٍ، إِلَّا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهَا مِقْدَارَ مَا يَقِيمُ صَلْبَهُ لِلطَّاعَةِ.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني أي: فاطمأن إليها إلا قليلاً منهم، وهم الذين حفظهم الله من وساوس الشيطان؛ لأن ﴿عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال النصرآبادي: مَنْ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْحَلَالِ بِحَرَصٍ وَشَرَّهَ أَدَاهُ ذَلِكَ إِلَى الشُّبْهِ، وَمَنْ لَمْ يَبَالِ مِنَ الشُّبْهِ جَرَّهُ ذَلِكَ إِلَى الْحَرَامِ النَّصِّ.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعَمَّيْتُمْ مَنِ آمَنَ وَمَنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ

شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٢٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غير الحق، وأيضاً حتى لا يسكنوا عن طلب زيادة انعامات والدرجات، وأيضاً حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة.

وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئاً إلا متفاضلاً متفاوتاً أقدارهم حتى النرسل.

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ ليعلم بذلك نقص الخلق، وكماله تعالى ﷻ.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بما أبدى من وصف ألوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضاً كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضاً دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضاً رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره ألوهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضاً أفرد قدمه عن العدم، وأيضاً ضرب سراقق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل.

سئل ابن منصور رحمة الله عليه عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك.

وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغياً به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخراً غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادماً على عصيانه خائفاً من هجرانه.

وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى من الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى من الله عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى من الله عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة.

وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمة، فمن لم يكن له تصديق فهو منافق، ومن لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومن لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومن لم يكن له حرمة فهو فاسق.

قيل لأبي الحسن النووي: لما لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقى به ضداً.

وقال بعضهم: من قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضاً ﴿الْحَيُّ﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيما أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفاً بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿الْحَيُّ﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه.

وقيل في قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أجعله مراقباً في قيوميته عليك وعلى جميع العالم.

قيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.

وقال سهل: ﴿الْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وقال الخواص: من عرفه بأنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ألزمه معرفته له طلب كل شيء منه، وترك القيام بشيء من أموره لقيام بها.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يخوف بهذه الإشارة خواص المراقبين حتى لا يشتغلوا بغيره طرفة عين، وأيضاً أخبر عن تنزيه إزالة التشبيه عن قلوب المريدين، وأيضاً بنفي السنة عن نفسه، نزه نفسه عن الغفلة، وبنفي النوم نفسه عن الغيرة، وأيضاً هذه إعلام منه جلّ وعلا أنه يتقمم عن الظالمين للمظلومين، وأيضاً علم الخلق تنزيه قدم صفاته وقُدس عظيم ذاته، أي أنا مبدع العلّات، وأنا منزّه عن صفات المحدثات.

وقال بغداديون: أتى تأخذه السنة من كان، ولا سنة ولو وجد السنة قهر العبادة ونقصاً

ارتبط الأشياء بأضدادها، وانفرد هو عن الأحوال لأنه محولها.

﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أدل حلاوة زهرة الكونين والعالمين عن قلوب أهل الصفوة بقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: الحوادث التي استأصلها عن مزار وحدانيته، ألا وهي الأسرار الموحدين رغبتهم بفنائهم عن الأسباب والعلامات، ووبخ من التفت سره عنه إلى ماله؛ لأن الالتفات من المنعم إلى النعماء شرك بالمنعم، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أغرق الشافع والمستشفع في بحار منته إذ لا يفرض كلاءة عباده إلا إلى نفسه، وأيضاً قطع أسباب حيل الوسيلة عن عناية الأزلية، وأيضاً أدب الخلق بهذه الآية حتى لا ينسبط إليه إلا مَنْ غلبه السكر والانبساط، والأذن مقام الهيبة عند سراق العظمة، والحكم حال الانبساط في بساط الألفة، والخائفون مراقبون الإذن، والعاشقون يريدون ويقتحمون في الحكم؛ لأن صاحب الحكم في هيجانه ملتبس بسناء التوحيد، معتزل عن الأشباح بنعت التفريد، أسكرته مشاهدة الحسن، واضطرته مكاشفة القدس إلى البسط والانبساط، وهذين الوصفين يكونان في العارف من الأنبياء والأولياء، فالأول نعت تبت، والآخر نعت أزلي.

وقيل: جذب به قلوب عباده إليه في العاجل والآجل.

قال الواسطي: لو جعل إلى نفسه وسيلة غير نفسه كان معلولاً، وَمَنْ تَزَيْنَ بِإِخْلَاصِهِ وَحُبِّهِ وَرِضَاهُ تَوَسَّلَ بِصِفَاتِهِ إِلَى مَنْ لَا وَسِيلَةَ لَهُ إِلَّا بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

قال منصور: فأَيُّ الشَّفِيعِ إِلَى مَنْ لَا يَسْعُهُ غَيْرُهُ، وَلَا يَحْجِبُهُ سِوَاهُ.

وقال الواسطي: مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي حَتَّى أَذِنَ لَهُ فِي الدَّعَاءِ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَوْمَنُ بِهِ حَتَّى أَهْدِيَهُ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَطْبَعُنِي حَتَّى أَوْقِفَهُ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْتَهِي عَنِ الْمَعَاصِي حَتَّى أَعْصِمَهُ^(١).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما بين أيديهم من الخطرات، وما خلفهم من العثرات، وأيضاً يعلم ما بين أيديهم من المقامات، وما خلفهم من الحالات، وأيضاً يعلم منهم قبل إيجادهم ما ابتلاهم به من أسرار الأفعال المقرونة بالإرادة، ويعلم منهم بعد كونهم من درك المعاينات في مقام العبودية من أسرار علم الأزلديات.

وقال أبو القاسم: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنه لا يخرج عن علمه

(١) وقال ابن عجيبة: هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريد به شفاعته واستكانته،

فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة. البحر المديد (١/٢١٢).

معلوم، ولا يلتبس عليه وجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد من العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه.

وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأَي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كرسيه قلب العارف، وهو واسع من السموات والأرض؛ لأنه معدن علوم الألوهية وعلم اللدني، الذي لا نهاية له ولا حد له، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ عالم الملكوت وهو مطاف أرواح العارفين لجلال الجبروت، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ وعرشه قبلتان لأهل الحدثان ولا جهة للرحمن، ولا يعرفه بنعت التنزيه عن التباس الكون والتصاقه إلا أهل كشف العيان.

وقيل: العرش والكرسي إظهار للقدرة لا محلاً للذات.

وقال أبو القاسم: خاطبهم على قدر فهم، وإلا فإن خطر الأكوان عند صفاته وحلال قدرته عن التعزز بعرش أو كرسي، أو التجمل بجنبي أو أنسى قبل علمه.

وقيل: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ في السموات والأرض هي منه كدرة.

﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي: لا يعجزه حفظه ذلك على سعته وكبره، وأيضًا لا يوازبان في عظمته خردلة؛ لأنها في ملكه وسلطانه أقل من ذرة، وأيضًا قامت السموات والأرض به ولا علة في صنعه ولا آلة في فعله منه ظهرت وبه قامت.

وقيل: وصف نفسه بالامتناع عن اعتراض القواطع والعلل.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢١٦ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ٢١٧ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا**

مِنَ الْمُعْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تبين ما استتر عن الكون في الكون في علم الأزل من السعادة والشقاء، فظهرت سمة السعادة والشقاوة من المقبولين والمطرودين؛ لأن في جباه السعداء مصابيح أنوار المعرفة تلوح، وفي جباه الأشقياء كدورات ظلمات الغي تبوح. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الطاغوت رؤية الطاعات، والطمع في المكافآت، فمن يكفر بها فهو من أهل المشاهدات، والطاغوت يقع على كل شيء سوى الله تعالى من الدنيا والنفس والشيطان. وقيل: طاغوت كل امرئ نفسه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن رحمه الله: مَنْ لم يتبرأ من الكلي لا يصح له الإيمان بالله. ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴿أَي: مَنْ أَقْبَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى خَالِقِهِ فَقَدْ وَجَدَهُ بِنِعْتِ الْحِفْظِ وَالْكَلايَةِ، ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ هِيَ ذَاتُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَجَلَّ عَنْ التَّشْبِيهِ، وَأَيْضًا هِيَ الْمَحَبَّةُ وَالْمُشَاهَدَةُ، وَأَيْضًا هِيَ الْعَصْمَةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي سَبَقَتْ بِنِعْتِ الْعَنَاءِ الْأَزَلِيَّةِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ.

وقيل: ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ التوفيق في السبق والسعادة في الختم.

وقيل: ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ محمد ﷺ. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: هي السنة.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾^(١) ترجيه من الله لأهل المعرفة، أي مَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِي فَازَ فِي الدَّارَيْنِ، وسعد في المنزلين، ولا يدخل في حجال عصمته خلل الحوادث؛ لأنه في كنف العناية محروسًا بالكفاية، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لوجدتهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثه ويقربهم إلى بساط الجزية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية.

وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فيندرج صفاتهم تحت صفاته، كما

(١) أي: لا انقطاع وهو استئناف لبيان قوة دلائل الحق بحيث لا يعتريا شيء من الشبه والشكوك، فإن العروة الوثقى استعارة المحسوس للمعقول لأن من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها وصفها الله بأنها العروة الوثقى. تفسير حقي (٢/ ٥٩).

اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائماً بالحق مع الحق للحق.
وقال أيضاً: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى
منهما من علامة التوفيق والانتفاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذاك لنفي الظلمات عنه
بها، نوره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ
الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور
صفاته وما سبق لهم من متابعه.
وقال أيضاً: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا،
والصدق والمحبة وغيرها.

وقال النوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاین كالخبير.
قال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أو صافهم إلى أنوار صفاته.
قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي: الذين ستروا ما قد عاينوا من نفوسهم
أنوار فعله وقدرته وما بدت في قلوبهم من لوائح العقول بالشروع في لذائذ الشهوة وغطاء
الغفلة، أولياءهم الطاغوت ومتوليهم في اعتزاء التماثيل الباطلة المتخيلة، الشيطان يخرجونهم
من أنوار العقول إلى ظلمات الجهل والعنادة.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أصحاب الهجران عن مشاهدة الرحمن، ﴿هُمْ
فِيهَا﴾ في القطيعة والابتلاء، ﴿خَالِدُونَ﴾ ليس لهم مساع في الوصول أبد الآبدين.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ
بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرْنِي إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرْنِي إِلَى حِمَارِكَ
وَلَنَجْْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرْنِي إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠١﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي
كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَيْتُمْ يَوْمًا قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ مثل الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْنِي يُحْيِي﴾ هَذِهِ اللَّهِ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿وَقَعَ﴾ في طلب مشاهدة القدرة صرفاً ليرى بنورها مشاهدة القادر في المقدور، وأيضاً تعجبه في القدرة ليس بشك؛ ولكنه تلون الخاطر ونقله من مقام الإيمان إلى مقام مشاهدة الحال في ظهور البرهان، وأيضاً خاض في بحر التفكير لطلب درّ المعرفة، والفرق بين سؤال إبراهيم وعزير -عليهما الصلاة والسلام- أن إبراهيم ﷺ كان في محل التمكين فأراه الله تعالى مشاهدة القدرة في غيره، وكان عزير ﷺ في محل التلوين فأراه الله مشاهدة القدرة في نفسه حتى يباشر قلبه نور الصفات، فيشاهد حقيقة فعل القديم، ويصير محكماً في محل التمكين، وأيضاً مقام الخليل ﷺ مقام الانبساط، ومقام عزير ﷺ مقام التحرر، فانبسط الخليل ﷺ وسأل مشاهدة الصفات في لباس الآيات، فأراه ما سأله في غيره؛ لأنه مملوء من أنوار القدرة، فيطلب مزيداً على حاله، وتعجب عزير ﷺ نبي الله من غاية تحيره في أسرار الربوبية، فأراه الله الآيات في نفسه تأدياً له؛ لأن أهل الانبساط ليس بمؤاخذين كخليل الله ﷺ، وأيضاً سؤال الخليل ﷺ في طلب المشاهدة وتعجب عزير ﷺ تحير في كمال القدرة بطلب الآيات تثبيتاً للوحدانية، وأيضاً مقام الخليل ﷺ مقام اتحاد تجلّي الصفات، ومقام عزير ﷺ مقام اتحاد تجلّي الأفعال فتجلّي الصفات باشر قلب الخليل ﷺ لقوله: ﴿وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي﴾ وتجلّي الأفعال باشر صورة عزير ﷺ ليكون له تحصيل العلم بقدرة القادر لقوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأيضاً خصّ الخليل ﷺ بتجلّي الصرف بلا آيات في نفسه، فلا يحتاج إلى أن يميت ثم يحييه؛ لأن الحق يتجلّى له في نفسه بلا واسطة الآيات، ولكن يحتاج أن يرى الحق في غيره فيختص بالمنزلتين الصرف والالتباس، ولم يكن لعزير ﷺ مشاهدة الخاص، فيحتاج أن يراه في نفسه بواسطة موته وحياته، وفي غيره يعني في الحمار واللبن والثمار، ليكون له مقامات وإن لم يكن صرفاً كمشاهدة إبراهيم ﷺ وهو بعد ما رأى من نفسه ما رأى فقليل له: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ وهو مشاهدة الله في غيره، وأيضاً بلغ الخليل ﷺ مقام كشف المعانيات في الحياة، وكشف له ملكوت الأشياء لأجل اقتباسه نور مشاهدة الحق في الآيات، ولم يضطر إلى أن يغيب روحه من الخواص حتى يرى صرف العين؛ لأنه في حال الصحو، ولم يبلغ عزير في ذلك الزمان مقام العيان، فأنجاه الله إلى غيبته عن الصورة بنعت الغشيان ليرى في حال غيبته مشاهدة الحق؛ لأنه في حال السكر، فلما انتبه رأى في صحوه ما رأى في سُكره، لكن ما رأى في السكر وحال الغيبة مشاهدة الروح، وما رأى في الصحو مشاهدة العيان.

وقيل: أرى إبراهيم ﷺ إحياء الموتى في غيره، وأرى عزير ﷺ في نفسه؛ لأن الخليل ﷺ

تلطف في السؤال فقال: ﴿أَرِنِي﴾ فأري في الغير وتعجب عزيز عليه السلام في القدرة؛ ألا ترى أنه ختم قصته بالإيمان ﴿أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وختم قصة الخليل عليه السلام بالعزة والحكمة فقال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن الخليل عليه السلام سأل إظهار الحكمة ومشاهدة العزة، وعزيز عليه السلام تعجب من القدرة، فأجيب كل من حيث سأل.

وقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّ قَلْبِي﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل عليه السلام بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه ألقى في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاه بذبح الولد وما أشبهه.

وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِي﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله عليه السلام في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. ومقصود الحق سبحانه وتعالى في ذلك أن بديع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعزيز عليه السلام، محمد عليه السلام.

وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى عليه السلام ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي رب، من متى أنت!».

وقال تعالى لنبيه محمد عليه السلام: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، وقال عليه السلام: «إنه ليفان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(١).

هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا أسأل الخليل عليه السلام مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في وسائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة.

وأيضًا قال: ﴿أَرِنِي﴾ حقيقة بطنان الألوهية والربوبية، وهذا من الخليل عليه السلام غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد.

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأحمد في مسنده (٢٦٠ / ٤)، وأبو داود (٨٤ / ٢).

وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى منزّه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ إنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق تسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾ بعد رؤية جنابي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد ﷺ في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، ولهذا السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ بأن موسى ﷺ سأل كشف المشاهدة، والخليل ﷺ سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل ﷺ أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أشار إلى طيور الباطن، التي في نقص الجسم، وهي أربعة من أطيار الغيب، الأول: هو العقل، والثاني: القلب، والثالث: النفس، والرابع: الروح، أي: اذبح طير العقل بسكين المحبة على باب الملكوت، واذبح طير القلب بسكين الشوق على جناب الجبروت، واذبح طير النفس بسكين العشق في ميادين الفردانية، واذبح طير الروح بسكين العجز في تيه عزة أسرار الوحدانية.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: اجعل العقل على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفاً بها ليدركني بي بعد فنائه فيّ، واجعل القلب على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسي فيتبه في بيداء التفكير منعوتاً بصرف نور المحبة، واجعل النفس على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتي عليها، لا تنازعني في العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية، واجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس، لتكون منبسطة في السكر مطمئنة في الصحو عاشقة في الانبساط راسخة في الإيجاد، فإذا كانوا ملتبسين بصفات يطیرون بأجنحة الربوبية في هواء الهوية، ويروني بلباس الديمومية والأزلية، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ بصوت سر العشق، وزمزمة الشوق، وجرس المحبة من بساتين القرية إلى عالم المعرفة، ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ بسرعة جناح سلطان الربوبية إلى معدن العبودية بجمال الأحذية، وتراني بعد جمعهم في مربع صدرك بعيون اللاهوتية ونور الملكوتية، ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بعزك عرفان هذه المعاني وإطلاعتك على صفاته القديمة حكيم في ظهوره بغرائب التجلي لأسرار باطنك.

وقال بعضهم: أراد أن يصير له علم اليقين، وعين اليقين فعل الدوام يؤمن، والإيمان

غيبى في علم اليقين وعين اليقين، فقال: ﴿بَلَى﴾ ولكن أسأل مشاهدة الغيب.
وقال بعضهم: هذا السؤال على شرط الأدب، كأنه يقول: أقدرني على إحياء الموتى، يدل عليه قوله: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ والطمأنينة لا تكون ضد الشك، قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ على هذه الشهوة والمنية.

وقيل: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ القلوب الميتة عنك بإحيائها بك.
قيل: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنِ﴾ أي: لست كنت لتستدل علينا بالشمس والقمر وأفعالنا، فأسقطنا عنك علة الاستدلال، وكنا دليلك علينا.

وقال بعضهم: اعلم أن الخليل مع خليفه مختال في أموره حتى يجد قرباً إلى خليفه، أو سماعاً لكلامه حتى أن بعضهم قال:

وَإِنِّي لَأَسْتَنْعِسُ وَمَا بِي نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكَ يَلْقَىٰ خَيَالِيَا

وقال جعفر الصادق: شك في الكيفية، وما شك في غيره، قال النبي ﷺ:
«أنا أولى بالشك من إبراهيم»^(١). وعن جعفر في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ قال:
قلب أصحابي.

وقال ابن عطاء: أي إني إذا سألتك أجبن، وإذا ذكرتك ذكرتني، فإن بذكرك تطمئن القلوب.

وقال سهل بن عبد الله: سألت كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين يقيناً وتمكناً في حاله، ألا تراه كيف أجاب عن لفظ الشك ببلى.

وقال بعضهم: إذا سكن العبد إلى ربه واطمأن إليه أظهر الله عليه من الكرامات ما أقلها إحياء الموتى، قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه لكن بالرمز والإشارة فمنع منها بالإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وأن موسى إنما سأل الرؤية جهراً، فقال: ﴿أَرِنِي﴾ فرد بالجهر صريحاً فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

وقيل: إنما طلب حياة قلبه، فأشير عليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور الأربع، ومنها الإشارة في الطيور الأربع الطاوس، فالإشارة إلى ذبحه هي زينة الدنيا وزهرتها، والغراب بحرصه، والديك بشقه، والبط لطلب رزقه.

وقيل: لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قيل له: أرنا كيف تذبح
الأحياء يعني إسماعيل عليه السلام يطالبه بما طالبه، فلما رأى ما طلب منه وافى الحق سبحانه بحكم
ما طلب.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهُمْ وَلَا أَدَّى لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ
مِنَ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ
بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا
ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾﴾ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَن
تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِفَاعِلِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٣٢﴾﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ المن: تعزز البشرية على الخيرية
واستكبار الحدث على الكبرياء القديم، ﴿وَالْأَذَى﴾ ازدراء السر عند العطاء المستول.

وأيضاً ﴿بِالْمَنِّ﴾: تذكر الحدث ونسيان العدم؛ لأن المنان إذا منَّ على أحد فقد نسي
الله عند تذكر نفسه وهذا نوع من الشرك، ﴿وَالْأَذَى﴾: بالبذل بنعت البخل، والرمي بالعين
إلى الفقراء على جهة تعظيم نفسه ورؤية شرفه عليهم.

وأيضاً ﴿بِالْمَنِّ﴾: شهود الأفعال، ﴿وَالْأَذَى﴾ التماس الأعواض.

قال السري: مَنْ تَزَيَّنَ بعمله كانت حسناته سيئات، فكيف مَنْ رأى لها قيمة، أو طلب لها عوضًا؟

ويقال: ينفقون ما ينفقون، ثم لا يشهدون أفعالهم ولا أفعالهم.

وقيل: كيف تمنون بشيء تستقدرونه وتستحقرونه؟

وقال الجنيد: أعلمنا أن الذي يخلص له ثواب صدقته، وينجز له ما وعده فيستحق الثواب على عمله، مَنْ لا يمن بصدقة، ولا يؤدي مَنْ تصدق عليه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل.

ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أنفقوا لأرواحكم ما كسبتم بأشباحكم من المعاملات المقدسة عن شوائب الرياء والسمعة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: مما أخرجنا بمزن المعرفة عن سحاب المكاشفة، ومزارع قلوبكم من الحكمة والعلم اللدني، والصدق والإخلاص والرضا واليقين على المريدين لتخلصوا بذلك من مكائد الشيطان، أي: أنفقوها لنجاة صوركم بهذه المعاني التي تخرج من بساتين صفاء أسراركم، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه.

وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة.

وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيما وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وهذا من وسوسة العدو، وليس لهم بإحراز العلوم والخوف من المعدم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع

في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١) أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد.

وزيّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمر وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشبه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ معرفته تطهر قلوب الأشحاء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسرار لهؤلاء العباد الذين اصطفاهم لمحبه وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته.

وأيضاً المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل.

وأيضاً المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون.

وقيل: ﴿يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله.

وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة، وهو الفقر الحاضر.

وقيل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة.

وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً.

قال محمد بن علي: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وهو عمارة داره، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه.

قال بعضهم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ﴾ تحذيراً للموحدين لا تفرقاً للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحداً إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا ينسى القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزين للخلق، وأصل الكفر منازعة

(١) قال التستري (١/ ٥٩): قال: هو أن يأخذوا الشيء من غير حله، ويضعوه في غير محله.

القدرة.

وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئاً من غير وجهه، وتضعه في غير حقه: ﴿يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب،
والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم
الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهديب خلق الإنساني، وأيضاً الحكمة معرفة الأخلاق،
وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك
وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق
ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن، ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق
والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد
وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ
إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادث والمخاطبة والمكاملة
مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. وَمَنْ يَوِّت هذه الدرجات فقد أوتي
خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة
العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضاً: صرف الحكمة إدراك مراد
الحق من رموز خطابه، وامتنال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في
الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلتفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام
والإشارات الإلهية.

والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضاً: شهود السر على أسرار
شواهد الملكوت ورؤية غرائبها.

وأيضاً: الحكمة عند العارفين ولوح السر قباب الغيب وإطلاعه على خزائن الملكوت
برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه
باقتباس أنوار القرب وانفساخه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات،
وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري
أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الألوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن
من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه
الخاصة الذاتية القديمة، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبداً من
عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى يصير ربانية صمدية مطلعة على جميع
الأشياء ظاهراً وباطناً، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه

كلها مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي»^(١).

فإذا كان جميع وجوده مستغرقاً في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى.

وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إسهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام.

وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتبنيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله.

وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك.

وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢).

وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية.

وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص.

وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي.

قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله، أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله.

وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة.

وقال معروف الكرخي: مَنْ حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

وقال سهل: الحكمة هي مجمع العلوم وأصلها السنة.

قال الله تعالى ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

[الأحزاب: ٣٤] والآيات الفرض والحكمة السنة.

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٥٨/٢) بنحوه.

(٢) فثبت أن الحكمة من المواهب لا من المكاسب؛ لأنها الأقوال لا من المقامات والمعقولات التي سمتها الحكماء حكمة ليست بحكمة فإنها من نتائج الفكر السليم. تفسير حقي (٤٠٤/١٠).

وروى سهل عن شيوخه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة الله بين عباده»^(١)، فمن تعلم القرآن، وعمل به فكأنها استدرجت النبوة بين كتفيه لا الوحي، يحاسب حساب الأنبياء إلا بتبليغ الرسالة.

وروى أيضًا عن شيوخه عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة من تعلم القرآن في شبته خلط القرآن بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا داعي القرآن ولا جسداً اجتنب محارمه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وآمن بمحكمه، ووقف عند متشابهه، ولم يتندع فيه»^(٢).

وقال بعضهم: الحكمة أربعة أشياء العلم والحلم والعقل والمعرفة.

قال أبو بكر الوراق: الإفاقة مع الحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٤٧﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ يشر أوليائه بعظيم المجازاة وجزيل المكافأة، ويهيجهم إلى بذل الموجود والمجهود، وأدبهم ليستعملوا خواطر الإلهام من عقد القلب وتلفظ باللسان، ويحذر أوليائه باطلاعه على ضمايرهم وسرائرهم، وأنه لا يقبل إلا من وجه الإخلاص، وأعلم أنه يجازي كلا الفريقين المحسن بإحسانه والمسيء بسيئاته.

وقال الواسطي: أشار به إلى قوم لا يضرهم ولا ينفعهم مال ولا بنون، أي: إن الله بعلمه يعلم من يختم له بخير.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ إن كان الإعطاء من مقام اليقين بنعت التمكين، وإن كان محققاً عن مطالعة النفس بنعت خصائص الإخلاص، وأيضاً أن أعلنت الإنفاق لتسبي بها قلوب المريدين وتهيج أسرارهم إلى بذل الأرواح في شرائط محبتنا ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾

(١) ذكره النسري في تفسيره (٦٠/١).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٣/٢)، و«السنن الصغرى» (٥٤٣/١).

لأن المعاملة من الممكن تصير قدوة لطلاب المعرفة، وإن أخفيت ما عملت من نفسك والتفات المخلوقات وارتفاع الطبع في الأعواض ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ لأن قدس الباطن عن رؤية الأفعال وطمع الأعواض يكون واقعا لخطرات المشوبة بالرياء، ويتولد منه صرف النفس في جميع الأحوال ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ قطع أسباب البداية من المعاملات والشفاعات عن قلوب أهل الولايات، وأضاف كلاءهم إلى نفسه بأنه هاديتهم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ﴾ أي: لأنفسكم جزاء ما علمتم من مقامات المجاهدات بصوركم، ومن أعمال قلوبكم من ألم الفراق واحتراقها بنيران الأشواق، كما قال عليه السلام حاكيا عن الله ﷻ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به»^(١).

وأيضا: أي لأنفسكم جزاء معاملتكم، وإلى التفضل كله بالفضل به عليكم لا بأعمالكم وأفعالكم؛ لأن خاصية الفضل لي، لا يدخل فيه على العبودية.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١٧٧) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٨) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧٩) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (١٨٠) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٨١) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (١٨٣).

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ١٣١).

الميل إلى غير الله في مجلس مراقبة الله، ناظرين من الله إلى الله وراضين بقضاء الله في مراد الله، صابرين في بلاء الله محتسبين لله في مجاهدة أنفسهم، لا ينقضون عهود ميثاق الأزل إلى الأجل، أي: الذين وصفهم الله تعالى بإحضار نفوسهم عن التعرض إلى غير ذلك بالرمز والإشارة، وسؤال غيره على أحوالهم وصورنا لأسرارهم ومراعاة لحقيقة فقرهم، وعفة في مجاهدتهم خدمة أهل الدنيا ببذل المال والأنفس ليلاً ونهاراً ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يفرقون عن مجالستهم ومراقبتهم من قوة الحال، وغلبة الذكر عليهم واشتغالهم بمشاهدة سيدهم وشدة محبتهم وكثرة عشقهم وحقيقة يقينهم برهم لطلب معاشهم وحوادثهم؛ لأنه قد غلب عليهم صحة التوكل وحسن الرضا وحقيقة التسليم وهم كانوا يفوضون جميع أمورهم إلى الله، ويسكنون بوعده؛ لأنه مَنَّ بأوليائه، وأهل طاعته أهل الثناء والمغفرة بحفظ أوقاتهم عن الخطرات والزلات ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لأنهم لا يتملقون عند أبناء الدنيا بكلام اللين وإظهار التقشف، ولا يظهرون أحوالهم لأجل الرياء والسمعة شفقة بأحوالهم مع شدة افتقارهم إلى الله.

وصف الجاهل بقلة المعرفة بأحوالهم؛ لأن العالم يعرفهم بنور العلم والإيمان ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَانِهِمْ﴾ بشارة مشاهدة الحق في وجوههم، وبهجة نور المعرفة في قلوبهم؛ لأن الله تعالى أسبل على وجوههم نقاب سناء الصفات، وألبس جباههم نور جمال الذات أي: تعرفهم بهذه الصفات؛ لأنهم الأتقياء الأخفياء الذين لا يركنون إلى الخلق بسبب الدنيا وزينتها ولذتها، وأنهم من أهل المحبة الذين يتلون بأنواع البلايا هم صابرون محتسبون لله وفي الله، ﴿لَا يَسْتَقْلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ لا ينسبطون إلى أهل الدنيا ولا يبتغون حظوظ أنفسهم من الخلق، ولكن ينسبطون إلى الإخوان في الله تلطفاً بهم وتعطفاً عن الميل إلى مألوفات الطبع والهوى.

وأيضاً: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وصف الله تبارك وتعالى أهل حقائق المعرفة، ونعتهم بالفقر أي أنهم حبسوا في صحاري التوحيد، وتيه التقديس بأصفار التحير، وألزمهم تراكم لطمات بحار الوجدانية، وأغرقهم في سر العظمة مفتقرين من عين التلوين إلى عين التمكين، لا يستطيعون من ثقل أحمالهم مسيراً من الحيرة إلى رؤية المنة وكشف القربة في أرض الديمومية، والطيران عن أشكال الحدوثية في أسرار الهوية القديمة.

وأن الله تعالى كشف لهم عن بساط العظمة، وأراهم نقوش صور غيب الغيب التي التبس الحق بها بنعت الرضا عن العشاق فيتحيرون بين الرسم والصرف تحيراً استأصل لباس الحدوثية عن نفس أرواحهم، فإذا برزوا بهذه السمات من بطنان عجائب الغيب يحسبهم

صبيان الملكوت أنهم في جمال بسط الديمومية، ولا يعرفون شأن قبضهم؛ لأنهم في طيب مزمار الإحسان يحتجبون به عن إدراك أحوال المحترقين بنيران الكبرياء، لكن يعرف من غيب وراء وراء وقطع حجب رسوم العبودية والربوبية أنهم مفتقرون إلى مشاهدة حسن الحسن، ومكاشفة قدم القدم والجمع بنعت الاتحاد، لا يظهرون مع عجزهم أحوال تحريرهم واحتياجهم لأهل التمكين غيرة على أهل الانبساط لكن يحترقون في الباطن ويستبشرون في الظاهر، هؤلاء مرضى المحبة وأسرار المعرفة ينعتهم الله مقام التفرقة بنعت الجمع، وقيل: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين وقفوا مع الله بهمهم فلم يرجعوا منه إلى غيره، وقيل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) أي: لا يتحركون لطلب الأرزاق.

وقال محمد بن الفضل في هذه الآية: يمنعهم علو همهم عن رفع حوائجهم إلى مولاهم.

وقال ابن عطاء: يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء في الظاهر، وهم أشد الناس افتقاراً إلى الله تعالى في الظاهر، فاستغناؤه في الباطن.

وقيل في ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾: أي في تطيب قلوبهم وحسن حالهم وبشاشة وجوههم ونور أسرارهم وجولان أرواحهم في ملكوت ربهم.

وقال سهل: إن الله ﷻ وصف الفقراء بصفة القدم من حال سؤال الافتقار واللجوء إليه ووصفهم بالرضا والقنوع لا استطاعة لهم إلا به ومنه، ولا قوة لهم من حولهم وقوتهم.

قد نزع الله منهم ركون قلوبهم إلى غيره، والمساكين راجعون إلى الأسباب كما وصفهم الله مساكين يعملون في البحر فردهم إلى حال السكون إلى الأسباب.

لذلك قال بعضهم: الفقر عز والمسكنة ذل.

وقال عمرو المكي: مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا كَانَ بِهِ ضَنْيًا، مَنْ حَبَّ شَيْئًا كَانَ بِهِ أَنْيَسًا، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا كَانَ لَهُ أَسِيرًا.

وقال النصر آبادي: الفقير ينبغي أن يكون له قناعة وعفة، ويعتبر بالقناعة ويرتدي بالعفة؛ لأن النبي ﷺ وسلم قال: «القناعة مال لا ينفد»^(٢)، فإذا كان الفقر بهذه الصفة دخل في

(١) أي: ذهاباً في الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبذل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم في العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. البحر المديد (١/٢٣٢).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧/٨٤)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/٢٣٦).

جملة حديث النبي ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(١).

وقال الثوري: تعرفهم بسيماهم يفرحون بفقرهم، واستقامة أحوالهم عند موارد البلاء عليهم.

وقال أبو عثمان: تعرفهم بسيماهم بإيثار ما يملكون مع الحاجة إليه.

وقال الجنيد: كَلْتُ أَلَسْتَهُمْ عَنْ سُؤْلِ مَنْ يَمْلِكُ الْمَلِكُ، فَكَيْفَ مَنْ لَا يَمْلِكُهَا.

قال الجنيد: سُئِلَ عَنْ الْفَقِيرِ الصَّادِقِ مَتَى يَكُونُ مُسْتَوْجِبًا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ هَذَا الْفَقِيرُ مُعَامِلًا لِلَّهِ بِقَلْبِهِ، مُوَافِقًا لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مُنْعًا وَعَطَاءً بَعْدَ الْفَقْرِ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيْهِ يَخَافُ عَلَى زَوَالِهَا، كَمَا يَخَافُ الْغَنِي عَلَى زَوَالِ غِنَاهُ، وَكَانَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُسْرُورًا بِاخْتِيَارِ اللَّهِ لَهُ الْفَقْرَ صَانِعًا لِدِينِهِ كَأَمَّا لِفَقْرِهِ يَظْهَرُ الْإِيَّاسُ مِنَ الْيَأْسِ، مُسْتَغْنِيًا بِرَبِّهِ فِي فَقْرِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَإِذَا كَانَ الْفَقِيرُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَيُكْفَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْئِنَ الْمَوْقِفِ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾: أَي أَخَذَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ كُلَّ طَرِيقٍ لَهُمْ فَلَا لَهُمْ فِي الشَّرْقِ مَذْهَبٌ، وَلَا لَهُمْ فِي الْغَرْبِ مَشْرَبٌ، كَيْفَمَا نَظَرُوا رَأَوْا سَرَّ ذَوَاتِ التَّوْحِيدِ مُحَدِّقَةً بِهِمْ:

كَأَنَّ فُجَاجَ الْأَرْضِ صَاقَتْ بِرَحْبِهَا عَلَيَّ فَمَا تَزْدَادُ طُولًا وَعَرْضًا

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مَنْ بَلَغَ رُؤْيَا جَمَالِ مُشَاهَدَةِ الْحَقِّ عَشْقَهُ، وَمِنْ شَرَطِ الْعَشْقِ أَنْ يَبْذُلَ الْعَاشِقُ وَجُودَهُ وَمَالَهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ دَفْعًا لِلْخَطَرَاتِ وَخَوْفًا أَنْ يَسْقُطَ عَنْ دَرَجَاتِ الْمَشَاهِدَاتِ.

قال ابن عطاء: الوقت وقتان، والحال حالان، فالوقت ليل ونهار، والحال سر وعلانية فإذا أنفق في الليل والنهار والسر والعلانية فقد قضى ما عليه إذ المحب لا يدخر عن حبيبهِ شيئًا، لا يفتر عن رضاه بحال.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: أي: في ظلمة الليل حذرًا من خجلة الأخذ والنهار بواسطة تجعل بينه وبين الأخذ وحذرًا عن حياته منه سر صفاته، وإخلاصًا وعلانية أسوة واقتداء.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

(١) رواه الترمذي (٥٧٨/٤)، والدارمي (٤٣٧/٢)، وابن ماجه (١٣٨٠/٢).

تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٦﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أَدَّبَ قَوْمًا بتأديبه في كرمه ورحمته على المعسرين من الطاعة والمكثرين من المعصية، وهذا إخبار عن غاية شفقته على عباده إذ أمر بعضهم أن يمهّل بعضًا في واجب حقوقهم، أشار بهذا إلى حقيقة الحقوق له يهب بفضل ما قصرُوا في واجب أمره تقدس وتعالى، وأيضًا: رمز لأصحاب المعاني في هذه الآية أي: إذا كان أهل المعرفة في عسر من المشاهدة وكشف القربة، فلا تطالبوهم بأثقال المعاملات والتماس الكرامات إلى ميسرة الكشوف، وبروز أنوار الحضرة في قلوبهم لأن للعارف مقامين: الأول: هو القبض، والثاني: هو البسط، فإذا كان في القبض فهو في هبوط المهجران وهو عسر ظاهر لا يؤدي في ذلك المقام حق الحقيقة، وإذا كان في مقام حق الحقيقة في مقام البسط وهو في رخاء التوحيد ويطبق أن يؤدي ما وجب عليه من حق الطريقة؛ لأنه في ذلك الحال ملتبس بأنوار الربوبية ويتبها له ما يريد كما وصف الله تعالى أنبياءه وأوليائه في حال انبساطهم وبسطهم مثل عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَأُتِرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: خافوا يوم الفصل من الوقوف مقام الحياء والخجلة بين يدي ملك يمنع المندرجين عن مشاهدته، ويعاقب أوليائه بالخطرات والإشارات.

قال الواسطي: هذا ترهيب للعام وأما للخواص بقوله: ﴿وَأَيْنَى فَأَتَقُونَ﴾.

قال بعضهم: مَنْ لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له سواء سقط، وأي موعظة أعظم مما أخبر الله به عباده من الرجوع إليه، فَمَنْ لم يحزن؛ لذلك الموقف ولم يبك لذلك المشهد فبأي موعظة يتعظ؟ والذي يمضي فيه غير موثوق والذي يبقى غير مأمون.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: لا تكتُموا ما أشهدكم الله من مقام أهل الولاية بأن تحملوا ذكركم حسداً عليهم ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ يعني: ما خصهم الله به ﴿فَإِنَّهُ رِءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: جزاء كتمانهم قسوة قلبه، وإثم قلبه الحسد بأهل الولاية، وجزاء الحسد الطبع والختم، نعوذ بالله من ذلك.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لله خزائن ملكوت الكونين وأسرار غيب العالمين، لا يكشفها إلا لخواص أحبته.

قال ابن عطاء: الكونان هو مبديهما من غير شيء فَمَنْ اشتغل بها قطعاه عن الله، وَمَنْ أقبل على الله وتركها ملكها الله تعالى إياه ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: إن تظهروا ما في قلوبكم من حقائق المكاشفات والمخاطبات ليقترني به أهل الإرادة، وتخفوه عجائب الغيب التي ترى عيون الأرواح القدسية تورعاً لثلاث تفتتن بها أقوام من شفعاء المؤمنين لقلة فهمهم يرينكم الله تمكين المظاهر بما أظهرتم، حتى لا تفتنوا بدقائق الرياء والسمعة، ويبقين الباطن بما أخفيت من الخلق إخلاصاً وصدقاً لتذوقوا حلاوة صفاء الإخلاص في كتمان الأسرار، وأيضاً: أن تبدوا في الظاهر من شره الإحساس متابعة الوسواس ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ ما تحدث به أنفسكم في باطنكم من أطباء القلوب وحراس الغيوب يجازيكم بفتنة النفس والشیطان والغفلة والشهوة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لَمَنْ يدفع خطرات الباطن ترغيباً. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لَمَنْ يتبع هواه بدخوله في الزلات تهذيباً.

وقال جعفر: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الإسلام، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: الإيثار.

وقال الواسطي: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ﴾ من إرادة الكونين والمكنون، ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: بإرادتكم فيغفر لمن يشاء لمن أراد الجنة ونعيمها، ويعذب من يشاء من أثر الدنيا على الآخرة.

وقال علي بن سهل: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الأعمال، ﴿أَوْ تُخَفُّوْهُ﴾ من الأحوال، ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ العارف على أحواله والزاهد على أفعاله.

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وُجُوهُهُ وَرُسُلُهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنْصِنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ بأن الله تعالى قدس باطن رسوله ﷺ من شوائب النفسانية وخطرات الشيطانية، وكحل عين سره بنور الملكوت، حتى قيل: بالصدق والإخلاص ما كشف له من عجائب الجبروت، ورأى بمصابيح القرآن أسرار الأزل والأبد ما جرى في بطنان الغيب وغيب الغيب رؤية عيان، وآمن بها إيمان المشاهدة والعرفان، كما قال الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ﴾ المؤمنون على قسمين منهم العارفون والصادقون والمشهدون والمقربون، والمكاشفون والمخلصون والمحسنون والراضون والمتوكلون والمحبون والمريدون والمرادون، كل شاهدوا بعضًا مما شاهد الرسول ﷺ ولولا ذلك لم يشرعوا في بذل الأرواح ومجاهدة الأشباح؛ لكن للنبي ﷺ مشاهدة الصرف خاصة له بلا زحمة الخطرات، ولهم مشاهدة اليقين بوسائط الالتباس ممتحنين بالوسواس.

والقسم الثاني من المؤمنين هم الذين آمنوا بإيمان الفطرة بإرشاد العلم والعقل والبيان والبرهان، وأصل لهذا الإشكال إلهام وفروعها أسباب.

وأيضًا استقام النبي الأمي ﷺ عند صدمة سلطان الألوهية، وتمكن فيها عاين من جلال ذات القديم -جل جلاله- بنعت صرف المشاهدة واليقين، والمؤمنون يريهم الله بعض أنوار غيبه فآمنوا بها أدركوا به.

قال الأستاذ: آمن الرسول ﷺ من حيث البرهان.

ويقال: آمن الخلق بالوسائط، وآمن محمد ﷺ بغير واسطة.

ويقال: هذا خطاب الحق سبحانه وتعالى معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر، فقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل آمنت كما يقول العظيم الشأن من الناس. قال الشيخ: وأنت تريد قلته.

وقال ابن عطاء: إن النبي ﷺ معدن سر الحق أظهره للعام أوقفه على شريطة قوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾، وإذا أخفاه أخبر عنه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وهو مستغرق أوقاته في انتظار ما يظهر عليه الحق من الزيادات على روحه وسره وفؤاده وقلبه وشخصه؛ ألا تراه كيف نعتة عن صفاته، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن صفاتك لحياتك بنا ويأظهار صفاتنا عليك ﴿وَأَنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] عاجزون عن بلوغ درك صفاتك، وإيمان رسول الله ﷺ إيمان مكاشفة ومشاهدة، وإيمان المؤمنين إيمان بالوسائط والعلائق.

وقيل في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾: حكماً وتسمية، ولا المؤمن موجود ولا الإيمان ظاهر.

وقال فارس: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال: إيمان حقيقة ومشاهدة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إيمان حكم ومتابعة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لو أظهر من جمال عز الأزل صفة من صفاتي لا يطيق الخلق أن يستقيموا عند كشف ذرة منها، لكن أواسيهم بلوائح التجلي بنعت الالتباس؛ لكي لا يفنوا مثل تجلي موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأيضاً: تسربت الأرواح بأنوار الكبرياء، فاستقلوا بأنفسهم عند نهوضهم بأثقال المعرفة، وما أدركت من عجائب الربوبية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وأيضاً: لا يكلف الله حق عبوديته نفوس أوليائه إلا قدر ما يطيقون من جهة التقصير والضعف عند تحمل حقيقة العبودية؛ لأن من حق الربوبية أن تذوب الأرواح والأشباح في أول تكبيره كبروا تعظيماً وإجلالاً، وأن الله تعالى ما أظهر للخلق من معرفته إلا مقدار ما يعيشون به من جهلهم بربوبية ربهم، ولو أيقنوا أنهم في معزل من حقيقة العبودية وإدراك صرف الربوبية ماتوا حسرة على ما فاتوا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما كسبت أرواحهم من مقاساة الهجران في دار الامتحان، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ما اكتسبت النفوس من جرائم الخطرات عند مكاشفة الغيب للأسرار فيجازي الله النفوس في الدنيا بالدوب في المجاهدات، ويجازي الأرواح في الآخرة بصرف المشاهدات، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن كُنتِنَا﴾ أي: لا

تجيبنا بنا عليك إن نسيناك، ﴿أَوْ أَحْطَأْنَا﴾ بالتفاتنا إلى غيرك، ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ أي: اعف عنا قلة المعرفة بك، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ التقصير في عبادتك، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ بمواصلتك ومشاهدتك. وقال ابن عطاء: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ عند المصيبة واستر علينا في القيامة ولا تفضحنا بها على رءوس الأشهاد ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ هذا نجوى أهل الامتحان من المكاشفين والمجاهدين أي: نحن أسراء معرفتك وضعفاء محبتك، فارحمنا بتجلي العظمة حتى نقوى منك بك في محل العبودية وكشف الربوبية ﴿فَأَنْصُرْنَا﴾ بمعونة المعرفة وجند حقائق الإلهام عن مشاعر الألوهية، ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: على أوباش الطبيعة حتى يهزموا عن ميادين معارفك بتأييد معرفتك وتشريح من تشويشهم في صرف عبوديتك وطلب مشاهدة حضرتك.

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٤﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾

﴿الْم﴾ الألف إشارة إلى قدس فردانيته وامتناعه عن التصاق الحدث بقدمه، واللام إشارة إلى لطائف غيبه، والميم إشارة إلى غرائب ملكوته مما أخفى عن أعين الخلائق من قوة عيون أوليائه وأنبيائه، وأيضا الألف إشارة إلى أوليته، واللام إشارة إلى جلاله وجهاله، والميم إشارة إلى محبته لأوليائه في القدم، وقد جرت العادة بين الأحباب التخاطب بالحروف المفردات سترًا على الأحوال، وكتما للأسرار لئلا يطلع عليها أجنبي من هذه المعاني لغير هذه المباني.

كما قال: قلت لها قفي، قالت لي: قاف لكي لا يقف العاذلون على الأسرار، ونطقوا بهذه الإشارة حذراً من استشراف المترقين، هكذا سنة الإلهية خاطب خواص محبيه بالرموز والإشارات مثل الحروف المقطعة هي رموز من الحق لسادة أنبيائه وأوليائه تشریفاً لهم وتعظيماً على سائر الخلق، ومَنْ قرب من الله تعالى فالإشارة معه أدق والرمز معه أرق.

ألا ترى أنه تعالى أسمع كلمه أحسن العبارات، وأسمع حبيبه خطابه بأجل الإشارات، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر الكلام اختصاراً»^(١).

وقيل: العبارات للعموم والإشارات للخصوص.

وقيل: الإشارة في قوله: «ألف» أراد قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السر، والإشارة من الميم موافقة جريان التقدير لملاحظات الطلب من الأولياء، ولا يتحرك في العالم شيء، ولا يظهر ذرة إلا وهو محل الرضا منهم.

وإذا قرعت هذه الألفاظ أسماع المحيين تفهم حقائقها أسرارهم، وتقرأ معانيها من ألواح الإلهام أرواحهم القدسية، وكل حرف منها إشارة إلى اسم، والاسم إشارة إلى فعل والفعل إشارة إلى الصفة والصفة إشارة إلى الذات، فإذا لقيت هذه الرموز في قلوب العارفين رقوا مدارج الأسماء والأفعال والصفات حتى يبلغوا سرادق الكبرياء، فيكشف لهم معلومات السرمدية من الحق للحق فيفطنون علوم المجهولة التي ليست في ديوان الملكوت.

وقيل: الألف من الأحدية، واللام من اللطف، والميم من الملك.

وقال ابن عطاء: إن الله جعل الأحرف سبباً متصلاً بالخلق، وجعل المشكل لها سبباً متصلاً منه لها وهو سر الله، يعني المشكل لا يعلمه إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الحي الذي لا تقاس حياته ببعد الأوهام، ولا تدرك سمردية ذاته بغوص فطن الأنام، وأيضاً ﴿الْحَيُّ﴾ الذي حياته قام به العالم واستنارت بنورها روح آدم ﷺ، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي يبقى ببقائه أهل الفناء ويفنى بقهر قيوميته أهل البقاء، وأيضاً ﴿الْقَيُّومُ﴾ هو المقدس عن العلائق وقيامه لخلقه بنعت حفظهم ورحمته عليهم روح الخلائق.

وقال الأستاذ: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الذي لا يلهو فيشغل عنك، ولا يسهو فيبقى عنه فهو على عموم أحوالك رقيب شرك إن خلوت فهو رقيبك، وإن توسطت الخلق فهو قريبك.

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٦٠).

وقيل: ﴿الْحَيُّ﴾ الذي لا أول لحياته، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي لا أمد لبقائه.

وقال الكتاني في حقيقة ﴿الْحَيُّ﴾: الذي به حياة كل حي، ومن لم يحي به فهو ميت.

وقيل: ﴿الْقَيُّومُ﴾ مَنْ هو مزيل العلل عن ذاته بالنزوال، أو بالعبارة عنه وبالإشارة فلا يبلغ أحد شيئاً من كنه معرفته؛ لأنه لا يعلم أحد ما هو إلا هو.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَايَتِ اللَّهِ﴾ أي: إن الذين حجبوا عن مشاهدة الحق بنعت اليقين في رؤية شواهد الربوبية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لهم حرمان وجدان وصول مقامات أهل الهدايات.

وقال أبو سعيد الخزاز: كفروا بإظهار كرامات الله على أوليائه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ نفى الحق عن ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز أوليائه بولايته وإظهار الكرامات على مَنْ يشاء من عباده، ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ من يجحد ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ يعز أوليائه بعز التوحيد، ويتنقم من أعدائه إنكارهم على أمنائه بألا يهديهم إلى ما آتاهم من أنواع فضله وكرمه.

قال الواسطي: ﴿عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ عن أن يخالف إرادته أحد، بل يتنقم بما يجري عليه أن يكون عقوبته مقابلة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لا يخفي عليه شيء ما في صدور أوليائه في الأرض من لبب الاشتياق، ولا مما في قلوب أصفياء ملائكته تحت العرش من أزيز نيران الخوف، وهذا التسلية من الله تعالى لأوليائه أنه يعلم أحوالهم في شوقه، وإنه يجازيهم بمقاساتهم وممارستهم ابتلاءه، وأيضاً: كيف يخفى عليه شيء مما فطره من محدثات الكونين، لكن هذا تخويف من الله لأعدائه أنذرهم بأنه علم ما في ضمائرهم من دنس الكفر، وإنه يجازيهم بسوء أعمالهم.

وقال جعفر: لا بطلعن عليك، فيرى في قلبك سواء فيمقتك.

وقيل فيه: لا يخفي عليه شيء، فطالعوا همومكم أن تكون خالية عن الأهواء والشبهات، فإنه لا يخفى عليه شيء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(١) أي: الذي يلبسكم في الأرحام نور جمال القدرة، ويزينكم بحسن مكث المشاهدة ليسر الناظر إذا نظر إلى وجوهكم بإدراك حسن إبداعه وإظهار جلال ربوبيته في وجوهكم، كما قال تعالى لكللمه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

(١) هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسم، تفسير القرطبي (١ / ٢٧٨).

مَحَبَّةً مِّنِّي» [طه:٣٩]، وأيضًا ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ على استعداد الولاية والهداية، وأيضًا يصوركم ربانيين في علوم المعارف، أو مطمئنين في كشف نور الحقائق أو المخبتين تحت أثقال المعاملات أو المحسنين في شرف المقامات، كما كان في علم أزلته.

وقيل: يصوركم عالمًا به وعالمًا بصفاته وعالمًا بأوامره وجاهدًا له، فمن لم يصحبه حزن ما قدر عليه في وقت تصويره من السعادة والشقاوة فهو الجاهل به والأمين من مكروهه.

وقال محمد بن علي: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الأنوار والظلمات.

قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، وألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»^(١).

وقال الحسين: خصوصية تصويره إياك أنه قَوْمُكَ فسواك وعدلك، وأنزلت منزلة المخاطبين ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ المحكمات: التي لا تبدل مما كانت في الأزل، وهي آيات لا بدَّ للمؤمنين من استعمال أوامرهما؛ لأنها في إصلاح الخلق وتثبيت إيمانهم بمنزلة الدواء للمرضى.

قال أبو عثمان: هي فاتحة الكتاب التي لا تجزي الصلاة إلا بها.

وقال محمد بن الفضل: هو سورة الإخلاص؛ لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط، ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: مدار أوامر الكتاب، وموئل أصول المعاملات، ومنبت أشجار الإيمان في قلوب أهل المداناة بنعت المزيد، ويهيج الأرواح في اقتباس المخاطبات، ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ هي أوصاف التباس الصفات وظهور الذات في مزار الشواهد والآيات ﴿قَائِمًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أهل التقليد يخوضون في التشابهات طلبًا للتوحيد، وهم بمعزل عن شهوده؛ لأنهم أصحاب الوهم، وصاحب الوهم لا يعرف حقيقة الأشياء المحدثه، فكيف يعرف وجود الحق برسم الوهم، وإذا كان يطلب العلوم المتشابهة لم يبلغ حقيقتها ويقع في الفتنة، ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذات الله»^(٢). ومن لا يعبر بحار حقائق اليقين ولم ينظر في مرآة التحقيق، ورسم في التشابهات يسقط عن رسوم إيمانه، ولا يبلغ معاني التشابهات؛ لأنه مقام أهل العشق الذي يرون الحق في كل

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١٩٨/٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٦/١).

شيء.

كما قال بعض أهل المعاني: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

هذا وصف ظهور التجلي في قراءة الكون لا أن الحق تعالى حل في الأشياء؛ لأنه منزّه عن أشكال الحلول، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ خصّ نفسه بحقيقة علم تشابه أسرار التباس هيئات الجبروت في الملكوت بنعت ظهور تجليه لأهل حقيقة التوحيد والتفرد، وأضاف إلى أوليائه من أهل العشق خاصة طرفاً من علم المشاهدة بنعت الالتباس في حقيقة المكاشفة، ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ إيمان مشاهدة وحقيقة علم وعرفان مكاشفة، والراسخون هم الذين كشف لهم أسرار العلوم الدنيوية، وعجائب معلومات الآخرة الخارجة من أنصار الطاهرة، وأيضا الراسخ الرباني الذي تخلق بخلق الحق جلت عظمته أن يكون له كفواً.

وقال الواسطي: هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب في سر السر فعرفهم وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ما كشف لهم من مدخور الخزائن تحت كل حرف منه من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم.

وقال سهل: الرسوخ في العلم زيادة بيان ونور من الله، كما قال: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: الراسخ في العلم من علوم المكاشفة رباني نوراني وذاتي، وأحكام العلوم أربعة: الوحي والتجلي والعندي واللدني.

وقال بعضهم: الراسخ في العلم مَنْ طوّل على محلّ المراد من الخطاب.

وصف الأستاذ -رحمه الله- أهل اليقين وأهل الزيف، قال: أما الذين أيدوا بأنوار البصائر، فمستضيئون شعاع شمس الفهم، وأما الذين أسبلوا غطاء الريب، وحرّموا لطائف التحقيق فتنقسم بهم الأحوال، وترتجم لهم الظنون، ويطيحون في أودية التلبيس فلا يزدادون إلا جحداً على جحد، ونفوراً على شك.

قال: وَمَنْ وجد علم التأويل من الله عز وجل فيكون إيمانهم بلا احتمال لجولان خواطر التجريد، بل عن صريحات الظهور وصافيات اليقين.

قال: وأصحاب العقول هم في صحة التذكير لوجود البراهين وستر أحكام التحصيل، وأيضا الراسخون في العلم المشاهدون بنعت الأرواح قبل الأشباح في ديوان الأزل، قد عاينوا مكنونات أسرار خصائص العلوم القديمة، وفهموا منها عواقب شأنهم في مدارج البقاء فرسخوا في بحر عين اليقين، ولم يتزلزلوا في ظهور الحكومات بنعت التصارييف والتحويل،

والمكر والخديعة فلم يهزموا عن صولات القهر وتخوفه، وثبتوا صدمات الله، وفي الله فيما ظهر من الله من رسم المحو والطمس، وعلموا أن جميعها ابتلاء، وامتحان فسكنوا في العبودية رسماً، ورسخوا في مشاهدة الربوبية حقيقة وصرفاً.

﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿٣﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٦﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿٧﴾ قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تزغ قلوبنا بفقدان الطمأنينة بذكرك، وأيضا: لا تزغ قلوبنا عن قربك ومحبتك بعد إذ هديتنا إلى معرفتك ومحبتك ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ علما خاصا ومعرفة تامة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وهب ما لا يحصى شكره.

وقال سهل: رجع قوم للتضرع إليه والمسكنة بين يديه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تمل بقلوبنا وأسرارنا عن الإيمان بك إذ مننت علينا به.

وقال جعفر: لا تزغ قلوبنا عنك بعد إذ هديتنا إليك من لدنك رحمة لزوما لخدمتك، على شرط الستة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي بفضله عبادا ما لا يستحقونه من نعمة. وقال الأستاذ: ما ازدادوا قربا إلا ازدادوا أدبا، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب.

وقيل: حين صدقوا في حسن الاستعانة أيدوا بأنوار الكفاية، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنك جامع أهل الحقيقة على بساط القربة على بساط الكرامة، والموقنون على بساط المشاهدة والمحبون على بساط الوصل، والعارفون على محل الأنس، وكل طائفة تبلغ عندك بطي متهى مقاصدهم التي كانوا في الدنيا من رسم المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

وقال الأستاذ: اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغداً جمع الأستار لشهود الأحوال ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لا يخلف ما وعد لأنبيائه وأوليائه من وصولهم إلى مشاهدته بعدما خاطبهم حين أبدع أرواحهم قبل وجود الكونين تعريف نفسه لهم بلا كلفة العذاب ومشقة الحساب، وأيضاً لا سبيل لتغير الحدثن إلى قدم علم الرحمان؛ لأنه تعالى منزّه عن أن يفعل شيئاً بعلم يحدث في نفسه.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: الميعاد الذي وعد من السعادة والشقاوة في أزلي علمه لا يخلف ميعاداً لزهد زاهد، ولا لفسق فاسق.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ قال: في إنزال كل واحد ما كان من الأعواض إيصال الخواص إلى محل الخاص من اللقاء والقرب، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يؤيد حتى يجاهد نفسه على شرائط السنة ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خواص عبادته، وأيضاً ألبس أوليائه أنوار هيئته ليفرق الشيطان بها عن أسرار مراقباتهم.

وقيل: يوفق مَن يشاء من عبادته للزوم السنة، وترك البدعة.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ابتلاهم حتى يظهروا الصادق بترك هذه الشهوات من الكاذب بالشروع في طلبها.

قيل: مَن اشتغل بهذه الأشياء قطعه عن طريق الحق، ومَن استصغرها، وأعرض عنها عوض عنها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق.

﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ ۖ أَي: لَمَن اتقى الله عما سوى الله جنات المقامات في المداناة فإن تبقى المتقي من الدنيا وشهواتها فله جنة اليقين، وإن تبقى المتقي من الآخرة فله جنة المكاشفة، وإن تبقى من النفس فله جنة المشاهدة بنعت الرضا كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وقيل: مَنْ عمل رجاء الجنة فإن غاية بلوغه إلى غاية رجائه من دخول الجنة، ومن كانت معاملته على رؤية الرضا فإن له الرضوان، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) بصير بالعباد في تقلب أرواحهم في عالم الملكوت محترقات من سطوات أنوار الجبروت حباً لجواره وشوقاً إلى لقائه، يجازيهم بقدر همومها في صرف طلب وجه الأزل وجمال الأبدى.

وقيل: عالم بهمم العاملين وإرادتهم.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ﴾ شهد الله أنه، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُوتُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ الصابرين عن جميع حظوظهم لله، والصادقين في معاملة الله، والقانتين بنعت الرضا عن الله، والمنفقين نفوسهم لله وبالله، والمستغفرين عن التفاتهم إلى غير الله بالأسحار حين أشرقت أنوار المشاهدة لأهل المكاشفة.

وأيضاً: الصابرين عن الله بالله، وبالله لله، والله في الله، والله مع الله، والصادقين في دعوى محبة الله بنعت كشف مشاهدة الله، والقانتين بشرط الإخلاص في عبودية الله، والمنفقين حياتهم في رضا الله، والمستغفرين عن الخطرات في أوقات المناجاة.

وقيل: الصابرين على صدق المقصود، والصادقين في العهود، والقانتين لحفظ الحدود، والمستغفرين عن أفعالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

وقيل: الصابرين الذين صبروا على الطلب، ولم يتعللوا بالهرب، ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطرب يصبرون على البلوى، ورفضوا الشكوى حتى وصلوا إلى الموتى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

والصادقين: الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم وردوا ثم صدقوا حين شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا تزينهم قصوداً، ثم وردوا، ثم شهدتهم وجوداً، ثم خموداً.

(١) أي: بنياتهم ومقادير ما يستحقونه بها على حسب إخلاصها، وبغير ذلك من أفعالهم وأقوالهم وسائر أحوالهم. نظم الدرر (٥ / ٢).

والقانتين: الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرع الاكتساب، وترك المحاب، وبغض الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

والمنفقين: الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، ثم جادوا بميسورهم من الأموال، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل والآجل استهلاكًا عن القرب في الوصال بما لقوا به من الاصطلاح والاستيصال.

والمستغفرين: عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني: ظهور الأسفار، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار.

وقال أبو عمرو المكي: ليس الصبر ترك الاختيار على الله، ولكن الصبر هو الثبات فيه، وتلقي بلاءه بالرحب والرغبة.

وقال عمرو: من صبر على رؤية المنة يكون تلذذه بالبلاء كتلذذه بالمنن إذ هما من عين واحدة.

وقال جعفر: الصبر ما كتب فيه محفوظًا، والتصبر فيه ما رددت فيه إلى حالك وعجزك.

وقال ابن عطاء: الصابرون هم الذين صبروا بالله في طاعة الله مع الله، والصادقون هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه عن صدق قويم، واعتقاد صحيح وسر لا يشوبه شيء، والقانتون هم الذين أطاعوا في سرهم وعلايتهم، والمستغفرون بالأسحار الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

وقال بعضهم: الصابرون مع الله على موارد قضائه، والصادقون في توحيدهم ومحبتهم والقانتون الراجعون إليه في السراء والضراء، والمنفقون ما سواه، والمستغفرون بالأسحار من أفعالهم وأقوالهم.

وقال ابن عطاء: الصابرون الذين صبروا على ما أمروا به، والصادقون الذين صدقوا ما أقرؤا به من الميثاق الأول والقانتون القائمون لقنون العبادات، والمنفقون الذين ينفقون أنفسهم وأرواحهم في رضا مولاهم، والمستغفرون بالأسحار الذين لا يفترون عن خدمته بحال.

وقال أيضًا: الصابرون الذين حبسوا أنفسهم على مطالعة المكاشفات، والصادقون الذين صدقوا في محبته، والقانتون الذين ربطوا أنفسهم بخدمته، والمستغفرون بالأسحار لزمو الباب إلى أن يؤذن لهم.

وقال أيضًا: الصبر مقام المحبين، والصدق مقام العارفين، والقنوت مقام العابدين، والإنفاق مقام المريدين، والاستغفار مقام المذنبين.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ إن الله تبارك وتعالى وتقدس

كان بداية وصفاته عالمًا وعارفًا كما ينبغي منه لنفسه فشهد بنفسه قبل القبل، وكون البعد وكون الكون؛ فليس مقابل علمه بنفسه جهل، وليس مقابل معرفته بنفسه نكرة، وليس مقابل شهادته بنفسه عجز ووحشة، بل وصف نفسه بنفسه، وشكر نفسه بنفسه، إذ ليس للخلق إلى معرفته، والعلم بنفسه سبيل فأثنى بنفسه على نفسه لعلمه بعجز خلقه عن معرفة وجوده، فمراده من شهادته بنفسه قبل وجود العالم تعليمًا لعباده تطفًا منه عليهم، وإلا هو منزّه عن وجود الخلق، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، فشهادته لنفسه حقيقة، وشهادة الخلق له رسم، والحقيقة بدت من الحقيقة، وتعود إلى الحقيقة، والرسم بدء من الرسم، ويعود إلى الرسم؛ لأن القدم مفرد عن الحدث من جميع الوجوه علمًا ورسمًا وحقيقة.

ثم خلق الملائكة وكشف لهم ذرة من نور قدرته فاقبسوا من نوره نورًا فأبصروا به آثار أفعاله القديمة فشهدوا به وبوحدانيته وأزليته وسرمديته، رامتهم في العبودية لا حقيقة منهم في الربوبية، فرضي الله تعالى به عنهم أمرًا ورسمًا لا حقيقة ووصفًا، ثم خلق الأنبياء والأولياء، وأبرز لهم أنوار جماله ذاته في مصابيح أرواحهم قبل الأجساد بألفي ألف عام، فنظروا بنوره إلى جمال جلاله وتحيروا في كنه عظمتهم وكبرياء جبروته، وعجزوا عن ثنائه ووصفه وشكره لنفسه.

خاطبهم الحق جل سلطانه بنعت تعريف نفسه لهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴿[الأعراف: ١٧٢]؛ فشهدوا بعد إقرارهم في محل الخطاب، فشهادتهم رسم التعليم لا من حقيقة رسم القديم، والفرق بين شهادة الملائكة، وبني آدم من أهل العلم أن الملائكة شهدوا من حيث اليقين، وأولوا العلم من حيث المشاهدة وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية الأفعال، وشهادة العلماء من رؤية الصفات.

وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية العظمة وشهادة العلماء من رؤية الجمال، لأجل ذلك يتولد من رؤيتهم الخوف، ومن رؤية العلماء الرجاء.

وشهادة العلماء بالتفاوت فشهادة بعضهم من المقامات، وشهادة بعضهم من الحالات، وشهادة بعضهم من المكاشفات، وشهادة بعضهم من المشاهدات، وخواص أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القدم، وبروز نور التوحيد من جمال الوحدانية، فشهادتهم مستغرقة في شهادة الحق؛ لأنهم في محل المحو من رؤية القدم، وسئل سهل بن عبد الله عن هذه الآية فقال: شهد بنفسه ومشاهدة ذاته، واستشهد من استشهد من خلقه قبل خلقه لهم

فكان في ذلك تنبيهاً أنه عالم بما يكون قبل كونه لا يتجاوز أحد من حكمه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾^(١): دلنا من نفسه على نفسه بأسماء، وفيه بيان ربوبيته وصفاته فجعل لنا في كلامه وأسمائه شاهداً ودليلاً، وإنما فعل ذلك لأن الله وحد نفسه ولم يكن معه غيره، وكان الشاهد عليه توحيده ولا يستحق أن يشهد عليه من حيث الحقيقة سواء، إذ هو الشاهد فلا شاهد معه، ثم دعا الخلق إلى شهادته فمن وافق شهادته شهادته فقد أصاب حظه من حقيقة التوحيد، ومن حُرِمَ صَلَّ.

وقال ابن عطاء: إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصدقية والأبدية، ثم خلق الخلق فتشغلهم بعبادة هذه الكلمة فلا يطيقون حقيقة عبادتها؛ لأن شهادته لنفسه حق وشهادتهم بذلك رسم وأنى يستوي الحق مع الرسم.

وقال أبو عبد الله القرشي في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ فقال: هو تعليم منه ولطف وإرشاد لعباده إلى أن شهدوا له بذلك، ولو لم يعلمهم ذلك لم يرشدهم لهلكوا كما هلك إبليس عند المعارضة.

وقال بعضهم: شهادة الله لنفسه بما شهد به شهادة صدق، ولا يقبل الشهادة إلا من الصادقين فظهر بهذا أنه لا يصلح التوحيد إلا للصادقين دون غيرهم من الخلق.

وقال أبو يزيد -رحمة الله عليه- يوماً لأصحابه: بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول: لا إله إلا الله، فما قدرت عليه.

قيل: ولم؟ قال: ذكرت كلمة قلتها في صباي جاءني وحشة تلك الكلمة فمنعني عن ذلك، وأعجب ممن يذكر الله وهو متصف بشيء من صفاته.

وقال الشبلي: ما قلت قط الله إلا واستغفرت من ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ فمن يشهد بذلك له من الأكوان إلا عن أمر أو غفلة.

وقال ابن عطاء: أول ما خلقوا في حقائق البقاء مع الله فنوا عن كل شيء دون الله حتى

(١) قال الحرالي: فأعاد بالإضمار ليكون الشاهد والمشهود له (لا إله إلا هو) فأعاد بالهوية لمعنى الوجدانية في الشهادة ولم يقل: إلا الله، لما يشعر به تكرار الاسم في محل الإضمار من التنزل العلي انتهى. والمعنى أنه سبحانه وتعالى فعل فعل الشاهد في إخباره عما يعلم حقيقته بلفظ الشهادة جرياً على عادة الكبراء إذا رأوا تقاعس أتباعهم عما يأمرهم به من المهمات في تعاظمهم له بأنفسهم تنبيهاً على أن الخطب قد فدح والأمر قد تفاقم، فيتساقط حينئذ إليه الأتباع، ولو أن فيه الهلاك تساقط الذباب في أحلى الشراب. نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٩).

ثبتوا مع الله.

وقال الشبلي: شهادة أن لا إله إلا الله عشرة أحرف ستة في الظاهر، وأربعة في الباطن، فأما التي في الظاهر فذكر الله بلا رياء، والثاني: أداء الأمر بلا عيب ولا تقصير، والثالث: كف النفس عن المحارم، والرابع: النصيحة للمؤمنين، والخامس: الفرار من الآثام، والسادس: معاداة النفس، وأما اللواتي في البواطن فإيمان ومعرفة بالقلب ونية وخشوع وفكرة واستقامة مع رؤية التوفيق فمن فعل هذا كله فقد شهد الله بالحقيقة.

وقيل للشبلي: لم تقول: الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟

قال: القول شمس تغالب فقدّها بشوئها، فإذا استحال الفقد ماذا يغلب، ثم قال: وهل

يُنْفَى إلا ما يستحيل كونه؟ وهل يثبت إلا ما يجوز فقده؟

وقال المزني - رحمه الله: دخل ابن منصور مكة، فسُئِلَ عن شهادة الزور للحق بالوحدانية، وعن التوحيد فتكلم فيه حتى نسينا التوحيد، فقلنا: هذا يليق بالحق به من حيث رضي به نعتًا وأمرًا، ولا يليق به وصفًا ولا حقيقة، كما رضي بشكرنا لنعمه، وأنى يليق شكرنا بنعمه.

وقال: ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا

يبقى مشير ولا إشارة.

وقال أبو سليمان الداراني: تطلب رضا ربك، وتبخل بمالك وتعجز عن طاعتك كلا

فالشاهد لله بالحقيقة من لا يخل بروحه ونفسه وقلبه في رضا مولاه.

وقال بعضهم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ علم الله لأنه معلوم نفسه بكمال العلم والشهادة إخبار

عن العلم والإسلام أصول وفروع وكلها تتشعب من أصل واحد وهو الوحدانية.

وقيل في قوله: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾: أن العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله وأحكامه فهم علماء

الشرعية، وعالم بصفاته ونعوته فهم علماء السنة، وعالم به وبأسائه فهم العلماء الربانيين.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز أن يتمتع كنه قدمه من مطالعة

المخلوقين، وأيضًا العزيز الذي لا يصفه أحد إلا برسم وصفه نفسه الحكيم، هو الذي حكم حقيقة الشهادة لنفسه ورسمها بعباده.

والحكيم أيضًا الذي حجب الخلق عن نفسه أن يروه بما حصل لهم من رسم توحيده في

قلوبهم، أن ما حصل من رسوم التوحيد للعباد مشوب بطيف الخيال، وما يبرز من حقيقة التوحيد من جلال عظمتة يخالف ما خطر في قلوبهم.

وقيل: العزيز الممتنع عن أن يلحقه توحيد موحد أو وصفة واصف إلا على الأمر

به، الحكيم فيما يشهد به لنفسه.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ^١ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^٢ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^٣﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ^٤ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ^٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^٦﴾ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ^٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ^٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ^٩﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّتَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^{١٠}﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١) وقف الإسلام الرضا بمراد الحق وإمضاء قضائه وقدره بنعت استقامة السر في الباطن، وقلة الاضطراب في الظاهر، ووجدان لذة المحبة وقت نزول البلاء في المحنة.

قال أبو عثمان: ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ ما سلم لك من البدع والضلالة والأهواء، وسلمت فيه من الرياء، والشهوة الخفية، ورؤية الخلق، وتعظيم الطاعة.

وقيل: إنَّ المتدين بالإسلام من سلِم من رؤية الخلق، وسلِم قلبه من شهوات نفسه، وسلِم روحه من خطرات قلبه، وسلم سره من طيران روحه، فهو في حال الاستقامة مع الله. وقال بعضهم: أركان الإسلام أربعة: التواضع، والألفة، وكظم الغيظ، والصبر، إذا تمَّ هذه الأربعة وجد منه أربعة أخرى: من التواضع التوكل، ومن الألفة التسليم، ومن كظم الغيظ التفويض، ومن الصبر الرضا.

(١) الدِّينُ الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلقَّيه - هو الإسلام، والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود. تفسير القشيري (٢٩١/١).

قال جعفر الصادق: إذا لم يكن إسلام العبد على معرفة النعم من الله، والتوكل عليه، والتسليم لأمره؛ فهو على اسم الإسلام، لا على حقيقته.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ خصَّ الله تعالى نفسه، ومدحه بملك الربوبية، وأنه ذو الملك والملكوت والجبروت وملكه قديم، وهو موصوف به في الأزل، ويبقى له إلى أبد الأبد، وهو مفرد به؛ ثم خصَّ بملكه الذي هو صفاته من يشاء من أنبيائه وأوليائه، فالملك الذي خصَّ الأنبياء هو الاصطفاء، والاجتباء، والخلافة، والخلة، والمحبة، والتكليم، والآيات، والمعجزات، والمعراج، والمنهاج، والرسالة، والنبوة.

وخصَّ بما ذكرت من بين الأنبياء صلوات الله عليهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ويونس ولوط، وشعيب، وحزقيل، وخضر، وموسى، وهارون، ويوشع، وكالب، وأيوب، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد سيد الرسل خاتم الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين.

فكسا الله تعالى سفرة الأنبياء والرسل عليهم السلام كسوة الربوبية والسلطنة؛ فظهرت منهم الآيات والمعجزات وقهروا بعز ملك النبوة والرسالة جبابرة الأرض، وهذا موهبة خالصة أزلية سبقت لهم بعناية الله تعالى في أزل علمه، وحرّمها على أهل الخذلان في سابق علمه وهو معنى قوله: ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾، وما قال تعالى لخليله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأما الملك الذي خصَّ به أوليائه فعلى أربعة أقسام: قسم منها الكرامات والآيات مثل: تقلب الأعيان، وطبي الأرض، واستجاب الدعوة؛ وهو لأهل المعاملات، وقسم منها وهو أشرف من الأول وهو المقامات مثل: الزهد، والورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والتفويض، والتقويم، والصدق، والإخلاص، والإحسان، والاستقامة، والطمأنينة؛ وهو لأهل الدرجات، وقسم منها وهو أشرف من الثاني هو الوجد، والنجوى، والمراقبة، والحياة، والخوف، والرجاء، والمحبة، والشوق، والعشق، والسُّكر، والصحو؛ وهو لأهل الحالات، وقسم منها وهو أشرف من الثالث هو الكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد والتفريد والفناء والبقاء وهو لأهل المعاينات، فهذه الأحوال التي ذكرناها أصل ملك الولاية، فمن خصَّ بها فقد بلغ ذروة ملك الأزل والأبد، ومن حُرِم منها فقد

سقط عن حظ الدنيا والآخرة، يَعْرِثُهَا سادة أوليائه فهلكوا جميع القلوب بفراصة نور الغيب، ويذل بانزاعها عن أعدائه حتى لا ينالوا عهد كرامته في الدنيا والآخرة، وَأَيْضًا ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني: صرف المحبة بحلية الكرامة، ونعت الطهارة عن الأكوان، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾ ملك العبودية وعرافان الربوبية ﴿مِمَّنْ نَشَاءُ﴾، أي: مَنْ ليس له استعداد المعرفة، ﴿وَتُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالأنس، والشوق، والعشق، ﴿وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالخذلان، والحرمان، وفقد حقائق القرآن.

قال أبو عثمان: ﴿الْمُلْكُ﴾ الإيوان وهذا دليل على أن الإيمان لا يتحقق على شخص إلا بعد الكشف والسلامة له في الانقلاب إلى ربه، وربما يكون عارية، وربما يكون عطاء، قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ فهو مترسّم برسم الملوك، وقد نزع منه ملكه .

وقال بعضهم: ملك الدين، والشرعة، وفرضها، وستنها، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾ الهداية والتوفيق، ﴿وَتُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بولايتك ﴿وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بإهانتك، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ إنك القادر على مَنْ تشاء، كيف تشاء.

وقال محمد بن علي: الملك المعرفة، تعطي معرفتك مَنْ تشاء من عبادك، وتنزعها عمن تشاء، ﴿وَتُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ باصطفائك واجتباائك، ﴿وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالإعراض عنه، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: منك الاصطفاء والاجتباء، قبل إظهار عبادة العابدين.

وقال الحسين: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ فتشغله به، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾ أي: بمن اصطيفيته لك فلا يؤثر فيه أسباب الملك لأنه في أسرار الملك، ﴿وَتُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ بإظهار عزتك عليه، ﴿وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾^(١) بإنصافه برسوم الهياكل.

وقال الواسطي: طوبى لمن ملكه قلبه وجوارحه، كي يسلم من شرورها.

وقال الشبلي: ﴿الْمُلْكُ﴾ الاستغناء بالمكون عن الكونين.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ

(١) بخذلانك، وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحذك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك وتعز من تشاء يئمن إقبالك، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك، وتعز من تشاء بأن تؤنسك بك، وتذل من تشاء بأن توحشك عنك، وتعز من تشاء بأن تشغله بك، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك، وتعز من تشاء يسقوط أحكام نفسه، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه، وتعز من تشاء بطوالع أنسه وتذل من تشاء بطوارق نفسه، وتعز من تشاء ببسطه بك، وتذل من تشاء بقبضه عنك.

الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ تُولِجُ دخان البشرية في سلطان صفاء التوحيد، وأيضًا تلاشي ظلمة النفوس في أنوار الأرواح، وأيضًا أفنى ظلمة الطباع في صفاء القلوب، وأيضًا تحرق سجوف ليالي المهجران بطلوع شمس العرفان، وأيضًا تحرق حُجب الحدودية عند ظهور سناء قدس الصمدية، وأيضًا ترفع قوام الملكوت حين تبرز أنوار جمال الجبروت.

﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: تفني أنوار الأسرار في أطباق ظلمات الطباع، وأيضًا أي: تسبل حجاب الفناء على وجوه أهل البقاء، وأيضًا: ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ حين كسفت شمس المعرفة في منازل النكرة، وغلبت ظلمة الفترة على نور المعاملة.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: تخرج أشجار أنوار المعرفة بكشف جمال المشاهدة من القلوب الميتة بتواتر الفترة.

وأيضًا: تخرج أرواح القدسية بأصوات جرس الوصلة عند غلبات الوجود من الأشباح المضمحلة، تحت أثقال سلطان كشف توحيد الوجدانية إلى فضاء السرمدية لتجول في سرادق الكبرياء، وخيام الملكوت، طلبًا لمشاهدة جمال الجبروت.

وأيضًا: يخرج العارف العاشق من العامي الغافل، وأيضًا أي: مياه دموع العارفين بنيران الوجد من قلوبهم الخالية عن آثار المشاهدة ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: العامي من الولي الحي بالمعرفة ورؤية مشاهدة خالق الخلق جل وعز.

وأيضًا: إذا يبست عيون المعرفة في قلوب العارفين من حرارة امتحان القهر يخرج منها حنظل الشرك مكان سكر التوحيد، وعصاه الشك مكان نرجس اليقين، وأورقت فيها أشجار الغفلة بأوراق هموم المذمومة، ويبست رياحينها بانقطاع عنها مياه صفاء المعاملة ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من هذه المقامات المختلفة بغير رؤية ولا تدبير الإنسانية.

وأيضًا: ترزق العارفين مقام المشاهدات وترزق المشتاقين مقام المكاشفات، وترزق المحبين مقام المدانة وترزق الموحدين مقام البقاء، والفناء، والصحو، والسكر، والاتحاد،

وترزق العاشقين مقام الجمع والفرقة، وترزق الأحرار مقام التلوين والتمكين بغير حساب أكثر من أن يحصى عدد أسرارها ويعد حقائق أنوارها ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا يصحب العارف الجاهل ولا المخلص المرائي، ولا الصادق الكذاب، ولا المؤمن المبتدع المنكر، ولا المريد الصادق الفاتر المدعي، ولا يحب أهل الحق أهل الباطل حتى ينالوا ببعضهم مقام حقيقة العبودية.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لا ينال من الله تعالى درجة أهل محبته وقربته ومعرفته، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ حذر أصفياءه بالفراق عن وصله بسبب حبة أعدائه، وبهذا التخويف يربي خواص أحبه في قباب الشفقة وأسبل بهذا عليهم نقاب الغيرة حتى لا يراهم أحد سواه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ مشفق بأوليائه وأهل طاعته بأن يسترهم عن أبصار الغفلة والجهلة وأكرمهم بصحبة أهل التوحيد والمعرفة، وبسط لهم بساط الشريعة والحقيقة حتى يردوا موارد الأنبياء والرسل، وشربوا من مناهل المقربين شراب الصفاء، ولبسوا من نسج الكروبيين أثواب الوفاء.

وسئل أبو عثمان عن قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ فقال: لا ينبسط شيء إلى مبتدع؛ لفضل عشيرة، ولا لقراة نسب، ولا نلقاه إلا ووجهه له كاره، فإن فعل شيئاً من ذلك فقد أحب من أبغضه الله، وليس بولي الله من لا يوالي أولياء الله، ولا يعادي أعداءه. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: إننا يحذر نفسه من يعرفه، فأما من لا يعرفه؛ فإن هذا الخطاب زائل عنه.

وقال الواسطي: يحذركم الله نفسه في دعوى إتيان شيء من الطاعات؛ إذ فيه جذب الربوبية.

وقال أيضاً: ذلك ألا يأمن أحد أن يفعل به ما فعل إبليس زينة بأنوار عصمته، وهو عنده في حقائق لعنته، وسبق عليه ما سبق منه إليه حين غاضبه فجأة بإظهار علته.

وقال أيضاً: إنه لا يحذر نفسه من لا يعرفه، وهذا خطاب الأكابر، وأما الأصاغر فخطابهم: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ هذا الخطاب للأكابر ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ خطاب للأصاغر.

وقال ابن عطاء: احذر سطوته ونقمته؛ فإنه عزيز قهار، وابدل روحك له، واعلم أنك

مقصر مع هذا كله، وأنشد:

لَا تَعْرِضْ بِنَا فَهَذَا بَنَانٌ قَدْ خَضِبَتْهُ بِدَمِ الْعُشَاقِ

وقال الواسطي: يحذرکم أن تثبتوا نفسه بنفوسکم وصفة القديمة علیکم بأحوالکم الخديعة، وأن تنسوا الأزلية بالآخريّة، والربوبية بالعبودية، فإنّ الأصل أتم من الفرج، وإنّ العبودية إنما ظهرت بالربوبية.

وقال إبراهيم الخوّاص: علامة الحذر في القلب دوام المراقبة، وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة.

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أن تشهد لنفسك بالصلاح؛ لأنّ مَنْ كانت له سابقة ظهرت سابقته في خاتمته.

قال الأستاذ: الإشارة من قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للعارفين، ومن قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للمشتاقين، فهؤلاء أصحاب العنف والفتوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

وقيل: إغناؤهم بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ثم أحياهم فأبقاهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وقال ابن عطاء - رحمه الله: العبادة أجمع مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، وخصّ رحمة الرسول ﷺ موقوفة على المؤمنين دون مَنْ سواهم، وهذا كقول إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإنّه لا رازق في السماوات والأرضين غيره، وسن في ربوبيته تعالى أن يحذر أوليائه وأعداءه، فحذر أعداءه بما صدر من أفعاله القديمة من نكال الجحيم والخطمة؛ لأنّها قهر بالواسطة بين الأفعال والصفات، وحذر أوليائه والمؤمنين خاصة صفاته وذاته، فتحذير المؤمنين بالصفات كالحرّمات والهجران عن نواله وكرامته، وتحذير أوليائه بعزة نفسه، وهم على طبقات شتى، وجمعهم في وصول التوحيد، وفرّقهم في منازل المقامات، فحذر التائبين بالسلطنة، وحذر الخائفين الوجلين بسطوات العظمة.

وحذر المحبين والمشتاقين والعاشقين بالعزة والجبرية، وحذر العارفين والموحدين بصدمة الكبرياء والظلمات بحر الديمومية، وبهذه الصفات يحذر أهل انبساط والبسط والرجاء لسقوط سوء الأدب عنهم في مدارج التوحيد والكرامة.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ اللَّهَ صَظَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: قل إن ادعيتكم محبة الله وأنتم صادقون فيما ادعيتم فاتبعوني فإني سيد المحبين، ورئيس الصديقين، ومقدم المرسلين، وقدوة المريدين حتى أريكم مغيبات المهلكات، وغوامض طريق المنجيات، ودقائق أحكام المشاهدات، وأسرار لمعات المداناة، وأرشدكم إلى أحسن المعاملات، وأفضل الطاعات، وأعملكم حسن الآداب، ونفائس الأخلاق، زاد إلى المآب؛ لأنَّ قد كوشفت بأسرار المحبة، وأنوار القرية، وإن متابعتي حقيقة شكر محبة المحبوب، وإذا شكرتم الله بمتابعتي زادكم الله محبته ومعرفته، قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وقال: ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وحقيقة المحبة عند العارفين والمحبين احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح بلذة العشق، واستغراق الحواس في بحر الأنس، وطهارة النفس بمياه القدس، ورؤية الحبيب بعين الكل، وغمض عين الكل عن الكونين، وطيوان السر في غيب، وتخلُّق المحب بخلق المحبوب، وهذا أصل المحبة.

أما فرع المحبة فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه، وتقبل بلائه بنعت الرضا، والتسليم في قضائه وقدره بشرط الرفاء ومتابعة سنة المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- وأما آداب أهل المحبة الانقطاع عن الشهوات واللذات، والمسارة في الخيرات، والسكون في الخلوات والمراقبات، واستنشاق نفخات الصفات، والتواضع في المناجات، والشروع في النوافل والعبادات، حتى صاروا متصفين بصفات الحق، ومنقادين بنوره بين الخلق.

قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت له سمعًا، وبصرًا، ولسانًا، ويدًا»^(١).

وصرف المحبة لا يكون إلا بعد أن يرى الروح الناطقة بعين السر مشاهدة الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعمة؛ لأنَّ المحبة إذا كانت من تولد رؤية النعماء تكون محبة معلولة، وحقيقة المحبة ما لا علة فيها من المحب، والحبيب شيء دون المحبوب.

وقال أبو عمرو بن عثمان: محبة الله هي معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب

به، ودوام انتصاب القلب بذكره، ودوام الأنس به.

وقال محمد بن حنيف رحمه الله: المحبة: الموافقة لله في التماس مرضاته.

وقال بعضهم: المحبة هي موافقة القلوب عند بروز لطائف الجلال.

وقال أبو يزيد: أحببت الله حتى أبغضت نفسي، وأبغضت الدنيا حتى أحببت طاعة الله، وتركت ما دون الله حتى وصلت إلى الله، واخترت الخالق فاشتغل بخدمتي كل مخلوق.

وقيل: المحبة هي اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله وآدابه إلا ما خُصَّ به؛ لأنَّ الله قرَن محبته باتباعه.

وسُئِل الأنطاكي: ما علامة المحبة؟ قال: أن يكون قليل العبادة، دائم التفكير، كثير الخلوة، ظاهر الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحدًا، ولا يرجوه.

وسُئِل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة، قال: الذي لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفوة.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ قيد أسرار الصديقين بمتابعة نبيه ﷺ لكي تعلموا أنهم وإن علمت أحوالهم وارتفعت مراتبهم لا يقدرُون مجاوزته ولا اللحاق به.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية أمر بطلب نور الأدنى من عَمِي عن نور الأعلى، وأقول: لا وصول النور الأعلى من لم يستدل عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى والتمسك بأداب صاحب نور الأدنى ومتابعته فقد عمي عن نورين جمعًا، وألبس ثواب الاعتزاز.

قال أبو يعقوب السوسني: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من ربه، وينسى حوائجه إليه.

قال الواسطي: لا تصح المحبة والإعراض على سره أثر والشواهد في قلبه خطر بل صحة المحبة نسيان الكل في استغراق مشاهدة المحبوب وفناؤه به عنه.

وقال ابن منصور: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، والاتصاف باتصافه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: محبة توجب حقن الدم، ومحبة توجب سفكه بأسياف الحب، وهو الأجل.

وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»: «على البر والتقوى والتواضع، وذلة النفس»^(١).

وسئل عمرو بن عثمان المكي عن المحبة! قال: المحبة في نفسها أصلها التواضع في القلوب من لطف المعاني التي يعاينها من المحبوب على شرط ما تعلقت به.

وسئل سهل بن عبد الله: ما علامة المحبوب؟ فقال: ألا يزال لسانه ذاكراً لحبيبه مشغولاً به، مستأنساً مسروراً به، حامداً شاكراً له، وجوارحه مشغولة بمرضاة حبيبه، فهو المحب له، والمرضي عنه.

وقال الأستاذ: المحبة تشير إلى صفاء الأحوال، والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب بالسر، ويقال: أحب البعير إذا استناخ، فلا يبرح بالضرب، وللحب حرفان حاء وباء، والإشارة بالحاء إلى الروح، والإشارة من الباء إلى البدن، والمحب لا يدخر عن محبوه لا قلبه ولا بدنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية اصطفى آدم بعلم الصفات، وكشف جمال الذات قبل خلق الخلق في أزل الأزل، فإذا أراد خلق روحه نظر بجماله إلى جلاله، ونظر بجلاله إلى جماله فظهر بين النظيرين روح آدم فخلقها بصفة الخاص، ونفخ في روحه روحاً، وهو علم الصفات بفعل الخاص الذي يتعلق بالذات، وخلق أيضاً صورته بصفة الخاص، ونفخ فيها روح الأول وروح الثاني، فوصف روحه فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] ووصف صورته فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فسبق بهذه الصفات من الملائكة الكرام البررة، وألبسه خلعة خلافته، وأسجد له ملائكته لأجل هذا التخصيص كرامة له وتشريفاً وتفضيلاً على مشايخ الملكوت، وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] لا تؤثر في نعوت الأزل طوارقات الحدوث ما دام الاصطفاء بهذه الصفة سابق له، وأيضاً اصطفاهم لنفسه عن خلقه لموقع الخطاب، وكشف النقاب لاستعدادهم تحمل أُنْقَالِ أمانته، والتعمق في بحار أزلته، والسيران في ميادين وحدانيته، والطيران في هواء فوقانيته لطلب كشف أحديته، وجمال سرمديته، والإشارة في نوح عليه السلام وآل إبراهيم عليهم السلام أن الاصطفاء من سبب المحبة الأزلية لا من جهة الأنساب الحديثة، كما قال الأستاذ رحمة الله عليه: اتفق آدم وذريته في الطبقة وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قبله لا بالنسب والسبب.

وقال الفارس: اصطفاهم على الناس لثبوته، واستخلصهم لرسالته، فهم المبعوثون إلى

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٤/٣٦).

خلقه رحمة على أوليائه، وحجة على أعدائه، فهم الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة، مبشرين عباده جزيل الثواب، ومنذرين أليم العقاب، ﴿لَعَلَّأَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] إذ لو شاء لهداهم أجمعين.

قال الواسطي: اصطفاهم للولاية، وقال أيضًا: واصطفاهم في أزليته، وصفاهم لقربه، وصفاهم لمودته.

وقال أيضًا: اصطفاهم في الأزل قبل كونه، أعلم بهذا خلقه أن عصيان آدم لا يؤثر في اصطفائيته له؛ لأنه سبق العصيان مع علم الحق بما يكون منه.

وقال أيضًا: اصطفى الأنبياء للمشاهدة والتقريب، واصطفى المؤمنين للمطالعة والتهديب، واصطفى العالم للمخاطبة والترتيب.

وقال النصر آبادي: إذا نظرت إلى آدم ﷺ بصفته لقيته، بقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ وإذا لقيته بصفة الحق لقيته، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾ وماذا يؤثر العصيان في الاصطفاء.

وقال الواسطي: الاصطفائية قائم بالحق، والمعصية إظهار البشرية وتوبة أعجب لأنه من نفسه إلى نفسه رجع.

﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٢﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ إِنِّي لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: حرًا عن رق النفس، مقدسًا عن مس الشيطان، صافيًا لك عما سواك، مخلصًا في مودتك، صادقًا في طاعتك، موافقًا لخدمة أوليائك، وأيضًا حرًا في مقام مشاهدتك عن الاشتغال بخدمتك ليكون لك خالصًا في حظ الربوبية، وأيضًا حرًا في مقام عبوديتك بنعت محبتك، منفردًا عن الاشتغال بالجنة والنار حتى يكون في عبادتك لك مفردًا عن الالتفات إلى شيء غيرك، وأيضًا أيقنت أسرار باطنها وقوع الأنثى، وإن لم يعلمها بنص العقل، فقالت: أحررت لك؛ لأنها موقع كلمتك يعني عيسى ﷺ

ولا ينبغي لمن حمل حرًا إلا أن يكون هو أيضًا حرًا.

قال الأستاذ: المحرر الذي ليس في رق شيء من المخلوقات، حرره الحق في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجود والأحوال.

قال جعفر: ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا من رق الدنيا وأهلها.

وقال محمد بن علي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: يكون لك عبدًا مخلصًا، ومن كان خالصًا لك كان حرًا مما سواك.

وسئل سهل بن عبد الله عن المحرر فقال: هو المعتق من إرادة نفسه، ومتابعة هواه.

وقال النوري: أي: خادما لأهل صفوتك.

قال أبو عثمان: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن شغلي به، وتدبيره له فيكون مسلم إلى تدبيرك فيه حسن اختيارك له.

وقال محمد بن الفضل: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن الاشتغال بالمكاسب.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قبول الحق لها أنه أخلصها لعبادته، وجعلها محل آيته وكرامته، ورباها في حجر صفوة أنبيائه وأوليائه، وكشف لها من عظيم آياته ما لا يقوم بإزائها أكثر أهل زمانها الأنبياء، وأرسل إليها في الظاهر روح القدس حتى يعلمها حسن الأدب، ونفخ فيها روح الخاص الذي هو طير الأنس، حتى يكون لها ذخيرة المآب. وقال جعفر: يقبلها حتى يعجب الأنبياء مع علو أقدارهم في عظم شأنها عند الله.

ألا يرى أن زكريا قال لها: ﴿أَتُنِي لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: من عند من تقبلني.

وقال الواسطي: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ محفوظ قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّتُهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنبتها شجرة الربوبية وسقاها من مياه القدرة حتى أثمرها ثمرة النبوة؛ لتكون الثمرة حياة الخلق؛ لأنها هي روح الحق يعني عيسى، وقيل: أضاف الإحسان إليها في الشريعة وفي الحقيقة حفظها وأنبتها.

وقال ابن عطاء: أحسن النبات ما كان ثمرته مثل عيسى عليه السلام روح الله.

وقال الأستاذ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ حيث بلغها فوق ما تمت أمها، وقيل: القبول الحسن إن رباها على نعت العصمة، حتى كانت بقول: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

وقال أيضًا: من إشارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ﴿وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا؛ لأن خدمة الأولياء لا تحصل إلا من الأولياء، وأيضاً أنه يوافقها في جميع أحوالها من الخلوة والمراقبة والسر والنجوى والمجاهدة والمكاشفة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يرزقها الله تعالى زرق الجنة في الخلوة مكافأة للخدمة والعفة كرامة لها حتى لا يشغلها تولاه المخلوق، ويكون في حقيقة التوكل ما فيه من الالتفات إلى غير الحق، وإن كان نبياً مرسلًا.

وقال الأستاذ: إذا دخل عليها زكريا بطعام وجد عندها رزقاً ليعلم العالمون أن الله سبحانه لا يلقي شغل أوليائه إلى غيره.
وقال: من خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا أنه يكون عليه مشقة لأجل أوليائه.

وقال: في هذه إشارة لمن يخدم الفقراء لا أن الفقراء تحت خلقه ﴿أَنْتَ لَكَ هَذَا﴾ أي: بأي عمل أوجدت هذا ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: خالصاً وجدته لا يكلفه العمل، وعله الكسب.

وأيضاً خاف عليها أن تلك المنزلة من حيل الشيطان ففتش أحوالها حتى يعلم حقيقة صدقها، فقال: ﴿أَنْتَ لَكَ هَذَا﴾^(١) قالت: ليس كما خطر ببالك إنه من خصائص كرامات الله التي وهبها لي ليس فيها شيء من مخيلات الشيطان.

وقال الأستاذ: لم يكن يعتقد فيها زكريا استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره لعله انتهر فرصة تعهدا وسعة بكفاية شغلها ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ إذا دخل زكريا على مريم وجد عندها من فواكه الألوان علم أنها من نفائس كرامات الله تعالى فتحرك فيه غير النبوة، وسكن هناك في الخلوة، وطلب من الله تعالى ولذا فأعطاه الله ما سأل.

وأيضاً نظر بنور النبوة في مريم فأبصر فيها نور عيسى صلوات الله عليهم أجمعين يتشعشع في مريم، ورأى كرامته عند الله فتمنى عليه ولذا مثل عيسى فناجى ربه بلسان الاضطرار، وسأل عنه يحيى عليه السلام مشكاة الأنوار؛ فاستجاب الله تعالى دعوة شيخ الأنبياء شفقة

(١) من إمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبد فيه وهناك يوجد المحراب - فذلك عبء عزيز، ويقال من القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كله وشغلها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدا بطعام وجد عندها رزقاً ليَعْلَمَ العاملون أن الله - سبحانه - لا يُلقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء، وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء. تفسير القشيري (١ / ٣٠٧).

على غيرته، وإظهاراً لكرامته، وهذا حسن الأدب للأولياء، وأهل المعرفة إذا كانوا يحتاجون إلى الله تعالى بشيء من مرادهم خلوا عن الخلق، ودخلوا في زوايا الصدق حتى يناولوا بالاعتزال عن الخلق والاشتغال بالدنيا والإخلاص في النجوى حقيقة مقام استجابة الدعوة، لأن من لزم سيده في الخلوات والمراقبات يكشف له المقامات السنية والأحوال الشريفة من أسرار الآخرة وأنوار المعرفة ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ سأل من الله من يعينه في طاعة الله، ويكون له خليفة في أداء الرسالة والنصيحة للأمة، وأيضاً يكون له مشاورات السير في عالم الربوبية والعبودية، ومؤنساً من الله في الكشف والحقيقة والعشق والمحبة، ﴿طَيِّبَةً﴾ يعني مطهراً من أشغال الكونين منفرداً عن إرادته مقدساً من شهواته، فإذا علم الحق سبحانه صدق نيته أعطاه مأموله على الفور ليكون له معجزة وكرامة، والإشارة فيه أن من طلب من الله شيئاً بعينه في طاعته وسبباً لمرضاته فيحصل له استجابة الدعوة في الساعة.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْحَتٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ فَعَلْ مَا يَشَاءُ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ﴾ محل مناجات الحق الصلاة لأنها فيه عصمة الحق فيها نزول الوحي من دخل فيها بشرط التفريد، وخلوص النية ألهمه الحق خصائص الخطاب، وأخبره بما يكون قبل أن يكون، و﴿الْمَحْرَابِ﴾ محل لزوم المراقبين فيه لأجل تعرض السر نفحات أسرار الحق، وبروز نور التوحيد، وكشف جمال مشاهدة الحضرة، و﴿الْمَحْرَابِ﴾ محل الأنس، وتصفية السر، وذم الجوارح، وإشراق اليقين، وسبب الزلفة، ووجدان حلاوة العبادة، واسترواح الروح من أداء صحبة الخلق بوجدان صحبة الحق، و﴿الْمَحْرَابِ﴾ فقر العباد، وملجأ الزهاد، ومعصم المتوكلين، ومجلس المشتاقين، ومسند الراضين، وبستان المحبين، وسرور المريدين، ورياض العاشقين، وكعبة المستأنسين، وحرم المؤمنين، وفوز التائبين، وقيد الموحدين، وستر الشطّاحين إذا أراد الله أن يستر أحداً من خاصة معرفته ألحاه إليه ليكون له مقويّاً في مقاصده من الله.

وقال ابن عطاء: ما فتح الله على عبد من عبيده حالة سنية إلا باتباع الأوامر وإخلاص

الطاعات، ولزوم المحارِب.

وقال الواسطي: هو قائم بربه يصلي سره بمحاربة نفسه وهو اه.

وقال أبو عثمان: ﴿الْمِحْرَابُ﴾ باب كل بر، وموضع الإجابة، واستفتاح الطريق الانبساط، والمناجاة والإعراض عن المحراب سبب إغلاق الباب دونك.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ وقيل: ملازمة الخدمة يورثك آداب الخدمة، وآداب الخدمة يورثك منازل القرية، ومنازل القرية تورثكم حلاوة الأنس ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْحَتِي﴾ يسمى بجحى؛ لأن من نظر إليه يرى مشاهدة الحق في جمال نبوته، فيحیی قلبه من موت الفترة. وقيل: إنه حيا به عقر أمه.

وقيل: إنه سبب حياة من آمن بقلبه ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ السيد الذي قد غلب عليه نور هبة عزة الحق جل وعلا، والحصور الذي عصم عن جميع الشهوات بعصمة الأزلية، وأيضًا السيد الذي خلعه نور الأنانية، وكساه لباس الفردانية، وتوجه بتيجان البهاء حتى يستحق أن يستحيي منه جميع الخلق، ويضعوا تحت أمره ونهيه أعناق الجبرية، والحصور المقدس عن شوائب التقليد، وعن الالتفات إلى الكونين، وقيل: ﴿وَسَيِّدًا﴾؛ لأنه لم يطلب لنفسه مقامًا ولا شأها لنفسه قدرًا.

وقال جعفر بن محمد: السيد الذي عرف ربه وأنكر ما دونه، والحصور الذي يملك ولا يملك، والسيد الذي يألف ولا يؤلف، والحصور الذي لا يعرف سوى الله. وقال: السيد الذي ساد أهل زمانه بأخلاقه، والحصور الذي حصر ماءه عن النساء وسمي بجحى حصورًا؛ لأنه قرع في قلبه تلك العظمة، فخذ فيه ماء الشهوات، وصار حصورًا ومحصورًا.

وقال ابن عطاء: السيد المتحقق بحقيقة الحق، والحصور المنزه عن الأكوان وما فيها.

وقال جعفر: السيد المبائن عن الخلق وصفًا وحالًا وخلقًا.

وقال النصر آبادي: السيد من صحح نسبته مع الحق، فاستوجب به ميراث نسبته.

وقال الجنيد: السيد الذي جاد بالكونين عوضًا عن ربه.

وقال محمد بن علي: السيد من استوت أحواله عند المنع والعطاء.

وقال ابن منصور: السيد من خلى من أوصاف البشرية، وأظهر بنعوت الربوبية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ لما وعد الله تعالى نبيه ﷺ بجحى طلب من الله تعالى علامة وقت ظهوره، ولا يشك في وعد الله لكن غرضه طمأنينة قلبه ليتها أسباب

الأدب لزمان ظهور موهبة الله استقبالا إلى الله بشكر نعمته ليدوم عليه مواهب الإلهية ﴿قَالَ
 ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ حصر لسان نبيه ﷺ عن المكاملة والمحادثة
 مع غير الله ليتجرد سره وحاله عن ازدحام الخلق وذكرهم، والأدب فيه أن من يطلب من الله
 تعالى شيئا من معاني الغيب ورؤية معجزته وكرامته لا يتحرك لسانه بالفضولات، وقلبه لا
 يخطر به من طوارقات الوسواس حتى يكون ظاهره وباطنه مشغولاً بالحق لأن التفرق إذا
 وقع في الظاهر يتشوش به الباطن، وأجاز له الرمز ليدفع به ضيق قلبه، ومن دخل عليه من
 أهله، والرمز من الأنبياء للأولياء، والرمز من الأولياء الخاصة المريدين، وحقيقة الرمز من
 تريض السر إلى السر وإظهار التفرس إلى التفرس وإعلام الخاطر إلى الخاطر بنعت تحريك
 سلسلة المواصلة بين المخاطب والمخاطب ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ الذكر الكثير هاهنا
 تخلص النية عن الخطرات وجمع الهموم بنعت تصفية السر في المناجاة، وتحير الروح في
 المشاهدات، أدب الله أهل محبته وإرادته بها أخبر عن معجزة زكريا واستجابة دعوته حتى إذا
 أرادوا كشف الغيب واستجابة الدعوة اعتزلوا عن الخلق، وعن محادثتهم وتركوا ما لا يعينهم
 وقطعوا لسانهم بمقاريض الصمت، وجعلوه رطبا بذكر الله في أيام مناجاتهم التي أرادوا فيها
 كشف المقصودة .

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ
 الْعَالَمِينَ ۝١٢ يَمْرَيْمُ اقْنِئِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝١٣ ذَلِكَ مِنْ
 أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ اللَّهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا
 كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝١٤ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ
 اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝١٥ وَيُكَلِّمُ
 النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
 يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ ۝١٧ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝١٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ
 فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ
 اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ۝١٩ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۖ وَجَعَلْتُكُمْ بِغَايَةِ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ دَرَبَ
وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ
أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ
مُسْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٦٨﴾
وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ ﴿١٦٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَنْمَرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ بإلقاء كلمته فيك،
وأيضاً اصطفيكِ برؤية الملائكة والخطاب معهم.

وأيضاً اصطفيكِ بالكرامات والآيات حتى يأتي الملائكة يرزقك من الجنة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾
أي: من لمس البشر وأيضاً من دنس الخليقة.

وأيضاً أي: طهر شرك عن الالتفات من الله إلى كفالة زكريا ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ اصطفاء الأول: رفع المنزلة، واصطفاء الثاني: حقيقة العصمة بإشارته
على نساء العالمين.

قال الأستاذ: فائدة تكرار الاصطفاء، الأول: اصطفيكِ بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة،
والثاني: اصطفيكِ؛ لأنك حملت بعيسى عليه السلام من غير أب ﴿يَنْمَرِيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ﴾ أي:
استقيمي في طاعة مولاك ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أي: كوني في السجود خالصة عن غيري ﴿وَأَرْكَعِي
مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: تقربي إليّ بتواضعك مع المتواضعين من أوليائي وأنبيائي وخواص
أهل محبتي لتنال بركات الجمع؛ لأن صحبة الأولياء استحكام في العبودية، وتخليص عن رق
البشرية ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَنْمَرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ بشرها حتى رسخت في
تحمل إيداء اللاتمين، وعرفت منزلتها حتى لا يسقط عن درجة اليقين بحديث العالمين
﴿وَجِئْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في الدنيا ملتبساً بأنوار الربوبية، وفي الآخرة ملتبساً بجمال
المشاهدة ألبسه الله خلعة الهيبة، ليكون عظيماً في أعين الناظرين من الفريقين المؤمنين
والكافرين ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تكلم الناس في المهد ليكون شاهداً على
نبوته ورسالته وطهارته أمه، وكهلاً عن انبساطه، وحالة اتحاده، فالأولى من النبوة، والآخر من
الأنانية، وفعله شاهد قوله بأحياء الموتى وإبراء الأكفم والأبرص، في بدايته كان ملتبساً بلسان
العبودية، في نهايته كان ملتبساً بصفات الربوبية.

وقيل: يكلم الناس في المهد معجزة له، وكهلاً داعياً ربه.

وقيل: يكلم الناس في المهد صبيًا، وعند نزوله من السماء كهلاً؛ ليكون على طرفي كلامه معجزة.

قال الواسطي: يكلم الناس في المهد ردًا لقول المخالفين إنه نطق في حال يعجز من كان مثله عن ذلك، وإذا كان كهلاً ليس فيه بطش الشباب لا ضعف الشيخوخة ﴿وَأُتْرِكُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ انسلخ من أوصاف الحدودية، واتصف بصفات الربوبية فأظهر منه الحق جل عن الأهل والولد والحلول والمكان والجمعية والاختلاط مع الخليقة حقائق القدرة ليس لي في هذه الآية كلام أجل من ذلك مع أن أهل المعرفة قد سبقوني في هذا المعنى، ولا بد لي من أن أتكلم فيه بشيء من عبارتي ما دام شرعت في تفسير القرآن.

وقيل: من اشتد عليه الصفات الربوبية، وغاب عن أوصاف الحدث حتى بنفسه وأحس به كل شيء، وأبطل بهذه الآية دعاوي من ادعى إظهار معجزة عليه به دون ربه، والله قادر على الإعجاز في جميع الأوقات يظهرها على من يشاء، فالإعجاز الله والسبب مظهر عليهم ذلك في الهياكل والصور ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ عاينوا بأبصار القلوب حقائق الغيوب، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾.

قال ابن عطاء: ﴿ءَامَنَّا﴾ بما نورت به قلوب أصفياك من علوم غيبك، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فيما أظهر من سنن أوامرك، ونواهيك رجاء أن يوصلنا اتباعه إلى محبتك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع من يشهدك ولا يشهد معك سواك ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ سقطوا عن مشاهدة سابق الحق فاحتالوا مع أهل الولاية بتدبير النفس فكان مكرهم مكر الحق عليهم، وهم لا يعلمون أنهم مخدعون.

قال محمد بن علي: مكروا أنفسهم فحسن مكر الله عندهم، وكان في الحقيقة الماكر بهم لتزيينه ذلك عندهم ألا تراه يقول: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

سئل بعض أهل الحقيقة: كيف تنسب المكر إلى الله؟ فصاح وقال: لا علة لصنعه وأنشد:

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاك

فدينتك قد جبلت على هواكا فنفسي لا تنازعني سواك

أحبك لا ينقصني بل بكل وإن لم يبق حبك لي حراكا

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَارْفَعْكَ إِلَىٰ مُطَهَّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ مَن حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأِفْعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ﴾ إن الله تعالى نفخ في صورة عيسى روحاً قدسياً ورباها فيها بأنوار النبوة والعبودية، وتجلي المشاهدة، فإذا كمل في مقامات المصطفى من صفوة أنبيائه وأوليائه، قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ على عن رسم الحدوثية ﴿وَرَأَفْعُكَ﴾ إلى بنعت الربوبية، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ عن شوائب البشرية. قال الواسطي: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عنك، ﴿وَرَأَفْعُكَ إِلَى﴾، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من إرادتك وهواك، وذلك لإظهار نعوت الأزلية عليه^(١).

(١) قال التستري (١/ ٤٥٥): فإنه إذا مات فينزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري، فيستفيق النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زابله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح، وحياة روح لطيف نفس الروح بالذكر، كما قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جميعاً بالذكر والسعي بالذكر، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر. قال: فذكرت ذلك لسهل، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذكر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

قال بعضهم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن حظوظك، ورافع شخصك إليّ، ومظهر سرك من مطالعة الأغيار والأعواض بالكلية، ومما سمح لي في هذه بالبديهة بعد ذكر المشايخ رضوان الله عليهم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ غيرة حتى لا ينظر إليك بنعت المحبة غيري، ﴿وَرَأَفَعُكَ إِلَيَّ﴾ بنعت العشق، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من التفاتك إلى المملوكات؛ لأن من شرط اتحاد الحبيب بالمحبيب ألا يدخل بينهما من الحدثان، فإذا كان العارف بلغ مقام صرف التوحيد يتشعشع نور جمال الحق من وجوده فسجد له الكون، ومن فيه بالظاهر طوعاً وكرهاً؛ لأن من رأى حسن جلال الحق بالواسطة، ولم يبلغ حقيقة تحقيق المعرفة يصير مشبهياً بوقوعه في الوسائط لأجل ذلك رفع روحه إليه حتى يستقيم نظام الشريعة ولم ينسخ أحكام السنة ﴿إِنِّ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ خلق الله الأرواح القدسية من معادن الربوبية، وجللها بنور المشاهدة فصارت تلك الجواهر من أصل واحد، وإن كان تتفاوت في المقامات وصورة البشريات فروح آدم من المملوكات خلق، وجميع ذريته من الأنبياء والصدّيقين معها، فذكر الله تعالى ما صنع بروح آدم من تخصيصها بالقربة والكرامة والمشاهدة والعلم والمكاشفة والتفريد والتوحيد فذكر أن روح عيسى في منازل القربات مثل روح آدم بما ذكر من تخصيصها، فقال لآدم ﷺ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٣] ومثل هذا قال لعيسى ﷺ لكن شرف آدم ﷺ بإضافة خلق صورته إلى نفسه فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وأنه أسجد له ملائكته تخصيصاً أو تشريعاً من جميع الخلق لهذه المنزلة، وقوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ دفعاً لتهمة الجهلة حتى لا يظنون قدحاً في الربوبية.

قال الأستاذ: حضهما بتطهر الروح عن التناسخ في الأصلاب، وأفرد آدم بصنعة اليد وعيسى بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإن كانا كبيرى الشأن فنقض الحدثان والمخلوقية لازم لهما، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُعْتَرِينَ﴾ طيب الله تعالى هذا قلب نبيه ﷺ أي: كما كنت قادراً بخلق آدم وعيسى بكلمتي وقوة سلطاني فأعطيتك بما وعدتك من كمال دينك وشريعتك وتمام نعمة المعرفة عليك وعلى متبعيك فلا تكن ملهوقاً من خطرات نفسك.

قال بعضهم: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ألا يظهر شيئاً من المكونات إلا من تحت ذل ﴿كُنْ﴾ فلا تُشَكَّنْ فإنه منفرد بأسمائه وصفاته لا ينازعه في صفاته أحد من عبده وخلقه.

وقال الأستاذ: الحق من ربك يا محمد فلا تُشَكَّنْ في أنه لا يماثله في الإيجاد واحد، ولا على إثبات سببه لمخلوق قدرة فالموجودات التي حقت بوجودها عن كتم العدم من الله عز

وجل بدؤها وإليه عودها.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من آذاك بالحجة الباطلة من المدعين الكاذبين فادع عليهم دعوة الحلم والانسباط ليهلكوا جميعاً بدعوتك لأنني خصصتك من بين الأنبياء بمقام المحمود واستجابة الدعوة في السجود.

قال جعفر الصادق: هذه إشارة في إظهار المدعين لأهل الحقائق لتفضحوا في دعواهم عند أنوار التحقيق وبطلان ظلمات الدعاوي الكاذبة.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٠) يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦١) هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ حَسْبَ جُنْدٍ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٣) إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٥) يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ (٦٦) يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٨)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو إفراد القدم من الحدوث وإظهار الحق بنعت العبودية، والخروج من رسم دعاوي البشرية، ودفع النفس عن الالتفات إلى الأكوان والتجلي بمحبة الرحمن.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ أي: لا نتبع الهوى والدنيا وشهوتها، ولا نلتفت بنعت الرياء والسمعة إلى غير الحق.

﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لا يفرح بالمدح والتزكية والعتاء والخدمة والرئاسة التي يتوقع بعضها من بعض، والإشارة فيه أنه أعلم الحق عباده بتجرد قلوبهم عما سواه.

وقال الواسطي في قوله: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال: هو إظهار العبودية عند ملاحظة الصمدية.

وقال ابن عطاء: هو تحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: في قوله ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ قال: أعلمك طريق التعبد في هذه الآية، وهو ألا تطالع بترك عند اشتغالك بالعبادة سوى معبودك، ولا تفرغ في أمر من أمورك إلى غيره فتتخذ بذلك ربًّا.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ ما كان الخليل عليه السلام متعلقًا بالتشبيه مثل اليهود، ولا بالثنوية مثل النصارى، ولكن كان حنيفًا مائلًا عن الكون برؤية المكون، مسلمًا متفادًا عند جريان قضائه وقدره لإرادته.

وقال الأستاذ: الحنيف: المستقيم على الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن أولى الناس بالخليل عليه السلام للذين اتبعوه بشرط التجرد عن الكونين والعالمين ومنع النفوس عن حظوظ أشكال الملكوت؛ لأن الخليل إذا بلغ مبلغ رجال القدس زاغ بصره عن عرائس الملكوت، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض [٧٩] وهذا النبي يعني محمد ﷺ أولى بمتابعة أبيه خليل الله؛ لأنه زبدة مخاض محبته، وخلاصة حقيقة فطرته، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: أيقنوا وشاهدوا معانيات الآخرة، ومنازل الأبرار السفرة، والله ولي المؤمنين حافظهم عن آفات القهريات، وأدخلهم في قباب العصمة والكرامات.

قال جعفر الصادق: الذين اتبعوه في شرائعهم ومناسكهم، وهذا النبي لقرب حال إبراهيم من حال النبي ﷺ وشريعته من شريعته، دون سائر الأنبياء وسائر الشرائع، والذين آمنوا لقرب حالهم من حال إبراهيم ﷺ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في تشریفهم إلى بلوغ مقام الخليل عليه السلام إذ القرب منه في درجة المحبة بقوله: ﴿حُبِّهِمْ وَحُبُّوهُ رَءُوسُ الْمَائِدَةِ ٥٤﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٧٦] يختص برحمته من يشاء ﷻ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [٧٧] وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤْذِمَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِمُهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

عَلَيْهِ قَابَإًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تصبحوا إلا أهاليكم من العارفين والربانيين الذين لا يظهرون أحوالهم عند أهل الدنيا بالرياء والسمعة ولا يغالطون الناس في معاني أهل الحقيقة فيقعون فيهم بالوقعة والإنكار ويقصدون سفك دمائهم. وقال بعضهم: لا تعاشرُوا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم. وقال المرتعش: لا تفشوا أسرار الحق إلا إلى أهله. وقال أبو بكر بن طاهر: لا تصدقوا ظهور كرامات الله على ما لم تتبينوا ولايته ورياضته ومحافظته على ظاهر الشريعة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ الرحمة هاهنا: النبوة والولاية يختص بها من يشاء من صفوة خلقه؛ لأن سبق عنايته قبل وجود المجاهد والمجاهدة والشواهد والبراهين والكون والعلل فمن أشرقه نور المشاهدة وملأ سمع سره من خصائص الخطاب، وسكرت روحه من شراب الوصلة، فأنى له النظر إلى نفسه ومعاملته ومجاهدته؛ لأن من النقص صار مرادًا وإن ذل، ومحبوًّا وإن اعتد، والاختصاص الأصلي يقع على ثلاثة أحوال: الأول: هو مكاشفة غيب الملكوت، والثاني: يقع على مشاهدة الجبروت، والثالث: يقع على مدارج المعرفة والتوحيد، وهو أعلى وأجل؛ لأن فيهما السكر والبسط والصحو والانبساط والإيجاب والأناية والفردانية والحرية والاتصاف بالربوبية، وهذه أصل حقائق التمكين وتحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: أمهل القول ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف. وقال بعضهم: أزال العلل في العطايا والنفوس عن ملاحظات المجاهدات فاقطعهم عن الشواهد والموارد.

وقال سهل: مَنْ نال الهداية والقربة نالها بربه لا بنفسه. وقال الواسطي: ارتفعت العلل في العطايا وفيما أظهر من النعوت والخفايا، وفتر النفوس عن مطالعات المجاهدات، وكيف يتوسل المتوحد بالوسائل من أعمال البر بعد قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(١) وأيقن بأن ليس إليه طريق بالشواهد والموارد والعوائق.

(١) يقال خصه بالشيء واختصه به إذا أفرد به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء أفرادها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي

وقال ابن عطاء: أنبأ ألا طريق إليه بالعوائد والفوائد.

وقال الواسطي: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أن يكون بحيث كنت بلا أنت، ويكون القائم هو لك بذاته ونعته.

وقال أيضًا: من تجلّى له بأحوال ليس كمن تجلّى له بحالة واحدة كذلك ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

وقال أيضًا: لما أن شاهدوا البرهان وعايנוا الفرقان، فزعوا من صفاتهم إلى صفاته ومن فعلهم إلى فعله، فسكنوا إلى ما سبق حسناه؛ حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال أبو سعيد الخزاز: إن الرحمة هاهنا فهم معاني السماع بالسمع الحقيقي، وهو الذي خص به الحق خواص السادة من عباده.

وقال الفارس: هو الهداية والخدمة والمجاهدة والولاية والنبوة والرسالة، ولولا أنه خصهم بما خصهم به ما ظهر عليهم من آثار الموافقة شيء.

قال أبو سعيد الخزاز: اختص الله من عباده خواصًا جعلهم أهل ولايته، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فطوبى لهذا العبد الضعيف، ما حباه به سيده من هذه الدرجة العظيمة.

وسئل ابن عطاء: ما الذي فتر العابدين عن عبادتهم؟ قال قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

وقال بعضهم: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ بمعرفة نعمه عليه، والقيام بشكرها.

وقال الأستاذ: أي: بنعمته من يشاء، فقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة الأخلاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة، وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظاهر، وآخرين بتحقيق السرائر، وآخرين بعباء الإيثار، وآخرين ببقاء الأسرار. وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء أنه واجب في الحكمة يعنون به أنه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

وقيل: لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ علموا أن الوسائل ليس بها شيء، وأن الأمر بالابتداء والمشية.

وقيل: يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكشفه به من الأسرار، ويلقيه من فنون التعريفات.

﴿بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢١) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٢٣) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيذِينَ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٤) الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٢٥) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا التَّلَاقِيَّةَ وَالنَّبِيذَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٢٦).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ العهد ثلاثة: عهد الأزل بنعت الكشف للأرواح في أحانين بقلب القلب في سره في أوصاف الربوبية مع الأسرار، وهو إلقاء مخاطبة الحق بها وافق توفيق المعارف في خصائص العبودية، وعهد الله بعد تمكين العارف وكونه عارفًا بالله مع عقله بوسائط الكتاب والسنة لكون الأدب منه في جميع عمره فمن وافى روحه عهد الأزل فاز من دركات الشرك، وبلغ سر التوحيد، ومن وافى قلبه إلهام الخاص بإلقاء سمع الخاص وسكونه في جريان الحكم فقد بلغ عين حقيقة الرضا وخلص من درك الفناء، ومن وافى عقله أوامر الحق بالوسائل في ظاهره وباطنه فقد بلغ حسن الأدب في مقام العبودية ويكون مرشد للمريدين، وقائد للعارفين قوله: ﴿وَآتَقَى﴾ أي: من اتقى خطرات النفوس وطوارق الشهوات فإن الله يبلغه مقام حقيقة المحبة.

قال الأستاذ: صاحب الوفاء للوصلة مستوجب، وللتكريم أهل، وللرحمة مستحق، وصاحب الخطأ ممقوت وللهوان أهل، وللخجلة معترض، والوفاء بالعهد الكون معه بقطع ما سواه.

قال جعفر: من أوفى بالعهد الجاري عليه في الميثاق الأول، وأبقى وطهر ذلك العهد وذلك الميثاق من تدنسه بباطل، لذلك قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة تكلمت بها العرب كلمة

لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(١).

ومن وافى بالعهد سُمي محباً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من مال إلى حضرة الدنيا وأثرها على رؤية مشاهدة حضرة الحق، وزين ظاهره بعبادة المقربين، ويبيعها بحظ الرياسة، فقد سقط عن رؤية اللقاء مخاطبة الحق في الدنيا والآخرة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي: ليس من يختص بقربة الحق وكشف مشاهدته أن يلتفت سره إلى رياسة الخلق وحرمتهم له، وأن يرى لنفسه قيمة عند إجلال عظمة الحق؛ لأن من بلغ تحقيق التوحيد لا يرى لنفسه وزناً عندما يبدو من تجلي عظمة الحق، ويكون خجلاً على الدوام بين يدي الرحمن من وجوده عند وجود الحق، ويريد فناء وجوده استحياءً من ربه تعالى، ولكن ما رأى نعم الله تعالى من كشف جماله وقرب وصاله، وتعرفه بالجلال والعز والكبرياء والعظمة والقهر واللفظ أشفق على الخلق، ويدعوهم إلى عبادته وطالب مرضاته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّينِيَ﴾، ومعنى كونوا ربانيين أمر من الحق تعالى لأنبيائه وأوليائه أي: كونوا موصوفين بصفته كما قال رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الرحمن»^(٢)، وهذا وصف من كساه الله سنا قدس جمال الأزلي، وجلال الأبدى قبل كون طينة البشر، فكان منوراً بنور صبح القدم، إذ الأشباح والأجسام في العدم، فإذا سكن الأرواح في ظلم الهياكل خاطبهم الانبساط، فقال: لا تنسبوا إلى الماء والطين، ولكن انتسبوا إلى الحق بنعت المحبة والمكاشفة والمشاهدة والاتصاف بصفقاته، والتربية في حجر وصاله، وكونهم بأفعاله الخاصة بالذاتية القديمة، وليس هؤلاء كمن كان كونه بالأمر؛ لأن الأمر للعوام، والفعل للخواص، مع أن الحق جلّ من الأشكال والأشياء، والخيال والأوهام والأفهام، والجزء والكل، والتبعض والصور، والأزمان والمكان، تعالى كبرياؤه وجلّت صفاته، قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: لكم خاصة علم اللدني، وعلم الكتاب والسنة والشرعية، بها يلزم عليكم الخروج عن رسم الإنسانية، وأوصاف البشرية.

وقال جعفر الصادق: في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّينِيَ﴾ قال: مستمعين بسمع القلوب، وناظرين بأعين الغيوب.

(١) رواه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٤).

وقيل: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ علماً والله حلماً عن عباده.

وقال ابن عطاء: عاينوا أول تربيتكم ليتخلصوا من هذه الآفات كلها، وقال أيضاً: أخرجهم بهذا الخطاب عما خاطبهم به من العبودية.

قال الواسطي: عاينوا أوقات تربيتكم وتقديركم قبل آدم ﷺ، ومحمد ﷺ، فالانتساب إلى آدم ﷺ، والافتخار بمحمد ﷺ ليس بالافتخار ممن قدسك في الأزل.

وقال أيضاً: قال: كونوا كأبي بكر إذا أورد عليه قوادح الأمور لا يؤثر على سره حين قال النبي ﷺ يوم بدر: ادع بعض مناشدتك ربك؛ فإنه ينجز لك ما وعدك^(١).

وقال أيضاً: في هذه الآية أمر إبراهيم ﷺ بالاستسلام، وأمر محمد ﷺ بالعلم، فقال: فاعلم والاستسلام إظهار العبودية، والعلم به التوسل إلى الأزلية والأبدية، لذلك خاطبهم فقال: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾، وأيضاً قال: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ جذبهم بهذا من الافتخار بالطين إلى الافتخار بالحق.

قال الجنيد: أخرجهم من الكون جملة، وجذبهم إلى الحق إشارة، فإذا أردت أن تعرف مقامات الخلق، وبواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصرف أخلاقهم تجد كل واحد قائماً في شخصه، استقطعه ما وافق سريره، فانظر بما ربطت القلوب، فيشهد سرائرهم؛ لأنهم أخذوا من المصادر الأول، فمن لم يستقطعه إلا إسبال أنواره والحياء فيها ورد عليه، أيقن كيفية باطنه على الحقيقة تنازعه في ربوبيته، وتمر عليه في عبودية وأنت لا تشعر، وقال بعض العرافين: أخرجهم من آدم ﷺ وتراهم منه كي ينسوا العبودية والافتخار بالماء والطين.

وقال الشبلي: أخرجهم عما خاطبهم به من العبودية، فمن استحق العلم به استحق علم الربانية، والرباني الذي لا يأخذ العلوم إلا من الرب، ولا يرجع في بيانه إلا إلى الرب جلّ وعلا.

وقال الواسطي في هذه الآية: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾؛ لأن تكون ابن الأزل والأبد خير لك وأحسن بك من أن تكون ابن الماء والطين والأفعال والإحصاء والعدد.

وقال سهل: الرباني هو العالم بالله والعالم بأمر الله، والمكاشف له من العلوم اللدني ما غاب عن غيره، وقال أيضاً: الرباني الذي لا يختار على ربه حالاً.

وقال الجريري: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ أي: سامعين من الله ناطقين بالله.

وقال فضل بن العباس الشكلي: قال كونوا كأبي بكر الصديق؛ فإنه لما مات محمد ﷺ

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٨٤)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٩).

اضطربت الأسرار كلها لموته، ولم يؤثر ذلك في سر أبي بكر، فقال: «من كان منكم يعبد محمداً؛ فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حي لا يموت»^(١).

وقال القاسم: كونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الحق علماء وحلما.

وقال بعضهم: الرباني بحقه من نسي نفسه في نسيانه، فنسي أوقاته بأوقاته، ونسي أجاله وأرزاقه بصفاته، فصفاته جذبته إلى ذاته، وذاته ملكه عن صفاته.

وقيل: الرباني من ارتفع عنه ظل نفسه، وعاش في كون ظله.

وقيل: الرباني الذي هو محق في وجوده، ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غيره، والمحوي لما عليه سواه.

وقيل: الرباني الذي لا يؤثر فيه تصارييف الأقدام على اختلافها.

وقيل: الرباني الذي لا تستقره محنة ولا يهزه نعمة فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

وقيل: الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فمن استعطفه رقة قلب أو استهالة هجوم أمراً، وتفاوت عنده أخطار حادث فليس برباني.

وقيل: الرباني الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقوله وسره، وإن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

وقيل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ من توالي إحساني إليكم، وتضاعف نعمتي لديكم.

وقيل: بما كنتم تعلمون الكتب وبما كنتم تدرسون من آلائي ونعمائي، وما توليتم من أموركم.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا اللَّتَبِيكَةَ وَالنَّبَاتِ﴾ ولا يمتن عليكم بتعليمهم إياكم أن تزكؤهم وتطردوهم، ولا تلتفتون بأسرارهم إلى تمكينهم ودرجاتهم، ويعلمون أنهم في ديوان الألوهية والربوبية كل شيء في كل شيء، ولا ترون الكون مع ما فيه ومن فيه في جنب عظمة الله تعالى، إلا كذرة في السموات والأرض، ولا تتعرضون بأمور أنفسهم في أمر الله تعالى، ويعلمون أن أمر الحق غالب على جميع الأمور، فإنهم مأمورون كجميع الخلائق: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: لا يأتون على الخلق إلا لتهذيب أسرارهم عن الأكوان والحداث في خالص عبودية الرحمن، ويخبرونهم عن أسرار الحقيقة، وأنوار الشريعة، وعن وحدانية الله وقدس طبقاته وعز بقاء وجهه وجماله، ويأمركم التمسك بحبل

(١) رواه البخاري (١٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٥٨٩/١٤).

الله المتين، وصرف الإيمان بنعت اليقين.

وقال ابن عطاء موضعاً للملاحظات: وليس بأيديهم من النفع والضرر شيء فكيف لمن دونهم.

وقال الواسطي: في هذه الآية لا تخطرون بأسراركم تغطيهم ولا الكفر في معانيهم واعلموا إنها هي ربوبية تولدت عبودية.

وقال ابن عطاء: إياك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجدد إلى ملاحظة الحق سبيلاً، قال الله تعالى ولا يأمركم الآية.

وقال الواسطي: في هذه الآية محلاً للمخاطبات، وموضعاً للمعاملات، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون أيأمركم بالاحتجاب عن الحق بعد معاينة الحق، أو بالانقطاع عن الحق بمواصلة غيره.

وقيل: يأمركم بالتوسل إلى من لا وسيلة له إلا بالحق.

وقيل: أيأمركم بمطالعة الأشكال ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاح في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شمس التوحيد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا۠ مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أخذ الله ميثاق خصائص خطاب علم المجهول الذي بنا عن حقائق أسرار الربوبية مع النبيين والصديقين بواسطة إلهام الملك، وغير واسطة منفرداً عن نطق المخلوقات، بل الحق منفرد بإنزاله، وإظهار أنواره في عيون أرواحهم، ليصدقوا به ويعرفون أنه من عند الله وينصرونه باليقين والمعاملة، وهذا من رموز الكتاب، وأما ظاهر الكتاب، فإنَّ الله تعالى أراد أن يري الأنبياء والأصفياء من الأولين والآخرين شرائف مقامات حبيبه، تخصيص على جمهورهم ليؤمنوا به ويعرفونه؛ لأنَّ مَنْ عرفه فقد عرف الحق، ومن آمن به ودخل في دائرة المحبة وحقيقة القربة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وقال ﷺ: «من

عرفني؛ فقد عرف الحق^(١)؛ لأن عليه كسوة الربوبية، ويبرز من جمال وجهه نور جمال مشاهدة الحق، والإشارة في ميثاق الحق مع الأنبياء الحبيبة، لثلاثي غيره؛ لأن العشاق يغير بعضهم بعضاً، والغيرة من لوازم العشق، وأنها من صفة الحق سبحانه من تهمة البشر، وانظر شأن موسى عليه السلام وغيرته على سيد الأنبياء محمد ﷺ، ومقصود الحق من الميثاق صون أسرار أنبيائه عن صفات البشرية ﴿فَاسْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يحذرهم من اطلاعه عليهم في نصرته حبيبه والإيمان به، وهذا غاية تشريف نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء - عليهم السلام.

ثم يبين أن من حمد سره عن محبته، وزاغ قلبه عن نور سنته، ومال ظاهره عن طريقته وشريعته بعد ظهور معجزته وظهور كراماته سقط عن مقامات المرسلين والنبين، وتشم عن شوق التهديد لهم بهذا، فقال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقال فارس: أخذ عهد حبيبه ﷺ على من كان قبله من الأنبياء بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ فأي شرف أشرف من أخذ الله عهده على من كان قبله، ثم أمرهم بالشهادة له بالعهد، وضمن أن يكون هو مع الشاهدين معهم، والشاهدين عليهم، وإثماً فعل ذلك لثلاثي بقي أحداً ممن تقدم وتأخر إلا، وعليه حجة من الله في إرساله رسوله محمد ﷺ والإيمان به، ولا يبقى لأحد بعد ذلك حجة في مخالفته.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ﴾ أي: أن أصل جميع المراد في طاعتي، فمن أين يطلبون صفاء العيش، وفي أكناف قربي لذائذ أنس العارفين، وفي ألطاف وصلي حلاوة مشاهدة القدس للموحدين، وفي أطراف سبل عنايتي نجاح الكرامات للصديقين، ومن تمسك بحبال آمال نفسه فهو عن عين عبوديتي منحرف، ومن زاغ عن عبادتي فهو عن مشاهدة وحدانيتي وفردانيتي منعزل، ومن عزل عن مشاهدة العبودية ورؤية الربوبية فهو من جملة المبطلين المستعدين الذين تصرفون في غيابات جب الهوى، ويهيئون في أودية العنا والجفا

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/١٠٠).

ومن طالع غير حقائق الإلهية والأزلية، فقد وقع في سراب الضلال، ويتردد في أغلوطات الشياطين، فإذا نزل، نزل في فقر العناء، وإذا سار، سار في مغاليط النفس وغباء غبار البلاء.

وقال الواسطي: من تمسك بغير الوحداية بل بغير الواحد، فهو بعيد من عين الحقيقة.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذا أظهر نفسه عن كبريائه في مرآة الكون بنعت الجبروت انقاد له جميع الأنام قهراً وجبراً؛ لأنه يقتضي ظهور سلطان الوحداية، ووقوع الهيبة والإجلال في وجوه الخلائق بالأفعال ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أسلم له العارفون ببذل الأرواح ﴿طَوْعاً﴾ لما عاينوه بحسن جمال القدم وأسلم الجاهلون له ببذل النفوس ﴿وَكَرْهاً﴾ لما رأوا من عظم قهره في إظهار سلطنته وقهارته، وأيضاً سخر بعضهم بكشف جماله، فأسلموا من مشقهم على مشاهدته طوعاً، وأعجز بعضهم برؤيتهم عظمتهم في لباس فعله وصنعه، فأسلموا من هيئته عند انكشاف نور كبريائه عن الأفاق كرهاً، فأكرم قوماً بإسبال أنوار التجلي على أسرارهم، حتى يكونوا في جريان قضائه وقدره بالطوع منقادين وأذل قوماً بإرسال هيبة القهر على ظاهرهم فيكونون عند بروز سطوة جباريته بالكره مذللين.

وقال الحسين: أحدهم عن شهود مآواهم بخصائص الاطلاع عليهم، فمن طالع الذات أسلم طوعاً، ومن طالع الهيبة أسلم كرهاً.

قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: صدقنا بعد أن رأيناه بعيون الأسرار وحقائق الأنوار، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «لم أعبد رباً لم أراه»^(١)، وأيضاً ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه آمنا بالله لا يجهدنا وسعينا.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا...﴾ الآية إن من شرط المحبة قبول ما جاء به رسل الحبيب من عند الحبيب، ولا فرق عنده بين المبشرين والمنذرين، إذا كان المحب صادقاً في حبه.

وافهم إن من غلب عليه محبة الله تعالى عاين بأبصار سره عالم الملكوت، ويرى غيب الحق من الجنة والنار والملائكة والأنبياء والأولياء والعرش والكرسي واللوح والقلم وأنوار الحضرة، فإذا انكشف هذه المغيبات له؛ فكيف لا يؤمن بها بعد رؤيتها، إذا أخبر الله أسرارها بلسان أنبيائه وأوليائه عليه، والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله لحارثة، قال: «يا حارثة، لكل حق حقيقة؛ فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهار، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وأهل النار في

(١) حديث ذكره بعض الصوفية في كتبهم.

النار يتعاودون، فقال ﷺ: «عرفت فالزم»^(١).

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾: صدقنا وأقمنا على طريق الصدق معه؛ لأنه الذي كتب علينا الإيمان، وخصنا في علمه قبل أن أوجدنا فنحن مؤمنون به بسابق فضله علينا.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤٦)
 كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
 وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٤٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٩﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ
 إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِمْ^(٥٢) أُولَئِكَ
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: من يروم مشاهدة
 الربوبية بغير العبودية لم يكشف له مقامات الصديقين والمقربين، وأيضا أصل جميع الحقائق
 ينوط بالإسلام والانقياد عند مراد الحق، والإشارة فيه أن من لا يصبر في بلاء الحق، ويجزع
 عند نزول المصائب إلى غير الله لم يقبل منه شيء من المعاملات والمجاهدات.
 وقيل: من توسل إليه من شيء دون الاعتصام، فخرانه أكثر من ربحه.
 وقال القاسم: من يأخذ غير الانقياد طريقا في القيد لم يصل إلى شيء من حقيقة
 العبودية.

وقال مجاهد: من لم يقيد أفعاله بالسنة لا يقبل منه عمل.

وقال سهل: في قوله وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا أنه التفويض، ومن لم يفوض إلى مولاه
 جميع أموره لم يقبل منه شيء من أعماله ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾ الآية أي: من
 فطراه الله على غير استعداد المعرفة وحكم عليه بالكفر في سابق الأزل لم يهده إلى مشاهدة
 الإيمان واليقين؛ لأنَّ الاستعداد من لوازم المعرفة، ومن لم يكن له استعداد الطريقة لم يقع في
 قلبه أنوار التجلي، وَمَنْ خَاضَ فِي بَحْرِ الْقَهْرِ، وَلَزِمَ فِي قَهْرٍ بَعْدَ الْبَعْدِ لم يكن له سبيل إلى حال

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (١٠٠/٥).

قرب القرب.

قال الأستاذ: من عبده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه متى يقربه من بساط الخدمة بفضلته في وقته.

وقيل: مَنْ أَقْصَاهُ حُكْمُ الْأَزْلِ، متى أدناه صدق العمل، والله غالب على أمره ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ ابتدأهم في حجاب المكر، وختم أحوالهم بالاستدراج، وهذا غاية الطرد والإبعاد عن بساط الوصال سوي أولهم وآخرهم، وردَّهم بعد كونهم في المعاملات إلى ما حكم عليهم في سابق علوم الأزليات، خالدين فيها لا سبيل لهم إلى معرفة وجود جلاله وكمال قدرته، فيزداد غيهم على غيهم، ولا يخرجون من طبقات الهجران والحرمان إلى مشاهدة الرحمن ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ هم الذين سبق لهم حسن الإيمان بمشيئة الأزل، ووقفوا بامتحانه في بحار الفتنة والشهوة، فأدركتهم أنوار عناية الأزلية، وأخلصتهم من أسجان النفوس، وأصفاد الشياطين، ونور عيون أسرارهم بكحل سناء العناية، حتى يروا خباثت أعمالهم، فتابوا منها وتركوها استحياءً من ربهم؛ حيث يروا منته السابقة التي سبقت لهم بنعت العناية والرعاية والكفاية والهداية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي: من كوشف له من مقامات الأول شيء وصدَّق به، وآمن بأحوالهم وكراماتهم، ثم كذَّبهم عن إيمانه بهم بسبب أو علة أو فراد من مجاهداتهم واجتهادهم وضيق رسومهم، ثم ازدادوا كفرًا بإقامتهم على إنكارهم، وشروعهم في إيذاء الأولياء والمريدين وأهل الرغائب، والإشارة فيه أَنَّ هؤلاء الذين وقعوا في عاهة الإنكار وبلية الجحود بعد شهودهم آثار الغيب في مشاهدة البيان، وأنسوا به وألفوه ثم عميت أبصار قلوبهم عن مشاهدة الآخرة، وصمت أذان أسرارهم عن خطاب الحق في بواطن الغيب، وصدَّت عقولهم بدين الجهالة، وعصيت نفوسهم خالق الخلق بهجومها في غلطات الكبر والرعونة، وخبثت أخلاقهم من شوائب الشهوات، وكدرت أرواحهم من اقتحامهم في العجب والرياء والكبر، وأبغضت الأولياء، وساءت آدابهم بين يدي الله، لم يقبل الله تعالى توبتهم؛ لأنهم ذاقوا حلاوة الرياء والسمعة، وأثروا حظوظ الدنيا على صحبة أهل المعرفة، وركنوا إلى صحبة الأضداد، ومالوا عن بساط الحرمة إلى عرصة المخالفة، ومن هذه أحواله فتوبته لا تستقيم، وأوبته لا تدوم لغلبة الشهوة على قلبه، وكثرة الفترة على بدنه، لا يلصق به نصيحة، ولا أثرت فيه شفقة، ولا ينتظم شمله، بطرت نفوس هؤلاء بالشهوات، واسودت قلوبهم من الشبهات، جازاهم الله تعالى بإبعادهم عن حضرة الوصال ومشهد الجمال، وهو قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ

تَوْبَتُهُمْ وَأُوتِيَتْكَ هُمْ الضَّالُّونَ ﴿١٠﴾ ضالون عن طريق الحقائق والمعارف والكواشف، وأسبل الله على قلوبهم غطاء القهر حتى لا يرون أنوار عجائب كرامات أوليائه، ولا يقومون عند الله يوم القيامة وزناً، وإن كثرت صلواتهم وصيامهم وصدقاتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾^(١). ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٢ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿١٠﴾ أهل هذه الصفة في إنفاقهم على أربع طبقات: طبقة منهم أهل المعاملات، وهم على عشرة أقسام: قسم منهم التائبون وإنفاقهم ثلثه ترك الدنيا، وترك الرياسة، وترك النفس لله، وفي الله، وقسم منهم المتورعون، وإنفاقهم ثلثه الاجتناب من المعاصي، وترك ما سوي البلغة من الحلال، وفطام النفس عن الشهوات، وقسم منهم الزاهدون، وإنفاقهم ثلثه مجاهدة النفس، وترك الأفعال، وذم الجوارح، وقسم منه الفقراء وإنفاقهم ثلثه حفظ الأوقات، وصيانة الفقر، والتعفف في جميع الأمور، وقسم منهم الأغنياء من هذه الطائفة، وإنفاقهم ثلثه بذل الأموال بغير المنّة، والإبداء والتواضع عند الفقراء، وطلب الإخلاص في أنفسهم عند خطرات الرياء قسم منهم الصابرون، وإنفاقهم ثلثه الخروج من الجزع عند الفاقة، ونشاط القلب عند نزول البلاء، وإيثار البلاء على الراحة، وقسم منهم الشاكرون، وإنفاقهم ثلثه قصر ألسنتهم عن الشاء مع عرفانهم نعم ربهم استحياء منه، وحيرة في قلوبهم عن معرفة حقيقة المنعم والخروج من رسم الأعواض في بذل الأرواح، وقسم منهم المتوكلون، وإنفاقهم ثلثه استرسال النفوس لله عند نزول بلائه، وبذل المهجة له طلباً لرضاه، وضبط الخاطر من الخطرات عند جريان قضائه، وقسم منهم الراضون، وإنفاقهم ثلثه ترك اختيارهم في اختياره، وترك تدبيرهم في مراده، وصون أسرارهم عما دونه، وقسم منهم الصادقون، وإنفاقهم ثلثه إخلاص العبودية عن رؤية الخلق، وإخلاص السر عن رعونة النفس، وإخلاص التوحيد عن رسم الحدوثية، وطبقة

(١) أي: بملء الأرض ذهباً، فإن قيل نفى قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدي به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميراً فضلاً عن أن يملك ملء الأرض ذهباً، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغاً إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (٢/ ٢٣٤).

منهم أهل الحالات، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم المراقبون وإنفاقهم ثلثه دفع الخطرات، وإخفاء المناجاة، وحفظ الحرمة في الخلوات، وقسم منهم الخائفون، وإنفاقهم ثلثه قلة النوم وقلة الأكل وقلة الكلام، وقسم منهم الراجعون وإنفاقهم ثلثه ترك الطبع في الدارين، والارتقاء من هذين المنزلين وتخليه السر عن ذكر العالمين، وقسم منهم المجنون، وإنفاقهم ثلثه الالتقاء عن معرض الكرامات، وترك الالتفات إلى الطاعات، وتصفية القلب من الدرجات، لوصولهم إلى مقام المشاهدات، وقسم منهم المشتاقون، وإنفاقهم ثلثه احتراق القلوب بنيران الحزن، واحتراق النفوس بنيران الجوع، واحتراق الأرواح بنيران الخوف والإجلال، وقسم منهم العاشقون، وإنفاقهم ثلثه ترك طلب الولاية، وترك حظ المحبة، والتزام السر في منزل الرعاية، وقسم منهم الموقنون، وإنفاقهم ثلثه ترك الشفقة على النفوس، ودوام رعاية القلوب، والشروع في تزكية الأرواح عن ذكر الحداث، وقسم منهم المستأنسون، وإنفاقهم ثلثه الأعراض عن الخلق، وإلقاء الخاطر إلى مشهد طلوع صبح أنوار المشاهدة، وطهارة السر عن معارضة العد، وقسم منهم المطمئنون، وإنفاقهم ثلثه التمكن في البلاء والصبر في العناء، والشكر في النعماء، وقسم منهم المحسنون، وإنفاقهم ثلثه صحة العبودية، بنعت رؤية المشاهدة، وبذل الروح لله بلا رغبة في ثواب الجنة، ومطالعة أنوار الكناية، وطبقة منهم أهل المعرفة، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم الذاكرون، وإنفاقهم ثلثه دفع الوسواس، وطرده الغفلة من القلب بين الناس، والخروج من رسوم الأشخاص، ومنهم المتفكرون، وإنفاقهم ثلثه إرسال الأرواح إلى مشاهدة الغيوب لترائي هلال جلال القدم، وإمهال العقول إلى ميادين الملكوت لمشاهدة الجبروت، وإدلاء القلوب إلى بساط القرية لطلب الوصلة بنعت الهيبة، وركاب السر في جولانه في أنوار البقاء والأزل، وقسم منهم الحكماء، وإنفاقهم ثلثه التكلم للمريدين، ونشر العلم للطالبين، وإرشاد الصواب للعالمين، قسم منهم أهل الحياء، وإنفاقهم ثلثه الفرق بالسر من مقام المكر، وتقديس شهوة الخفية عن مشهد الذكر، ودفع دقائق الرياء في مجاري الخطرات، وقسم منهم أهل التلوين، وإنفاقهم ثلثه التفكير في الربوبية بالعقل لتحصيل المعرفة، والنظر إلى قديم إنعامه بالقلب لتحصيل المحبة، والسر بالروح في عالم الملكوت لتحصيل أنوار المشاهدة، وهذه صفة من يباشر قلبه نور الأحادية على الأوقات السرمدية، فهؤلاء متنورون بكنوز أنوار التوحيد، معروفون من بحار الامتتان، حقائق أسرار الهوية بنعت التجريد، ناطقون عما في الضمائر، وكاشفون مكنون السرائر، وقسم منهم أهل التمكين، وإنفاقهم ثلثه حفظ جناح العبودية على وصيد الربوبية، ودفع تهمة البشرية عن مصدر كشف المشاهدة، ورسوخ السر في طوابع سلطان الهيبة، فأهل التمكين متربون عن إدراك حقيقة جمال القدم، مقدمون عن اتحاد البقاء بإعدام مشاهد صرف سلطان الوجدانية،

فيحرسون أسرارهم عن شوائب الحوادث، ويحفظون أنوارهم عن إطلاع الخلائق، ويصونون ما أوحى الله إليهم من أسرار الإلهام عن تحريفات الشياطين وأباطيلهم، وقسم منهم أهل الحقيقة، وإنفاقهم ثلثه الدعاء على العصاة، وتحلم إيذاءهم على طيب النفس، وترك الطمع في مجازاتهم، فهؤلاء رحمة الله على عباده، فالخلق مصرمون عن المصارف، وهم مكثرون بالكواشف، فيُضهم الله لبقاء العباد والبلاد، ليلتجئ إليهم مرتابون الأحوال، وأهل رغائب الآلاء، وقسم منهم أهل السر وإنفاقهم ثلثه كتمان الأسرار من خوف غيره الحق عليهم وخروجهم مرادهم لمراد الحق وتفقد جمال غيب غيبه في صدورهم غيبه عن الخلق وقسم منهم العارفون وإنفاقهم ثلثه يتركون الدنيا لأهلها ويتركون الآخرة ولذتها، ويجلسون على باب مولاهم منصرمين عما سواه، مفلحين إليه بنعت رغائب المحبة، مفتقرين إلى مشاهدته بصفاء العبودية، يحسموا عن المكونات، وانقطعوا إليه عن المخلوقات، وطبقة منهم أهل التوحيد، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم أهل القبض، وإنفاقهم ثلثه عد أنفاس المراقبات في مقام الحزن وصب الدماء في حين العشق والتأوه من صميم القلب في مقام الشوق، وقسم منهم أهل البسط، وإنفاقهم ثلثه الفرح بوجنتي الحبيب، والزفرة من مخاطبة الرقيب، والتقرب بكثرة النوافل إلى القريب، وقسم منهم أهل السكر، وإنفاقهم ثلثه الشروع في السماع وطلب الوصل بالنغمات، واستنشاق نفحات القرب بالمراقبات، وقسم منهم أهل الصحو، وإنفاقهم ثلثه السكون في مرارة الهجران والحنين، من شوق الرحمن والتحنن على خلقه شفقة على أحوالهم، والتمكين في محاربة الشيطان، وقسم منهم أهل الفناء، وإنفاقهم ثلثه تزكية الأسرار بالذكر، وتربية الأحوال بالفكر، وذم الأشباح بزمان المجاهدة، وقسم منهم أهل البقاء، وإنفاقهم ثلثه ذكر المشاهدات، ونشر الكرامات والتخلص من المجاهدات بتحصيل المكاشفات، وقسم منهم أهل الانبساط، وإنفاقهم ثلثه الاستغفار بعد الشطح، وحفظ الآداب في حال السكر والأخبار عن المقامات لأهل الإرادات، وقسم منهم أهل حقائق التوحيد، وإنفاقهم ثلثه الاستقامة في الامتحان بنعت إخلاص الإيمان، وترك حظوظهم في مقام المحبة لوجدان جمال القدم؛ لأن المحبة حظ العارف، ورؤية القدم نصيب الحق جلَّ وعزَّ، ورعاية الأسرار بترك رسوم المقامات، وقسم منهم أهل الوله، وإنفاقهم ثلثه الرمزة في العبرات والفوز في الأزليات، وبذل المهجة للأبديات، وقسم منهم أهل الاتحاد، وإنفاقهم ثلثه قمع شهوات العشق عن مغارس أشجار التوحيد، وسير السير في قدم القدم بنعت التجريد، وطيران الروح في بقاء البقاء بأجنحة التفريد، هذا وصف إنفاق رجال الصدق، وهم بالتفاوت فيما نالوا من ثواب الإنفاق في هذه المقامات من جزيل الكرامات،

وهو ما ذكر الله تعالى في كتابه ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾؛ فالبر جزاؤهم منه، ولكل طائفة منه بر من هؤلاء الذين ذكرنا أحوالهم في إنفاقهم على قصد إرادتهم، وصدق نياتهم. فبر التائبين هو محبة الله لهم بعد إياهم منهم إليه، وهذا إشارة الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وأما بر المتورعين؛ فهو استجابة الدعوة مقرونة بالتقوى، وأما بر الزاهدين؛ فهو الحكمة من الله تعالى، وهو إشارة النبي ﷺ قال: «مَنْ زهد في الدنيا أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(١).

فأما بر الفقراء فهو السكينة من الله تعالى ظهرت في قلوبهم، وأما بر الأغنياء فهو درجة الكرامات، وأما بر الصابرين فهو درجة الولايات، وأما بر الشاكرين فهو زيادة القربة.

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأما بر المتوكلين وهو الكفاية في جميع المراد، ووجدان لطائف محبة الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وأما بر الراضين؛ فهو رضوان الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال ﷺ: «الرضوان الأكبر هو تجلي الخاص. ومن بلغ مقام الرضا؛ فقد وجد رضوان الأكبر»^(٢).

وأما بر الصادقين؛ فهو المحمدة في الدنيا والآخرة، وحقيقة الطمأنينة والكرامة على رعوس الخلائق يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٢٤] هذا درجة أهل المعاملات في مجازات الله إياهم ببره وكرامته.

وأما بر المراقبين؛ فهو وجدان نور الفراسة وحلاوة الذكر، وأما بر الخائفين؛ فهو ذوق المحبة ومعرفة إجلال الحق تعالى، وأما بر الراجين؛ فهو صفاء اليقين، ونور البسط والانبساط، وأما بر المحبين؛ فهو المكاشفة وأنوار القربة والمشاهدة، وأما بر المشتاقين؛ فهو الأُنس بالله في جميع المعاني، وأما بر العاشقين؛ فهو بهجة سناء الجمال في عين الأرواح، وأما بر الموقنين؛ فهو مشاهدة الآلاء والنعماء والطمأنينة في رسوم الربوبية، وأما بر المستأنسين؛ فهو حلاوة حسن القدم في قلوبهم، وتفرد خواطرهم عن وجل خطرات الشياطين في أسواق

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٧١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٨٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٣٥٩).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٠/ ٢٥٥) بنحوه.

الشهوات، وأما برُّ المطمئنين فهو حصول الكرامات من تقلاب الأعيان، وأنواع عجائب الآيات، وأن يذوق العارف طعم حلاوة الذكر، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما برُّ المحسنين؛ فهو مشاهدة الحق في لباس الملكوت، هذا وصف بر أهل الأحوال، وأما بر الذاكرين؛ فهو رؤية المذكور في حقائق نفس الإيثار، وأما بر المتفكرين؛ فهو رؤية آثار تجلي الصفات في لباس الآيات، وأما بر الحكماء؛ فهو خصائص الخطاب بنعت الإلهام. وأما بر أهل الحياء فهو رؤية مشاهدة العظمة والكبرياء، وأما بر أهل التلوين فهو رؤية عين جميع الأفعال بنعت جمال الصفات، وأما بر أهل التمكين فهو رؤية عين جميع الصفات بلا رسم الأفعال، وأما بر أهل الحقيقة فهو رؤية عين القدم بنعت الفناء وبحق البشرية ومحو رسوم الخيال، وأما بر أهل السر فهو رؤية كنز علم الأزلي بعين الروح في مدارج المعرفة، وأما بر العارفين فهو تجلي صرف الوجدانية والسرمدية، ورؤية قرب القرب وهذا صفة بر العارفين، وأما بر أهل القبض فهو رؤية العزة، وأما بر أهل البسط فهو رؤية جلال الصفات بنعت الحلاوة ببروز نور القربة، وأما بر أهل السكر فهو ظهور الحق لهم في لباس حالاتهم بالبعثة.

وأما بر أهل الصحو فهو رؤية الحق بنعت الحسن والجمال، وأما بر أهل الفناء فهو رؤية القيومية بنعت الفردانية، وأما بر أهل البقاء فهو رؤية ديمومية الحق جل وعز، وأما بر أهل الانبساط فهو رؤية بسط الحق لهم في وجدان مرادهم منه، وأما بر أهل حقائق التوحيد فهو رؤية أنوار الذات والصفات، وأما بر أهل الوله فهو رؤية انبساط الحق في أنفسهم لذلك هاموا، وأما بر أهل الاتحاد فهو رؤية كسوة جمال القدم بوصف الصفات على أسرار أرواحهم وتسخير الكون لهم بالحكم لا بالتضرع والدعاء.

وهذا وصف بر أهل حقائق التوحيد ذكرت في هذا الفصل ما أتحف الحق إلى أوليائه من أنواع المقامات والكرامات بر أمنه لهم، وجزاء عظيم الله أجراً لهم، إذ كافأهم بمشاهدته وقربه وعطف عليهم بها هو أجدر منه من مننه القديمة وعنايته الأزلية.

وقال الأستاذ: منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والمحن ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه.

قال قائلهم:

ويتهز للمعروف في طلب العلا ليذكر يوماً عند سلمى شائله

وقيل: إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وكنت تؤثر

عليه حظوظك.

وقال جعفر الصادق: لن تنالوا خدمتي إلا بمعرفتي، ولن تبالوا معرفتي إلا برضائي ولن تنالوا رضائي إلا بمشاهدي، ولن تنالوا مشاهدي إلا بعصمتي، ولن تناولوا عصمتي إلا بتعظيم ربوبيتي، ولن تنالوا تعظيم ربوبيتي إلا بالانقطاع عما سواي.

وقال بعضهم: أول البر الهداية ثم المجاهدة ثم المشاهدة، معناه: لن تنالوا هذه الخصال إلا بأن تنفقوا مما تحبون.

قال ابن عطاء: لن تصلوا إلى القربة وأنتم متعلقون بحظوظ أنفسكم.

وقال جعفر الصادق: بإنفاق المهج يصل العبيد إلى بر حبيبه وقرب مولاه، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وقال أبو عثمان: لن يصل إلى مقامات الخواص من بقي عليه شيء من آداب النفوس ورياضتها.

وقال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب والوصول إلى البار بالتجلي من الكونين وما فيهما.

وقال النصر آبادي: أفردك له باشتقاقه المحاب منك ليكون خالصاً في محبته لا تلتفت منه إلى شيء سواه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا وصلتي وفي أسراركم موافقة أو محبة بسواي.

وقال النصر آبادي: قال بعض المفسرين: البر أنه الجنة، وعندني أن البر صفة البار فكأنه قال: لن تنالوا قربتي إلا بقطع العلائق.

وقال جعفر الصادق: لن تناولوا الحق حتى تنفصلوا عما دونه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا معرفتي وقربتي، حتى تخرجوا من أنفسكم وهمومكم بالكلية.

وقال العلوي: أحب الأشياء إليك روحك، فاجعل حياتك نفقة عليك؛ لكي تنال بري بك.

وقال أبو بكر الوراق: دلهم بهذه الآية على الفتوة، وقال: لن تنالوا بري بكم إلا ببركم إخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، وما تحبونه من أملاككم، فإذا فعلتم ذلك نالكم بري وعطفي، وأنه أعلم بنياتكم في اتفاقكم وبركم، ما كان منه لي خالصاً قابله بيري وهو أعلى وما كان من ذلك للرياء والسمعة، فأنا أغني الشركاء عن الشرك، كما روي عن المصطفى ﷺ.

قال الجنيد: قال: لن تنالوا محبة الله حتى نسخوا بأنفسكم في الله^(١).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٥﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الإشارة فيه أن أهل هذه القصة يجوز لهم أن يتركوا شيئاً من المأكولات من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم، ثم حثهم الله تعالى بأعلامهم شأن أنبيائه صلوات الله عليهم في المجاهدات؛ ليقصدوا بهم.

وأيضاً فيه إشارة إلى ترك اللحوم على الدوام لما فيها ضراوة كضراوة الخمر من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم.

وأيضاً: حرم على نفسه نبي الله يعقوب عليه السلام أشهى طعام فالإخبار عنه تعليم الله تعالى أهل محبته؛ ليركروا ما أحب إليهم من الأطعمة الشهية، وما تشتهي أنفسهم من زهرة الدنيا ولذتها.

وأيضاً: فيه إشارة إلى أهل الدعوى الباطلة من السالوسين والناموسين ألا يحرموا ما أحل الله لهم من الطيبات، ولا يحلوا ما حرم الله عليهم من المنكرات والخبيثات، وهؤلاء أهل الإباحة الذين ظهروا في هذا الزمان استأصلهم الله في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الشوق والعشق والمحبة والخلة والفتوة والمروءة والشجاعة والسخاوة والحلم والأمانة والديانة والكرامة وإكرام الضيف والصبر في البلاء والشكر في النعماء والهجرة، والخروج عما سوى الله بالكلية والعبرة والتأوه والصدق والإخلاص والتوحيد والتجريد والتفريد والسماع والوجد والاتصاف بصفات الحق من حيث رسوم البشرية بهذه الخصال صار إماماً للعارفين والعالمين

أمر الله تعالى أحب عباده متابعته وموافقته في جميع أحواله، ومن زاغ عن طريقه ولو ذرة فتكون النفس له صنماً قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزْغُبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ

نَفْسَهُ ﴿البقرة: ١٣٠﴾

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا يميل من الحق إلى جبريل حيث عرض عليه الليادة عليه قال: ألك لي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، ولا يداهن في دينه المحبة أبويه قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩] وكسر أصنام الكفرة بفأس الحمية، وطهر موضع نظر الحق عن الخيال والتمثال، فشكر الله عنه، وقال: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] وبذل في محبته الأموال والأولاد، ولا يخاف في الله لومه لائم لأجل ذلك قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وأيضاً نفى عنه خاطر الشك حيث قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ العرش قبله الملائكة، والكرسي قبله سكارى الحضرة، والبيت المعمور قبله السفرة، والكعبة قبله الناس عامًا وخاصًا، أحال الطائفين إلى الوسائط وحجبهم بها عن مشاهدة جماله غيره على نفسه عن أن يرى أحد إليه سبيلاً؛ لأنه وضع بيته قبل آدم وذريته ابتلاء وامتحاناً لتحججوا بالبيت عن صاحب البيت.

ومن أعرض سره عن الجهة في توجهه إلى الله صار الحق قبله له، فيكون هو قبله الجميع كآدم كان قبله الملائكة؛ لأنه وسيلة الحق بينه وبين ملائكته لما عليه كسوة جلاله وجماله كما قال ﷺ: «لخلق الله آدم على صورته»^(١) يعني ألقي عليه حسن صفاته ونور مشاهدته، كما قال تعالى في حق موسى ﷺ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]، والمحبة خاصة صفاته الأزلية، ومن أعرض من أهل العبودية عن آدم فمثله كمثل إبليس من الملائكة؛ لأن من شرط المعرفة العبور بالوسائط في عالم العبودية.

فإذا كان محققاً في المشاهدة فإلى أي جهة توجه فثم وجه الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ لأنه في محل عين الجمع، وكما قال بعض العارفين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

وأيضاً: وضع بيته وكساه بكسوة آياته الكبرى، وهي نور القدرة ليجذب قلوب عباده إليه بوسيلته؛ لأجل ذلك قال بيتي لتخصيص الإضافة، ولأنه منور بنور آياته الخاصة.

﴿لَلَّذِي بِسَكَّةَ﴾ سميت البكة لالتصاق أرواح العشاق به شوقاً إلى لقاء حبيبهم ولهيام

العارفين إليه بالمبادرة والمسارة ببذل المهج.

ويقال: لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك، ولكن أفرد سرك لأول حبيب أنزله.

وقيل: شتان بين عبد اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرته عزيز كان

له.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: مقدسًا من أن يلتصق به ريب الشاكين أو تهمة

المرائين أو أن يرى وجه عروس الآيات إلى غير المخلصين، وأيضًا تعظمًا بما كسا الله عليه من أنوار قربة وحضرة وبركاته أن يسكن به قلوب المريدين ويكون مروحة لقواد المشتاقين، وروضة لأرواح الصادقين، وريحانة لمشام العاشقين، وهدى هاديًا بانكشاف نوره للعالمين من المؤمنين، وأيضًا: هدي للمريدين إلى رؤية الآيات، وهدى للعارفين إلى رؤية صاحب الآيات، وهدى للخائفين إلى مقامات الأمن، وهدى للمقطعين إلى شهود الأنس، وراشد للمحسنين إلى مشاهدة الرب تبارك وتعالى.

وقال الأستاذ: بركاته اتصال المطاف والكشوفات هناك لمن قصده بهممه، ونزل عليه

بقصد هداة إلى طريق رشده.

وقال الحسين: إن الحق تعالى أورد تكليفه على ضربين تكليفًا عن وسائط وتكليفه

بالحقائق فتكليف الحقائق بدت معارفه منه وعادت إليه وتكليف الوسائط بدت معارفه عمن دونه ولم يتصل به إلا بعد الترقى منها إلى الفناء عنها، فمن تكليف الوسائط إظهار البيت والكعبة، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ فما دمت مشغولًا به كنت منفصلًا عنه فإذا انفصلت عنه حقيقة وصلت إلى مظهره وواصفه وكنت مترسبًا بالبيت متحققًا بوضعه^(١).

قوله: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ البيت مرآة العارفين يتجلى الحق لهم بوسائط الآيات أبهم

الحق سر ظهوره فيه؛ لئلا يطلع عليه كل أجنبي من هذه القصة، وشأن البيت وشجرة موسى سواء تجلى منها لموسى وتجلي منه لأمة محمد ﷺ، وأشار بالآيات البينات إلى نفسه تعالى وتقدس عن الحلول والنزول وبنعت الانتقال.

(١) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف

تطمع أن تصل إلى رب البيت بالهوينى دون تحمّل المشقات ومفارقة الراحة؟!

ويقال: لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك ولكن أفرد سرك لأول حبيب أثرك، ويقال: شتان بين عبد

اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرة أول عزيز كان له، ويقال: ازدحام الفقراء

بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بقدمهمهم، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون

بقدمهمهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهمهم. انظر: تفسير القشيري (١/٣٥٧).

قال الأستاذ: فيه آيات ولكن لا يدرك تلك الآيات بأبصار الرؤوس؛ ولكن ببصائر القلوب.

وقال محمد بن الفضل: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ علامات ظاهرة يستدل بها العارفون على معروفهم.

قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الرضا والتسليم والانبساط واليقين رضاه حين ألقي في النار وتسليمه في ذبح ولده وانبساطه قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] وبقينه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وزيادته مقام المكاشفة، فالمشاهدة والخلة والفتوة فمن وافق سره سر هذه المقامات، فقد أدى حق مقام إبراهيم عليه السلام، وأيضاً للخليل مقام المعرفة والتوحيد والفناء والبقاء والسكر والصحو فمن ذاق طعم السكر، وتمكن في الصحو وفني عن أوصاف نفسه، وبقي على أوصاف الحق بنعت الخلق عليه والنور بأنوار المعرفة، والتلبس بلباس التوحيد، وطار روحه في سنا القدم، وطاش قلبه في جلال الأبدية وسار سره في الملك الأعلى، وهام عقله في وادي العظمة والكبرياء، واطمأنت نفسه في أحكام الربوبية بلا جزع وفزع، فقد فار برؤية مقام إبراهيم عليه السلام؛ لأنه محل التمكين.

قال الأستاذ: مقام إبراهيم عليه السلام في الظاهر ما باشر بقدمه وهو في الإشارة بها وافق عليه الخليل بهمه.

وقيل: إنَّ شرف مقام إبراهيم، لأنَّه أثر الخليل عليه السلام، وآثار الخليل عند الخليل أثر، وخطر عظيم.

وقال الشبلي: مقام إبراهيم عليه السلام هو الخلة فمن شاهد فيه مقام إبراهيم الخليل عليه السلام فهو شريف ومن شاهد في مقام الحق فهو أشرف.

قال محمد بن علي الترمذي: مقام إبراهيم عليه السلام هو بذل النفس والولد والمال في رضا خليله فمن نظر إلى المقام ولم يتجل مما تجل منه إبراهيم من النفس والمال والولد ولم يسلم فقد بطل سفره وخابت رحلته.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ من دخل مقام الإنابة اعتصم بنور الكفاية عن تواتر المعصية ومن دخل مقام الزهد، فقد استراح من هواجس الوسوسة، ومن دخل مقام

التوكل قلت من ضيق الاشتغال بالمكاسب، ومن دخل مقام الرضا فقد فاز من الفناء ومن دخل مقام الوفاء فقد ذاق طعم الصفاء.

ومن دخل مقام الاستقامة فإنه من تلوين الخاطر، ومن دخل مقام الإخلاص أمن من آفات الرياء والسمعة.

ومن دخل مقام الصدق أمن من رعونات النفس، ومن دخل مقام التسليم مثل الخليل فقد خرج من تنازع النفس وتدبيرها وإرادتها، ولم يبق له اختيار وسكن في اختيار الحق ومراده منه، وأمن من خوف فوت المراد؛ لأن جميع الخوف من جهة فوت المراد فإذا لم يبق له مراد زال الخوف بأسره منه ولم يبق للخوف مساع في وصفه، ولا محالة أن دخول البيت لا يكون مستحسنًا إلا بتسليم الأمور إلى رب البيت، فإن من لم يكن بالتسليم موقوفًا في ترك مراده فهو معارض للتقدير في جميع الأمور، وحسن الأدب في دخول البيت التسليم بنعت الرضا دون المعارضة ونزاع البشرية.

ومن دخل مقام المراقبة من بعد الاستقامة من الخطرات الرديئة، ومن دخل مقام الأنس فاءت عنه الوحشة، وغربت عنه شره الفترة، ومن دخل مقام الخوف أمات الله عنه خوف زوال المحبة ووقر بنور الهيبة عند جميع الخلق، ومن دخل مقام الرجاء شعشت عنه دارات الامتحان وترح عن افتنائها بحلاوة الدنيا وزهرتها لأن من دخل قلبه سلطان حقائق الرجاء أمن من نوازع البشرية وهواجس الطبيعة وقوارع النفسانية، لأن نور الرجاء من بحر الأنس ونور الأنس من بحر القدس والقدس من صفاته علا كبريا وه وجلت عظمته، ومن التجأ إلى ظل سلطان الوجدانية أمن من غارات الشيطان؛ لأنه دخل في قباب عصمته، ومن كان في مقام كنف ستر جبروته فأنى يلحقه أيدي الشياطين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأخبر عن عدوهم: ﴿لَا غُيُوبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ﴾ [الأنعام: ١١١] إلا عبادك منهم المخلصين ﴿[ص: ٨٢، ٨٣] ومن دخل مقام المحبة أمن من الإبعاد والطرود والغضب، ومن دخل مقام الشوق أمنت روحه من ارتباطها في عالم الحدثان، ومن دخل مقام العشق صار متصفًا بصفات الحق وخرج من أوصاف النفس، ومن دخل مقام المعرفة أمن من عين النكرة، ومن دخل مقام اليقين أمن من غبار الشك والريب، ومن دخل سرادقات التوحيد جنحت عنه خواطر الشرك؛ لأن حقيقة التوحيد الخروج عن عرضة النفس وسجن الوسواس وعلائق المعاهدات البشرية وقطع عوائق الإنسانية عن أوطان الذكر، ومن دخل مقام الذكر اطمأن برؤية المذكور، وخلص من ذكر ما سوى الحق، وإذا خرج العبد عن نفسه وشهواته بلغ مقام صفاء العبودية وإذا بلغ

صفاء العبودية بلغ صفاء الحرية ومن بلغ صفاء الحرية بلغ صفاء الذكر ومن بلغ صفاء الذكر دخل في مشاهدة المذكور وأمن من عذاب القبور.

ومن دخل مقام التفكير غاصت روحه في بحار أنوار الملكوت، وترى في أصداف الغيوب جواهر الجبروت، وسلمت من ربق النفس وطوارق الشيطان ومن دخل مقام الحياء تصدعت عن مزاد قلبه أزجل الشياطين، وتقَدَّس سره من نفخ الوسواس ومن دخل جمال عين الجمع سكن في وجد الحق تعالى بلذة الانبساط ونور البسط، وألبسه الله خلعة الأنانية، وأمن من صفات الإنسانية وسكر من تكاليف حياة الدنيوية، وَمَنْ دخل قلبه أنوار القربة سكنت روحه بالمشاهدة وعقله بالكاشفة، وسره بالمعينة ونفسه في العبادة ومن دخلت روحه في أنوار العظمة تاه قلبه في وادي الهيبة وعقله سكن بنور المعرفة وسره بنور الوصلة ونفسه بلذة الطمأنينة في أمور الربوبية ومن دخل سره في جنان الأنس مسكن قلبه في ظهور أنوار القدس وروحه في بروز نور القدم وعقله في كشف نور القدرة.

وَمَنْ دخل عقله في نور الشواهد سكن سره ببقاء المشهود وروحه في رؤية عين الحقيقة، وقلبه في محبة الأزلية ونفسه في رسوم المخاطبة، ومن دخلت نفسه في مراد الحق وخرجت عن مرائيات الخلق سكن قلبه بنور الإخلاص وروحه بنور الصدق وعقله في صفاء العبودية، وأيضًا من دخل نور اليقين قلبه أمن سره من اضطراب الشك، وعقله من رحمة النفس، وروحه من هموم التدبير، ونفسه من نفاد الشهود الخفية، وَمَنْ دخل نور الإيثار عقله رأى قلبه حقائق البراهين، وروحه عالم الملكوت، وسره نور الجبروت، ونفسه أحست أصوات خطاب الخاص من حضرة الحق جلَّتْ عظمتها، ومن دخل نور التوحيد روحه فتق عين سره بنور الوحدانية، وعين قلبه بكحل الفردانية، ورسخت نفسه في إخلاص العبودية، وَمَنْ دخل نور الإسلام نفسه أمن روحه من خطراتها، وأمن سره من لخطاتها، وأمن قلبه من وسواسها، وأمن عقله من نزاعاتها، وَمَنْ دخل بهذه الصفات التي ذكرنا بيت ربه تعالى أمن من عذاب هجرانه في الدنيا والآخرة.

وقال الأستاذ: جعلنا الإشارة من البيت إلى القلب، ومن دخل قلبه سلطان الحقيقة أمن من نوازع البشرية، وهواجس عاهدت النفس.

وقيل: أن الكناية بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ راجعة إلى البيت، وَمَنْ دخله يشبه على الحقيقة كان آمناً.

وقيل: لا يكون دخول البيت على الحقيقة إلا بخروجك عنك، إذا خرجت عنك صح دخولك في البيت، وإذا خرجت عنك أمنت.

قال جعفر بن محمد في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أي: من عرف الله لم يأنس بشيء سواه.

وقال النوري: من دخل قلبه سلطان الاطلاع كان آمناً من هواجس نفسه، ووسواس الشيطان.

قال الواسطي: من دخله على شرائط الحقيقة كان آمناً من رعونات نفسه.

قال ابن عطاء: مَنْ دخله كان آمناً من عقابه، والله في الدنيا ثواب وعقاب، فثوابه العافية، وعقابه البلاء، فالعافية أن يتولى عليك أمرك، والبلاء أن يكللك إلى نفسك.

وقال جعفر: مَنْ دخل الإيمان قلبه كان آمناً من الكفر.

وقال الواسطي في موضع آخر: مَنْ جاوز قلبه الإيمان كان آمناً في رعونات نفسه.

وقال جعفر الصادق: مَنْ دخله على الصفة التي دخلها الأنبياء والأولياء والأصفياء صار آمناً من عذابه، كما آمنوا^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وأضاف الحد إلى نفسه لما فيه آثار الربوبية وحقائق العبودية، وأيضاً ألزم حق العبودية على عباده لإيتاء شكر الربوبية، وأيضاً أرشدهم إلى رؤية المقصود في الآيات والعلامات بوسيلة القصد إلى بيته، وأيضاً فرض حج البيت على الجمهور لحضور الخواص زائرين رب البيت، وأيضاً أراد أن يرى عباده عظمتهم وكبرياءهم في رؤيتهم ذل العبودية، والتواضع، والتضرع على أعناقهم.

وأيضاً أي: واجب الوجوب على عبادي القصد إلى مشاهدتي ببذل الأموال والنفوس والأرواح، وترك الراحة، والشهوات، والأولاد، والأرواح بنعت التجريد عن المكونات في قصدهم إلى بيته، ويختص البيت لقصدهم رسماً وحكماً عن المشاهدة؛ لأنه تعالى وتقدس، منزّه عن الحلول والتشبيه، يتجلى منه القاصدين إليه في لباس الملك، والآيات لأنه تعالى قال: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أخبر عن الآيات في نفس البيت، وأشار إلى تجلي الصفات في نفس الآيات، كما قال ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»^(٢)، يعني جبال مكة، وعنى بالجبال -والله أعلم- ببيت الله الحرام؛ لأنه أحجار اصطفاها الله تعالى في الأزل

(١) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمة، ثم لجأ إليه لا يهاجم ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاجم، ولكن يُضَيَّقُ عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (١/٣١٠).

(٢) سبق تخريجه.

قبلَ لعباده، ومرآة الكشف لخواصه، والاستطاعة في سبيله معرفته، وقربه ورؤية ألطافه في سائر الأوقات، واليقين في وعده، والتوكل عليه في جميع الأمور والمراقبة، ودوام الرعاية، ومعرفة حفظه، وكلايته جميع عبادَه، ومحَبته الصافية عن رعونَة النفس، وصدق القصد إليه بصفاء النية وطهارة القلب عما سواه، زادهم دوام الذكر والفكر في الآية، ونعمائه وقدرته الكاملة ورحمته الكافية ضدًا، وأمثال هذه المقامات استطاعة القاصدين إلى بيته انقطاع عن سبيل الرشاد، وهلك في مهلكه العناد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أضاف الحج في أول الآية إلى نفسه، ونزه نفسه في آخرها، ليعلم أهل خبرة العبودية له شفقتَه على عباده؛ لأن العبادة ترجع إليه بالثواب، وهو منزّه عن الأسباب.

والقاصدون إلى بيت الله تعالى على ثلاثة أقسام :

قسم منهم قاصدون إلى البيت بأموالهم، وأنفسهم لطلب الثواب، وقسم منهم القاصدون إلى البيت بقلوبهم الصافية عن الدنيا وما فيها، لامثال الأمر ولطلب مرضاة الرب.

ومنتهم القاصدون إلى مشاهدة رب البيت بأرواحهم العاشقة لطلب حقائق المعرفة، والقربة، وصفاء الوصلة وزيادة مشهد التجلي والتدلي.

فأهل الظاهر يحرمون عن المحظورات، ويحلون عن إحرامهم عند قضاء نسكهم وأداء فرضه، وأهل الباطن يحرمون عن الكائنات والنظر إلى البريات، ولا يحلون ما داموا في الدنيا إلى مشاهدة الذات، وكشف الصفات، فشتان بين مَنْ يحرم من المعهودات، وبين مَنْ يحرم من المسكنات، وشهود المكونات، لكن بلایاه لا يحملها إلا مطایاه، ألا ذهبوا وذهبت معهم البركات، وغربت بغروبهم في مغارب الأبد شمس الكرامات، وأقمار الآيات، ذاع خبرهم في الآفاق، وخفي أثرهم عن الآماق، رحمة الله عليهم حياة ومماتًا، من الإشارة في قصور حجاج كعبة الحقيقة، إذا أرادوا استقبال قلوبهم إلى نحو المقصود أعني بيت الله الحرام، عقدوا بالحقيقة مع الله بنعت المحبة عقد المعرفة، وفسخوا جميع العقود التي عقدوا في غير طريق الحق، من إيثار سواه عليه، وعهود النفس التي أخذت للرياء والسمعة، وطلب العلو والشرف، أعدوا السبل مواطن المشاهدة، زاد الصدق في التوكل والإخلاص واليقين والزهد في تجارة الله، وراحلة الصبر قوائمه الحمد، ورأسها الحلم، وبطنها الورع، وسرجها التمكين، وحزامها الاستقامة، وزمامها التسليم، وسوطها الأدب، وأرضها الرضا، وسماؤها اليقين، وماؤها الفكر، وعلفها الذكر، ورياضها المكاشفة، ومرعاها المشاهدة، وتوجهها على شهود

القدم.

وإذا خرجوا من أوطانهم بهذه الراحلة هجروا من الدنيا وما فيها، واستعدوا أهبة الموت من جميع الخلائق من المعاشرين المتقاربين، وأسرعوا في طريق الرياضة، وألزموا أنفسهم كدح الجادين المجدين، وتوجهوا بنعت الإخلاص إلى الله، ولم يلتفتوا إلى غيره في طريقه من أهل الدثر والدبر والبت، وعزموا أن لا يجوزوا عن قصد السبيل إلى سبل دواعي الهوى والشياطين.

وإذا ركبوا مراكبهم يكون قائدهم الهدى، وسائقهم التقوى، ومنهجهم الصفاء، ورفيقهم المولى، وعديلهم العلم، وصحبهم الحلم، الشوق يسوقهم في وادي العشق، مؤنسهم الحنين، ومطربهم الأنين، بدر وقتهم الحبيب، وإذا قربوا من وادي المحرم ساروا مسرعين من الشوق، وقطعوا نادمين من الذنب، وخرقوها سادمين إلى مشاهدة الرب، متحسين من فوت الأوقات، هائمين في طلب الدرجات، باكين دماء الحزن بالزفرات، ناثحين على أنفسهم بنعت العبرات.

وإذا أبلغوا رأس الوادي خلعوا ثوب الراحة، وتجردوا عن جميع الشهوات، ولبسوا إحرامهم التفريد، واغتسلوا في بحر التجريد، وتطهروا عن جمع شوائب العلل، وإذا لبوا سمعوا أصوات الرضا بنعت الوصلة والقربة، ونداء الحق قبل كونهم في الأزل، وإذا بلغوا عرفات صاروا متبطين في قيود السكر، لا فكاك لهم عنها إلا بستر الصحو، فبين السكر والصحو هائمون، وبين الهية والبسط حائرون، يعرف لهم الحق جلّت عظمتة حقائق المشاهدة، وصفات المكاشفة، وأظهر لهم مكنونات الغيوب، ومضمورات القلوب، وإذا وقفوا، وقفوا راجين إلى لقاء الرحمن، خائفين من القطيعة والهجران، شاهدين مقام الحياء، حاضرين مقام الفناء في رؤية البقاء، وإذا وصلوا إلى مشعر الحرام ذكروا الله بنعمة رؤيته، وذكرهم هناك غي اللسان وخجلة الجنان في قدم الرحمن، مقشورين بين يديه، مطرقين من التقصير، منحنين من التفريط، وإذا بلغوا المنى ذبحوا أنفسهم عن اللذات، والشهوات، وإذا رموا الجمرات رموا مجاهدتهم ورياضتهم وعبادتهم إلى كتم العدم، لوصولهم مشاهدة القدم، وإذا كسروا الحجارة كسروا معها شهوات بواطنهم، وإرادات أنفسهم عن ممكنات أسرارهم، وإذا حلقوا حلقوا عن باطنهم فضولات الوسواس، وحب محمدة الناس، وإذا دخلوا أرض الحرم علموا أنهم عند سرادق العظمة وأبواب الحضرة، خاضعين من الإجلال، ذائبين في نيران الكبرياء، محرمين عما دون الله، متأهبين للقاءه، لا يحل عليهم شيء من الأكوان قبل وصولهم إليه؛ لأنهم في معادن الصمدية، وصوله الصمدية تمنعهم عن علات الحدوثية، وإذا دخلوا مكة أيقنوا أنهم في جواره؛ لأن مكة بمنزلة الجنة، ومن دخلها أمن من عقابه في جواره

لوعده تعالى، وإذا دخلوا المسجد دخلوا هائمين من رؤية عظمتهم، وذكروا هيئته وإجلاله، وإذا رأوا البيت رأوا قبل رؤية البيت رب البيت، ومشاهدته، وعلموا أنهم في حضرته القديمة، ومشاهدته الكريمة، وإذا طافوا حول البيت رأوا ملائكته مطيفين حول العرش والكرسي، وأيقنوا أنهم عند الله تعالى بمنزلتهم، وإذا استلموا علموا أنهم بايعوا الله ببيعة الأزل بنعت الخروج عن المخالفة بعد تلك المبايعه، ولا يمدون أيديهم إلى المألوفات والشهوات، وإذا صلوا خلف المقام علموا أنهم في مقام الوصلة والقربة والمناجاة، ومحل الوافين بعهد الله، وإذا تعلّقوا بأستار الكعبة أيقنوا أنهم معتمضون بحبل الاعتصام، لائذون بحقيقة عصمته، ملتجئون إلى كنف قربه، منفردون عن اللبادة، واجدون الحق بعد ذلك، وإذا دخلوا بيت تعالى، أيقنوا أنهم في حفظ عنايته وكنف كلاتيه، مستغرقين في وجود قدمه وبقائه، وإذا صعدوا الصفا والمروة خرجوا من كدورات النفسانية، ورأوا أنهم في مقام الاصطفاء والاجتماع، ومن له بصيرة المعرفة علم وتحقق أن الله تعالى رسم هذه المناسك والمشاعر مثلاً لحضرة جلاله، وبنى الكعبة مثلاً للعرش والمسجد الحرام مثلاً لحظيرة القدس، وجعل البلد مثلاً للجنة، والصفا والمروة وجبال مكة مثلاً لحجاب الملكوت، والحرم كله سواتر الجبروت، والمنى مقام الأمن، والمشعر مقام الخوف والتعظيم، والمعرفة أرض المحشر، والمحرم مقام القيامة، والبادية الدنيا، والخروج من الوطن الموت، والقصد إلى زيارة البيت التأهب للقاء الرب تبارك وتعالى، فإذا أبصر حقائق هذه الأمثال صار حجه قربة ومشاهدة سعيه مبروراً، وعمله مشكوراً.

ذكرت حج العارفين من الموقنين والمشاهدين، وأيضاً هذه أمثلة مشاعر الباطن: فالكعبة هي القلب، والحجر الصدر، والبلد الصورة، والصفا العقل، والمروة العلم، والمنى الحلم، والمشعر الذكر، والعرفات صفاء العبودية والمعرفة، والمحرم المقامات والخلالات، والبادية النفس والهوى، والحاج الروح المقدس.

وأما أسرار العاشقين أيضاً: إذا حجت فكعبتها ذات القدمية جلّت عظمتهم، وعزّ كبرياؤه، ومناسكها مراتب السر في الصفات، فإذا تجرّدت الأسرار في بيداء الأزل عن الأماكن والأزمان والحدثان، استقبلت إلى عروس البقاء والسرمدية، تحولها مطاف حظائر القربة على بساط الحشمة والانبساط، فكل نفس منها لما نظره وشاهده وكاشفه فحجها منه إليه، وعنه به، وبه عنه، ومنه له، فشأنها عجيب، ووجدتها غريب.

وقيل: لم يخاطب عباده في شيء من العبادات بأن الله عليهم إلا الحج، وفيه فوائد: أحدها أنه ليس من العبادات عبادة يشترك فيها المال والنفس إلا الحج، فأخرجه بهذا الاسم. وقيل: ما كانت فيه إشارات القيامة من تجريد ووقوف.

قال الله: عليك ذلك لتتهيأ باطنك للموقف الأكبر كما هيأت ظاهرك لهذا الموقف.
وقيل: إن رجلاً جاء إلى الشبلي، فقال له: إلى أين؟ قال: إلى الحج، قال: هات جراتين، فأملأهما رحمة، واكتسبهما وجيء بهما؛ ليكون حظنا من الحج بعرضها على من حضر، ونحیی بها من يراه، قال: فخرجت من عنده، فلما رجعت قال لي: أحججت؟ قلت: نعم، قال لي: إيش عملت؟ قلت: اغتسلت وأحرمت وصليت ركعتين ولبّيت، فقال لي: عقدت به الحج، قلت: نعم، قال: فنسخت بعقدك كل عقد عقدت منه، خلعت مما يضاد هذا العقد، قلت: لا،

قال: فما عقدت، قال: ثم نزع ثيابك، قلت: نعم، قال: تجردت من كل فعل فعلت؟ قلت: لا، قال: ما نزع، قال: ثم تطهرت، قلت: نعم، قال: أزلت عنك كل علة يطهرك؟ قلت: لا، قال: فما طهرك، قال: ثم لبّيت، قلت: نعم، قال: وجدت جواب التلبية مثلاً بمثل، قلت: لا، قال: ما لبّيت، قال: ثم دخلت الحرم، قلت: نعم، قال: اعتقدت بدخولك ترك كل محرم، قلت: لا، قال: ما دخلت الحرم، قال: ثم أشرفت على مكة، قلت: نعم، قال: أشرف عليك من الله حال بإشرافك على مكة؟

قلت: لا، قال: ما أشرفت على مكة، قال: دخلت المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: دخلت في قربه من حيث علمته، قلت: لا، قال: ما دخلت المسجد، قال: رأيت الكعبة؟ قلت: نعم، قال: رأيت ما قصدت له، قلت: لا، قال: ما رأيت الكعبة، قال: رملت ثلاثاً مشيت أربعاً، قلت: نعم، قال: هربت من الدنيا هرباً علمت أنك به قد فاصلتها وانقطعت عنها، ووجدت بمشيتك الأربع أمناً مما هربت منه، فازددت الله شكرًا لذلك، قلت: لا، قال: فما طفت، قال: صافحت الحجر؟

قلت: نعم، قال: ويلك، قيل: مَنْ صافح الحجر فقد صافح الحق، وَمَنْ صافحه فهو في محل الأمن، أظهر عليك أثر الأمن؟ قلت: لا، قال: ما صافحت الحجر، قال: أصليت ركعتين بعدها؟ قلت: نعم، قال: وقفت الوقفة بين يدي الله ووقفت على مكانك من ذلك، وأريته قصدك؟

قلت: لا، قال: ما صليت، قال: خرجت إلى الصفا، ووقفت بها؟ قلت: نعم، قال: إيش عملت؟ قلت: كبرت عليها، قال: هل صفا سرك بصعودك إلى الصفا، وصغر في عينك الأكوان بتكبيرك ربك؟ قلت: لا، قال: ما صعدت ولا كبرت، قال: هرولت في سعيك؟ قلت: نعم، قال: هربت منه إليه؟ قلت: لا، قال: ما هرولت وما سعيت، قال: وقفت على المروة، قلت: نعم، قال: رأيت نزول السكينة عليك وأنت على المروة؟

قلت: لا، قال: لم تقف على المروة، قال: خرجت إلى منى؟ قلت: نعم، قال: أعطيت ما تمنيت، قلت: لا، قال: ما خرجت إلى منى، قال: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: هل

تجدد عليك خوف بدخولك مسجد الخيف؟ قلت: لا، قال: ما دخلته، قال: مضيت إلى عرفات، قال: نفرت إلى المشعر الحرام، قلت: نعم، قال: ذكرت الله فيه ذكرًا أنساك فيه ذكر ما سواه، قلت: لا، قال: ما نفرت، قال: هل شعرت بماذا أجبت أو بماذا خوطبت؟ قلت: لا، قال: ما نفرت إلى المشعر قال: ذبحت؟

قلت: نعم، قال: أفنيت شهواتك وإرادتك في رضا الحق؟ قلت: لا، قال: ما ذبحت، قال: رميت قلت: نعم، قال: رميت جهلك منك بزيادة علم ظهر عليك، قلت: لا، قال: ما رميت قال: زرت؟، قلت: نعم، قال: كوشفت عن شيء من الحقائق أو رأيت زيادة الكرامات عليك للزيارة؟ فإن النبي ﷺ قال: «الحاج والعمار زوار الله، وحق المزور أن يكرم زائر»^(١)، قلت: لا، قال: ما زرت، قال: أحللت؟ قلت: نعم، قال: عزمت على أكل الحلال؟ قلت: لا، قال: ما أحللت، قال: ودعت، قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودعت ولا حججت وعليك العود إذا أحببت، وإذا أحججت فاجتهد أن يكون كما وصفته لك.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: لما دخلت على الشيخ الحصري - قدس الله روحه - ببغداد، قال لي: أحاج أنت؟ قلت: أنا مع القوم، فقال لي: أليس فرائض الحج أربع، الإحرام والدخول فيه بلفظ التلبية؟ قلت: بلى، قال: والتلبية إجابة؟ قلت: بلى، قال: والإجابة من غير دعوة سوء أدب؟ قلت: بلى، قال: فتحققت للدعوة حتى تحيب، ثم الإحرام التجريد من الكل، ولا يكون التجريد إلا بالتفريد، قلت: بلى، ثم الوقوف، قلت: نعم، قال: فاجتهد فيه فإنه محل المباهاة، انظر كيف يكون في الطواف وهو محل القربة من الحق، فيكون قربك منه بحسن الأدب، ثم السعي، وهو محل الفرار إليه بالتبري مما سواه، فإياك أن تتعلق بعد سعيك بعلاقة من الدارين وما فيها.

وقال الشيخ: سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول: سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول: سمعت سعد بن عثمان يقول: سمعت عبد الباري يقول: سئل ذو النون لم يصير الموقف بالمشعر الحرام ولم يصير بالحرم؟ قال ذو النون: لأن الكعبة بيت الله، والحرم حجاب، والمشعر باب، فلما أن قصده الوافدون أوقفهم بالباب الأول يتضرعون إليه حتى أذن لهم بالدخول، أوقفهم بالحجاب الثاني، وهو المزدلفة، فلما أن نظر إلى تضرعهم أمرهم بتقريب قرايئهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفثهم طهروا من الذنوب التي كانت لهم حجابًا من دونه، فأذن لهم بالزيارة على الطهارة.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٨٩/٢) بنحوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْتَغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٥٧﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٥٨﴾﴾ .

ويخهم بالكفر بعد شهودهم مشاهد الآيات بأمر الظاهر، واستدرجهم بما أورثهم من الشهوات بقضاء الباطن، وحذرهم لشهوده على أسرارهم ليتردهم عن قربهِ ووصاله^(١).

وقال الأستاذ: الخطاب بهذه الآية تأكيد الحجة عليهم، فمن حيث الشرع تؤكد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر سد الحجة عليهم، فهم مذعورون شرعاً وأمرًا، مطرودون حكمًا وقهرًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

ناههم الله عن الصد والصد لا يكون إلا من الحسد، والحسد مذهب المبغضين الذين لا يطيقون أن يروا على المرید أثر كرامة الله، وهم في الحقيقة مصدودون، والمصدود مطرود يضل ويُضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وَمَن اعتصم به منه اهتدى به إليه؛ لأنه في محل المعرفة، ومن عرفه يستعيز برضاه من سخطه، وبمغافاته من عقوبته، وبه منه، وهذا حال سيد الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه - حيث قال في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمغافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

وكان ﷺ في ذلك الوقت في مشاهدة الجلال والجمال والكمال، والقدم والبقاء والجبروت والكبرياء بنعت المعرفة على وجود الحق، مستغرقاً في بحار علوم القضاء والقدر، ورأى ما رأى من عجائب قدرته، واطَّلَعَ على بعض أسرارهم إرادته فخاف به منه إليه، وأيضاً مَن اعتصم بالله هداه الله إلى معرفة عيوب النفس، ودقائق الشيطان، وأخلاق القلب، وشمائل الروح، وأوصاف العقل، وأمور المعاملات، وحقيقة الحالات، وطلب المكاشفات، والاطلاع على المشاهدات، ولمة الملائكة، وعلوم الإلهام، والفراشات، ويكون بهذه الخصال

(١) ومن حيث الحقيقة والقهر يسد الحجة عليهم، فهم مدعورون - شرعاً وأمرًا، مطرودون - حكمًا وقهرًا. انظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٦)، والترمذي (٥/ ٥٢٤)، وابن ماجه (١/ ٣٧٣).

في مقام التمكين، وهو أمثل طرق المستقيم^(١).

وأيضاً: الاعتصام انجزام القلب عن الأسباب والأرباب، والتبري إلى الله تعالى من الحول والقوة، ومن قطع جبل الطلب عن الخلق ارتفع ققام البين بينه وبين الحق، والاعتصام قبل المعرفة محال، والمعرفة قبل المشاهدة محال، ومن شاهد الله تعالى بنعت المعرفة يعتصم به في جميع مراده.

وقال ابن عطاء: مَنْ افتقر إلى الله من جميع ما سوى الله فقد فتح له الطريق إلى الحج، وهو قوام الطرق إلى الحج، وهو قوام الطرق.

وقال جعفر في هذه الآية: مَنْ عرفه استغنى به عن جميع الأنام.

قال الواسطي: مَنْ يعتصم بالله للأئمة وللإمامة اعتصموا بحبل الله، وقال أيضاً: الاعتصام به منه، ومن زعم أنه يعتصم به من غيره فهو وهن في الربوبية.

وقال أيضاً في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾: هل شاهدت مشاهدتك شيئاً تفرغ منك إليه، وهل فرغت إلا إلى نفسك، الاعتصام ترى نفسك في ظله وكنفه وحسن قيام نظره لك في يده، فإن الحقيق قسم الاعتصام والتصديق يوجب الاعتصام، وقبل الاعتصام واللجوء بطرح الحول والقوة والسكون للأمر والهدوء، وتحت مراد الله^(٢).

وقيل: الاعتصام للمحجوبين ولأهل الحقائق رفع الاعتصام؛ لأنهم في القبضة.

قال أبو بكر الورّاق: علامة الاعتصام ثلاث: قطع القلب عن معونة المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله.

وقال جعفر: مَنْ افتقر إلى الله عن جميع ما سواه وليس في سره سوى الله، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

قال أبو سعيد الخزاز: مَنْ أَمِنَ به لا يهان، ومن اعتصم به لا يهزم.

وقال: لا يمكن رد النفس إلى الصلاح إلا بالحكمة والعلم، والجهد والتضرع، وأصله الاعتصام بالله.

وقال الأستاذ: بما اعتصم بالله مَنْ وجد العصمة من الله تعالى، فأما مَنْ لم يهده الله

(١) فلا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شمسُ العرفان أن يوقع الكفرَ عليه ظُلْمًا، فإنه إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليل من هاهنا. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٣).

(٢) ولَمَّا رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلّاله، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره - فمرفوع عنه ظل العناية، وموكل إلى سوء حاله. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٥).

فمتى يعتصم بالله عز وجل؟ والهداية منه في البداية توجب الاعتصام به في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وأهل الاعتصام أربعة: المحب والعاشق والعارف والموحد، أما اعتصام المحب فطرح نفسه على باب الحبيب، عجزاً وتضرعاً لطلب الوصول إليه، وهذا نعت العاجز في متعب الفراق المحترق في نيران الأشواق، فإذا اعتصم بالحق على وصف غليان الحب، والهيمان في الشوق، فهده الله إلى مشاهدة جماله، وحسن عطفه وأفضاله، كما قال ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»^(١).

وأما اعتصام العاشق، فهو قطع العلائق من قلبه، وإيثار المشاهدة على ما سواه. فإذا تحقق في استغراقه في بحار العشق أرشده الله إلى مقام الأنس حتى سكن في أكناف لطافته، فهو بالحقيقة مكفوف من الاستدراج بعظمة الأزلية.

وأما اعتصام العارف، فهو بمعرفته بمعرفته فإذا عرفه تحير فيه، واعتصم بمعرفته عن النكرة تارة، وبالنكرة عن المعرفة تارة، والنكرة هاهنا العجز عن درك الإدراك إدراك، وإذا تحير العارف في مهمة العظمة فأصفده الحق عطاء من علوم المجهول من لدنه، فيرى بها مشاهدة الأسرار من حقائق غيب الغيب.

وأما اعتصام الموحد، فاللياذة من الجهل على مشاهدة القدم بالعرفان على مشاهدة البقاء، ومن الجهل على مشاهدة البقاء بالعرفان على مشاهدة القدم، وإذا وجده الحق مضمحلاً في ضباب عظمتته وأنوار كبريائه هداه إلى طرف من حقائق الوحدانية، ليسكن به جهلاً لا علماً، وعلماً لا جهلاً، وأمرًا لا حكمًا، وحكمًا لا أمرًا.

هذا صفة المعتصمين من أهل الحق الذي نبذوا بطلق الوجوه جميع رسوم الحدثنان من الدنيا والآخرة، راجين إليه خائفين منه، حيارى سكارى، لا تلتفتون منه إلى غيره من غلبة اليقين على قلوبهم، ولا يرضون بشيء سوى محبوبهم، فهم معصومون عن الخطرات في البواطن، محصونون على العثرات في الظواهر.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣).

وَيَا مُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ حق التقوى الفناء تحت سلطان الهيبة والتحير بنعت الحياء في مقام المعرفة، وذوبان القلب في رؤية العظمة من سطوة جلال المشاهدة.

وأيضاً حق التقوى: صون المعهود وحفظ الحدود والحمدود تحت جريان القضاء بنعت الرضا.

وأيضاً حق التقوى: ترك الأكوان والحدثان لمشاهدة الرحمن، وأيضاً نية الأصفياء بركضة تعريفه حقيقة عين القدم بهم؛ ليعرفوا حق الربوبية بأداء حقيقة المعبودية، والزمهم الاستقامة عليها، أي: اعرفوني بحق المعرفة، ولا تأتوني إلا بشرط الاستقامة، أي: لا يصادقكم الوفاة إلا وأنت بشرط الوفاء وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وقال سهل: أمروا أن يعبدوه بالتوكل عليه، والتفويض إليه، أي: لا يعرجون في الدارين على من سواه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقُّ تَقَاتِهِ﴾ تلف النفس في مواجبه.
وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف.
وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه.
وقال ابن عطاء: ﴿حَقُّ تَقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه.

وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغبنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.
وأيضاً قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص^(١).

(١) وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون المعهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والحمدود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يقبل أحداً بعلّة ولا يرُدُّ أحداً بعلّة. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٤).

وروي عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن هذه الآية؛ فقال: «أَنْ يَطَاعَ فَلَا يَعْصَى، وَيَذَكَرَ فَلَا يَنْسَى، وَيُشْكِرَ فَلَا يَكْفُرُ»^(١).

قال أبو يزيد: التقوى كل التقوى مَنْ إِذَا قَالَ قَالَ اللَّهُ، وَإِذَا عَمَلَ عَمَلَ اللَّهُ، وَإِذَا نَوَى نَوَى اللَّهُ، وَيَكُونُ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ.

وقيل أيضًا: مَنْ تَوَرَّعَ عَنْ جَمِيعِ الشَّبَهَاتِ.

وقال النصر آبادي: حق تقاته أَنْ يَتَّقِيَ كُلَّ مَا سِوَاهُ.

وقال جعفر: التقوى أَلَا يَرَى فِي قَلْبِكَ شَيْئًا سِوَاهُ.

وقال الواسطي: الْأَكْوَانُ كُلُّهَا أَقْدَارُ فِي مِيدَانِ الْحَقِّ، وَمِيدَانِ الْحَقِّ لَا يَطْوُهُ إِلَّا مَنْ اتَّقَى سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ من حبل الله: الهداية والكفاية، والرعاية والعبودية، والمعرفة، والمحبة، والخدمة والأدب، والحرمة والحشمة، والنبي ﷺ والكتاب والسنة أوجب على الجهود والاعتصام بهذه الوثائق حتى وصلوا إليه ولا تفرقوا عنه؛ لأن مَنْ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى رَأْيِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَعَقْلِهِ وَمَعَامَلَتِهِ وَمَجَاهَدَتِهِ، وَحِيلَتِهِ وَفِكْرَتِهِ وَاسْتِدْلَالِهِ فَهُوَ بِمَعْزَلٍ عَنْ ظِلِّ الْعَنَاءِ، وَكُنْفِ الْكُفَايَةِ، وَالْإِعْتَصَامِ بِاللَّهِ، وَبِحَبْلِ اللَّهِ مِنْ بَابِ الْمَعْرِفَةِ.

أرشد طائفة إلى نفسه بلا وسائط، وأغرقهم في بحار وجوده حتى يلتجئوا من قعر بحر الذات إلى سفن الصفات لينقذهم من ظلمات النكرة بأنوار المعرفة، وهذا حال خاص الخاص، وأشهد طائفة على مراتب المقامات والحالات حتى وصلوا إليه بأنوار كراماته، وألطف نواله، وهذا حال أهل الخاص، والأمر بالاعتصام شفقة على عجز العارفين في معرفته، وإدراك حقيقة عظمتهم، وفي مشهد التوحيد الاعتصام للمحبين جهل بعلم القدم، وللعارفين مكر وحجاب برسوم المعرفة عن حقائق الأسرار، وللموحد كفر؛ لأن حق التوحيد حالان، حمود السر عن الإرادة عند إرادات الحق، وفناء الموحد عن الموحد في رؤية الموحد؛ لأن مَنْ التفت عنه بعد شهوده من القدم إلى رسم الربوبية والعبودية، فهو مشرك في حقيقة، لهذا من غرائب شطحياتي.

وأيضًا: عَرَّفَهُمْ مَفَرِ الْأَرْوَاحِ، وَهُوَ مَحَلُّ الْكَوَاشِفِ وَالْمَعَارِفِ لَكِي يَنْطَقُوا عَنْ الْمُخَاصِمَةِ فِي الْأَخْوَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ بَلَغَ مَحَلَّ مَشَاهِدَةِ الْحَقِّ بَنَعَتْ رُؤْيَا الْوَحْدَانِيَةِ أَسْقَطَ الْوَاسِطَاتِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠٦/٧)، وابن المبارك في «الزهد» (٨/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٨/٢).

وسلم من العداوات، هناك حبال الاعتصام التي انعقدت بها رهن المؤاخاة، وتعارفت أرواح العاشقات؛ لأن وحشة التفرقة يكون في الغيبة، وحقيقة الجمعية يكون في مشهد المشاهدة.

قال سهل: تمسكوا بعهد، وعهده التوحيد.

وقال أبو يزيد: ما لم تفقد نفسك ولا تعتصم بخالك لا يستجاب لك، ومتى كنت وسط الأمور فالمخلوق لا يمتدي إلى الخالق، فإذا طرحت عنك كنت معتمداً به.

وقيل: الاعتصام إليه هو ميل القلب بالوفاء، وأداء الفرائض بغير تقصير.

قال ابن عطاء: حبل الله متصل بعده يتوقع منه المزيد والفوائد في كل وقت، وحبله عهده وكناية فمن اعتصم به وصل.

سئل الجنيد عن قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ قال: قالت المتصوفة: هو خصوص وعموم، أمّا قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ معناه: اعتصموا بالله عن الاعتصام بحبل الله، وقيل: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ اجتمعوا على موافقة الرسول ﷺ أنه الحبل الأوثق ولا تفرقوا عنه ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن هداكم إلى نفسه بنعت المعرفة والمحبة ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: إذ كنتم من مشاهدة التوحيد في حجاب النكرة تحت غمام البشرية عن رؤية القرب والمشاهدة، وحين كنت تحت ذل الكفر، بتضييعكم حق الله وحق الأخوة، وطلبكم حظوظ أنفسكم بترك حظوظ الإخوان، وسبب كون العداوة بينهم عزهم عن لباس المعرفة، فإذا كسى الله أسرارهم خلع أنوار قربه، وباشرت قلوبهم حقائق الوصلة، رأى بعضهم على بعض أثر جمال الحق عشقت أرواحهم بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وما شرحت فهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

وأيضاً فألف بين قلوبكم بنور عصمته، وكشف جمال حضرته، حتى وصلوا بأجمعهم حقائق مكاشفات الوصال، فذاقوا من كأس المنّة شراب الألفة، وطابوا بجمال الحبيب، وارتفعت عن بواطن قلوبهم غشاوة الوحشة، فصار عيشهم عيشاً واحداً، ومذهبهم مذهباً واحداً، وحظهم حظاً واحداً.

وجمعهم الله على عيون الإخلاص حتى يظهروا فيها من دنس الأخلاق، وأوساخ الطبائع، ولبسوا منها أثواب التالف، وإخلاصهم تخلصهم عن أسرار المكونات، ورفع عن أسرارهم أخطار التفرقة، فجمعهم في عين الجمع كنفس واحدة، فأحوالهم أورثهم الوفاء،

وإخلاصهم ألبس أسرارهم الصفاء، فبين الوفاء والصفاء صاروا في الأخوة صادقين، وفي المحبة مخلصين، وفي الصحبة منصفين، وفي المصادقة موقنين، وفي الجملة الألفة بين قلوب الأصفياء بالتفاوت على مرسوم المقامات، ومراتب الحالات^(١).

وافهم أن الله تعالى إذا جمع الأرواح في مشاهدة قرينة بعد إنشائها، فأكرمها بعضاً بإدراك مقام التوحيد، وبعضاً بمقام المعرفة، وبعضاً بمقام المحبة، وبعضاً بمقام المكاشفة، وبعضاً بمقام المشاهدة، وبعضاً بمقام الأنس والوجد والحالات، والألفة بينهم على قدر قران مقاماتهم بعضها بعضاً، وجعل الجميع بعضهم على بعض رحمة وهداية وعصمة، كما قال عليه السلام: «المراء كبير بأخيه»^(٢).

وقال عليه السلام: «المؤمنون كالبنيان تشد بعضهم بعضاً»^(٣).

فمن وافق في مشهد الأزل على مدارج جميع المقامات صار بين الأقران محبوتاً ومعشوقاً وإماماً بما وجد أصول حقائق القوم وإدراك حقيقة مقاماتهم، ومن لم يبلغ جميع المقامات صار حاله بخلاف ذلك، فالتألف أوصاف الأولين، والتناكر نعوت الآخرين؛ لأن أرواحهم احتجبت بعضهم بعضاً، كما قال صفي الصفات، وسفير مشاهد أسرار الذات، سيد البريات، وقائم قوائم مهاد الأزليات، صلوات الرحمن عليه: «الأرواح جنود مجنده، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٤).

قيل: كنتم أعداء بملازمة حظوظ أنفسكم، فألف بين قلوبكم، وأزال عنكم حظوظ النفس وردكم منها إلى حظ الحق فيكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: كنتم في قعر بحار غضب الأزل امتحاناً لا حقيقة، فأنقذكم منها عصمة رضا القدم المنعوت بعناية شرفكم، واصطفاء نيتكم بالمعارف والكواشف، وذاك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(٥).

وأيضاً أي: كنتم محجوبين بعوارض بشريتكم، محترقين بنيران شهواتكم، فأنقذكم منها أنوار المعرفة، وسنا الأزلية، وضياء القرية، وأذاقكم طعم شراب وصلته، حتى صرتم في طلب مزيد الوصال إخوان كل عاشق محب صادق في طلب رضاه.

(١) بالخلاص من أسر المكنونات، ودفع الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودهم جميعاً واحداً؛ فلو ألف ألف شخص في لب واحد - فهم في الحقيقة واحد. انظر: تفسير الشيرازي (١/ ٣٦٥).

(٢) ذكره ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ١١٥).

(٣) رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٥) رواه البخاري (٧١١٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢).

وقيل: في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: برؤية النجاة بأعمالكم. فأنقذكم منها برؤية الفضل.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٩) .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تبيض وجوه الصادقين في دعوى المحبة بنور المشاهدة، حيث طلعت شمس مشرق الأزل من مطالع القدم، فأنورت بتجلي الجلال وجوهاً، مغفرة بتراب جناب الحضرة عشقاً وشوقاً، وألبستها نوراً من نورها حتى رأت بنور القدم جمال القدم، وهي مشرفة بجلال ربها، مسفرة ببيضاء قربه، مستبشرة في رؤية وصاله، ناضرة بتبسم أفواه الرضوان الأكبر فيها، ناضرة من ربها إلى ربها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣]، واليوم تلك الأنوار ظاهرة في وجوه من تكون هذه النعوت والأوصاف لهم غداً، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، تلك سمات وجوه الأولياء الذين إذا رأيتهم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً؛ لأنهم مرآة الحق يتجلى منهم بجلاله للخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه المدّعين مقامات الأولياء بإظهار التقشف بين الخلق وخروجهم بزي الصادقين، وطلبهم به استحسان الخلق، وصرف وجوههم إليهم وعداوتهم، أمناء الله في الأرض حين تخرج رجال الله من حضرة الله ركباً على بجانب النور، وعلى رءوسهم تيجان الوقار في ميادين السرور، وغاراتهم عصاة أمة محمد ﷺ من أسواق القيامة، ويدخلون بهم الجنان بلا إذن الرضوان، تسود وجوه السالوسين المدّعين عند تلك الوجوه على رءوس الأشهاد باحتجابهم عن مشاهدة الله، وصحبة أهل الحضرة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال محمد بن علي: تبيض وجوه بنظرهم إلى مولاهم، وتسود وجوه باحتجابهم منه.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢١) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا

يُنصَرُونَ ﴿٣١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَ يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِئَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٣٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاسْرِعُوا فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ هَٰئَانَتْكُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقَوْمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَامِلٌ مِّنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٩﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِرُّوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مدحهم بالخيرية، ثم شرح الخيرية بأمر المعروف، ونهي المنكر، وذلك رتبة؛ لأنهم آخر درجات القوم، وهو محل التمكين، وتقديس النفس عن الخطرات، ولم يكن ذلك إلا بعد التباسه بلباس العظمة والكبرياء، مثل الأنبياء - عليهم السلام - وخيريتهم بخيرية نبيهم ﷺ واستعدادهم صحبته وموافقته، وخيريتهم مقرونة بخيريته، وهو خير الأنبياء، وقومه خير الأمم، وأمر المعروف دعاء المريدين بلسان المحبة مع مدح المشاهدة، والنهي عن المنكر نهيهم وردهم منهم إليه.

قال يحيى بن معاذ: هذه مدحة لهم، ولم يكن ليمدح قوما ثم يعذبهم.

قال جعفر الصادق: المعروف موافقة الكتاب والسنة^(١).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٢) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٣﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاطِبِينَ ﴿١٢٦﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: مَنْ كَانَ ذَلَّتْهُ عِنْدَ كُشُوفِ أَنْوَارِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعِظْمَةِ يَصِيرُ عَظِيمًا فِي عَيُونِ الْخَلْقِ، مَنْصُورًا بِتَأْيِيدِ الْأَزَلِيَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْكَرٍ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ كَسُوءَةُ جَلَالِ اللَّهِ، نَفَرَقَ مِنْهُ مَنْ تَعَزَّزَ بِنَفْسِهِ.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه موصوفاً به لقوله عليه السلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّ عَمْرٍ»^(٢).

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾: لضعفكم، وصحة توكلكم على ربكم، وانقطاعكم عن حولكم وقوتكم، ورددكم الأمر بالكلية إليه.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أراد السيد عليه السلام تقديس حضرة الجلال عن أنفاس المجرمين في قولهم بما لا يليق بجلال الله من الشرك والكفر، لثلا يبقى في ساحة الكبرياء مَنْ فِي قَلْبِهِ غَيْرُ اللَّهِ غَيْرَةً عَلَى جِهَالِ وَجْهِهِ تَعَالَى، وَمَنْ سَوَّغَهُ حَبَهُ وَشِدَّةَ إِرَادَتِهِ، لَمْ يَطَالِعْ أَمْرَ الْقَدَمِ الَّذِي جَرَى بِالْعَنَاءِ فِي حَقِّ الْمُسْتَوْرِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِأَسْتَارِ عَوَارِضِ الْإِمْتِحَانِ، فغايته الحق أين أنت من مشاهدة سبق عنايتي لهم، أنعم نظرك في ديوان الأزل، وليس لك في هذه الغيرة من أمر القدم ومشية الأزل في وقتك حين احتجبت بغيرتك على أمرهم شيء، وإن صرفت منك إلى رأيت أمر المشية، وتستغني من الدعاء عليهم، وتصديق ذلك قوله

(١) وشرط الأمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحق النأهي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر.

انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٧٠).

(٢) ذكره حقي في تفسيره (٤/ ٤٤١).

تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ .

ثم إن الله سبحانه أدب نبيه ﷺ هاهنا بأحسن الأدب بشيئين: أحدهما، أنه أهل الكرم والرحمة من العرش إلى الثرى؛ حيث وصفه الله بكمال الرحمة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: أرحم من حيث أنت على أمتك، ولا تدع عليهم.

والثاني: ألبسه خلقه تعالى؛ لأن من صفته وخلقه الرحمة على الجمهور، وأعلمه الأسوة بالأنبياء والمرسلين خص منهم إبراهيم ﷺ وعيسى ﷺ بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقال النوري في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: ولكن الأمر كله إليك، فإن لك الأمر فالأمر كله إليك، وليس لك منه شيء، جل قدرتك أن تلاحظ غير الحق فيها بعدي وتعيد.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٢٠ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ١٢١ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٢٢ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٢٣ .

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآية إشارة عجيبة لطيفة، وأنها وضوح عيان الحق سبحانه، حقائق الآية أن النار لم تعد للمؤمنين، ولم تخلق لهم، لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فإذا كانت للكافرين لم تخلق للمؤمنين، لكن خوف المؤمنين بها زجراً وعظة، كالأب أبار المشفق على ولده الذي خوف ولده بالأسد أو بالسيف وإن لم يضربه بالسيف، ولا يلقيه عند الأسد، فبقي الأمران لهذه الآية تلطف وشفقة على عبادة المؤمنين الصادقين، وأعجب من ذلك أنه تعالى خوفهم بالنار، والنار للغير، ومقصوده تجلي القهر من عظمتها للنار، وعظم النار من تجلي عظمتها، أي: اتقوني في النار؛ لأنني أحرقت النار وأعذبها بي، وهذا سر عين الجمع.

وقال ابن عطاء: أمر العام بإلقاء النار لخوفهم منها، وتركهم المعاصي من أجلها، وأمر

الخاص بأن يتقوه وينظروا إليه دون غيره ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولَىٰ آلِ أَبِي لَهَبٍ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: يا أهل الخصوص.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ علم الحق سبحانه على الخلق، وميلهم عن النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين، المغفرة والجنة، ودعا الخواص إلى نفسه، قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]. ثم أعلم بالكل في درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل؛ لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل فذنبهم قلة معرفتهم على أقدار الحق، كما قال ﷺ: «لو أن الله عذب الملائكة لحق منه»^(١).

ف قيل: إنهم معصومون، فقال: من قلة معرفتهم بربهم، ولذلك دعاهم إلى مغفرته، وأيضًا خاطب العارفين بلسان الالتباس، ودعاهم إلى الجمع ليتجلى لهم بالوسائط، لبقائهم في المعرفة وفي الحقيقة مغفرته قربته، وجنته مشاهدته.

قيل: طلب المغفرة هو طلب حظ النفس، وفي آخر الآية إشارة إلى تضيق صدر الزهاد في استعظامهم ما تركوا، فقال لهم: جنتي أجر ما تركتم، وذكر عرض الجنة وسعتها ليرغبهم، وخسة طبعهم، وهم الذين اتقوا الدنيا لأجل الجنة، وفيها يصلي العارفين من صداد سوء جوار المنكرين، فقال: جنتي واسعة اسكنوا حيث شئتم في جوار الكريم المقدس من سوء جوار المنكرين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ هذه الآية إشارة إلى قوم أخطئوا في السماع، ومجالستهم مع حظوظ أنفسهم وبقايا صفات البشرية، فهم حيث جلسوا بغير حضور ولا شهود، ولا مراقبة ولا تقديس الأسرار في طلب الأنوار الفاحشة منهم، سماع القول وإظهار الوجد مع حظوظ النفس وحظ البشرية، والظلم منهم دعوى المعاملات والولايات، وهم يعلمون أنهم ليسوا على التحقيق في السماع وإظهار الوجد، فأدركهم الله بفيض رحمته؛ حيث عرفهم فضائح أنفسهم عنده، ويلقيهم في رؤية التعبير والعتاب.

ويضيق صدورهم بتلك الفاحشة والظلم، فيذكرون الله بشرط الندم، ورؤية التقصير والخنجل بين يديه، وسقوطهم عن عيون المشايخ، فيستغفرون الله من كذب دعواهم بنية الصدق في التبرئ عن دعوى ما ليس لهم، وإذا كان الأمر كذلك، ولم يصروا على ما فعلوه،

يغفر الله ما سبق منهم بإيوائهم إلى قربه، فإنه مولاهم وصاحبهم لا غير^(١).

وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وأيضاً فيها إشارة إلى عشاق الله الذين استغرقوا في بحار العشق والشوق، واحترقوا بلوائح نيران الكبرياء، وبغته سطوات العظمة، فيطلبون روح الأنس بالاستراحة في مشاهدة المستحسنات، ويرتادون مشاهدة عروس القدم في مقام الالتباس، وعين الجمع الذي فيه رؤية الحق في مرآة الخلق، وذلك الالتباس فاحشة منهم؛ لأنه في طلب القدم مع رؤية الحدث، وليس لهذا الشرط تجريد حقيقة العشق، وإذا كانوا محترقين بنيران التوحيد والتفريد في رؤية الأزل والأبد والقدم والبقاء يطلبون النزول من مقام التوحيد إلى مقام العشق، وهذا ظلم منهم على أنفسهم؛ لأنهم نقصوا حظ التوحيد بفرارهم من الفناء في التوحيد إلى بقائهم في العشق، وقوله: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: إذا كانوا مدركين أنفسهم في مقام المكر والاستدراج، وفقدانهم أسرار مقام الفناء ودرجاته، يفزعون بالكلية إلى كلية الحق، جلّ عن الخواطر والضمائر؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ لم يقل ذكروا اسمه أو نعته أو صفته منه أو فعلاً منه بل ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: فنوا في الفرار منه إليه في صرف الألوهية برؤية الذات والصفات، يدركهم الحق بانكشاف ما استأثر من نفسه لنفسه، أو لأهل دنو دنوه الذين بقوا في الفناء وفنوا في البقاء، لهم خاصية واصطفائية، وأيضاً فيها إشارة إلى أصحاب المواجيد والوقائع والمكاشفات الذين عادتهم السلوك في المعاملات من الطاعات والرياضات، فإذا ورد عليهم وارد وتضييق وقت وظائفهم، يرجعون إلى أداء النور، وهذا سوء أدب.

كما سئل الجريري في ذلك قال: هذا سوء أدب، وهذا فاحشة منهم النزول من الربوبية إلى المعبودية، والظلم تركهم مقام الوصال، واختيارهم وسائط الأحوال، ذكروا الله بعد تغير

(١) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجائهم، وإذا زلّوا نقص رجائهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (١/٣٣٧).

الله إياهم بخلوهم عن الوسيلة، ورجوعهم إلى المشاهدة والقربة.

قال الواسطي: الطاعات فواحش، وما ذكره الواسطي تفسير بلسان الشطح.

وسئل أبو عبد الله بن جلا عن الظلم فقال: متابعة النفس على ما تشتهيها.

وسئل محمد بن علي عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ قال: النظر إلى

الأفعال، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ برؤية النجاة بأعمالهم ذكروا الله لحقهم التوفيق من الله،

وأدركهم العصمة منه، فاستغفروا لذنوبهم من أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا

اللَّهُ﴾ علموا ألا وصول إلى الله إلا به.

وقال الأستاذ: يقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم، وإن

خطورة المخالفات ببال الأكابر كفعلها عن الأغيار.

قال قائلهم:

أَنْتَ عَيْنِي وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي غَمَضُ أَجْفَانِنَا عَنِ الْأَقْدَاءِ

وَلَيْسَ الْجِرْمُ عَلَى الْبَسَاطِ كَالذَّنْبِ عَلَى الْبَابِ

وقال الباب: قال إن رؤية الأحوال والأقوال كظلمات عند ظهور الحقائق.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَنِعَمٌ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ (١٣١) قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنُفِصُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٢) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) وَلَا تَهِنُوا وَلَا

تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٤) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا

يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٥) وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٣٦) أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٣٧) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ

الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٣٨).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمٌ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ مَنْ خَرَجَ مِنْ دَرَكِ الْامْتِحَانِ بِشَرطِ الْوَفَاءِ وَالتَّقْدِيسِ

عَنِ اخْتِلَاقِ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَدَخَلَ بِشَرطِ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ بِنِعْتِ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ فِي مَيَادِينِ

الْصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْمَحَبَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَبِذَلِكَ الْمَهْجَةِ غَرَامَةٌ لِلْمُخَالَفَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ النَّدَمِ،

يَجْزِيهِ اللَّهُ بِرَدِّهِ إِلَى فَوْقِ مَقَامِ الْأَوَّلِ بِوَصُولِهِ إِلَى مَشَاهِدَةِ قُدْسِيَّةِ جَلَالَتِهِ، وَيَفْتَحُ لَهُ كُنُوزَ

مدخرات الغيب ويستأنس بجنات المشاهدة والمداناة، التي هي عيون صفات الذات، تجري منها أنهار الأوصاف الأزلية، تسقيه من مروبات سواقي الجلال والجمال، خالدين فيها بلا مكث، ولا قطع، ولا خطر الزمان، ولا حجت المكان، ولا تغير بعد ذلك نعم هذه النعمة من المنعم الكريم الوهاب للعالمين، أي: الواقفين بشرط الوفاء في العشق على الحضرة القديمة بلا نقض في العهود، ولا سهو في الشهود.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: بردهم إلى شهود الربوبية وما سبق بهم عين الحسنی في سابق القسمة، وجنات تجري من تحتها الأنهار مؤجلاً في الفردائس، ومعجلاً في روح المناجاة وتمام الأنس.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وإن كلام الحق سبحانه صفته الأزلية، مبین حقائق أمور الكونين، لمن له أهليته وأهل القرآن من كان روحه جلالية، وقلبه جمالياً، ونفسه مطمئنة، وسره قابل كل إشارة من الحق، ولهذه الجنود اصطفاية بالمعارف والكواشف، وإذا كان الأمر كذلك، يتجلى الحق في كلامه لأهل القرآن بنورين له مراد الله من خطابه يهديه إلى كل صواب؛ لأنه مفتاح كنز القدم، من وافقه يخرج له عروس الصفة القديمة من حجاب الحروف بكل مراد وصول به^(١).

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: إن الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن ومن له أهلية الصفة بإدراك بيانها، وله أهلية الذات بكشف جلاله تعالى.

قال النبي ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»^(٢).

بقدر ترقى المقامات عنهم سر الخطاب من كتاب الله، قوم يسمعون بأسماع العقول أمراً واعتباراً، وقوم يسمعون بأسماع القلوب شوقاً وحلاوة، وقوم يسمعون بأسماع الأرواح محبةً ومعرفةً وعشاقاً وأنساً، وقوم يسمعون بأسماع الأسرار بملاحظة الأنوار كشفاً وبياناً، ولم ينكشف هذه الأسرار والوقائع إلا للناس، ومن لم يكن إنساناً متخلفاً بخلق آدم ﷺ وما بقي من ميراثه من علم الأسماء والصفات يكون من النسناس لمن يلاحظ مشاهدة القرآن وأسراره، فإن الله تبارك وتعالى أعلمنا أنه بيان للناس لا للنسناس، والناس من له وصف ما ذكرنا، ويبقى بالله مما دون الله بما صرح الله في بيانه قال: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

(١) وقيل: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفات القلوب، والآخرين من حيث تجلي الحق في الأسرار. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٩١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٤٠).

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾

قال جعفر: أظهر البيان للناس، ولكن لا يتنبه إلا مَنْ أُيِّدَ منه بنور اليقين وطهارة السر، ألا يراه يقول: ﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ إلا أن هذا الاهتداء بهذا البيان والاتعاظ للمتقين الذين اتقوا كل شيء سواه.

وقال الأستاذ: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفة القلوب، والآخرين من حيث تجلي الحق في الأسرار.

أعلمهم الله حقائق الإيمان، وهو اليقين، واليقين سكون القلب بوعد الرب تعالى، وبين إذا كنتم في معارج الإيمان والتصديق يجزى في نصركم وعلوكم على عدوكم، فإما معنى الحزن والضعف، فإن مَنْ عاين حقيقة الأمر قوى يقينه، وذهب عنه جميع الأحزان، وينبغي أن حزن العارف ضيق صدره من ركوب القبض عند غيبته عن المشاهدة، وفرحه ببسطه وروحه من كشف ملكوت ربه.

قال محمد بن موسى: ما بال الإنسان يحزن مرة ويفرح أخرى؟ قال: لأنَّ غذاء الأرواح وتهذيبها في الاستتار والتجلي يطرب عند التجلي، ويحزن عند الاستتار، فمتى حجب حزن، ومتى طالعه بعين البر واللطف فرح، وإن طالعه عين السخط خاف وقلق.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٠٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ﴿١٠٨﴾ إنَّ الله تعالى عانت الكل بهذه الآية، أي: لما أخبرتكم ربوبيتي بلسان نبيي، وأوجبت العبودية عليكم برسالته، وعرفتكم بصفات الألوهية بغير واسطة، فلم تنزل بذهابه عن البين، واضطربتم عن حقائق الإيمان وإخلاص العبودية عند الفترة والامتحان، فلو كنتم مشاهدين جلالي ما اضطربتم

بموته أو برفع الوسائط بيني وبينكم؛ لأنَّ مَنْ شاهد الحق وعايته تكون محبته وعبوديته بغير واسطة الربوبية، قائمة بذاته، أبداً ليس للأولياء والأنبياء إلا الإخبار والأنباء عند أمر الله، وكشفه مراده لهم، وخَصَّ من بينهم الصديق وأقرانه - رضي الله عنهم أجمعين.

ألا ترى حين قبض رسول الله ﷺ قال: «من كان يعبد محمداً؛ فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فالله حي لا يموت»^(١)، وهذا الوصف ظاهر في آخر الآية ﴿أَفَاِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰٓ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَ ٱللَّهُ شَيْئًا﴾ في الصديق ونظرائه رضوان الرحمن عليهم بقوله: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّكْرِينَ﴾ يعني: أبا بكر، ومن كان قلبه مثل قلبه في الإيمان والإيقان شكرهم استقامتهم في الرب والولاية، وجزاء شكرهم نصر الله وظفره لهم بانهمزام المروة عن ساحة الشريعة.

قال الواسطي: غضت البصائر عند وفاة النبي ﷺ إلا لرجل واحد، وهو فضل عليهم، وهو الداعي إلى الله على بصيرة، وهو أبو بكر، فكأن هذه الآية خُصَّ هو بها، وعجزت الأمة عن ذلك لضعف نحائرها، ووهن بصائرها، وبأن فضيلة أبي بكر بذلك، وهو قول: «من كان يعبد محمداً؛ فإن محمد قد مات».

وقال الحسين: ليس للرسول إلا ما أمر به أو كشف له، ألا تراه لما سُئِلَ: «فيم يختصم الملا الأعلى»^(٢)، يعني: لم يسمع حساً ولا نطقاً، فلما غيب عنه شاهده فوق الصفة عليه شاهدهم بشهود الحق، وذهب عنه صفة آدميته فتكلم بالعلوم كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ بين الله سبحانه أن من قدرته إماتة حي أعظم من إيجاد حي وأعجب من إبقائه؛ لأنَّ في الوجود قدرة وليس في المعدوم قدرة، وأيضاً إشارة إلى أهل الرياضة، أي أن النفس الأمارة لا تزول بالرياضة والمجاهدة أنها تطمئن بإذن الله وبحلاوة ذكره ومناجاته.

قال الواسطي: ليس نفس تملك الفناء والبقاء، بل كان ذلك الآجال مضروبة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ثواب الدنيا المعرفة، وثواب الآخرة المشاهدة، وأيضاً ثواب الدنيا محبته، وثواب الآخرة قربته، وأيضاً أي: مَنْ وقع في محل الإرادة وأرادني فقد أتجلى له بالآيات ومن الآيات

(١) سبق تخریجه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/٦٦).

وفي الآيات، التباساً ومن وقع في المعرفة وأرادني صرفاً أتجلى له بلا علة؛ لأن الإرادة محل الغيبة، والمعرفة محل الحضور، وأيضاً ثواب الدنيا صعبة الأولياء، وثواب الآخرة صعبة الحق.

قيل: ثواب الدنيا العافية.

وقيل: إلهام شكر النعمة، وثواب الآخرة: الجنة ونعيمها

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيُفْسِ مَتَوَى الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتَيْنَكُمُ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: محبكم بمحبة الأزلية، وحافظكم عن شر أنفسكم، وكل خاطر يشير إلى غيره، وناصركم عند تحملكم مشاق العبودية عن إباء نفوسكم عن تحملها.

قال ابن عطاء: معينكم على ما حملكم من أوامره ونواهيه.

قال جعفر: متولي أموركم بدار عاقبته.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: خير الناصرين لكم على أنفسكم وهواكم^(١).

قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: منكم من وقع في بحر غنى القدم واتصف به، ويخرج منه بنعت التمكين، ورؤية النعم في شكر المنعم كسليمان عليه السلام، ومنكم من وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فيخرج بنعت الفقر بتجريد التوحيد، وإفراد قدمه من الحدوث، كمحمد ﷺ حيث قال:

(١) ويقال: كل من استنصرت به احتججت إلى أن تُعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرت به - سبحانه - يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى ألا ينصرك. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٠٢).

«الفقر فخري»^(١).

وأيضاً: منكم من يريد الدنيا للفناء، ومنكم من يريد الآخرة للبقاء، وأيضا منكم من يريد مشاهدة الله في الدنيا كموسى عليه السلام، ومنكم من يريد مشاهدة الله على نعت السرمد، ولا يكون إلا في الآخرة وعده.

قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي: رب الدنيا كقوله: ﴿وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية.

قال أبو سعيد الخزاز: مادتم بكم، وأوصافكم كانت هتمكم الحوادث والدارين، وإذا توليتكم وأخليتكم من صفاتكم وأكوانكم، وعلوت بهمكم إلى فأفنيتمكم من النظر إلى الأكوان وإرادتها، وأفنيتمكم بالحق مع الحق، وقال: متى ما طالعهم بأسرارهم بحقهم عن آثارهم ودهشتهم في مبادئهم.

قال النوري: العامة في قميص العبودية، والخاصة في قميص الربوبية، فلا يلاحظون العبودية، وأهل الصفة جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم.

قال الشبلي: منكم من يريد الدنيا للقناعة، ومنكم من يريد الآخرة للجنة، وأين يريد الله؟ ومريد الله من إذا قال، قال: الله، وإذا سكت فليس سوى الله.

وقال سهل بن عبد الله: دنياءك نفسك، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك.

قيل: قرئت هذه الآية بين يدي الشبلي، فقال: أوه، من قطع طريق الخلق إليه ورد الأشباح إلى قيمتها.

قال محمد بن علي: منكم من يريد الدنيا للآخرة، ومنكم من يريد الآخرة لله.

﴿ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَاصِيَةٌ تَعْلَمُونَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفِّفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١١٣/٢).

كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَ قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٠﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٠٢﴾ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: من رسم طريق المعرفة تجلي القهر واللطف، القهر من العظمة والغيرة، واللطف من الحسن والجمال، وفي عين الحقيقة هما واحد الأول: تربية، والثاني: رفاية، وسنة الله جرت على مباشرتها على التسرمد، فما باشر للقهر وجود العارف إلا ويأتي بعده نور تجلي اللطف والبسط والروح والكشف والأنس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، فلما ذاقوا ألم الامتحان أنسوا برؤية الرحمن، الأول خوف؛ لأنهم في العبودية، والآخر أمن لأنهم في رؤية الربوبية، وذلك يقتضي الأمن والنعاس محل الكشف، كاشفهم الله هموم المجاهدة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: مَنْ صدق إرادته واجتهاده ورياضته ردَّ إلى محل الأنس.

صدق ابن عطاء، هذا وصف من وصفهم الله بالتمكين والاستقامة من الصحابة المباركة ﴿وَالصَّبْرُ فِي الْبَلَاءِ كَأَنْصَارِ الْأَنْبِيَاءِ﴾، وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَايُنَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ﴾ والريثيون الربايون الذين هم مربون في قرب الرب ومشاهدته.

قال الجريري: منقطعون إلى الرب فانية منهم أوصافهم وإرادتهم، متطلعون لإرادة الله فيهم.

قال بعضهم: ﴿رِثْيُونَ﴾ وزراء الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنَّ عليهم روع أنوار عظمة الله، ﴿وَمَا صَعَفُوا﴾ لأنهم مقوون بقوة الله، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ لأنهم مؤيدون بتأييد الله ومع جلالته وضعوا أقدامهم على أعناق نفوسهم الخيانة الأمارة هواها فخرجوا من داعية هواهم إلى مراد الله، لا جرم ألبسهم الله لباس وصفه الذي وصف نفسه بالصبر، ثم أحبهم لوصفه عليهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

قال الواسطي: أي كونوا كأبي بكر لما كانت لنسبته إلى الحق أنتم لم يؤثر عليه فقدان السبب ولما ضعف نسبتهم أثر عليهم، فعمرين الخطاب قال: «من قال مات محمد ضربت عنقه»، وأبو بكر نظر إلى ما دلَّ عليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ إِنَّ الله سبحانه خلق قلوب هذه الأمة وقت إيجادها في رؤية جمال القدم، ونورها بالحسن والرجاء، وأخرج أرواحها من العدم إلى عالم البسط والسرور، وسنا المشاهدة والسماع والخور، وألبسها خلق اللطف، فصارت مستعدة لرؤية الألفاظ قابلة لنور الأنس، ومن كمال حكمة الله ولطفه علينا خلق نبينا ﷺ على خلق البسط وروح الإنس، فوافقت المرافقة، وحصلت في البين أهلية، ودانت الأرواح وقربت الأشباح، فبقيت الحشمة وفنيت الغلظة، وصار رحمة تامة لهذه الأمة المرحومة، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَقْبَضُوكَ مِنْ حَوْلِكَ﴾ تبيين من الخطاب لطف الجانبين نسب الفعل إلى النبي ﷺ وإن كان غير متكلف في التلحين؛ لأنه كان مخلوقاً باللطف والكرم من الله، وفيها الإشارة إلى تأديب الصحابة، أي لو كان النبي ﷺ يدق عليهم أحكام الحقائق لضاعت صدورهم، ولم يتحملوا أثقال حقيقة الآداب في الطريق، ولكن ساعهم بالشرعية والرخص بحقائق ما أوجبه الله عليهم، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فاعفو والاستغفار من مسامحة الله لهم، فاعف عنهم تقصيرهم قلة عرفانهم أقدارك، واستغفرهم ما يجري في صدورهم من الخطرات التي لا تليق بالمعرفة، وما يجري على صورهم من الحركات التي لا تليق بصحبتك ومجالستك؛ لأنك مستغرق في الربوبية، وهم يطلبونك في مقام العبودية، وهم في وصف المحبة والإرادة، فأنت في محل التوحيد مشاهد مطالع شمس الأزال وأقمار الآباد^(١).

قال الواسطي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: جميع أوصافك وما يخرج من أنفاسك رحمة مني عليك وعلى من اتبعك.

وقال ابن عطاء: لما علا خلقه جميع الأخلاق عظمت المؤنة عليه، فأمر بالغض والعفو والاستغفار.

(١) جرّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟! انظر: تفسير القشيري (١/٤٠٩).

قال الحارث المحاسبي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: نسب ما كان منه في ذلك من اللين والمدارة إلى نفسه بقوله: برحمتي لنت لهم، وما كان الله يقول لنيبه ﷺ: إنك لنت لولا إنه لينه بمعرفته ووفقه للمدارة.

قال الفارسي: انظر كيف وصف الله تعالى نبيه ﷺ باللين والشفقة، ثم عرّاه عن أوصافه فقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ وذاك حق قيامك بنا وهجرانك الخلق أجمع.

قال الأستاذ: يقال: إن من خصائص رحمته سبحانه عليه أن قواه حتى أصحابهم، وصبر على تبليغ الرسالة مع الذي كان يقاسيه من أخلاقهم مع سلطان ما كان مستغرقاً له، ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة الإلهية استأثره الحق بها، وإلا متى أطاق صحبتهم، ألا ترى إلى موسى ﷺ لما كان قريب العهد بسامع كلامه، كيف له يصير على مخاطبة أخيه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ لو سقيتهم صرف شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظ، لتفرقوا هائمين على وجوههم غير مطيقين الوقوف معك لحظة.

وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ إذا كان في محل العبودية وأمور الشريعة وعالم العقل أمر الله بحسن معاشرته معهم واستبشارهم في وقائع مستقبلات القدر، كيف يقبلونها بالعقول والقلوب بنعت التفكير والصبر في أحكامه؛ لأنهم كانوا يشربون من سواقي بحاره، ولأنهم في مقام الولاية، وهو في مقام الرسالة والنبوة وهما واحد في عين الجمع، يرون الغيب بنور الفراسة، وهو يراه بأنوار النبوة والرسالة، وكان ﷺ يحتاج في محل العبودية إلى نصرة الصحابة له في الدين.

وإذا كان في مشاهدة الربوبية، وخرج من التفرقة إلى الجميع، أمره الله سبحانه بإفراد القدم عن الحدث؛ حيث تجرد في سيره عما لله إلى الله بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه حسبك فيما يريد منه.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٠٨﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمتهم وكبريائهم، فلما تلبّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف.

وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١)، وحقائقه مشروحة في ترقّي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»^(٢).

نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحيين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المدانة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار علوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات.

قال بعضهم: إنّما يدرك نصر الله مَنْ تبرا من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه. قال الأستاذ: نصرته بالتوفيق بلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح. ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر.

ويقال: النصره إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر على تهزم دواعي فتتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وقود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيتها التي هي آثار الحجة وموانع القربة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ مقدّس أسرارته عن دنس الخطرات، ووصفه بالأمانة عند إخباره عن أنباء الغيب لم يجر على قلبه عند بيان الشريعة والطريقة، مدهنة لرؤية شريف ووضيع، ولم يخف حق الله ﷻ عن عباده وأعطى علم الحق لأهل الحق، وبين المحجوبين آية الحق ببرهان الحق، ولم يخط في طريق الحق خطوة بحظ نفسه.

قال بعض المشايخ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أن تستأثر بالوحي والشريعة بعض متبعيه على بعض.

(١) سبق تفريجه.

(٢) سبق تفريجه.

قال يحيى العلوي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَضِيعَ أَسْرَارُهُ إِلَّا عِنْدَ الْأَمْنَاءِ مِنْ أُمَّتِهِ.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٧) أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ أُنْذِرُكُمْ أَنْ هَذَا قُلُوبُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ تَأَفَّقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَثْكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا فَوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (٢٠) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢١) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (٢٢) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَهُمْ يَحْزَنُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٣).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ كان النبي ﷺ مرآة الحق يتجلى بجلاله وجماله للأمناء والصدّيقين منه، يرون الله برؤيته لقوله ﷺ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ» (١)، مَنْ عَلَى عِبَادِهِ بِوُجُودِهِ، وَلَوْ يَتَجَلَّى لَهُمْ صَرَفًا لاحترقوا بأول سطوات عظمته، جعله برحمته واسطة تجليه وذلك بمحل الالتباس من ظهور نفسه لذوي الأبصار، وإشارة قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: حال أمته من حيث حاله، وشربهم من حيث شربه، وأي منة أعظم على المؤمنين من النبي ﷺ وهو منظر جمال الحق للخلق، ومعرفهم أسماؤه وصفاته ونعوته، ومهالك المهلكات، ومنازل السجيات.

قال بعض المشايخ: أكثر منة على الخلق وسائط الأنبياء إليهم ليصلوا بهم إليه؛ لأنه لو أظهر عليهم من صفاته ذرة لأحرقهم جميعاً، ولضلّوا فيه عن الطريق إلا المعصومون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ نَبَّه الخلق أن مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الْعَشَقِ بِسَيْفِ الْعَشَقِ انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأوليّة واتصف بصفة الأزليّة، يصير منعوتاً بنعت الأخروية موصوفاً بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلّ سلطانه واحدة في الوجدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، فيضها في الأفعال تفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، ومحل أن وصل

نور الصفة فيكون خارجاً عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فَمَنْ كَانَ نَعْتُهُ أُولِيَّةً فَيَكُونُ نَعْتُهُ أَخْرُويَةً، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حياً باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنديته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القرية والعندية، ومَنْ يَكُونُ فِي الْعندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصافه ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق^(١).

وَمَنْ قُتِلَ بِسَيْفِ الْإِرَادَةِ فهو باقٍ بنور القرية، وَمَنْ قُتِلَ بِسَيْفِ الْمَحَبَةِ فهو باقٍ في سنا المشاهدة، وَمَنْ قُتِلَ بِسَيْفِ الْمَعْرِفَةِ فهو باقٍ في أنس الوصلة، وَمَنْ قُتِلَ بِسَيْفِ التَّوْحِيدِ فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغير العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم.

قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: لا تظنن المالكين في طريق الإرادة طلباً لوصله مردودين إلى مقاماتهم، بل قد بلغ بهم غاية ما قصدوا من القرب والوصلة إحياء بقرب الحق عند ربهم في مجلس المشاهدة، يرزقون زيادة الفوائد من أنوار الاطلاع فرحين بالغين أقصى رضاه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٨) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٩) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (٢٠) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢١) ﴿

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ نعمة الله معرفة الله ومحبته وفضله مشاهدته، فاستبشار القوم برؤية الله وجلاله وقدمه وبقائه لا بشيء من الحدثان، كانوا إذا نظروا إلى قدمه استبشروا بنعمة بقاءه، وإذا نظروا إلى بقاءه فرحوا بمشاهدة قدمه .

(١) ويقال: إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل فليس بميت. انظر: تفسير القرشي (١/٤١٧).

قال ابن عطاء: لو نظروا إلى المنعم لتنقص عليهم الاستبشار بنعمه وفضله، وكان استبشارهم بالمنعم المتفضل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ استجابوا لله بحب شاهدته، والاشتياق إلى جماله ولطائف قربه، ولذا نذر صحبته، وللرسول ﷺ لما عليه من آثار أنوار صفاته، وفيه إشارة إلى مقام الاتحاد حيث الأمر واحد، وإن الله سبحانه وتعالى وصفهم بحسن الإرادة في محبته، وطلب جماله يبذل أرواحهم بعد احتمال آلام الامتحان على أبدانهم بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

قال الواسطي: استجابوا لله بالوحدانية، وأجابوا الرسول باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وقبول الشريعة منه على الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: للذين بلغوا مقام الإحسان وهو رؤية الله في مقام الامتحان، ﴿وَاتَّقُوا﴾ جميع الحجاب بينهم وبينه إحسانهم إلقاء نفوسهم وهواجسها عند قبولهم مراد الحق بعد خروجهم عن مرادهم، و﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الذي وصفه الله بإعداده لهم، هو إيصالهم إليه بغير الهجران والعتاب، والحساب والحجاب^(١).

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ في إجابة المصطفى ﷺ، ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته سرًا وعلنًا، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو البلوغ إلى المحل العظيم من مجاورة الحق ومشاهدته.

قال الأستاذ: في هذه الآية استجابة الحق بالتحقيق بوجوده، واستجابة الرسول بالتخلق بما شرع من حدوده، واستجابة الحق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول بالوفاء في إقامة العبودية، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ في ابتداء مقاماتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المشاهدة، ﴿وَاتَّقُوا﴾ «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢)، وهو المراقبة في حال المجاهدة أجر عظيم لأهل البداية، مؤجلًا ولأهل النهاية معجلًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قدس الحق سبحانه حضرة

(١) كذا سُنَّه الحق - سبحانه - مع مَنْ صَدَقَ في التجائه إليه أن يمهّد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسّه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَبُ يُظِلُّه. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٢١).

(٢) سبق فخرجه.

الكبرياء عن تهمة الأغيار، ونفي الأنداد عن ساحة الجلال، قال: ﴿وَحَافُونَ﴾ في التفاتكم بالأسرار بنعت الخوف من الأغيار، رفع ما استحق له عَمَّنْ ليس له استحقاق، وخوف العباد منه حقوق ربوبيته، وليس في هذا الخوف من الغير نصيب، قرن الخوف والإيمان محل البرهان عند وقوع الامتحان، فإذا وقع نور المشاهدة تظهر أنوار الهيبة، وتذهب علّة الخوف، خوفهم بنفسه لا من عذابه، أي: من نظر إلى غيري بنعت إجلاله احتجب عني به، وأنا أبقيه في الخوف من غيري، وهو محل الشرك به، أي: مَنْ خافني فهو في محل الإيمان، وَمَنْ خالف غيري فهو في محل الشرك، وهذا الشرك شرك خفي.

قال الواسطي: الخوف من شرط الإيمان، والخشية من شرط العلم، وإشارته في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ابن عطاء: ما دمت متمسكين بالطريقة فخافوني، فَمَنْ ترك الخوف فقد ترك الطريقة المستقيمة.

﴿وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلُّهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُضِلُّهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ امتحن النبي ﷺ بعزائم الأمر في التوكل والرضا؛ حيث أحزنه بحث الكفار وتخويفهم إياه، ثم أمره بفتح عين سره في جلال قدمه، الذي سبب ذهاب جميع الأحزان من غيره عن قلبه، فَإِنَّ مَنْ استحکم في معرفته فلا يجري أحكام التلوين على قلبه.

قال الواسطي: الحزن في الأحوال كلها، وفي الحقيقة تعريف لهم وتنبيه، وهذه الآية من خيار الحقائق التي جرت أنهم لن يضرروا الله شيئاً؛ لأنهم جحدوا ما يليق بطبائعهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أخبر عن كمال اهتمام النبي ﷺ وشفقته على شريعة الله ونظام دينه، حيث أخبر بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ﴾؛ لأن حزنه من أجله، أي: فلا تحزن فإن ساحة الكبرياء مقدسة عن هجوم ضلال الضلال، وفيه أيضاً إشارة الاتحاد بقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: كيدهم بك لا يضرّك، أخبر به عنه، وأقام نفسه حيث تخلق الحبيب بالحبيب، وتوحد الحبيب بالحبيب.

وقيل في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: لأنه الذي تولاهم وفي البلية ألقاهم.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۚ فَمَا تُمِِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تَوَمَّنُوا ۖ وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا تَخْلَعُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا إِلَّا نُونُ مِنْ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَ وَبِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْوَتِّ ۚ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۚ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ إنَّ الله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر.

أما غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، ف رؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد.

وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيـان.

وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين.

وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين.

وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطلع عليها أسرار الخليقة أبدًا^(١).

وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾

(١) وقيل: إنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوين بأدناس البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ،

فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسرارهِ. انظر: تفسير القشيري (١/٤٢٦).

فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصديقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ نَحْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إِلَّا مَنْ آرَتَصَى مِنْ رُسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧].

قيل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إِلَّا مَنْ آرَتَصَى مِنْ رُسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧]، هو الفاني من أوصافه، المتّصف بأوصاف الحق.

وبين أن بعض الغيب مظهر للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ نَحْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني محمداً ﷺ، وذلك حكمه بالغيب، وحكمه على الغيب بقوله: «عشرة من قریش في الجنة»^(١).

ومثل ما أخبر عن الله سبحانه وعن أمر الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إن الله تعالى زجر الستارين هاهنا بكتمان المكاشفات، وحقائق الواردات، ووقائع المغيبات عن الطالين؛ لأن أصل السخاء تخليص المتحيرين عن درك الامتحان، وإرشادهم إلى طريق العرفان، وأي سخاء أعظم من إظهار مواهب الله على المريدين لاستزاد محبتهم وجه الله سبحانه، واستكبار شوقهم إلى جماله، وتحييهم أعمالهم وعبوديته، وتصديق ذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ومن كان يطيق ما ذكرنا من إرادة الخير على طلاب الله كيف لا يطيق بذل نفسه وماله وروحه في طريق الحق فداءً لأولياء الله، لأنهم معدن السخاء، والسخاء منهم ينشعب، والسخاء بالمال وصف المريدين، وبالنفس وصف المحبين، وبالروح وصف العارفين، والبخل بجميع الأشياء أعمى النفس الأمّارة عن رؤية منن بحار القدم، والسخاء انفتاح عين القلب على ذخائر القدرة، وكنوز الألوهية المملوءة من الآلاء والنعماء ومباشرة تحلي الوهابية

(١) رواه البزار في مسنده (٤/ ٩٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٢/

الأزلية السرمدية قلوب الصديقين العاشقين، وتلك الجبلية جبلة الأولياء ليس للأعداء فيها نصيب.

كما رُوِيَ عن النبي ﷺ: «ما جبل ولي الله إلا على السخاء»^(١).

والذي نبأنا الله من أخبار اليهود دليل على ما ذكرنا أنهم سرقوا نعت النبي ﷺ الذي وصف الله به نبيه في التوراة والإنجيل، وهذا الكتمان أصل البخل، فمن كان في الدنيا محجوباً بالمال عن مقام السخاء والتخلق بوصف الله سبحانه من الغنى والعطاء، بقي فيه ذلك حجاب إلى الأبد، ويكون مفتضحاً في الدنيا والآخرة، مشهوراً بعلامة اللؤم وسمة البعد، وذلك قوله تعالى: «سَيُطَوَّقُونَ مَا مَخَّلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» وَيَخُ الْمَفْلِسِينَ؛ حيث وصف نفسه ببقائه مع ملكه القديم بعد فناء خلقه وانقطاعهم عن مأمولهم، بقوله: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي: أنا صاحب المواهب السنية، أجازي بها المنفقين وجودهم في طريقي، وأعطيتهم ما لم يؤث أحداً من العالمين.

قال ابن عطاء: السلوك في طريق الحق على السخاء واجتناب البخل، وهو بذل النفس والمال والسر والروح والكل، ومن بخل بشيء في طريق الحق حجب به، وبقي معه، ومن نظر في طريق الحق إلى الغير، حرم فوائد الحق وسواطع أنوار القرب.

﴿لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٢٤) وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (٢٥) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٧).

قوله تعالى: ﴿لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحاناً للعاشقين، فمن نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعوناً نطق لسان القهر منه بـ: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: ٢٤]، وذلك مكر القدم واستدراجه.

ومن نظر إلى ربوبية وفيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدس الله

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٤١)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٥٩).

روحه العزيز - بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى عليه السلام؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّي - أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، نطق بصفته عن فعله.

ومن نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان - صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومن نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمن كان محتجباً بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجاً عن نعوت الفردانية والوحدانية.

قال ابن زانبار: ﴿لَتُبْلَوْنَ﴾ أموالكم بجمعها ومنعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد.

وقيل: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذاً وإعطاءً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ إن الله تعالى أمر الصادقين الذين هم أصحاب إلهام الخاصة والمحدثين والمكلمين من المقربين، بأن يظهروا بعض مقاماتهم التي بينهم وبين الله سبحانه، وما يليق بفهم الطالبين، ويعرفوا سننات أحوال أهل الولاية في زمانهم للخلق ليتركوا بهم ويصلوا إلى الله ببركاتهم، ولا يغار عليهم، وذلك صفة أهل الكمال من علماء المعرفة، ولا يكونوا مداهنين في كتبهم مناقب الصديقين.

قيل: أخذ الله الموائيق على عامة أولياء الله به ألا تخفوا كرامات الله عندهم، فمن لا يفتتن بذلك، ولا يتخذ دعوى، وإن يعلموا من قصدهم من المريدين الطريق إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذا لمن لم يبلغ مقام الواصلين، ولو وصل ما باعه بالحدثان، وكيف يطيق ممن رآه أن يشتغل بسواه، ولم يصلوا مقاصد القوم، وبقوا في أول الطريق برهة من الدهر، ولم يجدوا حلاوة الوصال، فادعوا عند الخلق بالبلاغة والكمال، وهم علموا أنهم لم يشاهدوا مواهب الله وكراماته، فباعوا ما ليس لهم، ووقفوا في تغير الله، وخجلوا بين يدي أولياء الله؛ لأنهم عرفوا خيانتهم^(١).

(١) أخبر أنهم أبرموا عهودهم ألا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب اللّمام بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبين أن ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارك لهم فيه. انظر: تفسير القشيري (١/٤٣٣).

قيل: ادعوا ذلك لأنفسهم ليفتتنوا به الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ أَنْ تَتَحَمَّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ هذا وصف الكذابين في دعوى المعاملات قبل شروعههم فيها في إظهارهم سمات أهل المعاملة بظاهر التقشف وزى أهل الناموس لصرف وجوه الناس إليهم بمجرد الدعوى، وأهل الرياء علوا على رؤية الخلق، وجب محمديتهم، وذلك القوم أضل من المرائين؛ لأنهم يطلبون المحمدة والجاه بغير عمل، وهم أقبح طائفة من المرائين الكذابين، وإن الله تعالى بيّن بما ذكرنا في قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ أَنْ تَتَحَمَّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وأخبر أنهم لم يخرجوا من حجب النفسانية، وبقوا في حجاب الهجران وهو أشد عذاب.

قال حاتم الأصم: حذّر الله بهذه سلوك طريق المرائين والمتقربين والمتزهدين والمتوسلين بسمات الصالحين، وهم من ذلك أحوال.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ إن ذلك الظاهر ينجيهم من العذاب، كلا بل لهم عذاب أليم، وهو أن يحجبهم عن رؤيته ويمنعهم لذيد خطابه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في هذه الآية إشارة لطيفة، وذلك أن الله سبحانه وصف الربانيين بإدراك أنوار صفة الأزل وذات القدم في ظهور قدرته في فعله، أي: لهم برهان منه إليه لا من الخلق؛ لأن في إيجاده غلقة يدركه نظار المعارف وحدائق الكواشف لا في رؤية الخلق؛ لأن الحدث حجاب عن رؤية القدم، وهذا مقام الخليل صلوات الله عليه أحسن الأدب، وعلل في السؤال برؤية الخلق مراده إدراك الربوبية المحضة، وذلك السؤال أعظم من سؤال موسى عليه السلام؛ لأن موسى سأل رؤية الله تعالى قط بغير الوساطة، وهذا عام، وما سأل الخليل عليه السلام بالوساطة أدق؛ لأنه سأل سر التقدير والقدرة من كمال شوقه من معرفته إلى نكرته، ومن نكرته إلى معرفته، وأيضًا خصّ السماء بظهور الآيات منها؛ لأنها مزينة بنور جلاله، ملتبسة بسنا جماله؛ لأنها مرآة كواشف الصديقين وطرق معارج المرسلين.

ألا ترى إلى قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وكشف جلاله للخليل ﷺ بواسطة الشمس والقمر والنجم، حتى قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وخاصة الأرض لموقع أقدام الصديقين والأنبياء والمرسلين، وإشراق نوره للمراقبين والمشاهدين؛ لأنها مقبوضة بطش الحق بقبضة العزة، قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيٰتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وأخبر النبي ﷺ في معالم القدرة عن ظهور جلال الأزل من مواقف المقدسية بقوله: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»^(١).

وخصَّ الليل؛ لأنها محل مناجاة العارفين وكشوف عظمتها، فهو الأزل بنعت الهيبة للموحدين، وخصَّ النهار؛ لأنه سبب فرحة المحبين، وموضع بسط المشتاقين، ورؤية جلاله للمبصرين، الذين يرون الله في مرآة الكون بنور القدرة وسنا المعرفة، وقفوا باب المعارف على هذه الشواهد، ورأوا الشاهد قبل المشاهد.

كما قال بعضهم: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، أرى الباء الحقيقة أنور فعله في السماوات والأرض والليل والنهار، ثم أراهم فيها أنوار القدرة الخاصة الصفاتية، وأرى ذاته تعالى في أنوار الصفة، فعلل الحقائق بلفظ المجهول، وأبهم على الأغيار أسرار معاني الخطاب، بقوله الآيات وعني بالآيات ما ذكرنا.

أنشد بعضهم:

إِنَّ الْمَوَدَّةَ لَمْ تَزَلْ مَوْضُوعَةً قَرَّرَ بِلَادِي وَأَكْثَرَ وَدَادِي
وَاحْذَرِ عِدَّةَ الْحَيِّ أَنْ يَلْقُوكَ وَلَيُظَنَّ الْعِدَّةُ أَنَّكَ حَادِي

هذا محل الالتباس، وشبيه ذلك ما أخبر تعالى لَمَنْ حَقَّ فُهْمُ ظُهُورِ جَلَالِ عَظَمَتِهِ فِي لِبَاسِ الْقَهْرِ، وفعل المجهول من المقصرين في نعوت الإرادة؛ حيث قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ومع هذا لو كنوا هؤلاء شاهدين على نعت رؤية الفردانية لم تحلهم إلى رؤية الصفة في الآيات؛ لأنها وسائط تليق بمقام المحبة وإفراد القدم عن الحدوث، مقام أهل التوحيد؛ حيث يروونه به لا بغيره.

ألا ترى كيف خاطب الحق مَنْ انسلخ عن نعوت الحدث إلى نعوت الأزل ﷺ حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥]، ولولا أنهم حجبوا بالعقول ما رفعهم إلى رؤية الحوادث بأن الله سبحانه خلق العقول لجولائها في الآيات بنعت التفكير والتذكر، وخلق

الأرواح لتنسّم نفحات تجلي القدس من بساتين الأنس، وأيضًا مَنْ احتاج في معرفة الله سبحانه إلى رؤية الآيات ليثبت بها وجود الحق سبحانه، فهو عامي حيث يعرف القديم بالمحدث، وأن الأكوان تلاشت في أول بادٍ بدأ من نور العظمة والكبرياء القديم.

قال الجنيد: كل مَنْ أثبتته بعلة فقد أثبت غيره، لأن العلة لا تصحب إلا معلولاً جل الحق عن ذلك.

وقال الواسطي في هذه الآية: هو فَرَّق ما بين معرفة العامة ومعرفة المحققين؛ لأن العامة اعتقد به بما يليق بطبعها، والخواص اعتقدوا به بما يليق به، وكل حال أثبتته العموم جحدته الخصوص، فهو عند الخاص منزّه عن كل ما وصفه به العامة؛ لأن العام اعتقدوه من حيث العبودية، والخاص اعتقدوه من حيث الربوبية.

وقال بعضهم: إنّ الخواص لم ينظروا إلى الكون، والحوادث إلا لمشاهدة الآيات، وما شاهدوا الآيات إلا لمشاهدة الحق فيها، ومَنْ شاهد الحق لم يمازج سريره طعم الحدث.

وقال النصرآبادي: مَنْ لم يكن من أولي الأبواب، لم يكن له في النظر إلى السماوات والأرض اعتبار، وأولو الأبواب هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إنّ الله سبحانه لما خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوَقَّعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيّان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت التسرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً ومحبةً وغيره، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ قيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيّجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيّجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيّجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيّجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك

الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في الحالات^(١).

ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسمد الذكر الذي وافق الكشف من الأساء والصفات والنعوت والذات.

سبحان مَنْ خَصَّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الأزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، وَمَنْ عاش منهم عن حقيقة القدم، صار متصفاً بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل.

قال جعفر: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا﴾ في مشاهدات الربوبية، و﴿وَقُعُودًا﴾ في إقامة الخدمة ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ في رؤية الزلف.

وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فَمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، وَمَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، وَمَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، وَمَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، وَمَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

قال النصر آبادي: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا﴾ بقيوميته، أَفَمَنْ هو قائم على كل نفس، و﴿وَقُعُودًا﴾ بمجالسة، «أنا جليس مَنْ ذكرني»^(٢)، و﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ على إشادة ﴿يَنْحَسِرُونَ عَلَى مَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾.

قال بعضهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا﴾ يذكرونه قائمون باتباع أوامره، و﴿وَقُعُودًا﴾ أي: قعوداً عن زواجه ونواهي، و﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ أي: وعلى اجتناهم مطالعات المخالفات بحال.

(١) استغرق الذكر جميع أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها. انظر: تفسير القشيري (١/٤٣٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/١٠٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، التفكر في خلق السماوات والأرض على معنيين:

الأول: طلب غيبة القلوب في الغيوب التي هي كنوز أنوار الصفات التي تبرز منها مقادير الخلق، يتفكرون في محض الربوبية، وإرادتهم إدراك أنوار القدرة التي تبلغ الشاهد إلى المشهود بحقيقة رؤية الوصف.

والثاني: جولان القلوب بنعت التفكر في إبداع الملك في الملك، طلب مشاهدة المالك في الملك، الأول منزل التوحيد، والآخر منزل الجمع.

قال بعضهم: هو رؤية الله قبل التفكر في الأشياء، وواسطة التفكر أن ترى الأشياء قائمة بالله، وفساد التفكر أن ترى الأشياء فيستدل بها على الله، وقبل ذلك بالتفكر في صفات الحق لا في المحدثات، ولو كان ذلك على المحدثات لقال: ويتفكرون في السماوات.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً﴾ تطرقوا من مقام الذكر إلى مقام التفكر في خلق الكون، استرواحاً من الاحتراق بنور الذكر بمروحة صفاء الفعل، لكيلا ينفوا في مشاهدة المذكور، وذلك غلبة المريد في طلب الرفاهية، وركوب الرخص، ألا ترى كيف احتجوا بالفعل عن الفاعل.

وأيضاً: لما استحلوا رؤية الفاعل في الفعل، ووجدوا حكم الأزلية بنعت التجلي في مرآة الفعل، قالوا: ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً﴾ أرادوا وجود الكون مرآة التجلي المكون في مقام التفكر بعد إرادتهم زواله في صفاء الذكر، غيرة على الغير، وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾، وعلة ذلك أن الله سبحانه عرف مكان ضعف الخلق عن حمل مشاهدته، صرفاً فأظهر الكون ليتطرقوا بالوسيلة إليه، كيلا يحترقوا في أول بوادي ظهور العظمة، وسطوات الكبرياء رحمة وشفقة.

قال فارس: الحكمة في إظهار الكون إظهار حقائق حكمته بالفعل الحكيمي.

قال الخواص: أمرهم بالتفكر في خلق السماوات والأرض، ثم قطعهم عن ذلك بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً﴾ دهم عليها، ثم حثهم على الرجوع إليه؛ لكيلا يقفوا معها، وينقطعوا عن مشاهدته، والإقبال عليه.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لما نزل القوم من مقام الذكر الخالص بغير الوسائط إلى مقام التفكر في الأفعال والآيات، ووقعوا في رؤية الخلق أدركوا ما فاتهم من خوالص الذكر بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: أنت منزّه عن كل ذكر وفكر، وكل خاطر وإشارة

وعبارة، وأنت أعظم من أن يدركك أحد بوسيلة الكون، حيث لم يدركك بكل ذكر خالص، ولا يدركك إلا بك كل عارف، سبحانه عما وصفناك بلسان الحدث، أنت كما أثبت على نفسك بقولك: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، و﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: عن طلبنا بنا لا بك، وعذاب النار عذاب البعد، وذلك نيران الفراق وهو حرق من نار الظاهر.

قال النصر آبادي: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: نزهت نفسك في نفسك بمعناك في معناك بما لا، ومنك بك لك.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَقَامْنَا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٧٢) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٧٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزِمْنَا الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْهَبْنَاهُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٧٤﴾ لَا يَغْرُنَّكَ تَلْقُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٧٥﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْإِهَادُ ﴿١٧٦﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تَزُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَقَامْنَا﴾ أخبر الله سبحانه بهذه الآية عن أحكام توحيد القائمين في معهد الأزل بنعت المشاهدة والفناء في القدم، بعد رجوعهم من الأرواح إلى الأشباح؛ حيث سمعوا مناداة الحق وخطابه من لسان منادي الحق، بشرط الوسائط بعد سماعهم خطابه صرّفاً، أي: إننا سمعنا مناداتك بلسان الوسيلة، فأمنا بشرط المشاهدة قبل مناداة الرسل؛ حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، في المشاهدة والحضور بلا حجاب، وأيضاً ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ بأرواحنا وأسرارنا منك، فأمنا بك بغير علة، فاتبعنا ظاهراً وباطناً مناديك، وصدقناه بما وجدنا حلاوة اليقين في قلوبنا، ومعنى الإيذان تصديق الكل برؤية الكل، وسابقة نظر الأسرار إلى الأنوار، وقبول الظاهر بيقين الباطن، والشروع في العبودية بعد كشف الربوبية، ومعاينة الغيب بالغيب.

قال القاسم: الإيمان أنوار الحق إذا اشتملت على السريرة، وهو أن يغيب العبد تحت أنواره، ويبدو له نجم الاحتراق فيغيبه عن وساوس الافتراق، فيكون مصحوب الحق في أوقاته، لا يشعر بتسخيره، ولا يعلم بحجابه، وإنما حجب الكل بالكل، وحجب كلاً بكليته، وقمع كلاً بحده، لئلا يستوي علم أحد مع علمه، فهذا هو صريح الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: اغفر قصور معرفتنا بك فإنه أعظم الذنوب؛ حيث نطلب معرفة القدم بالحدث، وكيف يكون مقارنة القديم بالحدث، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي: تجاوز بكرمك عن كل خاطر يشير إلى غيرك بعد ما وجدنا حلاوة وصلتك، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: توفنا مع الذين أنعمت عليهم بكشف مشاهدتك لهم، وإيقاع محبتك في قلوبهم، واستشواقتك من صميم أسرارهم إلى جمالك، واكتسابهم بكسوة رضا القديم، حتى وقفوا معك بشرك الرضا في كل بلائك وامتحانك.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: مع مَنْ رضى ظاهراً للخلق، وباطنهم لك.

وقيل: ﴿الْأَبْرَارِ﴾: هم القائمون على حد التفريد والتوحيد.

وقال سهل: الأبرار هم المتمسكون بالسنة.

وقال بعضهم: هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: نحن احترقنا بنيران محبتك، فأرونا بحسن مشاهدتك التي وعدت رسولك بقولك: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وأيضاً ﴿وَأَتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ بلسان رسلك، إِنَّ مَنْ اتبعهم تعطيه محبتك وسنيات آياتك وكراماتك؛ حيث قلت: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لا تحجبنا بنعمتك عنك؛ حيث يشتغل أهل الفريقين بأنفسهم، وهذا الدعاء من المعرفة تنزيه الألية عن الحدودية، واستغناء الربوبية عن العبودية، حتى لو يحرق جميع الأنبياء والمرسلين، لا يبالي بهم، ولا تنقص من ملك جلاله ذرة لك، عرفوا ما سبق لهم من حسن العناية، فستزادوا تواتر الأنعام؛ حيث تسلى الحق سبحانه قلوب الخائفين القانتين في رؤية العظمة، بقوله: «سبغت رحمتي غضبي»^(١).

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: أي: لا تجاوزنا بأعمالنا، وعد علينا بفضلك ورحمتك، إنك لا تخلف الميعاد، بقولك: «سببت رحمتي غضبي».

وتفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْعِوَادَ﴾ عندي نفي علة الحدث عن ساحة الكبرياء؛ لأن نقض العهد من شواغل أهل العلة، أي: أنت منزّه عن خلف الوعد، ونحن في محل الأمن من ذلك، فإن أوصاف الحدثان لا تجري على عزة كبريائك.

قال الأستاذ في هذه الآية: أي حقق لنا ما وعدتنا على السنة الوسائط من كمال النعمة، وتكفير السيئات، وغفران كل ما سبق من متابعات الهوى.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ في هذه الآية إشارة إلى تنزيه الأرواح من الخطرات، وتقديس الأشباح من الشهوات، هاجروا من غير الله إلى الله، ثم إن الله تعالى حثّ الأعداء بإخراجهم عن ديارهم لحبّ عزته العاشقين الصادقين، كيلا يركنوا بالطبع والحب إلى الإخوان والأوطان^(١).

قيل في تفسيرها: تركوا الشرور، وفارقوا أقرباء السوء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ إنّ القوم إذا لم يذوقوا مرارة إيذاء المنكرين لم يبلغوا حقائق الالتجاء إلى الله، والفرار إليه، فإيذاء الأضداد يهيج للأولياء إلى مقام القبض، وضيق الصدور، ذلك محل الامتحان من الله سبحانه؛ لكظمهم غصص غيظ المنكرين، لتفتح بعد ذلك أبواب الخطاب، وصفاء البسط، وسرور المنّة.

قال الجنيد: جرى الله إخواننا عنّا خيراً، ردونا بحقائقهم إلى الله، وهذا سنة الله التي قد جرت على أهل سلوك المعارف والكواشف، قال تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

قيل: غير القوم بصحبة الفقراء ومجالستهم، والتزيي بزيهم؛ لأن الفقر هو طريق الحق، ألا ترى المصطفى - صلوات الله عليه - لما جلس معهم، كيف قال: «المحيا محياكم، والممات ماتكم»^(٢).

(١) المظلوم منصور، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلوم حميد العقبي، والظالم وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقد يجري من النفس وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء، وأهل القصة - ظلم، ويحصل لسكان القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء، وتستولي غاغة النفس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطان الغفلة حتى تتداعى القلوب للخراب من طوارق الحقائق، وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (٢٠٠/٥)].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٠١/٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١١٧/٩).

قوله تعالى: ﴿لَا يَغْرُنَكُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: لا يعجبك طوف المنكرين في البلدان لطلب الفصاحة البلاغة، والتكلف في الآداب والزينة، طلباً لصرف وجوه الناس والريانية والحيل بأولياء الله، فإن أحوالهم مزخرفات فانية، يريدون بها إسقاط جاه الصديقين عند الخلق، وأنا بجلالي في كل نفس أرفع درجاتهم، وأزيد في ملك ولايتهم رغماً للمنكرين، وإرغاماً لأنوف المبطلين.

وأيضاً: لا يغرنك، ولا يفتتنك صحة أبدانهم، وأين عيشهم في العالم، وتيسير إقبال الدنيا إليهم في البلاد بجاههم عند العامة؛ فإنهم يحاربونني بإهانتهم أوليائي، ومبارزتهم معي بعداوة إحمائي، فإن أيامهم قليلة، وحسراتهم كثيرة عند طلوع أنواري من شرق العناية على وجوه أوليائي؛ حيث قلت: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، أفنضحهم عند وضوح الكتاب، وحضور الأنبياء والشهداء، وهذا وعيد شديد لأهل أزماننا من السالوسيين الناموسيين.

قال يوسف في تفسير هذه الآية: لا تفتتنك الدنيا بوقوع الجهال عليها، والاعتزاز بها فيها، والتكسر بنعيمها؛ فإنها زادهم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ بيّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القرية وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النعيم في الجنة، وأيضاً صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، ويبيّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة.

وأيضاً: أعجبوا الأبرار بها وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عندهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، وأيضاً لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون؛ فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقررتي ومشاهدتي.

قيل: ما عندهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحَسَابِ ﴿٦٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) أعلم الحق سبحانه حقيقة هيب نيران فؤاد المشتاقين، وتسلاهم بخطابه، وبما أمرهم بالصبر في لوعة الفراق، أي: اصبروا أيها المشتاقون في ركوب عظامم آلام المحبة والشوق على قلوبكم، بتذكيركم بلوغ وصالي، فإذا اشتد الأمر عليكم بالصبر في بلائي، صابروا على الصبر لكيلا يجزع صبركم في عناء الفرقة، والاحتراق في المحبة، اصبروا بمشاهدتي، وصابروا في طلبكم حقائق معرفتي، اصبروا بأسراركم، وصابروا بأسراري، ولا تكشفوها عند الأغيار، ورابطوا قلوبكم بكتانها، واتقوا الله في إفشاء السر، كيلا تحتجبوا عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنعمة جمالي، وحسن وصالي، وتفوزون من أليم عذاب فراقني.

وأنشد أبو حمزة الصوفي:

تَهَانِي حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ أَكْتَمَ الْهَوَى
وَأَغْنَيْتَنِي بِالْفَهْمِ عَنْكَ مِنَ الْكُشْفِ
تَلَطَّفْتُ فِي أَمْرِي فَإِنْ أَكُ شَاهِدًا
إِلَى غَايَتِي فَاللُّطْفُ يُدْرِكُ بِاللُّطْفِ

وأنشد أبو بكر أحمد بن إبراهيم المؤدب لإبراهيم الخواص:

صَبَرْتُ عَلَى بَعْضِ الْأَذَى خَوْفٌ كُلُّهُ
وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوءَ حَتَّى تَدْرَبْتُ
أَلَا رَبُّ ذُلِّ سَاقٍ لِلنَّفْسِ عِزَّةٌ
وَيَا رَبَّ نَفْسٍ بِالتَّعَزُّزِ ذَلِيلٌ
إِذَا مَا مَدَّتْ الْكَفَّ التَّمَسُّ الْغِنَى
إِلَى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلْتُ
سَأَصْبِرُ نَفْسِي إِنْ فِي الصَّبْرِ عِزَّةٌ
وَأَرْضَى بِذُنُوبِي وَإِنْ هِيَ قَلَّتْ

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عَبْرَاتِ خَطَطُنَ فِي الْخَدِّ سَطْرًا
فَقَرَأَهُ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ يَقْرَأَ
صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَعَاثَ بِهِ الصَّبْرُ
فَصَاحَ الْمَحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرًا

(١) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدة، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهى معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة [تفسير حقي (٢/٣٩٣)].

قال الجنيد: إنَّ الله تعالى ذكر الصبر وشرفه وعظم شأن الصابرين لديه، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ أمرهم بالصبر على الصبر، ثم قال: ﴿وَرَابِطُوا﴾ وهو ارتباط السر مع الله سرًا، والوقوف مع البلاء جهراً، قال النبي ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى»^(١).

قال الحارث: الصبر التهدف لسهام البلاء.

وقال الجريري: الصبر إسبال التولي قبل وقوع البلوى، فإذا صارف البلوى تلقاه بالتولي ولم يجزع.

وقال بعضهم: ﴿أَصْبِرُوا﴾ تحت حكمي، ﴿وَصَابِرُوا﴾ في الخلاوة مع أعدائي، ﴿وَرَابِطُوا﴾ قلوبهم بموافقتي ورضائي.

وقال جعفر: ﴿أَصْبِرُوا﴾ عن المعاصي، و﴿وَصَابِرُوا﴾ على الطاعات، ﴿وَرَابِطُوا﴾ الأرواح بالمشاهدة، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا الانبساط مع الحق، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ تبلغون مواقف أهل الصدق، فإنه محل الفلاح.

وقال بعضهم: ﴿أَصْبِرُوا﴾ بجوارحكم على الطاعات، ﴿وَصَابِرُوا﴾ بقلوبكم مع الله، ﴿وَرَابِطُوا﴾ بأسراركم بالحقائق سبل الشوق والمحبة.

وقال بعضهم: ﴿أَصْبِرُوا﴾ بالله، ﴿وَصَابِرُوا﴾ مع الله، ﴿وَرَابِطُوا﴾ أسراركم بالحقائق لعلكم تجردون عن همومكم وخطراتكم.

قال ابن عطاء: الصبر للمطيعين، والمصابرة للمحبين، والمرابطة للعارفين، وقال: الصبر لله، والمصابرة بالله، والمرابطة مع الله.

وقال الأستاذ: الصبر فيها يتفرد به العهد، والمصابرة مع العدو، والرباط نوع صبر، ولكن على وجه مخصوص.

ويقال: أول الصبر التصبر، ثم الصبر ثم المصابرة، ثم الاصطبار وهو نهايته.

ويقال: ﴿أَصْبِرُوا﴾ على الطاعات وعن المخالفات، ﴿وَصَابِرُوا﴾ في ترك أهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ﴿وَرَابِطُوا﴾ بالاستقامة في الصحة في عموم الحالات.

ويقال: ﴿أَصْبِرُوا﴾ على ملاحظة الثواب، ﴿وَصَابِرُوا﴾ على ابتغاء القربى، ﴿وَرَابِطُوا﴾ في محل الدنو أو الزلفة على شهود الجمال والعزة.

(١) رواه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (١٥٣٤).

وقد وقع لي قول بعد أقوال أشياخ المعرفة زيادة على قولي في الآية قبل أقوالهم، أن الله سبحانه أعلمنا في هذه الآية بيان أربع مراتب من عظام مقامات أهل الكمال في التوحيد:

الأول: مقام المعرفة، والثاني: مقام النكرة، والثالث: مقام الفناء، والرابع: مقام البقاء. وأضاف الصبر إلى المعرفة، والمصابرة إلى النكرة، المراقبة^(١) إلى الفناء، والفلاح إلى البقاء، أي: اصبروا في معرفتي حيث أعرفكم نفسي بنفسي، فإن في عرفاني مباشرة السر بالسر، وتخلق الصفة بالصفة، واتحاد الذات بالذات.

أي: إذا كنتم في مقام الاتحاد بإدراك ربوبيتي، اصبروا بكتمان دعوى الربوبية فإنكم في مقام المكر، وأنتم لا تعلمون، وإذا وقعتهم في بحار ألوهيتي، واختلط بكم بحار السرمدية والأزلية، ولا تعرفون طرق معرفتي بعد وقوعكم في نكري، ونكري جهلكم بي بعد معرفتكم بي؛ حيث امتزج ظلام القهريات بأنوار اللطفيات.

صابروا هناك لكي تدركوني فتريحون بكم ذوق وصالي، وسُكر مشاهدتي، وصحو صحبتي من غمرات النكرات، فإنكم في النكرة على محل غيرتي عليّ لكم، وإذا انكشف لكم سطوات عظمة قدمي، وبرزت أنوار أزليتي، وأنتم في محل الاضمحلال والفناء عنكم، ورابطوا أسراركم في أنواري؛ كيلا تتلاشوا بي عني فيفوتكم إدراك لطائف الغيبة، ووضوح أسرار الأزلية، فإذا استفهم في الفناء عنكم، ولقيتم بي عليّ تفلحون بإسبال بقائي عليكم حتى تخرجون من بحار الفناء بشرط البقاء، فإذا صرتم باقين ببقائي، فزتم عن ورطة الفناء بعد ذلك، ولا تجري عليكم أحكام التلوين بعد الاستقامة والتمكين.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَءَاتُوا الْيَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتِيمِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ

(١) قال ابن عجيبة: المراقبة أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصاء لمن حاربهم، ثم أطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده، المدار على خلوص النية [البحر المديد (١/٣٨٦)].

مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلُثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٢٠﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٢١﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ .

وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرتها بمشاهدي، وأسمنتها خطاب أزلتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة.

وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حديثةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ. وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرَّن بي؛ فإنك لي لا لك. وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقة من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث.

وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفتيكم بمشاهدي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب؛ ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك.

والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقني وعتابي.

قال بعضهم: يا بني النسيان والجهل.

وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه.

وقال جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله بمن عرفه، إنه من الإنسان الذي خصّ خلقته بما خصّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وسمو همته مما خصّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

وقال بعضهم: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب العام، و﴿يَعْبَادِي﴾ خطاب الخاص، وخطاب خاص الخاص، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾^(١) أي: كونوا على تقديس الأسرار عند كشف الأنوار، وعلى شرط الانفراد في محبتي عن الأغيار، ولا تبغوا آثار الأسرار لتكونوا في منازل الصدق من الأبرار، حذّرهم من نفسه.

والإشارة فيه: إن من مال سرّه في سيره إليه امتنع بعزته عن مطالعة جلاله، كقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحقيقة التقوى قدس السر عما سواه بنعت الخوف من فراقه في متابعة هواه.

قال بعضهم: التقوى ترك المخالفات أجمع.

وقال بعضهم: تقوى الله هو الاجتناب من كل شيء سواه.

وقال الواسطي: التقوى على أربع وجوه: للعامة تقوى الشرك، وللخاص تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقويهم منه إليه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٢)، إن الله سبحانه ذكر جميع أوصاف قدمه وأمره ومشيتته ونعته وأفعاله في هذه الآية رمزاً وإيحاء؛ لأنه تعالى لما أراد إبداع الخليقة لعرفانها حقوق الألوهية، وانتشار أنوار المحبة الأزلية في فضاء القلوب وأماكن الأرواح تجلّي ذاته لصفاته، وتجلّت صفاته لأفعاله، وجمع علمه وحكمته وقدرته في نعت واحد وهو الأمر، فقرنت الإرادة بالأمر، فنظر في الأمر بنعت الكاف والنون إلى العدم من القدم، فأظهر جوهر البسيط المجموع فيه الأجسام والأرواح والجوهر والأعراض.

(١) التقوى ترك كل شيء تقع عليه؛ فهو في الآداب مكارم الأخلاق، وفي الترغيب ألا يظهر ما في سره، وفي الترهيب ألا يقف مع الجهل، ولا تصح التقوى إلا بالمقتدي بالنبي ﷺ وبالصحابة - رضي الله عنهم. [تفسير التستري (١/١٨٦)].

(٢) أخرج النسمة من نفس واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهمهم متباينة، كما أن الشخص من نقطة واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة؛ فمنّ قَدَرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها، فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفس واحدة [تفسير القشيري (٢/٤٧٩)].

ثم نظر إليه بنظر الهيبة والعظمة والجود، فأُنشِر منه ما سبق علمه في الأزل به من العرش إلى الثرى على صور وهيئة كانت منقوشة بنقوش خواتيم أفعاله، وذلك المبدع هو أحمد - صلوات الله عليه - حيث قال: «وَلَمَّْا خَلَقَ اللَّهُ نُورِي، فَكُنْتُ كَذَا وَكَذَا»^(١)، حتى ذكر أن من العرش إلى الثرى خلق من نوره وهو آدم ﷺ الأول الذي قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، ثم جمع الأرواح والأشباح والأنوار والأسرار في قبضة عزته، وخرها بطينة آدم ﷺ في أربعين ألف صباح من صبح الآزال والآباد، حتى خلقه بخلقه، وأنشأه بروحه، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» [ص: ٧٢]، فباشرت فيه يد الأزل والأبد، وظهر فيه قدس القدم بجميع الأسماء والصفات والنعوت والأفعال، فصوره بصورة الملك، فتنشعب منه أماكن أسرار القديم من خلق الأولين والآخرين، وهو صورة عين الجمع التي أظهر الحق منها أوصاف قدمه، ألا ترى إلى قول سيد البشر - صلوات الله عليه - كيف قال في المتشابهات: «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢)، وهو آدم الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، أخبر عن مقام الجمع بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، ثم أخبر عن التفرقة بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

وبيّن بعض ما أشرنا أستاذ الأستاذين شيخ التمكين عمرو بن عثمان المكي - رحمه الله عليه و قدس روحه - وقال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَالَمَ، وَهِيَءَ بَاتِسَاقِ نَظْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَكْنَافِهِ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَبَدْءِهِ وَمُنْتَهَاهُ، مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ، وَجَعَلَهُ بِحَيْثُ لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ وَلَا فَطُورَ، أَحْكَمَ بِنَاءً بِاتِّصَالِ تَدْبِيرِهِ، وَحَبَسَهُ عَلَى حُدُودِ تَقْدِيرِهِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَجْزَاؤُهُ فِي التَّفَرُّقَةِ وَالْأَجْسَامِ وَالْهَيْئَاتِ وَالتَّخْطِيطِ وَالتَّصْوِيرِ، وَفَرَّقَهُ بِتَفَرُّقَةِ الْأَمَاكِنِ، وَحَقَّقَهُ بِاتِّتْلَافِ الْمَصَالِحِ، فَهُوَ مَرْبُوطٌ بِحُدُودِ تَقْدِيرِهِ، وَمُتَتَابِعٌ بِاتِّصَالِ تَدْبِيرِهِ، وَبَثَّ فِيهِ الْأَجْنَاسَ بَيْنَهُمَا مِنْ شَوَاهِدِ الزَّيْنَةِ، فَأَظْهَرَ الْقُدْرَةَ بِإِيْجَادِ آدَمَ ﷺ، ثُمَّ بَثَّ أَوْلَادَهُ فِي الْبَسِيطِ إِلَى تَصَارِيفِ التَّدْبِيرِ لَهُمُ وَالْمُشِيطَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، أكّد التحذير، وبيّن القدرة والتقدير أي: احذروا عَمَّنْ هو قادرٌ لإيجاد الخلق من لا شيء ومن شيء ترك مخالفته؛

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

فإنه قادرٌ أن يعدمكم، حتى لم تكونوا أبدًا كما لم تزالوا معدومًا، والمعدوم محبوب عن ديوان النبوة والولاية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: اتقوا من فراق الذي تسألون منه به مشاهدته ووصاله، وخوفهم بالأرحام، أي: اجتنبوا من مخالفة أوليائي رحم الصعبة، قال: صحبتي موصولة بصحبتهم، ومن فارق منهم فارق مني.

قال الأستاذ: أي فاتقوا الأرحام أن تقطعوها، فمن قطع الرحم قطع، ومن وصلها وصل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ذكر التقوى وأكد التقديس الأسرار، وليقع نظرات تجليه على مواقع القلوب، وصميم الأرواح بلا علة وجود الغير فيها؛ لأنه منزّه لا يصل إليه إلا منزّه عن غيره، وهو ناظرٌ إلى مواطن القلوب من الغيوب، وترفرف أنوار قربه عليها، فإذا يرى فيها ذكر الغير يرتحل مطايا أنواره منها إلى معادن الألوهية والربوبية، وذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وأيضًا: مقام الهية ووقوع نور العظمة على القلب الصافي بنعت حفظه عن خطرات الحوادث، والقلب العارف المنقلب في معارج الصفات، وهو تعالى استأثر حفظه بنفسه لا يكل حفظه إلى غيره، وبيان ذلك قوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء»^(١)، وإذا راقب العبد ربه في البداية راقبه الله في النهاية، كقوله ﷺ لابن عباس: «يا غلام احفظ الله يحفظك»^(٢)، والمراقبة منه الحفظ والكلاءة، وفيه بيان تسليّة الله سبحانه قلوب المحزونين المشتاقين إلى جلاله، أي: أنا ناظرٌ إلى أسراركم، وأعلم حرقتكم وهيجانكم؛ إني أجازيكم بوصلي، وأواسيكم بجمالي.

وأيضًا: أخبر الله تعالى عن شوق قدمه قبل الحوادث إلى وجوه أصفائه، أي: كنت مراقبًا بنفسي بغير علة التغير بخروجكم من العدم إلى شواهد القدم، ومن شواهد القدم إلى نور العدم، كما قال: «وإني إليهم أشدُّ شوقًا»^(٣)، وكان إخبار عن الأزلية في الأزلية.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: عالمًا بما تضرر من سرّك، وما تخفيه من خواطرك، فراقب من هو الرقيب عليك.

(١) رواه الترمذي (٤/٤٤٨)، وأحمد (٣/١١٢).

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٦٧)، وأحمد (١/٢٩٣).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/٤٥٤).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ١٠٠ وَابْتَلُوا الَّتِي تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ١٠١ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ المال هاهنا حقائق المعرفة التي لا يعرفها إلا الربانيون، أي: لا تظهروها للمبتدئين؛ لئلا تفسد عقائدهم.

وأيضًا: لا تعطوا المال إلى غير مَنْ يبلغ درجة التمكين؛ فإنه يهلك في تصرفه.

قيل: أولادكم الذين يمنعونكم عن الصدقة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ الرشد هاهنا والله أعلم: معرفة الله ومحبه وسلوك سبيله على موافقة السنة.

وقيل: أصحابه الحق، وقيل: القيام في العبادات على شرط السنة.

قال ابن عطاء: الرشيد مَنْ يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ هذه التسلية للمشتاقين أي: كفى بكم عدي أنفاسكم التي تنفست بها في غلبة شوقكم إلى لقائي، فأجازيكم بكل نفس بوصل بلا فصل، وأنا حسبكم، ومشاهدتي حسبكم؛ لأنه بلا نهاية ولا حجاب، وتخوف به أهل المراقبة، لئلا يخطر على قلوبهم خاطرٌ دونه.

قيل: الحسب الكريم أن يوفيك ما لك، ولا يناقشك فيما عليك.

قال ابن عطاء: الحسب الذي لا يضيع عنده عملٌ.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ١٠٣ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ١٠٤ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠٥ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثَّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٌ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ﴾ أمر الله سبحانه أولي النهايات من العارفين إذا انفتحت لهم خزائن جود المشاهدة، وانكشف لهم حقائق علوم الربوبية أن يقسمها على تلامذتهم من المريدين الصادقين على قدر مراتبهم، ومذاق حالاتهم.

و﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ أصحاب الصلابة، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ الساقطين عن الدرجة.

﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ أهل السلوك من المجاهدين أي: حدثوا عن نوالي عند هؤلاء لتزداد محبتهم فيّ، وشوقهم إليّ، لأزيد عليكم نعمتي، فإن كشفكم لطائفي عندهم شكر نعمتي.

و﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فازرؤهم من موائد القرية وخوان العناية لقيات الحقائق، وإن هذا يحدث من نعمتي، ولذلك أمر صفي المملكة ورئيس القرية أن يذكر لطيف صنعي به على أمته، لزيادة محبتهم جماله وجلاله بنعت بذل مهجتهم له، بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال محمد بن الفضل: دلت هذه الآية على كرم الله تعالى مع عباده؛ لأنه أمر إذا حضر مَنْ لا نصيب له في الميراث أن يرزقهم منه، دل بهذا أنه إذا حضر عباده يوم القيامة في المشهد العظيم أنه يتفضل بعبائهم على مَنْ لم يكن مستحقاً لعبائهم بمخالفتهم بإيصال رحمته إليه بفضلهم^(١) وسعة رحمته، وبلوغه إلى منازل أولي الأعمال؛ لأنه قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. من أفعالكم وطاعاتكم التي اعتمدتم عليها، واعتمدوا فضلي وسعتي ورحمتي.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾

(١) قال ابن عجيبة: فضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أو فضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: خلاوة المعاملة، ورحمته: خلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامة البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته، إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه. [البحر المديد (٢/٤٩٩)].

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾ ندب الله سبحانه عباده عند مفارقتهم الدنيا إلى أن يوصوا أولادهم بتقوى الله وتوحيده، وتحبيبهم له، وحثهم بالشوق إلى لقائه، والقول المعروف وصف الله، وذكر أفضاله وإنعامهن وأمرهم بتقوى الله في ذلك ألا يدهنهم فيها يروا منهم من الميل إلى غير الله، وأن يعطيهم تقواهم بالميراث، فإذا كانوا متفقين، فإن الله خلفهم في أولادهم، وهكذا شأن المشايخ عند مفارقتهم من المريدين إلى دار الآخرة، حتى لا يخفوا عنهم أسرار المقامات والحالات، ويكلوهم إلى الله بعزائم التوكل وتحقيق اليقين؛ فإنه لا سبيل للشيطان إليهم بعدهم.

قيل: استعينوا على كثرة العيال، وقلة ذات اليد بالتقوى، فإنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير.

وقال جعفر بن محمد: الصدق والتقوى يزيدان في الرزق، ويوسعان المعيشة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

وقال الأستاذ في هذه الآية: إن الذي ينبغي للمسلم أن يدخر لعياله التقوى والصالح لا المال؛ لأنه لم يقل: فليجمعوا المال، وليكثروا لهم العقار والأسباب، ويخلفوا العقل والأثاث، بل قال: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ فإنه يتولى الصالحين، وقد وقع لي قول آخر، وهو أن المرء يطلب في طول عمره الأموال الكثيرة، ويدخرها لأولاده حتى يموت، وهم يعيشون بها، فإن الله سبحانه علم نيته، أنه يكل أولاده إلى المال والميراث، فحذره من ذلك، وأمره بتقوى الله، فإن نيته في ذلك منازعة قدره؛ فإنه تعالى يفعل بهم ما يشاء، من يتوكل على الله فهو حسبه، وهو خلفه بعده.

قوله تعالى: ﴿إِيبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أشكل الأمرين من هاتين الطائفتين أنها يبلغان إلى درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربه، التي لو وقعت ذرة منها لأحد من هذه الأمة ينجو بشفاعته من النار سبعون ألفاً بغير حساب، أي اخدموا آباءكم، وارحموا أولادكم، فربما يخرج منهم صاحب الولاية يشفع لكم عند الله سبحانه، وحكمة الإيهام هاهنا تشمل الرحمة والشفقة على الجمهور؛ لتوقع ذلك الولي الصادق.

قال ابن عباس في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: أطوكم الله ﷻ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته، لتقر بذلك عينه، وإن كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله الولد إلى درجتهم لتقر بذلك أعينهم.

قيل: ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ ببرهم، ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ بالشفقة عليهم، والتأديب لهم هما بمحل النفع.

﴿وَلَكُمْ نَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيَنَّ بَهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تَوْصَوْنَ بَهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَنَّهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيْ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٤﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ حسم الله سبحانه أبواب حكمته في أمر فرائضه في كميتها وكيفيتها على الخليفة، لوضع رقابهم على باب الربوبية عجزاً وتواضعاً في عظمتها وكبريائه، واستأثر نفسه بعلم ذلك، لئلا تتجاوز حدوده أحداً من خلقه، ولكل صادر وارد معارفه وكواشفه حد يمنع من مطالعة صمديته وأحدثه، وحدود الله برزخ بين بحر الحدث وبحر القدم، لا يختلطان؛ لأنَّ القدم منزلة عن مباشرة الحدثان.

قال محمد بن الفضل: حدود الله أوامره ونواهيه، فمن تخطاها فقد ضلَّ في سبيل الرشده.

قيل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: أي الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإنَّ التعدي فيها يهلكهم.

وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤ لزم حده، ولم يتعد طوره.

وقال بعض البغداديين: العبد ينقلب في جميع الأوقات على الحدود، دخل في هتك

الحرمات، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ لأنَّ المرتع إلى

جانب الحمى ربما يخالط الحمى.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۖ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ ظاهر الآية في ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ على بمعنى من أي: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ على لسان القوم.

الإشارة فيه: أن من وقع في المعصية وقع في الظلمة والخيرة، ولا يرى سبيل الرشد، ولم يكن في وسع البشر أن يهدي نفسه إلى طريق الحق، فإنه هو الهادي، والهداية متعلقة بأوصاف قدمه، ويستحيل أن يكون الحادث على وصف القديم، فإذا على الله نعتة ووصف نفسه بالهدى لأنه الهادي أن يرجع إلى عبده المتحير الذي زلَّ قدمه في شهوات طبعه، فإنه لا يقدر أن يخلص نفسه من قهر الله، إنما تخلصه شرط كرمه الفياض، الذي وصف به نفسه تعالى للمذنبين الذين يقصدون حظوظ البشرية بغير الاختيار.

قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فبقي ﴿عَلَىٰ﴾ بشرط الظاهر بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ﴾ إنما الرجوع منه إلى العبد شرط الرحمة الواسعة، التي بها، قال: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

هذه سنة الله على أبنينا آدم صلوات الله عليه بعد أكل الحنطة بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَيْتُهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وخصَّ توبته ورجوعه للذين يعملون السوء بجهالة، إخبارًا عن عطفه ولطفه بأقوام امتحنهم الله في بدو الإرادة في بعض حظوظ أنفسهم لإيقاع نيران الندم والخوف والحياء والإجلال في قلوبهم؛ لئلا يرفعوا أعناقهم بعد اتصافهم بنعوت الكبرياء وبلوغهم حقائق الانبساط ومقامات الاتحاد، فيسقطون عن رؤية الأزلية ومشاهدة الأبدية في فنائهم عن الحدوث وتخلقهم بخلق القدم، وإضافة السوء إليهم ونسبتهم إلى الجهل.

أي: الذين يعملون سننات الطاعات على رؤية الأعواض جهلاً بمكرهه، وقلة عرفانهم بعزته وتنزيه جلاله عن طاعة المطيعين ومعصية العاصين، يعملون الطاعات، ويرونها أنها هي شيء ويتقربون بعلل الحدث إلى جناب القدم، فإذا صاروا مبصرين جمال مشاهدته استحيوا من ظنونهم بطاعاتهم في جلال عظمتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، عليماً بشوقهم إلى لقائه، حكيماً بتريبتهم في معرفته.

وقيل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾: الذين يتقربون بالطاعات إلى من لا يتقرب إليه.

وقال محمد بن الفضل: ضمن الله التوبة لمن يصدر منه الذنب من غير قصد لا صح إلى من يضره، ويتأسف على فوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتِّنَا وَإِنَّمَا مِيقَانًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّيبُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ

الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَتَيْتُكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَسْحَشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ
تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٥٢﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخَفَّفَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ
الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: كونوا في معاشرتهم في مقام الأنس وروح
المحبة وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة في الولاية، فإن معاشره
النساء لا تليق إلا بالمستأنس بالله كالنبي ﷺ وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال؛ حيث
أخبر ﷺ عن كمال مقام أنسه بالله وروحه بجمال مشاهدته، فقال: «حُبَّ إِلِيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ:
الطيب، والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١).

وهكذا حال يوسف عليه السلام حين همّ فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا﴾
[يوسف: ٢٤].

وقال ذو النون: المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح، ووجه صييح، وبكل صوت
طيب، وبكل رائحة طيبة.

وأيضاً: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ بطلب ولد صالح منهن.

وأيضاً: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: باشرهن حين رغبتكم في مرادكم منهن، فإن المعروف
لا يقع إلا على استواء من كلا الجانبين على نعت واحد.

وأيضاً، أي: عرفوهن صفات الله وأسماءه، ورغبهن في طاعته بنعت العلم،
وشوقوهن إلى جماله وجلاله. قيل: علّموهن السنن والفرائض.

قال عبد الله بن مبارك: العشرة الصحيحة ما لا تورثك الندم عاجلاً وآجلاً.

قال أبو حفص: المعاشره بالمعروف حسن الخلق مع العيال فيها ساءك وما كرهت
صحابتها.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ كل أمر من الله سبحانه جاء على مخالفة النفوس امتحانًا واختبارًا، والنفس كارهة في العبودية، فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت المجاهدة والرياضة، واستقامت في عبودية الله أول ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وفي أجواف ظلام المجاهدات للعارفين شمس المشاهدات وأقمار المكاشفات.

قيل في تفسير الخير هاهنا: الولد الصالح.

قيل: غيب عنك العواقب؛ لئلا تسكن إلى المألوف، ولا تنفر من مكروه.

قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ أي: أن يصرح لكم ما أشكل على قلوبكم من علوم الغيبة وأحكام الإلهامية وحقائق الشرعية ليقبلي بكم المريدون، ويستفيد منكم الصادقون. قيل: أي أنه ليس إليكم من أموركم شيء.

وقال الأستاذ: أي يكاشفكم بأسراره، ليظهر لكم ما أخفي على غيركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(١) يعني: طرق معارف الأنبياء وكواشف الأصفياء وسبل مقاماتهم وحالاتهم ورياضتهم.

قيل: سنن الأنبياء والصدّيقين التفويض والتسليم والرضا بالمقدور ساء أم سرّ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إرادته قديمة، وزلتنا محدثة، ومراده تعالى من ذنبنا رجوعه إلينا بنعت استقباله علينا، وهذا من كماله حجة عبادة في الأزل. قال النصر آبادي: أراد لك التوبة فتأب عليك، ولو أردته لنفسك لعلك كنت تحرم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: أن يخفف عنكم من ثقل أوزار المعصية إذا باشرتم أمره بمراده، وإذا استقبل العبد إلى الله سبحانه في قبول أمره ثقلت عليه النفس، فإذا صبر في العبودية رفع الله أثقال النفس عنه حتى صار مخفّفًا في عبادته، قال تعالى: ﴿وَأَنبَأَ

(١) إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعله ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى من قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (١/٤١٦)].

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِيِّينَ [البقرة: ٤٥].

ثم إنَّ لطاعته وأمره وقوله ثقل الربوبية بقوله: ﴿إِنَّا سُلِّقَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] فيرفع الله عن عارفه في مقام المشاهدة ثقل الربوبية والعبودية، ويسهل أمرها عليه، ويحمل عنه له، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿طه﴾ ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَتَشْقَى﴾ [طه: ١، ٢].

وتصديق ذلك قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾.

قيل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أثقال العبودية؛ لعلمه بضعفكم وجهلكم.

وقيل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ ما جهلتموه بجهلكم من عظيم الأمانة.

يقال: يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الرضوان.

ويقال: يخفف عنكم كلفة الأمانة بحملها عنكم.

ويقال: يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يفتح بقلوبكم من أنوار المشاهدات.

قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ أي: عن حمل واردات الغيب وسطوات

المشاهدة وكشوف الصفة وضعف هيجانه وهيمانه وزعقاته وشهقاته ودورانه وسيرانه.

قيل: ضعيف الرأي وضعيف العقل إلا من أيد بنور اليقين، فقوته باليقين لا بنفسه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

عَدُوًّا وَنَا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبِيرَ

مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هذا خطاب أهل الرفاهية والأنس والروح

والبسطة، أي: لا تقتلوا أنفسكم المطمئنة بالمجاهدات والرياضات، ولا تحملوا مشقة الجهل في

العبودية قلوبكم الروحانية، ولا تؤذوا أرواحكم القدسية بشروعكم فيما لا يليق بالبداية؛ فإن

هذه الأشياء تمنع الأرواح العاشقة من طيرانها في عالم المشاهدات، وتغم عليها أنوار

المكاشفات.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: كان في الأزل رحيمًا

بأوليائه في وضع أثقال العبودية الشاقة عنهم في مقام مشاهدتهم روح قلوبهم بالله.

ألا ترى كيف سهّل على سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه أمر العبودية بقوله:

﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَتَشْقَىٰ ۖ ، وبيّن أن قربه ووصله تتعلق برحمته السابقة لا بأمانة النفوس وكثرة المجاهدات.

وأيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الروحانية الملكوتية بمتابعة هوى النفوس الأمارّة الشيطانية؛ فإنّ النفس الروحانية في جوار النفس الأمارّة، وإذا علت بهواها على النفس الروحانية أظلمتها بغيم المعصية.

قال بعضهم: لا تهلكوا أنفسكم بارتكاب المخالفات واستكثار الطاعات.

قال محمد بن الفضل: باتباع هواها، قال: فقيل: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه فكأنه قتلها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ .
ويقال: بنظركم إليها، وملاحظتكم إياها.

وقال علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر -رضي الله عنهم: معناه لا تغفلوا عن أنفسكم؛ فإنّ من غفل عن نفسه غفل عنه ربه، ومن غفل عن ربه قتل نفسه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾^(١) الكبائر هاهنا في الإشارة رؤية العبودية في مشهد الربوبية، ورؤية الأعواض في الخدمة، وميل النفس إلى غير الله من العرش إلى الثرى، والسكون والوقفة في مقام الكرامات، وإظهار المقامات قبل بلوغها برسوم الرسومات والخطرات السارقة الجارية بخفيات ضمائر الرضا في بطنان ضمائر الأسرار، وهذه المحن حجبات المعارف من بقي فيها تقاعد عن سلوك المعرفة، واحتجب بنفسه عن نور المشاهدة، وأنّه تعالى نبّهنا أن من حجب عنها، وإنّ باشرها يعينه ويؤيده بتخليصه عنها ويرفع الوحشة والكدورة التي بقيت منها في قلبه عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ومن خرج عن هذه الظلمات أدرك ما فاتته من المقامات، وزاد قربه في المشاهدات بقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ والمدخل الكريم: وصال جماله وإدراك لطائف نواله.

قال أبو تراب: أمر الله باجتنب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة.

(١) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشُّرْكُ بالله، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشُّرْكُ الْحَقِيقِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قلوبهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد عن التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك نَفْسِكَ، فإذا شاهدت نَفْسَها تَخَلَّصَتْ من أسر المحن [تفسير القشيري (٤٧٢/٢١)].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّا اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝﴾.

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ التمني هاهنا وصف النفس الأمارة التي رأت الأشياء بعين الجهل، وقصورها عن حقائق المقادير الأزلية التي سبقت في الجمهور على قدر مراد الله والاستعداد، وذلك التمني وهمها على غير قصد الحق من رؤية هواها، ولو كان طلب القلب سني المقامات من الحق سبحانه بنعت التواضع وصدق الافتقار لكان مما يوجب البلوغ إليه، وذلك قوله : ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وأيضًا: زجرًا للضعفاء عن جمال أحكام المجاهدات، ومقام أهل المشاهدات.

وقال بعضهم: لا تتمنوا منازل السادات والأكابر أن تبلغوها، ولم تهذبوا أنفسكم في ابتداء إرادتكم برياضات السنن، ولا إسراكم بالتطهير عن الهمم الفاسدة، ولا قلوبكم عن الاشتغال بالفانية، فإنَّ الله قد فَضَّلَ بهذه الأحوال أولئك، فلا تقربوا إلى الدرجات الأعلى، وقد ضيقتم الحقوق الأدنى.

قال أبو العباس ابن عطاء: لا تتمنوا؛ فإنكم لا تدرون ما تحت تمنيتكم، فإن تحت أنوار نعمه نيران محنه، وتحت نيران محنه أنوار نعمه.

قال الواسطي في هذه الآية: إن تمنى ما قدر له، فقد أساء الظن بالحق، وإن تمنى ما لم يقدر له، فقد أساء الشاء على الله بأن ينقص قسمته من أجل تمنى عبده.

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أمر بالسؤال، ونهى عن التمني؛ لأن السؤال افتقار، والتمني اختبار، والسؤال استرداد النعمة، والتمني الاقتحام في المحنة.

وعرف تعالى طلابه عظم فسحة سرادق كبريائه وجلاله ووسع عطايا أزليته أي: أتم يا دنيا الهمم لا تنظروا إلى فقرات الفيض، فإنِّي واسع الفضل والعطاء، لو أعطيت ألف جنان في طرفة عين إلى عبدٍ واحدٍ لم ينقص من ملكي ذرة، أين وقعتم من رؤية جلال قدمي وبحار مني، انظروا مني إليّ، واسألوا زيادة فضلي، فإنِّي وهَّابٌ كريمٌ.

وافهم أنَّ للسؤال مقامات، ولتلك المقامات آداب ينبغي أن يعرفها العبد، فإنَّ مَنْ ترك السؤال في مقام الانبساط، وسأل في مقام الهيبة استعمل سوء الأدب، ويسقط من عين الله.

ووبَّخ الله سبحانه بهذه الآية أهل دناءة الهمة، والمقصرين في طلب مشاهدته؛ حيث

خاطبهم ﴿وَلَا تَمَنَّوْا﴾، فقال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حجبهم جميعاً بالفضل عن رؤية جماله، ولو كان على محل التحقيق من معرفته ومحبه لم يحملهم إلى الفضل، بل يردهم إلى نفسه، كما وصف صفيه ﷺ؛ حيث عرض إليه الأكوان والحدثان في مقام المشاهدة، ما زاغ سره إليها، بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فَإِنَّ عِنْدَهُ أَنْوَارَ كَرَمِهِ.

قال الواسطي: لو لم يعط إلا على السؤال لكان الكرام ما هو أمر المعروف بالكرم من يتدئ بالعطاء قبل السؤال.

﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿١٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلَيْهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿١٦﴾ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالْصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ فالصالحات العارفات بالله، وبحقوق الله، وبأمر الله، وبعفو الله وبعقوبته، وبما وجب عليهن من حقوق أزواجهن في حسن معاشرتهن معهم، والنصيحة في أمرهم، والقائتات قائمات على باب الله بخلوص نيتهم في عبوديته، والشوق إلى لقائه والتواضع في خدمته.

﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطلع عليهن أحد؛ حياءً من الله، وستراً على حاهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بها أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولما رقت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي

بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير»^(١).

ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

وأيضاً: ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأيين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحد.

وأيضاً: بما رأيين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لثلا يفتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضاً: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار.

قال بعضهم: بحفظ الله هن صرن حافظات للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتك ستورهن.

﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ اختلفت طينة الأشباح في التداني والتباعد، وهكذا جوهر الأرواح وقت إيجادها، ف وقعت بينها منازعة؛ لتفاوت الأخلاق والحالات والمقامات.

قال ﷺ: «الأرواح جنود مجنونة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٢).

من هنا وقع النشوز والخلاف بين الأزواج؛ لتفاوت السجيات، فإذا جعل بالممارسة والمجاهدة والرياضة صوره طاعة، طاعة الرجال فلا ينبغي أن يطلبوا منهم مرافقة الطباع ومجانسة الأشباح والأرواح؛ فإن ذلك منازعة القدر، وهذا معنى قوله ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تكلفوهن بما لا يكون لهن من تبديل الخلق، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقيل: لا تبغوا فيهن المحبة وخلوص النية معكم؛ فإن قلوبهن بيد الله؛ ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلَكُ، فَلَا تَوَاضِعِي بِيَا أَمْلَكُ وَلَا أَمْلَكُ»^(٣).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/٣٥٠)، والديلمي في الفردوس (٥/٣٩١).

(٢) رواه البخاري (٣/١٢١٣)، ومسلم (٤/٢٠٣١).

(٣) رواه أبو داود (٢/٢٤٢) بلفظ: «فلا تلمني» بدلاً من «فلا تواخذي».

قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(١) أمر بشيئين: العبودية والإخلاص في العبودية، ولا تكون العبادة مع الشرك، ولا يكون الإخلاص والتوحيد بغير العبادة، فطلب التوحيد بنعت أفراد القدم عن الحدوث، ونفي الأنداد والأضداد، وطلب العبادة المقرونة بهذا التوحيد؛ لتكون العبادة موافقةً للتوحيد، ويكون التوحيد موافقاً لتنزيه القدم.

خلق النفس مع حظها، وأمر العباد بتقديس حظ اليقين عن اليقين، وكيف يكون تبديل الخلق وطبع النفس أن يكون مائلاً إلى غير الله - تعالى - أي: اطلبوا مني تقديس الأسرار في كشف الأنوار؛ فإني قادرٌ على أن أزمها بأزمةً الوجدانية، وأسيرها خاضعةً لفردانيتي.

وأيضاً: اعبدوا الله الله، لا على رؤية العوض والعبادة؛ فإنها شرك العارفين، وعبدوه على رؤية التقصير؛ فإنها عبادة الموحدين، وأيضاً: شغلهم منه به، ولو أحبههم بالحجب البالغ أسكرهم بشراب القرب والمشاهدة، وأوقعهم في بحار القدم بعد خروجهم من العدم، وهذا آخر الأمر في المحبة والمعرفة؛ ألا ترى كيف وقع بالامتحان من أهل الجنة، وأخبر عنهم بما وجدوا من راحة القرب والمشاهدة بغير نصب الامتحان ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

قال أبو يزيد: إن الله سبحانه نظر في العالم فلم ير أهلاً لمعرفته، فشغلهم بعبادته.

قال أبو عثمان: حقيقة العبودية قطع العلائق والشركاء عن الشرك.

وقال الواسطي: الشرك رؤية التقصير والعزة من نفسه والملامة عليها، يقال له: ألزمت الملامة من تولى إقامتها ومن قضى عليها الشره.

وقال بعضهم: العبودية فناؤك عن مشاهدتك في مشاهدة من تعبد.

قوله تعالى: ﴿وَبِأَلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الوالدان: مشايخ المعرفة، وإحسان المريدين إليهم بوضع أعناقهم عند ساحاتهم بنعت ترك مخالفتهم في جميع الأنفاس مع نشر فضائلهم عند الخلق والدعاء لهم بمزيد القرب.

قال الجنيد: أمرني أبي أمراً، وأمرني السري أمراً، فقدّمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته.

قوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: إخوان المحبة من أهل قرينة الله.

(١) العبادة موافقة الأمر، وهي است فراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم، ويقال: اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجديد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجاني عن التعرّيج في منازل الكسل والاستهانة [تفسير القشيري (١/٢٨)].

﴿وَالْيَتَمَى﴾ أهل فرقة الله الذين وقعوا في الفترة وآفة الشهوة، واحتجبوا بها عن المشاهدة، فإحسانهم ترغيبهم إلى طاعة مولاهم، وتشويقهم إلى مشاهدة سيدهم مع التلطف والظرافة في دعائهم الله، ومن مات أستاذه قبل بلوغه إلى درجة القوم فهو يتيم المعرفة. والإحسان إليه تربيته بآداب القوم؛ لئلا ينقطع عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ أراد به السالكين غير المكذوبين؛ فإن المساكين سلكوا طريق المقامات بالمجاهدات، وإحسانهم كشف أسرار المشاهدات عندهم لتقع آثار المحبة في قلوبهم، فيسكنوا عن المجاهدات الظاهرة، ويطلبوا الحق بالقلوب الخاضرة والأسرار الظاهرة؛ ليصلوا بطرفة عين إلى مقام لا يصلون إليه بألف سنة بالمجاهدة والرياضة.

وأيضاً: المساكين الذين وقفوا على باب العظمة، وتاهوا في أودية الصفة، وتحيروا في بيداء القدم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مرادهم الكلي لظهور النكرة في المعرفة، والمعرفة في النكرة، فأمر الله سبحانه أن يواسيهم بما يفرج عنهم أثقال العظمة بروح القلوب، وذلك المجالسة بالسماع مع صوت طيب ورائحة طيبة بين كرام المعارف وأشرف الكواشف؛ ليستأنسوا بساعة كي لا يحترقوا بنيران الكبرياء.

قال **الشيخ**: «رَوْحُوا قُلُوبَكُمْ سَاعَةً فَسَاعَةً»^(١).

أمرهم بالنشاط بالله على الله؛ لعلهم باحترق أهل الإجلال والعظمة؛ فأشفق عليهم، وأمرهم بالتوسع، وفتح عليهم باب الرخص زيادة تشوقهم ومحبتهم جماله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: أحسنوا إلى من كان مقامه موافقاً لمقاماتكم؛ لأنه في طريق المعرفة جار قرابة الله، وهو قربانكم في محبة الله.

وأيضاً: ﴿وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ هو الروح الناطقة العارفة العاشقة للملكوتية، التي خرجت من العدم بتجلي القدم، وانقذت من زنود الأزل، وهي أقرب كل شيء منك، وهي جار الله، وهي مصبوغة بصبغ الله، وهي في يمين الله، قال **الشيخ**: «الأرواح في يمين الله»^(٢)، ومعذبها من قلبك منظر نور التجلي، ومسكن نور سنا التدلي، وإحسانها أن تطيرها بجناح المعرفة والشوق والمحبة إلى عالم المشاهدة، بعد أن تطلقها من قيد الطبيعة، وتقدس سكنها من حظوظ البشرية، وهي أقرب القرابة منك؛ لأنها أصل قيامك، وأنت قائمٌ بها.

﴿وَالْحَارِ الْجُنُبِ﴾ هو المرید المبتدئ، فإحسانك إليه أن ترغبه إلى سلوك مدارج

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٥٣).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح (ص ٧٨)..

الصدّيقين العارفين، وتنتشر له مطويات أسرار المحبين وفضائل أحوال المشتاقين.

وأيضًا: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ صورتك التي هي حاملة الروح، والإحسان إليها أن تظلم جوارحها من حظوظ المعاصي والشهوات.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ يعني رفيقك في سفر الغيب، الذي هيّجه حب الله إليه، وشوقه معرفة الله إلى معرفة الله؛ فأنفاسه أنفاسك، وسرّه سرّك، ومقامه مقامك، وهو قرينك في غربة الأزل، وأسفار الأبد، وإحسانك إليه؛ إذ كاد ينقطع بلذة المحبة من المحبوب، لن تخوفه من مكره، وترغبه إلى طلب الفناء فيه.

وأيضًا: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هو قلبك، وإحسانك إليه أن تفردّه من الحدثان، وتشوقه إلى جمال الرحمن.

وأيضًا: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هي النفس الأمّارة بالسوء، التي قال سيد المرسلين وإمام العالمين محمد ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١)، وإحسانك إليها أن تحبسها في سجن العبودية، وتمنعها عن الشهوة، وتحرقها بنيران المحبة، وتزر تراها بريح المعرفة، حتى لا يبقى في جوار الله غير الله.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: غريب الله في بلاد الله؛ حيث لا يعرفه سوى الله، الذي يتطرق إليه من نور الأفعال إلى نور الصفات، ومن نور الصفات إلى نور الذات، وهو في غربة الأزال والآباد لا يذكر روعته ولا يطفى حرّته، ويزيد تحيره وتغربه، لا يعرفه أحدٌ يواسيه، قال ﷺ: «إِنْ حَضَرُوا لَمْ يَعْرِفُوا، وَإِنْ غَابُوا لَمْ يَفْتَقِدُوا»^(٢).

وزاد في وصفهم: لا يفتح لهم السدد، ولا يروحهم المنعمات، أنوار قلوبهم أنور بنور الشمس، والإحسان إليهم بدر المهجة بين أيديهم، وزيادة الاستطابة في أوقاتهم، ودفع الأغيار عن صحبتهم، حتى لا يطّلع عليه أحدٌ يمنعهم من أحوالهم ساعة.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: يريدوكم الذين هم أرقاء الإرادة، والإحسان إليهم تربيتهم في طريق الله بأداب الله، ونشر كرامة الله عندهم، ودعائهم إلى طريق الرجاء؛ لأنّ الراجي طيارًا، والخائف سيارًا، وتعليمهم طريق المشاهدة بلزوم المراقبة.

وذكر سهل بن عبد الله في تفسير هذه الآية قال: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هو القلب، و﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾ هو النفس، ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ العقل الذي ظهر على اقتضاء

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/١٥٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٤/٢٥٠).

السنة والشرع، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ والجوارح المطيعة لله.

وقال الأستاذ في قوله ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾

من جيرانك ملكان، فلا تؤذيها بعصيانك، وراع حقهما بما يصل إليهما من إحسانك.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ﴿١٠٤﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ نَرِينًا ﴿١٠٥﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿١٠٦﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠٧﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ من عرف الله وشاهد صفاته وبدا له حقائق المحبة، ولم يطق أن يبذل نفسه لله وفي الله، فهو بخيل، ولم يذق حلاوة المحبة بحقائقها، ومن كشف الله له أحكام الملوك، ولا يذكرها عند المشتاقين إلى لقاءه، فهو بخيل، ومنع الأساتذة والمشايع عن بيان حقائق طريق الله عن المريدين، فهو معاتب بهذه الآية، وتصديق ما ذكرناه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فضله: معرفته ومحبته، ورؤية نوال قربه ولطف بره.

قيل: الذين يمنون بالعطاء، ويطلبون من الناس الشئاء عليهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: من البراهين الصادقة.

وقال بعضهم: لا يشكرون نعمة العافية عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أخبر عن تنزيه جلاله وتنزيه نواله عن النقص على المحسنين، وبشّر في تضعيف الآية الذين يظنون أعمالهم الصالحة لا تقع موقع القبول، ولا يجدون ثوابها بأنه تعالى يشبههم على ذلك بأحسن ما يجوبون منه؛ لأن علمه تعالى محيط بما كان وما سيكون، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من العرش إلى الثرى، لا ينقص ثواب الصادقين، وإن كان أقل من ذرة؛ لأنه خالق ذلك، وكيف يخفى عليه ذلك، وهذا إخبار عن كمال علمه وقدرته جميع المخلوقات، وفيه إذا كان المرء مسيئًا فتأب هو تعالى بيدل سيئته حسنة، فكيف إن كان محسنًا؟ فهو يقبل الحسنة منه، ويثيبه بها بعشرات أمثالها، وأن يعطيه جميع درجات الجنان بلا حسنة، فهو أهل له؛ لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

والحسنة ههنا توحيد الله، وإذا كان صادقًا مخلصًا في ذلك فدرجاته مضاعفة على درجات غيره من العامة، ثم أخبر أنه تعالى يتفضل على عبده الصادق بلا سبب من عند كرمه

وجلاله ما لا يحصي عدده من نوال قربه، ومشاهدته بقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأجر العظيم: مشاهدته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ١١ ﴿يَوْمَذِ يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ نَسَوَى فِيهِمُ الْآرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ١٢ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتَمِ النَّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ ١٣ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ١٤ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ١٥ ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا أُخْرِفُونَ الْقَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَزَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٦ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ١٧ ﴿

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أخبر تعالى عن مقام جلاله ﷻ في مشاهدته تعالى حيث شاهده جمهور الأنبياء والصديقين، وبين عن عظيم خوفه في قلوب الجميع، ووضع هاهنا الرغبة والرهبة معاً؛ لأن العارف إذا قرب من البساط يغلب عليه التعظيم والإجلال والرغبة والرجاء؛ لأن شهود أنوار قربته يقتضي هاتين الحالتين، أي: كيف حالك في رؤية القدم، وأنت لا أنت، وكيف حال هؤلاء عند بروز سطوات عظمتهم، وهم في حد الفناء في رؤية كبريائي؟ وكيف حال الأنبياء والصديقين قبلك وقبل أمتك في ميادين عزتي وجلالي، إذا كان حالك وحال أمتك بهذه الصفة؟ أي: فكيف تشهد الشهداء والمشهدودين عليهم حين أبرزت وجهي الكريم؟ كيف تشهدون على الأمة في وجهي وكشف جمالي؟ وكيف تبقى الأمة عند فناء الأنبياء؟ أما مقام الرهبة فيها فإن الله سبحانه لما كشف بعد حواشي سرادق كبريائه من الأنبياء والصديقين وقع عليهم البهتة والتحير والفناء من عظمتهم وسطوة عزته، فلا يبقى أحد منهم إلا أن يكون مضمحلًا في نفسه، فخطب على وجه التعجب، أي: كيف يقومون بإيذاء كشف جمالي بنعت

الرضا، وأنتم على شبه السكارى حيارى من حلاوة لذة جمالي؟.

وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ أمر ابن مسعود ببعض قراءة القرآن عنده، فقال: يا رسول الله أنزل عليك القرآن، وأنا أقرأ عندك، فقال ﷺ: «أنا أحب أن أسمع من غيري، فقرأ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ...﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فوضع النبي ﷺ يده على ابن مسعود وقال: إلى ههنا، وبكى بكاءً شديداً حتى اضطربت لحياه»^(١).

وفي رواية أنه ﷺ صاح صيحة عند سماع هذه الآية، وبين في وجده ﷺ هاتين المنزلتين.

وأيضاً: بين شرف نبينا ﷺ وأمه وشرف الأنبياء وأممهم، وألا يخفى عليه شيء من العرش ليستره.

قال بعضهم: ﴿وَجِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بُولِيٍّ وَصَدِيقٍ﴾ ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ مصداقاً لولايتهم أو مكذباً لها، قال الله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا خطاب لأهل العشق والمحبة والشوق الذين أسكرتهم أنوار القدوسية، وسبحات السبوحية وسطوات العظمة، وشربات بحار الأزلية، ولطائف كشوفات القدمية، وهم حيارى سكارى، تائهون في مشاهد الجلال والجمال، فغالبا أحوالهم العبرات والغلبات والزروعات والشهقات، والهيجان والهيان، لا يعرفون الأوقات، ولا يعلمون الليل من النهار، ولا النهار من الليل، لا يقدرّون في حال سكرهم أي: ماتوا على شرائط الصلاة من القيام والقراءة والركوع والسجود، كهشام بن عبدان، وبهلول، وسعدون، وجميع عقلاء المجانين.

أي: أيها العارفون بذاتي وصفاتي وأسبائي ونعوتي السكارى من شراب محبتي وسلسيل أنسي وتسليم قدمي وزنجيل قربي وخمر عشقي وعقار مشاهدي إذا كشفت لكم جمالي وأوقعتكم في مقام ربوبيتي فلا تكلفوا أنفسكم أمر صورة الظاهر؛ لأنكم في جنان مشاهدي، وليس في جنة جلالي تعبدٌ، حتى سكتكم من سكركم، وصرتم صاحين على نعت التمكين، فإن جنون العشق يرفع قلم التكليف عن مجنون محبتي، فإذا تصلون وتقربون مقام البدايات على حدّ الصحو، وإن كنتم مضطربين من خمار ذلك السكر، لأنّ السكران

(١) رواه البخاري (٤/١٦٧٣)، ومسلم (١/٥٥١).

والصاحي يذهبان عن صورة العقل إلى عالم العشق، عند طلوع جلال عظمتي، من مطالع قدمي في عيون أبصار أسرارهم، فعند ذلك يستوي حالهما:

إِذَا طَلَعَ الصَّبَاحُ لِنَجْمِ رَاحٍ تَسَاوَى فِيهِ سَكْرَانٌ وَصَاحِي

وكشف غمة إبهام المبطلين، الذين يطعنون إشاراتنا لقلة أفهامهم بها؛ حيث قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ ذكر القربة، وما قال: لا تصلوا، وشرط فيها السكر، والسكر خطرات، والصحو وطنات، وإذا أبقى العقل الإلهي في إشراق أنوار سلطان المشاهدة ذرة فينبغي أن يصلي، ويؤدي حق الأوقات، فإن بعض مشايخنا لما حان عليهم وقت الصلاة وهم في وجد وحالة قاموا إلى الصلاة، ومريدوهم عدوا ركعاتهم وسجداتهم وركوعاتهم فإذا سهوا عن شيء ذكروهم ذلك، وهذا من كمال ظرافتهم في المعرفة.

وأيضا: خاطب أهل الغفلة وسكارى الجهل من شراب الهوى والشهوة ألا يأتوا إلى مقام مناجاته وقربه ومشاهدته حتى يخرجوا منها؛ فإن الغافل لا يؤدي فرائضه على شرائط السنة.

قال الواسطي: لا تقرب إلى مواصلي إلا وأنت منفصل عن جميع الأكوان.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ١٥٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ١٥١ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ١٥٢ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِثِ وَالْطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ١٥٣ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ١٥٤ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ١٥٥

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مكان الآية مكان الخوف والرجاء، أخبر أنه غفر عن العام جميع المعاصي الصغائر والكبائر دون الشرك الجلي الذي يستوجبون به النار، ولم يشترط التوبة هاهنا، ولم يبين مكان الغفران، وفيه رجاء، وهم بعدم الشرطين؛ لأنه يغفر ذنوبهم في الدنيا، ولم يذكرها عندهم في الآخرة؛ لطفًا وكرمًا إن لم تصادف المعصية الشرك، وشدد الأمر على الخواص بمؤاخذته إياهم؛ حيث تفحص أمر الخطرات المخفية من رؤية الطاعة وأعواضها، وحب الجاه والمحمدة والرياء والسمعة، بين أن ما دون هذه الأشياء منهم مغفور من العثرات والزلات، فإنها غير نقض عهد المحبة والمعرفة، وإنهم مأخوذون بالشرك الخفي، فهو خطرات الرياء والشك في الطريق،

وأراد تعالى بذلك أنهم محاسبون به في جميع الأنفاس، فإن بقوا في ذلك لمحمة عاقبهم الله بذلك الحجاب، وهذا إذا كانوا غافلين عن تلك الخطرات، أما إذا استدركوها بعد جريانها ولم يغفلوا عنها برد خاطر ورد وسوسة العدو بذكر الله ونشر صفاته والتفكير في آلائه ونعمائه بفسح قلوبهم بأنوار ذكره حتى تداركوها بالخجل ورؤية تقصيرهم بالمراقبة والحضور، فبعد ذلك تنتشر أسرار الألوهية وأنوار الربوبية في صدورهم، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فبتلك الأنوار والأسرار عمروا طرق المعارف والكواشف.

قال بعضهم في الآية: أن يطالع سره شيء سوى الله.

وقال بعضهم: إن رؤية العمل ورؤية النفس وطلب المدح عليه كلها من أنواع الشرك الذي أخبر الله أنه لا يغفره، قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»^(١).

قال الأستاذ: العوام طولبوا بترك الشرك الجلي، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ شكا سبحانه عن أهل الدعاوى الباطلة، الذين يراءون الناس، ولا يذكرون الله، سمعوا كلام الأولياء، وباعوا على سوق السالوسين، وأضافوا حقائق الصديقين إلى أنفسهم، وأشاروا إلى مقام الرياضات والمجاهدات بغير علم، ولم يشموا رائحة الصدق، ومع هذه العيوب يرون أنفسهم عنها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يلبس أنوار تنزيهه أولياءه وأصفياه، فيقدسهم به عن كل سوء، وعن كل خاطر غير سبيل الحق. قال بعضهم: ليست الأنفس بمحل التزكية، فمن استحسّن من نفسه شيئاً، فقد أسقط من باطنه أنوار اليقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ﴾ وبخ الله تعالى أهل ظاهر العلم، الذين اختاروا الرئاسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التي هي الجبّت، ويخطون آثار الطاغوت التي هي إبليس.

قال سهل بن عبد الله: رأس الطواغيت نفسك الأمّارة بالسوء إذا خلا العبد معها عن العصمة.

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٥)، وأحمد (٢/ ٤٣٥).

وقال ابن عطاء: أعطوا الكتاب حجة عليهم لا كرامة لهم.
قال بعضهم: الجبت مرادك، والطاغوت هيكلك.

﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۖ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأُمْتِنَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أخبر عن حسدة الأولياء، الذين يرون الناس الهيبة والوقار على الصديقين، وهم معظمون به في عيون الخلق، وهم يحسدون بهم وبكراماتهم وولايتهن، فإذا ذكر الخلق أوصافهم يدفعونه بإنكار عليهم، وفضل الله معرفة الله وكراماته.

قال بعضهم: الفضل هاهنا الكرامات والولايات والمجاهدات، يكذبون صاحبها ولا يعظمونه.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ الملك العظيم: النبوة والولاية، التي تشمل على فنون الحقائق من الفراسات والكرامات، ورؤية الغيب وكشف الأسرار.
قيل: إشرافاً على الأسرار.
وقيل: فراسة صادقة.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وصف المقبلين والمديرين المقبلين بنعت الإرادة في حق الأولياء، ومديرين بوصف الإنكار عليهم.
قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: في مشاهدة صفات الأزلية ورؤية جلال ذاته سبحانه.

وأيضاً: الظل الظليل: عنايته الأزلية، وكفايته الأبدية، ورعايته السرمدية.
قال بعضهم: التفويض، وهو محل الراحة والأمن في الدارين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ^(١) الأمانة: عهد الله الأزلي، الذي عاهد به أرواح أهل القرب في مشاهدة جماله؛ حيث قبلت الأرواح من الربوبية سمات العبودية، ومن المشاهدة لطائف المحبة، ووجدت أسرار الملك والملكوت عند سرادق الجبروت، فكتمتها عن الأغيار، فلما تلبست بالأشباح كادت تفشيها من الضعف عن حملها، فأمرهم الله بكتمتها عن الخلق حتى يؤديونها إلى الحق سبحانه عند كشف جماله في الآخرة؛ لأنه تعالى أهل تلك الأمانة، وذلك قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] لأنه أيضًا أمرهم بإظهار ما كوشف لهم من أحكام الغيب عند العارفين وكتمتها عن الجاهلين.

قال الجريري: أفضل الأمانات أمانة الأسرار، فلا يظهرها ولا يكشفها إلا لأهلها؛ لأنهم أهل الأمانة العظمى.

قال بعضهم: الأمانة أسرار الله، وأهل الأمانة هم العارفون بالله والعالمون بأسراره، وهم الناظرون إلى القلوب بأنوار الغيوب، فيحكمون عليها، حقق الله أحكامهم، وهو الذي قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٣)﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ﴾ جعل الله تعالى الطاعة على ثلاث مراتب، وهي في الأصل واحد؛ لأنه مرجع الكل، وكل طاعة منها مخصوصة بمقام من مقام الولاية، فإذا كان أهلاً لبساط القرية وفهم خطاب الحق بلا واسطة

(١) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أماناتٌ وَضَعَهَا عِنْدَكَ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِنْ خِيَانَتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السرِّ ملاحظتك إياها، والحكم بين الناس بالعدل تسوية القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك خامرةٌ حقدٍ على انتقام لنفسٍ [تفسير القشيري (١/ ٤٩١)].

أطاعه بمراده بلا واسطة، وإذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة ولم يفهم حقائق رمز الله يرجع إلى بيان نبيه ﷺ؛ لأنه بينَ غرائض خطاب الله، وأطاعه فيها أمر، وذلك طاعة الله بواسطة نبيه، وإن لم يبلغ إلى فهم خطاب النبي ﷺ واستنباطه إشارته يرجع إلى بيان أكابر علماء أمته من أصحابه وغيرهم من الأولياء والصديقين والعارفين؛ لأنهم بينوا خطاب رسول الله ﷺ.

وأيضاً: هذا طاعة الله بوسيلة أولى الأمر والأنبياء والملوك في الدنيا مساقط ظل الله، ومن أراد أن يرى بهاء الله وآثار عظمته فليُنظر إليهم، قال ﷺ: «السلطان ظلُّ الله في الأرض»^(١)، وقال: «الملِكُ والنبوءةُ توأمان»، ومن التبس بظل الله صار أمره أمر الله، وهاهنا أشار عين الجمع.

وفي الآية إشارة: أي: إذا بلغتَ مقام خطاب الخاص من العلوم المجهولة المشكلة اسلكوا مسلكها بغير الوسطة، كالخضر كان متابعاً للعلم اللدني في الخارج عن أمر الظاهر، مثل قتل الغلام، وكسر الألواح، وهذا خاصٌ لمن وقع له سهم الغيب، ومن بلغ مقام التوحيد ومرتبة الاستقامة لسلك مسلك الأنبياء في مباشرة التوسع والرخص كالأنبياء، مثل سليمان وداود ﷺ ويوسف ﷺ ومحمد ﷺ، وهذا منزل الاقتداء، ولا يصلح هذا للمتكلفين، ومن فتح له باب بيان علم الحقائق يتكلم بإصلاح علماء الله، فإن سلوك مسالكهم لمن له فهم الغيب طاعةٌ معروفةٌ وأسوةٌ حقيقيةٌ، وكل ما ذكر فهو تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

وعن جعفر بن محمد قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بالرضا بحكمه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في المجاهدة في الوفاء بأمره والسر مع الله والظاهر مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن علي: أطع الله، فإن تملك ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الرسول ﷺ على طاعة الله، فإن وصلت إلى ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الأئمة والمشايع على طاعة رسول الله، ولا تسقط عن هذه الدرجة فتهلك.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: العبد مبتلى بالأمر والنهي، والله في قلبه أسرارٌ تخطر دائماً، فكلما خطر خاطرٌ عرضه على الكتاب فهو طاعة الله، فإن وجد له شفاءً، وإلا عرضه على السنة، وهو طاعة الرسول، فإن وجد له شفاءً، وإلا عرضه على سر السلف الصالحين، وهو طاعة أولى الأمر.

قال أبو سعيد الخزاز: العبودية ثلاثة: الوفاء لله بالحقيقة، ومتابعة الرسول في الشريعة،

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٦/٦).

والنصيحة لجماعة الأمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: إذا وقع عليكم حكمٌ من أحكام الغيب المتشابه وتظهر في أسراركم معارضات الامتحان فارجعوا إلى خطاب الله ورسوله؛ فإن فيها بحار علوم الحقائق، فكل خاطر لا يوافق خطاب الله ورسوله فهو مردودٌ ولا تعتبر به، وإذا أشكل عليكم خطاب الله ورسوله من علم الإشارة فقيسوه بظاهر الكتاب والسنة، فإن في الظاهر إعلام الباطن.

قيل: فإن أشكل عليكم شيءٌ من أحوال الكبراء والسادة واختلفتم فيها فاعرضوا ذلك على أحوال الرسول، وردوه إليه، فإن لم يتبين لكم فردوه إلى الكتاب المنزل من ربِّ العالمين.

قال النصرآبادي: إن علمنا لا يصلح إلا لمن له علم الكتاب والسنة، وله معاملةٌ واردةٌ، ومع ذلك يكون له ظرفٌ ونظافةٌ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ١٢ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ ١٣ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ١٤ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ١٥ ﴿

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المصيبة التي أصابتهم هي جزاء إنكارهم على النبي وأصحابه، ومصيبتهم احتجاجهم بأنفسهم عن بلوغهم إلى مقام الولاية والمعرفة، وأعظم المصائب عند القوم الانقطاع عن الله، والتحير عن وجدان السبيل إليه.

قيل: أعظم المصائب اشتغالك عن الله، وأعظم الغنائم اشتغالك بالله.

قال أبو الحسين الوراق: أعظم المصائب سقوط الحرمة من قلبك، ونزع الحياء من وجهك، وثقل السنن على جوارحك.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ يسلي قلب نبيه ﷺ بقوله: ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا تهتم، فأنا أجازيهم بما في صدورهم، فأحجبهم عن كل مرادهم في الدنيا والآخرة، فأعرض عنهم أي: اترك صحبتهم وصحبة كل

جاهل غافل، وعظهم على قدر فهمهم، فإن موعظتك لهم عقوبة، حيث لم يعرفوها، ولم يتبعوها حق الاتباع.

قال الواسطي: أعرض عن الجهال، وعظ الأوساط، وأخبر بعيوب الأشراف، وخاطب كلاً على قدر طاقته.

وقيل: أعرض عنهم يقولك، وعظهم بفعلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: صفني بالعظمة والكبرياء واستغنائني عن كفرهم وإيمانهم، وبعدهم الأبدى عني حين احتجبوا عني بحب الرئاسة، والإنكار على الأنبياء والصديقين.

قال الجنيدي: كلمهم على مقادير العقول ومحتمل الطاقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أخبر الله سبحانه عن قوم نقصوا حظ أنفسهم منه باشتغالهم بحظ أنفسهم من الكون، وعن مرارة قلوبهم بمر البعد، لو يخرجون من ظلماتها وحجابها إلى أنوار رؤية النبي ﷺ يبصرون في وجهه طلعة جلالي وجمالي، فيخرجون في رؤيته عن اشتغالهم بالكون، فيرجعون من أنفسهم بنعت الخجل والحياء إلى ساحة كرمه، ويقفون على باب عظمتهم مرهونين باستغفار النبي ﷺ؛ لأن عليهم بقايا الذنوب من ترك الحرمة في ديوان النبوة، التي لا ترفع عنهم إلا بشفاعته ﷺ، فإذا كانوا كذلك يجدون الله بنعت الإقبال عليهم، وقبولهم وإرشادهم بنفسه إلى نفسه.

قال ابن عطاء في هذه الآية: أي لو جعلوك الوسيلة إليّ لوصلوا إليّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الله سبحانه أنه ﷺ سبب إيمان الكل، والإيمان به يكون بمحل الإيمان بالله، وقد أشار ههنا إلى مقام الاتحاد وعين الجمع، وأقسم بنفسه تعالى على ذلك؛ إعلاماً بأن الحبيب والمحبوب واحد في المحبة، وبين أن حقائق الحكم ودقائق الدين لا تظهر إلا عنده؛ لأنه لسان بيان الحق في العالم، ونفى الحكم عن غيره من الجبت والطاغوت، الذين قرأوا الكتب ولم يظفروا بحقائقها.

وصرح في بيان الآية أن من أسلم وسلم الحكم إليه لم يبلغ حقائق الإيمان إلا بسلامة الصدر وسكونه عند قبوله أمره؛ لأن الطمأنينة هي موضع اليقين، وحقيقة الإيمان هو اليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا

بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيماً ظاهراً وباطناً وسراً وعلناً وحقيقة ورسماً كان بعيداً عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.

قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيها لها من شرف، ويا لها من كرامة حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إنسان المتحابين.

قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعة من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرّ سبيلاً لإيوان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصف بأوصاف الحق متخلق بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فدو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ»^(١).

قال الأستاذ: سدّ الطريق إلى نفسه على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فمن لم يمش تحت رايته فليس من الله في نفسه.

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضة بالكلية بقوله: «ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ»، فلا بدّ لك من ملقي المهالك بوجه ضاحك.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْرَأُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَجِدُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدِيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۖ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۖ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِثَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُفْقَرِ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ

الْقَرِيۡةَ الظَّالِمِۡةَ اٰهْلِهَا وَاَجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاَجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ نَصِيْرًا ﴿٦٦﴾ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا يُقِيْلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا يُقِيْلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ الطَّغُوْتِ فَفَقِيْلُوْا اَوْلِيَآءُ الشَّيْطٰنِ اِنَّ كَيْدَ الشَّيْطٰنِ كَانَ ضَعِيْفًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اٰخَرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ اِلَّا قَلِيْلٌ مِّنْهُمْ﴾ شكا الله سبحانه عن أحبائه بهذه الآية، وتقصيرهم من بذل نفوسهم لرضائه إعلامًا منه للمحبين أنهم لن يصلوا إليه إلا بإيثار مراده على مرادهم، وهذه الشكاية لا تكون من محل إيمانهم؛ لأنهم بحمد الله على الصدق والإخلاص والإيمان واليقين وصلوا إليه، لكن أخبر عن معارضة نفوسهم عند نزول البأس إلا الأقوياء والمستقيمين في المحبة بقوله: ﴿اِلَّا قَلِيْلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ثم أخبر أن قتلهم النفوس بالرياضات والمجاهدات والهجرة من الخطايا والذنوب، وهجران السوء من أمارات محبة الله.

قال محمد بن الفضل: ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها، أو ﴿اٰخَرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم، ﴿مَا فَعَلُوهُ اِلَّا قَلِيْلٌ مِّنْهُمْ﴾ في العدد، كثير في المعنى، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة، وقرن سبحانه مقام المجاهدة بمقام المشاهدة، وبين أن من قَصَّر في واجب حقوقه لم يبلغ إلى معالي الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: بقاؤهم في مشاهدة الله خير من بقائهم في الدنيا مع نفوسهم، ورهن الوصول بقتل النفوس بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا﴾، وزاد الوضوح بالآية الثانية في شرح ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تَعْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيْمًا﴾ الأجر العظيم مشاهدته الأزلية وكشفه الأبدي.

﴿وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيْمًا﴾: الإرشاد إلى معارف طرق الصفات، والفناء في بقاء الذات، تعالى الله عن كل إشارة وإيحاء، والصراط المستقيم المعرفة بعد المعرفة بعد النكرة، وإفراد القدم عن كل العلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ إن طاعة الله لا تحصل بحقائقها إلا بعد مشاهدة الله؛ لأن حقيقة الطاعة لا تكون إلا من المحبة، ولا تكون المحبة إلا بعد الرؤية، والمشاهدة أي:

من أطاع الله محبة الله في رؤية الله، لقوله ﷺ: «تَعَبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١)، وطاعة الرسول بمعرفة الرسول من معرفة الله، أي: بلغ طاعته إلى هذه المراتب، فهو أهل الله، وهو شبيهه أنبيائه وشهادته ورسله وأوليائه، ويكون في الدنيا والآخرة رفيقهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ إناعام الله على النبيين مداناتهم ومشاهداتهم وعلومهم بذاته وصفاته تعالى، واستشرفهم على خزائن ملكه وملكوته، وإناعامه على الصديقين إعطاؤهم سني الكرامات، وفتح أبصارهم بأنوار الصفات، وإناعامه على الشهداء كشف جماله لهم دية للمائهم، وإناعامه على الصالحين إبراز لطائف بره لهم ليألفوه بها، ويستقيموا في الحضرة بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله، وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضاً؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصديقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمتهم، والصالحون هم الذين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطلع عليهم أحد من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَامَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ تَحَنَّنَ النَّاسُ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تَظْلُمُونَ فِتْيَلًا﴾^(٢) أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُذَرِّكُمْ أَلَمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ كما أن في الآية تخويفاً لمحِب الدنيا، وترغيباً لطالب العقبى الذي هو مطيع الله بنعت التقوى.

وأيضاً: فيها إشارة إلى أن العارف أخذ التوسع، وألف الرخص بعد احتراقه في المجاهدة والرياضة بنيران المحبة؛ لأنه لا ينكر عليه أحدٌ لم يبلغ إلى درجته، فإن الدنيا بأسرها لو كانت ذهباً وجواهر ومسكاً وعنباً ووردًا وريحاناً ونساءً ومركباً وثياباً حسنة ومجالس رقيقة قليلة في جنب ما يحتاجه إليه؛ لأنه يريد أن يسلي قلبه في فراق محبوبه بشيء مستحسن من الحدثنان، ولا يكفيه جميع المستحسنات من العرش إلى الثرى، فكيف بشيء قليل من قليل، وإن الله سبحانه يسلي فؤاده بقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أي: لمن يصبر في مجاهدته وشوقه إلى من الاستئناس بهذه المستحسنات القليلة؛ لأن في الآخرة كشف جمالي له، الذي هو راحة لا راحة فوقها، كما قال ﷺ: «لا راحة للمؤمن دون لقاء الله»^(١).

قال الواسطي: هوّن الدنيا في أعينهم؛ لثلا يشق عليهم تركها.

قوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ ظاهره تخويفٌ للمخالفين، وباطنه توجيهٌ للمشتاقين، أي: لا تخافوا أيها المشتاقون إلى لقائي؛ فإني آتيكم بأحسن ما تظنون بي، فأريحكم من سجن الدنيا، وأوصلكم إلى مجلس وصلتي أينما كنتم، فأنا معكم، فإذا حان وقت القرية أسلبكم من أيدي المنايا، وموتكم خروج أرواحكم بظهور مشاهدي كحجر المغناطيس حيث يظهر بجذب الحديد إليه.

وفيه إشارة: أي: لو طرتم بجناح الروحانية فوق الملكوت لتكون أجسامكم كأرواحكم يدرككم سطوات عظمتي منزل أرواحكم من أجسامكم؛ لأن الأجسام الترابية لا تقوم بإزاء كشف عظمتي إلا بترتيبها في مواقف العرض الأكبر، ومثل هذا الموت يكون فرح المؤمن العارف به، وهو بشارة الحبيب له، يبشره بوصله وقربته، و«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٢).

بَشِّرْ أَجْبَائِي أَنَّ الْمَوْتَ رَاحَتُهُمْ وَالْمَوْتَ وَصَلَتُهُمْ وَالْمَوْتَ تَقَرُّبُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وبخ الله المفلسين الذين سقطوا من عينه وحفظه وكلاءته حتى إذا أتت إليهم راحة أقبلوا إلى الله من فرح النفوس ولذة الشهوات، لا بنعت المعرفة والمحبة، وإذا أتتهم محنة أضافوها إلى غيره، ورجعوا إلى الأسباب، وخاصموا، وظهر

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (١/١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٨٦)، ومسلم (٤/٢٠٦٥).

منهم أن إقبالهم إليه من رأس النفس ليس من حقيقة إيمانهم بالله، فأمر صفيه أن قل لهم: إنما تجدون من الأسباب من العرش إلى الثرى لا يكون إلا من عند الله السبب والمسبب؛ لأنه سبب الأسباب والمسبب، ولو كنتم على رؤية التحقيق ترون الأكوان قائمة بالله وزاد في توبيخهم بقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: ليس بهم في قلة إدراكهم أنبائي وقلة معرفتهم بوحداثيتي حيث يكونون ثنوين إلا إدراك خذلاني إياهم.

قال النصر آبادي: الكل منه ومن عنده، ولكن لا تطيب ما منه وما عنده إلا بما به وبإله.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢١٧) مَّن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٢١٨﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٢١٩).

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ الحسنة الطاعة، والحسنة المحبة، والحسنة المعرفة، فأشار إلى هذه الحسنات أنها تفضل منه لا من كسب العبد؛ لأنه تعالى واهب هذه المراتب بلا علة ولا شفاعة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهو أهل الفضل والعطاء، والسيئة معصية الله، وذلك صفة النفس الأمارة، نزه نفسه تعالى من مباشرة المستقبحات، أي: كل حسنة ترجع إلى مشاهدتي، وأنا حسنة أوليائي، فمن مشاهدتي تصدر حسنات تجليائي، وكل سيئة ومعصية فتصدر من النفس الأمارة التي خلقتها وما فيها؛ لأنني مباشرها وأنا خالقها أنا منزلة عن مباشرة شيء بذاتي.

قال محمد بن علي: أجل الحسنات والنعم عليك في أن عرفك نفسه ووفقك لتشكر نعمه، وأهملك ذكره.

وقيل في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ باتباع هواها، وتركها رضا مولاه، وهي النفس الأمارة بالسوء.

واستدل القدريّة بهذه الآية على مذهبهم؛ حيث أضافوا القدرة إلى النفس، قال عليه

الصلاة والسلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»^(١)؛ لأنهم قالوا باليزدان والأهرمن^(٢)، ولم تفهم الكفرة والفرقة الضالة أن من لم يقدر أن يخلق ذاتًا فكيف يقدر بأن يخلق صفاتًا، أو لم يفهموا سر القرآن وخطاب الله؛ فإن الله سبحانه نسب إتيان السيئة إلى غيره لا إلى النفس، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ والإصابة فعل الغير لا فعل النفس، وتبين من فحوى خطابه أن السيئة عني بها البلاء الذي هو جزاء معصية النفس، وإصابة البلاء من الله جزاءً لكسب المعصية، كما قال: ﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهذه السيئات هي من الأسباب لا من الاكتساب.

قال الأستاذ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ فضلاً ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ كسبًا، وكلاهما من الله سبحانه خلقًا.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ظاهر هذه الآية تدل على الوسيلة، والوسيلة من الله هو الرسول، أي: من أطاع الرسول فقد أطاع الله بوسيلة الرسول، وهذا مقام الأمر والعبودية في النبي ﷺ، وباطن الآية إشارة إلى عين الجمع؛ حيث تندرج صفاته تحت صفات القدم، ويغني خلقه في خلق الأزل، ويخرج من تحت الفناء بصفة البقاء، ويكون مرآة الحق تجلّي منها للخلق، فإذا كان كذلك أمره وطاعته مع أمر الله وطاعته واحدًا لموضع اتصافه واتحاده.

قال جعفر بن محمد: من عرفك بالرسالة والنبوة فقد عرفني بالربوبية والإلهية.

قال أبو عثمان: من صحح الاقتداء بالنبي ﷺ وألزم نفسه طاعته أوصله الله إلى مقامات الأنبياء والصديقين والشهداء، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

قال بعضهم: المتحققون في طاعة الرسول مع الأنبياء، والمقتصدون مع الشهداء، والظالمون مع الصالحين.

وقيل: طاعة الرسول طاعة الحق لفنائه عن أوصافه، وقيامه على أوصاف الحق، وفنائه عن رسومه، وبقائه بالحق ظاهرًا وباطنًا، فطاعته طاعته، وذكره ذكره، وبه يصل العبد إلى الحق، وبمخالفته ينقطع عنه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ إِنَّ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

(١) رواه أبو داود (٤/٢٢٢).

(٢) وجه الشبهة في الحديث: أَنَّ الْمُجُوسَ يُسَبِّحُونَ الْكُوثَيْنِ إِلَى الْهَيْئَةِ يَزْدَانُ فَاعِلُ الْخَيْرِ وَأَهْرَمَنْ فَاعِلُ الشَّرِّ.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٢٨﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴿٢٩﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٣٠﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٣١﴾ * فَمَا لَكُمْ فِي الْأَنْفِيقِينَ فَفَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ القرآن صفات القدم، وهو موصوف به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفة خاصة ذاتية من جملة صفاته، وهو واحد من جميع الصفات، لكنه يجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائم بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع للخلق التفكير والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارج من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسرارها، وفنوا في أنوارها، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلّت في حروف الوجدانية، وتجلّت حروف الوجدانية في حروف القرآن، وكل حرف مملوء من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم، لأن وصف الله منزّه عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف الخلق متضادة متباينة متغيرة، وذلك المعنى موجود فيما بقي من الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ كلهم مرضى في دار الدنيا، يحتاجون إلى مفرج القرآن، ولو تدبروا لوجدوا كل حرف منه شفاء لعله، فإذا وصل دواؤه ذاء الخليقة يذهب آلامه، ويبقى شفاء القرآن، ويكون صحيحًا بجماله غير سقيم باحتجابه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي إنباء استفهامه شكايته عن العباد أي: أفلا تأتون طلاب عرائس جمال الأزل إلى حجاب القرآن لأن تحت كل حرف حجلة من نور البهاء، وفيها عروس من عرائس جمال الأزل يتلو بلسان السر بنعت الترنم حقائق خطاب الحق.

قال بعضهم: لا يتعظون بكريم مواعظه، ويتبعون محاسن أوامره.
 قال أبو عثمان المغربي: تدبرك في الخلق تدبر عبدة، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة،
 وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة ومكاشفة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ جزاك به
 على تلاوة خطابه، ولولا ذلك لكلت الألسن عن تلاوته.
 قال السري: أفهم الناس من فهم أسرار القرآن وتدبر فيه.
 وقال سهل: تدبر القرآن تفهمه، ولا يكون التدبر فيه إلا لمن عرف المقاصد فيه، ونطق
 بمعنى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأُمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أعلم الحق سبحانه وتعالى أن المتكلفين برسوم العلم يظهرون من أنفسهم بالزِّي والمقالة الظاهرة أنهم بلغوا مقام الربانيين، والذين هم مخاطبون من الله بأسرار القرآن، المكاشفون بأنوار عجائبه، ولطف حقائقه، حين تعرضوا بالأرواح الربانية والأسرار القدوسية، واستنباط جواهر الأسرار من بحار القرآن، أي: لو تركوا التكلف، وألقوا زمام الأمر إلى ملوك المعارف، وهم أولو الأمر في الملك والملكوت لسمعوا منهم حقائق مفهوم الخطاب، ولنجوا من مهالك آرائهم الباطلة.

قال ابن عطاء: لو أخذوا طريق السنة وطرق الأكابر في إرادتهم لأوصلهم ذلك إلى المقامات الجليلة من مقامات الإيمان التي هي محل الاستنباط وطرق المكاشفات.
 قال الحسين: استنباط القرآن على مقدار تقوى العبد في ظاهره وباطنه وتمام معرفته، وهو أجل مقامات الإيمان.

قال أبو سعيد الخزاز: إن الله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذلك لفسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول، الذي لم ينصه كتاب، ولا جاء به خبر، لكن العقلاء العارفين يحتاجون له من الكتاب والسنة بحسن استنباطهم ومعرفتهم، قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(١).

(١) أي: يستخرجون تدبيره بتجاربههم وأنظارهم الصحيحة ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر يقال أنبط الحفار إذا بلغ الماء وسمى القوم الذين يزلون بالبطائح بين العراقيين نبطا لاستنباطهم الماء من الأرض، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلمه الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويزنون منه فالمراد

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فضل الله معرفته، ورحمته حفظه وكلاءته عبده عن متابعة الشيطان، وهذا عام في المريدين خاص في العارفين، والفضل والرحمة منه للعموم، ومحبة للخصوص الذين هم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: لولا فضله عليكم في قبول طاعاتكم لخسرت ما ضمن لكم في آخرتكم، لكن برحمته نجّاكم من حسراتكم، وتفضل عليكم بما نجّاكم.

قال الأستاذ: لولا فضل الله مع أوليائه هاموا في كل وادٍ من التفرقة كإسكانهم في الوقت.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٤٠) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبْتُمُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٢٤١) سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٢٤٢) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤٣) وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٢٤٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذا خرج عارف بكسرة الربوبية من الغيب، وظهرت سلطنته في العالم هاج نيران حسد الحساد عليه، وخافوا كسر شوق سالوسهم، وافتضحهم بين الخلق، ويختالون به كسحرة موسى بموسى عليه السلام من حسد فرعون، لكي يوقعوه في بعض مخائيل الشيطان ومكائيل النفسانية بتريتهم الرئاسة والدنيا وجاهها في عينه؛ ليكون مخدوعاً مفتضحاً مثلهم، وأن الله سبحانه حافظ أوليائه وناصر أحبائه، يحفظهم بكلاءته الأزلية ورعايته الأبدية.

قال بعض المشايخ: ودَّ أهل الدعاوى الفاسدة أن يكون المتحققون في أحوالهم أمثالهم، فلا تظهر عليهم فضائح دعاويهم، فحذّر أوليائه ألا يجالسوا المخالفين؛ لئلا يقع عليهم شؤم حسدهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ ءَلَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١) لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٢) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٣) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٤) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٥) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا (٦) وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوَتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (٨) وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

حَذَرَهُمْ وَأَسْلَحَهُمْ ۖ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٦﴾ *

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: إذا سلكتم مسالك المقامات بين يدي الله تعالى لطلب مشاهدة الله، وسرتم بأسراركم في أسرار صفاته وأنوار ذاته تبينوا حقائق كل مقام بعرفان وبرهان وذوق وإيقان، وثبتوا، واستقيموا في ظهور جلال الله؛ لثلاث تقعوا في تفرقة التلوين، ولا تقعوا في التشبيه في معارك مكريات الالتباس؛ لأن هناك ظهور الذات في لباس الصفات، وظهور الصفات في لباس الأفعال.

قيل: إذا سافرتهم اطلبوا أولياء الله، وثبتوا ألا يفوتكم مشاهدتهم؛ فإن الفوائد الأسفار وموضع الثبوت والاستقامة.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾: الذين بدلوا بهجتهم في طلب مشاهدة الله بوصف المراقبة.

و﴿الْقَاعِدِينَ﴾ أهل الفترة قعدوا عن طلب جماله تعالى بحظوظ البشرية.

و﴿الأجر العظيم﴾: مشاهدة الله، ووصول قربه.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ القائمين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ عنه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ وصف قومًا أقعدهم نور الشهود عن السير في المجاهدات، وأفناهم عن طلب الخروج من نيران الكبرياء، وطمس طرق الرجوع من مشاهدة الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ومن الأفعال إلى الخلق في عيونهم، وحيرهم في قفار الأزليات والأبديات حتى لو يريدون روح الفترة لحظة لم يظفروا به؛ لأنهم مردودون من بحار الصفات إلى بحار الذات، ومن بحار الذات إلى بحار الصفات، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الرجوع إلى البشرية، ﴿وَلَا

(١) قال القاضي أبو محمد - رحمه الله: لأنهم مع المؤمنين بنيانهم كما قال النبي ﷺ في غزوة تبوك «إن بالمدينة رجلاً ما قطعنا وادياً ولا سلكنا جبلاً إلا وهم معنا حبسهم العذر».

قال ابن جريج: والتفضيل «بالأجر العظيم والدرجات» هو على القاعدين من غير أهل العذر، المحرر الوجيز (١٧٩/٢).

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا إِلَى الْكَوْنِ وَالْعَلَّةُ؛ لَأَنَّهُمْ مُسْتَضَعِفُونَ فِي قَبْضَةِ الْأُلُوْهِيةِ، مُسْتَغْرَقُونَ فِي قَامُوسِ الْقَدِيمَةِ.

قال أبو سعيد الخِرَازي: الذين أسرهم البلاء، واستولى عليهم حتى صار البلاء لهم وطنًا بعدما كان الحول لهم وطنًا، ثم أفنى عنهم شاهد البلاء علم البلاء، وردَّ عليهم على الإنسانية بإثبات علم الحق، وذلك حين ردت إليهم صفاتهم بعد محو آثارهم فإذا ذاك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي: من هاجر من أوطان نفسه إلى فضاء ولاية التفريد، وأتلف مهجته في طريق محبة الله، ولم يبق له مسكنٌ يسكن قلبه فيه من العرش إلى الثرى، ويجد في الأرض المشرقة بنور وجه الله سبحانه مواطن الأنس، ومواقف القدس وسعة أنوار قربته وسنا وصلته يستغني به عن كل موطنٍ ومرقدٍ، وعن كل مألوف سوى الله، وفي أرض القدم وفضاء الأزل للعارفين المهاجرين منهم إليه مراغم وطنات الصفات، ومشارب سواقي الجلال والجمال في بحار الذات وسعة كنوز أزل الآزال ومشاهدة أبد الآباد.

وأيضًا: من هاجر لله في سبيل الله، وصار غريب الله في بلاد الله مستوحشًا عما دون الله، يجد في أكناف أطراف الأرض مراغم صحبة أولياء الله التي هناك سعة أنوار مشاهدة الله. قال الأستاذ: من هاجر في الله بما سوى الله، وصحح قصده إلى الله وجد فسحة في عقوق الكرم ومقيلاً في ذوي القبول ورحباً وسعة في كنف القرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَخَرَّجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من يخرج من طبيعته وهوى نفسه وحوله وقوته وإشاراته وعباراته وعلمه ورسمه إلى الله في طلب مشاهدته وإلى الرسول في متابعتة بنعت المحبة، ويدركه في تضاعيف السير بعض الامتحان، ويقع في منزل الفتوة بعد المجاهدة، وقد وقع أجر الوصلة له؛ لأن الله تعالى يجازيه بصدق مقدم الأول قبل أن يهاجر عما دون الله تعالى، وقبل أن يخرج عن جميع مراداته وهواه متبعًا لأوامر الله وما يوصله إلى رضوانه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ هذه رخصة لأهل المشاهدة، الذين استغرقوا في بحار المعرفة والمحبة، فإذا غلب عليهم سلطان الوجد وحان وقت الخدمة سهل عليهم أحكام الفريضة بترخيص الله إليهم، وهم إنس الله الذين يجوز لهم التوسع والرخص، وعلى صورة الظاهر الضعفاء رخصة من عجزهم في ديوان الإنسانية عن حمل وارد الشرع بهيئاته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ بين الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمي، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارج عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حق الله، وسلطان الوجد حظُّ العبد، وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلون والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف.

والإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد.

وأيضاً: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة.

وأيضاً: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك حجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنه ليغاثُ على قلبي»^(١) أي: شغلي بكم حين يمنني قلبي من حظ مشاهدي من الله.

وأيضاً: أي: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسة عن وقوف المصلين، وشرعية بحار قدمي منزهة عن ورد الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي.

وأيضاً: إذا كنت مشغولاً بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترِكَ في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أجلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ»^(٢).

قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في نادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرة، ولا ذهولٌ في عظمته يقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علمٌ للغير لا لهم.

وما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ فجعل إقامة الصلاة

(١) رواه مسلم (٢٠٧٥/٤)، وأبو داود (٨٤/٢).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤).

أدباً لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في منصرفاته، ولا يشهد سواه في سعياته.

وقال بعضهم: ما دمت فيهم فإن الصلاة تكون قائمة، وإذا غبت فالصلاة آتية إليها، كما قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالَى﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۖ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۖ ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ۝

قوله تعالى: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

الإشارة فيه: أي: إذا أخرجتم من مقام الصلاة فينبغي أن تكونوا في جميع الأحيان كأنكم في الصلاة؛ لأن الصلاة هي الذكر بعينه، وصورة الصلاة شاغلة عن الذكر الحقيقي، الذي هو نور وجه المذكور، أي: إذا تخلصتم عن آلة الصلاة وعلة الأمر فاذكروني بنعت المراقبة في جميع أنفسكم؛ لأنكم في مشهد مشاهدي، واسترحتم بالذكر عن أسباب الذكر، فذكركم في القيام حيرة في وجود جلالي ومشاهدة عظمتي، وذكركم في قعودكم سقوطكم في الوجد عن صدمات سطوات كبريائي بالبدية، وذكركم في جنوبيكم اضمحلالكم في رؤية قدمي وبقائي، فإذا كنتم في حالة التمكين وامتلائم في أنوار ذكري فينبغي أن تخرجوا من أبواب الرخص، والاستراحة في ساعة الروح، وترجعوا إلى مقام الصلاة، فإن آخر سيركم في ربوبيتي أول بدايتكم في عبوديتي.

ثم إن الله سبحانه وقتاً لأيام الخدمة وقتاً، وهو كشوف أبواب العظمة والكبرياء الذي تجليه يزعج العباد إلى الفناء في بوادي عظمته وجلاله، ولو كان دائماً لاحتقرت الخلائق فيها، وفني العباد بأسرها، وكيف يوازي الحدث جلال القدم، ومن يجرو أن يتعرض بالسرمدية لساحات عظمة الله تعالى، أوقعهم في الفترة؛ غيراً على المعرفة، ولم يوقت للذكر وقتاً؛ لأن ذكره شعاع تلك الشمس وضوء تلك الأفتار، وهو قطرات مزن الغيب، يحيى بشرياتها فؤاد المحيين والموحدين، وهاهنا مقام الضعفاء والإسراء، والله أعلم وأحكم.

قال أبو عثمان: وَفَتَّ اللهُ العبادات كلها بالمواقيت إلا الذكر؛ فإنه أمرك به على كل حال وفي كل أوانٍ.

وقال الأستاذ في هذه الآية: الوظائف الظاهرة مؤقتة، وحضور القلب بالذكر مسرمد، غير منقطع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾^(١) تفضل على الناس بإنزال كتابه على نبيه، وإعطائه فهم خطابه، وكشف لآرائه العلية عليه السلام حقائق حكمته الأزلية السابقة بمراده من عبودية عباد، ووقوع صلاحهم من بيانه عليه السلام، موافقا لرضا الله، أراد من العباد عبوديته في الأزل، وعلم جهلهم بها، فكاشف عليها على لسان نبيه عليه السلام، وهذا معنى قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ أسرار، وفي قلبه عليه السلام من الله أنوار يعرف خطاب الله، فيحكم بها بين الخلق، ليتبين الرشد من الغي، قال تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كتاب الظاهر الشاهد على ما أراد الله من مشاهدات الغيب، وما قدر الله لعباده من أحكام العبودية وعرفان الربوبية، قال عليه السلام: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٢).

قال سهل: ﴿بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ أي: بما علمك الله من الحكمة في القرآن والشرعة. قال بعضهم: بما كشف لك من بواطنهم، وأظهره لك لا على ما يظهره، فإن رؤيتك لهم رؤية كشف وعيان.

قال ابن عطاء: ﴿بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ فإنك بنا ترى، وعنا تنطق، وأنت بمرأى منا ومسمع. ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾^(٣) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنْ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا^(٤) هَذَا نَشْرُهُمْ لَآءٍ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^(٥) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا^(٦) وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٧) وَمَنْ يَكْسِبِ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِيهِ بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُرْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا^(٨) ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يبين الله سبحانه في هذه الآية أن أمر النبوة ليس من طبائع الخلق والخلقة، ولا للاكتساب فيه مدخل؛ إنما يتعلق باصطفائية أزليته واجتبابية أبديته، ويبين موضع السهو والنسيان الإنساني، ويبين أن التنزيه عن الغلط والسهو لا يكون إلا لله تعالى، عجز الخليفة عن إدراك قدس الأزلية والخروج عن علة البشرية بالكلية، وأدبه ليلقى أزمة الأمر إلى مراد الله ولا يزيد إلا ما يريد، قال: ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾ أي: ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم وحظوظها على مراد الله ومحبتة وخيانتهم مع أنفسهم أنهم عاهدوا الله أن يبذلوا نفوسهم إليه ليفعل بها ما يشاء، ليربيها بحسن قربته وحلاوة وصلته، فلما أعطوا حظوظها نقضوا عهد الأول، وألقوا أنفسهم في ظلمات هواها حتى بقيت في الحجاب عن الوصول إلى العهد الأول، وهذا غاية الخيانة مع النفس.

قال بعضهم: خيانة النفس اتباع مرادها وترك نصيحتها.

قال الحسن بن علي الدامغاني: من خان الله في السر هتك سره في العلانية.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: يستترون من الناس معايبهم، وخيانتهم تعميهم عن رؤية عجز الناس وقلة قدرتهم بدفع المضرة وإعطاء المنفعة؛ لأنهم عاجزون في قبضة التقدير، وعظم الخلق في قلوبهم من قلة عرفانهم عظمة الله وجلاله وإحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى، ولا يستترون من الله؛ لأنهم ليس لهم استعداد عرفانه الذي ثمرته الخوف والحياء من الله سبحانه، قال عليه السلام: «أنا أعرفكم بالله، وأخوفكم منه»^(١)، يبين أن زيادة الخوف من زيادة العرفان.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: لا يستترون من الله في مباشرة القبائح، وهو محيط بظواهرهم وضمائرهم وإراداتهم، لا يعرفونه بنعت الإحاطة، وأنهم لا يقدرُونَ بالاستتار عنه، وهذا نفي فائدته بيان عجزهم عن الاستتار عنه، ومعناه أنهم يستحيون من الخلق ولا يستحيون من الخالق.

قال محمد بن الفضل: من لم يكن أعظم شيء في قلبه ربه كان جاهلاً به ومبعداً عنه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ لا خير في كثير من نجولهم إلا من أمر

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٦﴾ إِنَّ يَدَّ عُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدَّ عُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: أنزل عليك الكتاب شاهدًا على ما كوشف لك قبل نزول الكتاب من أحكام المشاهدة والمعرفة، وما استأثرك من علوم الغيبية لتثبت فؤادك بما وجدت منا قبل نزول الكتاب كقوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، والحكمة إحكام الطريقة وآداب القرية ونوادر علوم الإلهية، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: علوم عواقب الخلق، وعلم ما كان وما سيكون.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بمسابقته على الأنبياء بكشف جمالي ورؤية ذاتي وصفاتي ودنوك مني حيث قلت: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩، ٨]، وعني بالفضل العظيم استغراقه في بحار قدمه وبقائه بنعت المعارف والكواشف.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾: عَرَّفَكَ قَدْرَ نَفْسِكَ.

قال سهل: العلماء ثلاثة: عالم بالله لا عالم بأمر الله ولا بأيام الله، وهم المؤمنون، وعالم بالله عالم بأمر الله لا عالم بأيام الله، وهم العلماء، وعالم بالله وعالم بأمر الله وعالم بأيام الله، فهم النبيون والصديقون.

وقيل: علمتك من مكنون أسراري ما لم تكن تعلمه إلا بي.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: إنما عظمه بالمباشرة، فاحتمل الذات بعدما احتمل الصفات، وموسى احتمل الصفات، ولم يحتمل الذات.

قال بعضهم: فضلت في الأزل بفضائل، وقد تعثر في المشاهد العشرة، كما قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتعاتب، ثم ترد إلى الفضل الذي جرى لك في الأزل.

قيل في قوله: ﴿وَعَلَّمَكُمَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: من علو رتبته على الكافة^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ وبَّخ الله سبحانه قوماً ليس مجالستهم ونجواهم لله فكل مجالسة على غير ابتغاء وجه الله، والشيطان يغريهم إلى الغيبة والبهتان والنميمة والترهات، أي: لا خير في كثير من هؤلاء في نجواهم يعني [...] وقومه.

ثم استدرك ووصف أهل المجالسة لله الذين جلسوا لمحبة، وقاموا لشوقه، واجتمعوا لعشقه، وتفرقوا لطلب زيادة معرفته والمساكنة في مجالس أنسه بالخلوات في الفلوات.

ثم وصفهم بأحسن الوصف؛ حيث آواهم إلى كنف قربه وحجال أنسه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ثم وصفهم على لسان نبيه، وزاد شرفهم؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام فيها روى عن الله ﷻ: «وَجِبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالتَّزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالتَّجَالِسِينَ فِيَّ، وَالتَّجَادُلِينَ فِيَّ»^(٢).

سبق في الأزل محبته لهم، فأوقعتهم تلك المحبة الأزلية في بحار محبته، حتى استغرقوا فيها إلى الأبد لا يخرج منها لهم بالنظر إلى سواه، قال تعالى في وصفهم: ﴿مُحِبِّهِمْ وَنُحُبُونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] نجواهم جريان أسرارهم وجولان أنفاسهم في ميادين أنوارهم، فساعة تاهوا، وساعة تحيروا، روحهم بمروحة أنسه، وأدخلهم في قباب قدسه، وسقاهم من شراب لطفه،

(١) قال حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سأله اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والساثرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفى عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفى ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفى، وإذا فنوا بسطوات تجل صفات الجلال عن أنائية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان ٧/ ٢٨٠].

(٢) بالأصل (طعمة) وهي غير واضحة.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣).

وأسكرهم بجمال وجهه، وحثهم إلى مسامرته وذوق فهم طعم لطف مناجاته، فإذا سكنوا من سطوات مشاهدة جلاله، وأفاقوا من سكر جماله لحظة احتالوا لزيادة محبته في أخذهم طريق بذل المهجة لمحبتة، ورجعوا إلى سنن المجاهدات وحقائق العبادات، أمر بعضهم بعضاً ببذل الأرواح والأشباح؛ لشوقهم إلى عالم الأفراح، وأمروا بالمعروف بحكمهم على النفوس الأماراة بإذابتها في المجاهدة بنيران الرياضة، ويراعي بعضهم بعضاً بحسن النصيحة وآداب الطريقة، ويسألون الله صلاح هذه الأمة من كمال شفقتهم على عباد الله وبلاد الله، وهم المستثنون من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، ويبن أن ذلك لزيادة رغبتهم في مشاهدة الله، وشوقهم إلى جماله، وهو تعالى وعدهم بتضعيف زيادة كراماته ودرجاتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِنَا مَرَضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قيل في تفسيره: ﴿لَا خَيْرَ﴾ في الاجتماعات إلا ما يعود نفعه عليك أو على أهل مجلسك.

وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ تصدق بنفسه بمنعه عن أذى المسلمين، وارتكاب المحارم.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قيل: المعروف حث النفس على سبيل الرشاد.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا أُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْبًا مَّفْرُوضًا﴾ وَلَا أَضِلُّنَّهُمْ وَلَا أَتَّبِعُهُمْ وَلَا أَمُرُّنَّهُمْ فَلْيَبْتَئِضْنَ، إِذَا بَاتَ الْأَنْعَمِ وَلَا أَمُرُّنَّهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۖ يَعْدُهُمْ وَيُعَمِّيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا أُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْبًا مَّفْرُوضًا﴾، لما التصق رغام الإيأس في أنف إبليس من إغواء الأولياء والمخلصين حيث يش في سماع خطاب الحق جل سلطانه في وصف إحسانه من جميع العباد بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، رأى بعد ذلك في حواشي ساحات قلوبهم مجاري ضيقة تجري فيها للنفس الأماراة وهواجسها، قال: لما يشت من انقطاع المريدين عنه ﴿لَا أُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْبًا مَّفْرُوضًا﴾، يعني: ألتقط قطيعات من هواهم ونفوسهم نصيب وسواسي أو سوسهم من وراء القاف؛ لأنني لو دنوت منهم بالمباشرة

أحترق بنيران محبتهم، وذلك النصيب لما سلبه سارق القهر من حومة مراقبتهم تداركوه بالندم ورموه بسهام الذكر من قوس الفكر، فخرجوه حومة التلاوة، ونشاب الاستعاذة، ثم رأوه بعد ذلك أسيرًا في سجن جوعهم ومجاهدتهم.

صحة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ﴾ [الأعراف: ٢١] أبصروه خائبًا خاسرًا محترقًا، وهم بعد ذلك ينزلون أعالي منازل القرب، وزادوهم دنو الدنو، قال ﷺ: «أيس الشيطان أن يعبد المصلون، وقال في موضع: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلادكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به»^(١). في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(٢)

ألا ترى كيف دار حول آدم صفي الله -صلوات الله عليه- فاحترق بنيران لعنة الأبدية، وكانت وسوسته لآدم سبب زيادة زلفته، وقربته، واجتبايته، واصطفائيته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، وهذا إعلام من الله سبحانه للخلق، هكذا يكون شأن من يؤذي وليه وحببيه من أحبائه وأصفيائه.

قال الواسطي: فقال له: إن كان إليك شيء من القدرة والقوة فأعز أحدًا سوى ما جعل له من النصيب المفروض، عند ذلك يظهر عجزه وضعفه. وقال بعضهم في هذه الآية: لتر في أعينهم طاعتهم، وأغلق دونهم أبواب الإنابة ورؤية الفضل.

وقد وقع لي شيء أخف: أن ذلك النصيب التفات العاشق في طلب جمال الحق إلى عالم المستحسنات؛ لأن فيها ما يليق بالنفس الأمارة حين تلتطف في جوار الروح الناطقة العاشقة، فأخذت الروح من الوجوه الحسان لطف معدن الحسن، وبقي للنفس الأمارة حظ من حظوظ الشهوات.

قال أبو سعيد الخراز: رأيت إبليس في منامي، فقلت له: هل لك يد على الصوفية؟ فقال: لا. ومضى، ثم التفت، وقال: لي عندهم لطيفة، وهي نظرهم إلى وجوه الأحداث.

وأيضًا: نصيب الملعون منهم فرحهم بحالهم، ووقوفهم بلذات مواعيدهم، وإلقاء تخاييله في مكاشفتهم، وذلك النصيب يقع على أكثر من مقاماتهم منها أي: يعدهم إلى بلوغ مقام الكرامات بغير استعمال آداب الطريق، ومتابعة المشايخ، وموافقة الأسوة والسنة، وهذا

(١) رواه الترمذي (٤/٤٦١).

(٢) رواه أحمد (٣/٣٨٤).

له في المريدين.

ومنها: أن يمنيهم بطول العمر، ونيل الدرجات في شيخوختهم بأن تقاعدوا عن استعمال رسوم المعرفة، وكل هذا غرور الملعون، ولا يشتري غرور إلا من قر من أمانة النفس في طريق الله، وكل هذا معنى قوله تعالى في وصفه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، والغرور وله للمريدين أنك قد بلغت منتهى المقامات، وآخر الدرجات فاسكن من مجاهدتك ورياضتك، واجلس في مجلس الشيخ، وتكلم بكلامهم، أنت أعظم منهم، حتى يدور حولك المريدون، وأراد بذلك الغرور أن يوقعه إلى حب الجاه والرئاسة، فيهلك فيها كهؤلاء المطرودين في زماننا، طهر الله وجه الأرض منهم، ومن أمثالهم.

قال بعضهم: ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ طوال العمر، والموت غايتهم، ﴿وَيُمْنِيهِمْ﴾^(١) الغنى والفقر سيلهم، ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ما يقرهم من الدنيا، ويعدهم عن الآخرة. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُحْزَنُ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَتْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُحْزَنُ بِهِ﴾ حقيقة هذه الآية قطع أسباب الحدث عن جناب القدم، وإفراد الأزل عن الحوادث، وأن الخليقة للعبودية لا للربوبية، أي: ما دمت في رِقِّ العبودية يجازيكم بأعمالكم، ليس كما يجري على خواص الأولياء، أنا ما دام بيني وبينهم نسبة المحبة لا أجازيهم باشتغالهم بغيري، ولا أحاسبهم بالعثرات والزلات؛ فإني منزّه عن أن يدركني أحد بنعت الحقوق منه عليّ، فحقوقي قائمة على عبادي أبداً، وهذا معنى قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُحْزَنُ بِهِ﴾ لأنه وإن كان عزيزاً عليّ لم يخرج من رِقِّ العبودية، وأنا أجازيه بالسيئة بعد أن أوقعته فيها تربية لا حرماناً، وإذا مال خاطر العبد العارف إلى مراد نفساني فذلك الخاطر في حساب المعرفة سوء، فيجازيه باستعماله، وهذا إشارة قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُحْزَنُ بِهِ﴾، فذلك أسوأ جزاء سوء الخاطر، وسوء الخاطر امتحانه لتربيته، ومن لم يعرفه فوجوده

(١) ما لا يتالون نحو ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء أو نيل المثوبات الأخروية من غير عمل. تفسير حقي (٩٨ / ٣).

كله سوء، فمن عرفه غيره فالكمل قد وقفوا فيه العالم والجاهل في مدارك عرفانه في عين النكرة، والنكرة لا تتناهى، والعبد في جميع الأنفاس في جزاء النكرة بعد النكرة، وهذا معنى قول النبي ﷺ حيث قال: «لو أن الله تعالى عذب جميع الملائكة لكان حقاً له، قيل: إنهم معصومون، قال: من قلة معرفتهم برَّبِّهم»^(١).

وهذا الامتحان في دار الدنيا؛ لتقديس أسرارهم عما دون الله، وتخفيف مطايا قلوبهم عن غبار الأوزار في تلك المراتي، التي هي مجالس الأُنس ومحافل الطرب، حيث هرب الهرب.

قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» بمعنى قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا» أنه وصف من يحمل بسر بال جلاله الذي يتلأأ منه حسن وجهه القديم، وطار بجناح المحبة والشوق في هواء هويته، فيجد طريقاً من الأزل إلى الأزل، فيسير من الله إلى الله إلى أبد الأبد، فتلك المسالك دينه، أي: دين أحسن من هذا، وهو بجلاله وعظمته دليله منه إليه، لم ينطمس مسلك الأزال والآباد ما دام بعزته ومجده أمام مطايا أسرارهِ وعلم رواحل أنواره:

إِذَا نَحْنُ أَذْلَجْنَا وَأَنْتَ أَمَامَنَا كَفَى لِمُطَايَانَا بِرِّيَّانِكَ هَادِيَا

بانت سمات الحسن منه حين أسلم وجهه لله إلى جمال الله، يتجلى من وجهه تعالى لوجه قاصده، فيبرز نور وجه القدم من وجهه، أفنى وجوده لإدراك وجوده، «وَهُوَ مُحْسِنٌ» أي: عارفٌ وعالمٌ بما يطلب ويطلبه، ومقصده مشاهدة الباقي بنعت الفناء فيها، فسَهَّلَ عليه اضمحلاله بالله في الله.

قال ابن أدهم: من عرف ما يطلب هان عليه ما يذل، فنعتة في الفناء فيه اتصافه برضاه، فيرضى عنه فيما يريد منه، ومثل هذا الدين دين الحنيفية الحبيبية الجليلة المسائلة عن الحدثان في مشادة الرحمن، ألا ترى كيف وصف حبيبه بقوله: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» [النجم: ١٧] حين رآه لم يلتفت إلى الحدثان، وكيف وصف خليله حين برزت أنوار جلاله من مطالع القدر ببراءته عن الحدث بقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [الأنعام: ٧٩].

وبين تعالى أن تمام حسنه لم يكن إلا بمتابعة خليله: «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» وملته كسر أصنام الطبيعة بفأس الحقيقة في بداية المحبة، وإذهاب عرائس الملكوت من

(١) لم أقف عليه.

خاطره بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بعد قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]. حين انكشف في عينه جمال الجبروت الأول مقام الإيقان، والآخر مقام العرفان وطريق تسليم نفسه لله في محل الامتحان بنعت سلامة القلب عما دون الرب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وزاد في وصفه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] امتحن تسليمه بذبح الولد، فمرر السكين على حلقة سبعين مرة، وامتحن بنفسه بإلقائه في النار، فعرض عليه جبريل عليه السلام المعاونة، فقال: «ألك لي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا»^(١).

وبيّن سبحانه إذا كان الخليل بهذه الصفة في عبوديته وعرفان ربوبيته اتخذها، كان في الأزل خليل الله بلا علة ولا تهمة، اصطفاها بالخلّة في الأزل، ولو كانت خلته بعوض ما كان فضلاً؛ لأن اصطفايته بالخلّة وصف الأزل، والأزل قديم قبل وجود الحوادث، حيث أقبلت صفته تعالى وهي المحبة إلى الذات، وأقبل الذات إلى الصفة، وتجلّى الذات للصفات، ثم تجلّى الذات والصفات للفعل، وتجلّى الفعل إلى القدم، فظهر الخليل بوصف الخليل، ويرى الخليل الخليل بعين الجليل، فصار خليلاً للجليل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، وهذا الذي بعينه للحبيب، والحبيب أفضل من الخليل؛ لأن المحبة لبّ الخلّة، ثم صرح بالإشارة أن المحسن الراضي إذا تابع الحبيب والخليل فيما ذكرنا صار حبيب الله و خليل الله. قال بعضهم في هذه الآية: أي من أحسن حالاً ممن رضي بمجاري الأقدار عليه في العسر واليسر، وأسلم قلبه إلى ربه، وأخلص وجهه له وهو محسن، أي: متبع لسنة المصطفى ﷺ. وقال أبو بكر: مَنْ ظاهره واتباع ملّة إبراهيم عليه السلام حنيفاً، أي: يخرج من الكونين إقبالاً منه على الحق.

وقال الواسطي: حنيفاً أي: مطهراً من أدناس الكون، خالصاً للحق ممّا يبدو له وعليه. قال ابن عطاء: اتخذ خليلاً، ولم نخالك سرائره شيئاً غيره، فذلك حقيقة الخلّة. وأنشد:

قد تخلّلت مسلك الروح مني وبذا سُمّي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقْتُ كنتُ حديثي وإذا ما غشتُ كنتُ عليلاً

قال الحسين: اتخذ خليلاً، ولا صنع لإبراهيم عليه السلام فيه، وذلك موضع المنة، ثم أثنى

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٩).

عليه بالخلة، وذلك فعل الكرام.

وقال الواسطي: تخللته أنوار بره، فسماه خليلاً.

وعن جعفر بن محمد قال: أظهر اسم الخلة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الخليل ظاهرٌ في المعنى، وأخفى اسم المحبة لمحمد ﷺ لتمام حاله؛ إذ لا يحب الحبيب إظهار حال حبيبه، بل يحب إخفائه، ويستره؛ لئلا يطلع عليه سواه، ولا يدخل أحدٌ فيما بينهما.

وقال ابن عطاء في تفسير قوله: «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أي: قصده وتدبيره لربه وهو محسنٌ، أي: يرى الحق بسره، فأسلم له ذلك كله مفوضاً إليه ومسلماً تدبيره إليه.

قوله تعالى: «وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» كان الله تعالى ألزم النفوس سمات النكرة، وفتح أبصارها عليها حتى لا ترى إلا وجودها، فعشقت على وجودها، وعُمت عن رؤية خالقها، فتكون كل وقتٍ في طلب حظها من العالم، فإذا حركها الله بواجب العبودية تأبى عن ترك حظوظها؛ لقلّة عرفانها حظ الأكبر، وهو مشاهدة خالقها، التي هي رأس كل دولة في الكونين، وهذا معنى قوله: «وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ».

قال النوري: ألزمت الأشباح مخالفة الحق في جميع الأحوال، وشحها ما يضرها من طلب الدنيا.

«وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٨﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿٣٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤١﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿٤٢﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٤٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعَسْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ

وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ *

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ العدل صفة الحق، فمن اتصف بصفته يكون عادلاً في جميع الأحيان، لكن ما كان العدل مستعاراً في التخلق يرجع إلى معدنه عند الامتحان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾، وهاهنا أجدد أن ينصرف العدل إلى معدنه؛ لأن ميلان الأرواح والأشباح بعضها بعضاً علة الفطرة، وحب النساء من أحكام العشق الروحاني طبعاً وطلباً لمعدن حسن الأزل، فكيف تكون الاستطاعة من النفس بالعدل بينهن والروح في طلب زيادة الحسن أبداً! ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَعْمِلُوا كُلَّ أَمَلٍ﴾ أي: أرموا النفوس بأزمة المجاهدة والرياضة والمراقبة عند امتناعها من الخضوع عند أمر خالقها.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: فكيف تستطيعون العدل بينكم وبين الحق وليس من العدل أن تحب ما يشغلك عن حبيبك، وليس من العدل أن تفتري عن طاعة من لا يفتري عن ترك. وقال الواسطي في قوله: ﴿فَلَا تَعْمِلُوا كُلَّ أَمَلٍ﴾ الجوارح تبع للقلب؛ لأنه أمير أمرك أن تخالفه إذا خالف الحق.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ التقوى حقيقة العبودية، ولا يستقيم أمرها إلا بأداء حقوق التقوى، وهي الاجتناب عما منعه الله من النفس والهوى، ومعنى ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: أنظروا بأبصار القلوب إلى عالم الغيوب ترون سبحات عظمتي وجلال عزتي الذي ينبغي للعباد أن يدونوا تحت تجليه. قال بعضهم: أمر الكل بالتقوى، وأوصل النفس إلى التقوى، من جرى له في السبق عناية.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ﴾ أمر سبحانه العباد بالإنصاف والقسط والعدل في الشهادة؛ لئلا يتنوع الحكم حين تميل النفس إلى غير الله، أي: راقبوني في أمري، ولا تراقبوا غيري؛ فإن الشاهد العادل إذا كان مراقباً لي يرى شهودي على كل ذرة، فيفرغ بي شهادته من شهودي.

قال الجنيد: لن يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حق لم تقضه أو لم تؤده.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقاً بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف.

وأيضاً: لهذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومن ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنع بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليفة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند أفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادث يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منزّهة عن الإيمان والكفر.

سئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السر من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿ءَامِنُوا﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يريد تكرار الإيمان.

وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطة، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط.

قال الأستاذ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تحتم بعفوه الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعة مقدسة عن كل قرب وبعد ووصل وفصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ يصف أهل التردد في سلوك سبيل أولياء الله والإيمان بهم وبأحوالهم حين هاجت رغبتهم إلى رئاسة القوم أشرفهم عند الخاص والعام، وآمنوا رسماً لا استعداداً، فلما جنت عليهم ظلمات المجاهدات لم يحتملوا، وأنكروا عليهم، ورجعوا إلى حظوظ أنفسهم، فإذا سمعوا أفكار الخلق على تردهم ورأوا مهابة الأكابر

عندهم آمنوا بعد ذلك رسماً لا حقيقة، فلما لم يصلوا إلى شيء من مقامات القوم وكراماتهم ارتدوا، وصاروا منكبين على القوم وعلى مقاماتهم، وزاد إنكارهم على الإنكار حين رجعوا إلى اللذات والشهوات، واختاروا الدنيا على الآخرة، ويقولون عند الخلق إن هؤلاء ليسوا على الحق، ويطعنونهم، يقعون في تمزيقهم وغيبتهم حتى تضيق صدور القوم عليهم، وأن الله سبحانه ينتقم منهم بأن يشغلهم بجمع المال والرئاسة، ولا يرشدهم بعد ذلك إلى سبيل الرشاد، وتبقى على وجوههم سمات الحسran، ويحترقون غداً عندهم في وسط النيران، وهذا وصف أهل زماننا من المنكرين الذين كان عندهم بالإرادة الإيمان بنا وبأحوالنا.

قال الأستاذ: إن الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم تغشوا وعثروا ثم ختم بالسوء أحوالهم أولئك الذين قصمتهم سطوات العزة حكماً، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً، الحق تعالى لا يهديهم لقصد ولا يدهم على رشيد.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٦) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَتُستَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٧) الَّذِينَ يَتَرَضَّوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ عَلَيْهِمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٨) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٩) مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٢٠) يَنَآيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٢١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (٢٢) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٣) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (٢٤) *

قوله تعالى: ﴿أَلِيتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أعلم الحق سبحانه أن

جهلة النفوس طلبوا العزَّ من موضع الذل وأخطأوا الطريق، فإن العزَّة بصفة الأزلية، ومن لم يكن متصفاً بعزَّة الأزلية لم يكن عزيزاً بين الأعزَّاء، ويكون ذليلاً بين الأذلاء، قال على وجه الاستفهام والتعجب ونفي العزَّ عن غيره، وأضاف العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة من عند مَنْ كان عزيزاً، يعني النبي ﷺ وأصحابه وأولياءه؛ لأن عليهم رداء عزَّة العزيز، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

قال محمد بن الفضل: كيف تبتغي العزَّة ممن عزَّه بغيره، فاطلب العزَّة من مظانه ومكانه، قال الله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فمَنْ اعتزَّ بالعزيز أعزَّه، ومن اعتزَّ بغيره أذله. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اعتزَّ بالبعد أذله الله»^(١)، فابتغ من عند ربِّ العزَّة يعزُّك في الدنيا والآخرة.

قال أبو سعيد الخزاز: العارف بالله لا يرى عزَّة إلا منه.

قال الواسطي: ما مالت سريرة إلى حبِّ العزِّ إلا ظهر خسوفها، وما مالت النحيرة إلى حبِّ الدنيا إلا ظهرت ظلمتها عليه، فصارت محجوبة، وعن [المآب^(٢)] مصروفة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيَّن أن من خالف الطريق، وظهرت منه الخيانة لم يصل إلى مقام الأول إلا بالعبور على هذه الشرائط المخصوصة، منها التوبة وهي الخروج من النفس والهوى، والرجوع إلى الله بمراد الله، والإصلاح وهو إصلاح السريرة بنعت تقديسها عن النظر إلى غير الله، والاعتصام بالله الالتجاء إليه في جريان القضاء، والقدر عليه الإخلاص في الدين تجريد الأسرار عن النظر إلى الأغيار، فإذا غير على هذه القناطر فتكون في السلوك مع العارفين، ولكن لم يكن معهم في مشاهدة رب العالمين لا صحبة المخالف لم تكن مستعدة لما نال أهل المعارف والكواشف، وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وما قال «من المؤمنين» أي: ليس هؤلاء منهم وإن اجتهدوا في الطريق؛ لأن الجاهد وإن اشتد جهده لم يكن عارفاً، لأن المعرفة موهبة الأزلية، وهبها الواهب لمحبيه بغير علَّة، وهذا إخبار عن قوم محرومين من الوصول إلى هذه المقامات، وظهر في نحوي الخطاب أن هذا الخبر منهم أنهم لم يفعلوا ذلك.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٤).

(٢) غير واضحة بالأصل.

قال ابن عطاء: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل «من المؤمنين»؛ ليعلم أن الاجتهادات لا تؤثر في سبق الأزل.

قال أبو عثمان: التوبة الرجوع من أبواب الخلاف إلى أبواب الائتلاف.

وقال محمد بن الفضل: الاعتصام هو التشبث بالسنة وطرق السلف.

وقال سهل: تابوا من التوبة.

﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١١٨) **إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا** (١١٩) **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** (١٢٠) **أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** (١٢١) **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** (١٢٢).

قوله تعالى: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بين سبحانه شففته على العباد، حيث لا يرضى بشناعة الغير عليهم ظاهراً، فكيف يرضى من نفسه أن يهتك سترهم، اعلم أنه غيور؛ حيث لا يحب الجهر بالسوء من القول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ لأن حديث المظلوم هفوة وانبساط بين يديه، وليس قول السوء فحشاً، إنما هو الدعاء على ظالمه، وهو سميعٌ لدعاء المظلوم على الظالم، وهذا كقوله: ﴿وَلَمَنْ آتَنَصَّرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، وهذا تسليّة وشفاءٌ لعلّة المظلوم.

قال الواسطي: لا يرضى الله من عباده باستماع الجفاء إلا مثاله إلا مَنْ جحد نعم الله عنده في البينات والبراهين.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلَيِّنْتَ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۖ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (١٧٢) **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْأَبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ**

مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٣٨﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِنَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٩﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أراد بالسلطان المبين سطوع نور التجلي من وجهه حتى لا يرى أحد وجهه إلا حارت عيناه من غلبة بهاء الله وعظمته على وجهه، وأخبر سبحانه عن ذلك النور؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ^(١) [طه: ٣٩].

قيل في تفسير الظاهر: ملاحه في عينيه لا يراه أحد إلا أحبه، وذلك النور أيضًا من نور تجلي الحق الذي ظهر من الشجرة حين سمع خطاب الحق منها، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]، وكان موسى عليه السلام من فوّه إلى قدمه برهان الله للعالمين، وهكذا كل نبي وولي.

ألا ترى إلى اليد البيضاء والعصا وأعظم البرهان في وجهه عكس التجلي من جبل الطور على وجهه حتى احتاج بعد ذلك أن يستر وجهه بالبرقع، والسلطان المبين أيضًا إخباره عن الله بكلام الله.

قال بعضهم: قوة عظيمة على سماع المخاطبة من كلام الحق.

وقيل: أعطى سلطانًا على نفسه في مخالفتها وهو المبين الظاهر للخلق.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿٤١﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤٢﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿٤٣﴾ فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ أَحَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿٤٤﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٥﴾ لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

(١) أظهر الله عليه ميراث علمه قبل العمل، فأورثه محبة في قلوب عباده؛ لأن من القلوب قلوبًا تثاب قبل الفعل، وتعاقب قبل الرأي، كما يجد الإنسان في نفسه فرحًا لا يعرف سببه، وغمًا لا يعرف سببه [تفسير التستري (١/٣٢١)].

أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَأَلْقِمْ يمينَ الصَّلَاةِ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ كان روحاً روحانياً إلهياً يجي الأموات به، حيث يبرز نور الألوهية منه لها؛ لأنه من الله سبحانه بالقدرة، فلما أراد الله أن يرفعه إلى جواره رفع الحجاب عن روحه، فظهر روحه لبعض خاصته، فصار منقوشاً بنقشه؛ لأن صورة عيسى عليه السلام منقوشة بنقش روحه، وهذا منه قوة إلهية، وهو كان بها مؤيداً بقلب الأعيان، ولا تكون هذا إلا من فعل الله المنزه عن مزج لاهوتية ناسوتية الإنسان. وأدق الإشارة فيه: أن الله سبحانه عرف طباع اليهود والنصارى بميلها إلى التشبيه، وتنفرها من القدس والتنزيه؛ لأنهم أصحاب المخائيل.

ألا ترى إلى عبدة العجل كيف كان حبهام لها، وقول النصارى أن الله هو المسيح، فشبهم لهم صورة عيسى عليه السلام بنعت الالتباس من تحيل نور اللاهوت من الناسوت لقلّة عرفانهم قدس الأزل عن نعوت الحدث، فغلظ بعضهم وقالوا بإلهية عيسى وعزير عليها السلام، فغرقهم عيسى مكان المكر في الالتباس، وفات خطتهم من رؤيته، قصدوه بالقتل، فألقى الله سبحانه عكس ذلك الشبه على أحد استدراجاً ومكرًا، فقتلوه؛ لأنهم ما وجدوا فيه ما وجدوا في عيسى عليه السلام من حلاوة الحب ولذة العشق، وهذا الفقدان من رفعه إلى السماء بقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

قيل في تفسير: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كساه الريش، وألبسه النور، وقطع لذة المطعم والمشرّب، وطار مع الملائكة حول العرش، فكان إنسياً ملكياً سماءياً أرضياً.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ المستقيمون في سماع خطاب الخاص من الله سبحانه بغير معارضة النفوس واضطراب الأسرار؛ لأنهم عالمون إلهام الحق من وسوسة الشيطان، وهم مفرّقون بين لمة الشيطان ولمة الملك، ويعرفون خطاب العقل والقلب والنفس والروح والملك والسرّ والشيطان بنور خطاب الله، ويعرف به مكان كل خطاب، علمهم لدنّيّ، ولسانهم إلهيّ، وقلوبهم عرشيّ، وروحهم ملكوتيّ، وأسرارهم مشحونة بالعلوم المجهولة، والأنباء العجيبة الغيبية، ويزنونها في جميع الأنفاس بميزان القرآن والسنة وكلام الأولياء.

قيل: هم العلماء بالله، والعلماء بأمر الله، والمتبعون سنة رسول الله ﷺ.

قيل: هم الواقفون مع حدود العلم وشرائطه، لا يجاوزونه بالرخص والتأويلات.

ويقال: الراسخ في العلم مَنْ يرتقي عن حدٍّ تأمل البرهان، ويصل إلى حقائق البيان.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ﴾ (١٧٣) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۚ﴾ (١٧٤) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۚ﴾ (١٧٥) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۚ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۚ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ﴾ (١٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۚ﴾ (١٧٨) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۚ﴾ (١٧٩) ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلنَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ﴾ (١٨٠)

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ ذكر الأنبياء عند ذكره تسليّة في الامتحان، وتثبيتاً للكشف والخطاب والبيان بالغيرة لزيادة المحبة والقربة، وذكر نوح ﷺ ثاني ذكره؛ لأنه هو نوح الحضرة من الشوق إلى المشاهدة، ولأنّ بينها مشاركة في احتمال الجفاء من الأغيار، ألا ترى كيف قرّبه الله في أخذ الميثاق بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ ۖ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بيّن تخصيص موسى ﷺ بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى ﷺ من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفاً، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسرارهِ، ولم يسأل مشاهدة الحق جهراً بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۖ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١٠، ١١]، وأن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعاً من أسماعهِ، فيسمع بها كلامه، كما

حكى ﷺ عنه تعالى: «إِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ»^(١)، أسمعته كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعته بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزّه عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء، هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة لا من حيث الجمع والفرقة.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ أَلْفَرُيُونُ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كان رسول الله إلى عباد الله بأمانة الله، وهي نور جلاله الذي برز من وجهه لهم؛ ألا ترى كيف توجّهوا إليه وصاروا عاشقين به كما عشقت ملائكة الله لوجه آدم ﷺ، ولذلك سجدوا لآدم ﷺ، وذلك من تجلّي كلمته الأزلية التي كظهر نورها في مريم، وكان في ظاهره وباطنه روحاً صدر من زند نعوت الأزل حين انقدحت لظهوره من العدم، وأدنى عيسى ﷺ خاصية فردّه أفضل من خاصية آدم ﷺ؛ لأن هناك قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، خصّه بالروح منه فيه، ولهنا قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يعني ظاهر صورته وروحه بمجموعها، ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ العالم بأسرها صورة وروح تلك الصورة هي الأنبياء والأولياء، قال ﷺ: «هم بمطر، وهم بنبت، وهم بدفع البلبايا»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ أَلْفَرُيُونُ﴾ لماذا اتصف بأوصاف الحق حين برزت أنوارها له، وباشرت أسرار لطائفها قلبه وروحه

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١).

وعقله، وامتلأ من سنا الألوهية أسرارهِ حين انعقد عقد وجوده، كاد الحال أن يسلبه من رؤية العبودية، فأدركه تأييد الحق حتى رأى الحدث محوًا في القدم، فلم يدعِ الربوبية، ونطق في المهد بالعبودية بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، لم يكن كابن الحلاج - رحمة الله عليه - حين ادعى بالأنائية من سكر العشق والمحبة، وفنائه في الأزلية، واتصافه بالأبدية؛ لأنه كان في منزل التلوين، بل حاله كان كحال سيد البشر ﷺ حين عاين الحق بالحق، فخرج من بحار الذات بنعت الاتصاف بالصفات، ورأى اضمحلال الحدثان في جمال الرحمن، فنطق بالعبودية وقال: «أنا العبدُ لا إله إلا الله»^(١)، وهكذا أهل القدس في الملكوت تلاشوا في سبحات عزته، وقالوا: «ما عبدناك حقَّ عبادتك، وما عرفناك حقَّ معرفتك»^(٢)، وكيف لا يكون ذلك وقهر الجبروت استولى على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وجرها بأزمة العظمة والكبرياء في تراب ساحات عزته، راغمة في جناب جبروته والألفة من عبادة صانعها مستجيبة! لأن كونها وتكوينها محض عبادته، لأنها تكون بداعية القدم من العدم، خصَّ ذكر عيسى ﷺ والملائكة لأنها موضع إشارة الكفرة نسبتهم إلى الألوهية ذكر عيسى ﷺ بالأول وأتم ذكر الملائكة.

وبين ظاهر الآية تخصيص الملائكة على عيسى ﷺ، والمراد من ذلك أنهم سهاويون نجباء الحضرة وأشياخ القدرة؛ لأنهم أفضل من عيسى ﷺ، وأشار بوفق رسوم خواطر الكفرة، وإلا كيف يكون هم أفضل من الأنبياء، والأنبياء جلاليون قدسيون، والملائكة روحانيون ملكوتيون قبل، لا يأنف أحدٌ من القيام بالعبودية، فكيف يأنف منه وبه يتقرب إلى مولاه.

وقيل: كيف يأنف أحدٌ من عبودية مَنْ يظهر على العبيد آثار صنائع الربوبية كما أظهر على عيسى ﷺ من إحياء الموتى وغيره.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ خِلَافُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَتَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِيلَةِ إِن مَن رَّوُّهُ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ إِخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا النِّصْلَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصْلَوْا

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/ ٤٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤).

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾
برهانه ظهوره في كل ذرة، ولمعان سنا قدرته في جميع الفطرة، وبرهانه طوف أسرارہ
قلوب الخلائق يكون وجوده وأنباء عجائب صفاته والنور المبين خطابه الظاهر في الظاهر
ونوره في الباطن.

قال ذو النون: استقرت منار الدجى، وأقامت حجة الله على خلقه، فأخذ بحظه
ومضيع لنفسه.

وقيل في قوله: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ خطابًا من القرآن فيه محل الشفاء لأسرار
العارفين.

وقال الأستاذ: البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّت لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلَى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا
شَعِيرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقُلُوبَ وَلَا ءَامِينَ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فُضْلًا
مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ؕ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ؕ وَلَا يَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ؕ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ
وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ؕ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لله الأسماء الحسنى، والنعوت الأعلى، من جملتها المؤمن،
فألبس نور هذا الاسم خواصه، وزين أسرارهم به، فخطبهم بخاصية اتصافهم باسمه
وصفته، وهم بنوره، وبيرونه، فساروا بمراكب اسمه ونعته في ميادين الصفات حتى بلغوا
أزهار النذات، فشاهدوه بوصف اليقين والسكون، أي: أيها الشاهدون مشاهدي.
قال ابن عطاء: أي: أيها الذين أعطيتهم قلوبًا لا تغفل عني، ولا تحجب دوني طرفة
عين.

وقال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن حنيف: الإيمان تصديق القلوب بما أعلمه
الحق من الغيب.

قال بعضهم: يا غيبٌ، وأي سرٌّ، وها تنبيهٌ وإخراجٌ، وآمنوا وصف المحبين.

قال أبو الحسين الفارسي في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أمر الله عباده بحفظ السياسية في المعاملات، والرياضات في المحاسبات، والحراسة في الخطرات، والرعاية في المشاهدات، فليس للعبد من هذه الأسباب مهرّبٌ، ولا له عنه محيصٌ.

وقال بعضهم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عقد القلب بالمعرفة، وعقد اللسان بالشئ، وعقد الجوارح بالخضوع.

وقال جعفر بن محمد في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أربع خصال: نداء، وكناية، وإشارة وشهادة، ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ نداء وأي: خصوص النداء، وها كناية، و﴿الَّذِينَ﴾ إشارة، و﴿ءَامَنُوا﴾^(١) شهادة، وأشار ﷺ وما فسر، وأراد -والله أعلم- أن الياء نداء الأذل، تقاضى بها وصول المشتاقين إلى الأزل بالأزل، فخرجت الأرواح العاشق بنداء القدم من العدم، وأي خطاب بسط لأهل الخصوص من أهل الانبساط، والهاء للغائبين في جلاله، والغائبين في سطوات عظمت وكبريائه، المتحيرين في دائرة هويته، كنّاهم بوصف الهوية، و﴿الَّذِينَ﴾ إشارة إلى الواقفين بطلب هلال جماله في سموات عظمت، ﴿ءَامَنُوا﴾ وصف قبولهم أمانته الأزلية، وهي المعرفة القائمة بالأزلية التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

وقوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ هذا كناية عتاب؛ حيث طلب منهم الوفاء بعهد الأزل حين قبلوا أمانة المعرفة، وأقرّوا بالربوبية في معاينة المشاهدة، عقد مع الأرواح العارفة في الأزل بظهور صفاته تعالى لهم، ففي كل كشفٍ صفةٌ لها عقد وعهد لاتصافه بها، فطارت بوصف الصفات ونورها في الأشباح بطلب الحق سبحانه الأرواح والأشباح بفوائد التخلق والاتصاف بالصفات في الأزل؛ ولذلك قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؛ لأن العقود جمع عقدٍ وعهد أخذها الأرواح.

قيل: الأشباح في فضاء الأزل.

قيل: أول عقد عليك عقد إجابتك له بالربوبية، فلا تخالفه بالرجوع إلى سواه، والعقد الثاني عقد تحمّل الأمانة فلا تُحقّرْهَا.

(١) الإيائُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود؛ فَبَذَلَ المجهود خِدْمَتَكَ، وعين الجود قِسْمَتُهُ؛ فبخدمتك عناء الأشباح، وبقسمته ضياء الأرواح، وحقيقة الإيمان تحقق القلب بها أخبر من الغيب [تفسير القشيري (٢/ ٨٣)].

قال الواسطي: العقود إذا لم تشهد القصور تلَوْن عليها المقصود.

قال الجريري: الوفاء متصل بالصفاء.

قال الأستاذ: ناداهم.

قيل: أن أبدلهم وسماهم قبل أن رآهم أهلهم في آزاله لما أوصلهم إليه في آباده شرفهم

بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وكلفهم بقوله: ﴿أَوْفُوا﴾^(١) لما علم أن التكليف يوجب المشقة، قدّم التشريف بالثناء على التكليف الموجب للفناء.

وقوله: ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ المحرم الذي ذكره الله هو مَنْ اكتسى في إحرام

أنوار عزّته في حرم مشاهد قربه، قد منعه ألا يصيد في ببداء العبودية صيود الحظوظ؛ لأن صيده هو بنفسه تعالى لا غير، ومَنْ كان هو صيدة حرم عليه سواه.

قال الأستاذ: المُحَرَّم متجرّد عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كَفُّ الأذى

عن كل حيوان، وقد هتفت هو اتف خاطري بأن العاشق إذا ألبس إحرام العشق حُرِّم عليه ما فيه آثار صنع معشوقه وأنوار خصائصه.

ألا ترى إلى مجنون بن عامر لما اصطاد ظبيًا خلاه عن القيد، وأطلقه، وأنشد:

وعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك رقيق
وأنشد أيضاً:

أيا شبه ليلى لا تذاع فإنني لك اليوم من وحشية تصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ألسنت لليلي أن شكرت طليق

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ قطع أطباع النفوس دخولها في شهوات اختراع

مرادها، وحسم حبال أمنية الخلق عن دفع سابق المشيئة بالمجاهدات، وأفرد نفسه بالحكم الأزلي بنعت نقض عزائم الخليفة، يحكم أولياءه بنزول بلائه عليهم بعد إسقائهم شراب وداده

(١) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومكابدة، فمن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياءكم بالاستمتاع والاتباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدتها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتهم بذلك، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون فيها بهمتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المكوّن كانت الأكوّن معكم، إلا ما يُتلى عليكم مما ليس من مقدوركم بما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهمم لا تحرق أسوار الأقدار»، غير مُتعرّضين لشهود السوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (٢/٢٨)].

من بحار جماله.

قال جعفر عليه السلام: حكم بها أراد، وأمضى إرادته ومشئته، ومن رضي بحكمه استراح وهدي لسبيل رشد، ومن سخطه فإن حكمه ما مضى، وله فيه السخط والهوان.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ خاطب العارفين عند أخذ ميثاق التوحيد في مقام قرب المشاهدة ألا يباشروا محارم منازل أسفار الأرواح من القدم إلى البقاء، وهى شعائره للنفوس؛ حيث سارت في حرمت الشهوات حتى لا يوافقوها في طلب حظوظها، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَحُلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾، ثم وقّت لهم في سير الأسرار إلى مشاهدته في زمان ظهور تجلّي الخاص أن يتجددوا غيره، ويمنعوا أنفسهم في زمان انجذابهم من عالم الحدثان إلى جناب الرحمن عن الدخول في حمى الرفض الذي هو ينزل أهل الانبساط، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، وإذا رأوا طلاب المريدين الذين ذهبوا أنفسهم إلى الله هدياً في سلوك المقامات، ورأوا المجذوبين والمقلدين بسلسلة المحبة في مزار الحالات، ورأوا السالكين القاصدين إلى كعبة المشاهدة الذين يتغنون وصلته وبقائه ألا يغيروهم عليهم بغيره المعرفة؛ إرادة لقطع طريقهم ليلاً، يروا غير نفوسهم في باب الأزل، كما فعل موسى عليه السلام ببلعام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا آهْدَى وَلَا أَلْقَيْدٍ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ثم رخص المحرمين ممّا دونه إذا بلغتم إلى مقام المشاهدة ووجدتم عيد الأكبر، وخرجتم من إحرام المجاهدة اصطاد، وفي منزل البسط والانبساط زيادة روح القرية والتنفس في الأنس من ترنم ألحان بلابل بساتين الربيع، وسماع أصوات الطييات، ومشاهدة المستحسنات.

ألا ترى إلى قوله عليه السلام لنسك الغيب، حين تضايقت الأكوان عليهم في مقام القبض كيف قال: «رَوْحُوا قُلُوبَكُمْ بِسَاعَةٍ فَسَاعَةٍ»^(١)، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، وإذا كنتم في زمان الامتحان ويتعرضكم أهل ظاهر السبيل والعلم ويمنعكم عن الجلوس بالسماع والرقص والهيجان والوجد والهيان وعن دخولكم مراد الله من المواقف القدسية لا تخاصموهم، ولا تقتلوهم بأنفاسكم القاتلة؛ حتى لا يكون عليكم رقم الاضطراب في الطريقة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا»، وإذا تحيّر المريدون في ببداء الشوق وهاموا في وادي العشق وفنوا في قفار التوحيد زيدوا عليهم وصف مشاهدتي ولذة وصالي قدس عظمي، يزيد حرقتهم ورجبتهم ومحبتهم لقائي، ويزيد سرعتهم في سيرة العشق والشوق إليّ، وإذا وقع في طريقهم حظ من حظوظ أنفسهم من أبواب الرخص والتأويلات فامنعوهم منه، واتقوا من احتجابي عنكم حين احتجبوا مني، فإن عذاب الفراق مني أشد العذاب، وما ذكرنا فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قيل: البرُّ ما وافق عليه العلم من غير خلاف، والتقوى مخالفة الهوى، والإثم طلب الرخص، والعدوان التخطي إلى الشبهات.

قيل: البرُّ ما اطمأن إليه قلبك من غير أن ينكره بجهة ولا سبب.

قال بعضهم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾، وهو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ، ولا تضيعوا حظوظكم منهم ومن معاونتهم وخدمتهم، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وهو الاشتغال بالدنيا، والعدوان موافقة النفس على مرادها وهواها. وقال سهل: البرُّ الإيثار، والتقوى السنة، والإثم الكفر، والعدوان البدعة. وعن جعفر (عليه السلام) قال: البرُّ الإيثار، والتقوى الإخلاص، والإثم الكفر، والعدوان المعاصي.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَبِدُوا﴾ إذا خرجتم عن أسر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأما ما دتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم؛ لأنكم لنا، وقد وقع لي في البر: معنى البرِّ المحبة، والتقوى المعرفة، والإثم طلب حظ المشاهدة من المشاهدة، والعدوان دعوى الأنانية في الاتحاد؛ لأنه احتجب بحظ الربوبية عن الربوبية في العبودية.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فَسْقُ الْيَوْمِ بَیْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله

فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ خشية الله هاهنا حوالة إلى رؤية سبق العارفين في الأزل، أي: إذا وقع أمر الامتحان عليكم بواسطة الخلق أقبلوا إليّ بنعت معرفتي ومحبتني، ولا تفزعوا منهم؛ فإنهم مكان امتحاني، فإذا عرفتموني عرفتم مكان الامتحان، فلا تبقى إذا الخوف من غيري، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلِمُوا﴾ [فاطر: ٢٨]، فإذا استحکم عقد الخشية منهم فيظهر للعالم بالله سرُّ أفراد القدم عن الحدوث.

قيل: فيه قطعك عن الكل قطعاً، وجذبك إليه جذباً بهذه الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾.

قال ابن عطاء: لا تجعل لهم من قلبك نصيباً، وأفرد قلبك لأن تجدني بصفة الفردانية مقبلاً عليك.

وقال سهل: أعجز الناس مَنْ خشي مَنْ لا ينفعه ولا يضره، والذي بيده النفع والضرر يخاطب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾.

في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أراد في الأزل وأزل الأزل بلا علّة العمياء، والأزل منزلة عن دهر الدهار والأزمنة الفرارة أن يظهر كنوز صفاته وخزائن جود ذاته محبة منه ومعرفة لعباده، كما قال تعالى: «كُنْتُ كَنزًا مَخْفِيًّا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرَفَ»^(١)، فيتجلّى للعدم من القدم، فظهر العباد، وألزمهم سمة العبودية، وكشف أنوار أفعاله لهم، فعبدوه برؤية نور أفعاله وصنائه، ثم كشف لهم أنوار الصفات، فأحبوه برؤية نور الصفات، فلما حان وقت خروج سيد الأولين والآخرين وأصحابه وأمنه من العدم بسط بساط العطايا لهم حتى وقفوا على بساط لطفه وكرمه، وربّاهم بحسن عنايته، ثم تجلّى لهم بنور الأسماء والصفات، وربّاهم بها إلى أن بلغوا حدّ الاستقامة في المحبة والشوق، فكشف لهم جلال ذاته، فعرفوه بنور الأسماء والنعوت والأفعال والصفات، فلما عرفوه بمعرفة الذات كملت أحوالهم للكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد، ولم يحتجوا عنه ببركة مشاهدة النبي ﷺ، وتواصلت الكشوف والتجليّ بالتجليّ، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، حيث ما أكملت لأحد من خلقي ما أكملت لكم. وما ذكرنا بمجموعه قد أشار ﷺ إليه بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - «جاء الله

من سيئات، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران^(١)، والدين هو الطريق منه إليه بنعت عرفان طرق الصفات إلى الصفات، وسبل الصفات إلى الذات، والنعمة منه لهم كشف جماله بلا حجاب، والعفو بلا عتاب، والوصول بلا عذاب، وإتمامها وقايتهم من الاشتغال بغيره، وظهوره من جمال نبيه لهم، ووصول نبينهم إلى درجة مقام المحمود لشفاعتهم وارتضاء الإسلام لهم ديناً، أسأل أستاذ العظمة عليهم حتى انقادت نفوسهم الأئمة الفرارة من الحق لسبحات عظمتهم، ومباشرة قهر سلطان كبريائهم، ولا يحتجبون عن الحق بها أبداً.

قال أبو حفص: كمال الدين في شيئين: في معرفة الله، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام: ﴿الْيَوْمَ﴾ إشارة إلى يوم بعث محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ويوم رسالته.

وقيل: ﴿الْيَوْمَ﴾ إشارة إلى الأذل، والإتمام إشارة إلى الوقت، والرضا إشارة إلى الأبد.

وقيل: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٢) أن خصصتكم من بين عبادي بمشاهدة المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - يخاطب به الصحابة، وجعلتكم حجة لئن بعدكم من الأمة إلى يوم القيامة.

قيل: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالمعرفة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الدنيا ميتة الأولياء، والاجتناب منها واجب عليهم في تجريد التوحيد، فإذا وقعوا في السير في بحر الأنس، وغلب عليهم البسط والانبساط، وصاروا منعوتين بوصف العشق والمحبة، وطابت نفوسهم في روح القلوب الملكوتية، واحتاجوا إلى مباشرة الرخص والسعادة، فهم في حد الاضطراب من جهة نفوسهم الساكنة بروح الأنس؛ لأنها تطلب من مستحسنات الكون

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/١٥٩).

(٢) إكمال الدين - وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُهُ الْعَقِيدَةَ عَنِ النِّقْصَانِ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعربين لطلب توحيده أمثلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر موضعه من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمال الدين تحقيق القبول في المال، كما أن ابتداء الدين توفيق الحصول في الحال: فلولاً توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته - على التفصيل - أكرمك بأن عرَّفَكَ ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (٨٦/٢)].

ما يليق بزيادة هيجان القلوب، وزيادة شوق الأرواح، فإذا باشروا طيبات الدنيا على حدّ ترويح الخواطر، وتسكينها من الحرق والهيجان، فهي مباحّ لهم ما داموا في سير المعارف، فإذا بلغوا منتهى المقامات، ولم تجاوز النفوس من تلك المباحات إلى استدامة الحظوظ فهي غير متجانفة إلى الفترة، فإن الله سبحانه يتجاوز عن مؤاخذتها بالحجاب، ويعينها في طلب المآب، فإنه غفورٌ لخطرات أوليائه، رحيمٌ بنعت الوصلة باصطفائه.

قال الأستاذ: يحتمل أن معناه مَنْ نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجدّه في الحال فرعاً، يجري معه مساهلةٌ إذا لم يفسخ عقد الإرادة.

ونعم ما قال الأستاذ في وصف السالكين في باب الرخص، فإن الله سبحانه صدق ما ذكرنا في الآية بثانيتها من الآي بقوله لنبيه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾، وفي حقيقة التفسير التي أغرب مما مضى ذكره أن الطيبات في الدنيا والآخرة للمحبين مشاهدة الله سبحانه وما سواها، فهو محرّمٌ عليهم من الدنيا والآخرة؛ لأنهم يسألون عن الحلال، والحلال مشاهدة جماله وما سواه، فهو غير حلالٍ في الحقيقة.

وتصديق ذلك قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «الدنيا محرّمةٌ على أهل الآخرة، والآخرة محرّمةٌ على أهل الله»^(١).

سئل أبو الحسين النوري عن القوت؟ فقال: القوت هو الله.

قال أبو علي الروذباري: أطيب أرزاق العارفين المقوتات.

وقال يوسف بن الحسين: الطيب من الرزق ما يبدو لك من غير تكلف، ولا إشراف نفسي، ولي مسألةٌ غير مائة كرت وذلك: أن أصل الطيبات الحلالات ما وقع للعارف في مقام التوكل من الغيب بنعت الرضا.

وأيضاً: الطيبات السماع ورؤية المسحونات التي تطيب قلوب المحبين بسنائها حتى تفرّغها إلى طلب معادن الحسن في الأزل.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥١﴾ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى

الْكَفَّيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الإيمان هاهنا المعرفة، أي: مَنْ وقع في بحر النكرة بعد المعرفة ولم يخرج منها إلى ساحل التوحيد الذي هو مفتاح كنوز الذات والصفات وهو محجوب عن الله بالله، ولم تنعقد له عقود المحبة والمعرفة، وما وجد من الطريق ذهب عنه بقوله: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

وأدقُّ من هذا أن مَنْ عرف الله ووصل إليه بمعرفته وسكَّرَ بأنوار توحيده، وادَّعى في شكره الأنانية التي هي صفة المعدم، فهو محجوبٌ بالوجد من الوجود؛ لأنه كفر الربوبية بأنانيته التي صدرت إليه من رؤية الربوبية، هذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾، وكل عملٍ من أعمال المعرفة له باطلٌ لخروجه من العبودية إلى الربوبية، فإذا رجع إلى العبودية، وعرف أفراد القدم عن الحدوث يستأنف العمل؛ لأنه ما مضى منه قد حبط بدعواه.

وأيضاً: مَنْ ظَنَّ أن أعماله في الإيمان الذي هو موهبة الله الخاصة بلا علة أداء حقوقه فقد كفر بالإيمان، وحبط عمله؛ لأن الإيمان كشوف ذاته وصفاته، وأعمال العبد معلولة محدثة، وكيف يوازي صفة القدم بعلّة الحدث.

قيل: مَنْ لم يشكر الله على ما وهب له من المعرفة واليقين، فقد كفر بمعالي درجة الإيمان، وفيه إحباط ما سواه من الاجتهادات والرياضات.

وقيل: مَنْ لم يرَ سوابق المتن في خصائص الإيمان، فقد عمي عن محل الشكر.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ بدأ بغسل الوجه؛ لأنه منبت أنوار تجلّي الحق التي برزت من الوحدانية للأرواح، فعمّكت لطائفها على الوجوه.

وأيضاً: خَصَّ الوجه بالغسل ابتداءً؛ لأنه تعالى خلقه بنفسه، ونفسه بنقش خاتم ملك الصفات، وسبب حكمة غسله بالماء أنه مغيرٌ بغبار الشهوات، منعوتٌ بنعت الحدث، وخاصية جوهر الماء أنه تعالى خلقه من جوهر أول الفطرة؛ حيث تجلّى له من نور قدسه وسنا عظّمته، فإذا وصل إلى الوجه صار طهوراً من دنس توجهه إلى غير القدم ببركة نوره وقدسه،

الذي أصل جوهر الماء، كذلك جميع الأعضاء، فإذا كان العبد بهذه الصفة في الطهور أجدر أن يكون مقبلاً إلى الله بوجهه.

قال عليه السلام: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»^(١).

والإشارة في الآية إلى تطهير الأسرار من الالتفات إلى الأغيار لاقتباس الأنوار بمياه الحزن التي تجري من عيون قلب المجروح بالمحبة على سواقي العين، فإذا كان مطهراً من غير الحق فصلواته مواصلةً، وحركاته قربةً، وقراءته زُلفَةً، وقيامه محبةً، وركوعه خشيةً، وسجوده شهوداً، ونحياته انبساطاً، ودعواته مستجابةً، أي: إذا قمتم عنكم إلى وصلتي ومشاهدتي طهّروا أنفسكم من الحدودية في بحار الربوبية حتى تصلوا إليّ بي؛ لأن الحدث لا يقوم بإزاء القدم.

قال أبو عثمان: شرائط الطهارة معروفةٌ، وحقيقتها لا ينالها إلا الموفقون من طهارة السرّ، وأكل الحلال، وإسقاط الوسواس عن القلب، وترك الظنون، والإقبال على الأمر بحسب الطاقة.

وقال سهل: أفضل الطهارات أن يظهر العبد من رؤية طهارته.

قوله تعالى: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»^(٢) تواتر العزائم بغير الرخص حرجٌ ثَقِيلٌ على المستأنسين بالله مما سوى الله، مانعةٌ لأهل المجاهدة بقيودها عن الاقتحام إلى عالم الشهوات، ورفع الحرج عن المحبين، وبسط الكرم للمشتاقين، وسهّل أحكام العبودية على العارفين بوضع الرخص؛ زيادة لاستشواقهم إلى مشاهدته، وتقديساً لأسرارهم بنور مشاهدته، وهذا معنى «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»، أي: أنه لا يريد نصب المجاهدة على أهل المشاهدة؛ لأنه تعالى أضاف تطهير أسرارهم إلى نفسه لا إليهم، قال: «يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»، وما قال: «لتتطهروا»، أي: يطهركم عنكم بنور مشاهدته.

(١) رواه مسلم (٢١٦/١).

(٢) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحقد، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلّا عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (٢٤/١)].

قال بعضهم: يريد أن يطهركم من أفعالكم، وأحوالكم، وأخلاقكم، ويقتينكم عنها لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعليق، ولا علاقة بسبب من الأسباب.

قال الأستاذ: يلوح من هذه الآية إشارة إلى أنه إذا نفى المريد عن أحكام الإرادة، فليحط رحله بساحات العبادة، وإذا عُدِم اللطائف في سرائره فيستدم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام العبودية، فلا يخلون من آداب الشرعية، وإذا لم يخرج عن الفضلة، فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة.

وقال في قوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: أي: يطهر ظواهركم عن الذلة بعصمته، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إتمام النعمة هاهنا بيان العبودية للعباد، وتعليمهم آداب المعاد؛ لينالوا بها رؤية النعم بنعت الحجل عن أداء واجب حقوقه بنعت ما يليق بجلاله، وهذا هو الشكر المطلوب من عباده بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال الأستاذ: إتمام النعمة لقوم نجاة نفوسهم، وعلى آخرين نجاتهم عن أنفسهم، فشتان بين قوم.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ﴾ نعمة الله هداية الله السابقة في الأزل لأهل سعادة المعرفة منهم إلى نفسه بنعت المشاهدة والشوق إلى لقائه، والميثاق الذي واثق به عباده ألا يشغلوا عنه بغيره إلى الأبد، وإن كان الجنة وما فيها. قال أبو عثمان: النعمة كثيرة، وأجل النعم المعرفة، والمواثيق كثيرة، وأجل المواثيق الإيمان.

قال الواسطي: أنعم الله على خلقه لكي يشهدوا النعم بالنعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ

وَأَمْنْتُمْ بُرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مستقيمين في محبتي ومعرفتي، قائمين على باب ربوبيتي، ولا تفروا عني بنزول بلائي عليكم، وكونوا حاضرين في حضرتي لشهودكم على مشاهدتي بنعت الصدق والإخلاص والاستواء في جميع الأحوال، ولا تخافوا في عبوديتي من ملامة اللائمين عند إظهاركم حقوقي على حقي.

قال بعضهم: أي: كونوا أعماماً لأوليائه على أعدائه.

وقيل: كونوا خصماء الله على أنفسكم، ولا تكونوا خصماء لأنفسكم على الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إن الله سبحانه لما أراد أمراً عظيماً من أمور الربوبية بين عباده وبناده وضعه على أوليائه؛ ليقوموا به على وفق مراده؛ معذرةً لضعف الخلق، ونيابةً من تقصيرهم، فإذا خرجوا من ذلك بنعت الرضا في العبودية سهل الله ذلك بعده على العامة؛ لأن العامة خلُقوا بنعوت الضعف، وخلُق أوليائه بنعوت القوة، وفي كل أمة خلق الله أقواماً من أئمة المعارف والكواشف لواقع نظره وتحمل بلائه وهم النقباء، والبدلاء، والنجباء، والأولياء، والأصفياء، والأنقياء، والمقربون، والعارفون، والموحدون، والصاديقون، والشهداء، والصالحون، والأخيار، والأبرار، رئيسهم الغوث، وأئمتهم المختارون، وعرفاؤهم السياحون السبعة، ونقبائهم العشرة، ونجبائهم الأربعون، وخلفائهم السبعون، وأمنائهم الثلاثمائة، كل واحد منهم خلُق على صورة نبيٍّ، وسيرة رسولٍ، وقلب ملكٍ، لا يعرفهم إلا مثلهم، وهم لا يعرفون إلا الله حقيقةً، قال تعالى: ﴿أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم سواي﴾ (١).

روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى في الأرض ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم ﷺ، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى ﷺ، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم ﷺ، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل ﷺ، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكايل ﷺ، وله واحد قلبه على قلب إسرائيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه

من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة بهم يحيي ويميت، قال: لأنهم يسألون إكثار الأمة، فيكثر، ويدعون على الجابرة، فيقصمون، ويستسقون فيستقون، ويسألون فينبت لهم الأرض، ويسألون فيدفع عنه أنواع البلاء»^(١).

قال أبو بكر الوراق: لم يزل في الأمم أخيار وبدلاء وأوتاد على المراتب، كما قال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، وهم الذين كانوا مرجوعين إليهم عند الضرورات والفاقات والمصائب.

كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في هذه الأمة أربعون على خلق إبراهيم عليه السلام، وسبعة على خلق موسى عليه السلام، وثلاثة على خلق عيسى عليه السلام، وواحد على خلق محمد عليه السلام، فهم على مراتبهم سادات الخلق»^(٢).

قال أبو عثمان المغربي: البدلاء أربعون، والأمناء سبعة، والخلفاء من الأئمة ثلاثة، والواحد هو القطب، والقطب عارف بهم جميعاً ومشرف عليهم، ولا يعرفه أحد ولا يشرف عليه، وهو إمام الأولياء، والثلاثة هم الخلفاء من الأئمة، يعرفون السبعة، ويعرفون الأربعين، ولا يعرفهم أولئك السبعة، والسبعة الذين هم الأمناء يعرفون الأربعين الذين هم البدلاء، ولا يعرفهم البدلاء، والأربعون يعرفون سائر الأولياء من الأئمة، ولا يعرفهم من الأولياء أحد، فإذا نقص من الأربعين واحدٌ أبدل الله مكانه واحداً من أولياء الأمة، وإذا نقص من السبعة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من الأربعين، وإذا نقص من الثلاثة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من السبعة، فإذا مضى القطب الذي هو واحدٌ في العدد وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحدًا من الثلاثة، هكذا إلى أن يأذن الله لقيام الساعة.

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٢) ﴿يَتَأْهِلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١).

(٢) لم أقف عليه.

عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ إذا أراد الله طرد الغافلين عنه هيج نفوسهم إلى مباشرة أحكام القهر الذي يوجب لهم البعد، فبعد ذلك تقع مخالفة الأمر ونقض العهد الذي هو أصل الإيمان.

قال يوسف بن الحسين: ترك حفظ العهود الصحيحة ونقض المواثيق يوجب اللعن، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾. قيل: نقض العهد مع الحق السكون إلى سواه.

وقال الأستاذ: جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(١) أراد نور المعرفة بلا واسطة ولا تصنع.

وأيضاً: نوره الذي يتجلى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعاً، وجاء الكتاب تفرقة ظاهرة في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأزل ظهر لجذب السالكين إلى الله.

قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس.

قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ذكر واحداً منهما من النور والكتاب؛ لأنهما في عين الجمع واحد، أعني معدن الصفات.

والإشارة بقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يهدي بصفته إلى طرق معرفة ذاته، ويهدي

(١) أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عن فقد البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحن عن سره شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثل [تفسير القشيري (٢/٩٨)].

بذاته إلى سبل معرفة صفاته ورضوانه ما رضي للأنبياء والأولياء في الأزل من إصابة أبصارهم إلى محل الرضوان الأكبر، وهو غاية رعاية حسن تجليه بنعت العيش في مراده، ولا تحصل المتابعة إلا لمن سبق في الأزل رضاه له.

وأيضًا: يهدي بالقرآن مَنْ اتبع محمد ﷺ إلى سبل السلامة التي توصل المؤمن بالتوحيد إلى كشف جماله وحسن وصاله بالعواقي.

قيل فيه: يهدي الله لأسلم المسالك في سبيل إرادته مَنْ خَصَّه برضوانه.

قيل: إيجاده ليوصله الرضوان إلى محل الرضا والتسليم.

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: مَنْ أوصله إلى سبيل الهدى يطهر أسرارَه عن خطوات الشك والريب والاعتراضات النفسانية والخطوات الشيطانية، فإذا كان مقدسًا من هذه الشوائب يكشف له أنوار الأزليات والأبديات، وليس كل مَنْ وصل إلى هذه المراتب وصل إلى محل الاستقامة في المعرفة والتوحيد، فيختصُّ به من يشاء مَنْ سبق له عناية الأزل بوصله إلى محل التمكين الذي لا تجري فيه بعد ذلك أحكام التردد والامتحانات الظاهرة.

قال ابن عطاء: يهدي لنوره مَنْ رضي عنه في الأزل، وخصَّ بكرامات الولاية، وخرجه من ظلمات الاعتراض إلى نور الرضا والتسليم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۖ﴾ وسمع كفره اليهود والنصارى ذكر سباق الحقيقة أنهم وصلوا إلى ساحات الكبرياء بكشف مشاهدة البقاء، وسكروا بوجه القدم، وصاروا بنعت الانبساط في مجالس الأنس، فمن سُكِّر المحبة ادَّعوا القربة، ومن سُكِّر الأنس وحلاوة الانبساط ادَّعوا نبوة الأسرار من الأنوار؛ حيث ظهرت أنوار صفات الأزل، وسقطت من زندها أنوار أسرار الأرواح، كما قال الواسطي: أنا أمن الأزل والأبد، وغلطوا في الطريق، ولم يعرفوا حقائق قول المتقدمين من جهالتهم بمقامات الأولياء والصديقين، فردَّ الله دعواهم إلى أعناقهم المنكسرة حين ألزم الحجة عليهم

بلسان نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، أنبأنا الله سبحانه أن مَنْ بلغ نبوة سبيل الأزل بنعت المعرفة والمحبة خرج من محل الامتحان حيث الأشباح.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ أي: أنتم أيها المدَّعون الكاذبون ليس كما تزعمون ما بلغتكم تلك المنازل، بل بقيتم في مقام البشرية والنفوسية، وهذا مقام مَنْ تقدَّس، وتقدَّس الله ممَّا سوى الله.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يوصل إلى تلك المواقف المقدسة من أهل الولاية من أمة محمد ﷺ مَنْ يشاء، ولا يبالي بتقصيره، ولا يشم رائحتها مَنْ يشاء من الأعداء، لا يبالي بطاعته، فإن طاعته على غير موافقة السنة.

قيل: يغفر لمن يشاء فضلاً، ويعذب مَنْ يشاء عدلاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ يَنْقُومِ ادْكُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْكُلُوا عَلَيْهِمُ الْآبَاءَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴿٦٣﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ ^(١) أي: ملوكًا بالولاية والكرامات، ومعرفة الصفات، والتنور بأنوار كشوف الذات.

وأيضًا: جعلكم ملوكًا بسلطنة الوجد، قوة الحال، وعزة علم المعرفة.

وأيضًا: أي: جعلكم ربانيين مالكين أنفسكم بمنعها عن غير طاعتي.

وأيضًا: أي: ملتبسين بأنوار أناثيتي.

وأيضًا: معافين من ضرر الامتحان، محررين من رُقِّ الحدثان.

(١) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكرر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والملك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهما يقتل عيسى، فتزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سباهم ملوكًا [البحر المديد (٤٩/٢)].

قال القرشي: ملككم سياسة أنفسكم.

قال سهل: مالكين لأنفسكن، ولا يملككم نفوسكم.

قال الحسين: أي أحراراً من رق الكون وما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنُكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: كشف مشاهدتي

وحلاوة مخاطبتي سنا آياتي ومعجزاتي، وما يظهر لكم من وجه موسى ﷺ من نور تجلياتي.

قال ابن عطاء: قلوباً سليمة من الغل والغش.

وقيل: سياسة النبوة، وآداب الملك.

قوله تعالى: ﴿يَنْقُومِ آذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ادخلوا

بنعت المعرفة والنظر الفائق مساكن القلوب؛ لتجدوا منها أنوار الغيب.

وأيضاً: اطلبوا في مواقف المقدسة رجال المعرفة؛ لتصلوا ببركة أنفاسهم قدس جلالي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَتَعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ يخافون من الله

فراقه، وتذوبون بي جلاله وعظمته وميثاقه ﴿الَّذِينَ أَتَعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بألا يخافا غير الله،

ويتوكلا على الله، وزيادة النعمة عليهما أن الله تعالى عصمهما من جريان الخواطر المذمومة على

قلوبهما، وأنه تعالى أدخلهما في باب عظمته وأنوار هيئته.

قال سهل: أنعم الله عليهما بالعصمة والمراقبة.

قال الأستاذ: أنعم الله عليهما بأنوار العرفان، فلم يحششا من المخلوقين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) أي: كونوا على رجائي في وقت

إياسكم، وثقوا بمحبتتي لكم، ولا تفزعوا من امتحاني إياكم؛ لأني لا أقطع حبل الوصال

عنكم، ولا أنزع ثياب عصمتي عنكم، أي: إن كنتم عارفين بي تصدقون قولي توكَّلوا عليَّ عند

مباشرة قهري إياكم، فأنا اللطيف بأوليائي الرحيم بأصفيائي.

(١) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان،

كذلك من لم يتوكل عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاة

الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءً فالصلاة ناهيةً على

معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصر ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة

الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال:

الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النفس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الخطوط، ويقال:

الفحشاء الأعمال، والمنكر حسابُ النجاة بها، وقيل: ملاحظته الأعواض عليها، والسرور والفرح

بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العوض عليها [تفسير القشيري (٦/١٠٣)].

قال شقيق: التوكل طمأنينة القلب بموعد الله.

قال سهل: التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية.

قال الواسطي: مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَعَلَّهٗ غَيْرَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُتَوَكِّلٍ عَلَى اللَّهِ، جعله سبباً إلى مقصوده، وفي ذلك قلة المعرفة بربه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(١)
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ مَنْ بلغ عين التمكين ملك نفسه، وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله ومعها من الله سلطاناً سائساً قاهرًا، مَنْ نظر إليه يفرع من الله، لا يطبق عصيانه ظاهراً وباطناً، فأخبر عليه السلام عن محل تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينها اتحاداً، بحيث أنه إذا حكم على نفسه صارت نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال، قال عليه السلام: «المؤمنون كنفس واحدة»^(١)، ويمكن أنه عليه السلام كان مخبراً عن مقام القدرة التي اتصف بها من الله سبحانه، وفيه بيان لطف استعداد هارون عليه السلام بقبول تلك القدرة الإلهية.

قال سهل في قوله: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾: أي: في مخالفة هواها.

قيل: في بذلها لله واستعمالها في طاعته.

قال الأستاذ: لما ادَّعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه؛ حيث أخذ برأس أخيه يحجره إليه، تقدَّس شأن موسى عليه السلام من كل خاطر، إشارته إلى أنه لا يعرفه مكان عجزه من النفع والضرر في ذرة؛ لأنه عرف أن سلطان قهر الله غالبٌ على كل شيء، وأن الحدث له قدرٌ في الربوبية عند ساحة الكبرياء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ مَنْ لم يسبق له في الأزل عناية الله صار إحسانه إساءة، وطاعته تؤول إلى المعصية. كما قيل: مَنْ لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوبٌ، قَرَّبَ هابيل بقریان نفسه لله، وقَرَّبَ قابيل لحظ نفسه بغياً وحسداً على أمرٍ كان مشرفاً بتأييد الله، فلا جرم حاله كان يؤول إلى

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

الظلم الأكبر بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

قال ممشاد الدينوري: كانت معصية آدم عليه السلام من الحرص، ومعصية إبليس من الكبر، ومعصية ابن آدم من الحسد، والحرص يوجب الحرمان، والكبر يوجب الإهانة، والحسد يوجب الخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ عرفه مكان سبق العناية وسبق الخذلان، أي: إنما يتقبل الله القربان ممن اتقى الله في الأزل مما سواه، أي: إنما يتقبل الله من الذين يخافون عظمتهم بعد إخلاصهم في طاعته، هل يقبل أم لا، والمتقي هو المتجرد في التوحيد بالموحد من غير الموحد.

قال سهل: التقوى والإخلاص محل القبول لأعمال الجوارح.

وقال ابن عطاء: المخلصين فيما يقولون ويعلمون.

قال السلامي: القرايين مختلفة، وأقرب القرايين ما وعد الله تعالى بقبوله، ووعد الصدق، وهو الذكر في السجود؛ لأنه محل القرية، قال الله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: التقوى في الأحوال، والأحوال في الأفعال كالروح في الأبدان، والأفعال إذا فارقتها الأحوال فهي جيفة ميتة، والتقوى على أربعة أوجه: من الرياء والعجب ورؤية النفس، وأن يخطر بعبده غير الله تعالى.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلْتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٢١).

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ إن الله سبحانه أسبل ستر الغيرة على وجه القدم حتى لا ينظر إلى أنوار عظمتهم من لم يكن أهله، وكشف ذلك الستر لأبصار العارفين؛ لينظروا إلى عظيم جلاله، ويكونوا في رعايته من حيث أن عظمتهم تعالى محيطة على أسرارهم بنعت مباشرة نورها، فالطائفة الأولى بقوا في أسر عصيانه، والأخرى بقوا في نور سلطانه، فهتد قابيل أخاه بالقتل، وأجابه هابيل بسطوة التوحيد وخوفه من جلال الحق؛ حيث قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ومن شعار أهل الخوف ألا يقاتل أحداً

لإسقاطهم الوسيلة بينهم وبين رؤية القدر السابق.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه: إن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة في شرٍّ وباشرته فكأنها باشرت جميع عصيان الله؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت؛ لأنها أمارة بالسوء، ومن السوء خلقت، فالجزاء يتعلق بالنية، وكذلك إذا وقعت النية من قلب القلب الروحاني في خيرٍ وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات، لأنه لو قدر الفعل، قال الرحمن: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ»^(١).

وفيه إشارة أخرى: إن الله سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجمعة بعضها من بعض، وفرقها مختلفاً، وتعلق بعضها ببعض من جهة الاستعداد والخلقة، فمن قتل واحداً منها أثر قتلها في جميع النفوس عالمة به أو جاهلة، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده ووصف جماله وجلاله حتى تحب خالقها وتحب بمعرفته وجمال مشاهدته، فأثرت حياتها وبركتها في جميع النفوس، فكأنها أحيا جميع النفوس، وفي الآية تهديد الله لأئمة الضلالة ووعدٌ وشرفٌ وثناءٌ حسن لأئمة الهدى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخُرُجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٣).

اللَّهُ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اتقوا الله في النظر إلى غيره، وابتغوا إليه الوسيلة بنعت التقوى، ولا يكون عندكم الوسيلة إليه شيئاً دونه؛ لأنه هو الوسيلة إليه.

ألا ترى إلى قول الشاعر:

أيا جود معنٍ ناج معنى بحاجتي فليس إلى معنٍ سواه شفيعُ

وسيلته محبته ومعرفته والاستعانة به عنه.

قال جعفر عليه السلام: اطلبوا منه القرية.

قال الواسطي: لو كشف لهم ما عاملهم به لفسدت أوقاتهم، وأوقاته من يفندي بهم. وقال: ما يتوسل به إليكم؛ لقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال الأستاذ: ابتغاء الوسيلة التبرؤ عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمنّة. ويقال: ابتغاء الوسيلة التقرب إليه بها سبق إليك من إحسانه.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَقْوَاهِمَ وَلَمْ تَأْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَسَنِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٢﴾ وَكَيْفَ تُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ قطع حبال أطماع الخليفة عن إضافة القدرة القديمة إليهم؛ حيث أراد الفتنة بالمفتن، وفتنته بأن يشغل الطالب بنفسه، ويوقعه في يد نفسه، ويغريها إلى الشهوات المحبة القاطعة طريق الحق، ويغرس أشجار الهوى في قلبه، ويسقيها من مياه الغفلة حتى حيزت حومان القلب بظلمة الشهوات،

بحيث لا يدخل فيه نور البرهان والعرفان.

ثم زاد في وصفهم، وعلّق الجميع بإرادته، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾.

قال الخواص في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾: مَنْ يرد الله افتراق أوقاته لم يملك جمعها له.

وقال ابن عطاء: مَنْ يحجبه الله عن فوائد أوقاته لن يقدر أحدٌ إيصاله إليه.

قال أبو عثمان: أي بالمراقبة والمراعاة.

وقال أبو بكر الوراق: طهارة القلب في شيئين: في إخراج الحسد والغش منه، وحسن الظنّ بجماعة المسلمين.

قوله تعالى: ﴿سَمِعُورَ لِكَذِبٍ أَكَلُونَ لِلْسَّحْتِ﴾ وصف الله سبحانه أهل السالوس الذين في هذا الزمان يجلسون في الزوايا، ويظهرون التزهد والتقشف، ويطرحون على أعناقهم الطيالة، يسمعون مديح أهل الدنيا لهم، مثلما قالوا: ليس في الدنيا مثلك يا شيخ، وأنت كذا وكذا، وهو يشتري غرورهم وأقاويلهم الباطلة، وهم يمدحونه لأهل الشفاعة عند الأتراك، ويجعلونه وسيلة إلى السلطان، ويعطونه رشوة؛ لاستجلاب مرادهم، فهو يسمع الكذب، ويأكل السحت، طهر الله وجه الأرض منهم، ووقانا من صحبتهم وسوء أفعالهم، فإنهم مرقوا من الدين، وأكلوا الدنيا بالدين.

قال بعضهم: سمّاعون الدعوى الباطلة، أكالون للسهة يعني أكالون بدينهم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ نَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَخْشَوْا بَيَاضَ ثِيَابٍ بَلْ عَلَيْكُمْ بِحُكْمِكُمْ كَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ ۖ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠١﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾^(١) الرباني الذي تُسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب والاستقامة في شهوده جلاله وجماله صار متصفًا بصفات الله، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فني عن نفسه بقى بربه صار ربانيًا، مثله مثل الحديد في النار؛ فإذا لم يكن في النار كان مستعدًا لقبول النار ولم تكن نارًا، فإذا وصل إلى النار واحمرَّ صار نارًا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورًا بتجلي الرب صار ربانيًا روحانيًا نورانيًا ملكوتيًا جبروتيًا، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، فالربانيون عشاق الله وأحبّاءه، الحاضرون من بين يديه، المكاشفون وجه الله سبحانه، والأحبار الذين يسمعون كلام الله من الله بواسطة المفقون بين الحق والباطل بنور الله.

قيل: الربانيون الراجعون إلى الرب في جميع أحوالهم، والأحبار العلماء بالله وبآياته.

وقيل: الربانيون العلماء بالله، والأحبار العلماء بأحكام الله.

وقال ابن طاهر: الربانيون هم الصحابة الذين أخذوا كلام الرب عن السفير الأعلى، والواسطة الأدنى، والأحبار علماء الأمة العاملون بعلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ العارف مخاطب من الله في جميع أنفاسه وحركاته، يتنزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحدثه كقوله ﷺ: «إن في أمي محدثين ومكلمين، وإن عمر منهم»^(٢)، فإذا لم يحكم بنفسه بما أنزل الله على قلبه بأن يخرجها من الشك إلى اليقين، ومن الظلمة إلى النور، ومن المخالفة إلى المتابعة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن العصيان إلى الطاعة، يكون موصوفًا بأواخر هذه الآيات الثلاثة، كفر أنعام الله الذي هو مقام الخطاب، وظلم بأنه لم يضع علمه على علمه، وفسق عن مراد الله إلى مراد نفسه.

قال بعضهم: مَنْ لم يحكم للناس بحكمه على نفسه قد كفر نعم الله عنده، وجحد سني مواهبه لديه؛ فظلم نفسه بذلك.

(١) الرباني من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الرباني الذي ارتقى عن الحدود، والرباني مَنْ تَوَقَّى الآفات ثم تَرَقَّى إلى الساحات، ثم تَلَقَّى ما كُوْشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبِّه وِبِرِّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاء يَنْهَوْنَ الخَلْقَ بِمِمارسة أحوالهم أكثر مما يَنْهَوْنَهُمْ بِأَقْوَالِهِمْ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤْمِنُونَ إليه، وتحقق ما علقوا همهم به [تفسير القشيري (٢/ ١٤٤)].

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٧٤).

وقيل: مَنْ لَمْ يَحْكَمْ خَوَاطِرَ الْحَقِّ عَلَى قَلْبِهِ كَانَ مُحْجُوبًا مِنَ الْمُبْعِدِينَ.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٧﴾﴾
يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ إن الله تعالى جعل في بحار القدم والبقاء السواقى لورود الأرواح القدسية، ومشارب للقلوب العارفة به، وسواقى العقول الصادرة من نوره، ولكل واحد منها شريعة من تلك البحار، فلبعض شريعة العلم، ولبعض شريعة القدرة، ولبعض شريعة الصمدية، ولبعض شريعة الحكمة، ولبعض شريعة الكلام والخطاب، ولبعض شريعة المحبة والمعرفة، ولبعض شريعة العظمة والكبرياء، ثم جعل لها منهاجاً من الصفات إلى الذات، ومن الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الصفات، ومن الذات إلى الذات، ومن الأسماء إلى النعوت، ومن النعوت إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ليعرفه كل واحد بقدر ذوقه وشربه وطريقه، وجعل بينهم تباعداً وتقارباً، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]؛ فَمَنْ وافق شربه شرب صاحبه لم يقع بينهما الخلاف في الشريعة والمنهاج، وَمَنْ لم يكن شربه موافقاً لشرب صاحبه لم يعرف أحدهما مكان الآخر ويكون بينهما نزاعٌ، وذلك من غيرة الله عليهم، وعلى نفسه؛ لثلا يركن بعضهم بعضاً، ولا يطلع عليه سواه.

ألا ترى كيف وصف مزاج الأبرار من مزاج المقربين، وفرّق بينهم بالمشارب

والسواقي، وكيف خصَّ بعضًا بالرحيق المختوم بقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (١) خَتْمُهُ مِسْكٌ [المطففين: ٢٥، ٢٦]، وذلك رحمةً منه على الجمهور، ولتفاوت فوائد استنباط علوم الغيبية من مراد الله، قال عليه السلام: «اختلاف العلماء رحمة» (٢)، ولاختيارهم في طريقهم بحقائق العبودية وعرفان الربوبية، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني شيوخًا وأكابر بغير المريدين والسالكين، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من المقامات الشريفة والأحوال السنية، كيف تخرجون من دعوكم بحقيقة عبوديته؟ وتخرجون جواهر العلوم من كتابي وحكمتي.

ثم خاطبهم جميعًا بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ عرّفهم مكان تقصيرهم، أي: ما أدركتم مني في جنب ما عندي لكم كقطرة في بحر، سارعوا إلى خيرات مشاهدي، وجميل عطاياتي.

ثم أفردهم ممّا وجدوا إلى عين جلاله بقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه مرجع افتقاركم من مقاماتكم إليه، لزيادة القربة والمعرفة، وهناك يظهر تفاضل درجاتكم، وما غاب عنكم من حقائق أسراري، ونوادير لطائفي، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَيَنْتَعِمُ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قال بعضهم في قول: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلُّ قد فتح له طريق إلى الله، فمن استقام على الطريقة وصل إلى الله، ومن زاغ وقع في سبيل الشيطان، وضلّ عن سواء السبيل.

وقال أبو يزيد البسطامي: الطريق إلى الله بعدد الخلق، ولكن السعيد من هدي إلى طريق من تلك الطرق.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ولو شاء الله لسوّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاء، وفضل بعضكم على بعض امتحانًا.

وقال في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾: مسارعة كل واحد على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون بهمهمهم من حيث المواجيد.

ويقال: استباق الزاهدين برفع الدنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي المنى، واستباق الموحدين بترك الوري، ولسان الدنيا والعقبة.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٣٦).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إن الله تعالى وبَّخَ المفلسين من أهل الردة بأن ليس لهم في محبة الله نصيب بارتدادهم عن الإسلام، وأخبر أنه يجيء بقوم إن الله تعالى قد أحبهم في الأزل وهم بمحبته يحبونه، وهم يوافقون النبي - صلى الله عليه وآله وأصحابه - بشرط المحبة؛ لأن من شرط المحبة الموافقة والطاعة، وبَيَّنَّ أن مَنْ لم يكن مطيعاً لم يكن محباً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وفي الآية ذكر شرف الصحابة والتابعين من بعدهم، وبَيَّنَّ تعالى أن المحبة من خواص صفته الأزلية؛ لأنه كان بذاته يحب أحبائه، وكان ذاته موصوفاً بالمحبة الأزلية، وكما أنه تعالى يحب الأولياء بذاته وصفاته فهم يحبون الله بذاتهم وصفاتهم من جميع الوجوه؛ لأن مصدر المحبة القدم، وليس هناك فعلٌ، ومحبة العباد مصدرها قلوبهم، وليس هناك فعلٌ، وأصل المحبة وقع بغير العلة من الآلاء والنعماء والأفعال والحركات؛ كأن سبحانه أحبهم بعلمه في الأزل قبل إيجادهم باصطفائية، فكانه قد أحب نفسه، لأن كونهم لم يكن إلا بكون وجوده، ووجوده سبب وجودهم، وهو تعالى أحب فعله ومرجع الفعل صفته، فكانه أحب صفته، ومرجع صفته ذاته، فكانه أحب ذاته، لم يكن الغير في البين، فكان هو المُحِبُّ وهو المحبوب وصفته المحبة، وهم يحبونه بتجلي الصفة في قلوبهم، وهو مباشرة نور محبته في قلوبهم، فلمَّا تكملت أرواحهم بنور محبته فطاب مصدر أصل الصفة، فوجدت مشاهدة الأزل عياناً بلا حجاب، فأحبتها بالمحبة الأصلية التي لا تتحول من مصرف الأصل أبداً، فإذا كان كذلك فالمُحِبُّ والمحبوب والمحبة في عين الجمع واحدٌ، وهذه إشارةٌ قوله سبحانه بلسان نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث أخبر عن المُحِبِّ المتحد المتصف بصفاته، قال في أثناء الحديث: «فإذا أحبيته كنْتُ له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً»^(١).

وفي هذا المعنى أنشد الحسين بن منصور فقال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنًا
فإذا أبصرني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

قال الواسطي في هذه الآية: كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته؛ لأن الهاء راجعةٌ إلى

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩).

الذات دون النعوت والصفات.

قال السلامي: بفضل حبه لهم أحبوه، كذلك ذكرهم بفضل ذكره لهم ذكروه.
وقال: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن فيه حقيقة.
وقال يوسف بن الحسين: المحبة الإيثار.

وأنشد في معناه الحسين بن أحمد الرازي، قال: أنشد أبو علي الروذباري لنفسه:
سامرت صفو صبابتي أشجانها حرق الهوى وغليلة نيرانها
وسألت عن فرط الصبابة قيل لي إيثار حبك قلت خذ بعنانها
كلُّ له وبه ومنه، فأين لي وصف؟ فأؤثره فطاح لسانها
قيل: المحبة ارتياح الذات بمشاهدة الذات.

وقيل: المحبة هي أن تصير ذات المحب صفة المحبوب.

قال الواسطي: بطل حبهم بذكر حبه لهم بقوله: ﴿حُبُّهُمْ وَحُبُّوهُمْ﴾، وأن تقع صفات المعلولة من الصفات الأزلي الأبدي، وقد وقعت إلى إشارة: أن محبة الله وقعت في الأزل، ولم يكن هناك وجود الأحباء؛ لأنه تعالى لم يكن محتاجاً إلى رؤيتهم محبته إياهم، ولكن لم تكن محبة الأحباء له إلا بعد أن رأوا مشاهدتهم، فثبتت المشاهدة قبل المحبة، وثبتت المحبة بعد المشاهدة، والمحبة بعد المشاهدة من قبل المحبين لم تكن محبة حقيقية، لأن محبة الآلاء والنعماء وقعت معلولة، ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة؛ لأن من رأى عشقه فكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه وجماله!

ثم زاد الله في وصفهم بذكره تواضعهم لأحبابه وغلبتهم على أعدائه بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وذكر بذل وجودهم في طريق محبته، بنعت جهدهم أعدائه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم في الله إلى ملامة اللائمين بقوله تعالى: ﴿مُجْتَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، وعلّق جميل أوصافهم بفضلهم وسعة رحمته، كما أنه علّق محبتهم بمحبته بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال أبو بكر الوراق: الجهاد ثلاثة: جهاد مع نفسك، وجهاد مع عدوك، وجهاد مع قلبك، والجهاد في سبيل الله هو مجاهدة القلب بالألا تتمكن منه الغفلة بحال، وجهاد النفس ألا تفر عن الطاعة بحال، وجهاد الشيطان ألا يجد منك فرصة فيأخذ بحظه منك.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: يُحِبُّكُمْ الله بصدق العناية، ومحبة الرسول تأديبهم بالشرعية، ومحبة المؤمنين الإيثار للنفس والمال إليهم بالأخوة.
قال سهل: أما ولاية الله فهو الاختيار لمن استولاه، وولاية الرسول ﷺ إعلام الله ورسوله أنه ولي، فيجب على الرسول أن يوالي مَنْ وإلى الله.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مِّنْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: مَنْ وقعت له تولية الله بمحبته ورؤية مشاهدته ووقعت التولية من رسول الله بموافقة لطاعة الله، وتوليه المؤمنين من جهة استعداد الفطرة ورؤية أنوار الغيب في وجوههم، فإنه محبوب الله، ومحبوب رسوله، ومحبوب المؤمنين، ويكون طالبًا على نفسه وشيطانه بالنصرة الإلهية.

قال القاسم: موالاة الله مشتقة من موالاة رسول الله، وموالاة رسول الله مشتقة من موالاة السادة والأكابر من عباده، وهم المؤمنون، وَمَنْ لَمْ يُعَظِّمِ الْكِبَرَاءَ السَّادَةَ لَا يَبْلُغْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَقَامِ الْمَوَالَاةِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

قال ﷺ: «مَنْ تَعْظِيمَ جَلَالِ اللَّهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبِ الْمُسْلِمِ»^(١).

قال في قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ قال: لأهوائهم وإرادتهم ومقاصدهم.
وقال بعضهم: حزب الله أهل خاصته القائمين معه على شرائط الاستقامة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَأَيَّمُ لِكِتَابِ اللَّهِ تَنْقِيْمُونَ مِمَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَسِيقُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٩/٦).

لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ
وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ مناداة الحق لا يسمعها
إلا أهل الحق، مَنْ سمع نداء الأزل وأجاب بالتلبية بنعت المحبة يُسمع نداءه بالواسطة بشرط
إصغاء سمعه الخاص في السماع إلى قول الغيب، وَمَنْ لم تكن روحه مستروحة بمروحة
الصفاء لم يكن سره مُنَوَّرًا بنور البقاء، ولم يكن قلبه مشتاقًا إلى جمال مشاهدة الله بنعت الحرق
والهجان، ولم يكن من أهل السماع، ولم يُجِب داعي الغيب.

قال الأستاذ في هذه الآية: الأذان دعاء إلى محل النجوى، فمَنْ تحقق بعلو المحل فسمع
الأذان يوجب له روح القلب واسترواح الروح، وَمَنْ كان محجوبًا عن حقيقة الحال لاحظ
ذلك بعين اللعب، وأدركوا بسمع الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ
لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار
العلماء بالله، وبعذاب الله لَمَنْ عصاه، وبثواب الله لَمَنْ أطاعه؛ لثلا يسكنوا عن زجر المبطلين
والمغالطين المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، ويَبَيِّن تعالى أن مَنْ داهن في دينه عَذِّبه وإن
كان ربانيًا.

قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ رجلٍ مجاورٍ قومًا يعملُ بالمعاصي بين ظهرانيهم، فلا
يأخذون على يديه إلا أوشك الله أن يعمَّهُم منه بعقابٍ»^(١).

قال الواسطي: الربانيون العارفون بمقادير الخلق من جهة الحق، والأحبار الأمرون
بالمعروف، والناهون عن المنكر.

قال أبو عثمان: الربانيون هم أهل حقيقة الحق، وهم أهل المحبة لله بالصدق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ
يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ
فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآذَخْنَاهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أشار الله سبحانه عن التمثيل والتصوير إلى يد القدم ويد البقاء، يد القدم اصطفاية الأولياء والصديقين بمعرفته ومحبه، وذلك كقضاء الإرادة القديمة من القدرة القائمة بالذات إيجاد الصفوة، فتجلت القدرة بالمشيئة الأزلية للعدم، فظهرت من العدم بنور القدم أرواح أهل الولاية، فقبضتها القدرة، وأنفقت عليها أنوار المشاهدة، وربتها برزق القدرة والوصلة حتى أدخلتها الأشباح وأوصلتها إلى يد البقاء، قربتها يد البقاء بقربات الأبدية، ومدانة السرمدية، ففي كل لحظة يتجلى لها القدم ألف مرة بتجلي البقاء لهم في كل لحظة ألف مرة بغير نعت الفترة والانقطاع؛ لأنه تعالى لا نهاية لجلال قدمه وجمال بقاءه.

وأيضاً: يد لطفه مبسوطة بالرحمة الواسعة الأزلية لأهل العناية والسعادة، ويد قهره مبسوطة بالعذاب لأهل الشقاوة ترفع قومًا بميزان اللطف، وتضع آخر من ميزان القهر. قال عليه السلام: «يُدُّ اللهُ مِلْأَى، تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق مذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يديه، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يخفض ويرفع»^(١).

قال الأستاذ: بل قدرته بالغة، ومشيئته نافذة، ونعمته سابغة، وإرادته ماضية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أشار سبحانه إلى أن لو استقاموا في عملهم بكتاب الله ولم يترسموا برسم أهل الخطوظ لكوشفت لهم أنوار الملكوت في قيامهم لقوة قلوبهم وقوة أبدانهم، وكوشفت لهم أنوار الجبروت في سجودهم لقوة أرواحهم وقوة عقولهم، وبين أن فيهم أمة مستعدة لقبول هذه الأحوال، ومع ذلك أخرج الله سبحانه قومًا من مقام التوكل؛ حيث شرط معهم العمل بالكتاب كما شرط على أهل التقوى بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ولو كانوا على محل التحقيق في المعرفة لأكلوا رزق الله بالله من خوان غيبه، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض، وهم على ذلك بإسقاط رؤية الوسائط.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ

وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ إن الله سبحانه وتعالى خَوَّفَ نبيه ﷺ من نفسه حتى لا يبقى فيه غير الله، ويُسْقِطُ عَنْ عَيْنِهِ الْخَلْقَ، وَلَا يَفْزَعُ مِنْهُمْ فِي وَصْفِ عَلَيْهِمْ وَمِدَاوَةِ مَعَايِبِهِمْ، وَحُثَّهُ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَاهُ مَا لَمْ يَبِينْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، وَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَهُ بِإِبْلَاجِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ الْعِبُودِيَّةِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِأَنَّهُ يَعْرِفَهُمْ أَسْرَارَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّ ذُرَّةً مِنْ أَسْرَارِهَا لَمْ تَحْتَمِلْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ، وَلَا الْخَدَثَانُ بِأَسْرَارِهَا؛ لِأَنَّهَا وَصْفٌ خَاصِيَّةُ الصِّفَاتِ وَكُشُوفُ أَنْوَارِ الذَّاتِ، وَمَحَلُّ الْأَنْسِ وَالْجَمَالِ بِنَعْتِ الْإِنْبِسَاطِ وَالْإِتِّصَافِ وَالْإِتِّحَادِ، وَدَعْوَى الْإِنَائِيَّةِ وَالْأَزَلِيَّةِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ، وَذَلِكَ مَا أَهْبَمَ اللَّهَ عَلَى قُلُوبِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى، مِنَ السَّرِّ مَا بَيْنَهُ وَمَا بَيْنَ قَلْبِ نَبِيِّهِ فِي مَحَلِّ الدُّنُوِّ، وَدُنُوِّ الدُّنُوِّ، لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿[النجم: ٨-١١]﴾، لَا يَطِيقُ أَهْلُ الْكُونِ أَنْ يَحْتَمِلَ ذُرَّةً مِنْ ذَلِكَ الْوَحْيِ، وَكَيْفَ يَحْتَمِلُ الْخَدَثَانُ كُشْفَ قَدَمِ الرَّحْمَنِ، كَانَ ﷺ حَمَلَهُ بِهِ لَا بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْخَدَثَ مِتْلَاشٍ فِي الْأَزَلِ، وَيَبْقَى أَنَّهُ فِي عَصِمَتِهِ مِنْ كَيْدِ نَفُوسِهِمْ وَشُرِّ مَعَاصِيهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: يَعَصِمُكَ مِنْ أَنْ يَوْقِعَكَ أَحَدٌ فِي التَّمْوِيهِ وَالْغُلَطِ وَالْخِيَالِ فِي طَرِيقِكَ إِلَيَّ، وَهَذَا لِكَوْنِهِ مَخْتَارًا بِالرِّسَالَةِ، وَحَقَائِقِ الرِّسَالَةِ فِي الرُّسُولِ ظُهُورُ أَنْوَارِ الرِّبُوبِيَّةِ فِي قَلْبِهِ وَبَيَانُ أَحْكَامِ الْعِبُودِيَّةِ فِي سَرِّهِ.

قال الواسطي: حقائق الرسالة لو وُضِعَتْ عَلَى الْجِبَالِ لَذَابَتْ، إِلَّا أَنَّهُ يَظْهَرُ الْعَالَمَ عَلَى مَقَادِيرِ طَاقَتِهِمْ، أَلَا تَرَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ مَا تَعَرَّفْنَا بِهِ إِلَيْكَ.

قال بعضهم: معناه بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ، وَدَعُ مَا تَعَرَّفْنَا إِلَيْكَ، الْأَوَّلُ الشَّرِيعَةُ، وَالثَّانِي مَا أُنْزِلَ مِنَ الْأَنْوَارِ عَلَى سَرِّ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَطِيقُهَا بَشَرٌ.

قال بعضهم: بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْلُغْ مَا خَصَّصْنَاكَ بِهِ مِنْ مَحَلِّ الْكُشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَطِيقُونَ سِيَاحَ مَا أَطَقَتْ حَمَلَهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الذَّاتِ وَالتَّجَلِّيِّ بِالصِّفَاتِ.

قال بعضهم: الرُّسُولُ هُوَ الْمُبْتَدَى، وَالنَّبِيُّ هُوَ الْمُقْتَدَى، قَالَ اللَّهُ فِي صِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قيل في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) أي: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات، أو يكون لك بهم اشتغال.

قيل: يعصمك من أن ترى لنفسك فيهم شيئاً، بل ترى الكل منه وبه.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: أي: بين للكافة أنك سيد ولد آدم، وأن آدم من دون لوائك.

ويقال: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إني أغفر للعصاة ولا أبالي، وأرد المطيعين من شئت ولا أبالي.

ويقال في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: حتى لا يغرق في بحر التوهم بل تشاهدهم كما هم وجوداً بين طرفي العدم.

﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٥) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إن خطاب الله سبحانه ذو صفتين: صفة القهر، وصفة اللطف، فمن تجلّى القرآن بقلبه بصفة اللطف يزد نور بصارته بلطائف حكمته، وحقائق أسرارهِ، ودقائق بيانه، ويزيد بذلك نور إيمانه وتوحيده، ويعرف بذلك ظاهر الخطاب وباطنه، ومن يتجلّى لقلبه بصفة القهر يزد ظلمة طغيانه، وقلة عرفانه بحيث لا يدرك فهم الخطاب، ويزيد لحظة بعد لحظة ظلمة قلبه؛ لأن القرآن صفة الله وصفته لا نهاية لها، إما بروية اللطف أو بروية القهر، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قال الواسطي: هم الذين تولى الله إضلالهم وصرف قلوبهم عن درك دقائق الحكمة.

(١) أي: يحفظ ظاهره من أن يمسك أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدو، أو يصون سرّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هم؛ وجوداً بين طرفي العدم [تفسير القشيري (١٤٨/٢)].

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ بَصِيرٌ يَمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٧) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٨) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَهُمْ يَتُوبُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٩) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٠) قُلِ اتَّعَذَّبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) قُلِ يَتَاهُلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٨٢) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٨٣) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٨٤)

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ وصف الله قوماً بعميهم عن رؤية الحق، وإدراك فهم الخطاب بما على عيونهم من غشاوة الغيرة، وبما في آذانهم من قر الضلالة، فلم يعرفوا محض الاستدراج والامتحان في إمهال الله إياهم في ظلمة العصيان، وحسبوا أنهم يحسنون فيما بينهم وبين الله، ولم يعرفوا سقوطهم عن الدرجات إلى الدركات، ولما فتح الله باب الرحمة عليهم عرفوا تقصيرهم، ثم جاء إعلام القهر وسد باب العصمة والتوفيق عليهم فرجعوا إلى الضلالة وعمى الباطن؛ لأنهم ليسوا بأهل الله وخاصته، ولو أدركوه بشرط العناية لم يرجعوا عنه أبداً.

قال بعضهم: ظنوا ألا يفتنوا في آذانهم وأهوائهم؛ فعموا عن رؤية الحق، وصموا عن استماعه، إلا مَنْ أدركته رحمة الله وفضله فتاب عليه وفتح عينه لرشده.

قيل: ظنوا أنهم لن يقعوا في الفتنة، وهم طالبون الدنيا، معتمدين على الخلق، عميت أبصار قلوبهم، وصمّت آذان أسرارهم، إلا مَنْ يتداركه الله بكشف الغطاء، ويحله محل التائبين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ لما ظهرت آيات الله في عيسى عليه السلام وأمه برزت من الآيات أنوار الصفات؛ فوقع أكابر العشاق في مقام الالتباس، وخضعوا عند رؤية الربوبية في رؤية الصفات في الآيات، فغلط المقلدون بما رأوا عليهم شرائط العشق وبراہین عین الجمع، فكفروا بتفريقهم الألوهية في محل تفرقة الحدثنان، وذلك ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: عموا عن رؤية حقائق رؤية وحدانية الله التي هي منزّهة عن الاجتماع والافتراق والامتزاج بالناسوت، والحلول في الحدثنان عند ظهوره لأبصار العشاق والعارفين من لطائف الآيات وبراہین المعجزات.

تصديق ذلك قوله تعالى في نفي الأضداد والأشباه والأنداد والأوهام والجبال عن ساحة جلاله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

ثم وصف بعد وصف تنزيه المسيح ومريم بأنها موضع آياته، وبرهان صفاته، وصفهم بالعجز في الإنسانية والضعف في البشرية عن حمل امتحانه تعالى بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ أَتَى مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: هو من عالم الجلال أرسلته إلى عشاقى وعرفاني، وأول من صدقه أمه؛ لأنها شقائقه في مباشرة الآيات ورؤية الصفات، ثم أحوجها إلى علل الأبرار بوصفها بأنها كانا يأكلان الطعام، هذا كناية وعبرة عن الحدث بذلك أبرأ عنهما الألوهية، وكيف يليق بعزة القدم تغاير الحدثنان.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ﴿١١٦﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيْكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْسِينَ وَزُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ بين الله سبحانه ميلان الجنس إلى الجنس في الكفر والإيمان من تجانس الفطرة الأولية، وأظهر بغضه لموالاة الأعداء بعضهم بعضاً، ومحبه لموالاة الأولياء بعضهم بعضاً، وبين أن موالاة الكفار توجب سخط الله عليهم أبداً، وبقاءهم في عذابه أبداً، ولا تظن في رضاه وسخطه أنها صفتان متغايرتان من جهة تأثير

أفعال الحدث في القدم، فإنَّ صفات القدم منزَّهة عن أن تكون محلاً لنزول الحدثان فيها، فإنَّ رضاه سبق عنايته للمقبولين، وإنَّ غضبه إرادة وضوح وسم البعد على المطرودين.
قال الواسطي: ما أظهر من الوسم المكروه على خلقه، جعل ذلك مضافاً إلى غضبه وسخطه من غير أن يؤثر عليه شيء، ألا ترى إلى قول الحكيم كيف يؤثر عليه ما هو أجراه أم كيف يغضبه ما هو أبداه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرَهَبَانًا﴾ وقع اليهود في سخطه الأكبر؛ حيث اختاروا مَنْ يلههم العجل بالإلهية بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، ثم نزلوا من رتبة الحيوان إلى رتبة الجماد بقولهم لموسى ﷺ: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ومن علامة همتهم أشار إلى رتبة الإنسان بقولهم: ﴿عَزِيزٌ أَبْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلما قطع الله نسبة القدم عن الحدث اشتد غضبهم على أهل التوحيد وذلك قوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾، ووقع النصارى في سخطه الأصغر، حيث ارتفعوا بهمتهم في طلب الإلهية إلى عيسى ﷺ؛ لأنه مجمع آيات الله وقعوا في الخيال عند بروز الصفة عن الآية؛ لقلة إدراكهم الوحداية، لكن بسبب استعدادهم قبول ظهور الآية صاروا أقرب من اليهود إلى قبول الإسلام، والذي وصفهم الله هاهنا بقوله: ﴿قَسَّيْسِينَ وَرَهَبَانًا﴾ أنهم بقوا في النصرانية في طلب الحق، فلما لاح الحق لهم خرجوا مما دون الحق إلى الحق، وكانوا صديقين في تجريدهم في طريق الله؛ حيث وصفهم الله بالقسيسية والرهبانية، وإذا كانوا في طلب الله أدركهم الله بنور الإسلام والتوحيد، وما أبقاهم في الشكوك والآراء المختلفة.

ثم زاد في وصفهم بالخضوع والإذعان عند بروز البرهان تصديقاً وتعريفاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال بعضهم: جزيات الخدمة أثبت عليهم وإن كانوا على طريق المخالفة، لكنهم لما أظهروا لزوم الباب بدت عليهم آثارها في قبول الجزية وتحليل المناكحات والانتساب إلى التزهد والرهبانية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصف الله سبحانه أهل خالصة الإيمان بحسن الإصغاء عند سماع الذكر والخطاب؛ حيث شاهد عقولهم بشواهد الكتاب بنعت الانبساط، وشاهد قلوبهم حلاوة الخطاب، وشاهد أرواحهم مشاهد جمال الأنبياء، وشاهد أسرارهم أنوار الصفات بوصف إدراك لطائفها ورؤية نوادر عجائبها، فوردت سواقي بحار علومها، وشربت مفرحات عجائب مكنونها، ورأت غرائب تجلّي عرائس غيبها، وهاجت إلى طلب معادنها بنعوت شوقها إلى جمال المخاطب، فلما أدركته عرفته بالألوهية، وعلمته بالوحدانية، وعشقتة بما رأت من لطيف خطاب معهم وعرفان أسرارهم فيهم، فأنثرت ما أدركت في الأشباح حتى اضطربت وأدمعت عيونها بدمع الشوق، واحترقت قلوبها بنيران العشق في مجالس الذكر والسماع، فعرف الله صدق عرفانهم ومواجيد قلوبهم بالعلامة الصحيحة، وهي سيلان قطرات الدموع الأسحان بوصف الهيجان على حدود أهل العرفان بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: إذا وجدوا في سماع الخطاب ما فاتوا من لطائف حقائق أسرارهم وعرفوا حق قدر المُخَاطَبِ والمُخَاطَبِ استبشروا بالوجدان، وحزنوا من ضرر فقدان، وهيج فرحهم وحزنهم إلى الشوق والبكاء، وذلك البكاء من إصابة عيونهم قلوبهم إلى معارف الغيب ومصادفة أرواحهم شواهد القرب، ورُبَّ قَتِيلٍ قَتَلَهُ سَمَاعُ الْقُرْآنِ مِنْ غَمَرَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَغَشِيَانِ النُّورِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

رُوي عن جنيد قال: كنت قائماً أصلي فقرأت هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْوُتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فرددتها مراراً، فننادى منادٍ من ناحية البيت كم تردد هذه الآية، فلقد قتلت بها أربعة نفر من الجن لم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء حتى ماتوا من ترديدك هذه الآية. وكان الصديق عليه السلام عنه لا يتمالك بكاءه عند سماع القرآن.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى مؤمني أهل الإنجيل بزيادة التصديق بما ذكره في كتابه من قولهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: صدقناك بما عرفنا قدر رسولك وأصحابه؛ فإنهم شاهدون قريك ووصالك.

قال ابن عطاء في تفسير قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾: كادت جوارحهم وقلوبهم أن تنطق بقبول الوحي قبل سماعه في مشاهدة المصطفى ﷺ، ولما سمعوا منه لم يطيقوا حمله إلا ببكاء فرح، أو بكاء حسرة، أو بكاء دهشة، أو بكاء حرقة، أو بكاء معرفة، كما قال الله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾

مِنَ الْحَقِّ».

قال الأستاذ: إذا قرع سمعهم دعوة الحق بقسم البصيرة في قلوبهم فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾».

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتكم مقام المشاهدة فلا تميموا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثر، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيع لهم ما لا يبيع للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد.

ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان بن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومעقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهابية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا لَا تَحْرِمُوا».

وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنِّي أقومُ وأناأمُ، وأصومُ وأفطرُ، وأكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومن رَغِبَ عن سَتِّي فليس مِنِّي»^(١)، يَبَيِّنُ ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمجاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات.

وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا» الحلال ما وصل إلى المعارف من خوان الغيب بلا كلفة إنسانية، والطيب ما يقوِّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

قال سهل في قوله: «لَا تَحْرِمُوا»: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبب بالحقيقة. قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركة منك ولا استشراف، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك يتناوله.

وقال الأستاذ: ممَّا أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: «لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتٍ».

وقال في قوله: «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا»: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفة، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزنة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر بغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلَّة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازن في العقول، وما لم يكن مرضياً في الشريعة لم يكن مرضياً في المعرفة، ولما قوي العباد بنسائم لطفه وغذاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة، وحذَّره في كتابه من مخالفتها طرفة عين بقوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا» طاعة الله تكون في رؤية هيئته، وطاعة الرسول تكون بحلاوة محبته، والحذر إخراج الحدث عن وصف العدم، وحبس الأرواح في منازل الإجلال، أي: استقيموا في المعاملات، واحذروا عن رؤيتها ورؤية أعواضها حتى لا تحتجبوا

(١) رواه الطبري في التفسير (٩/٧) بنحوه.

بها عن مشاهدة المعطي.

وأيضاً: أي: احذروا في طاعتي من ضمائر الرياء، وفي طاعة رسوله عن ضمائر الشك، واحذروا من كراهة نفوسهم في الطاعة حتى تصلوا إلى مقام الحرقة عن دعوى الأنانية، فإن طاعتي بالإخلاص والمحبة تصير المطيع بصفة الربوبية، وهناك موضع الخطر قال ﷺ: «المخلصون على خطر عظيم»^(١)؛ ولأن هناك يفنى الحدث في العدم ويظن الغاني أن ضرغام مكر الأزل نائماً، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال الواسطي في هذا الآية: الحذر لا يزول عن العبد وإن كان مدرجاً تحت الصفات، ولولا ذلك لبسط العلم إلى شرط الجود وقلة المبالاة بالأفعال، ولكن الآداب في إقامة الموافقات كلها ازدادت السرائر به علماً ازدادت له خشية.

وأيضاً قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾: ألا تلاحظوا طاعتكم وتسقطوا عن درجة الكمال.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾^(٢) يتأيا الذين ءَامَنُوا لِيَتْلُوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَتَخَفُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣) يتأيا الذين ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لَّيْذُقُوا نَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ^(٤) أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنَعًا لَّكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ^(٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ لما كان الله سبحانه يتجلى بوصف اللطف بشيء فيه محل ابتلاء العباد كان مباحاً لهم وهم غير مأخوذين بتناوله ما داموا مبصرين لطائف الحق فيه، وإذا رفع عنهم نور تجلّى اللطف حرّم ذلك عليهم.

وهذه إشارة لطيفة لمن له فهم رجعنا إلى شغلنا بالتفسير: أن العاشق العارف مادام في

سيره إلى الله على نعت التجريد مما سواه وهو في منظر من الله بالمراقبة والإجلال لم تضربه أوقات الرفاهية والدخول في الرخص والبسط في السعادة مادام يشبه بشرط العلم.

قال سهل: إذا طلب الحلال ولم يأخذ فوق الكفاية وأثر مما حمله رواسي.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَآهَدَىٰ وَالْقَلْتَيْدَ^(١) ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٢)﴾
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٣) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ^(٤) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٥)﴾

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ ألبس الله الكعبة سناء قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنة وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعة من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزّه عن خطرة كل حادث، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى عليه السلام من طور سيناء، وظهر لعيسى عليه السلام من طور المصيصة، وظهر لمحمد عليه السلام وأمه من الكعبة، كقوله عليه السلام: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»^(١)، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابَه عن كل طائف غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم.

قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه.

وقيل: البيت الحرام حرام في مجاورته ارتكاب المخلفات بمحال.

وقيل: حرام على من يراه أن يرى وصفه دون واصفه.

وقيل: ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: مَنْ ذَلَّ عَنْ قِيَامِهِ فاعوجَّ بالندس بمعصية، فأتاه فتعلق

به، أقامه ببركة آثار الأنبياء عليهم السلام والسادة فيه وردّه إلى حالة الاستقامة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا

حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٤١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَّحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَئِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ أي: إذا لم تكونوا برؤية الغيب محرمين للغيب، ولا تكونوا بالغيب إلى معالي درجات أهل المعارف والكواشف، ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾ عن حقائقها؛ فإنه إذا بينَّ المستقيم لكم دقائقها بعبارة أهل الأسرار لا تطيقون أن تدركوها، فيسوؤكم حرمانكم عنها، وربما ينكروا على بعضها فتهلكوا، وإن الله سبحانه غيورٌ على هتك ستر الغيب للأغيار.

أنشد الحسين بن منصور - قدس الله روحه:

مَنْ لَمْ يَضِيقْ قَدْرَ مَا أَوْلَاهُ سَادَتُهُ لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا
وَعَاقِبُوهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ زَلِيلٍ وَأَبْدَلُوهُ مَكَانَ الْأَنْسِ إِيجَاشَا
لَا تَقْبَلُوهُ مَذِيقًا بَعْضُ سُرِّهِمْ حَاشَا وَدَادَهُمْ مِنْ ذَكَرِ حَاشَا

وفيه تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ.

قال بعضهم: لا تسألوا عن مقامات الصديقين ودرجات الأولياء؛ فإنه إن بدا لكم شيء منه فأنكرتم ذلك هلكتم.

قال سهل: سؤاله حجابٌ، ودعاؤه قسوةٌ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنِّيْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٥﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِّنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ عُبِّرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتْنَا أَحَقُّ مِّنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ خَافُوا أَنْ تُرَدَّ أُمْنُونُ بَعْدَ

أَيْمَنِهِمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تَجْمَعُ إِلَهُ الرُّسُلِ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ليس ظاهر الآية يوجب إسقاط أمر المعروف والنهي عن المنكر، لكن فيه لطيفة أي: عليكم أن تعرفوا أسرار نفوسكم الأمارة التي لو تدعونها لتدعي الربوبية، كما كان يدعي فرعون بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وإذا عرفتم مكائدها عرفتم سرَّ قهر الأزل، فإن قهري يعلمها مخايل الضلال.

لذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، وَمَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ اسْتَقَامَ فِي طَاعَتِي، وَصَارَ مَوْضِعَ نَظَرِي لَا يَعْجُوجُهُ كَيْدُ كَافِرٍ، وَلَا مَكْرُ مَاكِرٍ؛ لِأَنَّهُ مُحْفُوظٌ بِي، بَلْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ صَارَ ضَرْهُ نَفْعًا، وَفَسَادُهُ صَلَاحًا بِرُكْنِهِ»^(١).

قال سهل بن عبد الله: للنفس سرٌّ، ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ولها سبع حجب سماوية، وسبع حجب أرضية، وكلما يدفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء، وإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش.

قال محمد بن علي: عليًّا لنفسك أن كفيت الناس شرَّها، فقد أدَّيت أكثر حقها. ودخل خادم الحسين بن منصور - رحمة الله عليه - الليلة التي وعد من الغد لقتله فقال له: أوصيني، فقال: عليك نفسك، إن لم تشغلها شغلتك. وسئل أبو عثمان عن هذه الآية؟ فقال: عليك نفسك إن اشتغلت بإصلاح فسادها وستر عوراتها شغلك ذلك عن النظر إلى الخلق والاشتغال بهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُ إِلَهُ الرُّسُلِ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ إن لله سبحانه أيامًا وساعات لظهور جبروته، وكشف ملكوته، وبروز أنوار عزَّة قدمه، وشروق بروق لمعات وحدانية أبديته، وخصَّ لها خطاب العظمة، وسياسة السلطنة، وأظهرها لقواطب أهل جلاله، ورؤية عظام قدرته، وإجراء مشيئته، وهناك تفوح مجامر عطر صفاته، وتذيع نفحة مسك سبحات ذاته.

قال سيد أهل البيت ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ لِنَفَحَاتٍ، أَلَا فْتَعْرَضُوا لَهَا»^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠) بأوله فقط.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٣٣/١٩) بنحوه، وذكره الزرقاني في شرحه (٣١٦/١).

فلما أراد كشف الكلى وإجراء خطاب الأزلي يجمع أكابر أهل القرب من المرسلين والنبين والملائكة المقربين، وذلك يوم القيامة يوم العرض الأكبر، حيث يتمتع العارفون بجمال الحق وجلاله وقربه ووصاله، والقيامة بلد أحياء الله هناك يستأنسون به أبداً، ويحولون على مراكب النور في ميادين السرور، هناك مقامات، ففي مقام لهم بقاء، وذلك من بسط الله بساط عطايا المشاهدة، وفي مقام لهم فناء، وذلك من تراكم عساكر سطوات العظمة؛ حيث يظهر رداء الكبرياء وإزار العظمة، وفي ذلك المقام يضمحل الحدثنان وما فيها في عزة القدم، فيفنيهم ساعة بالجلال، ويبقيهم ساعة بالجمال، ويخاطبهم ساعة باللطف، وساعة بالقهر، ليعرفهم طرائق كشف الألوهية بنعت المباشرة، ومن ذلك الخطاب قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وأيضاً قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ عرفهم بخطابه معهم عجز العبودية في الربوبية، وفناء الحدث في القدم عياناً بعد الخبر، خاطبهم بعد إحاطته بجميع ذرات الكون وبعد علمه الشامل بجريان الحدثنان من الأزل إلى الأبد، ومقصوده تعالى منهم إظهار ما أخبره بما جرى على الخلق في كتابه، كيف توافق الخبر بالمعينة، وهو تعالى منزّه عن الجهل بشيء من العرش إلى الثرى، ومعنى قول سيد المرسلين: لا علم لنا بما تريد منا وبما تريد منهم، ولا علم لنا بما أجريت في الأزل علينا، ولا علم لنا بما في أنفسنا فضلاً بما في نفسك، ولا علم لنا إلا علماً مخلوقاً مستفاداً من علمك وتعليمك إيانا، وإذا بهتوا وتاهوا وتحيروا وتلاشوا في كشف عظمتهم طاشت أشباحهم وطابت أرواحهم، ولم يطبقوا أن يتكلموا بما في ضمائرهم من صولة الخطاب.

وأيضاً: استحيوا من إظهار ما أجابهم قومهم عند جلاله وعظمتهم. وأيضاً: أي: لا علم لنا فيما وضعت في أسرارهم؛ فإنك تعلم الغيب، وذلك قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

قال الواسطي: أظهر ما منه إليهم كلهم من تولية، فقالوا: كيف يقول فعلت الأمم أو فعلنا! عندها كلت الألسن إلا عند العبادة عن الحقيقة.

وقال: خاطبهم لعلمه بأنهم يحملون ثقل الخطاب، وأشد ما ورد على الأنبياء في ثبوتهم حمل الخطاب على المشاهدة، لذلك لم يظهر الجواب، ولم ينطقوا بالجواب إلا على لسان العجز، لا علم لنا مع ما كشفت لنا من جبروتك.

وقال الجنيد: رفق بهم فلم يفقهوا، ولو فقهوا وعلموا لما تواتر هيبه، لورود جواب الخطاب.

قال ابن عطاء: لا علم لنا بسؤالك، ولا جواب لنا عنه.

قال بعضهم: لما ظهر عليهم الحق بعلمه وسبقه ثم سألهم جحدوا علومهم، ونسوها في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وذلك من إقامة الأدب لا جهلاً بها أجابوا.

قال محمد بن فضل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي: لا علم لنا بجواب ما يصلح لهذا السؤال.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أي: اذكر لخواص أحبائي والمريدين ما أنعمت عليك من كشف جمالي لك، وإظهار علمي عليك، وتجلياتي منك للعالمين، وإلقاء كلمتي إلى أمك؛ إذ برزت منها أنوارها تظهرك ملتبساً بلباس نور الألوهية، وذلك حين ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بروح المعرفة التي أشرقت من صبح الأزل، وذلك النفخ الأول الذي نفخت في آدم عليه السلام من روح تحيي جلالي، وظهور جمالي.

ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنِّ مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] كشف عن قدسه لصورة عيسى عليه السلام، فصار حياً بكشفه، ومقدساً بروح قدسه عن تهمة مزج اللاهوتية بالناسوتية، فصار جميع وجوده روحاً قدسياً.

ألا ترى كيف كان يحيى الموتى بإذن الله أي: بتأييد الله وجلال نور وروح قدسه.

وأيضاً: أيدتك بجبرائيل عليه السلام ليعرفك مكان العبودية والشرعية، ويلزمك في مهد البشرية؛ فإنك صدرت من نور الربوبية، لولا ذلك ما سكنت في الكون.

قال بعضهم: منهم مَنْ ألقى إليه روح النبوة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصديقين، ومنهم مَنْ ألقى إليهم روح المشاهدة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصلاح والحرمة، وأسر إليهم ممَّا لا يترجم ولا يغير علم رباني غاب وصفه وبقي حقه.

وقال الواسطي: لا تصح الصحبة مع الله إلا بصحبة الروح في صحبة القدم، قال الله:

﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^(١) إلا بالعقل، فمن صحت صفة روحه في القدم صحت صحبته مع الله.

وقال في قوله: ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: ذكر الروح في هذا الموضع لطفًا لقربه من المستترات.

قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لثلاث تری غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم ﷺ الجنة، لأطهر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدمسها جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهدي على مثابة بالقوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقده وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

وزاد في وصفه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ تجلى بقدرته ليده حتى تخط بغير تعلم، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: حكمة معارف العشق، وطريق كواشف الملكوت، وبطون الأفعاليات بنعت ماهيتها، ﴿وَالْتَّوْرَةَ﴾ علمه ما علم موسى ﷺ بنعت تجليه له من نور التوراة، ليعلم شرائع المعرفة، وحكم الربوبية، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ عرفه أناجيل القدمية بظهور صفات الأبدية.

وزاد وصفه على وصف باتصافه بالقدرة القائمة، والقوة الإلهية في خلق الطير حين نفخها من نفخ روح القدس التي فيه، وذلك أمانة ظهور ربوبية الله منه، ولذلك كان قادرًا على إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى والاستشراف على مكنون الغيب بقوله بما وصف في موضع آخر: ﴿وَأَنْتَبِّحُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال أبو علي الرودباري في قوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ غاية الربوبية في غاية العبودية، لما استقام على بساط العبودية أظهر عليه أشياء من أوصاف الربوبية بقضائه

(١) قال الورتجي: من تمام نعمة الله تعالى عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهدي على شابهة بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقده وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، وزاد في وصفه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم [البحر المديد (٢/ ١٥٥)].

وقدره.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣١) إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَنْعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْبِخَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٣﴾ *.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّ وَرَسُولِي﴾ وحي الله إلى المرسلين يكون خاصاً ويكون عاماً، الخاص بغير واسطة، والعام بواسطة جبريل عليه السلام، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحى بالصفة، ووحى بالذات، وحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحى الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحى الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيب، وليس لهم في الوحي برسالة الملك نصيب، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحى منزل المعرفة الحديث، ووحى منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسم على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعل، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهراً، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصب في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفاتي الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّ﴾ أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية.

قوله: ﴿ءَامِنُوا بِرَبِّ﴾ مقام الجمع، و﴿وَرَسُولِي﴾ مقام التفرقة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَنْعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهراً؛ لأنهم موقفون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله؛ لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب.

ألا ترى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأجابه الله قال: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وليس في الوصفين شك من جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلما سمع عيسى عليه السلام منهم اشتد عليه أمرهم وعجب منهم ذلك بعد إيقائهم، وأجابهم بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: خافوا الله فيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: ألزموا اشتغالكم بدفع الخطرات؛ كي لا تحتجبوا عنه بغيره، وإن من وصل إليه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحسن منه طلب الآيات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم عجزهم عن إدراك مقامات أهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نريد أن نربي أبداننا بمأكول الجنة، كما تربي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبنا تصديقك ومحبتك حتى لا تبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأوليائوه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل الله مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سأل من السماء لا من الأرض لما فيها من الروحانية والحنانية والملكوية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله.

وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣١) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٣٢).

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: اجعلها عيدًا ولا تجعلها عيدًا لمجهور، واجعلها سببًا لعودنا من رؤية الآيات إلى رؤية الصفات، عيدًا لأولنا من المريدين وآخرنا من العارفين، ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ دليلًا منك إليك، فأجابهم الله سبحانه بها سألوا وهداهم من كفران نعمته بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من عاين رؤية صفاتي في رؤية آياتي ثم يرجع إلى الفترة وحظوظ النفس واختيار شهوة الدنيا علينا فإننا نحجبه عنا حتى لا تصل إلى قلبه نسمة غير صفاتي وورد جلال مشاهدي، ولا يشرق عقله صبح وصالي، ولا تنكشف لروحه أنوار

حسني وجهالي، وإن هذا العذاب عذاب الفراق، وهو أشد العذاب للطالبين .

قال الشيخ أبو عبد الله: كنت نائماً في بدايتي، فرأيت في منامي رسول الله ﷺ يحركني، قال: قم يا أبا عبد الله، فإن من عرفه وآثر غيره عليه فإنه يعذبه عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١٣٠ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۚ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١٣١ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۚ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله سبحانه المنتسبين إلى الشرك بقولهم إن الله ثالث ثلاثة فأظهر الله تنزيه عيسى عليه السلام مما زعموا.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. وأيضاً: ألف الله سبحانه أن يخاطب الكفرة بما كذبوا وزاغوا عن التوحيد والحق، وخاطب مع صفيه وروحه إعلاماً للكافرين بتغييرهم؛ لأن السلطان إذا أراد أن يخاطب قوماً خاطب كبيراً من كبرائهم، وأراد بذلك قومه، وفيه أن الله سبحانه أراد أن يجر روحه عليه السلام إلى مقام سطوات العظمة وخطاب الكبرياء، ليفيه به عنه حتى لا يبقى للحدث في القدم أثر، ولولا فضل الله عليه لا يكون بعده أبداً من عزة الخطاب وعظمة القول.

قال عبد العزيز المكي: لولا إثبات الله إياه لذاب على مكانه، وصار ماءً بين حياء الله وخجلته، ولو خيّر عيسى عليه السلام بين النار وبين هذا العتاب لاختار النار، ولو أحرق بنار الأبد كان أحب إليه من أن ينسب الربوبية إليه.

وفرق ابن عطاء بين السؤالين: بين سؤال الأنبياء حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ١٣٢]، وسؤاله عن عيسى عليه السلام ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي﴾، وقال سأل عيسى عليه السلام عن قصته وحاله ولم يسعه السكوت عنه، وسأل الأنبياء عن أحوال الأمم فدهشوا، وذلك أن سؤال الرسل إظهار العظمة، وسؤال عيسى عليه السلام براءة وتنزيه عما قيل فيه.

وقد سنح لي قول آخر: وهو أن الأنبياء حين سُئلوا كانوا في مقام الهيبة ومشاهدة

العظمة، لذلك بهتوا وتحيروا وسكتوا، وعيسى ﷺ هناك أيضًا معهم بقوله: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾، وهو من الرسل، فلما أفردته الحق للخطاب كان في مقام البسط والانبساط ومشاهدة الجمال، لذلك تكلم وأجاب ولم يسكت.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم ما في نفسي من توحيدك ومعرفتك وتنزيهك وتقديسك وتعظيمك وإجلالك الذي ينفي الأضداد والأشياء والأنداد، ولا يليق بجلالك مما تخاطبني بقولك: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ولا أعلم ما في نفسك من علوم الغيب، وغيب الغيب ومكر القدم، وما يعلم ما في نفسك بأنك لو تريد أن تحرق جميع الأنبياء والصديقين لا يبالي بها.

وأيضًا: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ من كنه القدم ووجود الأزل.

قال الواسطي: يعلم ما في نفسي لك، ولا أعلم ما في نفسك لي.

وقال الحسين: تعلم ما في نفسي لأنك أوجدتها، ولا أعلم ما في نفسك لبعدها عن الإدراك.

قال الجنيد: تعلم ما أنا لك عليه وما لك عندي، ولا أعلم مالي عندك إلا ما أطلعتني عليه أو أخبرتني به.

وقال سهل: تعلم ما في نفسي مما أودعته نفسي مما لا تظهره علي، ولا أعلم ما في غيبك لي.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: تعلم كيفيتي، ولا أعلم كيفيتك ولا كيفيته لك.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أي: ما قلت لهم إلا بإفراد قدمك عن الحدوث، وإسقاط الغير عن البين، وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أظهر عبوديته في عبوديتهم فردًا للموحد المنزه عن الأنداد والأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: في الدنيا في طاعتهم وعصيانهم وما كشفت لي من بعض سرائرهم.

وأيضًا: أي كنت عليهم شهيدًا، ﴿مَا دُمْتُ﴾ في مقام الرسالة وإبلاغ الوحي إليهم، أما إذا أفنيت عن الأكوان من صولة مشاهدتك فغابت عني أخبار أهل الكون.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كيف

نخفي عليك ما خلقت ظاهره وباطنه، وأنت قديمٌ محيطٌ بكل ذرة من العرش إلى الشرى،
فالعجز عن ذلك صفة من يتلاشى فيك، كما أنا حين توفيتني عني إليك.

قيل في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾: أتى لي لسان القول إلا بعد الإذن
بقولك: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لما أسقطت عني ثقل
الإبلاغ كنت مراقباً لهم بما أجريت عليهم من مختم قضائك.

قال أبو بكر الفارسي في هذه الآية: الموحّد ذاهبٌ عن حاله ووصفه وعن ماله وعليه،
وإنما هو ناظرٌ بما يرد ويصدر ليس بينه وبين الحق حجابٌ، إن نطق نعته وإن سكّته فيه، حيثما
نظر كان الحق منظوره، وإن أدخله النار لم يلتمس فرجاً لأن رؤية الحق وطنه ونجاته وهلاكه
من عين واحدة، لم يبق حجابٌ إلا طمسه برؤية التفريد، وكان المخاطب والمخاطب واحداً،
وإنما كان يخاطب الحق نفسه بنفسه لنفسه، قد تاهت العقول ودرست الرسوم وبطل ما كانوا
يعملون.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشرّكين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين
جميعاً، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى عليه السلام سرّاً مكتوماً
مبهماً على قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان من أهل خالصة سرّه، ومحال أن خفي على عيسى
عليه السلام أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم ووارد الشرع وإنما نطق بذلك من
عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس
وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿حَنُلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٨]، قالوا: يأمر النار أن تأكلهم وتغنيهم، ثم تجدد خلقهم.

قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تحفّق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما
يلبثون فيها أحقاباً.

قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعها خراباً، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِنْ
تُعَذِّبُهُمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ فهو حقٌّ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم
فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في ملكك لست
بجاهل في غفرائهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من
هذا، فإنه موضع الأسرار.

وأيضاً: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحداية، وبقوا في حجاب حظوظهم عنك بك.

قال الوراق: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرّين لك بالتقصير، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزة والكرم، فلم يبدلها إلا لمن خلقه لها ومن هو حق بها وأهلها.

قال بعضهم: ترك عيسى ﷺ الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يزال يشفع ويقول: أمّتي ... أمّتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي حُصَّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطاً ويجاب بقوله: «قل تسمع واشفع تشفع»^(١).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقع صدقهم على رؤية فناء الحدث في القدم، حيث ما أدركوا الحق إلا بالعجز عن إدراكه، فلما لم يدركوه قبل العجز وبعد العجز إلا به أقروا بالجهل عن معرفته، وهذا من كمال معرفتهم بربهم، وهذا هو الصدق الذي ذكره الله لهم فلا جرم ينفعهم، هذا العجز عند بروز طوارق مشاهدة عظمتهم وكشوف سطوات عزته بأن يدركهم في محل فنائهم، ويلبسهم صفة بقائه حتى بقوا مع الحق أبداً بلا حجاب ولا عتاب.

قال الحسين في هذه الآية: إذا قابل ربه بصدقه، وجهل أمر ربه، وطالب ربه بحظه ووعد، يطالبه ربه بصدق صدقه، فأفلسه عن رتبته، وأبعدته عما قصده، وينفع صدقه من لقيه بالإفلاس، وأيقن أنه كان مستعملاً تحت حكمه وقضيته.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أي: جنات المشاهدات الذاتية التي تجري تحتها عيون الصفات بنعت تجليها لهم لحظة فليحظة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين بالانصاف بها، ﴿أَبَدًا﴾ بلا

انقطاع، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^(١) حيث وجدهم متحيرين عن إدراك كنه القدم بعد فنائهم فيه، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما وجدوا منه من لذة مشاهدته، وحلاوة خطابه، وهذا الرضا انسداد أبواب كشف القدم عليهم، وإبقاؤهم فيها هم فيه، ولو عرفوا قلة حفظهم عن القدم لماتوا جميعاً في الحيرة، وكيف رضي عنه من عرفه، وكيف سكن عنه، وإن كان في مشاهدته عن إدراكه بنعت التوحيد، ولولا فضله ورحمته لفنوا في قهر سلطان كبريائه، ولم يبقوا بعد، فبقاؤهم وتخليصهم من فنائهم فيه، فبفوز عظيم وظفر كريم ليتمتعوا لوصاله أبداً، ﴿إِلَّا مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خصّ ملك الإيجاد والإبداع، وزال عمّن سواه ملكه.

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ١ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ٢ ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ٣.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ جعل حمده في الأزل طريقاً للعباد إلى حمد جلاله، وثناء جماله، علم في القدم نفسه، وأوجب الحمد قطعاً قبل كون الكون مقابل عين الذات والصفات، فلم ير بحمل حمده، فحمل بنفسه حمد نفسه، ورفع الحمد عن الحدث علماً بأن الحدث يكون مثلاً شيئاً في أوائل حمده؛ لأن حمده لا يكون إلا بمعرفة المحمود حقيقة بجميع ذاته وصفاته، وذلك مستحيل؛ لأن حقيقة ذاته وصفاته غير متناهية، وكيف يدرك المتناهي صفات الذي هو غير متناه.

وأيضاً: قطع الحمد عن غير نفسه، ويبيّن ألا يستحق للحمد الحقيقي إلا وجوده بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٢) أي: لله لا لغير الله.

(١) رضا الحق سبحانه: إثبات محلّ لهم، وثناءه عليهم ومدّحه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله، ورضائهم عن الحق سبحانه في الآخرة ووصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم، والنجاة الكبرى [تفسير القشيري (١٩٣/٢)].

(٢) حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام هاهنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفًا وإمّا خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر

وأيضًا: أي: حمد الله لله؛ لأنه مَادَحٌ نفسه بالحقيقة لا غير.
وأيضًا: أي: الحمد القديم يرجع إلى القديم، وليس للحدث فيه نصيب، لأن حمده أزلي، والحمد الأزلي لا يليق إلا بالأزلي.

قيل: حمد نفسه بنفسه حين علم عجز الخلق عن بلوغ حمده.
قال الجنيد: الحمد صفة الله؛ لأنه حمد نفسه بتمام الصفة، ولو حمد الخلائق كلهم لم يقدروا الإقامة ذرة من صفته، وبيان قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: هذا الحمد بالحقيقة لَمَنْ هذا صنعه وقدرته، وما دام لم تقدروا معرفة نعمته في صنعه وفعله لم تقدروا على حمده وثنائه، له سموات، وأخصّ سماواته الروح المقدسة، وله أرضون، وأخصّها القلب السليم الصافي بوضوح الفطرة الصافية فيه الروح ساء القلب؛ لأن منها تنزل عليه قطرات الإلهام، ويقع عليه منها أنوار الرحمن والقلب أرضها، لأنه ينبت أزهار الحكمة وأنوار المعرفة.
قيل: السموات المعرفة، والأرض الخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي: الذي خلق الروح والقلب جعل في الروح نور العقل لعرفان الآيات والشواهد، وجعل في القلب ظلمة النفس الأمّارة لظهور العبودية في محل الامتحان.

وأيضًا: أَسْرَجَ في القلب نور الإيمان من سراج الغيب، وأنشأ في النفس ظلمة الشهوات من عالم الريب.

وأيضًا: نَوَّرَ الروح بنور المشاهدة، وأدخل القلب في ظلمة المجاهدة.

قال بعضهم: أبدى الظلمات في الهياكل، والنور في الأرواح.

وقال بعضهم: جعل الظلمات أعمال البدن، ونوّر أحوال القلوب.

لوفور إحسانه، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزیز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْلُهُ، وحمد الخَلْقُ له على إنعامه وطَوْلُهُ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود «قدرة» القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطول، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمد، وحقه يقينه، وثبوت عينه، ودوامه بقاءه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونبيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!! [تفسير القشيري (٢/١)].

وسُئِلَ الواسطي: الحكمة في إظهار الكون وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟ قال: لا حاجة له إلى الكون؛ لأن فقد الكون ظهوره، وظهوره فقده عنده، فإن قيل إظهاراً للربوبية. قيل: ربوبيته كانت ظاهرة، ولم تظهر ربوبيته لغيره.

قيل: لأنه لا طاقة لأحد في ظهور ربوبيته، بل أظهر الكون، وحجب الكون بالكون لئلا تظهر لأحد الربوبية فتطمس؛ لأن الحق في الحكمة لا يحتمله إلا الحق.

وسُئِلَ بعضهم ما الحكمة في إظهار الكون؟ قال: ارتفاع العلة، فإذا ارتفعت العلة ظهرت الحكمة بإظهار الكون، إن الله سبحانه كان موصوفاً بالعلم الأزلي، وكان في علمه كون الكون كما هي، فأظهر الكون بسابق علمه في ذاته، وإرادته السابقة في الأزل بوجود الكون، وكيف لا يظهر الكون والعلم والإرادة سابقان في الأزل بإيجاده، فإذا بقاء الكون في العدم مستحيل.

وأيضاً: ذاته تعالى معدن صفاته، وصفاته معدن فعله، فظهرت فوائد الذات في الصفات، وظهرت فوائد الصفات في الفعل، كانت قدرته المنزهة حاملة الأفعال، فوضعتها بالإرادة القديمة في أحص زمان؛ لقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وأيضاً: كان في الأزل عاشقاً مشتاقاً إلى المشتاقين إليه؛ ليظهر كنوز جلال الذات، وجمال الصفات بنعت التعريف لأحيائه؛ لقوله سبحانه: «كُنْتُ كَنَزًا مَخْفِيًا، فَأُحْيِي أَنْ أَعْرِفَ»^(١)، فسبب إظهار الكون شرفه إلى جمال المشتاقين ومحبه السابقة للمحبين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: ﴿الَّذِي﴾ إشارة و﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عبارة، فاشتغلت الأسرار بسماح الذي تحققها بوجوده، ودوامها بشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع ﴿الَّذِي﴾ إلى سماع الصلة؛ لأن ﴿الَّذِي﴾ من الأسماء الموصولة لكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وبانت لي إشارة: أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ظاهر الألوهية لأهل العبودية، وقوله: ﴿الَّذِي﴾ باطن المشاهدة لأهل المحبة، لأن المحبة والمشاهدة من لطائف الأسرار، فأشار إليها بلفظ الغيبة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ السموات جسد، وقلب ذلك الجسد الأرض، وأن الله سبحانه خص قلب السموات بإشراق جلاله فيه بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، ومن تلك الخاصة خلق صورة آدم ﷺ من قلب العالم فكان قلباً

لا جسدًا؛ لأنه تعالى أودع الأرض ودائع حكمته ولطائف فطرته من الأرواح القدسية والأشباح الملكوتية، وجعل لفظ الطين نكرة غير معينة، أي: من طين الجنة خلق أجسام المؤمنين، ومن طين الحضرة أي القرية أجساد الموقنين، ومن طين المحبة أشباح المحبين والمشتاقين، كما أخبر سبحانه لداود عليه السلام: «خَلَقْتُ قُلُوبَ الْمُشْتَاقِينَ مِنْ نُورِي، وَرَقْمْتُهَا وَنَعَمْتُهَا بِجَهَالِي، وَخَلَقْتُ طِينَةَ أَحْبَابِي مِنْ طِينَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام خَلِيلِي، وَمُوسَى عليه السلام كَلِيمِي، وَعِيسَى عليه السلام رُوحِي، وَيَحْيَى عليه السلام صَفِيِّي، وَمُحَمَّدٌ عليه السلام حَبِيبِي».

وقال الحسين: ردهم إلى قيمتهم في أصل الخلقة، ثم أوقع عليهم نور إليه وخاصة الخلقة، فتميزوا بذلك عن جملة الحيوانات بالمعرفة والعلم واليقين.

قوله تعالى: «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ» أي: يعلم هيب نيران الاشتياق إلى جماله في صميم أسراركم، وما يتعرض إلى سبل عساكر تجلّي القدم بنعت طلب الوصول إليها في ضمائركم، ويعلم حركات أشباحكم بطيران أرواحكم في الولد والهيان والوجد والهيجان، ويرى قطرات عبرات الشوق على خدودكم في سجودكم بين يديه بوصف التضرع في جبروته وتقلب القلوب في ملكوته.

وأيضاً: يعلم جولان أرواحكم في السماء لطلب معادن الأفراح، ويعلم تقلب أشباحكم في الأرض لطلب الوسيلة إلى مشاهدته.

ألا ترى كيف أشار إلى ذلك بقوله: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ» يريكم في السموات مشاهدة الجبروت، وفي الأرض مشاهدة الملكوت. قال بعضهم: يعلم ما تُضْمِرُونَ في سرائركم، وما تجهرُونَ به من دعواتكم.

«وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٦﴾»

قوله تعالى: «وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» مَنْ عَمِي

قلبه عن مشاهدة الله كيف يراها في آثار الله؟! وآياته في السماوات والأرض، وفي وجوه أنبيائه وأوليائه، حيث أشرقت بحسن وقوع تجليها وظهور سناها بما فيها، ويزيد على عبائه عمى؛ لأنه موسوم بسمه البعد في الأزل، غير مقبول إلى الأبد.

قال النصر آبادي: آياته في خلقه أوليائه، وأهل صفوته.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ﴾ طلبوا رؤية الملائكة عياناً، وليسوا هم أهل ذلك، ولو كانوا أهل الحقيقة لرأوا في وجه رسول الله ﷺ ما لم يكن في وجوه أهل الملكوت من سنا إشراق صفات نور الأزل؛ لأنه كان مشكاة نور الذات والصفات؛ لقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، ولكن كيف يرون ذلك، وهم عيان في ظلمات ظلال القهريات؟ قال تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أن المرادين لم يروا أهل الملكوت إلا بالمثال الحسي؛ لأنهم في ضعف عن رؤية ماهيتها، ولو يرون الملك لم يروه إلا في صورة الآدمي الذي هو موقع الالتباس.

﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ﴾^(١) معناه: أريناهم رؤية أهل الغيب في اللباس الإنساني بغير وقوفهم على صفات الروحاني؛ لأنهم أهل التليس في المعاملات؛ حيث وقعوا في ورطة الفترة، ويدعون مقام أهل الاستقامة.

وأصل البيان في ذلك أي: خلطنا عليهم ما يخلطون، حتى لا يعلموا سبيل خداعهم كما يريدون، ويرجع كيدهم على أعناقهم، ويسيروا في ظلمات التردد، ولا يعلموا نكايه كيدهم عند الأولياء والصديقين.

(١) قال ابن عجيبة: أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبساً يطرُق لهم إلى أن يلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مضموناً، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه الصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها.

وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلا لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلا من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم [البحر المديد (١٢٦/٢)].

وفي إشارة أهل الحقيقة أنّ مقام الخداع والمكر في العشق والمحبة يكون من شركهم في العشق، حيث يطلبون المراد بنعت الاستراحة، وهو سبحانه يجازيهم بظهور صفاته في نعوت أفعاله لهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

قال الواسطي: يلتبس على أهل ولايته بحضرته، كما أنزل في بعض الكتب، يعني ما يتحمل المتحملون من أجلي وطلب مرضاتي، أتراني أنسى لهم ذلك؟! كيف وأنا الجواد الكريم، أقبل على مَنْ تولى عني، فكيف بمن أقبل عليّ؟

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢﴾ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ، أخبر عن الجهلة لما لم يعرفوا أهل مشاهدته، وخواص حضرته، ولم يروا آثار جلاله فيهم، استهزأوا بهم بإعراضهم عنهم، وإنكارهم عليهم.

قال القاسم: لما لم يعرفوا حقوق الرسل، ولم يكرمواهم، ولم ينظروا إليهم بعين الحق؛ فعموا عن الأنوار والمشاهدات والرفع من المعاملات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ أي: لئن ما في السماوات والأرض إيجاد، ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي: إفناء الأول: إشارة إلى الإرادة القديمة، والثاني: إشارة إلى المحبة الباقية.

وأيضاً: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالعبودية، ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي: في الربوبية.

قال يوسف بن الحسين: الأول عبارة، والثاني عبادة.

وقيل: الأول هيبة، والثاني توحيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الإشارة في هذه الآية إلى قلوب المنقبضين بصولة العظمة، وقلوب المنبسطين ببسط نور جمال المشاهدة، سكنت قلوب أهل القبض في الليلي بنعت الإذابة في سرادق كبريائه، والسكون في مقام التواضع عند بروز سطوات عزة ذاته، حيث تخلصت عن ازدحام أهل الغفلة، وسكنت قلوب أهل البسط برؤية أنوار جماله

في مناظر آياته في النهار، ولطائف صنع صفاته، حيث تخلصت من رؤية أعلام عظمته وكبريائه، أي: له هذه القلوب العاشقة، والأفئدة المتحيرة لا لغيره من الحدثان، خصّها لنفسه، والنظر إلى مشاهدته.

ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أنينها في شوقه، ويعلم ضائرها المحزونة نداء جماله.

قال محمد بن علي الكنائي: اختص الحق بقلوب العارفين لسكونها إليه؛ فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كيف لا يسكن إلى الحق، ولدغات الحقيقة بقصده، وهو موضع النظر؟.

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ وَهُوَ الْغَايُ فَوقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كيف أتخذ أحداً بالمحبة دونه، وليس له صفة القدم التي أغارت قلوب أوليائه بحسن تجليها؟! وكيف أتخذ بالولاية محدثاً لا يقدر على أن يمنع عني علّة الحجاب بيني وبينه، حيث الكل حاجز في أمر مشيئته وملك جلاله؟!

ألا ترى إشارته تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الكل ملكه، فكيف ألبأ من ملكه إلى ملكه، وعلّة الملك في المالك متلاشٍ بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

قال الجوزجاني: أأبغي سواه ملجأً، وقد سهّل إليّ السبيل إليه؟!

وقال غيره: أسواه أستكفي، وهو الذي يكفيني الهم في الدارين؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون، حيث لم يكن غيري في الحضرة أن أكون أول الخلق له في المحبة والعشق والمعشوق، وأول الخلق له منقاداً بنعت محبتي له، راضياً بروبيئته، غير منازع لأمر معيشتة.

قال بعضهم: أكون أول مَنْ انقاد للحق إذا ظهر.

وقال ابن عطاء: إن أكون من الخاضعين لما يبدو من مبادئ القدرة.

وقال جعفر عليه السلام: من الراضين بموارد القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي: إن يمسسك بضر الحجاب، فلا كاشف لضره إلا ظهور مشاهدته جماله لك.

قال الجنيد: معبودك أول خاطر يخطر لك عند نزول خير، أو ظهور بلاء، إن رجعت فيه إلى الله فهو معبودك، وهو الذي يكفيك، فإن رجعت إلى غيره تركك وما رجعت إليه. قال الأستاذ: إنما ينجيك من البلاء مَنْ يلقى في الفناء؛ إذ المتفرد بالإبداع واحد، فالأغيار كلهم أفعال، والإيجاد لا يصلح من الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: قدمه جارٍ في غير قهره ولطفه، بلطف مشاهدته جماله، وكشف جلاله للمحبين حتى ذابوا في حلاوة شهود مشاهدته، وقهر بسلطان كبريائه أهل التوحيد والمعرفة حتى فنوا في سبحات عظمتهم وعزة أزمته.

وأيضاً: أي كان قاهرًا في الأزل قدمه، علا عن العدم حين تجلّى قدمه للعدم، وأجار به العباد عن العدم، وكان المقدور في العدم تحت القدم، وبقي القدم بوصفه إلى الأبد، وبقي المقدور بوصفه كما خرج من العدم إلى الأبد.

وقال الحسين عليه السلام: القاهرة تحو كل وجود.

وقال بعضهم: قهرهم على الإيجاد والإظهار، كما قهرهم على الموت والفناء.

قال ابن طاهر: القاهر الذي إذا شهد سوى العبد أفناه عما سواه.

﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: أي شيء أعظم من شهود الله بوصف ظهور تجلّى جلاله وجماله من كل ذرة على كل شيء من العرش إلى الثرى، وذلك شهادته الأزلية التي سبقت منه على وحدانيته، حيث لم يكن وجود الحدث في القدم.

وتصديق ذلك جواب الأمر بالأمر بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، لما عمي القوم عن رؤية شهود الله، وصموا عن شهادة على نفسه، أنكروا على أشرف موقع شهادة، وهو النبي صلى الله عليه وسلم لغباوتهم وجهلهم بما ظهر من وجهه من أنوار جلال الله، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بعد قوله: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأن يظهر أنوار صفاته متى شاء للعالمين.

وتصديق ذلك سهولة المعجزات، أي: مَنْ لم ير الشهادة العظمى في وجهي؛ فإنه يحتاج

إلى رؤية الشهادة الصغرى وتلك معجزتي، ومن يكون أعمى عن رؤية الشهادة الكبرى، فأيضاً يكون أعمى عن رؤية الشهادة الصغرى.

قال الحسين عليه السلام: لا شهادة أصدق من شهادة الحق لنفسه بما شهد به في الأزل بقوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ﴿الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَجْدٌ لَّوْنَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ بين الله سبحانه أن اليهود كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وآله بالعلامات الصحيحة، التي وجدوها في التوراة، من نعتة وصفته، وصدق معجزته، لكن لم يعرفوه بنور معرفة الله، ورؤية مشاهدة الله في وجهه، كانوا مقلدين في معرفته؛ لذلك خالفوه، ولو عرفوه بمعرفة الله لكانوا كالصحابة المباركة، حيث كانوا تراب قدمه - صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المتحابين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كانت قلوبهم محجوبة بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغشية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لم يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم

وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين.
قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.
وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ القوم لم يعرفوا حقائق الكفر في الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولا ينفع لهم ذلك لفوتهم السير في التكرات، التي معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام في أماكن صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر، وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلّة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقة هواتف الغيب بإلهام الله الذي يعرف به طرق رضا الحق، وصاحبه يعلم ذلك، ويسمع ويخفيه في قلبه؛ لأنه أدق من الشعرة، وحرّكه أخفى من ديبب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن مَنْ غلبت شهوات نفسه عليه لا يتبع خطاب الله بالسّر، فأبدى الله لهم ما كانوا يخفونه، تعبيراً لهم، وحجة عليهم.
قيل: ظهر لهم من غيوب أسرارهم ما كان يخفيه عنهم قلة علمهم.

وقال أبو العباس الدينوري - رحمه الله: أبدى لهم الحق فساد دعاويهم التي كانوا يخفونها، ويظهرون للناس خلافها من التقشف والتقوى في الدنيا، فبدأ لهم قبح باطنهم عند صدور العارفين، وأكابر الموحدين، ويقولون: لسنا على شيء، والصدق معكم، وذلك عند غلبة هيبة وجوهم عليهم، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عادوا إلى الرزق والناموس من قلة معرفتهم بربهم، وقلة معرفتهم بافتضاحهم عند مشايخ القوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ١٠٠ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَنْحَسِرُونَ عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ١٠١ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٠٢ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَاتِ اللَّهِ يَمْحَاحُونَ﴾ ١٠٣ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأُمُوسِيِّينَ ١٠٤ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم

بِقَائِهِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أظهر لطفه وكرمه العميم على خلقه في هذه الآية حين وقف القوم على حضرة جلاله لسامع خطابه؛ ليسهل عليهم دخول النار، ولولا ذلك لكان عذابهم أضعافاً.

والآية تعجب أي: ولو ترى إذ وقفوا في حضرة الجبروت، وخوطبوا بخطاب الهيبة كيف يتنعمون بخطابه، وإشراق أنوار سلطان كبريائه، وإن كانوا في منازل الهيبة! والله هيئته مستلذة، كما أن لطفه مسألة، وجميع العذاب عند خطابه يكون نعمة. وأنشدوا:

يَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ فَلِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلْقَى طَيْبَكُمْ فَيَطِيبُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ يَمُرُّ بِوَادٍ أَنْتَ مِنْهُ قَرِيبٌ

قال ابن عطاء: وقفوا وقوف قهر، ولو وقفوا وقوف اشتياق لرأوا من أنوار كراماته ما تعجبوا منها.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ السماع سماعان: سماع فهم، وسماع عشق ومحبة، مَنْ سمع سماع فهم لم يكن من أهل النطق في جريان حكم المعارف؛ لأنه في مقام البداية، ولم يكن له تصرف إلا تصرف ظاهر العلم، وَمَنْ سمع سماع العشق بسمع المعرفة على حدِّ الكمال يكون له لسان بيان المعرفة والتصرف في الإشارات والعبارات.

ألا ترى إلى النبي ﷺ وموسى ﷺ لما كان النبي ﷺ كاملاً مستقيماً قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»^(١)، و«أنا أفصح العرب والعجم»^(٢).

ولما كان موسى ﷺ في محل الإرادة أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد سؤاله بشرح الصدر الموجب فصاحة اللسان في المعرفة، قال: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، ويَبَيِّنُ أن على قدر السماع يكون الجواب، ونفى السماع عن غير الأحياء بالمعرفة والمشاهدة.

(١) رواه البخاري (١٠٨٧/٣)، ومسلم (٣٧١/١)، وأحمد في «مسنده» (٢/٢٦٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٥٦٢).

قال النوري: مَنْ فَتَحَ سَمْعَهُ بِالسَّمَاعِ أَجْرَى لِسَانِهِ بِالْجَوَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾^(١).

وقال ابن عطاء: أخبر الله أن أهل السماع هم الأحياء، وهم أهل الخطاب والجواب، وأخبر أن الآخرين هم الأموات بقوله: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إن الله سبحانه خلق غير الآدمي والملائكة والجن من الحيوانات والطيور والسباع والحشرات على فطرة التوحيد، وجبلة المعرفة، وإن الله سبحانه خاطبها لوضوح طرق معارفه، والإيقان والإيمان جعل لها طرقاً من خواطرها، منورة بأنوار العقل إلى حضرة القديمة الأزلية وأسرارها، ينظرون بنور الأفعال ولطائف الصنعة، وسناء الخطاب إليها على السرمدية، وإنها تعيش وتتحرك وتطير بقوة من قوى الحضرة، وهذا الصفيّر والألحان والزفرات والشهقات منها من حلاوة تصل إلى قلوبها من روح عالم الملكوت، ووضوح أنوار الجبروت، ولها على قدر حالها في المعرفة والتوحيد شوقٌ إلى الله، وذوقٌ من بحار رحمة الله.

سمعت أن سمنون المحب كان إذا تكلم في المحبة تَنَشَّقُ القناديل، ويسقط الطير من الهواء، حتى سمعت أن يوماً ما كان يتكلم في المحيط فسقط طير بين يديه، وغرز منقاره في الأرض، وقطر الدم من منقاره، ومات بين يديه.

وأمثال هذه الحكاية كثيرة في الآثار والأخبار، من جميع الحيوان والسباع والطيور والحشرات، ألا ترى كيف تكلم الضب مع النبي ﷺ، وكيف مدحه بقوله: «ألا يا رسول الله: إِنَّكَ صَادِقٌ، فبوركت مهادياً وبوركت هادياً» إلى قوله: «فبوركت في الأحوال حياً وميتاً، وبوركت مولوداً، وبوركت ناشئاً»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في طلب الحق، وإفراد قدمه عن الحد والاعتبار في صنائعه اللطيفة، التي تبرز منها أنوار الصفات في العالم ومثيلتها، إنها خلقت من عالم الملك والشهادة والأفعال والآدمي والملائكة خلقت أجسامهما من عالم الأفعال، وأرواحها من نور

(١) إنها يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحياهم الله قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فَتَهْبُ عليهم نفحات الهداية؛ لما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صديق عند الملك الودود [البحر المديد (٢/ ١٤١)].

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (١/ ٥٢٣) بنحوه.

الملوكوت؛ لذلك فضلت الملائكة والأدمي على غيرهما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي جناحيه: جناح التوكل والرضا، وجناح الخوف والرجاء، وجناح الفناء والبقاء، وجناح الإيمان والتقوى، وجناح النعمة والبلاء، وجناح الهمة والصفات، وجناح العبودية والربوبية، وجناح المعرفة والمحبة، يطرون بها هرباً وطرباً وشوقاً وطلباً، وإشارة الظاهر في المثلية أن جبلة الأمم من العناصر الأربع خلقت، ومن طبيعة الحيوانية والروحانية أنشئت، وتساوت في الأكل والشرب والحركة والاجتماع، وصفات النفسانية ونعوت الذاتية من الحرص والغضب والشره والبطر، وحقائقها في التساوي رجوعها إلى معدن الفطرة، الذي أنشأها الله منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

ومن أئمة التفسير الظاهر قول ابن عطاء قال: أمثالكم في التوحيد والمعرفة.

وقيل: ﴿إِلَّا أَمَمٌ﴾ في التصوير ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ في التسخير، وأقوام جميع الحيوان والملائكة والجن والإنس والجمادات من العرش إلى الثرى بالقدرة القادرية الأزلية، وهم مشارب وسوايق من بحر خطاب الله، وكلماته الأزلية المبينة طرق توحيد الملائكة، ومعرفة الناس وفطرة الحيوانات والطيور والحشرات والسباع المزوجة طباعها بالعلم بصانعها وخالقها، إلى ظهور صفاته وذاته لهم بياناً غير مشكل عليهم، ولا ناقص عن تمام مرادهم.

قال تعالى: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: كل ما يحتاج الخلق في العبودية وعرفان الربوبية بيانه في كتابنا، ليس مقام ولا حال ولا وجد ولا إدراك ولا معرفة ولا رؤية إلا ويبين طريقه في كلامه تعالى صفته الخاصة المبينة، عرفان جميع الصفات، وطرق الصفات إلى الذات، أخبر تعالى به عن أسرار الأولين والآخرين من العرش إلى الثرى.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أخرجنا في الكتاب ذكر أحد من الخلق، ولكن لا يبصر ذكره في الكتاب إلا المؤيدون بأنوار المعرفة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُتْلَوْنَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿١٩﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايَتِنَا صُومًا وَنُكْمًا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من قر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماءهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله السنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيثار بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطي آذان أسرارهم، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا.

قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهو اجس الهياكل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المشيئة تقع على المقبولين والمطرودين على الإبعاد والقبول والرضا والسخط، بما جرى عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، فمن لم يكن صادقاً في بدء إرادته يغويه الحق في ظلمات قهره غيرة على وصله؛ حتى لا يصل إليه غير صادق في محبته، ومن كان صادقاً في بدء إرادته ولم ينقص عقد بدايته بمتابعة نفسه والفترة عن طاعة يهديه الحق بنفسه إلى نفسه، ويجعله مستقيماً في طريق معرفته وطاعته، والطريق المستقيم طرق أفعاله للعقول بنعت الفكرة، وطرق صفاته للقلوب بنعت المحبة، وطرق ذاته للأرواح بنعت المعرفة.

قيل: مَنْ يرد الله به الشر يتركه في سوء تدبيره ليبقى في ضلالتة، ومن يرد الله به الخير يحجره إلى حسن اختياره، فيبقى على أسلم الطرق، وهو الرضا بمجاري القدرة، وهو الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَعْيَزَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴿٦٧﴾، ﴿عَمَّيْزَ اللَّهِ﴾: الجاهلين ربوبيته عند امتحانهم ببلائه، يرجعون إلى غيره من الخلق؛ لطلب المعاونة بدفع البلاء عنهم، أي: إن كنتم صادقين في دعوى معرفتي لم تتكلمون إلى غيري عند نزول البلاء؟ فإنكم تدعونني حين تدعون غيري، فإن الدعاء لم يقع على غيري؛ إذ فنيت الحوادث في سطوات عظمتي، لكن لا تعلمون أنكم تدعونني حين تدعون غيري من جهلكم بفناء الحدث في القدم.

وأيضاً: ويَبْخَهُم بانصرافهم عن بابه تعالى في دعة العيش من قلة وجدانهم حلاوة قربهِ ووصاله إلى طلب زيادة حظوظ أنفسهم، والسكون إلى غير الله، ثم يرجعون إلى بابه حين امتحنهم بالبلايا، ويدعونه لكشف الضر عنهم لا لطلب مشاهدته وقربه، يدعونه، وهذه عادة المفلسين المعرضين عنه إلى غيره.

قيل: على غيره تتكلمون، وإلى سواه ترجعون، وهو الذي وفقكم لمعرفته، وأقامكم مقام الصادقين من عباده.

قال الجريري: يرجع العارفين إلى الحق في أوائل البدايات، ويرجع العوام إليه بعد اليأس من الخلق.

قال الله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بل الصادق مَنْ إليه يرجع، وإياه يدعو.

قال الجنيد: مَنْ دعا الحق فإياه لإياه يدعو، من غير حظٍّ فيه ولا حضورٍ من نفسه، قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

قال بعضهم: بل إليه المرجع لَمَنْ غفل عنه خطابه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا وصف قوم لم يذوقوا طعم وصل المشاهدة، حيث أرجعهم الحق إليه بسوط قهره، ولو كانوا على محل المعرفة والمحبة والشوق إلى المشاهدة لم ينصرفوا عنه طرفة عين.

وأيضاً: إذا أراد سبحانه كلاءة قوم من محبته إياهم ألزم عليهم حراس بلياته، وضرب عليهم سراق حفظه؛ لئلا يشتغلوا بغيره لحظة.

وأيضاً: أي لما اشتغلوا بحظوظ ما وجدوا من قُرْبنا أوقعناهم في أودية الفترة حتى لم يجدوا آتئذٍ المواجهين وحقائق الواردات، ومسئولهم بآساء الفراق وضراء الأشواق؛ لكي يصلوا إلَيَّ من نفوسهم وحظوظهم، ويروني بنعت تجريد التوحيد، وإفراد القدم عن الحدود.

قال ابن عطاء: أخذنا عليهم الطرق عليها ليرجعوا إلينا.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٦٦﴾ فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وصف قومًا تركوا نصائح المشايخ من

إعجابهم برأيهم، ولم يتيقظوا بدقائق إلهام الله الذي نزل على قلوبهم حين زجرهم طوارق الغيب عن سكونهم بها وجدوا من أنفسهم نبذة من الحكم ولمعاً من الفراسة، وهذا معنى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

ولما سكنوا إلى أنفسهم لما وجدوا من لطائف الكرامات فتح الله عليهم أبواب الرئاسة والجاه عند الخلق، حتى إذا فرحوا بتمكينهم عند العوام يرد الله قلوب الخلق عنهم ويفضحهم عندهم، ويعرف الخلائق خيانتهم ومكرهم وسقوطهم عن درجة القوم؛ حتى لا ينظر إليهم أحد من خلقه بالشفقة والرحمة، ويموتوا على حسراتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من نيل كرامات الله بعد ذلك؛ لأنهم خانوا في طريقه، وهو لا يهدي كيد الخائنين.

فلما قدس الله بساط الولاية عنهم ودفع إيذاءهم عن خواص حضرته أثنى على نفسه، وحمد جلاله المنزه عن الاستبشار بوجودهم والاستيحاش عن عدمهم نيابةً عن أحبائه، الذين عجزوا عن حمده وثنائه بقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿١١﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ الإشارة في ذلك إلى أهل مقام ذهاب الذهاب، أي: إن أخذ الله أسماع أسراركم بصواعق العظمة، وطمس بطون بصائرهم بأنوار العزة، وختم على قلوبكم بخواتم الملكوت والجبروت بعد امتلائها من أنوار الكبرياء، وفنائها في سنا البقاء حين غلبت سطوات القدم على الحدث بنعت تلاشي الحدث، فيبقى القدم ولا يبقى العدم من يكون بعد عدمه في القدم ممن يدعي الأنانية، ويخرج نفسه بعد فنائها من تحت أذيال الأحدية بوصف سمع الأزل، وبصر الأبد، وقلب الصمدي، لا يكون للفاني في الباقي أثر؛ فإنه - تعالى - قادر به بذلك، منزّه عن النظر والعديل.

قال الترمذي: إن أخذ الله سمعكم عن فهم خطابه، وأبصاركم عن الاعتبار بصنائع قدرته، وختم على قلوبكم سلبكم معرفته، هل أحد يقدر على فتح باب من هذه الأبواب

سواه؟ كلا بل هو المبدئي النعمة تفضلاً، ومتممها في الانتهاء تكملاً.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: مَنْ يَقْنَنُ مِنِّي أَنِّي أُعْطِيَ وَلَا يَتِي لَمْ أَطَاعَنِي، وشاهد بقلبه حضرتي بعد تصديقه إلهامي في قلبه حين دعوته منه إليّ، وأصلح مزارعي وموضع تجلّي من قلبه وسره، ما خرب من سابق هواجسات نفسه، وركضات شيطانه بذكرى وثنائي والاستعاذة مني إليّ، فلا خوف عليه من احتجابي عنه، ولا له حزنٌ من انقطاعه عني.

قال بعضهم: مَنْ أَخْلَصَ بَاطِنَهُ، وَأَصْلَحَ ظَاهِرَهُ، ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ خوف القنوط، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حزن القطيعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: هل يستوي الأعمى عن النظر إلى غير الذي لم يبق له عين من نفسه إلا من عيوني، والبصير بنور ملكي وملكوتي، أفلا تتفكرون بين الفاني والباقي عليّ، وفيه شرف المصطفى ﷺ حين تجرّد في العبودية، وتفريد التوحيد بنفي الأنانية عن نفسه، وإسقاط الحدث عن ساحة القدم حين أمر: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، ونزّه نبوته عن التكلف في اقتباس علم الغيب بالجد والسعد بقوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، وتواضع حين أقام نفسه مقام الإنسانية بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من المكرويين والروحانيين على باب الله سبحانه خضوعاً لجبروته، وخشوعاً في أبواب ملكوته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وليس لي اختيار في نبوتي، ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ هل يكون من هذا وصفه بعد كونه بصيراً بنور الله ورآه به، كالذي أعمى عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟! أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيراً بنور القدم ليس كمَنْ ولد من العدم أعمى عن رؤية عظّمته وجلاله!

قال بعضهم: الأعمى مَنْ عَمِيَ عن طريق رشد، والقائم مع عبادته، والبصير الناظر إلى منن الحق عليه، وحسن توليته له، أفلا يتفكرون في اختلاف السبيلين وتباين المذهبين.

قال الأستاذ: هل يتشاكل الضوء والظلام؟ وهل يتماثل الجحد والتوحيد؟ كلا أن

يكون كذلك.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أدق طريق معارفه؛ حيث أسبل نقاب العظمة على وجه جلال القدم، وضرب سرادق العزة على ساحات الكبرياء؛ حتى لا يصل إلى إدراك كنه قدمه وبقاء ديموميته.

وبين ذلك في كلامه القديم، أي: خوف بما وصفت نفسي بامتناعي عن مطالعة الخليفة وإدراكها سر حقيقة وجودي في كتابي وخطابي، الذين يخافون من قطيعتي، ويعلمون تنزيه جلالي عن أن يصل أحدٌ إليَّ بطاعته حين أحشر إليَّ بعلل الإنسانية وسمات النفوسية، إن الأمر هناك أجل من أن تخطر بخواطيرهم، وأدق من أن يفهم أحدٌ، فإن مكري قديمٌ، وصفني تنزيهٌ، لو أحرق جميع المخلصين بنيران البعد بعد أن يكونوا من أهل القرب، فلا أبالي فإن كبدي متينٌ، ولو يأتونني بملء السماوات والأرض إخلاصًا، وأريد أن أرفق عليهم بإخلاص الإخلاص لا يخلصهم إخلاصهم من دقائق حسابي.

وما أطلع عليهم من خطرات ضمايرهم المسيرة إلى غيري، ولو أمنعهم مني مَنْ يتولى أمرهم بإرجاعهم إلى غيري، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم يتقدسون من نفوسهم بقدر تذكركي وذكرتي لهم، ويخافون مني بقلة خوفهم عني.

قال أبو عثمان: أهل المعاملات وأرباب الصدق في ذلك خائفون مما يبدو لهم من الإيمان والتوكل واليقين وأنواع العبادات، وعرض ذلك على ربهم يشغلهم خوف ذلك من رؤية أفعالهم والتلذذ والاعتماد عليها، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ... الآية﴾.

وقال أبو سعيد الخزاز في الآية: ﴿أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أن يجعلوا إليَّ وسيلة أو شفيعًا إلى نفسي سواي.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت الأستاذ أبا سهل محمد بن سليمان يقول: لسنا مخاطبين بحقائق القرآن، إنما المخاطب بحقيقته هم الذين وصفهم الله، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ... الآية﴾، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: مَنْ استقطعت المملكة عن الملك لا يصلح لخدمة الملك.

وقال: لا تلاحظ أحدًا، وأنت تجدد إلى ملاحظة الحق.

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أن يجعلوا إليّ وسيلة غيري.

وقيل في هذه الآية: إنها تعطى الأطماع بمقاربة صرف الكريم دون السعاية بضياء الهداية.

ويقال: الخوف هاهنا العلم، وإنما يخاف من عليم، فأما القلوب التي غطاها الجهل، فلا تبشرها طوارق الخوف.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يبين الله سبحانه في هذه الآية تخصيص الولاية بعد تخصيصه النبوة والرسالة، وصرح في بيانه أن الولاية اصطفاية محضة كما أن النبوة والرسالة اصطفاية محضة، لا يتعلقان بسبب من الأسباب من العرش إلى الثرى.

وكما أنه - تعالى - أحبّ الأنبياء والرسل كذلك أحبّ الأولياء والأصفياء محبة بلا علّة، وكما أن الله سبحانه خصّ نبينا محمدًا ﷺ بالرسالة بغير علّة، وجميع الخلائق من الجن والإنس والملك كذلك خصّ أصحابه بشرف الولاية بغير سبب من جهته، ولا جهد من جهده، وصحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، بل كما سبق في الأزل العناية له بالرسالة، كذلك سبقت لهم في الأزل الولاية، كذلك وقعت لهم الصّحبة والموافقة من جهة تلك الأهلية، اتبعوه وقبلوا أمره، ووضعوا رقابهم تحت قدمه، ولولا تلك العناية الأزلية كان حالهم كحال هؤلاء الأعداء، لكن إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فمنّ الله على نبيه ﷺ بتأييده ونصر أصحابه له بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ولما بلغ شرفهم إلى هذه المرتبة وصّى الله نبيه ﷺ بمراعاتهم، ورعاية حالهم، وتربيتهم، وعاتبه في الآية لأجلهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ الآية، أي: لا تمنع هؤلاء من صحبتك، ولو كان لحظة لأجل حرصك بإسلام الباطلين، فإن هدايتهم عندي، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من أقبائك، ﴿وَلَكِنَّ

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» من هؤلاء الفقراء مثل بلال، وصهيب، وسلمان، وعمار، وحذيفة، والمقداد، ونظرائهم من أصحاب الصفة، الذين يدعون الله لوصولهم إليه عند كل صباح ومساء؛ لشوقهم إلى جماله ومحبتهم للحق منه، وهذا معنى قوله: «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»^(١)، وخصَّ الغداة والعشي بالدعاء؛ لانجلاء أذيال الظلام من النهار بالغداة، وانجلاء أذيال الضياء من الظلام بالعشي، ولأن هناك ظهور تجلي القدرة وجلال العظمة، وهناك تكون ساعة تستجاب الدعوة فيها.

وأيضاً: يدعون الله بنعت الفناء في شوق جماله عند طلوع كل صبح من أنوار تجلي صفاته في قلوبهم عند كل نفس؛ لأن عند تنفس كل نفس من العارف يكون صبحاً من ظهور بركة مشاهدته هناك، ويدعون ويستزيدون محبته وشوقه وقرب مشاهدته هناك، ويدعون عند كل وارد غشيان الأحوال على قلوبهم بنعت الحيرة في عظمتها؛ لأن ظهور تراكم سحاب العظمة وضباب الكبرياء، وبعد كل نفس بنفس العارف يكون عشي الحال، وليالي الوصال كانوا يدعون الله في جميع أنفاسهم لقاءه لإرادتهم احتراقهم في أنوار وجهه تعالى، وعلّق الدعاء بالوقتَيْن؛ لأنهم هناك سكنوا من عليّة الواردات وطوارق الحالات، فلما سكنوا في تلك الساعات ضاقت صدورهم، ودعوا الله بإرجاعهم إلى السكر بعد الصحو، وإلى حضورهم بعد الغيبة.

ألا ترى إلى قوله: «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» وصفهم بالإرادة مع كمالهم في المعرفة؛ لأن الكامل يرجع عند كل نفس من مقام النهاية إلى مقام البداية؛ لأن هناك منزل النكرة من ظهور أنوار آفاق القدم، وبروز سنا بطون الآزال، وكشف غيوب الآباد فُرُوا من سطوات الذات إلى نور الصفات؛ لأن هناك مقام المعرفة، ورؤية الذات مقام النكرة، ففرارهم من النكرة إلى المعرفة، ومن النهاية إلى البداية.

ألا ترى إلى قول الصديق عليه السلام كيف قال: «سبحان مَنْ لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»^(٢).

وسُئِل بعض العارفين: ما النهايات؟ قال: الرجوع إلى البدايات.
وخصَّ الله سبحانه إرادتهم وجهه؛ لأن الوجه صفة أزلية من خواص صفاته المتشابهة،

(١) أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة، ثم قال: أزهّد الناس أصفاهم مطعماً، وأعبّد الناس أشدهم اجتهداً في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقهم [تفسير التستري (١) / (١٣٥)].

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٥٤).

وهو معدن جلاله وجماله، يتجلى بنور وجهه لقلوب العاشقين والمشتاقين والمحبين، وذكر الوجه خاصة؛ لأن القوم في مقام العشق والمحبة والشوق، ولذلك علقهم بمقام المتشابه لوقوع الأحوال والمكاشفات على مقام الالتباس، لما كان حالهم العشق في وصفهم بالإرادة، وعلقهم بصفة من صفاته؛ لأن العاشقين في جنب العارفين، والموحدين كقطرات في البحار، ولو كانوا على محل النهايات ما وصفهم بالإرادة، ولا علقهم بصفة واحدة من جميع صفاته؛ لأن العارف خرج من مقام الإرادة التي توجب العبودية إلى مقام الحقيقة التي توجب الربوبية، ولو كانوا على حد الكمال وصفهم بطلب جمع الذات والصفات، وما وصفهم بطلب صفة واحدة من جميع صفاته.

وقال في موضع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدون الله؛ لأن اسم الله عين الكل، وعين الجمع.

وأيضاً: وصفهم بإرادة وجهه، ووجهه سبحانه عن إشارة التشبيه والتعطيل مندرج تحته جميع الصفات من السمع والبصر والكلام، ويتعلق به جميع الصفات، وأراد بالوجه عين الكل، و﴿وَجْهَهُ﴾ أي: ذاته وصفاته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا نفسه.

وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ذاته وصفاته.

وكذا قال أهل التفسير الظاهر: فإذا كان كذلك كان القوم يريدون الله بجميع ذاته وصفاته بوصف المحبة والشوق، كانوا يريدونه لأنه - تعالى - يعرفهم نفسه بنعت مباشرة تجلية قلوبهم، وهذا مقام قد استأثره الله لنفسه لا لأحد غيره؛ لأنه - تعالى - عرف نفسه لا سواه، غلب عليهم لذة قربه وخطابه، فأرادوا كشف كنه القدم، كما غلب على موسى عليه السلام حين سأل هذا المقام بعد ذوقه لذة كلامه تعالى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لما رآه بالوسائط، وخرّ من سطوات القدم، وأفاق بنور البقاء، فلم ير للحدثان في جنات القدم أثراً تاب عن سؤاله، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ألا أعرفك كما أنت، وهذا مقام النبي ﷺ بعد أن رآه صرفاً؛ حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ^(١).

فلما علم سبحانه ذلك منهم أمرهم بالاستغفار وطلب العفو، كما أخبر عنهم بقوله:

﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

سئل أبو يعقوب النهرجوري عن المريد؟ فقال: صفته ذكرها الله في كتابه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، وهو دوام ذكر وإخلاص عمل، أوصى بهذه الآية أكابرهم في التعطف عليهم والصفح عن زللهم.

قال بعضهم: يدعونه شوقاً واعتياداً عليه لم يشغلهم شاغل، ولم يصددهم عن خدمته صاذاً، قائمون على بابه من الخدمة والعبودية، منتظرون زوائد بركاته عليهم.

ولي إشارة أخرى: أن الله تعالى وصف حضورهم بالغداة والعشي أي: حضروا في الحضرة بالغداة بعزم خدمته إلى العشي، وحضروا بالعشي بعزم خدمته إلى الغداة حتى تكون أوقاتهم مسرمة بغير فترة.

الإشارة فيه: لما وصفهم بالحضور نفى عنهم بدليل الخطاب جميع أشغال الدنيا، أي: كانوا رجال المراقبة والحضور والمجاهدة، لا يشغلهم عن الله شاغل طرفة عين، كما وصفهم في موضع آخر بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وأيضاً فيه لطيفة: وصفهم بالحضور بالغداة والعشي على ترمد الأحوال لترويحهم سويعات بالأحكام الظاهرة، هذه شفقة من الله؛ لكيلا تحرقهم نيران محبتهم، وتزيلهم حدة إرادتهم.

يقال: أصبحوا، ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقابهم، ولا همة سوى حديث مولاهم، فلما تجردوا لله تحضت عناية الحق لهم فتولى حديثهم.

وقال: ولا تطردهم يا محمد، ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، الفقير خفيف الحال لا يكون على أحد منه كثير مؤنة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: الفقير الصادق إذا امتن الله عليه بمعرفته، وكشف مشاهدته، وكساه رداء هيئته يتجلى عند جميع الخلائق لبروز نور جلال الله من وجهه بحيث يجيء بقوم العالم عنده لصولة حاله، وغلبة وجده، ولطائف كلامه، ويكون سالب قلوب الخلق بما يجري عليه من أحكام ربوبية الله، فيظهر للحق منه سنا كرامات الله، ولطيف آيات الله، فيحسده عليه أهل الدنيا من المغرورين بمزخرفاتها، الواقعين في ورطاتها، ويقولون عند العامة: أهذا الذي له كرامات وآيات؟! هذا طراز سالوس، وأرادوا بذلك صرف وجوه الناس عنه إليهم.

قال الله سبحانه في وصف الحساد عند حسدهم على أوليائه: ﴿أَهْتُولَاءٍ مِّنْ آلِهِ

عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ استهزاء، فأجابهم الله رغماً لأنوفهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: هو تعالى يعلم صدقهم وإخلاصهم وبذل وجودهم شكراً لإنعامه، وهذا لما مَنَّ عليهم من الدرجات الرفيعة، والحالات الشريفة، ويعلم غيظ أعدائهم.

وفي الآية نكات: أن فتنة الفقر طمعه إلى الغنى، وفتنة الغنى بغضه للفقير؛ لثلا يؤديه حقه.

وأيضاً: في الحقيقة مقام الفقر مقام التجريد والتوحيد والتنزيه، وإفراد القدم عن الحدوث، وفناء النفس في الحق، وإذا كان الفقير بهذه الأوصاف يستظل بظلال الربوبية، ومقام الغنى مقام الاتصاف بصفات غنى القدم والاكتماء بكسوة الربوبية، فإذا كان الغنى بهذه الأوصاف يكون نائب الحق في العالم؛ فإذا رأى فقيراً بوصف ما ذكرنا يصول عليه بقوة مقامه، فيكونان في حجاب حالهما ومقامهما ورؤية غير الله، وهذا من غيرة الله عليهما؛ لثلا يسكن أحدهما الآخر، فيسقطان من درجة السكون إلى الحق، ومن غيرته تعالى على نفسه لشغل بعضهم بعضاً؛ لثلا يطَّلَع عليه غيره.

وما ذكرنا بمجموعه فهو معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، وما يليق بذلك من تفسير.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: بالذين منهم من لا ينظر في طريقه إلى نفسه وإلى غيره طرفه عين.

قال الحسين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: قطع الخلق بالخلق عن الحق.

وقال محمد بن حامد: فتنة الفقراء بالأغنياء، وفتنة الأغنياء بالفقراء، ففتنة الفقير في المعنى رؤية فضله، وبسخطه لما يمنعه ما في يده، ويراه المعطي والمانع دون الله، وفتنة الغني في الفقير ازدراؤه الفقراء، وتحقيره إياهم، ومنعهم ما أوجب الله عليه لهم مما في يده، وامتنانه عليهم بإيصالهم إلى حقوقهم وإيصال الحقوق إليهم، والذي يسقط عن الفقير فتنة فقره رؤية دخل الأغنياء، والذي يسقط عن الغني فتنة غناه رؤية دخل الفقراء.

قيل: في الشكر، والشاكرون: الراجعون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّيْسَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾: تطيب لقلوب المريدين، الذين يطلبون الله بوسائط الآيات، وتسلية لقلوب النادمين على ما فات عنهم من أوقات المراقبات بمباشرة الجنایات، فأحاطهم الحق إلى سلام نبيه ﷺ؛ لأنهم في مقام الوسيلة، ولو بلغوا إلى درجة أهل المشاهدة لأحاطهم إلى سلامه بقوله: ﴿سَلَمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

انظر كيف أحب الرجوع للمذنبين؛ حيث أمره ﷺ بالسلام عليه بقوله: ﴿فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعام: ٥٤]؛ لأنهم قاسوا مقاساة امتحانه في بيداء قهره، لما رآهم مقبلين إليه بعد تحملهم بلاياه، سلم عليهم بلسان نبيه، ثم رفع درجتهم من ذلك، وواساهم بنفسه، وروح فؤادهم بمروحة رحمته السابقة عليهم في الأزل بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: كان في الأزل اصطفاهم برحمته، وإن علم منهم العصيان، رحمته الأزلية أصل ثابت، والمعصية عارضة من طوفان قهره في طريق الإقبال إليه والمصارعة في السير إلى وصاله، فإذا وصلوا إلى معادهم بقيت الأصول، وفنيت العوارض، إذا أحبهم بمحبته الأزلية توجب محبته أن يوصلهم إلى مشاهدته التي هي رحمته الكبرى، وأن يخلصهم من غبار الطبيعة، ويطهرهم من أدناس النفسانية بمياه رحمته الكافية بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ نظر إلى غيره ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ بقلّة علم على ذوق وصالي ولطف جمالي، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ رجع من نفسه إلى، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ مزار تجلياتي من قلبه، بأن قدسه من شوائب شهواته.

﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ لما سلف من تقصير في أداء حقوقي؛ بحيث لا أعيرهم بذلك أجزاً.

﴿رَحِيمٌ﴾ بأن قوّاهم بقوة أزلية؛ ليحملوا أثقال مشاهداتي بها، ولولا ذلك لفني وجودهم في أول رؤية سطوات عظمتي وجلال كبريائي.

قيل في قوله: ﴿فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾: سلم أنت على الذين يؤمنون بآياتنا، فإننا نسلم على الذين آمنوا بنا بلا واسطة، وذلك قوله: ﴿سَلَمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

قال إبراهيم بن المولد: والله إن الحق هو الذي يسلم على الفقراء، والنبي ﷺ في ذلك واسطة.

وقال الواسطي في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: برحمته وصلوا إلى

عبادته، لا بعبادتهم وصلوا إلى رحمته، وبرحمته نالوا ما عنده لا بأفعالهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «... ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مِّنْ عَمَلٍ مِّنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾: كل من عصى الله عصاه بجهل له، وكل من أطاعه أطاعه بعلم، فإن العبد إذا لم يعظم قدر معرفة الله في قلبه ركب كل نوع من البلاء.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾: بادرهم بالسلام قبل أن يسلموا؛ إكراماً لهم، وإظهاراً لقدرهم.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: في الأبد لمن نظر إليه في الأزل بعين الرحمة.

قال أبو عثمان: أوجب على نفسه عفو المقصرين من عباده؛ لذلك قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وقال بعضهم في قوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾: في الصفات الجارية عليهم ولهم، الذي اعتقهم من رق الكون، وأظهرهم من خفايا المخزونات المصونات المكنونة بأعجب أعجوبة، ثم أشهدهم السلام، فكانوا سالمين منه في إظهار ربوبيته، سالمين منه في آخريته، استحقوا اسم السلام بذلك.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ لَّوْ أَن عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين ومشاهدة ورؤية غيب وسلطان براهين، وسطوع نور الأزل من وجهي، فإنه أعظم البينات في العالم، من رآه رأى الحق؛ لقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ»^(٢)، و«مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ»^(٣).

قال أبو عثمان المغربي: الأنبياء على بينات، والأكابر من الأولياء على بينات، وبينات الأنبياء وحي يقين، وبينات الأولياء الفراسات الصادقة، والإخبار على الغيب كما كان ليوشع عليه السلام وللصديق الأكبر ﷺ.

(١) رواه البخاري (٢٣٧٣/٥)، ومسلم (٢١٦٩/٤)، وأحمد في مسنده (٣٣٧/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨/٦)، ومسلم (١٧٧٦/٤).

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ غيبة ذاته القدسي، وهو خزانة أسرار الآزال والآباد، ومفاتيحها صفاته الأزلية، لا يعلم صفاته وذاته بالحقبة إلا هو تعالى بنفسه، فنفي الغير عن البين؛ حيث لا حيث ولا بين، فمن إشارة الأحدية المفتاح والخزانة واحد؛ لأنه منفرد بصفاته وذاته عن الجمع والفرقة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، قال: علمه مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قال السدي من كبار المفسرين: ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب.

وأيضاً: مفاتيح الغيب عنده أنوار عنايته الأزلية التي سبقت منه بنعت الكرم والفضل لأنبيائه وأوليائه وملائكته، وغيبة ذاته وصفاته تعالى؛ لأنه كنزه القديم الباقي، ألا ترى إلى قوله: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأُحْبِبْتُ أَنْ أَعْرِفَ»^(١).

يفتح بلطفه بتلك الأنوار الأزلية التي سماها المفاتيح لهم أبواب خزائن صفاته وذاته؛ ليعرفوا كنز القدم بأنوار القدم، وهو تعالى يظهر مكنون أسراره من ذاته وصفاته لهم، وهم يستخرجون من بحار الذات والصفات جواهر علومه الأزلية والأبدية؛ ليوضحوا بأنوارها طرق العبودية لعباده، ويبينوا مدارك المعاملات ومراقي الحالات لهم.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يعلم الأولون والآخرون قبل إظهاره تعالى ذلك لهم، ولا يعلم حقائق أقدارها إلا هو؛ لأنه تعالى عرف قدره بالحقبة لا غير.

وأيضاً: لا يعرف طريق وجدانها والوسيلة إليها إلا هو، هو بذاته تعالى عَرَفَ طرقها لأهلها، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وأيضاً: له مفاتيح الغيب، ومن تلك المفاتيح التي يعطي قاصديه وطالبيه في بدء شأنهم ما داموا صادقين، هي المعاملات السنية، والمقامات الشريفة التي يستفتح بها لهم خزائن الملكوت والجبروت، ويستخرج منها أنوار المحبة والشوق والعشق والمعرفة ودرجاتها،

(١) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٨)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٧٣) بنحوه.

والتوحيد ومكاشفاته وعلومه، فيصلون بها إلى وصاله الأبدي وقربه الجلالي.
وأيضًا: له مفاتيح اللطيفات والقهرات، يفتح بها أبواب أنوار المعرفة للأولياء، ويفتح بها أبواب ظلمات الطبيعة للأعداء.

وأيضًا: عنده مفاتيح غيب الدرجات، يفتح للقلوب خزائن المشاهدات، وللأرواح خزائن المكاشفات، وللعقول خزائن المعارف، وللأسرار خزائن علوم الذات والصفات، وللأشباح خزائن المعاملات، يفتح للأنبياء بها خزائن المعجزات، ويفتح للأولياء خزائن الكرامات، ويفتح للمريدين خزائن الفراسات.

قال الجريري: لا يعلمها إلا هو، ومن يطلعه عليها من صفى وخليل وحبيب وولي.
وقال ابن عطاء: هذه الآية تفتح لأهل الخير المحبة والرحمة، ولأهل الشر الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامة، ولأهل السرائر السر، ولأهل التمكين جذبًا.
وقال ابن عطاء: الفتح في القلوب الهداية، وفي الهموم الرعاية، وفي الجوارح البشارة.
وقال أيضًا: يفتح للأنبياء المكاشفات، وللأولياء المعاينات، وللصالحين الطاعات، وللعمامة الهدايات.

وقال أبو سعيد الخزاز في هذه الآية: أبدى ذلك لنيه وحبيبه، فتح عليه أولاً أسباب التأديب، أدبه بالأمر والنهي، ثم فتح عليه أسباب التهذيب، وهو المشيئة والقدرة، ثم أسباب التدويب، وهو قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ثم أسباب التغيب، وهو قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، فهذه مفاتيح الغيب التي فتحها لنيه ﷺ.
وقال جعفر عليه السلام: يفتح من القلوب الهداية، ومن الهموم الرعاية، ومن اللسان الرواية، ومن الجوارح السياسة والدلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يعلم عجائب بحر غيب لطفه الأزلي للأنبياء والأولياء، ويعلم عجائب بحر غيب قهره للأعداء.
وأيضًا: يعلم في بحار الغيوب وبراري القلوب.

وأيضًا: يعلم ما في بحار القلوب من عجائب الحكم وجواهر الكرم، وأصداف المعارف وأطاف الكواشف، ويعلم ما في براري النفوس وبناتها من ألوان الشهوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]: لا تسقط ورقة من أوراق أشجار الغيوب إلى فضاء القلوب من سطوة صرصر رياح القهر واللفظ التي هي حكمة من حكم علوم الأزلي الأبدي.

وأيضًا: ما تسقط ورقة من أوراق تجلي الجمال والجلال من شجر القدم على قلوب

المحبين والمشتاقين والعارفين إلا بعلمه على خاصيتهم واصطفائيتهم بذلك، ولا يكون حبة المحبة في غيوبات قلوب المحبين إلا هو تعالى يريها بمياه لطفه ورياح كرمه، وبياض نهار مشاهدته، وسبل إسبال ستر رعايته حتى رسخت أصلها في أرض القلب، وأثمرت فرعها في سماء اليقين.

قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أخبر سبحانه بإحاطة علمه على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وعن شمول أنوار سلطان كبريائه بنعت الغلبة على جميع الحدثان ظاهرًا وباطنًا ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، وهدد به العباد؛ ليفرغوا منه إليه عند كل خاطرٍ يخطر على قلوبهم يشير إلى غيره، فإنه يعلم السرّ وأخفى، ويبيّن أن جميع المقدورات من العرش إلى الثرى في كونيتها من العدم إلى الوجود، ومن الوجود إلى العدم يكون بسابق مشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وأن جميعها مكتوبٌ على ألواح الصمدية بأقلام أقداره، الغربية محفوظة من تغير الحدثان في تلون الزمان والمكان.

وصحة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] رطوبتها من أثر نسيم شمال ربيع لطف مشاهدته، وخضرتها من نضارة ظهور عرائس قدرته، وصفرتها من تأثير رياح خريف قهره، وسقوطها من حدة صولة نظر عظمتها، وبدوها خضوعًا لربوبيته، وزوالها من تقديس جلاله عن علة الكون والوجود والعدم.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾: متى علمها حين لا متى؟

قيل: نضرتها وخضرتها وزهاها حتى لا يوجد منها شيء، فما ستر من صفاته، وما أظهر واحد، ذلك على قدر الكون، إنما يتكلم بأقدارنا، ويشير بأخطارنا، ولو كان قدره كان الهلاك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾: فالاضطرار في أن يقدم ما آخر أو يؤخر ما قدّم منازعة لربوبيته وخروجًا عن عبديته.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: ما من دابة إلا ولها ورقة خضراء معلقة من تحت العرش، فإذا يبست الورقة وقعت بين يدي ملك الموت، مكتوبٌ عليها اسمه واسم أبيه، يعلم ملك الموت قد أمر به بقبض روحه فيقبض روحه.

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار

إلا عليها مكتوب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا رزق فلان بن فلان^(١)، وذلك قوله في حكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَضَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِبِينَ ﴿٨﴾﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾: توفيتهم في الليل لطيران أرواحهم في الملكوت، وسيرانها في أنوار الجبروت، ليزيد شوقها إلى معادنها، وتعرف ما يجازي به بأعمال الأشباح التي كسبتها، وبالنهار من الثواب والعقاب، وتعلم قدرة الله بالإماتة والإحياء مباشرة ومعينة؛ ليحيى عليها وقت انقطاعها من الحدثان إلى مشاهدة الرحمن، أشار إلى هذا بتمام الآية: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَضَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وشاهد الآية ومعناها: قوله تعالى بعد ذكر قهر سلطانه بوصف الإحاطة على العبد ومحافظته بالملائكة وإرجاعه إلى كنفه القديم وقربه الكريم: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ من شرفه وكرامته لا يبقيه في سجن الدنيا وبليتها، وأبدى الملائكة الكاتبين عليه أعماله غيره على وليه؛ لئلا يطلع عليه غيره، وفي الآية رجاء المذنبين، وذلك تلطفه بهم حيث قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، لو قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾، ولم يقل: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ لذابوا من عظمتهم وقهر كبريائه، ولكن تعطف على عباده بإضافة موليته إليهم، ولو قال: ﴿هم موالي﴾ لكان عظيمًا، خصَّ أن قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: حبيبهم وناصرهم الحق أذهب الأمر من مقام الهيبة إلى مقام الزلفى من قوله: ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤/ ٥٣).

(٢) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾. وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المديد (٢/ ١٥٦)].

قال بعضهم: هي أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه لا مردّ للعبد أعزّ من أن يكون مرده إلى مولاه.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (١) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أُنْظِرْ كَيْفُ نُصْرَفُ أَلَا يَتْلَعُ لَهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (٢) ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٣).

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الإشارة فيه إلى مَنْ غَمَّ عليه غيم القبض، وتراكم عليه كرب الفراق؛ ليخلصه الله منها بكشف جماله له، وقربه إلى وصاله، فيخطر على سرّه وارد الامتحان، فيميل من حظ رؤية الصفة إلى حظ رؤية الفعل عند رؤية مستحسّنات الكون، أي: كاشفت كرب البعد عن قلوبكم، بكشف قرب مشاهدتي لها، فنظرتكم إلى المستحسّنات التي رؤيتها ممزوجةً بلذة شهوات نفوسكم، فتشركون إذا سكنت قلوبكم إلى غيري، وإن كان محل لطفي، لكان هناك منازلة مكر القدم.

قال بعضهم يقول الله: «أنا كاشفُ الكروب، وَمَنْ قصدي عند كرباته وحاجاته كشفت عنه كروبه، ومن قصد غيري أستقطت عنه وجاهته» (١).

لما ذكر امتنانه بكشف الكربة وعاتبهم لشركهم وسكونهم إلى غيره خوّفهم بقدرته الأزلية، وإرجاعهم إلى ظلمات الكربة، وعذاب الفرقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: بأن أحجبكم من النظر إلى ملكوتي، وأقطع موارد تجلي مشاهدتي عن قلوبكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: لا أسهل عليكم القيام على باب ربوبيتي بنعت الخدمة، وطلب الوصلة، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ إنكارًا على أوليائي وأهل مجالستي، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ مخالفة المريدين للمشايخ، ومفارقة المشايخ من المريدين.

قال القاسم في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾: اللهو والنظر إلى المحرمات، والنطق بالفحش، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ المشي إلى الملاهي، وأبواب السلاطين، وهتك أستار المحرمات، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ برفع ما بينكم من الألفة، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بكفر أهل الهوى بعضهم بعضًا.

﴿لِّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ تَخْضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ
وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: كل خطاب من خطابنا معدن من ذاتنا؛ لأن خطابنا كلامنا، وكلامنا صفتنا قائمة بذاتنا، وذاتنا معدن صفاتنا، فإذا ورد أمر كان وارد خبر الغيب، وخبر الغيب وارد الخطاب، ووارد الخطاب وارد الكلام الذي هو صفة الأزل التي سطع نورها من ذات القديم، وورد على أشكال الأمر والفعل، فيكون على قدر عقول الخلق، ولو خرج صرفاً لم يحتمل الحدثان، ويضمحل فيه الزمان والأكوان؛ لأن نعوت الأزلية لا تحملها إلا صفة الأزلية.

وأيضاً: لكل خبر على صورة المدركة مراد من الله سبحانه الذي يوافق خبر الغيب، ولا يفهمه إلا رباني الصفة.

وأيضاً: لكل خطاب من الله سبحانه من قلوب العارفين مستقر لا تنزل إلا في مستقره، هناك لا يضطرب الخبر؛ لأن هناك مسقط تجلي الأزل، وخبر الأزل في موضع تجلي الأزل يستقر؛ لأنه أهله.

قال عليه السلام: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»^(١).

وأيضاً: لكل نبأ بيان يدل ذلك إلى مقام من مقامات الصديقين، مثلما ذكر في القرآن أوصافهم، ونعوتهم من المحبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوحيد، والإيمان، والإيقان، والمشاهدة، والمكاشفة، والحضور، وإلقاء السمع، وأمثال ما ذكرنا يوجب الخبر، وصف فوائد تلك المقامات لأهلها، ولا يستلذه، الحمد لله الذي خص أولياءه بهذه المقامات.

وأيضاً: لكل نبأ من أوقات العارفين وقت، ينزل على قلوبهم على قدر الوقت ليدل على معالي درجات الغيب.

قال الحسين: لكل دعوى كشف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ وصف رعايته تعالى أهل حضرته الذين خرجوا بنعت التجريد من أنفسهم، ومن الأكوان جميعاً، ألا يطراً عليهم من طوارق القهر التي استأصلت أعداء الله بمهاسة قهرها، أي: لا يرجع شر الأعداء إلى الأولياء في الدنيا والآخرة؛ لأنهم مصونون بكلاءة الله وحفظه إياهم، ووصفهم بتمام الآية

بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرْنِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إذا كنتم مصونين بحفظي عن شر الأشرار ذكرهم أوصاف عظمتي وجلالي؛ كي يتقوا من عذابي، ويرجعوا إلي بابي نادمين من زلاتهم؛ لأن الوعظ والتذكير من شأن أهل التمكين والاستقامة في المعرفة، والطريقة؛ فإنهم ثواب الأولياء والرسول.

قيل: ما على التاركين الاعتماد على الوسائط، والأخذ من الحق حظوظهم حساب.

قال سهل: أخذ الله تعالى على أوليائه بالتذكير لعباده، كما أخذ التبليغ على أنبيائه، فعلى أوليائه أن يذكروا به، وأن يدلوا عليه؛ إذ أخذ الله ﷻ ذلك عليهم، ومتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ يَوْمَ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك البطالين الذين شغلوا عنا بحفظ الكونين؛ حتى لا يزاحوا مجالس الصديقين؛ فإنهم محجوبون بحفظهم عن لذة خطابنا، وحقائق خبرنا، ولذة صحبة أوليائنا.

قال الحسين ﷺ: ألا تلاحظ من شغلهم خلقنا عنا، وأنسوا بحياتهم في دنياهم، وهي في الحقيقة موت، والحي من يكون حيًّا.

﴿قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِّرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٨) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٦٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي: إن هدى الله الذي بسط شرائعه وحقائقه وطرائقه للأنبياء والأولياء والصديقين والمقربين، وذلك طريق عرفانه، والوصول إلى جنان مشاهدته، وذلك الطريق لأهل معرفته يدل الأولياء على الرضا بقضائيه، والصبر في بلائه والتسليم لمراده، بحيث لا يكون منهم معارضة، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُمِّرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال القاسم: الطريق إلى الله هو الأصح، والقاصد عرصته هو المعان، قال الله: ﴿إِن هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾.

قال أبو عثمان: أمر العبد بالتعليم، والتسليم ترك التدبير والرضا بمجاري القضاء، ولما بين طرائق الهدى ووصفهم بالإذعان له في مراده منه أمرهم بالصلاة، وخوفهم فيها من نفسه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ﴾ إقامة الصلاة ظهور الربوبية في العبودية، وترائي هلال المشاهدة في الخدمة؛ لقوله ﷺ: «تعيّد الله كأنك تراه»^(١)، والتقوى هنا معناها: اتقوني في الصلاة؛ فإنها مقام الهيبة والإجلال والمناجاة من أن يخطر على قلوبكم شيء دوني، فأحتجب عنكم بامتناعي عن مطالعتكم بعيون مسدودة بعوارض الخطرات.

قال ابن عطاء: إقامة الصلاة حفظ حدودها مع الله، وحفظ الأسرار فيها مع الله ألا يختلج في سره سواه.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٦٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أُنَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرْنُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٦٧) وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ^(٦٨).

قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ لما أراد تعالى أن يخرج الكون من العدم تجلي من ذاته بصفاته، ومن صفاته لأمره، ومن أمره للكاف والنون، فيفدح أحدهما بالآخر، فيخرج من بين نورهما الأكوان والحدثان؛ لاتصال نور الذات بالصفات، واتصال نور الصفات بالأمر والفعل والكاف والنون، فيحقق ذلك مراده في الأزل بذلك.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي: قوله يحقق ما في علمه بنعت إخراجهم من العدم إلى الوجود، بحيث لا يكون في ذرة منه خلل، يوافق فعله أمره، وأمره إرادته؛ لأن له الملك والقدرة الأزلية القائمة بذاته القديم الباقي بوصف الأزل إلى الأبد.

قال الحسين: هو الحق، ولا يظهر من الحق إلا الحق، قال الله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كما خصصنا الخليل في الأزل بالخلّة، أريناه ملكوت السماوات والأرض ما يظهر من أنوار صفات الأزلية، وذات السرمدية من مرائي ملكوت السماوات التباساً لثبوت خلته واستقامة

محبه، وزيادة شوقه إلى جمال القدم؛ وليكون من المشاهدين لقاءنا في مقام اليقين بواسطة الملك والملكوت.

قال أبو سعيد الخزاز: أراه ذلك لطريق الهجوم على عظمته ذكر في مقام الواصلين.
وقال فارس في تفسير الآية: بدايات أعلام الغيوب التي لا تبقي على النفوس غير الله، وهو دلائل أهل التوحيد عندهم.

وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت لثلا يشتغل بها، ويرجع إلى مالكتها.
وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت، فاشتغل بالاستدلال على الحق، فلما كشف له عن الحقيقة يترأى الكل، فقال: «أما إليك فلا»^(١).
وقيل: ليكون من الموقنين بعد معرفة اليقين.

وقال النصرآبادي في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ﴾: ولم يقل: أرى إبراهيم، ولا يمكن رؤية الفروع بالفروع، إنما رأى الفرع من الملكوت بالأصول.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِالْقَمَرِ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُسْقِوْمُ إِنِّي بُرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾: إن الله سبحانه امتحن خليله ﷺ بالبلايا، ومن جملتها امتحانه برؤية الملكوت؛ ليشغل بحلاوة رؤيتها عن مشاهدة القدم، وكذلك امتحنه في بدايته بمقام الالتباس عند ظهور كوكب تجلي نور الفعل الخاص في صورة الشعري، فنظر إليه حين جنَّ عليه ليل الامتحان، فرأى بعين الإرادة نور فعله الخاص الذي مشربه أنوار الصفة، فقال بلسان التعجب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، فدار عليه دور الإرادة، وربَّاه بنور القربة، وبلغه إلى مقام القلة، فلما جنَّ عليه ليل الفرقة من مقام الأول برز نور الصفة من معدن الذات، وظهر من نور الفعل الخاص في القمر له، فنظر إليه ورأى مشاهدة الصفة في الفعل، فقال بلسان الشوق: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، فدار عليه دور الخلَّة، وربَّاه بنور الوصلة، وبلغه إلى مقام العشق وذوقه طعم حقيقة طرب سره، وهاج شوقه إلى طلب الزيادة، فظهرت أنوار الذات في الصفات، وظهرت أنوار الصفات والذات في الأفعال الخاصة.

ثم ظهرت أنوارها في الشمس، فلما صفا وقته واندرجت ظلمة ليلة الفراق طلعت

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٥).

عليها الشمس، فنظر إليها، فرأى مشاهدة جلال القدم في مرآة الشمس، فقال بلسان العشق: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فوصل إليه غيرة القدم، وجردته عن رؤية الوسائط في رؤية القدم عند رؤيته أقول الآيات بنعت فنائها في عظمة أنوار القدم، وانكشف له عين القدم صرفاً، ففر منه إليه، وتوحد بوحدانيته، وقال للنفس المطالبة حظها من رؤية الكون المشيرة إلى كوكب الفعل: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: الساقطين في مهوات المحو عند بروز سطوات عظمة الله.

وقال للعقل المطالب حظ رؤية القدرة في رؤية القمر، الذي هو مرآة نور الصفة: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ الذين بقوا في مقام الالتباس عن رؤية صرف الصفات، أي: لمن لم يهديني به إليه لبقيت به عنه.

وقال للقلب المطالب حظه من مقام العشق ورغبته في لذة المحبة في رؤية الوسائط، وفراره من الاحتراق في نيران الكبرياء: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يفرون إليه من غيره، وإن كان وسيلة إليه، فإني أراه بلا واسطة رأيته به لا غير، برئت من حظي في الوسائط.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: إني متوجهٌ بعد تبرئي من الحدث بنعت تجريدي في التوحيد إلى شرف القدم الذي بدا من أنوار فعله كل وسيلة.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ مسلماً حنيفاً قائداً عما دونه، مسلماً منقاداً بنعت الرضا عنده.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يسرون إلى الوسائط، فإني ذاهبٌ إلى ربي سيهديني منه إليه، حتى أبقي بنعت الفناء فيه قبل، كمن في كواكب الوجدانية وشموسها وأقمارها، فغلب بها الشكوك في رؤية الأفق والنجوم والشموس.

قال الواسطي في قوله: ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ قال: إنه كان يطالع الحق بسيره لا الكوكب، وكذلك الشمس والقمر بقوله: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ عند رجوعه إلى أوصافه بارتفاع

المعنى البادي عليه، أي: لا أحب زوال ما استوفاني من لذة المشاهدة، فأذهلني، وأحضرني فيه.

وقال بعضهم: لما أظلم عليه الكون، وعمي عن الاختيار، وأجأه الاضطراب إلى نفس الاضطراب، ورد على قلبه من أنوار الربوبية، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾.

ثم كوشف له عن أنوار الهيبة، فازداد نوراً، فصاح، ثم أفني بنور الإلهية عن معنى البشرية، فقال: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، ثم أبقي ببقاء الباقي، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال الواسطي في قوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾: لئن لم يقمني ربي على الهداية التي شاهدها بإعلام بواديه لأكونن من الضالين في نظري إلى نفسي، وبقائي في صفاتي.

قيل في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الاستدلال بالمخلوقات على الخالق بعلمي، إنه لا دليل على الله سواه.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: مني الدعوة ومن الله الهداية.

وقال جعفر عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ يعني: أسلمت قلبي للذي خلقه، وانقطعت إليه من كل شاغل، وشغل بالذي فطر السماوات والأرض، فإن الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، وأظهر فيها بدائع صنعه قادر على حفظ قلبي من الخواطر المذمومة والوساوس التي لا تليق بالحق.

قال بعضهم: كان لإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام مقامات: الأول: مقام الفاقة، والثاني: مقام النعمة، والثالث: مقام المذرة، والرابع: مقام المحبة، والخامس: مقام المعرفة، والسادس: مقام الهيبة، فتكلم في مقام الفاقة بلسان الدعوة فقال: ﴿أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وفي مقام النعمة بلسان الشكر، وقال: ﴿الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ [الشعراء: ٧٩]، وفي مقام الاعتذار بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي مقام المحبة بلسان المودة: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وفي مقام المعرفة بلسان الانبساط: ﴿رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفي مقام الهيبة بالسكون لما قال له جبريل عليه السلام: هل لك من حاجة؟ قال: أما

إليك فلا»^(١).

وقال الأستاذ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ﴾ يعني: أحاط جوف الطلب، ولم يخيل له صباح الوجود، فطلع له نجم العقول، فشهد الحق بسرّه بنور البرهان، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثم زيد في ضيائه، فطلع له قمر العلم، فطالعه بشرط البيان، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثم أسفر الصبح، وطلع النهار، فطلعت شمس العرفان عن برج شرقها، فلم يبق للطلب مكان، ولا للتجويز حكم، ولا للتهمة قرار؛ فقال: ﴿يَقْضِي بَرِيءٌ مَعًا تُشْرِكُونَ﴾^(٢)؛ إذ ليس بعد الغيب ريب، ولا عقب الظهور سر.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(٣).
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بوصف المعرفة والتوحيد لا برسم الاستدلال بالأكوان والحدثان، ولم يتجاوزوا في مقام المشاهدة عن مقام العبودية إلى مقام الأنائية من مباشرة أحكام الربوبية وحسن تجليها، فإن العارف إذا بقي عند المشاهدة في مقام العبودية فنته صحو وتمكين، وهو في غاية المعرفة، وهو مقام النبي ﷺ عند قوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(٤)، فإذا تجاوز منه بذوق إدراك نور الربوبية إلى الأنائية؛ فنته السكر والتلويح، وهو في مقام الاضطراب غير بالغ في المعرفة، كمن ادّعى الأنائية بقوله: أنا الحق وسبحاني، فإن دعوى الأنائية هاهنا ظلم، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فمن بقي بوصف العبودية في المشاهدة وقاه الله بوقاية التوحيد، والمعرفة الخاصة أن يسلبه غمرات السكر التي توقع السكران إلى هتك الأسرار ودعوى الأنائية.

وهذا معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ به إليه.

وأيضاً: إشارة الآية إلى مَنْ لا يرجع في مشاهدة الله إلى الحدثان، كما وصف نبيه ﷺ بمقام الدنو والتمكين في دنو الدنو بنعت الاستقامة في مشهد القرب؛ حيث ما زاع سره إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾؛ لأن مَنْ التفت منه إلى غيره، وإن كان الجنة فقد أشرك في حقائق التوحيد ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾، مقام الأمن لا يحصل لأحد ما دام بوصف الحدثية، وكيف يكون أمناً منه وهو في رِقِّ العبودية، ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت.

(١) تقدم تخرجه.

(٢) تقدم تخرجه.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإذا رأى الله سبحانه بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتصف بصفات الحق بدا له أوائل الأمن؛ لأن في صفة القدم لا يكون علّة الخوف والرجاء؛ لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ما داموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.

قال ابن طاهر في قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾: لم يرجعوا في النوائب والمهيات إلى غير الله، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ الكفريات، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ راجعون إلى مَنْ إليه المرجع. وقال الأستاذ: أي الذين أشاروا إلى الله، ثم لم يرجعوا إلى غير الله.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٩) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٠) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣١) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢) ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٣) ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٤) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَتُّوْلَاهُ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٣٥).

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ (١) الدرجات: المقامات الشريفة في المعرفة، والحالات الرفيعة في المحبة، والكرامات الزكية في المعاملة، وهي بذاتها طريق إلى الله، فإذا وصل إليه وفني فيه وبقي معه لم يبق هناك درجات ولا دركات، إنما هناك سباحة في بحار الآزال والآباد للعارفين والموحدين، أي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ مَنْ المريدن، ونوصل مَنْ نشاء إلينا بلا قطع المقامات، والسير في الدرجات من العارفين.

وأيضاً: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ درجات العشق والمحبة والشوق، وهي مراقي القرب، رَقَّاهم الله بها إليه أبد الأبدن.

(١) قال ابن عجيبة: رفع الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (٢/١٦٩)].

قيل: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾: بصفاء السر، وصحة الهمة.

وقيل: بخلق السنا والهمة الزكية.

وقيل: بالكون مع الله والفهم عنه.

قوله تعالى: ﴿أَجْتَبَيْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: اجتبييناها في الأزل بمعرفتنا

قبل إيجادهم، وهديناها إلى مشاهدتنا بعد إيجادهم؛ لأن هناك استقامة كل عارف، ولا يدخل فيهم اعوجاج الخطرات واضطراب البشريات.

قال الجنيد: أخلصناهم لنا، وأدبناهم لحضرتنا، ودللناهم على الاكتفاء بنا عما سوانا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْزُوهُ قَرَاطِيسُ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ أمر حبيبه ﷺ بالافتداء بالأنبياء والرسل قبله في آداب الشريعة والطريقة؛ لأن هناك منازل الوسائط، فإذا أوصله بالكلية إليه وكحل عيون أسراره بكحل الربوبية، وجعله مستقلاً بذاته مستقيماً بحاله، وخرج من حد الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة، أمره بإسقاط الوسائط بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٣].

ألا ترى كيف زجر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ حين جاء إليه بورق من التوراة ليستأذن منه ﷺ بقراءته والعمل به، فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جتتكم بها ببضاء نقية، لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي»^(١).

وأيضاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: عرفهم ذاته لصفاته، وعلمهم حقائق آدابه، وأمر صفيه ﷺ بأن يأمر أمته بالافتداء بشريعته التي هي شريعة الأنبياء.

ألا ترى كيف قال الله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]. وقال الواسطي في هذه الآية: هداهم بذاته، وقدّسهم بصفاته، فأسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالبات الأعواض، ملأهم إشارة في سرائرهم والعبارة عن أماكنهم.

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠).

قيل في هذه الآية: لا تصح الإرادة إلا بالأخذ من الأئمة وبركات نظرهم، ألا ترى كيف أثر نظر المصطفى ﷺ في أصحابه، فقال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(١)، فلا يصح الاقتداء إلا بمن صحت بدايته، وسلك سلوك السادات، وأثرت فيه بركات شواهدهم.

ألا ترى المصطفى ﷺ يقول: «طُوبَى لِمَنْ رَأَى»^(٢) أي: فاز من أثرت فيه رؤيتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قطع الله بهذه الآية أطماع الحدثان عن إدراك كنه قدمه وغرة أزليته؛ لأن الحدثان لا يبقى أثرها في جمال سطواته عزة الرحمن، كيف يعرف قدره مَنْ لا يعرفه؟ وكيف يعرفه مَنْ لا يعرف نفسه؟ وكيف يعرف نفسه مَنْ لا يكون خالق نفسه؟ وكيف يكون خالق نفسه، والأزلية منزّهة عن الأضداد والأنداد؟! لأن سطوات عظمتها لا تبقي للحدثان أثراً في ساحة كبريائه، عرف قدره بنفسه لا غيره عرف قدره، بطنان الألوهية لا يدرك؛ لأنها غير متناهية في العقول، غير محدودة في القلوب، غير معروفة بالحلول في الأماكن والأزمنة.

قال الحسين: كيف يعرف أحد حق قدره وهو يقدره، يريد أن يقدر قدره وأوصاف الحدثان أثر يقع من أوصاف القدم.

وقال بعضهم: ما عرفوا حق قدره، لو عرفوا ذلك لذابت أرواحهم عند كل وارد يرد عليه من صنعه.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ تُمَزَّذَهُمْ﴾ أي: إذا وقعت أسرار الواصلين في أودية الألوهية، وتحيرت أرواحهم في هواء الهوية، وفنيت عقولهم في سطوات القدرة، وذابت أشباحهم في طوارق تجلّي المشاهدة، وما عرفوا مسالك ما يرد عليهم من واردات موارد تجلّي الجمال والجلال، ويسألونك بنعت الدهش والهيمن، إيش بنا؟ وأين وقعنا؟ قل بلسان داء المحبة: الله، أي: ما وقعت فيه فهو بحر آزال الله، وقعت بالله في الله، وإذا سألك أهل وقائع ظلمات القهر التي حيرتهم في وادي الضلال، من أين هذا وقع علينا؟ فقل: الله أوقعكم فيها، ليست الولاية بالمجاهدة، وليست الضلالة بالعلّة، ثم ذرهم طائفتين واشتغل بي، فإن ممازجة الحدثان لا يليق بقلب فيه محبة الرحمن.

وأيضاً: قل بلسانك الله، ولا تقل بلسان سرك؛ فإن الاشتغال بالذكر عن المذكور حجاب.

(١) رواه الترمذي (٦٠٩/٥)، وأحمد في مسنده (٣٨٢/٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٧١/٣).

وأيضاً: إذا فرغت من تبليغ الرسالة توجه إلى الله مماسوى الله، وقل: الله؛ حيث لم يكن غير الله، ثم ذر الأكوان والحدثان بعد قولك الله؛ ليوافق لسان الظاهر سريرة الباطن في المحبة.

قال بعضهم: دعا خواصه بهذه الآية إلى الانقطاع من كشف ما له إلى الكشف عما به.

وقيل: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ إشارة إلى جريان السر، ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ في سر، وذو ما في لسانك.

حُكِيَ أن رجلاً سأل الشبلي، وقال: يا أبا بكر، لم تقول الله، ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال الشبلي: لا أنفي به ضداً، فقال: زد عليّ من ذلك يا أبا بكر، فقال الشبلي: لا يجري لساني بكلمة الجحود، فقال: زد عليّ من ذلك، فقال: أخشى الله أن أؤخذ في وحشة الجحد، فقال: زد عليّ من ذلك، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ تَزِدُّهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فزعق الرجل وخرجت روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلي، وأدعوا عليه دمه، فحملوه إلى الخليفة، فخرجت الرسالة إلى الشبلي من عند الخليفة يسأله عن دعواه، فقال الشبلي: روح حنت فذنت، فدعيت فأجابت؛ فما ذنبي؟! فصاح الخليفة من وراء الحجاب: خلوه، لا ذنب له.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مقدس من تهمة الأوهام، غير مدرك بحقائقه عند الأنام.

وأيضاً: مبارك عليك، وعلى أمتك الصادقين الذين يتبعونه بالشوق والمحبة، ويفهمونه بالذكر والهيبة، فيصلون به إلى رؤية خزائن صفات القدم؛ لأنه صفة تدل كلماته إلى جميع الصفات وعرفانها ونيل خزائنها؛ لأنه مفتاح كنوز الصفات والذات، وهو ميمون علا كل عارفيه، وعلا كل متابعيه بالتدبر فيه، واقتباس أنواره كما ذكر في موضع آخر: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وأيضاً: مبارك؛ لأنه كتاب الحبيب إلى الحبيب، فيه أسرار القرب والوصال والتشويق إلى الحسن والجمال، والتحذير من البعد والفراق، وهو مسامرة النجوى لأهل النور والتقوى، ومشحون بإشارات العارفين، ومعجون بمفرحات فؤاد الموحدين، مكنوناته مصنوعة عن عيون الأغيار، ولطائفها محروسة عن مطالعة أهل الاغترار، وهو يوافق جميع الكتب في تعريف الله بصفاته وذاته وعبوديته؛ لأنها جميعاً من مصدر واحد وصفة واحدة غير متغيرة.

قيل: مبارك على من اتبعه وآمن به.

وقيل: مبارك على مَنْ صدقه وعمل بما فيه.

وقيل: مبارك على مَنْ فهم عن الله أمره ونهيه.

وقيل: مبارك على مَنْ قرأه بالتدبر وعلى مَنْ سمعه بالحضور.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب عزيز الخطر، جليل الأثر، فيه سلوة عند غلبات الوجد،

ومن بقي عن الوصول بذلك الرسول.

وقيل:

وَكُتِبَكَ حَوْلِي لَا تُفَارِقْ مُضْجِي فِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمٌ

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ

سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا

أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ

الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ

شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٠١﴾»

قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ

شَيْءٌ» إن الله سبحانه بيّن في كتابه شأن الغالطين والمفترين والناحلين الكذب والزور،

المرسمين بالتكلف رسوم العارفين، وألزمهم سمة الظلم، وذكر أنهم ظالمون بدعواهم

الكذب، وإشارتهم إلى مقام الأمانة من المحدثين المكلمين بغير وصوهم إلى ذرة منه؛ تغريراً

بالعوام، وطلباً لجاههم، وهم خائنون في ذلك، ولا يرجع مكرهم إلى منقصتهم في الدنيا

والآخرة، وإسقاط جاههم عند الله وعباده، وسقوطهم عن قلوب رجال الله.

قال تعالى: «وَلَا تَحْقِقِ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»؛ لأنهم متشبعون ولم يعطوا،

فضحهم الله بكشف غطائهم عند الخلق، وإظهار كذبهم عند عجزهم عن الإخبار من

مقامات القوم بالحقيقة حين يمتحنهم أهل المعرفة بالله.

قال عليه السلام: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(١).

وأنشد بعضهم في ذلك:

إِذَا انْسَكَبَتْ دُمُوعٌ فِي خُحْدُودِ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى بِمَنْ تَبَاكَى

(١) رواه البخاري (٢٠٠١/٥)، ومسلم (١٦٨١/٣).

وقال آخر:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

فَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَرَأَى لَذِكْرِهِ مَوْقِعًا فَهُوَ مُفْتَرٍ وَلَا يَعْلَمُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ قَبْلَ وَصْفِ الْخَلْقِ نَفْسَهُ، وَكُلَّ وَصْفٍ بَعْدَ وَصْفِهِ صِفَةُ الْحُدُوثِ، وَكَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ كَمَا هُوَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ أَذْكَارِ الْغَافِلِينَ.

قال بعضهم: إن ما لا يليق بجلالة قدره، وحقيقة شأنه قربه، وإن كان مأذوناً فيه؛ لأن ذلك على أقدار خلقه وطاعتهم لذلك.

وقال سهل بن عبد الله: مَنْ ذَكَرَ فَقَدْ افْتَرَى، قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [الصف: ٧] لأذكار الغفلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاكُمْ فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَبَيِّنُ أَنَّ أَعْمَالَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى مَضْمُوحَةٌ عِنْدَ كَشْفِ جَلَالِ عَظَمَتِهِ، وَنَوَالِ جَمَالِهِ لَمَّا يَبْدُو لَهُمْ أَنْوَارُ الْأَزَلِيَّةِ، يَتَبَرَّأُونَ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَرُونَهَا لَا تَلِيْقُ بِجَلَالِ قَدْرِهِ، وَلَا يَكُونُ مُوَازِيًا بِمَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ مِنْ سِنِيَّاتِ كَرَامَاتِهِ، وَلَطَائِفِ بَرِّهِ، وَحَسَنِ مُوَاسَاتِهِ، وَعِنْدَ رُؤْيَا الْقَدَمِ كَمَا كَانُوا خَارِجِينَ مِنَ الْعَدَمِ.

قال بعضهم: أَجَلَ مَقَامِ الْعَبْدِ إِفْلَاسِهِ، وَالرَّجُوعِ إِلَيْهِ خَالِيًا مِنْ جَمِيعِ طَاعَتِهِ.

قيل: لِأَنَّهُ [حَفْصٌ] ^(١) بِإِذَا تَقَدَّمَ عَلَى اللَّهِ.

قال: وَمَا لِلْفَقِيرِ أَنْ يَقْدَمَ بِهِ عَلَى الْغَنِيِّ سِوَى فَقْرِهِ.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاكُمْ فُرَادَىٰ﴾ خَالِينَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ وَطَاعَاتِكُمْ.

وَلِي هَاهُنَا لَطِيفَةٌ أُخْرَى: أَي: لَقَدْ جَعَلْنَاكُمْ مُوَحِّدِينَ بِوَحْدَانِيَّتِي، شَاهِدِينَ مُشَاهِدَتِي بِوَصْفِ الْكَشْفِ وَالْخُطَابِ، كَمَا جَعَلْنَاكُمْ مِنَ الْعَدَمِ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ حِينَ عَرَفْتَكُمْ نَفْسِي بِقَوْلِي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قُلْتُمْ: بَلَى، بَلَا إِشَارَةَ التَّشْبِيهِ وَغُلْطَ التَّعْطِيلِ، كَمَا وَصَفَهُمْ نَبِيهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» ^(٢) يَعْنِي: عَلَى فِطْرَةِ الْأَزْلِ، يَلْزِمُ سِمَةَ الْعِبُودِيَّةِ بَلَا عِلَّةَ الْاِكْتِسَابِ عِنْدَ سَبْقِ الْإِرَادَةِ، وَزَادَ تَعَالَى وَضُوحًا فِي أَثْنَاءِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْكُمْ وَرَأَآ ظُهُورَكُمْ﴾.

(١) هَكَذَا بِالْأَصْلِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١/٤٦٥)، وَمُسْلِمٌ (٤/٢٠٤٧).

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ فلق حبة محبته الأزلية في قلوب المحبين والصديقين، وفلق نوى شجر أنوار الأزل في فؤاد العارفين، فتثمران أثمارهما بالأعمال الزكية والمقامات الشريفة، والحالات الرفيعة، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

قال ابن عطاء: مظهر ما في حبة القلب من الإخلاص والرياء.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ فالق إصباح مشاهدته من مطالع قلوب أحبائه حين انتشر نورها من بشرة الربانيين من أوليائه وأصفيائه، وجاعل الليل سكناً للمستأنسين بحلاوة خطابه ولذائذ كشف جماله.

قال بعضهم: فالق القلوب بشرح أنوار الغيوب.

وقال بعضهم: منور الأسرار بنور المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ نُورُ نجوم العقول لتعرفوا بها حقائق الآيات، ونُورُ نجوم القلوب لتعرفوا بها أنوار الصفات، ونُورُ نجوم الأرواح لتعرفوا بها لطائف سبحات الذات، جعل نجوم الأفعال لعرفان الصفات، وجعل نجوم الصفات لعرفان الذات، أسرج مصباح قلوبكم من أنوار نجم تجلي الجلال والجمال لتهتدوا، وتعرفوا، وتسبحوا بها في ظلمات بحار القهر، وظلمات براريه لتبلغوا إلى رؤية أقيام الصفات وشموس الذات، وتناولوا جواهر المعارف من أصداف الكواشف.

قال أبو علي الجوزجاني: جعل الله الليل مطيةً ودليلاً، فالمطية تركبها في طلب الزلف، والدليل تستدل به إلى أبواب الرضا، قال الله: ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ إلى طريق الجنة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي

ذَٰلِكُمْ لَا يَتَّبِعُ لَهُمْ رَسُولٌ مُّؤْتَوٍ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ذكرت في موضع آخر تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أنشأ الكل من جواهر الفطرة، وجوهر الفطرة منشأ نور فعل الخاص، ومنشأ نور فعل الخاص ظهور الصفة، وظهور الصفة وظهور الذات تجلّي القدم، فأخرج الكل من العدم تخصيص لطائف الخطاب بالإشارة إلى نفس واحدة، أي: بظهور نفس وحدانية أزلية أبدية منزّهة عن الاجتماع والافتراق، فبعض القلوب مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الآيات ومستودعها الصفات، وبعض الأرواح مستقرها الصفات ومستودعها الذات بنعت البقاء في الصفات والفناء في الذات؛ لأنّ القدم منزّهة أن يحل فيه الحدث.

وأيضاً: مستقر القلوب المقامات ومستودعها الحالات، ومستقر العقول العبادات ومستودعها الكرامات، ومستقر الأرواح أنوار المعرفة من تجلّي الصفات ومستودعها أنوار التوحيد من تجلّي الذات.

قال ابن عطاء: خلق أهل المعرفة على جهة ومنزلة واحدة، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمستقر في حال معرفة مكشوف عنه، ومكشوف في حال معرفته مستقر عليه. وقال بعضهم: مستقر لطاعته وعبادته مع الإيثار به، ومستودع لذلك زائل عنه بعد موته.

وقال الواسطي: مستقر أنوار الذات على الأبد، ومستودع لا يعود إليه إذا فارق.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لم يزل عالماً بخلقه شائياً كما أراد، أودع اللوح ما استقر في كلامه، ثم أودع إلى اللوح المقادير ما استقر فيه، ثم كذلك حالاً بعد حال حتى بلغه إلى درجة السعادة والشقاوة، وذلك قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خرجها بصورة العلم الأزلي على نعت اختراعه بالقدرة القادرية، والحكمة الحكيمية، فلا أخذ من مأخذ المشاكلة والمشابهة؛ فإنه تعالى ناظرهما بما كان في علمه من منقوش الحكمة، وسنا القدرة، وجلال العزة، كساهما أنوار فوائده قدرته، وضياء بهجته لطائف علمها؛ ليجعلها أسباب عبادة عباده، ومعاش جميع

خلقه.

قيل: هو المبدع للأشياء والمبدي لها.

وقال بعضهم: فاق الأشياء جمالاً وكمالاً.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ لا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ لما وصف تعالى نفسه بالقدرة الكاملة في خلق الكون، وعرفهم نفسه بإظهار الآيات، ونفى عن نفسه علّة الحدثان، وعرفهم بتنزيه صفاته، وإفراد ذاته وصفاته من بين الأضداد والأنداد، ووصف جلاله بالوحدانية الأزلية، وعرفهم قدس ذاته وصفاته بخطابه معهم بوصف تلك النعوت، ألزمهم بعد ذلك العبودية صرفاً بقوله: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي: اعبدوا من هذا وصفه، ولا تتكلموا إلى غيره، فإن الكون وما فيه خاضع لعظمته بعد أن كان في قبض عزته، لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: أنا ملجأ الكل، ومفزع ذوي الحاجات، ومناص صواحب العاهات.

قال الأستاذ في الآية: تعرّف عليهم بآياته، ثم تعرّف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف السادة والأكابر، وقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تعريف العوام والأصاغر.

ثم وصف نفسه عقيب الآية بالتنزيه عن إحاطة أبصار الحدثان به، وعجزهم في حواشي ساحات كبريائه عن درك مكنون أسرار قدمه، وإحاطة علمه، وقدرته بجميع زلات الوجود.

قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ لا تدركه الأبصار إلا بالابصار، مستفادة من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم؟!

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ ببصره القديم المنزّه عن المشابهة بالحدثان، بأن يكسوها أنوار صفاته لئلا يراها بنفسها؛ لأنه بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم وجوداً وعدماً بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ من لطف جماله انجذاب القلوب بنعت العشق إلى ضياء وجهه الكريم عجزاً واضطراباً، من لطفه غرقت الأرواح في بحار محبته، وفنيت الأسرار في فضاء هويته، ودهشت القلوب في معارك أشواقه،

واضحملت العقول في بيداء ألوهيته من إدراك غوامض علمه.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾: إن الله احتجب عن القلوب، كما احتجب عن الأبصار، فإن أوقع تجلياً بالبصر والفؤاد واحد.

وقيل: معناه أن الله يطلع على الأبصار بالتجلي لها؛ لأن الأبصار تسمو إليه.

قال الحسين في قوله: ﴿اللطيف﴾^(١) قال: لطف عن الكنه فأنتى له الوصف؟! ومن لطفه ذكره لعبده في الدهور الخالية؛ إذ السماء مبنية والأرض مدحية.

قيل: سبق الوقت وإظهار الكونين وما فيها، فهذا معنى لطيف.

وقال القاسم: اللطيف الذي لم يدع أحداً يقف على ماهية سره، فكيف الوقوف على

وصفه؟!

قال ابن عطاء: لا تدركه الفهوم، وأحاط بكل شيء علماً.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ

الْبَصَرُ﴾: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفُوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً»^(٢).

وقال الجنيد: اللطيف مَنْ نَوَّرَ قلبك بالهدى، وربى جسمك بالغذاء، وجعل لك

الولاية في البلوى، ويمرسك وأنت في اللظى، ويدخلك جنة المأوى.

وقيل: اللطيف الذي إن دعوته لبَّاك، وإن قصدته آواك، وإن أحبيته أدناك، وإن أطعته

كفاك، وإن عصيته عافاك، وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ ۚ﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلِنُيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَلَوْ شَاءَ

(١) اللطيف مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية، وفوق ما يحتاج العبد إليه، ويقال: مَنْ لُطِفَ بالعبد عِلْمُهُ بأنه لطيف،

ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف، ويقال: مَنْ لُطِفَ أنه أعطاه فوق الكفاية، وكَلَّفَهُ دون الطاقة، ويقال:

مِنْ لُطْفِهِ بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادته لَاتَكَلَّ عليه، وأَقْلَ عمله ولو عَلِمَ شقاوته لَأَبَسَ

وَلَتَرَكَ عَمَلَهُ؛ فأراد أن يستكثر في الوقت من الطاعة، ويقال: من لطفه بالعبد إخفاء أجله عنه؛ لئلا

يستوحش إن كان قد دنا أجله، ويقال: من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا

يتنغص عليه العيش في الجنة، ويقال: اللطيف مَنْ نَوَّرَ الأسرار، وحفظ على عبده ما أودع قلبه من

الأسرار، وغفر له ما عمل من ذنوب في الإعلان والإسرار [تفسير القشيري (٧/ ١٧٧)].

(٢) رواه العقيلي في الضعفاء (١/ ١٤٠).

اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾^١ من الله سبحانه على عباده بمجيء بصائر آياته التي تبرز نعوت الأزلية منها، وكلماته الثامات التي تتجلى لذوي الحقائق منها، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه: «إن الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن»، وبذلك البصائر كحل الله أبصار العارفين كحل أنوار صفاته وسنا سبحات ذاته، فمن كان له استعداد النظر إليها بنعت البصيرة وجد طريق الرشد لنفسه، ومن ليس له استعداد النظر والبصيرة صار محتجبا من رؤية صفائح القدس في الآيات، وصحائف الأنس في الكلمات.

قال الخواص: أنزل الله البصائر، فطوبى لمن رزق بصيرة منها، وأدنى البصائر أن يبصر الإنسان رشد.

قوله تعالى: ﴿وَلُنَبِّئَنَّهُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^٢ صرف الله فهم خطابه عن قلوب الأعداء، وفسح لطائفها وحقائقها للأولياء؛ لأن خطاب الحبيب لا يعرفه إلا الحبيب يلطف بأهله؛ حيث وهبهم فهم كلامه، حتى أدركوا بمواهبه السنية التي أودعت قلوبهم أنوار الغيوب والعلم بإدراك مكنون خطابه؛ لذلك من على الموصوفين بهذه الصفة بقوله: ﴿وَلُنَبِّئَنَّهُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^٣ أي: لقوم يعرفون قدرتي ويفهمون خطابي، لا لمن لا يعرف مكان خطابي ومرادي من كلامي.

قال ابن عطاء: القوم يعلمون حقيقة البيان، وهو الوقوف معه حيثما وقف، والجري معه حيثما جرى، لا يتقدمه بغلبة ولا يتخلف عنه لعجز.

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^٤ لما ذكر تعالى بيانه لعموم أهل العلم لمتابعتهم أمره ﷺ بما بينهما من أسرار الربوبية ولطائف المحبة وحقائق الانبساط في المقامات والحالات، وأفرده بها عن جميع الخلق؛ حيث لا طاقة للخلق لمطالعة تلك الأسرار، ولا قوة لهم لحمل واردات تلك الأحوال غير النبي ﷺ؛ لأنه مؤيد بالقوة الأزلية والنصرة الأبدية.

قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^٥ أي: استعد لحمل واردات سطوات الألوهية، وجذبات أنوار نعوته الأبدية، وإنها خاصة لك، ألا ترى كيف وصف نفسه له في وسط الآية بالفردانية والتنزيه عن أشكال الخليقة بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^٦ أي: هو بوصفه تجلى لك بنعته ووصفه حيث كنت، خلقت بنعت استعداد تحمل ظهور الأزلية، وإذا كنت كذلك أنت لا تليق بالمشيرين إلى غيره، فأنت أعز وأفضل من أن يكون معك في هذا المقام

أحدٌ من المغيرين بحالهم، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.
 وكان ﷺ له مقاماتٌ في الوحي، كان له وحيٌ خاصٌ الخاص له لا لغيره، وذلك موضع
 سر السر في دنو الدنو، حيث خصّه الله بذلك بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:
 ١٠]، وله وحيٌ خاصٌ له ولخواصه وإخوانه من الأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي
 أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى:
 ١٣]، وله وحيٌ عامٌ، وهو قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:
 ١٦].

قال بعضهم: الوحي سرٌّ عن غير واسطة، والرسالة والإنزال ظاهرٌ وبواسطة؛ لذلك
 قال: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ لأن الوحي كان خاصًا له مستورًا؛ لقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ
 إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]، والإشارة
 للأولياء في ذلك تأديبًا لهم، حيث يتعارض إلقاء العدو ووحى الله، أي: دعوا ما سوى
 الوحي من المواجهس والوسواس، واتبعوا ما يجل في قلوبكم من الخطاب الذي وصفه قدس
 القلوب، من الخواطر والعوارض، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «دع ما يُريك إلى ما لا
 يُريبك»^(١)، و«استفت قلبك، ولو أفنأك المفتون»^(٢).

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ
 زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَأَقْسِمُوا
 بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا
 يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٢٠) * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَأِيكَةَ وَكَلَّمَهُمْ
 الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ
 أَكْثَرُهُمْ جَاهِلُونَ (٢١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
 يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
 وَمَا يَفْتَرُونَ (٢٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ
 وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (٢٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ

(١) رواه الترمذي (٤/٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (٣/٢٣٩).

(٢) رواه أحمد (٤/١٩٤).

الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٠٦﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَلَيْهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِقَائِلَاتِهِ ۚ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ إن الله سبحانه ابتلى العموم بالدنيا وأعمالها في نفع الجاه والمال، وابتلى الخصوص برؤية المعاملات الأخروية ورؤية أعواضها، فَمَنْ كَانَ غَيْرَ أَهْلِهِ أَبْقَاهُمْ فِيهَا، وَحَجَبَهُمْ بِهَا عَنْ لَذَّةِ قَرْبِهِ وَوَصَالِهِ، وَمَنْ كَانَ أَهْلًا لَهُ مِنَ الْعَارِفِينَ وَالْمُتَحَقِّقِينَ رَفَعَهَا عَنْ عَيْنِهِ حَتَّى لَا يَرَى وَزْنَ، وَلَا يَزِنُهَا مِقْدَارَ عِنْدَ رُؤْيَا امْتِنَانِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنْ اصْطِفَائِيَّتِهِ وَخَاصِيَّتِهِ بِالْوِلَايَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، زَيْنَ لِلْبَطَالِينِ شُرُورَ أَعْمَالِهِمُ النَّفْسَانِيَّةِ حَتَّى يَرَوْهَا مُسْتَحْسَنَةً، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾، وَزَيْنَ لِلْمُجَاهِدِينَ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى يَزِيدَ رَغْبَتَهُمْ فِيهَا.

قال الواسطي: زينت الأعمال عند أربابها؛ فأسقطوا بها عن درجة المتحققين إلا من عصم بنور المشاهدة، فشاهد المنّة في التوفيق بل شاهد المنان.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ أضاف الحق سبحانه تقليب القلوب والأبصار إلى نفسه، فكل موضع قلب القلوب إلى رؤية صفاته وذاته بنعت المحبة والشوق والمعرفة اتبعتها الأبصار بمطالعتها أنوار القدرة والعزّة في الآيات، فوافقت الأبصار القلوب بتصحيح المعاملات وتقديس الأسرار وصفاء الحالات، وكل موضع صرف القلوب عن الإقبال إليه انصرفت الأبصار عن مطالعة المشاهد في الشواهد؛ لذلك استعاذ النبي ﷺ بقوله: «يَا مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي»^(١).

قال النصرآبادي: النفوس في التنكيل، والقلوب في التقليل؛ لذلك قال النبي ﷺ: «يَا

مَقْلَبِ الْقُلُوبِ»^(١).

وقال أبو حمزة: أقبل الله على قلوب فأقبلت عليه، وأعرض عن قلوب فأعرضت عنه.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أخبر تعالى عن سابق كلماته الصفاتية الأزلية يكلم بها بنفسه مع نفسه في نفسه؛ لاختصاص أهل ولايته واصطفائيته بخالصة محبته، واجتباؤه صفوة أهل معرفته وتوحيده بغير علة اكتسابهم خيرًا وشراً ولا نقضاً لإبرام قضيته، ولا ناقضاً لميثاق مشيئته، سبقت منه العناية لهم بوصف استجلاب أرواحهم إلى معادن قدسه، واجتذاب قلوبهم إلى مجالس أنسه، تمت كلمته بحسن قبولهم، حيثما اشترط علة العبودية، وتمام كلماته صدق مواعيده بلطف عنايته بلا مكافأة منهم لها، وهو تعالى بذلك عادل؛ حيث اصطفاهم بوضع خزائن معرفته في قلوبهم، وهو لها أهل، ولهم من عنايته استعداد لقبول أمانته بشرط الرعاية، واصطفاء أسماح قلوبهم بحياتيتها حتى لا تشوبها أذكار الحداث وخطرات الطغيان، لا مبدل لكلماته، لا يدخل في ديوان سبق رحمته لأهل عنايته طوارق قهره من علة ما طرأ عليهم من وارد امتحانه، كما قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»^(٢).

قيل في تفسير قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صدقاً للأولياء تفضلاً عليهم، وعلى الأعداء أخذهم بميزان العدل.

قال مقاتل: صدقاً فيما وعد، وعدلاً فيما حكم.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ حَلَالٌ لَّكُمْ وَالْآيَاتُ الْكَافِرَةِ يُضْلِلُونَ وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلْهَبُوا أَمْ تَلْهَبُونَ أَلَّا يَأْكُلُوا مِمَّا خَلَقُوا لَهُ يَوْمَ الْبَرَاءَةِ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلْهَبُوا أَمْ تَلْهَبُونَ﴾ وصف الله سبحانه أئمة الضلالة أنهم سقطوا من طريق الصواب، فلما رأوا فضاحة أنفسهم أرادوا أن يكون أهل الإرادة من الصديقين مثلهم، فيزينون لهم طريق الشهوات، قال تعالى: ﴿وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وذلك من جهلهم الله، ويعلمه الذي شامل على كل موجود.

(١) تقدم في سابقه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٥/٦)، ومسلم (٢١٠٨/٤).

قال القرشي في تفسيره قوله: «وَأَنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» يتبعون مرادهم، ويتركون أوامر الكتاب والسنة.

قوله تعالى: «وَذَرُوا ظَهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ» ظاهر الإثم ما ذمه الكتاب والسنة، وباطن الإثم ما ذمه باطن علم الكتاب والسنة.

وأيضاً: ظاهر الإثم ما لم يوافق العقول، وباطن الإثم ما لم توافقه القلوب.
وأيضاً: ظاهر الإثم ما يعوج الجوارح عن طريق السنة، وباطن الإثم ما يشوش القلوب عند رؤيته المشاهدة.

وأيضاً: ظاهر الإثم حبُّ الدنيا، وباطن الإثم حبُّ الجاه.
وأيضاً: ظاهر الإثم ما يغرك برؤوسها من الأعمال، وباطن الإثم ما يسكن إليه قلبك من الأحوال.

قال بعضهم: ظاهر الإثم رؤية الأفعال، وباطنه الركون إليها في السرِّ باطناً.

قال سهل: اتركوا المعاصي بالجوارح، وحبها بالقلوب.

قال الشبلي: ظاهر الغفلة، وباطنه لسان المطالعة عن السوابق.

وقيل: باطن الإثم خفي العقائد، ومستترقات الأحاظ.

«وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْنِدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٦٦﴾ أَوْ مِنْ كَانَ مِتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٩﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٠﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٧١﴾»

قوله تعالى: «وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ» بين الله سبحانه من الناس خلق على طبع الشياطين بقوله: «شَّيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ»، وهم أهل السالوس، والناموس، والمتقشفين بزي الظاهر، المدعين مقامات أولياء الله، يأخذون مزخرفات

الشياطين بقلوبهم، وترفعون بألفاظ الطامات، ويغزون بها مَنْ لا يعرف الحق من الباطل.
قال أبو عثمان المغربي في هذه الآية: يلقون على ألسنة المدعين ما يقطعون به الطريق على المتحققين، ولَمَّا ذَمَّ الله المدعين الذين ماتت قلوبهم في ظلمات الطغيان واحتجبت بها عن أنوار العرفان وصف بعد ذلك إحياء المعارف بأنوار الكواشف بعد أن كانوا محجوبين بالعدم عن نور القدم بقوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: أو مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْعَدَمِ فَأُحْيَيْنَاهُ بِنُورِ الْقَدَمِ.

وأيضًا: أو مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْمُجَاهَدَاتِ فَأُحْيَيْنَاهُ بِرُوحِ الْمُجَاهَدَاتِ.
وأيضًا: أو مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِشَهَوَاتِ النَّفْسِ فَأُحْيَيْنَاهُ بِصَفَاءِ الْقَلْبِ، وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْخَلِيقَةِ فَأُحْيَيْنَاهُ بِرُؤْيَا الْحَقِيقَةِ.

وأيضًا: مَنْ كَانَ مَتَمَنِّيًّا بِرُؤْيَا الثَّوَابِ، فَأُحْيَيْنَاهُ بِرُؤْيَا الْمَأْبِ إِلَى الْوَهَابِ.
﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أعطيناه نور الفراسة يحكم باستشراق قلبه على الهموم بنور الفراسات في قلوب الناس.
وأيضًا: ألبسناه أنوار الغيب فيكون سراجًا بين الناس لهداية الناس بإنقاذهم من وثائق الوسواس.

وأيضًا: كسينا روحه نور مآل دناء، وعقله نور آياتنا، وقلبه نور صفاتنا، وسره نور ذاتنا، وصورته نور حضرتنا، وجعلنا جميع وجوده نورًا بين الخلائق؛ ليهتدي به كل ضال من سبيل الرشاد هذا كالذي في ظلمات بيئته ونفسه، وهاوية هواه متحير لا يهتدي إلى طريق الحق؛ لأنه في حجاب القهر أبدى وصف امتنانه على المريدين الصادقين، وتفضله على المقبلين، وقهره على الفلاس، وأضاف الهداية والضلالة إلى عنايته الأزلية وكفايته الأبدية وقهره السابق في المشيئة، وسمى المريد الصادق مَيِّتًا قَبْلَ وَجْدَانِ نُورِهِ وَرُوحِ حَيَاتِهِ قَرَبَهُ؛ لَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُقْصِرِينَ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَوَفِّرِينَ؛ لِأَنَّ أَكْبَارَ الْمَعْرِفَةِ كَانُوا أَحْيَاءَ فِي بَسَاتِينَ لَطْفِ مُشَاهَدَتِهِ تَحْتَ أَذْيَالِ الْطَّافِ قَرَبَهُ أَحْيَاءَ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ.

قال جعفر عليه السلام في قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ بنا، وجعلناه إمامًا يهتدي بنور الأجانب ويرجع إليه الضلال ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ كَمَنْ يَرَى شَهْوَةً وَهَوَاهُ﴾ فلم يؤيد بروائح القرب وموانسة الحضرة.

قال ابن عطاء: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ بحياة نفسه وموت قلبه، ﴿فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ بإماتة نفسه وحياة قلبه، سَهَّلْنَا عَلَيْهِ سَبِيلَ التَّوْفِيقِ، وَكَحَلَّنَاهُ بِأَنْوَارِ الْقُرْبِ، فَلَا يَرَى غَيْرَنَا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى سِوَانَا.

قال الجريري: إذا أحيى عبداً بأنواره لا يموت أبداً، وإذا أماته بخذلانه لا يحيى أبداً.
وقال جعفر عليه السلام: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِابْتِعَادِهِ عَنِ الطَّاعَاتِ ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ نُورَ التَّضَرُّعِ وَالْإِعْتِذَارِ.

وقال بعضهم: ﴿مَيِّتًا﴾ بِرُؤْيَا الْأَفْعَالِ ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بِرُؤْيَا الْإِفْتِقَارِ.
قال القاسم: أحيأ أولياءه بنور الانتباه كما أحيى الأجساد بالأرواح.
وقال سهل: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ بِالْجَهْلِ ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بِالْعِلْمِ.
وقال ابن عطاء: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ بِالْإِنْقِطَاعِ عَنَّا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بِالِاتِّصَالِ بِنَا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أَيْضًا، لَا كَمَنْ تَرَكَاهُ فِي ظِلْمَةِ الْإِنْقِطَاعِ.

وقال الأستاذ: الإيَّان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله، وأهل الغفلة إذ ألهموا الذكر، فقد صاروا أحياء بعدما كانوا أمواتاً، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان، فقد ماتوا بعد الحياة، والذي هو في أنوار القرب، وتحت شعاع العرفان، وفي روح الاستبصار لا بد أنه من هو في أسرار الظلمات، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات.

وقد وجد خاطري خاصية لطيفة في حقيقة تفسير الآية: إن المراد بالميت: الفاني في عالم نكرة التوحيد؛ حيث بدت له صواعق سطوات الكبرياء والعظمة، فأحياء بروح بقائه ومشاهدة أبديته، حيث ينتعش من بیداء النكرة بأنوار المعرفة، يمشي بالأسرار والأرواح في أنوار البقاء، لا يحتجب عن أنوار جمال وجهه أبداً، فيحيي به كل قلب ميت، وتطمئن برؤيته كل نفس مفترقة عن طاعة ربها، مفتونة بظلمات شهواتها، ولما استأثر إحياء ميته وإعطاء نوره لنفسه ومدحه بذلك وبيّن مزيته على المدبرين حصّن نفسه بالعلم الإلهي بوضع ولايته ورسالته في الأماكن المستعدة بقبول نوره وهدايته بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، بيّن أنه يعلم من بطنان صميم الفؤاد والأرواح والأسرار، وخزائن مواهبه السنية من النبوة والولاية والرسالة والمحبة والمعرفة، ونَبَّهَنَا بِأَنَّهُ أَرَادَ فِي الْأَزَلِ وَضَعَ وَدَائِعَ أَسْرَارِهِ فِي مَلَكُوتِ الْقُلُوبِ، فَظَرَّ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى نَفْسِهِ، فَأَشْرَقَ نُورُ صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ، وَسَطَعَ ضِيَاءُ مَشَاهِدَتِهِ، ثُمَّ عَكَسَ ذَلِكَ إِلَى غَيْبِ غَيْبِهِ، فَأَظْهَرَ مِنْهُ أَرْوَاحَ الْقُدْسِيَةِ الْمَلَكُوتِيَةِ اللَّاهُوتِيَةِ، فَوَضَعَ فِي نَفُوسِهَا أَنْوَارَ الْوِلَايَةِ وَالرِّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ، وَأَفْرَدَهَا بِتِلْكَ الْخَاصِيَةِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ تَفْضُلاً وَكِرْماً، مَا اعْتَرَتْهُ فِي ذَلِكَ عِلَّةٌ الْخَوَائِجِ، لَكِنْ جَعَلَهُمْ سَبِيلَ الْخَلْقِ وَالْمُنَاجَاةِ، بِهِمْ يَهْتَدُونَ إِلَى عِبَادِيَةِ خَالِقِهِمْ وَعِرْفَانِ رَبُّوبِيَةِ سَيِّدِهِمْ، وَمَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِذَلِكَ لَا يَضُرُّهُ حَسَدُ الْخَاسِدِينَ وَلَا كَيْدُ الْكَائِنِينَ، بَلْ يَزِيدُ شَرَفَهُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ نَبِيَّنَا ﷺ بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إِرْغَامًا لِأَنْوَفِ عَوَادِيهِ، وَانْتِصَارًا لِمَوَالِيهِ.

وقال النصر آبادي: الله تعالى يعلم الأوعية التي تصلح لسره ومنازلاته ومكاشفاته، فيرنيها بخواص الأنوار، ويلطفها بلطائف الاطلاع.

قال أبو بكر الوراق: كما أن الملوك يعلمون مواضع جواهرهم وخزائنها، ويجعلونها في أشرف الأماكن وأروحها وأخصها، فالله يعلم حيث يجعل ويضع نبوته ورسالته وولايته، ثم إن الله سبحانه إذا أراد أن يضع جوهر معرفته في وعاء قلب عبده يفسحه نور تجليه، ويكسيه لباس نور كسوة ربوبيته؛ ليطبق حمل أثقال أمانته من المعرفة والمحبة والولاية؛ ليسهل عليه حمل عظيم ودائع أسرارها، وفوائد طوارق أنوارها، بقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: مَنْ يرد الله أن يهديه إلى نفسه ويعرفه صفاته، ويريه جلال ذاته، يوسع صدره بلطيف أنوار قربه وحلاوة خطابه حتى يعرفه به لا بسواه، ويراه بنوره لا بنفسه.

قال النهرجوري: صفة المراد خلوة مما له وقبوله مما عليه، وسعة صدره بمراد الحق عليه، قال الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

يقال في هذه الآية: نور في البداية هو نور العقل، ونور في الوسائط هو نور العلم، ونور في النهاية هو نور العرفان، فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة في حكم العيان.

وفي تفسير هذه الآية أخبر نبينا ﷺ من كفيته وأماراته فيما روي ابن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال: نور يقذف في القلب، فيفسح له القلب. فقيل: هل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: نعم. قيل: وما هي؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل النزول^(١).

بيّن ﷺ بوقوع نور التجلي في القلب فسحته بانتشار سناه فيه بعدما خلا بالله من بوادي أسرارها، والباسه ضياء قربه ووصاله، وذلك محض الجذب بنعت العناية إلى مشاهدته، فنعت في ذلك التسارع في عبوديته، وسرعة القيادة لظهور ربوبيته، وغلبة شوق جماله عليه عند تجافيه عن كل مألوف ومحبوب، وهذا أحسن الصراط إلى الله، المستقيم عن الاضطراب من جهة النفس والاعوجاج، بإلقاء العدو بقوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الصراط المستقيم بالحقيقة طريق الصفات إلى الذات بنعت المعارف والكواشف.

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٥).

والإشارة: في قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ دليلٌ قوليٌّ؛ لأن هذا إشارة إلى القرآن، والقرآن صفته القديم، وهو طريق إلى ذلك القديم بنعت مباشرة التجلي ووجدانه بوصف المحبة والمعرفة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: صراط ربك هو القرآن؛ لذلك ارتضى لنفسه؛ لأنه صفته وهو صراط محمد صلى الله عليه وسلم لسير الأرواح من معادن الأشباح إلى عالم الأفراح، مستقيم لقوامه بذاته القديم، لا ينقطع المعتصم بحبله والمقتدي بأسوته.

وأيضاً فيه نكتة شريفة وهي: أن قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ خصّه لنفسه، أي: هو يأتي بنعت تجليّه وظهور الصفات والذات بهذا الطريق إلى أصفائه وأوليائه وأحبائه، لم يقل: هذا صراطكم إليّ، بل قال: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الذي أكشف فيه نقاب الحشمة عن جمال وجهي، حتى ينظر إليّ مَنْ يتمسك بحبلي، والمقبل إليّ بصراطي.

قال أبو عثمان: أهدى الطرق وأقومها طريق المتابعة، وأهدى السبل وأصلها طرق الدعاوى بالمخالفة.

قال سهل: التوحيد والإسلام صراط ربك مستقيماً، ولما هداهم إلى صراطه المستقيم، ومنهجه القويم الذي ينكشف جلاله وجماله لسالكه، الذي لم يكن لإقباله إدبار، ولم يكن لهفواته إصرار، وصفهم بالسلامة في دار رضوانه ومربع غفرانه، وجعل لهم هناك منازل الرفاهية، وفتح فيها عليهم روازن العافية، التي هي مشاهدته بلا حجاب بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا نَمْعَشِرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلَدْتُمْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٩) نَمْعَشِرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٢٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ (٢١) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (٢٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ دار السلام: ساحة جلاله

وحظائر قدس صفاته، ومساقط وقوع أنوار الجلال، التي هي منزّهة عن خطر الحجاب وعلّة العتاب وظرفان العذاب، حاشا منها عند الكريم الوهاب، الذي هو وليهم بنعت رعايتهم، وكشف جماله لهم بالعوافي الأبدية والسلامة السرمدية.

وأيضاً: ﴿الْسَّلَامُ﴾ هو الله سبحانه الذي وصف نفسه بالسلام؛ لثلا يفرق منه قلوب العارفين، ولا يفزع من جماله أرواح المحبين، ولا يخاف من جلاله أسرار الواصلين؛ لأنه معدن سلامة المقبلين إليه بنعت المحبة، وداره قلوب عشاقه التي هي محل كنوز أسرارهِ ومواهب أنوارهِ، ومعدن أنبائه العجيبة، ولطائفه الغريبة، وفوائح لوامع سبحاته الأزلية، وهي بتقلبه في أنوار الصفات والذات بقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولقول صفيه ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء»^(١)، وهو وليّهم تعالى بحفظها ورعايتها؛ حتى لا يدخلها هواجس النفسانية، وغمرات وساوس الشيطانية، ما أحسن مناظرها! وما ألطف مطالعها! وما أكرم لطائفها! وما أنعم بهجتها! وما أطيب حلاوة محبتها!.

وأيضاً: علّقهم بالدار الكرامة الجار، ولو علّقهم بالجار لم يبق في البين؛ لحديث الدار، لكن بقي في القوم بعض إزاعة أبصارهم بنعت الالتفات عند الامتحان إلى غير وجه الرحمن من النعيم والجنان، فعلقهم بها لوقوع علّة الحدثان، لكن بفضله ما خلاهم فيها حين قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ يعني: يرفعهم عن رؤية الغير في البين، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: كل حادثٍ مُضْمَحِلٌّ عند انكشاف وجه القدم.

وإذا كان تعالى بنفسه دعاهم فإن جميع المنازل طابت، إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ لأن بحفظه طابت الأكوان، وبحسن جواره تلذذت الحدثان، وأنشد في معناه:

سَلَامٌ عَلَى سَلَمَى وَإِنْ شَطَّ دَارُهَا	سَلَامٌ عَلَى الْأَرْضِ قَدِيمٍ بِهَا الْعَهْدُ
سَلَامٌ عَلَى جَارَاتِهَا لَجَوَارِهَا	سَلَامٌ حَزِينٌ وَامِقٌ شَفَقُ الصَّدِّ
إِذَا نَزَلْتُ سَلَمَى بِوَادٍ فَمَا وَهَا	زُلَّالٌ وَسَلْسَالٌ وَتَبِجَانَهَا وَرْدُ
يَا عَارِفُ لَوْ تَرَاهُ فِي وَسْطِ النَّارِ بَرْدًا وَسَلَامًا	وَتَكُونُ جَهَنَّمَ وَرْدًا وَرِيحَانًا

ألا ترى إلى قوله سبحانه في وصف خليله ﷺ حين أدخله في دار سلامته، ﴿يَنَارُ كُونِ بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩].

انظر إلى شأن البدوي العاشق كيف يقول في حال حبيبه:

يَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ فِإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلْقَى طَيْبَكُمْ فَيَطِيبُ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا حَيْثُ أَيقَنْتُ أَنَّهُ يَمُرُّ بِوَادٍ أَنْتَ مِنْهُ قَرِيبٌ
وَأَيْضًا:

أَهْوَى هَوَاهَا لِمَنْ كَانَ سَاكِنَهَا وَلَيْسَ بِالذَّارِ لِي هَمٌّ وَلَا حَظْرٌ
وَأَيْضًا:

إِنِّي لِأَحْسَدُ جَارَكُمْ بِجَوَارِكُمْ طُوِي لِمَنْ أَضْحَى لِدَارِكُ جَارًا
يَا لَيْتَ جَارَكَ بَاعَنِي مِنْ دَارِهِ شَبْرًا فَأَعْطِيهِ بِشَبْرِهِ دَارًا

قال سهل: دار السلام هو الذي يسلم فيه من هواجس نفسه ووساوس عدوه.

قال بعضهم: دار السلام هو محل السلامة من القطعية.

قال بعضهم: دار السلام هو الذي يكرمهم الله فيه بالسلام عليهم، وهو قوله ﴿سَلِّمْ

عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ
كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١) ﴿إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ﴾ (٢) ﴿قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
تَكُونُ لَهُ عَنَقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ
لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ﴾ (٤) ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ﴾ (٥) ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ
وَأَنْعَمُ حُرْمَتٌ ظَهَرُواهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٦) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى
أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٧)
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٩).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أخبر تعالى عن الصفتين القديمتين الصادرتين من الأزل للعموم والخصوص من الحدثان، بفنائه استغنى عن طاعة المطيعين، وبرحمته رحم كل العاصين، حين لا ينفعه طاعة المطيعين، ولا يضره عصيان العاصين، ملابسة أقطار الحدثان من لطائف الإنعام من بحار رحمته مطر لطفه على الأنعام، غناه أغنى العارفين عن الكونين، ورحمته شملت كل العالمين، فقال: سماع غناه يوجب محوهم، وسماع رحمته يوجب صحوهم.

وقال الأستاذ: ﴿الْغَنِيُّ﴾ يشير إلى غيره، والرحمة تشير إلى لطفه، أخبرهم بقوله: ﴿الْغَنِيُّ﴾ عن جلاله، وبقوله: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ عن أفضاله، فبجلاله يكشفهم فيفنيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ إن الله سبحانه في قلوب العارفين جنان ورد المشاهدات وعبر المكاشفات، وزهر الجمال، ونور الوصال وباسمين المودة، ورباحين الزلفى، فبعضها معروشات بكرم حقائق معاملاتها وحالاتها، بحيث تلاصق ثمراتها إلى حضرة القديم، وأنوار معارفها تسطع إلى سماء اليقين؛ لقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وذلك من جذب الله صميمها وأغصان أنوارها إلى قربه بقوة أزلية في إرفاعها إليه، ويضع ثمراتها غير معروشة لبقائها على أشجار الهموم والفهوم؛ ليتناولها كل طالب وكل مريد صادق، تحلها هو الإيمان الثابت في أرض القلب، وفرعها في عالم الملكوت، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وزروعها تُنبت فيها من بذر المحبة، وهي مختلفة ثمراتها، فمنها الأنس، ومنها القدس، ومنها الشوق، ومنها العشق، ومنها الخوف، ومنها الرجاء، ومنها العصمة، ومنها المعرفة، ومنها التوحيد، ومنها التجريد، وزيتونها إخلاصها، تُنبت من أنس الوصال بدهن نور الجمال، وصبغ صبح الجلال متشابهاً في لباس الالتباس، منبتها في منظر نور التجلي.

قال تعالى في وصفها: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٥٣]، ووصفها أيضاً بقوله: ﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومن هاهنا خاطب كلمه بقوله: ﴿تُودَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [القصص: ٣٠]، ورُمانها شجرة الإلهام الذي ثمره

حكمة الحقائق ولطائف الدقائق.

﴿مُتَشَبِّهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ﴾ مقاماتها بعضها متدانية من بعضها، وبعضها متباعدة من بعضها؛ لأن بعضها معاملات وبعضها حالات واردة، وبعضها مكاشفات، وبعضها أسرار، وبعضها أنوار، فخطابهم رب هذه البساتين بأن يستمتعوا بثمراتها ومنافعها لزيادة قوة الإيقان ونور الإيمان بقوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

ثم أمرهم بأن يعطوا زكاة هذه النعم المتواترة إلى المريدين الطالبين بإخراج لطائفها بنعت البيان على لسان العلم، ونشر فضائل المقامات والحالات بقوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: يوم أكملت الأحوال، واستقيمت الأعمال بنعت التمكين والاستقامة.

ثم أمرهم ألا ييخلوا، ولا يكتموا عن أهلها هذه النعم الغيبية المستفادة من لطف الله العزيز بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فإن كتمانهم عن أهلها ظلم وإسراف ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١) يعني: من كتمانها يكون محتجباً بعدها، ما هذه البساتين، ما أطيب ثمراتها! وما ألطف زهراتها! وما أعذب أنهارها! وما أشرق شمسوها! وما أنور أقمارها! وما أزهر خضرتها! وما أكرم نضرتها! وما أحلى أصوات ألحان بلابل أشجارها حين ترنمت بسبحاتي: وأنا الحق.

قال الأستاذ في تفسير هذه الآية: بساتين القلوب أتم من جنان الظاهر، فأزهار القلوب موقنة، وشموس الأسرار مشرقة، وأنهار المعرفة زاخرة. وقال: أما إخراج البعض فبيانه على لسان العلم وشهود المنعم في عين النعمة أتم من الشكر على وجود النعمة.

﴿وَمَنْ أَلَانَعِمَ حَمُولَةً وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢) ثَمَنِيَّةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَرَاتَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّدَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) الإسراف: ما تناولته لك، ولو بقدر سمسة، ويقال: الإسراف هو التعدي عن حد الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأي وجه كان [تفسير القشيري (٢/٣٦٣)].

الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: من قوى الإنسانية ما لا يحمل أثقال المجاهدات، ومنها ما يحمل أثقال وقار الامتحانات، فما يحمل الإنسانية يضعف تحت امتحان الله، وما يحمل بقوى الربانية يكون مطية حمل أمانة المعرفة، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ألا ترى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-: «والله ما قلعتُ بابَ خيرٍ بقوةِ جسمانية، وإنما قلعتها بقوةِ ربانية».

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ للأشباح رزق، وللأرواح رزق، وللقلوب رزق، وللعقول رزق، وللأسرار رزق، وأما رزق الأشباح فما استطابته من عالم الفعل بما وافقه العلم، وأما رزق الأرواح فمشاهدة تحلي الصفات، وأما رزق القلوب فما ينكشف لها من أنوار الغيوب، وأما رزق العقول فما يلوح لها من سنا الآيات، وأما رزق الأسرار فما تجلّى فيها من مكنون علوم الخاص في رؤية الذات.

قال الأستاذ: الرزق ما يحصل به الانتفاع، وينقسم إلى رزق الظواهر والسرائر، فهذا وجود النعم، وذاك شهود الكرم، بل الجمود في وجود العدم، وللقلب رزق، وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزق، وهو المحبة بصدق التجرد عن الأكوان، وللسر رزق، وهو الشهود، والذي قرينه العيان.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١١٥﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٦﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ فيه تسلية لقلب نبيه ﷺ وأطباعه من الله سبحانه في إرجاع من سبق له في الأزل حسن عنايته إلى باب كرمه وعفوه وإن كان في صورة الامتحان، أي: هو واسع الرحمة على الأكوان وأهلها، يتحمل جفاء المدبرين ويواسيهم بما يصلح لأبدانهم من المعاش، ويقبل على المقبلين، فيري قلوبهم بلطائف خطابه وأنوار جماله.

وأيضاً: رغب الجمهور مع ما هم فيه إلى سواحل بحار لطفه، وساحة جلال كرمه؛ شوقاً منه إلى وصول مصنوعاته من الأرواح والأشباح إليه، وفيه مواساة لقلب النبي ﷺ، أي: فإن جفوك فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ بتخليصي وتخليص أوليائه عن جواركم إلى جواره الكريم.

قال سهل: قيل للنبي ﷺ: مَنْ أَعْرَضَ عَنْكَ فَرَّغْهُ فِيَّ، فإنه من رغب فينا ففبك رغب لا غير، قال الله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ أطمعهم في الرحمة، ولا تقطع قلبك عنهم.

قال الأستاذ: الإشارة فيه بيان تخصيصه الأولياء بالرحمة، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة، فالصورة الإنسانية جامعة لهم، والقسمة الأزلية فاصلة بينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ بين سبحانه أن ألسنة الإسرار وإن كانت فصيحة ناطقة بحجج الحكمة المستفادة المتلفة من فلق إلهام الغيب عند مسامرتها مع الحق في الشهود، فخرس عند بوادي حجج العدم، ومناقشته عند لطائف العتاب، أي: له حجة كاملة قاطعة ألسنة الخواطر عند وضوح بيان إشاراته في الإسرار، وهذا المعنى لا يعرفه إلا أصحاب مسامرة ومحاضرة، الذي خرج من نعوت الإنسانية عند شهود الغيب.

قال النصر ابادي: الخلق كلهم منعته شدة الحاجة عن معاني رؤية الحجة، ولو أسقط عنهم الحاجات لكشف لهم براهين الحجة.

قال الحسين: لكل حجة حكم وأمر ونهي، وبيان وسر، وعلم ومعرفة ومشية، فاعرفوا الله في كل مقام يتعرف إليكم في كل ساعة.

وقال الجنيد: آثار مشيئة الهداية تنبئ عند أهل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أضاف علم البيان وهداية العرفان إلى مشيئة الأزلية، يختص بعلم الإلهام والحجة والبرهان مَنْ يشاء من أهل الإيقان، وَمَنْ لم يكن له استعداد رؤيته ومحبه وصلته لم يكن له حجج في أجوبته أهل الحقائق عند مجازاة الدقائق ونشر علوم الغيبة، تظهر لأجنانة حجته ويُبهم حجته، ويُبهم على قلوب المتكلمين إلهامه

وبيانه.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥٠) .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ، ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ عرائس الدنيا، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ زينتها وخضرتها، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ حب الرياسة والجاه.
قال المحاسبي: الفواحش ما أريد بها غير الله.

قال بعضهم: ما ظهر من الفواحش في الأفعال هو الوفاء، وما بطن منها الدعاوي الكاذبة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٥١) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٥٢) ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٣) وَهَٰذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٥٤) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (١٥٥) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (١٥٦) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ امْنُتُمْ لَنَا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٧) إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَنْسَتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٨) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ إذا ادَّعَيْتُمْ مقام الولاية فاصدقوا بإلقاء نفوسكم إلى قناطر البلايا؛ فإن الولاية مقرونة بالبلية.

وأيضاً: إذا أخبرتم مني باللسان فكونوا حاضرين عندي بالجنان، وإذا ذكرتموني بالظاهر فكونوا شاهدين مشاهدي في الباطن، وإذا شهدتم على معائب عبادي حين تعرفهم شأنها إياهم، لا تفرغوا في الأمر بالمعروف، ولا تخافوا عن لومة اللائمين بالنهي عن المنكر، وكونوا عادلين فيه، ولا تجاوزوا عن الحدود التي رسمتها في شرائعي.

قال أبو سليمان في هذه الآية: إذا تكلمتم فتكلموا بذكره.

وقال محمد بن حامد: العدل من الكلام ما لا يكون على صاحبه في ذلك بلغة، عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ الوفاء بالعهد إقبال القلب إلى الله بلا إِدْبَارٍ بنعت المحبة والشوق حتى يصل إليه، ولا يحتجب بشيء دونه، ولا يختار عليه غيره.

قال الجوزجاني: العهود كثيرة، وأحق العهود بالوفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأمر نفسك بالمعروف، فإن قبلت منك وإلا رَضَّها بالجوع والسهر وكثرة الذكر ومجالسة الصالحين؛ لترغَّب في المعروف غيرك، وتنتهي نفسك عن المنكر، فإن قبلت وإلا فأدبها بالسياحة والتقطع والعزلة وقلة الكلام وملازمته لتنتهي، فإذا انتهت فانه الناس عن المنكر.

لما شرع الله سبحانه شوارع الحقيقة ونصَّب في سبيل معرفته الربوبية وصى عباده باللزوم فيها بنعت الصبر والرضا عند تحمل العناء والسياسة في بحر البلاء للوجدان والتزین بلباس البقاء، وكذا عقد الحقيقة عليهم، وِحَجَّ عليهم؛ تمهيداً للعبودية؛ وعرفاناً للربوبية بقوله: ﴿هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ صراطه المستقيم متابعة إلهامه وكلامه والشروع في عبوديته لغفرانه وطلب مشاهداته عند تقديس خاطر عن غيره.

قال جعفر بن محمد: السلام طريقٌ من القلب إلى الله بالإعراض عما سواه، وأراد بالسبل هاهنا سبل الخطرات المذمومة والهوام النفسانية والوساوس الشيطانية؛ فإنها مظلمة مفاوزها قاطعة لطريق الميردين، وسيله سبيل الهدى وضوح شمس الصفات في جلال الآيات للعقول الصافية عن أكناد الخليفة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: أعطى موسى ما خصَّ به في المناجاة؛ حيث يزيد كلامه القديم الذي بيَّن له طريق معارف القدم

وكواشف الذات والصفات حين تجلّى له، ثم أعطى النور للعموم شريعة وبيانا بالمناهج العبودية؛ لأنهم عند مشاهدة الجلال وسمع الخاص عند كلام الخاص بمعزل.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ وصف المفترين والمائلين عن الطريقة حقها على المريدين بذل النفوس وأمانتها بالمجاهدات والرياضات بأنهم لما فارقوا سبيل الحق وقعوا في أودية الباطل، فصاروا فرق الدعاوى الهالكة، فبعضهم زراقون، وبعضهم طرارون، وبعضهم متشابهة بزي الرجال، وبعضهم متلبسون بقول الإبطال.

قال فارس: لم يستقيموا لله على وتيرة واحدة.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٨) ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مَنْ بقي على رؤية الأعمال فأجره بحساب؛ لأن أجره من عالم الحدّثان من نعيم الجنان، وَمَنْ رفع بصره عن أعماله بنعت الخجل عند رؤية الرحمن أجره بغير حساب؛ لأنه لطائف العرفان وموائد الإيقان، وأصل الحسنة إخلاص العبودية عند ظهور الربوبية، لذلك قال ﷺ ﴿الإحسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ﴾ (١)، هذا إحسان العارفين الذين أجرهم مشاهدة الله بلا نهاية.

قال بعضهم: مَنْ لاحظها من نفسه فعشر أمثالها، وَمَنْ لاحظها من مواصلة الحق فهو الذي يصلي عليكم وملائكته والله يضاعف لمن يشاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الصراط المستقيم هاهنا أغرب طريق في المعارف والكواشف، هداه به نبيه إلى نفسه؛ لأنه خاصٌ بذلك من جميع الخلائق.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ﴾ كيف خصّ هداية نفسه بالرب، وذلك وقوع الأسرار في منازل الأنوار وطيران روجه في الملكوت والجبروت حين شاهده نور دنو الدنو بوصف الرؤية الكبرى وسامرات الأعلى بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٢١) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ

أَوْ أَدْنَى ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٢﴾ [النجم: ٨، ٩، ١٠، ١١] ما رأى ما جاز عن سبيل القدم بعلة الحدث؛ لأنه كان محفوظاً برعاية الأزلية وعناية الأبدية، بلغ إلى أقوام الطرق في مشاعر الصفات ومشاعر الذات.

ألا ترى إلى قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ مستقيماً له منزهاً عن اعوجاج البشرية وطوارق التلوين؛ لأنه بحجة المحبة وصراط النحلة التي سبلها جذبات الأزل ومكاشفات الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني طريق محبة ملة إبراهيم ﷺ في خلته، وإن كان هو مخصوصاً بأغرب طريق المعارف من جميع الخلائق، وصفه بالحنيفية المائلة في طريق المحبة عن غير الحبيب من تلك سبيله وصل إلى حبيبه؛ لأنه مقدس من شوك الشرك وغبار القطيعة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ طريق المحبة والخلة واحد في نفس الاقتداء؛ لأن معدنها عين القدم المنزهة عن كل علة.

قال أبو عثمان: الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع، وترك الهوى والابتداع، ألا تراه يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

وقيل في قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: سليماً من الاعوجاج وهو اجس النفس، ووجود لذة المراد فيه، ولما وصفه ﷺ باهتداء إلى جلاله وجمال وصفه بتنزيهه عن رؤية جميع الخلائق في عبادة خالقه، أمره بتعريف حاله، وقدس سنائه عن الإذاعة في الحدثنان بقوله: ﴿قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صلواته وصلته، وسجوده قرينة، وشهوده مشاهدته، وركوعه وجد، وقيامه حيرة؛ لذلك قال ﷺ: «قرّة عيني في الصلاة»^(١)؛ لأن قرّة عينه ظهور مشاهدة الله في صلواته، ولذلك أزه واردات تحلي الجلال والجمال، حتى قيل: كان يصلي ولحوقه أزيز كأزيز المرجل، أي: هذه الصلاة لله لأنها مقدسة من رؤية غير الله فيها، ومن مثابتها كانت لله خاصة لخصوصية صاحبها وشرفها على جميع الخلائق، ولأن الصلاة عبادة، والجهود كانت بالعرض إلا هذه الصلاة؛ لأنها كانت فناء الحدث في القدم، وقربان منهم روح الأول على باب الأزل بسيف المحبة والعشق شوقاً إلى معدنه، وهذا معنى قوله: ﴿نُسُكِي﴾ فإذا جعل وجوده قربان الأزل حياً بحياة القديم، ثم فني في ظهور سطوات العزة به، كانت حياته ومماته ومثل هذه الحياة والمات والنسك والصلاة أن يكون لله رب العالمين لقدسها عن علة حظ الحدثنان، وخطرات علة النسيان.

قال الواسطي: بيان هذه الآية في قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، فَمَنْ لاحظها من نفسه قصمته، وَمَنْ تبرأ منها عصمته، كيف يجوز الوجدان بلا حظٍّ فضلاً.

قيل: مَنْ علم أنه بالله علم أن الله، فإن علم نفس لم يبق فيه نصيبٌ لغير الله، فهو مستسلمٌ لحكم الله غير معترضٍ على تقدير الله، ولَمَّا كان الشيء بوصف ما ذكر حيث انفرد بفردانية الله أفرد نفسه الله بحيث لا يرى غير الله بقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي: لا رؤية للغير في البين في ظهور شمس جلاله من مطلع القلب.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلَ لَكَ أُمْرَتُ﴾ أي: هو يستحق لإفراد قدمه عن الحدوث، ولا يستحق ذلك لغيره، وما دام شأنه ذلك خصَّ الله جوهره بأول الفطرة التي انقادت لعزته عند ظهور تجلي هيئته الأزلية لها.

قال سبحانه عقيب قوله: ﴿وَبَدَّلَ لَكَ أُمْرَتُ﴾: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ السَّامِينَ﴾ إشارةً إلى تقدم روحه وجوهره على جميع الكون وأهله في الحضرة حين خاطبه بالرسالة والولاية والمحبة والخلعة، فانقاد في أول الأول الأزلي الأبدي، تعالى الله عما يقولون الظالمون علواً كبيراً. وأشار إلى ما ذكرنا قوله الشيء: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»^(١)، وقوله الشيء: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورِي»^(٢).

وقيل في قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ السَّامِينَ﴾ أي: أسلمت لتصاريف قدرته متبرئاً من حولي وقوتي، مع أن التسليم في الحقيقة علةٌ، ولَمَّا كان سابقاً على جميع الخلائق في حضرة العزة بنعت الانقياد بعز ربوبيته، ومعرفته بجلال ديموميته، أمره تعالى بأن يعرف نفسه الشريفة المبرأة عن علة الحدثنان لجميع الخلائق؛ ليعرفه كل صادق، ويطيعه كل محبٍّ موافقٍ بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أنا في مشاهدة قدم الله أبغي ستائر على مشاهدته سواء، حاشا من عظم شأنه أن يكون عوضاً لجماله من العرش إلى الثرى.

قال الجوزجاني: أسواه أطلب حافظاً وراعياً ووكيلاً، وهو الذي كفاني هم وأهمني الرشد!

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٤).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣١١).

جَعَلَكُمْ خَلِيفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: ما عملت النفوس إلا ما ألزمت عليها في الأزل، فإذا عملت ترجع إليها؛ لأن خالقها منزلة عنها.

قال بعضهم: لا تكسب من خيرٍ وشرٍّ كل نفس إلا عليها، أما الشرُّ فهو مأخوذٌ به، وأما الخير فهو مطلوبٌ منه صحة قصده، وخلوه من الرياء والعجب، ورؤيته من نفسه والتزین به، والافتخار به، والاعتماد عليه، والإحسان فيه، فإذا حصلته وجدته عليه، لا إله إلا أن يعفو الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلتكم خزائن جودي من المعرفة والمحبة والولاية، خلفاء العالم بعد مضي دهر الدهار، وتقلب الفلك الدوار، والقرون الماضية ممن قسم له الرسالة والنبوة والملك والشرف، وما كان لهم في السبق السابق، وأول الأول، ويكون لكم يا خلفاء الأنبياء والصديقين، هو الذي جعلكم خلفاء في أرضه كآدم عليه السلام، ونوح عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، وزاد شرفكم بشرف نبيكم على الجمهور، وقال الله ﷻ: «نحن الآخرون السابقون»^(١).

وبين تعالى هذه الآية أن النجباء والأولياء والأصفياء والأتقياء والأخيار والأوتاد والخلفاء يختلف بعضهم بعضاً، كما وصف الله ﷻ الأبدال والأولياء في حديثٍ مرويٍّ بقوله: «إذا مات واحدٌ منهم أبدل الله مكانه واحداً»^(٢)، وصرَّح بخطابه أن درجاتهم متفاوتة بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ لاقتداء البعض بالبعض، وبقية أمانته وأمانه وحقته وبرهانه في العاملين للعاملين درجة بعضهم المعاملات، ودرجة بعضهم الحالات، ودرجة بعضهم المقامات، ودرجة بعضهم المكاشفات، ودرجة بعضهم المشاهدات، ودرجة بعضهم الفراسات، ودرجة بعضهم الكرامات، ودرجة بعضهم المواجيد والواردات، ودرجة بعضهم الحكميات، ودرجة بعضهم الدنيات، ودرجة بعضهم المعرفة، ودرجة بعضهم التوحيد، ودرجة بعضهم التلوين، ودرجة بعضهم التمكين، ودرجة بعضهم اليقين، ودرجة بعضهم الفناء، ودرجة بعضهم البقاء، ودرجة بعضهم الحيرة، ودرجة بعضهم الوله والغيبة، ودرجة بعضهم السكر، ودرجة بعضهم الصحو، ودرجة بعضهم الاتصاف، ودرجة بعضهم الاتحاد،

(١) رواه البخاري (٩٤/١)، ومسلم (٥٨٦/٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١١٢/١).

ودرجة بعضهم الربوبية، ودرجة بعضهم المعبودية، وعلم العام وعلم الخاص، وعلم العلم، ومعرفة العلم والسر، ومعرفة السر والخير، ومعرفة الخير والعلم المجهول، وما فوق ذلك إلا رسومٌ مندرسةٌ وطرقٌ منطمةٌ؛ لأن هناك ظهور كنه القدم، ولا يبقى مع القدم إلا القدم، ابتلاهم بهذه المقامات لفناء علّة الحدث في القدم، ومن خرج بنعوت الربوبية منها ويدعي بها يضرب ويصلب ويقتل ويحرق، كما فعل بحسين بن منصور - قدس الله روحه - ومن خرج منها بنعت العبودية وبقي بنعت الاستقامة كالنبي ﷺ، حيث قال: «أنا العبد، لا إله إلا الله»^(١) عَصِمَ من فورة السكر، وغفر له خطراتها في أثناء الطريق، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: خلف الولي وليّ، والصديق صديق، ويرفع درجات البعض على البعض، ودرجات البعض البعض؛ لثلاث تخلق الأرض من حجة الله وأمانه.

قال بعضهم: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^(٢): ليقندي الأدنى بالأعلى، ويتبع المريد درجة المراد؛ ليصل إليه، والله أعلم.

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصِّ﴾ كَتَبْتُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٣﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤﴾ .

(١) سبق تخرجه.

(٢) قال ابن عجيبة: من شرف هذا الأدمي أن جعله خليفة عنه في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملكهم الله من الأملاك الحسية، والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفون بالله، أمرهم بأمر الله، إن قالوا الشيء: كن يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تحرق أسوار الأقدار.

والحاصل: إن من بقي مع الأكوام شهودًا وافتقارًا، كان محبوبًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوام معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك [البحر المديد (٢/٢٢٩)].

﴿المص﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيرته مما كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء.

كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأخبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، ألا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومنّ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربيه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام، هاهنا تعالى حبيبه قصة تجلده لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية.

ألا ترى إلى حرف اللام في التجلي، وعرّف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتاباً من الله تعالى إليه»^(١).

وأيضاً أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحداية نفسه المنزّهة عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف

اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم ويّين له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له، ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلّة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام ألف سر أوليّته، وما في بحار أزلّيته.

ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لم يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاته القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لما خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلما خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يثبه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها. وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصاد الصاد.

وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء.

وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الآخر.

ومن شرّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿الْمَص﴾ للألف عندهم فهم، وللهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم.

وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال من اتصل به، وانفصال من انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري

على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ذكرت إن حروف الأسرار كتاب وتصديق ذلك قوله تعالى بعد قوله: ﴿الْمَصِّ﴾، ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذه الحروف ﴿الْمَصِّ﴾ كتاب الأسرار أنزل إليك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: لا يكون في صدرك حرج نكرتها وقلة إدراكها، أي: فلا تخف أنك لا تعرف إشارتنا فيها؛ فإنك مخصوص بعلم لطائفها، وحقائقها وصدرك محل البسط بفسخه نور تجلّي جمالي، فلا يكون فيه خرج القبض^(١)، وتصديق ذلك قوله: ﴿أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: لهذه الأسرار لا يحتمل غيرك أنها لك وأن لك استعداد فهمها، فلا يكون في صدرك هم لأجلها، فإنها تسهل فهمها عليك.

قال ابن عطاء في ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: عهد خُصصت به من بين الأنبياء أنك خاتم الرسل وعهدك خاتم العهود؛ لتشرح به صدرك، وتقربه عينا.

وقال الجنيد: فلا يكن في صدرك حرج منه لا يضيّق قلبك بحمله وثقله، فإن حمل الصفات ثقيلة إلا على مَنْ يؤيد بقول المشاهدة.

وقال النوري: إن أنوار الحقائق إذا وردت على السر ضاق عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها.

قال القرشي: لما قصّ الله في هذه السورة قصة الكليم علم أن قلب النبي ﷺ يتحرك، لذلك قال: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لأنه كُلم على الطور وكُلمت وراء الصور، ومنع المشاهدة ورزقها.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب تحفة الوقت وشفاء عما يقاسيه من ألم البعد.

وقال في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: إشارة إلى حفظ قلبه عن كل قبض، وقال: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يقل قلبك فإن قلبه ﷺ في تجلّي الشهود ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، ولم يقل قلبك، ولذلك قال موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، وقال له: ﴿الْمَرْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فإن القلب في محل الشهود، وهو أبداً بدوم الأنس والقرب،

(١) أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يكذب به، مخافة أن تكذب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة. البحر المديد (٢/ ٢٣١).

قال **العزيز**: «تنام عيناى ولا ينام قلبي»^(١)، وقال: «أسألك لذة النظر»^(٢).

وصاحب اللذة لا يكون له حرج.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٢﴾ وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِغَيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: يسأل عن الأمة فهم الخطاب وقوله بشرط الحرمة واستعماله بوصف المتابعة، ونسأل الرسل أداء الرسالة في صورة كلام على قدر عقول الخلق شفقة على الأمة.

قال أبو حفص: لنسأل الذين أرسل عليهم سؤال تعنيف وتعذيب ولنسأل المرسلين سؤال الشريف وتقريب قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾^(٣) أي: لتخبرهم حال المشتاقين إلى لقائنا، وشأن المدبرين عن ساحة كبريائنا.

وأيضاً: لتخبرهم ما جرى عليهم، وهم كانوا لا يعرفون حقائقه من آثار القهريات واللطفيات والموجودات والمعدومات.

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عن شهود المشتاقين، وزفرات العارفين، وعبرات العاشقين، وجفاء المتكبرين، فإننا قد علمنا في القدم ما كان في العدم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾: أي في حال عدمهم ووجودهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عَمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فَمَنْ هَاهُنَا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبار، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرّه بميزان المحاضرات ومطالعته الغيبات، ويزن صورته بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة

(١) رواه البخاري (٣/١٣٠٨).

(٢) رواه النسائي (٣/٥٤).

(٣) أي: عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم.

والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَتْ موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأيمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنوار الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات.

وأيضاً هاهنا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المرید نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحِبُّ قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزن العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المرید بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحِبُّ بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاء بنعت الشهود؛ لكشف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبرياته القديم، وفنائها في سبحات الأبد، فَمَنْ ثَقُلَتْ هذه الموازين أفلح عن حجة الامتحانات، وَثُنُقِلَ موازين الحضرة غداً بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فَطُوِيَ لهذا المحاسب طُوبَى له وحسن مآب.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: وَمَنْ وَزَنَ نفسه بميزان العدل كان من المحبين، وَمَنْ وَزَنَ خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسنة، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب.

وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمن كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومن كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبين لهم ما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهاناً وعباناً وعلماً بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرج أعمالهم على وفق ما كان مكتوباً عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيثار به.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:

٨]، وهم أعرف بمنالهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقيح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخف وزنه حتى تضع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١)
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ
 خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٣﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
 فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ
 ﴿٦﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَا يَتَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
 وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٨﴾ قَالَ أَخْرَجْ
 مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمِن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ﴾ من الله على عباده بتمكينهم في الأرض بنعت لتسهيل عبادته، حيث يستر لهم عبوديته بقدرته خلقها فيهم بعد أن كلفهم ذلك، وجعل فيها لأبدانهم معاش الغذاء،

ولقلوبهم معاش الذكر، ولعقولهم معاش التفكير، ولأرواحهم معاش روح رؤية ظهور جلالة في ملكوت الأرض من كل زهرة وحضرة؛ لعرفان المنعم القديم بنعت عجزهم في شكره، ثم زاد امتنانه عليهم بأنه تعالى أجادهم بأظرف الخلق والطفه وأحسن الصور وأكرمها، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أشباحكم جمعاً في آدم ﷺ ثم صورناكم في حواء، وأيضاً خلقناكم هياكل وصورناكم أرواحاً، وأيضاً خلقناكم بالأفعال وصورناكم بالصفات، وأيضاً خلقناكم خلقكم بالأمر، ثم صورناكم بظهور تجلي الصفات لكم، فوق الخلق بوقوع الأمر وترتيب الصور بوقوع تجلي بروز الصفات، فتكونت الصور بنعوت الصفات، وتكونت الهياكل بنعوت الأفعال، وتكونت الأرواح من تجلي الذات، فيكون الجميع صادرة من العدم بنعت القدم.

ألا ترى كيف أشار ﷺ فيه إلى سر التشابهات حيث قال: «خلق الله آدم على صورته»^(١)، فجعل للأشباح طريق العبودية، وجعل للأرواح طريق عرفان الربوبية، وجعل للعقول طريق الملكوت، وجعل للقلوب طريق الجبروت، وجعل للأسرار طريق القدم والبقاء.

قال بعضهم: أبدع الله الهياكل وأظهرها على أخلاق شتى، وصور مختلفة، وجعل لكل شيء منها عيشاً، فعيش القلوب في الشهود، وعيش النفوس في الوجود، وعيش العبد معبوده، وعيش الحواس الإخلاص، وعيش الآخرة العلم، وعيش الدنيا الجهل والإمارة والاغترار بها.

ولما صور الجميع في آدم ﷺ بصورة آدم ﷺ وصور آدم ﷺ بصورة الصفات المنزهة عن المشابهة بالحدثين هاهنا علماً لا رسماً، وهاهنا عشقاً لأشباهاها أحدية وتوحيد وجمعاً، وتفرقة لا تشبيهاً ولا تعطيلاً، زينة بنور الصفات ونعت الأفعال، ثم كساه أنوار الذات، ثم قال للملائكة: اسجدوا له، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ لأنه قبله تجلي الصفات والذات، وهو مصور بصورة الملك في الملكوت قبل موضع استواء أنوار الذات، وصورته موضع استواء أنوار الصفات، وهيكله موضع استواء أنوار الأفعال، وروحه موضع استواء أنوار المحبة، وسره موضع استواء أنوار العلم والمعرفة.

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإنه لكم واسطة في العبودية لا معرفة الربوبية واسطة في العبادة، فإنه يليق بكم، فإن في عبادتي لا يليق الكون ومن فيه، وما فيه أظهر استغناؤه عن عبودية

(١) رواه البخاري (٢٢٩٩/٥)، ومسلم (١٩٩/١).

الخلق، لكن أدخل عشاق الملائكة في مقام المحبة والعشق فتجلى لهم بنور جماله من مرآة وجه آدم عليه السلام؛ ليفتر قلوبهم بلذة المحبة والعشق، ولو أبرز لهم أنوار صفاته وذاته صرفاً احترقوا في أول ما بدا من نور الألوهية، ولم يسجد إبليس لأنه كان محجوباً من ذلك الجلال والجمال بنظرة إلى نفسه وقياسه بجهله، وكذا من نظر من الحق إلى النفس احتجب بها عن رب النفس. قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: لم يكن من أهل شهود الصفات ورؤية جلال الذات.

قال أبو حفص: عرف الملائكة استغناؤه عن عبادتهم، قال: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ولو كان سجودهم يزن عنده مثقال ذرة لَمَا أمرهم بذلك ولا صرف وجوههم إلى آدم عليه السلام، قال: سجود الملائكة وجميع خلقه لا يزيد في ملكه؛ لأنه عزيز قبل أن خلقهم، وعزيز بعد أن يفتنيهم، وعزيز حين بيعتهم، ثم غير إبليس بامتناعه عن السجود لآدم عليه السلام وقلة عرفانه، شرفه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي: أي شيء يمنعك من متابعة أمري، ولم يبق في البين غيري، أي: يمنعك من ذلك قهر سابق مني عليك، وخذلان وارد في المشيئة عليك، وإلا فمن الحدثن بامتناعها عن متابعة أمري، وليس لها قدرة ولا مشيئة، وكلها عاجزة في قبضة قهري، ومن سبق له الشفاء لا يسبق بالمراد، وإن كان جميع عبادة الثقلين مصحوباً معه في استباقه إلى الحضرة.

قال الواسطي: من استصحب كل نسك في الدنيا والآخرة والجهل فطنه، والاعتراض عرضه، والبعد من الله سببه، لا يقرب منه؛ لأن العبادات تقطع عن الرعايات ورؤية النسك رؤية الأفعال والنفوس، ولا متوثب على الله أشد ممن طالع نفسه بعين الرضا، فلما كلم الله إبليس بكلام التعبير وقهر السلطنة ألبسه من خطابه قدرة في الجواب، ولولا إلباس الحق إياه لكان مبهوراً عند وارد قهر الخطاب عليه، ولم ينطق بجواب الأمر ولكن أجابه إجباراً لا اختياراً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. لما رأى المعلنون لباس قهر خطاب الحق عليه قال بقوته: ﴿أَنَا﴾، ولولا ذلك لما قال: ﴿أَنَا﴾، وأين أنائيته وكان هباء في أنائية الحق، نظر المعلنون إلى جوهر النار الصادر من قهر العدم فانتسب إلى قهر القدم، قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولم ينظر بنظر المعرفة إلى الطين الذي صدر من لطف القدم ورحمة الأزلية، النار من غضبه، والطين من رحمته، والرحمة سابقة على الغضب؛ لقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

(١) أي: يد تنزيهه وتشبيهه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم ملئاً وفلكاً.

نظر إلى صفة واحدة ولم ينظر إلى صفة أخرى؛ فاحتجب بالصفة عن الصفة فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولو رأى مصدر جميع الصفات لذاب تحت رؤية الكبرياء وأنوار العظمة، ولم يكن بعد فنائه أبداً؛ لأن مَنْ عرف وصف القدم صار عدماً في القدم، ولو رأى الملعون من وجه آدم ﷺ ما رأى الملائكة ما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ كان جاهلاً به والملائكة كانوا عاشقين به، غلط في قياسه ورؤيته إلى نفسه، وأين النار من الطين الذي يقبض قبض ألطاف العزة وخلق يد الصفة الخاصة بقوله: ﴿خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ^(١)، وسقط الأرواح التي صدرت من تجلّي القدس بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وذلك محل التواضع والعبودية الخالصة ومنتبت أجسام الأنبياء والرسل والأولياء والصديقين، ومنتبت أغذية الخلائق ومرجع الكل، وهو بريقة الأجسام والأرواح في العالم ليخرج منه سبائك القدس لمجالس الأنس، والنار عذاب قهره مجاز بها من خلقه نارياً كإبليس وجنوده، قوته من أصله الذي كان منه، كان من نار اللعنة فعده باللعنة، قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، كل شيء يرجع إلى أصله، كان جاهلاً بظاهر العلم بعد أن كان جاهلاً بباطن العلم ولولا ذلك لم يسلك طريق القياس عند وقوع النص، والنص غالب على القياس من جميع الجهات.

قال بعضهم: لما نظر إلى الجوهر والعبادة توهم المسكين أنه خير، فسبب فساد النفوس من رؤية الطاعة.

وقيل: توهم أن الجواهر من الكون على مثله وشكله في الخلقة فضل من جهة الخلقة والجوهرية، ولم يعلم ولم يتيقن أن الفضل من المتفضل دون الجوهرية.

وقال الواسطي: من لبس قميص النسك خامره أنا لذلك، قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [ص: ٧٦]، ولو لم يقل خير منه لأهلكه قوله في المقابلة أنا.

قال ابن عطاء: حجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لم يعظم غيره؛ لأن الحق إذا استولى على سرّ قهره فلم يترك فيه فضلاً لغيره، ولما رأى الملعون فضل آدم ﷺ وذريته بالعلم الأسامي وعرفان الصفاتي، والمسابقة على الكل بعنايته الأزلية حسد عليهم وخرج على عدواتهم بعد طرده من باب الرحمة، وتجاسر بجهله في مقابلة الحضرة بالمخاطبة بقوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هاهنا قسم، أي:

بإرادتك السابقة في غوائك، أي: لأقعدن لهم صراطك المستقيم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢]، أي: بما ألبستني لباس قهرك في الأزل أقدر أن أقعد في طريقهم المستقيم، وإلا فلا أقدر أن أمر بهم في وراء العالم بقوة قهرك في الأزل، أوسوس في صدورهم التي هي طريقك المستقيم الذي يسألك فيه عساكر أنوار تجلاك.

في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ نكتة عجيبة، أي: لأقعدن لهم لا عليهم، فإن وسوستي لهم تزيد شرًا فهم عند إحساني عن صدورهم بنعت إياسي عن الظفر بهم، ويتمازج هناك إيمانهم وإيقانهم عن نعوت الاضطراب وطوارق الوسواس وغبار الشك.
ألا ترى إلى قوله ﷺ حين شكاه أصحابه عمًا وجدوا في صدورهم من الوسوسة، فأشار ﷺ بقوله: «ذاك صريح الإيمان»^(١).

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لو نجا إبليس بشيء لنجا برؤيته القدرة عليه والإقرار على نفسه بقوله: ﴿رَبِّمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، ثم زاد الجرأة بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من بين أيديهم من جهة النفس والهوى، ومن خلفهم من جهة الشهوة والمنى، وعن أيانهم من طريق الدعوى، وعن شمائلهم من طريق إظهارهم الشكوى في البلوى.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الطاعات، ومن خلفهم من طريق رؤية الأعواض، وعن أيانهم من طريق العلم، وعن شمائلهم من طريق الجهل.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق القلب، ومن خلفهم من طريق العقل، وعن أيانهم من طريق الروح، وعن شمائلهم من طريق الصورة والنفس.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الإسلام، ومن خلفهم من طريق الإيثار، وعن أيانهم من طريق العرفان، وعن شمائلهم من طريق الإيقان، ولم يذكر الفوق والتحت؛ لأن التحت موضع الفناء في العبودية عند السجود الذي يوجب القربة، وذلك السجود شهود والشهود محل رعاية الحق، ولا يقدر أن تمر على باب رعايته أحد دونه، والفرق محل الكشف، والمشاهدة وارد التجلي وظهور سبحات وجه القدم، ولو دنا منه جميع الشياطين من العرش إلى الثرى بقدر رأس إبرة لاحترقوا في أقل لحظة.

قال أبو عثمان المغربي: إن الشيطان يأتي الإنسان عن يمين الطاعات من بين يدي الأماني والكرامات، ومن خلفه بالضلالات والبدع، ومن يساره بالشرك، فإذا جرى بعيد

سعادة قبل منهم ما يأمرونه من الطاعات، فإذا أراد أن يهلكه بطاعته رد إلى السعادة التي جرت له؛ فيكون ذلك ربحاً وزيادة، ألا تراه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية.

قال: ﴿وَلَا تَحْجُدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فالأكثر من هلك بطاعته والأقل من أدركته السعادة فنجاً.

قال الشبلي: لم يقل من فوقهم ولا من تحتهم؛ لأن الفوق موضع نظر الملك إلى قلوب العارفين، والتحت مواضع الساجدين، وموضع نظره وموضع عبادتهم، لا يكون للشيطان هناك موضع ولا فيه طريق.

﴿وَيَتَفَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ❶ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ❷ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ❸﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ جعل الله سكونهما إلى الجنة وشغلها بأكل ثمارها، ووعد العيش فيها، وأخفى في عيشهما كدر الامتحان بأكل الشجرة وجعلها فتنة لها، ولو جعل سكونهما بجمالها وحسن وصاله لم يدخل فيهما قهر الامتحان؛ لأن حضرته تعالى مقدسة عن رحمة الحدثان.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ دلالة إشارة، والإجراء إلى الفتنة بنعت الخدعة، وكيف لم يقرباها وهو تعالى تجلّى فيهما لها بنعت الجمال ليعشقها بجمالها، فخامرهما سر الأسرار من لطائف الأقدار فاشتاقا إليها عشق نظر، فلما قربا منها غلب شهوة العشق على حقيقة العشق؛ فأكلا منها وباشراها فعلم علم سر الأسرار وعلم لطيف الأقدار، فامتلاً ولم يحتملها الجنة لنقل أنوار الأسرار، ورزانة قوة الربوبية لذلك قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بدخلوكما في حمى الربوبية واقتباسكما أسرار الألوهية، ولولا أن الله حبس لسانها عن كشف الأسرار لملا الأقطار من علم الأقدار.

ولذلك قال بعض المسرفين: إن تلك الشجرة شجرة علم القضاء والقدر، ومن علم، علم ما كتم الله فيها وصل إلى عز الملك والخلد بوصف الربوبية والحرية.

ولذلك حكى الله عن الملعون بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، علم الملعون أنها شجرة الخلد والملك وحرم عنها، فأراد مباشرتها لينازع الربوبية بقوتها، ولم يقدر بأن ليس له استعداد ذلك؛ فتحسّر في نفسه ورأى كنوز الغيب مملوءة

فيها مثمرة، فدلّ آدم ﷺ إليها ليكون بتلك النعمة متمتعاً أحد من خلقة، لكن مزج بالإرادة الحسد على آدم ﷺ فأوقعه فيها؛ لأنه علم أنها موضع خطر فعصمها الله من ذلك الخطر، فلما أكلا وجد ذلك في نفسها فزَمَ الله وجههما وقلبهما زمام قهر سلطنته فلما رأى أنفسهما ساقطين عن محل الربوبية عرفا عجزها وضعفهما وعبوديتهما فقالا: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وأراد الملعون أنهما لما أكلا من الشجرة أن يظهر تلك الأسرار التي لو عرفها أحد يكون عياراً سكراناً، والهامد هوساً خارجاً من قبول أحكام الشرائع في العبودية، ولا يكون في العالم حجة الله، فقصدتهما بذلك لسقوطهما عن درجة الرسالة والنبوة والولاية التي هناك ظهور العبودية لما يبدو لهما من عورات الأسرار المكنونة والأقدار المختومة بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾^(١) إذا أراد سبحانه أن يظهر لعبده سرا من أسرارهِ أعزى إبليس بوسوسة سبب ينكشف به تلك الأسرار له، فيرتفع بعلمها درجاته، فيرجع ضررها إلى إبليس، ورجع منفعتها إلى عبده العارف كحال آدم ﷺ وعدوه، أراد العدو أن يسقطه من درجته فزاد شرفه على شرفه وقد سقط هو من رتبته بالحسد عليه وصار مطرود الأبد وصار آدم ﷺ مقبول الأزل والأبد لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْقِقُ الْآمَرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَمْرِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى في حق آدم ﷺ: ﴿ثُمَّ أَجْتَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَيْنَا﴾ [طه: ١٢٢]، وقال في حق داود ﷺ: ﴿وَإِنْ لَهُمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَنَاسِبٍ﴾ [ص: ٢٥]، ولما بدا لهما تلك الأسرار كتبها في نفسيهما باستعداداتهما إلى أشجار الرعاية بقوله: ﴿وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قال أبو سليمان الداراني: وسوس لهما الشيطان لإرادة الشر بهما فكان ذلك سبباً لعلو آدم ﷺ وبلوغه إلى أعلى الرتب، وذلك أن آدم ﷺ ما عمل عملاً قط أتم له من الخطيئة التي هي أدبته وأقامته مقام الحقائق، وأسقط عنه ما لعله خامر سرّه من سجود الملائكة له، ورده إلى بركة الأولى من التخصيص في الخلقة باليد حتى رجع إلى ربه بقوله: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ مادام مآل أمر آدم ﷺ يثول

(١) قال التستري (١/ ١٥٤): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلا الانتظار والطمع، وهو للصدّيقين.

إلى زيادة الزلفة كأنه صدق الملعون في حلفه؛ لأنه رأى تلك الزيادة له بسبب أكل الشجرة، لكن لم تكن نصيحته بالإخلاص؛ لأنه خامر الحسد بالنصيحة فصار من الخائنين، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

قال أبو بكر الوراق: لا تقبل النصيحة إلا ممن تعتمد دينه وأمانته، ولا تكن له حظاً في نصيحته إياك، فإن العدو أظهر لآدم عليه السلام النصيحة وأضمر الخيانة، قال الله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَدَلَّيْنَهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّيْنَهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(١) خادعهما حين أخبرهما أن في الشجرة أسرار الربوبية فدلها إلى غرور الاطلاع على أسرار القدم؛ ليكونا أقرب من المقربين الذين هم سفر الملكوت، وخزان خزائن الجبروت، وغرور ذلك أوقعهما في بلاء أسفار القدم والبقاء التي تأتي لهما لكل لحظة ببلايا لا تقوم بها السماوات، وهكذا شأن العشاق من شوقهم إلى وجه معشوقهم يسمعون حديث كل بر وفاجر لعلهم يصلون إلى شيء من قريب حبيبهم.

أَذُلُّ لَالٍ لَيْلِي فِي هَوَايَا وَأَقْبَلُ لِلْكَابِرِ وَالصِّغَارِ

قيل: غرهما بالله ولولا ذاك ما اغترآ.

وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّيْنَهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ذكرت سر بدو السوء، وهاهنا لطيفة إشارته إلى أن تلك السوء التي هي أسرار القدم لم تبد لغيرهما بدت لهما خاصة من جميع الكروبيين والروحانيين، والحمد لله الذي عصم سواتهما عن نظر الأغيار؛ لأنها محلا للكرامة والأمانة والرسالة والنبوة والولاية، جردهما الحق عن الجنة وما فيها لكونها في تجريد التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، فأين الجنة في طريق العارفين إلى الله أفردهما عن الجنة

(١) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان العين أول من حلف بالله كاذبا، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (١٢١/٤).

لعظمها في المعرفة ولقدسهما عن حظوظ البشرية؛ لأن حظ البشرية في المشاهدة، فلما ذاقا ذوق شجر العشق انفرد عن الكل بالكل، فصار عورة الحق في العالم فكشف عنها غرائب علم الأقدار بخروج جميع الأشباح والأرواح منها.

وسئل الواسطي: ما بال الأنبياء العقوبة إليهم أسرع؟ إن إبليس وآدم عليهما السلام في مخالفة واحدة، قيل: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰهُمَا﴾.

قال: سوء الأدب في القرب ليس كسوء الأدب في البعد.

قيل: يطالب الأنبياء بمثاقيل الذر، ولا يطالب العامة بذلك؛ لبعدهم عن مصادر السر.

وقال بعضهم: بدت لهما سوأتهما ولم تبد لغيرهما هتك عنهما سر العصمة، ولم يبد ذلك لغيرهما.

قال الواسطي: سلبه ما ألبسه وكساه كسوة الذل حتى عرفه أراذل قدرة فانيته نفسه عن نفسه بنفسه، فأيقن أنه لا ينال شيئاً من ربه إلا بره، وانقطع به إليه مغيباً عن حضوره، ومأخوذاً بحظه عن حظ غيره، فلما بلغا إلى رأس كنوز علم الغيب، وصارا متحيرين في مهمة الامتحان من رؤية عن النكرات لاطفهما الحق بمناداته وخطابه وعتابه ليجرهما من فقار الديمومية إلى مهد طريق الشريعة بقوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ النداء نداء المآب، والقول قول العقاب، ذكر لهما تلك الشجرة المنهية لموقعها في شوق تلك الأسرار؛ لأنها في البعد من تلك المزار.

قال القرشي: قيل لآدم عليه السلام أدخل الجنة ولا تأكل من الشجرة، فلما أكلتا نادى ربهما والقول على معنى القرب والنداء على حد البعد، فلما أعلمنا أنها أخطأت حين باسرا الشجرة من جهد شهوة العشق، والحق هناك رؤية ما ظهر في الشجرة من حسن تجلّي الحق، وليس استيفاء خط البشرية بمباشرة الشجرة من حق المقام أضافا الظلم إلى أنفسهما بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الظلم هاهنا الجهل بحقائق المقام وطلب حظ النفس في مقام مشاهدة الحق أقرا بالجهل، وكانا في ذلك الوقت في مقام التلوين ولو كانا في محل تجريد التوحيد لم يذكر النفس ولم يلوما أنفسهما؛ لأن رؤية النفس وقدرتها في شيء في مقام التوحيد شرك؛ ألا ترى إلى قول الأستاذ حين قال: مَنْ لَامَ نَفْسَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ.

قال الحسين: الظلم هو الاشتغال بغيره عنه.

وقال ابن عطاء: ظلمنا أنفسنا باشتغالنا بالجنة وطبيها عنك.

قال الشبلي: ذنوب الأنبياء تؤديهم إلى الكرامات والرتب، كما أن ذنب آدم عليه السلام أدى إلى

الاجتناء والاصطفاء، وذنوب الأولياء تؤديهم إلى الكفارة، وذنوب العامة تؤديهم إلى الإهانة. قال الواسطي: لم تكن له في حال طيبته خواطر غير الحق، فلما أحضره في حضوره غاب عن حضوره فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ما ورد عليه من ربه عن غيره، وهل لا قطعه باتصاله في اتصاله عن اتصاله، وهل لا عينه ما عليه في نفسه عن نفسه، فزاد الله حرقة وهيجانه حين أردف شوقه داء الفراق من مقام الميثاق ليستوعب حقائق البلاء في سفر العشق بقوله سبحانه: ﴿أَهْطُوا﴾ أرسله من مقام البهجة إلى عالم المحنة بين أهل العداوة ومقاساة الفرقة بعد ذوق الوصلة؛ لأن في مقام العشق الوصال والفراق تؤمان كان في عيش الوصال مع الحبيب صافي الحال بلا كدورة الجفاء ولا رحمة الفراق؛ ففتح عساكر الامتحان عليه أيدي الفرقة من ممكن الغيرة وكدرت له مشرب الوصال في أيام الصفاء كقول القائل:

وَكَاَنَ لِي مَشْرَبٌ يَصْفُو بِرُؤْيَتِكُمْ فَكَدَّرْتَهُ يَدُ الْأَيَّامِ حِينَ صَفَا
وَأُنْشِدُ بَعْضَ الْمَتَأَخِّرِينَ:

وَبِتْنَا عَلَى رُغْمِ الْحَسُودِ وَبَيْنَنَا حَدِيثٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ شَيْبَ بِهِ الْخَمْرُ
حَدِيثٌ لَوْ أَنَّ الْمَيِّتَ بِحَيَا يَعْضُهُ لِأَصْبَحَ حَيًّا بَعْدَ مَا صَمَهُ الْقَبْرُ
فَوَسَدَتْهُ كَفْيِي وَبِتُّ صَاجِعُهُ وَقُلْتُ لِلَّيْلِ طُلُفَقَدْ رَقَدَ الْبَدْرُ
فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ فَرَّقَ بَيْنَنَا وَأَيُّ نَعِيمٍ لَا يُكَدِّرُهُ الدَّهْرُ

لم يكن آدم عليه السلام وحواء في قيد الجنة إنما طمعا في الخلد ببقائهما مع الحبيب أبداً لكن صال عليهما عسكر غيرة القدم، وأخرجهما من ساحة الكبرياء حتى لا يكون مع الله غير الله، أصابتهما عن غيرة الأزل في معناه، قال الشاعر:

إِنْ تَكُنْ عَيْنٌ أَصَابَتْكَ فَلَا زَالَتْ الْعَيْنُ تَصِيبُ الْحُسْنََا

لم يهبطا من الدرجات الكرامات وإن أخرجا من بقاع الجنات قيل: لم يخرج آدم عليه السلام عن رتبة الفضيلة، وإن أخرج عن دار الكرامة، فلذلك قال: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢]، ولما حجبيهما عن مقام الوصال وأدخلهما دار الفراق أخبرهما أنها يحيان في الأرض بروح المعرفة ورزق المشاهدة ويموتان في حجر الشفقة عن صولة الحال والمكاشفة فيخرجان منها بنعت التوحيد والمحبة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يَبْنَى ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورَى سَوْءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنَ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يَبْنَى ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا

لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰنَهُمَا ۚ إِنَّهُ يَبْرَزُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا
 الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ
 أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَمَرَ
 رَبِّي بِالْقِسْطِ ۚ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا
 بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٨﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ يَبْنِي ۖ آدَمَ خُذْ وَارِثَتَكَ مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ
 لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ فيها تحيون بالله وتموتون في الله ويخرجون بنعت الله.

قال بعضهم: فيها تحيون بالمعرفة، وفيها تموتون بالجهل، ومنها تخرجون مما أنتم فيه من التقدير والتدبير إلى سوابق القدر عليكم وجرى الأحكام فيكم.

ولما أعزى آدم ﷺ وحواء من لباس الجنة غوص بنوه بذلك ألبسة شتى من حضرته الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَبْنِي ۖ آدَمَ خُذْ وَارِثَتَكَ مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وللمحبين لباس المحبة، وللمشتاقين لباس الشوق، وللموحيدين لباس التوحيد، وللزاهدين لباس الزهد، وللمتقين لباس التقوى، وللأولياء لباس الولية، وللأنبياء لباس النبوة، وللمرسلين لباس الرسالة، ولكل واحد منها ظاهر وباطن زينة الباطن لنظر الحق وزينة الظاهر لموقع الشريعة وتلك الزينة ما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ وتلك الزينة أنوار القرب مرخص بها صار بين الخلق مهينًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأن كل لباس فيه حظ العباد وليس في لباس التقوى حظ النفس، وهذه الملابس هي كثرة العموم ولباس الله لمن فني في الله واتصف بصفات الله، فكل لباس يفني في لباس الله من خرج بلباس الله صار قبلة الله للعالمين، من نظر إليه يرى الله، ولهذا أشار ﷺ إلى مقام اتصافه بصفات الله واكتسائه بكسوة أنوار الله بقوله: ﴿مَنْ رَأَىٰ فَقَدْ رَأَىٰ الْحَقَّ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي: كلكم عريان من أنوار القدم بادي سوء الحدث؛ فينبغي أن تستروا بلباس القدم سوء الحدث، ولباس العلم سوء الجهل، ولباس الربوبية سوء العبودية.

قال الواسطي: السوء الجهل، وأزين الزينة أن يزين العبد بالتقوى، ولباس التقوى وقاية لا يخرقها كيد حاسد، والتقوى لباس القلب علامتها الورع، والتقوى الأدب مع الله، وهو ألا يرى مع الله غير الله فانظر، أي: القميص لبس قميص الصدق أو قميص الفسق أو قميص النسك.

وقال النصر آبادي: للباس كلها ملك الحق ولباس التقوى لباس الحق قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ واللباس الذي يوارى السوء لباس الكرامة، ولباس التقوى لباس الإيمان وهو أشرف.

وقال بعضهم: لباس الهداية للعوام، ولباس التقوى للخواص، ولباس الهية للعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء والمشايدة للأولياء، ولباس الحضرة للأنبياء.

وقال الأستاذ: للقلب لباس التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع، وللروح لباس أمن التقديس وهو ترك العلائق وحذف العوائق، وللسر لباس من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاوت من الملاحظات^(١).

ثم إن الله سبحانه حذر بني آدم بما حذر آدم عليه السلام من متابعة الشهوات وطلب المألوفات بقوله: ﴿يَبْنِي ۚ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي بطول الأمل والطمع في البلوغ إلى كبر السن ورغد العيش في المال والجاه.

كما طمع آدم عليه السلام في الخلد والإقامة في الجنة؛ لأنها تخرج العبد من مقام القدس والأنس إلى عالم الكدورة والوحشة، كما كان حال آدم عليه السلام، وأن هذه الأشياء ينزع كسوة الأنوار عن سرّه وتصيره عرياناً من لباس التقوى الذي ذكره الله.

هاهنا ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ إذا كان العبد متابعاً للهوى نفسه وهوى شيطانه لشهوته، وطلب حظه ينزع عنه لباس صفاء العبادة ويجرد من نور الحضرة، ويبدو له علل الإنسانية بنعت غلبتها عليه فإنها طوارق ليلة المعجران فيرى فيها تلك السوء أضاف نزع لباسهما وإخراجهما من الجنة إلى العدو وفي الحقيقة هو واسطة القهر إذا يرى

(١) انظر: تفسير القشيري (٢/ ٣٥٩).

طوارق القهر في ليلى امتحان العبد يتبعها بوسوسة وإلقاء مزخرفاته إليه، والأفاني له القدرة على إغواء العباد وليس إليه الضلال وفي كل موضع يرى أنوار العناية ونيران المحبة نحسًا من هناك خوفًا من احتراقه في تلك النيران والأنوار.

سُئل بعضهم: ما الذي قطع الخلق عن الحق بعد إذ عرفوه؟ فقال: الذي أخرج إياهم من الجنة اتباع النفس والهوى والشيطان.

قال ابن عطاء: خروج آدم عليه السلام من الجنة وكثرة بكائه وافتقاره، وخروج الأنبياء من صلبه خير له من الجنة والتنعيم والتلذذ بنعيمها.

وقيل في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: هو أنوار القرب ولعان العزة.

قال أبو سعيد الخراز: هو النور الذي شملهما في القرب.

قال النصر آبادي: أحسن اللبسة ما ألبس الصفي في الحضرة فلمّا بدت منه لمخالفة نزع عنه.

لذلك قال بعض السلف: مَنْ تهاون سر الله عليه أنطقه الله بعبود نفسه.

قال الأستاذ^(١): مَنْ أطفئ على وسواس نفسه بإسراع الهوى وحد الشكلية بين وسواس الشيطان وهواجس النفس، فيتناصر الوسواس والهواجس وتصير خواطر القلب، وزواجر العلم معمورة مقهورة، فعن قريب تشتمل تلك الوسواس صاحبها وينخرط من سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة، فإذا لم يحصل تدارك يوشك التوبة صارت الحالة قسوة والقلب إذا قسا فارقت الحياة وتم له البلاء.

وزاد تعالى تحذيره من الشيطان، وبَيَّنَّ أنه يسترق من حيث لا يراه الإنسان بعقيب بقوله الآية: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أراد أن الشياطين ينظرون إلى العبد من حيث يأتي عليه مقادير المشيئة بنعت الامتحان، فإذا يرون قضاء عليه يتبعونه بقصد الإغواء والعبد لا يرى ذلك ما دام وراء حجب شهوته، ولا يرى الشياطين ما دام في ظلمات طبعه؛ فيفعل به ما كان من صنيعهم فإذا خرج من ظلمة النفس والهوى إلى ساحة الحضرة وينظر إلى أسماء الغيب ويلتجئ إلى قرب مولاه من شر نفسه وشياطينه يبصره الله الشياطين ومكائدهم فيلقي إليهم من قارورة الاستعاذة ميزان المحنة؛ فيحرقهم جميعًا بتأييد الله قال تعالى في ذلك من نيرات كتابه آيتين واضحتين الأولى في وصف رؤيتهم مواقع حيلهم وأشكالهم، الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»، والأخرى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا عَلَىٰ وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ».

قال ذو النون المصري: إن كان هو يراك من حيث لا يراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه، فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً وبكرمه وفضله صرف الشيطان عن أوليائه وجعلهم أحباء أعدائه وحث الأولياء بعداوتهم جميعاً بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أضاف الكل إلى نفسه جعل ألفة الأولياء في قلوب المؤمنين وجعل ألفة الفساق في قلوب المفسدين فلا تضر عداوتهم أولياءه؛ لأنهم في عين رعاية الأزل من شرهم.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾ فالحقيقة منها ما أضاف إلى نفسه والمعارف ما أضاف إليهم، كذلك خطابه في جمع القرآن ولما انصرف القوم عن طريق العدل والإحسان ومتابعة الحق في طلب الغفران وتابعوا سلاك الضلال، أمر الله صفيه عليه السلام أن يظهر لهم ما يليق بحضرة تعالى من العدل والإخلاص والتوحيد والتوجه من كل شيء دونه بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾^(١) القسط استواء السر بنعت التجريد، والتقديس عن الحدث في رؤية القدم بحيث لا يكون في البين من حظ النفس شيء؛ لأن هناك حظ النفس وجد أن حلاوة برد المشاهدة وحظ الله هناك احتراق النفس في نيران التوحيد حين أبرز الحق للسر أنوار عزة الأزل فيستوي بنعت الاستقامة على وصف صفات الأزلية.

ألا ترى كيف فتح أبواب الإحلال في كشف الجلال لأهل شهود الغيب ودعاهم إليها بنعت الانقطاع عن الالتفات إلى الحديث بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: حيث يبرز لكم أنوار القدرة وسنا المشاهدة ضعوا وجوهكم على تراب فناء العزة على وصف رفع الأغيار من ساحة الأنوار عند التضرع والدعاء؛ فإن الدعاء شوق القلب إلى لقاء الرب بحيث لا يرى في البين غير الرب بإشارته، ﴿وَأَذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ صافين عن كدورة الحدث والنظر إلى الغير، فإذا تم هذه الصفات تم حقائق العبودية التي سهاها الله

(١) القسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك، فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر من غير تقصير في الأمور به أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خولك، ثم لا تؤخر عليه شيئاً فيها أحل لك، وأما العدل مع الخلق - فعلى لسان العلم - بذل الإنصاف، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف. وأما العدل في حق نفسك فإدخال العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نفس. تفسير القشيري (٢/ ٣٦٢).

الدين أي مثل هذه الطريقة له.

قال الجنيد: في هذه الآية أمر بحفظ السر وعلو الهمة وأن يرضى بالله عوضاً مما سواه.

وقال رويم: خلاص الدعاء أن ترفع رؤيتك عن أفعالك.

وقال حارث المحاسبي: وإخلاص الدعاء إخراج الخلق من معاملة الله.

وقال أبو عثمان: الإخلاص لسان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق.

وقال بعضهم: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: الإشارة منه إلى

استدامة شهوده في كل حالة وألا ينساه لحظة في كل ما يأتيه فنذره ويقدمه ويؤخره.

ولما أمر الكل بالعبودية الخاصة وخاطبهم بالوسائط بعد خروجهم من كتم العدم إلى

ساحة الوجود على سمات القضاء والقدرة والشقاوة والسعادة والهداية والضلالة، فأحاطهم على سابق المشيئة.

أي: ليس كل مَنْ أَقْبَلَ إلى العبودية فهو من أهل الوصال، وليس كل مَنْ فَرَّ من مقام

العبودية وأماته النفس في الطاعة إلى كدورة حظوظ البشرية فهو من أهل الفراق.

فإن الطاعة والمعصية خاصان في البين، ومن كانت فطرته فطرة المقبولين يكون مقبولاً

بأي صفة كان، وَمَنْ كانت فطرته فطرة المطرودين يكون من المطرودين بأي صفة كان بقوله:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بدأ الكل بسمتين سمة

اللطف وسمة القهر، فَمَنْ صحبة سمة لطفه لا يضره تصارييف التلوين، وَمَنْ صحبة قهره لا

ينفعه ظاهرة التمكين، فيكونان بعد خروجهما من محل الامتحان على نعت فطرة الأزل فريقاً

في أنوار المعرفة وفريقاً في ظلمة الطبيعة.

قال النوري: يجري عليكم في الأبد ما قضينا عليكم في الأزل.

وقال الحسين: لا تغتروا بما أجرى عليه من الأعمال؛ لأن الأعمال قد توافق الخلقة

وتخالف.

قال بعضهم: يعودون منه إليه أفقدهم لذّة الأشياء لوجوده، وأخلصهم بعلمه عن

علم من سواه، وأعتقهم بإرادته عن إرادة الأغيار.

ولي هاهنا نكتة كما بدأكم بعضاً في رؤية الجمال وقعوا في المعرفة، وبعضاً في رؤية

الجلال وقعوا في النكرة، أبواب عين نفس القدم، وهناك تقصير الأفهام عن الإدراك بقيت في

ضلال النكرة، فريق بقي في نكرة النكرة أبداً، وفريق بقي في معرفة المعرفة أبداً، ولما ذكر

سبحانه إقامة الوجوه بنعت العبودية في مساجد الشهود أمرهم بأخذ زيتتها في مواقف

المراقبات بقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ زينة العبد لباس العبودية الذي طرازها التواضع، وسداه الاستقامة، ولحمته الإخلاص قطع ذيله من الحدثن، وقصر كفه من الأكوان، وجيبه خشوع وعطفه خضوع وصاحبه منور بنور المآب مشرف بحسن الثواب، فزينة التائبين الحُرقة والبكاء، وزينة الورعين التضرع والثناء، وزينة الزاهدين سمات نور السجود على وجوههم، وزينة العابدين سطوع نور الغيب من عيونهم، وزينة المحبين الوله والهيجان، وزينة المشتاقين الزفرة والهيان، وزينة العاشقين الوجد والغليان، وزينة المستأنسين السكينة والوقار، وزينة العارفين الهيبة والإجلال، وزينة الموحدين الحيرة والفناء، دانيهم في العبودية وعاليهم في الربوبية، مَنْ أتى بالعبودية فلباسه لباس الأفعال، وَمَنْ أتى بالربوبية فلباسه لباس الصفات، وَمَنْ أتى بنعت القناعة مقبلاً إلى قبلته القدم، فلباسه لباس الذات فشتان بين الأحوال، وشتان بين اللباس، وشتان بين العباد

تَزَيَّنَ النَّاسُ يَوْمَ الْعِيدِ لِلْعِيدِ وَقَدْ لَبَسْتُ ثِيَابَ الزَّرَقِ وَالسُّودِ
أَصْبَحْتُ فِي تَرْحٍ وَالنَّاسُ فِي فَرْحٍ شَتَّانَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فِي الْعِيدِ

قال الواسطي: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ﴾ تَغَيَّرَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا بَنِي النِّقْصِ وَالْعَيْبِ، يَرِدُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى لَا يَنْظُرُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا.
وقال الأستاذ: على موجب الإشارة زينة العبد بحضور الحضرة ولزوم السدة والاستدامة لشهود الحقيقة.

ويقال: زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود، فالعابد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرمة، فشتان بين عبد وبين عبد.

وقال: زينة النفوس مدار الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال: زينة اللسان الذكر، وزينة القلب الفكر.

ويقال: زينة الظاهر السجود، وزينة الباطن الشهود.

ويقال: زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات، وأذكر هذه الزينة التي هي آثار قربة على أهل محبته الذين يلبسون لباس أهل البسط والأنس والانبساط من لبن الحب الذي لا يليق إلا بعشاق الله وعرائس بساط الله، ويأكل أكل الحنانيين من أطيب المباحات في مقام الرفاهية غير بعد ذلك أهل إنكارهم الذين ينكرون أولياء الله بلبس الفاخرات، وأكل الطيبات في مقام المشاهدات

التي هي أعياد العارفين والموحدين بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١) الخطاب يحتمل الغضب على الأعداء والتفضل على الأولياء مَنْ اجترأ أن ينكر على أحبائي الذين هم ملوك حظائر قدسي وعرائس مجالس أنسي باكتسائهم بزينة العاشقين، ويتناولهم من طعام المستأنسين، وأعلم أنها خارجة عن كسب الخلق حيث أضاف إخراجها إلى نفسه، بقوله: ﴿زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: هي زينة أخرجها لقاصديه وعاشقيه، أخرجها مَنْ تكلف الخلق حين أخص نفسه بإخراجها لهم، وهي التي ما جرت عليها حيل الخلائق بقدره عن غبار العلائق حلالاً على أهل الحق، حيث لا يدخل فيها خيانة الخائنين، ولا كسب البطالين مباحاً لأهل الأنس بحيث جاءت من عنده بلا علة ولا كلفة، يأكلونها بالتوكل ويلبسونها بالرضا والمحبة على عادية على الأعداء باقية على الأولياء بقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. وأيضاً: في الحقيقة نور جماله وجلاله الذي ظهر من بشرة العارفين والطيبات من الرزق، هي موائد الأنس على خوان القدس، وإثمار التجلي من أشجار التدلي.

قال بعضهم: الزينة التي أخرج الله لعباده هي المباحات في البوادي، والكسب الحلال في الحضر، والطيبات من الرزق هي الغنائم.

وقال أبو عمرو الدمشقي: مَنْ حَرَّمَ التزين بما يبدو على الأولياء من المعونات والكرامات التي أخرجها لعباده المخلصين والطيبات من الرزق كسر الفقراء الذين يأخذونها عن ضرورة وفاقه.

وقال الأستاذ: الطيبات من الرزق أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى.

ويقال: أرزاق المعبدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوي الله. ولما ذكر تفضله تعالى على الموقنين العارفين بأن رزقهم من مدخور ما عنده في خزائن جوده من الزينة والطيبات التي قويت بها أبدان الصديقين، وحرمت عن لذتها أجساد المفلسين الذين يتركونها رياءً وسمعةً وتزهداً وتقشفاً وسالوساً وناموساً، ويقولون إنها محرمة على أولياء الله جهلاً بالشرعية وإنكاراً على أهل الحقيقة، بَيَّنْ أن ما حرم الله ليس هي إنما حَرَّمَ سمعة الظاهر ورياء الباطن وأمر نبيه ﷺ بجواب الراجعين عن طريق الحق بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا

(١) عطف على زينة الله أي من حرم أيضاً المستلذات من المأكَل والمشارب كاللحم والندسوم والألبان، تفسير حقّي (١٣٦/٤).

حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴿١﴾ فحش الظاهر مباشرة ما يشغله عن العبادة الخالصة، وما بطن ما يجري على القلب من الوسواس الذي يكون حجاباً بينه وبين مشاهدة الحق، وأيضاً ما ظهر منها من الفواحش، هو ما يجري في صورة الفعل بالمعصية، وما بطن فيها ما يبقى في النفس من حلاوة مباشرتها، وزاد ذكر ما أنكره تعالى بقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ الاسم ظاهراً الإنكار على الأولياء، والبغي الحسد في الباطن عليهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: امتنع بجلاله وعلو كبريائه في القدم من أن يكون معه في الألوهية ضد الشرك رؤية الغير في البين، ثم ألقى الرغام على أنوف المدعين الذين يدعون علوم اللدنيات بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال سهل: أن يكلم عن الله بغير إذن على غير سبيل الحرمة وحفظ الأدب، فقد هتك ستره وغدا طوره، وقد حذر الله تعالى أن يقول أحد عليه ما لا يعلم ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾: ما تريد لغير الله من الطاعات. وقال بعضهم: ما ظهر من الفواحش هو الكذب والغيبة والبهتان، وما بطن الغل والغش والحقْد والحسد.

وقال الأستاذ: ما ظهر منها الذلّة، وما بطن الغفلة.

ويقال: فاحشة الأحباب الصبر عن المحبوب.

﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

(١) ما أحدٌ أغير من الله، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما أحدٌ أحبّ إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه، وما أحدٌ أحبّ إليه العذر من الله تعالى، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب». البحر المديد (٢/٢٠).

بِأَيْتِيهِمْ^١ أُولَئِكَ يَنَازِلُهُمْ نَصِيصُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنِّ
 مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَافِرِينَ ﴿٢﴾ قَالَ أَذْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
 دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِلْتُمْ لَأَوْلَهُمْ رَبَّنَا
 هَاتُوا لَنَا مِمَّا ضَلُّوا فَنُصَلِّبَهُمْ عَذَابًا ضَعِيفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
 وَقَالَتْ أُولَهُمْ لَأُخْرِلَهُمْ بِمَا كَانُوا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْسِبُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
 وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْطِ^٥ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٥﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ^٦ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ^٨ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
 الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
 وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ
 النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ
 فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أي: مَنْ تقدس عن ما دون الله في رؤية إجلال الله وعظمته، وأصلح ما بينه وبين الله من أنفاس بنفسها في غير الشوق إلى الله، وغير ملاحظة جماله وجلاله؛ لأن كل نفس يخرج من العبد بغير هذه الأوصاف فاسد وإصلاحه على العبد واجب بالمراقبة والرعاية والمحافظة عن جميع الخواطر، ومن كان بهذه الصفة لم يبق عليه من جنائيات النفس شيء فلا خوف عليه من فوت المقامات، ولا له حزن من احتجابه عن المشاهدات بقوله سبحانه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال بعضهم: مَنْ اتقى في ظاهرة عن تناول الشبهات، وأصلح باطنه بدوام مراقبة الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ولا حزن عليهم في الآخرة، ثم إن الله سبحانه وصف هؤلاء المقدسين بقدس خواطرهم من علل الإنسانية وغل الشيطانية، ووصفهم بصدق الآخرة، وجلسهم على أسرار العناية في الحضرة بنعت الألفة والزلفة في مشاهدته، حيث

رفع الله الحجب وسقاهم من تسنيم شراب الوصال في كشوف الجمال بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾.

أثبت سبحانه وبين أن صدرُوا أهل الولاية، وأهل بساط القرب مع إنها مكان نور الإسلام واليقين فائضاً فيها أماكن علل الإنسانية من الغلّ والغشّ، ولا يخرج الأولياء من هذه العلل، وعن حد البشرية حتى لا يظن ظانّ أنهم خلقوا مقدسين، وإذا كان كما توهموا فأين محل الامتتان عليهم بإضافة تقديس صدورهم بتفضله، ونزعه عن أسرارهم كل خاطر لا يليق بحضرته وتصديق ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]»^(١).

وأيضاً: يحتمل أن هذا النزع إشارة إلى أن قلوبهم خلقت مقدسة عن هذه الشوائب؛ لأنها محل نظر الله، وفي هذه العلة تجري على صدورهم الخارجة عن القلوب؛ لأنها موضع وسوسة الشيطان بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] والعلة إذا لم تدخل القلب فهي طارئة لا يثبت أثرها، فعلة الأولياء في الصدور، وعلة العموم في القلوب.

قيل: هو التحاسد والتباغض والتدابير الذي نهى رسول الله -صلي الله عليه وآله وسلم- عنها.

وقال بعضهم: مَنْ تحظى بساط القرب سقط عنه رعونات النفس وحظوظ الشيطان، قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ وعندي والله أعلم ألا يبلغ أحد إلى درجة الولاية.

وقيل: ذلك قدّس الله صدره عن جميع العلة وتصديق ذلك قول النبي ﷺ حيث وصفهم بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة، وذلك حين وصفهم عند أصحابه بسني الدرجات ورفيع الكرامات، فقيل: يا رسول الله، بم نالوا؟ قال: «بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة»^(٢).

ثم أثنى الله عليهم عقب الآية بأنهم عرفوا فضل الله عليهم في قديم إحسانه ولطيف إنعامه الذي لا تدخل فيه علة الاكتساب، ولا رحمة الاجتهاد بقوله حكاية عنهم حين تجدون

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢/ ٤٥٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٠).

المنعم مفضلاً عليهم بكشف النقاب ورفع الحجاب: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: هداانا بنفسه إلى نفسه بسبق عنايته لنا في أزالة.

قيل: فيه دلنا على توحيده، وجعلنا في سابق علمه من خواص عباد، واختار لنا أعز الأديان، ولو وكلنا إلى اختيارنا لضللنا في أول لحظة.

وقال بعضهم في هذه الآية: رؤية الهية توقع قبضاً في الأحوال وربما تورث بسطاً والعبد متردد فيما بينهما من قبض وبسط، وحال البسط أورث قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.

وقال ابن عطاء: لما نظروا إلى هداية الحق إياهم نسوا أفعالهم وطاعاتهم وعرفوا المنّة عليهم فقاموا مقام الشكر.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ إن الله عباداً في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسبات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١).

وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين

ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربهم أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا كَلُوبًا وَهُم يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعاة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالمملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطيب قلوبهم، والفرح بملكهم.

روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمِهِمْ﴾^(١) أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم. ويقال: عرفوهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

وقال الأستاذ: هؤلاء أصحاب الأشراف خصوصاً بأنوار البصائر اليوم، وأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، وأشرفوا غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم. قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إن من لطف الله وكرمه على خلقه أن رفع الحجاب من الجنة لأهل النار حتى يحتملوا آلام العذاب برؤية الجنان وأهلها، وهذا من ألطافه الخفية.

ألا ترى إلى عاشق ينظر إلى وجه معشوقه، وهو في وسط الثلج والزمهر فلا يجد آلامه لما وجد من حلاوة مشاهدة معشوقه، اذكر شأن صويحبات يوسف عليه السلام كيف قطعن أيديهن في مشاهدة يوسف عليه السلام، وما شعرن في مشاهدته آلام القطع سمعت أن بعضاً من المشايخ مضى إلى مسجده بقرب داره بين المغرب والعشاء، وكان ينزل الثلج فرأى شاباً تحت منظر يتكلم مع معشوقه على المنظر، وهما غائبان في حديثهما عن رؤية الشيخ حتى صلى ورجع، فلما حان وقت الصبح ومضى إلى قريبتها فرآهما واقفين بين الثلج، والثلج بلغ إلى وسطهما ومع شيخ سراج، فقالت المعشوقة لعاشقها: مر يا حبيبي، فإن الشيخ يمضي إلى صلاة العتمة

(١) يعني أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة والنار بما يتسمون في سيماهم من آثار نور القلب وظلمته وسيتم الأعراف أعرافاً لأنها مواطن أهل المعرفة، وإنما سمي الله أهل المعرفة رجالاً لأنهم بالرجولية يتعرفون فيها سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه، تفسير حقي (١٥٥/٤).

وأنشد في هذا المعنى:

شهورٌ ينْقُضِينَ وَمَا شَمَرْنَا بَأْتِصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِي

فصاح الشيخ صيحة وخرّ مغشياً عليه، ثم قام بعد ذلك وتأوه ومزق قميصه، وقال: واويلاه أن آدميين لم يعلما في عشقهما ومشاهدتهما العتمة من الصباح، ولم يشعر آلام الثلج في البرد، وأنا أدعي حب خالق الخلق، وأكون بهذه الصفة غافلاً، أنشد الحلاج في بلائه حين رؤية مبلية.

وحرمة الود الذي لم يكن يطمع في إفساده الدهر

ما نالني عند نزول البلاء بؤس ولا مسني الضر

وقوهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ لأن الماء ضد النار، أي: يا أهل القدرة في الحضرة أفيضوا علينا من مياه الشفقة، وما رزقكم الله من مقام الشفاعة. قال بعضهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: ماء الرحمة أو ممّا رزقكم الله من القربة.

وقال الأستاذ: لا يسقيهم قطرة مع استغنائه عن تعذيبهم وقدرته على أن يعطيهم ما يريدون، ولكن قهر الربوبية وعزّ الأحدية وأنه فعال لما يريد لم يرزقهم اليوم من عرفانه ذرة لا يستقيم غذاً في تلك الأحوال قطرة، في معناه أنشدوا:

وأقسمن لا يسقيناً أمر شربه ولو زخرت من أرضهن بحور

وقال: إنما يطلبون الماء ليكوا به لأنه نفذت دموعهم كما قال لهم:

يا نازحاً نزحت دموعي قطيعته هب لي من الدمع ما أبكي عليك به

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من مدخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرفهم به بأسماؤه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وإعلام قدرته وبذلهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحانيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لمن خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمني علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه.

قال بعضهم: أنزل الله كتاباً فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقاً بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنون بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أناء الليل والنهار فيه الفلاح لمن طلب الفلاح، والنجاة لمن رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجو به إلا ناجي، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ^(١)﴾ ولما عرّف نفسه بخطابه للعارفين، عرّف نفسه أيضاً لهم بأفعاله النورية، وبرهانه القدرية، وآياته الصفاتية، وأعلامه الذاتية، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

فقد نبّه عن عين الألوهية صريحاً حين قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ خاطبهم بالتربية؛ لجذب قلوبهم بالمحبة ثم أشار إليهم بالألوهية لفناء الحدث في القدم ثم صرفهم من المحو إلى الصمود، ومن الحضور إلى الغيبة، بقوله الذي أشار به ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ عبارة الأولى للبسط، والثاني للقبض، ثم صرفهم من الصفات إلى الأفعال كما صرفهم من الذات إلى الصفات كي

(١) أي: بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلة (على علم) أي: عالين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتيان. البحر المديد (٢/ ٢٥٤).

لا تحرقوا في نور الألوهية، الأول خطاب القلب، والثاني خطاب الروح، والثالث خطاب العقل الأول وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ قوله: ﴿اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي﴾ ثم أنزلهم من الشهود إلى الشواهد، وخاطبهم على قدر عقولهم حيث أحاطهم من القدم إلى الحدث لعلمه لضعفهم عن حمل بوادي طارقات سطوات الوحدانية، قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جعل الآيات مرآة الصفات لأهل المشاهدات خلقها في ستة أيام، أيام الله قضاء الله وقدره، احضرها بأيام مخصوصة وهي الستة، وكل يوم من أيامه ظهور صفة من صفاته، من مطلع القدم طلعت للعدم لكون الحدث، وهذه الأيام الستة ظهور ست صفات من صفاته، أولها العلم، والثاني القدرة، والثالث السمع، والرابع البصر، والخامس الكلام، والسادس الإرادة، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح من صفاته السابعة، وهي حياته القديمة الأزلية الباقية المنزهة عن همهمة الأنفاس، والمشابهة والقياس، فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون الأبد لحياتها بروح حياته المقدسة عن الاتصال والانفصال، وفي أدق الإشارة السماوات الرواح، والأرض الأشباح، والعرش القلوب.

بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب محل الغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلي استواء القدم استوي قهر القدم بنعت الظهور للعدم، ثم استوي تجلي الصفات على الأفعال، واستوي تجلي الذات على الصفات، فاستوي بنفسه لنفسه على نفسه المنزهة عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان وبالأكوان، الاستواء صفة ذاتية خارجة عن مطالعة الخليفة خص السماوات والأرض بتجلي الصفات، وخص العرش بتجلي الذات السموات والأرض، جسّد العالم والعرش قلب العالم والكرسي دماغ العالم، خص الجميع بالأفعال والصفات، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأته في المكاشفة أنوار شعشعانية بلا جسم ولا مكان ولا صورة يتلأأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشاً.

قيل في التفسير: عرشه علمه، كقول ابن عباس في تفسير قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: وسع علمه، ثم رجع إلى ذكر الأفعال لبقاء الأرواح والأشباح بقوله: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ بدأ بذكر الليل لأنه ستر الأولياء، وحجال الأصفياء، وملجأ النقباء، وخيام عرائس أهل المناجاة بلبس القبض البسط؛ لأنها ضدان ويقبض ويبسط الليل قبض العارفين، والنهار بسط المشاهدين

يكون أحدهما طالب الآخر لأن وصفه الحضور والغيبة من خفاء التجلي، وبدأ به الليل النفس، والنهار القلب، والشمس الروح، والقمر العقل، والنجوم المعلوم مسخرات في أسماء الملكوت، وهو الجبروت بأمره بقدرته الكاملة وعزته الشاملة ومحبة القديمة التي تؤلف أرواح القدسية إلى مشاهد الأزلية، ثم أن الله سبحانه أضاف الكل إلى أمر مشيئته ونفاذ قدرته وأخرج الجميع من تكلف الحدثن وعلمه الأكوان بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الخلق فعله، والأمر صفة الخلق في الأشباح، والأمر في الأرواح بنور الخلق سبب العقول وحيرها من أدرك كنه الآيات، ويتجلى الأمر جذب القلوب إلى عالم الصفات وعشقها بجمال الذات، ثم أثنى على نفسه حيث تقتصر الإفهام عن وصف صفاته، وتقتصر الألسن عن البلوغ إلى مدح ذاته بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تقدس عن كل ما يجري على خواطر خلقه رب العالمين رب الجميع بظهور صفة في خلقه، ورب العارفين بظهور ذاته في صفة.

قال الأستاذ: في هذه الآية تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخاص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فستان بين قوم وبين قوم.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾: والأمر إذا كان له فمنه وبه وإليه؛ لأن الأمر صفة الأمر، ولما عرفهم إعلام الربوبية أمرهم بخالص العبودية، وأدبهم فيها بأحسن التأديب بقولها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فإذا عرفتم نعوت الكبرياء وجلال العظمة وعزّ القدم والبقاء، كونوا في رؤية هذه الصفات عند احتياجكم إلينا بنعت الفناء بحيث لا طلع على أسراركم نفوسكم، فإن دعوة المضطر تقع على سامع الغيوب حين هاجت بوصف اللطف من لسان القلوب، وأن أصفى الوقت في التضرع ودعوة الخفية وذكر الخفي الذي وصفه عليه السلام بالخيرية، حيث قال: «خير الذكر الخفي»^(١).

وقال أبو عثمان: التضرع في الدعاء أن لا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقراءاتك، ثم تدعو على أثره إنما التضرع أن تقدم افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعو بلا علة ولا سبب فترفع دعاءك.

وقال الواسطي: تضرعاً بذل العبودية وخلع الاستطالة خفية، أي: أخف ذكرى صيانة عن غيري، ألا تراه بقول: «خير الذكر الخفي»^(٢).

(١) رواه ابن حبان (٩١/٣).

(٢) تقدم في سابقه.

وأفهم أن الدعاء مقامات، فبعضهم يدعو بلسان الظاهر، وبعضهم يدعو بلسان الباطن، وبعضهم يدعو بإشارة العقل، وبعضهم يدعو بإشارة القلب، وبعضهم يدعو بإشارة الروح، وبعضهم يدعو بإشارة السر، نعت أهل الظاهر التضرع، ونعت أهل الباطن الافتقار والتخشع، ونعت أهل العقل الفكر، ونعت أهل القلب الذكر، ونعت أهل الروح الشوق، ونعت أهل السرّ الفناء، يدعو بالاذن ولا يكون الإذن في الدعاء إلا في مقامين مقام القبض ومقام البسط، الدعاء في مقام القبض بنعت العبودية، والدعاء في مقام البسط الحكم والانبساط من إدراك مباشرة صولة الربوبية، ولا بدّ للعارفين من هذين المقامين، والدعاء على أحوال شيء، دعاء أهل البلاء لكشف الهموم، ودعاء أهل النعمة لكشف الوجود، ودعاء المحبين لتسليّ القلوب، ودعاء المشتاقين للبلوغ إلى الوصول، ودعاء العاشقين لنيل المأمول، ودعاء العارفين لوجدان البقاء، ودعاء الموحدين لمحوهم في الفناء، وفيه أنس المستأنسين وتضرع العارفين وبهاء المحبين وزيادة قرة عيون الموحدين، ما أطيب ألحانهم في السجود لكشف مشاهدة الوجود، وما أحلى روح طيب مناجاتهم بالعبرات وحركات ضمائرهم بالزفرات.

قال الأستاذ: ما أخلص عبد في دعائه إلا روح الله سبحانه في الوقت قلبه، ثم حذرهم عن الرجوع من الأعلى إلى الأدنى، ومن متابعة الحق إلى متابعة النفس من تخريب أرض القلب بمسحاة الهوى بعد إصلاحها بصفاء المراقبة والحضور والمشاهدة بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

قال الأستاذ: إمهال النفس عن المجاهدات والرجوع إلى الخطوط بعد القيام بالحقوق، فساد الأرض بعد إصلاحها فيه، ثم زاد سبحانه في آداب الدعاء وقرن بالتواضع والإخلاص فيه مقام الخوف والرجاء بقوله: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: أدعوه بوصف الإجلال في رؤية جلاله، وبنعت البسط في رؤية جماله فإن حقيقة الدعاء في الشهود الرجل في العبودية لمعرفة الربوبية، والسرور من رجاء الوصول إلى المقصود.

وأيضاً: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا﴾ من إطلاعه على جريان كل مأمول سواه في القلب، أي خافوا من طيران ذكر الحدث في رؤية القدم، ﴿وَطَمَعًا﴾ معناه الطمع في مقام من قربه أشرف من مقام الدعاء؛ لأن الدعاء وسيلة؛ فإذا حصل الوصول انقطع الوسيلة، وأيضاً خوفاً من رد الدعاء، وطمعاً في استجابة الدعاء، وبين تعالى أن مَنْ كان هذا وصفه يكون من المحسنين

الذين يقربون منه بقوله: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

قيل في قوله: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه.

وقيل: خوفاً من بعده وطمعاً في قربه.

وقيل: خوفاً من أعراضه وطمعاً في إقباله.

وقيل: خوفاً منه وطمعاً فيه.

قيل: المحسن مَنْ كان حاضر بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناس لحقه.

ثم وصف الله نفسه بإنشاء مبشرات قربه من بطنان غيبة لوصول النسائم ورد مشاهدته إلى مشام أرواح عاشقيه، وأفئدة مشتاقيه، وأسرار وصليه، وقلوب محبيه، والباب مرديده.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْبَلَدِ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبُتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾^(٣) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَقَالَ يَنْقُمُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٤) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٥) قَالَ يَنْقُمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) أَلَيْفَ كُنتُمْ تَرْسُلُونَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ ۖ مَنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يرسل نسيم

وصاله في أسحار أصباح طلوع جلاله إلى مشام المستأنسين بشهوده في سجودهم لزيادة عطش شوقهم إلى وابل بحر مشاهدته من سحائب قربته وزلفته قدام ظهور سحاب صفاته التي تتجلى من بحر ذاته للأرواح العاشقة، وتسقيها من بروق الوداد ما لا يستقر بشرها الأرواح في الأكوان والحدثان، بل تطير في فضاء البقاء وهواء القدم بأجنحة الآزال والأباد أظهر بلطفه ومحبه رياح تجلي الصفات قبل ظهور تجلي الذات؛ لإعلام قوائط القبض ببروز

(١) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته. تفسير حقي (٤ / ١٦٩).

سحاب تجلي الذات لأحياء بلاده قلوبهم الميتة بجذب كشف القدم بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْبَلَدِ مَيْتٍ﴾ لا يستقل حمل أثقال تجلي الذات إلا رياح تجلي الصفات، ولا يقدر سوق أنوار القدم إلا القدم، ولا يقدر سقي زلال بحر الآزال إلى عطاش شراب الحيرة إلا الأزل، ولا يقدر أن يخرج من بلاد القلوب ثمار أشجار الغيوب إلا علام الغيوب بقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

أَلَا يَا صَبَا نَجِدَ مَتَى هَجَتْ مِنْ نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكَ وَجَدًا عَلَى وَجْدٍ
قال بعضهم: كل ريح تنسم نوعًا من الرحمة؛ فريح التوبة تنشر على القلب رحمة المحبة، وريح الخوف تنشر رحمة الهيبة، وريح الرجاء تنشر رحمته الأنس، وريح القرب تنشر برحمته الشوق، وريح الشوق تنشر نيران القلق والوله، قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

قال الأستاذ: تباشر التقرب بتقديم فينادي نسيمه إلى مشام الأسرار.

قال قائلهم:

وَلَقَدْ تَنَسَّمْتُ الرِّيَّاحَ لِحَاجَتِي فَلِذَا هَمَّا مِنْ رَاحَتِكَ نَسِيمٌ

وقال الأستاذ في قوله حتى إذا قلت: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ الإشارة تحصل لمهجور تمادى به الصد وبرح به الوجد وأنحل جسمه، بل أبطل كله البعد فيأتيه بشير القرب فيعود عودًا ووصله بعد الذبول طريًا وبصيرًا وأرس حاله عقب السقوط قويًا كما قال قائلهم:

كُنَّا كَمَنْ أُلْبَسَ أَكْفَانُهُ وَقَرَّبَ النَّعْشَ مِنَ الْمَلْحِدِ

فَحَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي جَسْمِهِ فَرَدَّةُ الْأَصْلُ إِلَى الْمَوْلِدِ

تبارك الله سبحانه ماكرهم هو بالسرمد، وذكر سبحانه القلب الذي هو بلد الله الذي مطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج منه نبات ألوان الحالات والمقامات، ويذكر ما هو بخلافه الذي فيه سجة الشهوات وشوك حظوظ البشريات بقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَإِلَّا نَكِدَا﴾ إلا يا أخي أرض القلوب تُنْبِتُ أزهار المواجهيد ورياحين الموارد بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة.

ثم أشار تعالى إلى تبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بالإرادة السابقة والمشيئة الأزلية المنزهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُنْصِرُكَ آلَايَتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجذونه شاكر أنعامه بنفسه فيخرجون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره.

قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي خبث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات.

وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغذي طوائف من النبات وتطيها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات.

قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان.

ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السرية، فمن صفا ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالصد.

وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بقاء الفرع.

قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بقاء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بقاء العلم، وطيب السر بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بقاء العظمة وطيبها بنور التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعرفكم طريق عرفان ربكم وأرشدكم إلى مشاهدة ربكم وتعطفه ولعلمه على عباده.

واعلم من الله من لطائف بره وجميل عطفه وكشوف صفاته وجمال ذاته وحلاوة مشاهدته، ولذيد خطابه ما لا تعرفونها، ما وصل إليه يكون في ملك لا يبلى وسعادة لا تنفى، ومن حرم من الوصول إليه يكون في بلاء وحجاب وضلال، لا ينقضي محبتها أبدًا.

قال بعضهم: أنصح لكم أدلكم على طريق رشدكم، واعلم من الله ما لا تعلمون من سعة رحمته قبول التوبة لمن رجع إليه بالإخلاص.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَزَلْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ يَقْتُمِر لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَيْفَ كُمْ رَسَلَتْ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(١) أي: محبوبين عن مشاهدة الله ومباعدين عن ذوق محبة الله غير مبصرين ببصائر الأسرار أنوار صفات الله وذاته التي يظهر من كل ذرة سطوعها.

قال ابن عطاء: ضالين عن طريق الحق.

وقال بعضهم: متشاقلين في القيام إلى الطاعات.

وقال بعضهم: عُميت أبصارهم عن النظر إلى الكون برؤية الاعتبار ونظرهم نظر مراد وشهوة.

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۚ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۚ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِفَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَقْتُمِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ۚ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۚ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ ۚ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ

(١) أصله عمين جمع عم، وأصله عمى على وزن خضر فأعمل كإعلان قاض. قال أهل اللغة: يقال رجل عم في البصرة وأعمى في البصر والمعنى عمين قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد غير مستبصرين وهذا العمى مانع عن رؤية الآيات ومشاهدة البينات. تفسير حقي (١٧٩/٤).

قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٩﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْطَأُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ كَانَ طَافِقٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَافِقٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ أَلَمَلَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ نَكُنَا كَرِهِينَ ﴿٨٩﴾ قَدْ أَفَرَّقْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُحِبُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٩٠﴾ وَقَالَ أَلَمَلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ أَتَّبِعُكُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٢﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي: فاذكر نعم الله في اصطناعه في حسن تصويركم وإلباسكم جمال فعله حتى تكونوا في أحسن خلق وأظرف نعت وظهره لكم بأوضح الآيات وأنوار علاماته الدالة إلى وجوده لعلكم تفوزون من بعده، وتظفرون بقربه وأفهم أن رؤية النعمة يوجب الشكر، ورؤية الآلاء توجب الذكر، ورؤية المذكور والمنعم توجب المحبة.

قال الواسطي: العامة تحبه على النعماء ذلك في قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١]، والخاصة تحبه على الآلاء، وذلك في قوله: ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ والأكابر تحبه على الإيثار والربوبية، ولكل علامة فعلاية الأولى دوام الذكر له والفرج به، والثانية الاستئناس به لرؤية ما أبعد منه، والثالثة الاشتغال به أن كل قاطع يقطع عنه.

وقال ابن عطاء: إذا ذكرت آلائه ونعمائه أحببته، وإذا أحببته قصدته، وإذا قصدته وجدته، وإذا وجدته انقطعت إليه، ونقول عند المشايخ لو أن القوم من أهل خالصة محبته ما أحالهم إلى رؤية الآلاء بل خاطبهم برؤية الذات والصفات.

ألا ترى كيف خصّ خواص المحبين بخطاب رؤيته وإصرافه إلى مشاهدته بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥] لأن محبة الآلائية والنعمائية محبة معلولة كونية، إذ كونها بسبب حدثي وخالص المحبة ما تصدر من مشاهدة جلاله وجماله، وكيف يصل إليه من كان سبب حاله ومعرفته ومحبته رؤية الآلاء والنعماء أوقعهم في بداية الذكر.

قال: فأذكر وأجعل لقاءهم منتهى وهو درجة النجاة من العذاب، ولو كانوا محققين ما خاطبهم بذكر غيره وصفه أفعاله.

وقوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(١) أي: أنا بعد أن خرجت من حظوظ نفسي وخصني الله برسالة، وطهرني من شوائب الطبيعة، وعرفني طريق محبته وخدمته، وأعرفكم تلك الطريق المباركة شفقة ونصيحة وأنا أمين فيها؛ حيث لا سبيل للشيطان في نصيحتي بالتهمة

(١) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصح في خلقه هلك، ونصيحة الخلق أشد من النفس، وأدنى نصيحة النفس الشكر، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه. وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه. تفسير التستري (١/١٦٢).

التي هي من صفات مَنْ يميل قلبه إلى غير الله.

قال أبو حفص: الناصح الأمين الذي لا يكون له في نصيحته حظ لنفسه ولا طلب جاهه وإنما يكون مراده منه قبول النصيحة والنجاة بها.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١١) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٢﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٣﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصْبَنَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنفِرْ عَوْنُ رَبِّكَ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ * ولو أنهم شاهدوا ملكوتي واتقوا سوى جبروتي لفتح على أرض قلوبهم أنوار مشاهدة صفاتي وذاتي حتى يروني في ملكوت الأرض والسماء بصفة اللطف والجمال، وتنبت في صحاري قلوبهم رياحين الزلفة والقربة والشوق والعشق والمحبة واليقين والتجريد والمعرفة.

قيل: معناه لو أنهم صدقوا وعدي واتقوا مخالفتي؛ لنورت قلوبهم بمشاهدتي وهي بركة السماء، وزينت جوارحهم بخدمتي وهي بركة الأرض وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ * الله بكل قوم مكر، فمكره بالعموم ممزوج بالقهر، وهو أن يعطيهم أسباب العبودية، ولم يوفقهم بها ويعطيهم لسان الشكر، ولا يعرفهم حقائق استدراجه بسلب النعمة عنهم وأخلاهم بلا نعمة ولا شكر، ومكره بالخصوص أن يلدّذ ما وجدوا منه في قلوبهم، ويحببهم بتلك الخلاوة عن إدراك ما فوق مقاماتهم من مكاشفة الغيوب في القلوب، ومكره بالمحيين والعاشقين ظهور الصفات في الآيات وهو مقام الالتباس، ومكره بالعارفين والموحدين أن يريهم نفسه على قدر قوة المعرفة والتوحيد، ولا

يعرفهم مكان المكر هناك بأن يعملوا أن ما وجدوا منه عندما لم يجدوا منه كقطرة في بحار، وذلك من حلاوة مباشرة أنوار القدم والبقاء في أسرار أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، ولو أطلعوا على حقائق مكره، حيث حجبهم به عنه لذابوا من الحياء تحت أنوار سلطان كبريائه وعظمته، ومكره بأهل الاتحاد أن يريهم جلاله وجماله في مرآة قلوبهم، فيرونه بحسن الأزل وجمال الأبد بنعت فنائهم فيه، فيبقيهم به من حد الفناء، فيرون أنفسهم كأنهم هو من حدة مباشرة الصفة بالفعل، فيتحجب عليهم ويبقيهم في حلاوة تأثير أنوار الصفات فيرون أنفسهم في محل الربوبية فيدعون هناك بالأنائية (كالحسين بن منصور) و(أبي يزيد) -قدس الله روحهما- فهناك أخفى المكر وألطف الاستدراج، ولولا فضله وكرامته عليهم لأبقاهم فيما هم فيه ولكن بلطفه الخفي وإنعامه الجلي أخرجهم من ذلك، وأغرقهم في بحار عظمتهم حتى أقرؤا بأنهم ليسوا على شيء منه، وأنهم في أول درجة من عبوديته.

ألا ترى إلى قول أبي يزيد في آخر عمره حيث قال: ما ذكرتك إلا عن غفلة، ولا عبدتك إلا عن فترة.

وإلى قول حسين بن منصور في وقت قتله قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وهذا لطف الله نبينا ﷺ حيث حرصه من هذا المكر الخفي في مقام رؤية الأعلى وشهود قاب قوسين وأدنى بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، ذوّقه طعم الربوبية وأوقفه في مقام العبودية، حتى افتخر بعبوديته بعد وجدان ربوبيته بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(٢)، وكل صنيع منه لطيف بأوليائه أن مكر بهم وأن لم يمكر بهم، ومن نجا من مكره والكل في قبضة العزة متحيرون، وكيف يأمن به منه من يعرفه بالربوبية ويعرف نفسه بالعبودية.

حُكي أن رجلاً سأل الشبلي عن معنى مكر الله، فأشدد الشبلي بقوله:

أَحَبُّكَ لَا يَبْعُضِي بَلْ بِكُلِّي وَإِنْ لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ بِي حِرَاكَا
وَيَسْمُجُ مِنْ سَوَاكَ الشَّيْءُ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

فقال سائل: أسأل عن آيات من كتاب الله، وتحبيني بيت شعر فعلم الشبلي إنه لم يظن

ما قال.

فقال: يا هذا مكره بهم تركه إياهم على ما هم فيه.

قال الحسين: لا يأمن من المكر إلا من هو غريق في المكر، فلا يرى المكر به مكرًا، وأما

(١) رواه مسلم (١/٣٥٨).

(٢) تقدم تخرجه.

أهل اليقظة فإنهم يخافون المكر في جميع الأحوال إذ السوابق جارية والعواقب خفية.
وقال أيضاً: مَنْ لَا يَرَى الْكُلَّ تَلْبِيسًا كَانَ الْمَكْرُ مِنْهُ قَرِيبًا.

قال أبو الخير الديلمي: كنت يوماً عند الجنيد فارتعدت فرائصه، وتغير لونه وبكى، وقال: ما أخوفني أن يأخذني الله، قال له بعض أصحابنا: نتكلم في درجات الراضين وأحوال المشتاقين، قال: يا بني إياك أن تأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.
قال سهل: المكر تدبير الله بسابق العلم فلا ينبغي لأحد أن يأمن مكره، وذلك أن مَنْ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ بِدَفْعِ الْقُدْرَةِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرِجَ نَفْسَهُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^(١)
كأن هذه الآية أنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بها وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما ألتفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذرون لأن الحدثان لا يستثقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء.

قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وَقَفَ مَعَ اللَّهِ عَلَى حِفْظِ الْحُدُودِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.
وقال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾^(٢).

قال الأستاذ: نجم في العذر طارقهم، وأقل من ساء الوفاء شارقهم فعدم أكثرهم رعاية العهد وحق لهم من الحق قسمة الرد والصد.
ويقال: شكا عن أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثر من رده القسمة، والأقلون من قبلتهم الوصلة.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٣) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِغَايَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤﴾

(١) وذكر في أول التي تليها تنازعهم في الأنفال تحذيراً لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين في هذه، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة، فإنه هناك للاستجلاب للإيمان بالذكير بالنعم، لأن ذلك في سياق خطابة سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم والله أعلم. نظم الدرر (٣/ ٢٦٥).

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظُرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢١﴾ يَا تُولَكِ السَّحِيرِ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ لما تعين معجزته وثبت سلطانه تكلم بالانبساط وتلفظ بالهيبه وادعى بالحقيقة؛ لأنه كان في مشهد القرب والمشاهدة، وأخبر أنه ينطق بالحق للحق في الحق مع الحق؛ لأن الحق كان ينطق بلسانه وما نطق إلا بما يليق بالحق، ومن بلغ مقام الحقيقة فيظهر الحق منه، للحق فجميع حركاته وسكونه ونطقه وسكوته قام بالحق بوصف المشاهدة لا بوصف الغيبة.

قال ابن عطاء: مَنْ تحقق بالحق؛ فإنه لا يقول على الحق إلا بما يليق بالحق.

وقال الخراز: سبيل الواصلين إلى الله لا يتكلم إلا عن الحق، ولا يسمع إلا من الحق ولا ينطق إلا بحق، فإن حقائق الحق إذا استولت على أسرار المتحققين أسقطت عنهم سوى الحق ولا يبلغ أحد من هذه الدرجات شيئاً حتى يستوفي الحق أوقاته عليه ومنه فيبقى ولا وقت له ولا حال حينئذ، والله أعلم.

وقال الأستاذ: مَنْ إذا لم يصح له أن يقول على الحق إلا الحق والخلق محو فيما هو الموجود الأزلي، فأى سلطان لآثار التفرقة في حقائق الجميع.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظُرِينَ﴾ ظهر سبحانه بصفات الفعلية عن العصا وألبسها بعد قلبها لباس فعل العظمة لتخويف الكفرة، وهرب السحرة، وأكل المخابيل، وظهر بنور الصفة من يد موسى ﷺ لفتح أبصار الإيقان والإيمان بأنوار صفاته في إظهار البرهان؛ لأن الجهاد محل تصرف فعل العام من طريق الأمر القائم به، والحيوان محل تصرف فعل الخاص القائم بالصفة لأنه معدان أرواح الطباعية، والإنسان محل تصرف الصفة القائمة بذاته الأزلي؛ لأنه أشرف المواضع من العرش إلى الشرى لمحلّه من العقل القدسي، والقلب الملكوتي، والروح القدسية، ظهر بالفعل عن العصا للعموم وظهر بالصفة عن موسى ﷺ للخصوص، وعرف موسى ﷺ عجزه في قدرته، حيث انقلب عصاه بغير اختياره، وخرجت يده نورانية بغير اختياره، وكان ذلك أعظم في صدق معجزته حيث لا اختيار له فيه.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ

الْمُفْلِقِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٠٢﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٣﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ لَكُمْ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إن الله سبحانه ألبس أوليائه لباس أعدائه امتحاناً لهم ولغيرهم، فأرشدهم بقهره إلى لطفه؛ إذ الأصل فيهم سبق اصطفايتهم في الأزل، كانوا ممتحنين محجوبين من رؤية اللطف بحجاب القهر، فلما أتوا بالسحرية آلوا التقرب من فرعون من رأس الطبيعة وجرى في الأزل قربهم من رؤية الحق سبحانه، فطق الله على لسان عدوه إخباراً عن سابق العناية للسحرة بقوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ المنطق بالخبر هو الله سبحانه وإن لم يعرفوا مكان الخطاب، ولكن جرى على وفق العناية خبر الغيب علمهم، وفرعون في البين واسطة، وحقيقة الخطاب من الله سبحانه.

قال بعضهم: دعا فرعون السحرة إلى القرب منه، وجرى لهم في الأزل مقام القرب من الحق.

قال فرعون: إنكم لمن المقربين إلى منازل الأبرار وبعد وأمن قرب الأشقياء.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السحر الحقيقي من عالم الفعل بواسطة الكسب البشري، والمعجزة من عالم القدرة القديمة، ولما ظهرت الصفة تلاشت معالم الاكتساب وغابت توافيق الفعلية.

قال السوسي: أظهر الحق لطيفة من صنعه في خشية عجز السحرة عنها، وجعلها سبباً لنجاتهم، فقال: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ بإظهار القدر في جماد وبطل ما كانوا يعملون من الأباطيل، ولما ظهر قهر القدم بلباس العظمة من عصا موسى ﷺ، وانهمزوا من سطوات العظمة ويا ليتهم لو ثبتوا ورأوا مشاهدة جلاله من لباس عظمته الذي تجلّى من العصا يكون حالهم كحال السحرة، لكن غابوا في بحر ضلال الأزل ولم يوقفوا بها وفق السحرة عندما كوشف لهم وجه جلال القدم، فرأوه بلا حجاب فألغوا أنفسهم بنعت الإذعان له عشقاً ومحبة وشوقاً إلى تلك المشاهدة بما أخبر الله عن شأنهم بقوله: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ وَأَلْقَى

السَّحَرَةُ سَجِدِينَ»^(١) أي: صدقنا ما أخبر لنا بلسان موسى ﷺ وهارون ﷺ، وشاهدنا مشاهدته عياناً، بحيث لم يبق فينا معارضة الإنسانية، وخطرات الشيطانية.

قال الواسطي: أدركهم سابق ما جرى لهم في الأزل من السعادة، فأظهر منهم السجود.

وقال جعفر: وجدوا نسيم رياح العناية القديمة بهم فالتجاء وإلى السجود شكر وقالوا آمنا برب العالمين.

وقال أبو سعيد القرشي: نازع موسى ﷺ مع فرعون طول عمره وقد قال الله إنه ليس من أهل الإسلام، ولكن منازعة موسى ﷺ مع فرعون كانت سبب نجاة السحرة حتى قالوا آمنا برب العالمين رب موسى ﷺ وهارون ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هددهم فرعون بالبلاء ولم يعلم أنهم غرقوا في بحار رؤية المبلي متحملين بلاياه برؤية جماله ولولا ذلك ما قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ.

قال سمنون: يحمل الهياكل من البلايا على المشاهدة ما لا يحمله في حال الغيبة، ألا ترى كيف لم يبال سحرة فرعون بما هددكم به من قوله: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِقَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُكُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣١﴾﴾ فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ

(١) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسماعهم، علماً منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة. نظم الدرر للبقاعي (٦/٦٣).

سَيَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أجابوا فرعون بعد تهديده لهم بالبلاء بهذه الآية، أي نحن ذاهبون بنعت الشوق والمحبة إلى مشاهدة ربنا، ولا نخاف من جميع البلاء لأن من عانيته لا يؤثر فيه آلام البلاء ولا يحجبه عن رؤية المبلي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ انظر إلى أدب موسى عليه السلام كيف علم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَنْ كان بالله صبر يكون مظفراً على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه.

قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا.

قال سهل: أمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولما أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم بقوله: ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلٍ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: لو يصبرون على مخالفة نفوسكم ودفع شهواتكم وترك حظوظكم الدنيا وبه يذهب الله عن ساح قلوبكم التي هي مواضع المشاهدة غبار الهواجس النفسانية، ويجعلكم خلفاء الله في أرضه وبلاده.

قال بعضهم: أعدى عدوك نفسك عسى الله أن يملكك من قيامها، ويفني عنها أهواءها ومراداتها الباطلة، ويجعلك خليفة على جوارحك وقلبك أميراً عليك، فتقهر النفس بما فيها وتستولي عليها وعلى مخالفتها، فينظر كيف يعملون كيف معرفتك بشكر ما أنعم عليك.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٤٠﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغِيرَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَعَزَّاهُمْ عَلَىٰ أَلْعَلَمِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا﴾ أخبر الله سبحانه عن نقض عهد المفسدين بعد رؤيتهم وضوح الآيات، وظهور المعجزات، ونيرات الكرامات، وذوقهم طعم العذاب في البليات جحودًا وإنكارًا بعد علمهم بصدق الرسالة والنبوة والولاية، لما وقعوا في ورطة الهلاك التجئوا إلى نبي الله ﷺ بعد جفائهم به، فلم ينفع التجاؤهم وتوبتهم لما سبق لهم في قديم العلم من الشقاوة، ولأنفذ فيهم سهام المهمة النبوية، وهكذا شأن من جفا المشايخ برعوناتهم وسوء آدابهم لا ينفعهم استعانتهم بالقوم.

قال القاسم: من لا يراعي أسرار الأولياء في الأوقات لا ينفعه اللجوء إليهم في أوقات البلاء، ألا ترى كيف لم يؤثر على أصحاب فرعون اللجوء إلى موسى ﷺ في اعتقاد المخالفة.

قال الله: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ معنى الآية في وارد الحكم أن الكلمة صفته الأزلية، وهي ذكر الله إياهم في سابق العلم بالتوفيق في عبوديته الخالصة، وقبولهم امتحانه وبلاه بنعت الصبر والرضا، وذلك عطاء محض، حيث تمت تلك النعمة منه تعالى في الأزل لهم.

قيل: وقوع الفعل والجزاء والصبر والرضا فإن من تمام النعمة أن سبقت كلمة الله بنعت إتمام الدرجات لهم قبل وجودهم؛ فالكلمة تمت بإعطائهم المعرفة والتوفيق في الطاعة، ليس عناية الله الأزلية متعلقة بصبرهم واحتياهم الجفاء، فإنها ميراث كلمة الحسنى التي سبقت بالعناية لهم ولولا ذلك لما صبروا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، أي: بالله تصبر وقوله: ﴿وَتَمَّتْ﴾، أي: تمت العناية بلا علة الاكتساب

وصفاته الأزلية لا تحتاج إلى علة الحدث، فإن اصطفاية الله منزّهة عن خلل الحدثان وأفعالها. قال الجنيد: طالبوا تمام الكلمات بوجود النعمة والمواظبة على الصبر فاستشعروا التثبت بحبائل الوفاء عند مَنْ أبلأهم، ليتهم عليهم كلمة الحسنى بجميل الثناء على الصبر الذي ضمن لهم إتمامها بالوفاء.

قال أبو سعيد الخراز: طالبوا تمام النعمة بالمواظبة على الصبر واستشعروا وعده الذي ضمن لهم إنها يكون عند القيام بها ألزمهم من شرائط الصبر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ بصرهم في بلائه وإعطائهم موارث الأرض من الملكين، ملك الدنيا وملك العقبى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ رد الله بلسان نبيه ﷺ قول الجهل عند قولهم: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وعرفهم مكان العقل في الإنسانية وتفضيل الآدمية على الحيوانية، واختيار الله إياهم التوحيد والشرعة، أي تطلبون غيره وهو بكرمه ورحمته أعطاكم العقل الذي لا يقبل في العبودية غير الله؛ لأنه يفرد القدم من الحدوث يعلم من الله معه، وصوركم بأحسن الصورة التي لو اعتبرتم بها يعرفون أن صانعها الله لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه، فضلكم على العالمين بإرسالى إليكم، فإني أتم نعمت الله عليكم.

قال أبو عثمان: أنطلب غيره وهو فضلك على ما سواك من جميع ذوات الأرواح والجهاد فتذل وتخضع لغيره، وهو فضلك عليه ذل لمن يذل له لتستوي معه فتنال معه به العز الأوفر.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْعَبِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولما جاء موسى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مَنِ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا

سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آلِفِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يشرف عبداً من عباده بمقام لم يكن له ذلك وقربه منه ونجاه وأظهر عليه عجائب ملكه وملكوته، يصفيه عن كل كدورة، ويخلصه عن كل هم، ويروضه بأنواع مجاهدة، ويخلي بطنه عن الطعام والشراب إلا ما يقوى به صلبه ليحرق بنيران الجوع غواشي قلبه، وتقّس من قلبه مكان نظره، ويغسل بمياه المجاهدة جوارحه، ويزويه في الخلوات، ويشوقه بلطائف المناجاة إلى المشاهدات وله أوقات وساعات لفتح أذان قلوب أوليائه وأبصار أرواح أصفياه؛ لسمعها كلامه ويبصرها جماله وجلاله، وتلك أوقات تضوع عطر مشاهدته لأهل خلواته ومناجاته لا يستنشق تلك الروائح إلا المعترضون لها في المراقبات والرعايات، وأخبر من تلك الأسرار سيد أهل الأنوار ﷺ بقوله: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الله»^(١)، ومن تلك الأربعين صارت الأربعين سنة لأولياء الله في بداية أمرهم في الخلوة والريضة بخلوص نياتهم مع الله سبحانه؛ لوجدان حكمته الأزلية وأبنائه العجيبة، ومكاشفته البديعة؛ لأنها عرائس الله لا تنكشف إلا المتفرد عن غير الله، وأخبر بشرائف ذلك النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أخلص الله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(٢)، ما طاب زمان الوصال ومواعيد كشف الجمال لما طاب وقت كليم الله في مناجاته حبيبه بعد تمام ثلاثين ليلة لم يستوف وطره من لذيذ خطابه ولطف جماله؛ فعلم بالسؤال ليستزيد المقام في شهود العين، فعلم تعالى حرق شوقه وهيب حزنه وزيادة عشقه ومحبه، فزاد على أوقات الوصال بقوله: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾، وقال: ﴿فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ومراده بالأربعين تواتر الحالات والاستقامة في الواردات؛ ليجتمل بعد ذلك بها أوقات بدييات الكشوف وبروز أنوار القدم ذكر الليالي لخلو الأسرار عن نظر الأغيار وصفاء المواصله عن غبار المخالفة، فياها من سماع ما أطيعه ومن خطاب ما ألّه من جمال ما أشهه ومن قرب ما ألطفه.

فَكَانَ بِالْعِرَاقِ لَنَا لَيَالٍ سَلَبْنَاهُنَّ مِنْ رِبِّ الزَّمَانِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١١).

(٢) رواه هناد في الزهد (٦٧٠) بتحقيقنا.

جعلناهم ناريح الليلي وعنوان المسرة والأمان

وعده وجعل الأيام الخطاب ميقاتاً لمزيد شوقه وزيادة خوفه وهيجاته.

قبل لأبي بكر بن طاهر: ما بال موسى ﷺ لم يجع حين أراد أن يكلم ربه وجاع في نصف يوم حين أراد أن يلقي الخضر، فقال: ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، فقال لأنه في الأول أنساه هيئة الموقف الذي ينتظره الطعام والشراب، والثاني كان سفر التأديب، فرد البلاد على البلاء حتى جاع في أقل من نصف يوم، والأول كان أوقات الكرامة ولما أراد المسير إلى الله والذهاب إلى مواعد قربه ومناجاته جعل أتيته هارون ﷺ خليفته في قومه غيره على وقته وعلى محبوه لئلا يكون معه غيره في سماع أسرار الأزل والأبد بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾.

استخلف هارون ﷺ بالشريعة وانفرد عنه في مقام الحقيقة؛ لأن الحقيقة لا تقبل الغير في البين ولا يكون العشق بالشركة؛ لأن العشق يغير عن العاشق دون معشوقه، وكان هارون ﷺ علم غيره أخيه فاستقبل الخلافة ولم يعارضه، وإن كان ميل قلبه بصاحبه في الحضرة، ولكن تحمل من حلمه أنقال الفراق لصحة المؤاخاة، وصدق الإرادة.

وقال الأستاذ: لما كان المرور إلى فرعون استصحب موسى ﷺ هارون ﷺ، فقال الله سبحانه: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢]، ولما كان المرور إلى سماع الخطاب أفردته عن نفسه، فقال: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ولهذا غاية الحلم من هارون ﷺ ونهاية الرضا، ولهذا من شديداً بلاء الأحباب وفي قريب منه أنشد قال لي مراحب:

والبين قد جد ودمعي موافق الشهيق ما ترى في الطريق تصنع بعدي

قلت أبكي عليك طوال الطريق

وفي الآية دليل أن للأولياء خلفاء ونجباء ونقباء يستنون بستمهم ويقتدون بأسوتهم ويبلغون إلى درجاتهم بصدق إرادتهم.

قال محمد بن حامد: لم يزل الأنبياء والأولياء خلفاء يخلفهم في مَنْ بعدهم من أمتهم وأصحابهم ويكون هداهم على هداهم، يحفظون على أمتهم ما يضيعونه من ستمهم وأن أبا بكر كان هو القائم بهذا المقام بعد النبي ﷺ، ولو لم يقم لهؤلاء يثبت سنين منها محاربة أهل الردة وغير ذلك، ولما خرج من أوطان البشرية وترك علّة الرفقة واستقام في الشوق إلى المشاهدة، وهرب إلى الخالق من الخليفة، أخبر الله سبحانه عن ذهاب كليمة إليه وإلى ميقات قربه وصاله بوعده بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ كيف له ميقات وليس عنده مساء

ولا صباح أزله أبده وأبده أزله، أراد انفراده عن كل مراده وبلوغه إلى كمال تربيته ليقوي أن يقف على مسيل قلزم القدم وعلى مصب طوفان الأزل وعلى مهب صرصر العظمة.

ولولا أنه تعالى أكساه أنوار قمره لذاب في ميقات ربه وقته وقتاله معيناً النبل مراده وذلك علة البقاء البشرية وإلا لكل نفسه له فيه وقت وكشف وخطاب جاء لميقاتنا واحتجب عنا بالمیقات، ولو جاء لنا صرفاً ما احتجت عنا أسرى حبيبة إلى الملكوت بالبدية إلا بالمیقات وسرى به، إليه ولم يبق في همته ذكر الزمان والمكان من استغراقه في بحر هموم طلبه رؤية القدم بلا سؤال ولا حركة ولا إشارة ولا عبارة ولا جرم، لم يبق بينه وبين الله وقت ولا زمان ولا مكان، وأراه بعين وهيها له منه وأسمع كلامه بسمع أعطاه إياه منه خص في الأزل كليمه بسماع كلامه.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَہُ رَبُّہٗ﴾ لما لم يجد في مسامع أسراره مسامع حديث النفس والوسواس، ألبس سمعه لباساً من سمعه، فأسمع كلامه بسمعه، ولولا ذلك كيف يسمع كلام القديم بسمع المحدث؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَہُ رَبُّہٗ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى عليه السلام لما جاء بنعت الشوق والهيان والعشق والهيجان بخطرات الوالدين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى عليه السلام قائماً عن موسى عليه السلام ولم يبق في موسى عليه السلام إرادة موسى عليه السلام بنعت التحير في موقف الفناء على جنب القدم والبقاء، ولم يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفر؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب الذهاب، فكلمه بالبداهة فطار سر موسى عليه السلام في هواء الهوية، وطار روح موسى عليه السلام في سماء الديمومية، وطار عقل موسى عليه السلام في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوجدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والآخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته أسمع عجائب كلامه بكليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات.

ولولا اصطفايته الأزلية لموسى عليه السلام واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة خطابه يا ليتني لو أن لي لساناً أزلياً من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم من لم يذوق طعمه، ولما طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر

الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكروه استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلم يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفراً، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فثائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق وأنشد في معناه:

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشُّوقُ يَوْمًا إِذَا دَنَّتِ الْخَيَامُ مِنَ الْخِيَامِ

والله لولا موسى عليه السلام أي جمال الحق في كشوفات الغيبة بفنون ألوان قمص الصفاتية وبروز سبحات الذاتية، ولولا أن رآه في مقام الالتباس في رؤية كل ذرة من العقل إلى الثرى من مرآة الوجود لم يجد إلى طلب مشاهدة الصرف سبيله؛ لذلك وجبت الرؤية ولولا أن الرؤية حق الإبصار، نظر المعرفة ما سأل كليم الله ما خفي عن الخليفة، فلولا رجاء الوصل ما عشت ساعة، ولولا مكان الطيف لما تهجع لم يذق الله طعم وصاله، مَنْ له منية غير لقائه.

مُنَايَ مِنَ الدُّنْيَا لِقَاؤُكَ مَرَّةً فَإِنْ نُلْتَهَا اسْتَوْفَيْتَ كُلَّ مُنَايَا

سَلَبْتَ فَوَادِي كُنَى تَكُونُ مَكَانَهُ فَكُونِي أَوْ فَارِدُ عَلِيٍّ فَوَادِيَا

قال جعفر الصادق: أسمع الحق عبده موسى عليه السلام كلامه بلسان الرحمة والعطف أولاً؛ لأنه مردود بنفسه إلى الله، ثم أسمع به بلسان جوده وكرمه ثانياً، وهو أيضاً مردود إلى نفسه.

قال أبو سعيد الخراز: من غيرة الله تعالى أنه لم يكلم موسى عليه السلام إلا جوف الليل وغيبه عن كل ذي حس حتى لم يحضر كلامه معه سواه وكذلك محادثته مع الأنبياء.

وقال القرشي: إنما كلم الله موسى عليه السلام بإياه، ولو كلم على حد العظمة لذاب وصار لا

شيء.

قال جعفر: سمع كلامه خارجاً عن بشريته وأضاف الكلام إليه وكلمه من نفسية موسى عليه السلام وعبوديته فغاب موسى عليه السلام عن نفسه وفني عن صفاته وكلمه ربه من حقائق معانيه فسمع موسى عليه السلام صفة موسى عليه السلام من ربه ومحمد عليه السلام سمع من ربه صفة ربه، فكان أحمد المحمودين عند ربه ومن هذا كان مقام محمد المنتهي، ومقام موسى عليه السلام الطور ومُذْ كَلِمَ اللهُ موسى عليه السلام على الطور أفنى صفتها، فلم يظهر فيها الثبات ولا تمكين لأحد عليها.

قال الحسين: في هذه الآية قال أزال عنه التوقيف والترتيب، وجاء إلى الله الله على ما دعاه إليه وأراد له واجده عليه وأوجده منه وأظهره عليه، ببذل الجهد والطاقات وركوب الصعب والمشقات، فلما لم يبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة والمخاطبة، وأطلق مضغة لسان المراجعة والمطالبة، أما سمعت قوله قبل هذا الحال طالباً منه لما طولع بحال

الربوبية، وكوشف بمقام الألوهية سائلاً حل عقدة من لسانه؛ ليكون إذا كان ذلك مالكا لنطقه وبيانه.

وقيل: لما سأل ملكيه شرح صدره، ثم نظر إلى أليق الأحوال به، فإذا هو تيسر أمره فسأل ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهي المجيء إلى الله بالله، لما علم أن مَنْ وصل إليه لم يعرض عليه عارضة، حينئذ صلح المجيء إلى الله وحده بلا شريك ولا نظير، وكان بمنّ وفيّ المواقيت حقها غابت عنه الأحوال فلم يرها وذهبت عن غيبه ظهوره وما عداها إلا ما كان للحق منه ومعه، حتى تحقق بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، ولقد منّا عليك مرة أخرى فهذا حال لمجيء، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾، وقوله: ﴿وَكَلَّمَاهُ رَبُّهُ﴾، أنه انفرد بكلامه لأنه كان قبل ذلك مكلماً بالسرّ والسفراء والوسائط.

فلما أتى الله تعالى به إلى المقام الأجل وحققه بالحال الأعظم الأرفع خاطبه مكلماً على الكشف وغيبته عن كل عين رائية ومرئية، وكل صورة مكونة ومنشأة إلا ما كان من الكلم والمكلم، وأفرد الله عنده بالشرف الأعظم فسمع خطاباً لا كالمخاطبات فاهتاج منه وله عند ذلك طالباً لا كالمطالبات واقتضى من الله ما لم يكن قبل يقتضيه، فلذلك سأل النظر إليه إذا رجع إلى حقيقة، فرأى الله في كل منظور له ومنصور، فلما تحققت له هذه الأحوال، قال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾، فإن في كل مرئي أرجع إليك، أي أرني ما شئت فلست أرى غيرك مقابلي إذا تحققت بما حققتني به، إنك غير مسألتي، ألم يدلّك على ذلك خطابه ورجعته إليه إذ ذاك جوابه أرني فأليك أنظر وأحضراني ما شئت فلست غيرك أحضر بعد أن تحققت منك بحال يوجب لي منك ذاك، وحق لمن تحقق بهذا أوتمكن فيه أن يفرد بسؤال لا يشارك فيه بالحقيقة.

ويقال: صار موسى ﷺ عند سماع الخطاب بعين السكر، فنطق بما نطق والسكران لا يؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف.

ويقال: أخذته عزة السماع فخرج لسانه عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه من الأريحية وبسط الوصلة.

ويقال في القصص: إنه كان يحنّ في الوعد كلمات الخلق.

ويقول: لمعارفه لكم كلام معه، ولكم حاجة إلى الله فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته، ثم أنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر ما دبره في نفسه، وتحمله من قومه وجهه في قلبه سينا ولا حرفاً، بل أنطق بما صار في الوقت غالب قلبه، فقال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ وفي معناه

أنشدوا:

فَبِالْإِيلِ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٌ إِذَا جِئْتَكُمْ لَمْ أَدْرِ بِاللَّيْلِ مَا هِيََا

ويقال: أشد الخلق شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب، لهذا موسى عليه السلام كان غريق الوصلة واقفاً في محل المناجاة محدقاً به التولي غالباً له بذهاب الوجود في عين ذلك، كان يقول: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة لا ولكن ما إذا ازداد القوم شرباً إلا ازدادوا عطشاً ولا ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أشوقاً؛ لأنه لا سبيل إلى الوصال بالكمال والحق سبحانه لقبول أسرار أصفياه عن مداخل الملal.

ويقال: فمال موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فلا أقل من نظرة، والعبد قتيل هذه القصة هو بل بالرد، وقال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ فكذا قهر الأحباب. ولذلك قال قائلهم:

جَوْرُ الْمَهْوَى أَحْسَنُ مِنْ عَدْلِهِ وَبُخْلُهُ أَظْفَرُ مِنْ بَذْلِهِ

ويقال: لما سمعت همته إذا أسنى الطلبات، وهي الرؤية قبيل بلن، فلما رجع إلى الخلق قال: للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً.

قال الخضر له: لن تستطيع معي صبراً قابله بلن، فصار الرد موقوفاً على موسى عليه السلام من الحق ومن الخلق، ليكون موسى عليه السلام بلا موسى عليه السلام صافياً عذوباً عن كل نصيب لموسى عليه السلام من موسى عليه السلام، وفي قريب منه أنشدوا:

أَنْتَ بِيَابَتِنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ

ويقال: طلب موسى عليه السلام الرؤية وهو بوصف التفرق، فقال:

﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(١)، فأجيب بـ ﴿لَنْ﴾ عين الجمع أتم من عين التفرقة فزع

موسى عليه السلام حتى خرّ صعقاً، والجبل يصير دكاً، ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القلب يكشف بما هو حقائق الأحدية، وكون الحق لموسى عليه السلام بعد إحياء معالم موسى عليه السلام، خير لموسى عليه السلام من بقاء موسى عليه السلام لموسى عليه السلام فإن على التحقيق شهود الحق بالحق أتم من بقاء الخلق بالخلق؛ لذا قال قائلهم لوجهها من وجهها قمر، ولعينها من عينها كحل.

(١) إشارة لها أرق من هذه، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المُرِين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة. وبالله التوفيق، البحر المديد (٢/ ٢٢١).

ولي هنا لطيفة في قوله: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أضاف رؤيته إلى الله لا إلى نفسه حيث قال: ﴿أَرِنِي﴾، إذا ترني جمالك أطيع أن أنظر إليك وإلا فلا فإنه كان لي عالماً بعين حديثه لا تحصل رؤية القدم، فسأل منه تعالى عيناً من عيونه يراه بها، وبها يرى عين العين وكنه الكنه، وقدم القدم، وسر الذات، وحقيقة الحقيقة؛ لأنه لم يره؛ لأن جميع ذرات موسى عليه السلام يرى الله، فلما غلب سكره وزاد شوقه سقط عنه رسوم العلم وبقي معه صرف العشق فتحرك لسان البسط بطلب الإطلاع على الحقيقة، فأجابه الحق سبحانه فقال: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ أي: لن تدركني كما أنا، فإن معك في البين واسطة الحدث وإن كان معك مني عيون الأزلية وأبصار الأبدية، فأحاله إلى واسطة بقوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾.

وأيضاً: ليس قوله: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ نفى الرؤية عن موسى عليه السلام وغيره من المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ أي: لن تراني بإياك ولكن تراني بإيائي، وصدق الله بهذا الخطاب وكيف يراه بين محجوبة بعوارض البشرية رآه به لا بالغير، فإذا رآه به رأى الحق لموسى عليه السلام، ورؤية الله مشاهدته، وجلاله لموسى عليه السلام أعظم من رؤية موسى عليه السلام لموسى عليه السلام.

وأيضاً: لن تراني من حيث أنت إذا أنت لن تراني بوصف القدم والبقاء وسطوات العظمة والكبرياء ما دام أنت أنت، انظر إلى مثلك في الحدودية وهو الجبل، انظر إلى الجبل فإن فيك علّة الحدث ولا تريني إلا بواسطة الحدث، فجعل الجبل مرآة من فعله فتجلى من صفته لفعله الخاص ثم للجبل، فرأى موسى عليه السلام جمال القدم في مرآة الجبل فخر؛ لأنه وصل إلى مقصوده على قدر حاله، ولو تجلّى لموسى عليه السلام صرفاً لصار موسى عليه السلام هباءً، ولو تجلّى للجبل صرفاً لاحترق الجبل إلى الأرض السابعة؛ لأنه تعالى تجلّى للجبل من عين العظمة وسبحات الأزلية.

ولذلك قال ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

وقال ﷺ: «إذا تجلى الحق بشيء خضع له»^(٢).

قال تعالى: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبِقًا﴾، قال: وهب أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة، قال: أروه، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب، ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعاً فارتج الجبل واندك، وكل شجرة كانت فيه، وخرّ العبد

(١) رواه مسلم (١/١٦١).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/١٠٥).

الضعيف موسى ﷺ صعباً على وجهه، ليس معه روحه، فقلب الله الحجر الذي كان عليه موسى ﷺ وجعله كهينة القبة لئلا يحترق موسى ﷺ؛ ولذلك قال له سبحانه في تعريفه عظمته وجلاله وغلبته قهر سلطان كبريائه على كل شيء، قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَنِّي﴾ أي: أنا أتجلى من نور عظمتي للجبل لك، ولاستقر الجبل لتجلاتي مع عظيم أجزائه وصلابة وجوده، فكيف تحمل صورتك الضعيفة أثقال عزتي؟! لو تريد أن تراني انظر إليّ بعين روحك وقلبك، فإني أتجلى لهما بحسن جمالي ولطف جلالي، وقلبك يسع ذلك التجلي، لأنه خلق من نور ملكوتي، ورقمته بنور جبروتي، وفي ذلك نطق على لسان نبيه ﷺ حيث حكى عنه تعالى بقوله: «لم يسعني السواوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»^(١).

وأيضاً: طلب موسى ﷺ رؤية الحق بعين الظاهر، وهناك عينه محجوبة عن فؤاده، فاحتجب عن رؤيته، وكان فؤاد محمد ﷺ في عينه حين شاهد جمال الحق سبحانه، فرآه بالفؤاد وبالعين.

قال تعالى في وصفه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، قيل: ما كذب فؤاده ما رأت عينه، تصديق ذلك قوله ﷺ في مراتب معراجة: «رأيت ربي بعيني وقلبي»^(٢).

ومن دخل فؤاده الملكوتي في عينه وقت تجلي الجلال وكشف الجمال يراه كفاً بلا حجاب، فإن الله عبداً كسا نور جماله أفندتهم، وكمل أبصار أسرارهم بكمل الملكوت والجبروت، فتدخل القلوب بنور الغيوب في عيونهم فلا يرون شيئاً من العرش إلى الثرى إلا ويرون جلال الله تعالى فيها.

كما قال بعض العاشقين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، كان موسى ﷺ غائباً في بحر صفات الحق ومستغرقاً فيها ولم يعلم أين هو، ظن أنه غائب من دوام شهوده مشاهدته عنه، فسأل الرؤية ف قيل له: ﴿لَنْ تَرَنِّي﴾ كأنه استفهم، أين أنت حيث أنا أنت وأنت أنا، وأنشد في معناه بعض الشعراء:

كَبُرَ الْعَيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَتَى صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعَيَانِ تَوْهُمَا

فلما رآه غائباً أراد أن يعرف مكانه فأحاله إلى الوساطة؛ ليعرف قدر الوصل في البين، وتعرف مكانه من المشاهدة.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ عرف الجبل أن التجلي له عارية، وبينه وبين التجلي حجاب امتناع

(١) تقدم تخرجه.

(٢) سبقت الإشارة إليه، وهو من الأحاديث التي ذكرها المصنف بكتبه.

الأحذية عن مباشرة الخليفة، اندك من حسرة فوت التجلي، فلما رأى موسى ﷺ تجلي الحق بالواسطة عرف أنه سقط من مقام الاتحاد وغيبوبته في الصفات، وارتهن بعلة بسؤاله بالواسطة، فخرّ صعقاً من حسرة فوت المقام.

أنشد الحسين في هذا المعنى:

مَا لِي جُفَيْتُ وَكُنْتُ لَا أَجْفَى ودلائلُ الهجرانِ لَا تَخْفَى
وَأَرَاكَ تَمَزَّجْنِي وَتَشْرُبُنِي وَلَقَدْ عَهَدْتُكَ شَارِبِي صِرْفَا

هذا معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُ ذِكًّا وَحَرَّتْ مُوسَى صَعِقًا﴾ فأدركه لطف الباري سبحانه وأحياه بروح المشاهدة، فلما أفاق علم أنه مقصر من معرفة المقام وما كان فيه فاعتذر، وقال: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأيضاً: كان في بحر الصفات على محل شهود نعوت الأزلية فتقاضى سره إدراك حقائق الذات بعد فئائه في الصفات، فأسقط عن مقامه غير ذات الأزلي حتى صيرته بنعت البشرية ووردته إلى مقام البداية، فعلم في الصحوة ما أخطأ في السكر من طلب الاطلاع على كنه القدم، فقال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ من إدراك الحدث قدمك وجلال أزلتك.

﴿ثَبَّتُ إِلَيْكَ﴾ مما طلبت فأننا أول المقرين بأن لأثبت أقدام الحدثان على صفوان الأزل، ولا تستقر حثالة الخليفة عند هبوب عواصف القدمية عنها، لما رجع صار في مقام «لا أحصى عليك»^(١).

علم السيد ﷺ هذا المقام في أول شهوده عين الكل، فقال: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

قيل: علة الفناء والامتحان، وعلم موسى ﷺ هذا المقام بعد الامتحان والفناء، ولو علم في الأول إدراك ما أدرك النبي ﷺ تاب موسى ﷺ مرة من هذا المقام، وتاب الحبيب ﷺ من هذا المقام في كل يوم سبعين مرة.

قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(٣).

كان عينه نكرة القدم فتاب من تقصيره عن معرفة حقائقه، فرعاه الحق برعاية الكرم وعفاه عن إدراكه كنه القدم بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم كسابقه.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

[الفتح: ٢] أي: من تقصير إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراك كنه أيد الأبد.

وأيضًا: تاب كلم الله من تلويته في مقام العشق والشوق إلى جمال القدم حيث أحاله بعد سؤاله كشف جماله إلى رؤية الوسائط بقوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ أي: تبت من دعوى عشقك والشوق إلى جمالك بالحقيقة، فلو كنت متحققًا في جبل لم ألفت إلى غيرك بسؤاله في مقام السكر، لذلك نطق بلسان السكارى.

فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فلما سمع ﴿كُنْ تَرَنِّي﴾ صار صاحبًا لم ينطق بلسان البسط بعد ذلك، فصرفه بالنظر إلى الجبل فتابع أمر قوله: ﴿أَنْظُرْ﴾ فأمثل الأمر، وما كان في محل السكر ما نظر إلى الغير ولم يكن مأخوذًا بجراته وانبساطه، فلما رجع من السكر إلى الصحو، ورجع من الحقيقة إلى الشريعة احتمل الجنايات، واعترف بتقصيره بنظره إلى غيره، قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

وأيضًا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: من أن يكون لك في مواهبك له علة الاكتساب، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ بعد قولي: ﴿أَرِنِي﴾ ولو اكتفيت بـ ﴿أَرِنِي﴾ ما احتجت إلى التوبة ولكن لما ذكرت فعل عيني بقولي: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، فأين الحدث من استجلاب القدم إليه وأدق الإشارة.

أي: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من إشارتي إلى نفسي في سؤالي بقولي: ﴿أَرِنِي﴾، ومن أنا حتى ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، الآن ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لأراك بك لا بي، بعد أن فנית فيك

فترى عينك جمالك لي لا بي بيني وبينك أن ينازعني

فأرفع بأنك أنني من البين؛ ولذلك غار عليه ملائكة الملكوت حين صُعد.

روي في بعض الكتب: «إن ملائكة السماوات أتوا موسى عليه السلام وهو مغشي عليه، فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الخيض، أطمعت في رؤية رب العزة؟»^(١).

كان الملائكة معذورين فإنهم ممنوعون من قوام القرب بمقرعة خوف العظمة، ولم يعلموا أن هذه القصة وقعت على العاشقين الذين اصطفاهم الله في الأزل بمحبته وعشقهم في أزله بعشقه وشوقه عشقهم به، وشوقهم إلى جماله، وبانبساطه معهم كما جعلهم منبسطين إليه حتى سألوا ما لم يطمع فيه الكروبيون والروحانيون، ولم يعلموا أن موسى عليه السلام رأى مناه

كما أراد في زمان الصحو عند سؤاله وجوابه، ووجده في غيبته وسكره، وحال صعقته لما غاب وسكر استغراق في بحار الأزل والآباد، وانكشف له سر الأسرار، فالملائكة عدوًا من وراء حجاب الفعل في مقام الشريعة، وكان موسى عليه السلام في حجر الوصلة غائبًا عن الخليفة، ولو شاهدت الملائكة ذرة من حاله لصعقوا واحترقوا جميعًا، والحمد لله الذي خصّ بديع فطرته وذريته بهذه المثابة دون غيرهم.

وأيضًا: لي نكتة عجيبة، لما وجد حلاوة خطاب الأزل واستحلاه طمع في الرؤية لزيادة حلاوته، ووجدان لذته، فأصعقته غيره الأزل من سكوته عنه به وعمًا وجد من برد نسيم وصلته فلمّا أفاق بعد انقطاعه من حلاوته واحتراقه بنيران غيره توحيده ووجدانيته قال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ من أن يطلبك أحد بحظه ولحظه، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ ألا أسالك إلا لك فرد بفرد فإن حلاوة المشاهدة حجاب المشاهدة، ألا ترى إلى قول بعض الموحدين في وصف موحده حيث وصفه فقال سبحانه: «من حسنة حجاب حسنه»^(١).

قال بعضهم في قوله: ﴿لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فهو أشد منك جسدًا، وأعظم منك خلقًا، وأهيب منك منظرًا، فإن ثبت لرؤيتي ثبت، ولا يحملني ولا يصبر على مشاهدتي شيء إلا قلوب العارفين التي زينتها بمعرفتي، وأيدتها بأنواع كراماتي، وقدرتها بنظري، ونورها بنوري، فإن حملني شيء فصير لمشاهدتي في تلك القلوب دون غيرها؛ لذلك قال المصطفى ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره»^(٢).

ثم إذا حملني فتلك القلوب وصبرت لمشاهدتي وأنا حاملي لا غير إذ بي حملني وبإيادي صبر لمشاهدتي، فلا مشاهد للحق سواه، جلّ ربنا وتعالى.

وقال ابن عطاء: شغله بالجبل ثم تجلّى، ولو لم يشغله بالجبل لمات وقت التجلي.

وقال الحسين في قوله: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ لو ترك على ذلك ليقطع شوقًا ولكن سكنه بقوله: ﴿وَلَكِنْ﴾.

وقال ابن عطاء: انبسط إلى ربه في معاني الرؤية لما ظهر عليه عن الكلام ولم ينطق بإياه، ألا تراه أنه لما رجع إلى وصفه رجع إلى أوائل المقامات، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

قال النصر آبادي: ما قطع موسى عليه السلام عن الرؤية إلى نظره إلى الجبل، ولو تحقق بسؤال الرؤية لما كان يرجع منه إلى شيء سواه.

(١) هكذا في الأصل، ولم أجد له أثر فيمن خرج.

(٢) تقدم تخرجه.

قال الواسطي: ﴿لَنْ﴾ إلى وقتٍ ولا على الأبد.

قال جعفر: شغله بالجبل ثم تجلَّى، ولولا ما كان من اشتغاله بالجبل لمات موسى ﷺ صعبًا.

وقال الواسطي في قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ صار الجبل كأن لم يكن قط، ولا عجب لهية ما ورد عليه.

قال أبو سعيد القرشي: الجمال والكرم يقيان، والهيبة والإجلال يفيان، كما أن الله كلم موسى ﷺ بصفة الهيبة وتجلَّى للجبل، فصار الجبل دكا وخرَّ موسى ﷺ صعبًا، وكان آخر عهده بالنساء، ولم يتهيا لأحد أن ينظر في وجهه.

قال الواسطي: وصل إلى الخلق من صفاته ونعوته على مقاديرهم لا بكلية الصفات، كما أن التجلَّى لم يكن بكلية الذات.

وقال أيضًا: قالوا إني نقيت التجلَّى، والله يقول: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله إذا تجلَّى لشيء خضع له»^(١).

قلت: ذلك على التعارف ومقادير الطاقات، أليس بمستحيل أن يقال: تجلَّى الهواء لذرة واحدة، ولو احتجب لساوتها، ولو تجلَّى لقاء ربها، وهو أجل من أن يخفى ويستر وأعز من أن يرى ويتجلَّى إلى وقت الميعاد، تنزه عن أن يقع عليه إلا للحظ بمعانيها، أو تقع تحت الألسنة بأمالها.

قال: وقُرئ بين يدي الجنيد ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فصاح، وقال: بالجهل صار دكا لا بالتجلَّى؛ إذ لو وقع عليه آثار التجلي أفناه بكيف التجلي.

وقال شيخنا وسيدنا محمد بن خفيف - قدس الله روحه - في قوله: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِّي﴾، قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من ألا أصدقك بكل ما ورد منك وأطالبك بالعلامات، وذلك لما قال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَنِّي ﴿لم يكفه حتى نظر إلى الجبل، فلما لم يقل موسى ﷺ كفاني قولك: ﴿لَنْ تَرَنِّي﴾ حتى نظر إلى الجبل، فالتوبة من هذا.

وقال بعضهم: ﴿سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أن أسالك خطابي؛ إذ لا يحيط بك أحد ولا يشهدك غيرك.

وقال الواسطي: لم يزال المقصود ممتنعاً من الاستغراق، ألا ترى إلى قول موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قيل معناه: ﴿لَنْ تَرْنِي﴾ بالسؤال والدعاء، وإنما تراني بالنوال والعطاء؛ لأنه لو أعطاه إياه لسؤاله لكانت الرؤية مكافأة السؤال، ويجوز أن يكون فعله مكافأة فعل عبده، ولا يجوز أن يكون هو مكافأة فعل عبده.

قال بعضهم: برق برقة من النور فصاحت الجبال وانقطعت وغارت البحار، وانخمدت النيران، وانكشفت الشمس؛ فصعق موسى عليه السلام، فكيف كان يطيق موسى عليه السلام ويثبت لما لم يثبت لها الجبال الرواسي، وإنما كانت برقة.

روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية فقال: «هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الأعلى من الخنصر فصاح الجبل»^(١).

قال أبو سعيد الخراز: إن الله لا يتجلى بالكشف فمن يقوم له؛ لذلك تقطع الجبل حين تجلى له، وخر موسى عليه السلام صعقاً، وإنما نظر إلى أوليائه بالخصوصية من وراء الحجاب إذ أقبل عليهم بالرحمة والمحبة، فهناك يصل إليهم العلم الكثير والفوائد.

قال علي عن أبيه عن جعفر قال: لما سمع الكليم الكلام، واستولى على ذلك المقام سمع كلام الملك العلام، قال بلسان الدلال على بساط الوصال تحت ظلال الجلال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فإني بين يديك، فأجابه ربه: ﴿لَنْ تَرْنِي﴾ الآن في غير الوقت، بل تراني ببرهاني وشواهدي فإنك الآن لا تحتمل نور جلالي وسلطاني.

﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ ل ترى عجائب قدرتي، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فصار بأربع قطع، وتبددت في أربع مواطن، فتقطع قلب موسى عليه السلام بأربع قطع، قطعة سقطت في بحر الهيبة، وقطعه سقطت في روضة المحبة، وقطعة سقطت في بساين رؤية المنّة، وقطعة سقطت في أودية القدرة.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ خرج عن الشدة وصاح إليه بالتعظيم، بلسان الحياء ﴿تُبْتُ﴾ أن أسألك سؤال المحال في غير الوقت.

وقال ابن عطاء: علم الله تعالى منه عجزه عن إقامة حق إرادته وما طلبه، فقال سبحانه: ﴿لَنْ تَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فلما رأى الجبل قد صار دكاً صعق، ولو صحت منه تلك الإرادة، وذلك السؤال لما كان تردعه عن ذلك ألف صعقة، بل كان يقوم على مراده وسؤاله وطلبته.

(١) لم أقف عليه.

سُئِلَ الحسين بن منصور: لِمَ طَبَعَ موسى ﷺ في الرؤية وسألها قال: لأنه انفرد للحق فانفرد الحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه في كل منظور إليه ومقابلة دون كل محذور لديه على الكشف الظاهر إليه لا على التغييب، فذلك الذي حمله على سؤال الرؤية لا غير.

قال أبو عثمان المغربي: لَمَّا قَالَ موسى ﷺ: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾، قَالَ اللَّهُ: يَا موسى ﷺ اضرب بعصاك الجبل، فضرب عصاه الجبل فظهر سبعون ألف بحر، في كل بحر سبعون ألف جبل، على كل جبل ألف موسى ﷺ عليهم الكساء وبأيديهم العصا، يقولون كلهم: ﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ﴿حَرَّمُوسَى صَبْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْطَمَعَ فِي لَيْلِي، وَتَعَلَّمَ أَنَّهَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمَطَامِعِ.

ثم إن الله سبحانه لما أبقي موسى ﷺ في درك حيرة رؤية الأزل، واستغراقه في بحار الشوق إلى وجهه، تلطّف عليه وتسلّى قلبه بتعريف منته الشاملة عليه ليكون شاكراً لأنعامه، ومتسلّياً بتدارك قلبه بإكرامه، فقال: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: سبقت لك في الأزل اصطفايتك المقدسة عن علّة الحدث برسالتك مني إلى أحبائي، وتلك الرسالة شاملة لجميع ما يتوقع فيه الأولون والآخرون من الدنو ودنو الدنو، والقرب، وقرب القرب، والوصال وكشف الجمال؛ لأنها محل الاستقامة ووجدان جميع المنية.

وأيضاً: سبقت لك الاصطفائية بأن تسمع مني كلامي بلا واسطة، وتعلم منه أسرار ملكي وملكوتي، ألبستك من فعلي لباس الرسالة، ومن أنوار كلامي وصفتي لباس الربوبية؛ فصرت موصوفاً بصفتي حين اصطفتيك، فوقعت في نور فعلي، ثم وقعت في نور صفتي، حتى صرت في معنى الإنصاف مشاهداً لذاتي، ولا تخلو شعرة من جسدك إلا ولها عين من عيوني فتراني بتلك العيون، فإيش تطلب مني، بقولك: ﴿أَرِنِي﴾ كن من الشاكرين فيما أعطيناك من هذه المنازل السنية والمراتب الرفيعة، ولا تكن مهتماً من قلّة إدراكك غوامض بطون قدمي وأزلي.

وقال بعضهم: الاصطفائية أورثت التكليم والكلام لا التكليم أورثت الاصطفائية. وقيل في قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ من عطائي، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لا من المدعين المختارين، فما سبق مني إليك أكثر ممّا اخترته لنفسك.

وقال بعضهم: لَمَّا قَالَ: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(١) أورث الاصطناع والاصطفائية،

(١) أي ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق (لنفسه) أي لتفعل

وكنتم مصطفًى على الخلق لا بسابقة سبقت لك إليّ، بل بسابقة مني إليك.

وأيضاً: كن من العارفين بمشكورك، فإن المعرفة بالمشكور هو الشكر لا غير.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة، قال: لا تكن من

الشاكين ولا ممن يشكو، يعني: أن منعتك عن سؤالك، ولم أعطك مطلوبك، لا تشتكي إذا انصرفت، وأنشد في معناه:

إن أعرضوا فهم الذين تعطفواكم قد وقوا فأصبر لهم إن خلفوا

ثم إن الله ذكر زيادة نعمه عليه بأن عرفه مواضع حقائق علومه الغيبية وأسراره

العجبية، وأنبأته الغريبة الأزلية بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ إشارة عجيبة، أي: كتبنا أسرارنا له لأنه أهلها، عارف بها

وغيره مقلده؛ لأن أسرار الخطاب إشارات الأزلية إلى حكم الأبدية ولا يعرفها إلا من كان

مصطفى ومصطنعاً لها؛ ولذلك قال: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ و﴿أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ إشارة إلى ألواح

الصفات والذات، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ التي خصصناه بها في علومنا الأزلية في الأزل.

وأيضاً: أي كتبنا في ألواح أنوار قلبه من نقوش حروف أسرار الوجدانية، ومن كل

شيء إشارة إلى علوم الذات والصفات والأفعال؛ لأنه تعالى شيء الأشياء، أي: علمناه علم ما

كان وما سيكون من العرش إلى الثرى، موعظة بلسانه للعارفين والعاشقين والمشتاقين الذين يتعرفون طرق وصالنا.

﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مبين غوامض بطون الأشياء، ومفسر إشارات

السرمدية الأزلية، فلما أعظم أقدار كلامه في قلبه وعينه، وعرفها مكان شكره فيه أمره أن

يقبل إليه به لا بنفسه؛ ليعرف به لا بنفسه، ويعمل به لا بنفسه بقوله: ﴿فَحْذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي:

هذه أثقال الربوبية ومرجى أمر الأزلية.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ من قواي حين تفرّ من نفسك ومن غيري إليّ بالاستعانة بي، واقتباسك قوة ونصرة مني، فخذها بتلك القوة الإلهية لا بقوة نفسك، فإن قوة نفسك حدثية، ولا تحمل أُنْقَالَ الربوبية إلا بقوة الإلهية، فإذا صرت مطيتها وحملت تلك الأمانة من قومك. ﴿يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأسهلها عليهم من الأوامر والنواهي؛ لأن حقائقها لا تليق إلا بك وبمثلك.

وأيضاً: يأخذوا بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية ويأخذون متشابهها، التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها؛ لأن علومها وحقائقها لا تنكشف إلا للربانيين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال بعضهم في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سر الله عند عباده ولأهل خصوصيته لا يحمله منهم إلا الأقوياء بأبدانهم وقلوبهم، ألا ترى الله يقول لكليمه ﷺ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ والقوة هو الثقة بالله والاعتماد على الله؛ ولذلك قال بعضهم: عطاياه لا يحمل إلا مطاياه.

وقيل في قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذها بي ولا تأخذها بنفسك، فالقوي مَنْ لا حول له ولا قوة، ويكون حوله وقوته بالقوي.

قال الأستاذ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فرق بين ما أمر به موسى ﷺ من الأخذ، وبين ما أمر أن يأمر به قومه من الأخذ، أخذ موسى ﷺ أخذاً من الحق على وجه تحقيق الزلفة وتأکید الوصلة، وأخذهم أخذ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما بينهما.

ثم إن الله سبحانه ذكر أن عرائس خطابه ولطائف كلامه لا تتكشف لمن رأى قيمة نفسه في جنات الأزلية وميادين الربوبية بقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما منع المدعين المعجبين بشأنهم ومزخرفاتهم بمجازاتهم كلام الدعاوي الباطلة.

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عن إدراك حقائق خطابي، وفهم لطائف معاني كلامهم؛ لأنهم منكرو كرامات أوليائي وآيات أصفياي، بوصفه حالهم في تضاعيف الآيات بقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ثم زاد مباحثهم من باب التوفيق ووجدان رشد الطريق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾

لو تبين ألف طريق من طرق الأولياء إلى الله لا يتبعوها لحرماتهم عن مصادقة الحق، وإن ظهر لهم طريق الدعاوي في متابعة الشهوات، اتبعوه وجعلوه سبيل الحق، لأن سجيبتهم سجية الضلال، والمتكبر لو عرف التكبر الذي هو كبرياء القدم ما تكبر فإن جميع تكبر الحدثنان من جهلهم بكبرياء الحق، وفي كل موضع تبدو سطوات كبريائه، يتلاشى فيها كل شيء، وكل تكبر غير تكبر الله تعالى باطل، إلا مَنْ تكبر بكبريائه حين اتصف بكبريائه، وذلك من لباس الله إياه نور عظمتة وهيئته وكبريائه، فينطق بالحق ويفعل بالحق، ويظهر منه الحق بوصف الكبرياء، علامته أن يخضع له كل شيء سوى الله، وهذا معنى قوله ﷻ: «من خضع لله خضع له كل شيء»^(١).

قال بعضهم: التكبر تكبران: تكبر بحق، وتكبر بغير حق؛ فالتكبر بالحق تكبر الفقراء على الأغنياء استغناه بالله مما في أيديهم، والتكبر بغير حق تكبر الأغنياء على الفقراء ازدراء لما هم فيه من فقرهم.

قال الواسطي: التكبر بالحق هو التكبر على الأغنياء والفسقة وعلى الكفار وأهل البدع؛ لأنه روي في الأثر: «القوا أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»^(٢).

وقال سهل في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: هو أن يجرمهم فهم القرآن والافتداء بالرسول ﷺ.

قال ابن عطاء: سأمع قلوبهم وأسرارهم وأرواحهم عن الجولان في ملكوت القدس.

وقال ذو النون: أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عِجْلًا جَسَدًا آلَهُ خُورًا ذَرْوًا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عِجْلًا جَسَدًا آلَهُ خُورًا﴾ كان

(١) رواه القضاعي في الشهاب (١/ ٢٦٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٥٦).

القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالباً يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلما هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثنان على صورة المخايل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحته عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك هم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحاناً للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى عليه السلام، وكذا حال من لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقي في رعونة العشق حتى يؤول حاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقي في رؤية غير الله، والمشارك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم.

وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط.

ويقال: إن أقواماً رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ وصل إلى كليم الله المضرب قهر ﴿لَن تَرٰنِي﴾، ورجع غضباناً منه عليه، من غلبة انبساطه وشربه كأس سم أفاعي الفراق، أسفاً مما فات من وصول الوصول، ورجع إلى قومه مع شريعة العبودية في تلك الحالة، ورأى عبدة العجل صار كأسود الجياح مع قومه وأخيه، فإن الكليم رجع من باب الأزل الذي كان الحدثنان هناك بأسرها أقل من ذرة، فرأى دناءة هم القوم حين اختاروا مصنوعهم بالإلهية، وأين العقل والفهم والعلم والإنسانية هناك؟

والعقل لا يقبل من وصفه التغير والأصوات والخوار، والمشابهة، والجسدية والمائلة بالإلهية المنزهة عن المتشابه بأشكال الحدثنان.

ألا ترى أن الله ﷻ وصف العجل بالعرض والجوهر حيث قال: ﴿عَجَلًا حَسَدًا لَهُ خُورَانٌ﴾ ووصفه بأنه لا يكلمهم من عجزة عن إبداع الكلام، ولا يهديهم إلى سبيل نجاتهم من قهر ربوبية الأزل، وليس مَنْ يقدر بالكلام فهو إله إرادته، لا يكلمهم مثل كلام الأزلي الذي يكلمهم الله الذي من وصفه أنه صفة الأزل المنزه عن الخوار والأصوات والهمهمة والأنفاس والحروف والقياس.

قيل: ﴿أَسِفًا﴾ على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة مَنْ لا أوزان لهم، فرده من شوقه إلى مشاهدته؛ لثلا يقطعه، وحال شوقه ومن بقية سكره وغضبه من فوت مكالمة الحق، وأسفه على فوت مشاهدته.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ إن الله سبحانه علم شوق موسى ﷺ إلى جماله وعشقه بوجهه فأراه كل وقت ما أغاره عليه؛ لزيادة حرقه، وهيجانه أغضبه؛ لأن الله أحب غضب كلمه، وهكذا عادة الأحباب فأبرز من أول اللوح نعوت نبينا ﷺ فلما رأى بينه وبين حبيبهِ مَنْ أقرب منه إليه غضب من غيرة العشق، وهكذا شأن العاشقين.

وأيضاً: ذكر أيام الوصال وطيب المناجاة بغير واسطة الألواح، فإلجاء فوت تلك المقامات إلى كسر الألواح فالقَى الألواح؛ لأنها عارضة بينه وبين خطاب محبوبه صرفاً بلا واسطة، وجرَّ أخيه إليه؛ لأنه رآه في مقام الشريعة مشغولاً عن تلك المواقف القدسية التي خرج منها.

قال أبو سعيد القرشي: مَنْ تحرك غيرة للحق فإن الحق يحفظ عليه حدوده لثلا تخرجه الحركة إلى شيء مذموم كموسى ﷺ لما ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره، لما رأى قومه يعبدون العجل، فلم يعاتبه الله على ذلك، ولو باشر أحد من الكسر والأخذ ما باشر موسى ﷺ كان ملوماً، ولكن حركة موسى ﷺ كانت ملاحظ لموسى ﷺ فيه، بل قام غيرة الله وانتقاله، فلم يزد بذلك من الله إلا قرباً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزَمَانِهِمْ يَرْجُونَ ﴿١٢٣﴾ وَأَخْتَارَ مُوسَى سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا

وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَآكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَمُحَلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٨﴾ قُلْ يَتَّيْهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ لما أخطأوا طريق طلب الحق واقتدوا بمن لا يعرف الله أبقاهم الله في شره شرب حب العجل، وصاروا بين الموحدين والعارفين أذلاء، وكذا حال كل مخطئ في الطريق ومبطل في الاقتداء، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الذين يدعون ما لم يجدوا من المقامات والأحوال، لكن من فضله ورحمته عرفهم موقع الخطأ حين قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على تقصيرهم رؤية الحقيقة.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن طريق المعرفة، ﴿قَالُوا لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ بأن تقبلنا بشركنا في التوحيد حتى نجدك بدرجة الشهادة، ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ بأن تخرجنا من رؤية غيرك إليك، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين فارقوا حظ مشاهدتك بغيرك.

قال أبو عثمان: مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَنْتَظِرِ الرَّاحَةَ وَالزَّلْفَةَ وَالْقَبُولَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَلْيَنْتَظِرِ الذِّلَّ وَالسُّخْطَ وَالبَغْضَةَ مَعَ غَضَبِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ﴾ الآية.

قال الحسين بن الفضل: لا ترى مبتدعاً إلا ذليلاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ اختار موسى ﷺ من شربه في الولاية شربه في النبوة من أولياء أمته، ألا ترى قولهم لما سمعوا خطاب الحق بلا

واسطة واستلذّوه، وسكروا بطيب الخطاب كيف قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكيف أحرقتهم الصعقة؛ لأنهم ضعفاء في الحقائق، اختار منهم سبعين؛ لأن في كل أمة سبعين من البلاء والأولياء والنجباء، وكذا في أمة محمد ﷺ.

قال بعضهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى﴾ على عدد الأولياء في الأمم السالفة وفي أمته، وهم السبعون الذين إليهم يفرغ الخلق وبهم يحفظون، ثم لما وصل إلى القوم ما وصل إلى موسى ﷺ صعقوا وفنوا تحت الصعقة؛ لضعف قلوبهم عمّن حمل سطوات العظمة، اشتد على كلهم الله وهاج سره بالانبساط لقوله: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أهلكتهم بنظرهم إلى العجل بين بني إسرائيل وإياي في صعقتي.

﴿أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ تؤاخذنا بتقصير عبدة العجل، وهذا عادة الملوك إذا جنوا أخذوا أعيانهم، ويمكن أن قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ إشارة إلى الغائبين في سكرهم بلذّة خطاب الحق حين سمعوه وقالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهم ضعفاء الحالات، أي: تهلكتنا بقول السكارى.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أطلق لسان الانبساط، وخرج من سجف الاحتشام من بقايا خمار تلك الشربات في وقت التجلي، أي: ما هي الصعقة إلا امتحانك لعشاقك من عشقك لهم في الأزل، وهذا من صنيعك بمحبتك ألا ترفع محبك عن المشتاقين إليك.

إِلَى مَتَى تَحْتَجِبُ مِنَّا أَمَّا أَنْ لِلْهَجْرَانِ أَنْ يَنْصَرِمَا
وَالْفَصْنُ غُصْنُ الْبَابِ أَنْ يَتَبَسَّمَا وَالْعَاشِقُ الصَّبُّ الَّذِي ذَابَ وَانْحَنَى
وفي هذا المعنى أنشد حسين بن منصور حين أرادوا قتله كان يتبختر ويقول:

نَدِيمِي غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى شَيْءٍ مِّنَ الْحَيَافِ
سَقَانِي مِثْلَ مَا شَرَبَ فَعَلَ الضَّيْفُ بِالضَّيْفِ
فَلَمَّا دَارَتْ الْكَأْسُ دَعَا بِالنَّطْعِ وَالسَّيْفِ
كَذَا مَنْ يَشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ الثَّنِينَ فِي الصَّيْفِ

فلما سكن موسى من حدة الانبساط رجع إلى مقام التوحيد وقطع الأسباب في العبودية وقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: تضل وتوجب بامتحانك واختيارك، ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ مشاهدتك، ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ إلى وصالك، فمنا من بقي في الصعقة عن المشاهدة، ومنا من وصل بك إليك في الصعقة، وذلك فرق بين مراتب النبوة والولاية، ثم نظر إلى كلاته

أنبيائه وأوليائه في مقام امتحانه فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أنت حافظنا منك فيك ﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾ جنابة انبساطنا في مقام رؤية هيبتك ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ بكشف مشاهدتك لنا بلا امتحان ولا واسطة الخيل، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِيرِينَ﴾ لأنك قديم ومغفرتك صفتك شاملة على جميع الجنايات منزّهة عن خلل الحدثان.

﴿وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اجعل نصيباً منك في الدنيا مشاهدتك، ومعرفتك بالعافية عن قهرك وامتحانك، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بغير واسطة الجنة وما فيها، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ رجعنا منا إليك، وفررنا منك إليك.
قال ابن عطاء: أقبلنا بالكلية عليك.

ويقال: إن موسى ﷺ جاهر الحق بنعت التحقيق وفارق الحشمة، فقال صريحاً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾^(١)، ثم وكل الحكم إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، ثم عقبه ببيان التضرع فقال: ﴿فَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا﴾.

قال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا﴾ ملنا إلى دينك وصرنا لك بالكلية من غير أن نترك لأنفسنا بقية، فلما سأل موسى ﷺ وقاية الحق من الحق لثلا تدخل في مربع الأنس واللطف زحمة القهر واستوفى منه حظ مشاهدته بلا كدورة الحجاب، فراراً من قهره إلى لطفه ومنه إليه إجابة الحق، أن لطف القديم مع قهر القديم بظهور فوقية قهر القدم على الحدث، وإدخال إعتاق الخليفة تحت إقدام الهيبة بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِمَنْ أَشَاءُ﴾ أي: عذاب فراقي وامتناعي من مطالعة أرواح القلوب على نعت السرمدية، وأوصل إلى من شاء من العارفين والمحبين، تربية وامتحاناً لهم في العبودية، وصل عذابه بالمشيئة، وهو موضع رجاء وخوف لأهل الإيثار، ثم عمّ الكل برحمته الواسعة الأزلية الشاملة على كل ذرة بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ جميع الخلائق مستغرقون في بحار رحمته؛ لأن إيجاد الحق إياهم على أي وصف كانوا عين رحمته، حيث جعلوا تحت نظره وسلطانهم وربوبيته ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة، فالجمادات مستغرقة في نور فعله وهي الرحمة الفعلية

(١) أي: محتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يثبتوا فطمعوا في الرؤية.

يقول الفقير: هذا يدل على أنهم سمعوا كلامه تعالى على وجه الامتحان والابتلاء لا على وجه التكرمة والإجلال وذلك لا يقدح في كون موسى ﷺ مصطفى بالرسالة والكلام مع أنه فرق كثير بين سماعهم وسماحه ﷺ والله أعلم. تفسير حقي (٤/ ٢٨٧).

والحيوانات مستغرقة في نور صفته، وهي الرحمة الصفاتية والعقلاء من الجن والأنس والملائكة مستغرقون في فوز ذاته وهي الرحمة الذاتية القديمة من جهة تعريفهم وربوبيته ووحدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجري عليها في الرحمة الخاصة وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا فطاشوا، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم وفني عن الرحمة فصار رحمته للعالمين، وهذا وصف نبينا محمد ﷺ، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ثم خصَّ رحمة الخاص الصفاتية بعد أن عمَّ الكل برحمته العامة للمتفردين بالله عن غير الله، الفائين بعظمته في عظمتهم، الذين بدلوا وجودهم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يتقون في محبة مشاهدته عن كل مألوف ومحظوظ دونه، ويؤتون الزكاة، يتقربون إليه بذبح نفوسهم لديه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يشاهدون مشاهدًا في رؤية آياتنا.

قال الواسطي في قوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ﴾ ذلك في نفس العارف ما عرفه أحد إلا تكدر عيشه، وأرباب الحقائق ألا يعذبون في الدنيا إلا بتواتر نعم الله عليهم والتقرب، حتى يرد عليه ما منه بغيب من الصفات والنعوت، فيرتفع عنه سوء الأدب في السير.

وقال الكتاني رحمه الله: تسمع كل شيء، لكن خصَّ بها الأنقياء، قال الله: ﴿فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وقال أبو عثمان: لا أعلم في القرآن أنه يقنط من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والناس يرونها أرجى آية، وذلك أن الله يقول: ﴿فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومن يمكنه بصحيح التقوى فتكون بشرط الآية.

وقال بعضهم: وصف العذاب بصفة الخصوص مقرونًا بالمشيئة، وعمَّ الرحمة أنها تسع كل شيء، ثم وصف الله هؤلاء المتقين بالأسوة والقُدوة والافتداء في تقواهم بالنبي ﷺ بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

وصف الله نبيه ﷺ بالأمية، كان ﷺ أميًا بأنه كان قبل الكون في بحر الوصلة ومهد القرية، شرب ألبان النبوة والرسالة والاصطفائية من ثدي مرضعة خاصة الأزل، كان أميًا

كالولد العزيز في جِجْر أمه لا يجري عليه ما يؤذيه، كان في جِجْر الأزل ربه الله بلطفه وغذاء مشاهدته، وصيِّره مقدسًا في وقاية كرمه عن المكر والقهر.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «اللهم واقية الواقية»^(١).

الولد وصفه، تقدس رسالته، ولطف نبوته عن جميع علّة الاكتشاف، تلقف من فلق شرف العناية كلمات الأزلية بلا واسطة الحدث، لا يلتفت إلى علم المكتسب من الحدثان لاستغراقه في بحار علوم الرحمن.

قال ابن عطاء: الأمي هو الأعجمي، قال: يكون أعجميًا عمًا دوننا، عالمًا بنا وبنا نزل عليه من كلامنا وحقائقنا.

وقال: الأمي مَنْ لَمْ يَعْلَمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا، ولا من الآخرة إلا ما علمه ربه، حالته مع الله حالة واحدة وهي الطهارة بالافتقار إليه، والاستغفار عمًا سواه، وزاد الله في وصفه ﷺ في وضع أثقال الشرك والضلال وأغلال المخالفات عنهم في متابعتهم والافتداء بسنته بقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

كان القوم بقوا في أسر المجاهدات بلا مشاهدات، وأغلال الرياضات بلا مكاشفات، فلمّا تبعوه خرجوا من حدّ الجهالة بطريق المعرفة واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة، فوجدوا بدائع ألطف الغيبة بنعت الجذب والمواجيد البديهة، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحلّ عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسية، وأيضًا لما رآهم ﷺ تحت قهر البعد وأغلال فقدان المعروف، حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المسرورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا ومشاهدة المولى؛ فأجابوا بنعت الافتداء؛ فترفعوا من علّة البدعة بروح السنة.

قال جعفر ﷺ: يضع عنهم أثقال الشرك وذلل المخالفات وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمن ثقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه المعرفة، واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة؛ فوجدوا بدائع ألطف الغيبة بنعت الجذب والمواجيد البديهة، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحلّ عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسانية.

وأيضًا لما رآهم ﷺ تحت قهر البعد، وأغلال فقدان المعروف حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المأسورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة،

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/٣٣٩)، بنحوه.

ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا، ومشاهدة المولى فأجابوا بنعت الاقتداء فترفهوا من علة البدعة بروح السنة.

قال جعفر عليه السلام: يضع عنهم أثقال الشرك، وذل المخالفات، وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمن ثقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه كل إصر، وكُفِّي كل وزر وأمر، والأغلال التي كانت عليهم ما ابتدعوه من قبل أنفسهم باختيارهم في التزام طاعات الله، لم يفرض عليهم.

ثم وصف هؤلاء بالإيمان والإيقان، وإعانة رسوله ونصرته عليه السلام ومتابعة القرآن بقوله:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي: شاهدوا مقامات النبوة بنعت الولاية، وبذلوا مهجتهم في نصرته على أعداء الله، وسلكوا بنور القرآن طريق العرفان.

ثم وصفهم بالفوز والنجاة من أيدي الشياطين، وهواجس النفوس بنور القرآن والسنة، وظفروا بمشاهدة الحق وحلاوة محبته.

قيل: اتَّبَعُوا سُنَّتَهُ؛ ليوصلهم اتباع السنن إلى مبادئ الأحوال السنية.

قال بعضهم: صدَّقُوا ما جاء به، وبذلوا المَهْج بين يديه، ثم أمر نبيّه عليه السلام بإظهار ما أعطاه الله من رفيع درجاته، وسني معجزاته، ولطيف كراماته لمن له استعداد الإنسانية، وقبول الحق للعقل حجة للعالمين، وانفتاح أبصار الصديقين بأنوار جماله وسنا جلاله، بقوله: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مخبركم عن شوق الله في وجوه العارفين، وطبيب أمراض الخليفة، ودليلهم إلى طريق الحقيقة، ومنقذ العالمين من البدعة بأنوار الشريعة، وأمره بوصف جلاله وملكه على انتظام السماوات والأرض، وإيجاد الخلق وإفنائهم بالحق، بقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: نفى الأنداد والأضداد من ساحة الكبرياء، ووصفه بإحاطته على ملك السماوات والأرض بالعز والبقاء، وبأنه يُحيي قلوب العارفين بمشاهدته، ويُميت قلوب أعدائه بقهره.

ثم أمره بأن يأمرهم بالإيمان به وبرسوله بنعت معرفته، وشهودهم مشاهدة نبوة نبيّه.

ثم وصف رسوله بالأمية عمًا دونه، وشهوده مشاهدة قدم به لا بنفسه، ورؤية ما أخبر

عن أسرار ذاته وصفاته في كلامه، بقوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يؤمن بالله بنعت الرضا عنه فيما يجري عليه من قضائه وقدره، ووصف حضور قلبه بنعت الكشف بين يديه، ويوقن ما أخبر له من أسرار الآزال والآباد.

فلما كمل في ثنائه، ووصفه بأحسن الوصف، أمر الجمهور بمتابعتة؛ ليجدوا بنوره مناهج معرفته، بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: جعل متابعة نبيه مفاتيح فواتح خزائن كنوز معارف ذاته وصفاته، أي: اتبعوه بنعت المحبة، ووصف الاقتداء بالسنة بغير المخالفة، لعلكم ترشدون مشاهد أنوار الذات في الصفات، ومساقط تجلي الصفات في الأفعال، وهذا وصف من تجانس له فطرة الولاية، فطرة النبوة والرسالة.

فإذا وصل نور الرسالة إلى نور الولاية، ظهرت طرق المعرفة لأهل الخالصة من المشاهدة ليس علة المعرفة المتابعة، ولكن علة المتابعة المعرفة؛ لأن منها ينشعب جميع المعاملات السيئة، والحالات الشريفة، فالمتابعة تكليف، والمعرفة تشريف، التكليف للأشباح، والتشريف للأرواح.

قال الحسين بن منصور: إن الحق أورد تكليفه على ضربين: تكليفاً عن وسائط، وتكليفاً بحقائق، فتكليف الحقيقة بدت معارفه منه، وعادت إليه، وتكليف الوسائط بدت معارفه عما دونه، فلم يصل إليه، فتناهى من معارفهم إلى نهايات معرفة أهل الوسائط، ولم يتناه معارف من أحد معارفه عن شهود الحق، كل ذلك رقفاً من الحق بالخلق؛ لعلمه بأنه لا يوصل إليه إلا بما منه.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٣) وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقِنَهُ قَوْمُهُ أَبِ أَنْضَرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرِّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٤) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٥) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦) وَسَأَلْنَاهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٧) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨) فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: وصف الله قوماً من أمة كلمه ﷺ، الذين وصل إليهم ما من الله على موسى بكشف الأنوار لأرواحهم، وفتح آذان قلوبهم لسماع خطابه، هم وجدوا الله بالله، واتصفا بصفاته، فأخبر الحق عن اتصافهم بصفاته، حيث قال: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: والهداية صفته، أي: يهدون بنور الله عباد الله إلى الله لا بهم، وهم على الحق لا بصورة العماء والغلط والظنون والخطوط، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدله وياتصافهم بعده، يعدلون بين الحق للحق، لا لأنفسهم يتصفون بالله لله، لا يخافون لومة لائم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

قيل: يدلون الخلق على طريق الحق، وإياه يسلكون، ثم وصف الله قوم موسى بأنهم على اثني عشر طريقاً من طرق المعارف، بقوله: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾^(١).

وجعل ضرب موسى الحجر مثلاً لانفتاح قلوبهم مشارب الألوهية، بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِئْهُمْ عَنْ قِصَّةِ الْغُرَفِ﴾: ضرب يد الأحدية بعصا العناية صفوان الأزل، فظهر من عيون القدم، وبحار الأولوية لأرواح الموحددين، وقلوب العارفين، وعقول العاشقين، وأسرار الشائقين، وهمم المحبين، وأفئدة الموقنين، وخواطر المكاشفين، وصدور المشاهدين، وعلوم السالكين، وثبات الصادقين، ومزار نور الراضين، ووجود المريدين ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: من عيون الصفات الخاصة لعرفان أهل العيان.

منها: عين القدم، وهي مشرب أرواح الموحددين.

ومنها: عين البقاء، وهي مورد قلوب العارفين.

(١) قال ابن عجيبة: (أسباطاً): بدل لا تمييز؛ لأن تمييز العدد يكون مفرداً، والتمييز محذوف، أي: فرقة أسباطاً. وقال الزرخشري: يصح تمييزاً؛ لأن كل قبيلة أسباط لا سبط، فكأنه قال: وقطعناهم اثنتي عشر سبطاً سبطاً. والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أئمة): بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثاني بدل من أسباط. يقول الحق جل جلاله: (وقطعناهم) أي: بني إسرائيل. فرقناهم (اثنتي عشر أسباطاً)؛ اثني عشر سبطاً، (أئمة): متميزة، كل سبط أمة مستقلة. البحر المديد (٢/ ٣٠١).

ومنها: عين الجمال، وهي مورد عقول العاشقين.
ومنها: عين تجلّي الوجه الذي هو صفته الخاصة، وهي مشرب همم المحيّن.
ومنها: عين القدرة، وهي مشرب أفئدة الموقنين.
ومنها: عين العلوم، وهي مشرب خواطر المكاشفين.
ومنها: عين صفة السمع، وهي مشرب صدور المشاهدين.
ومنها: عين صفة البصر، وهي مشرب علوم السالكين.
ومنها: عين الكلام الأزلي، وهي مشرب نيات الصادقين.
ومنها: عين الإرادة القديمة، وهي مشرب من أنوار الراضين.
ومنها: عين الحياة القديمة، وهي مشرب وجود المريدين.
أما انفجار عين القدم لأرواح الموحدين؛ لأن القدم أصل الأصل، وماهية عين الكل.
ومنها: انفتح أنوار التوحيد للموحّدين، والموحّد لم يبلغ إلى درجة حقائق التوحيد إلا
بعد شربه زلال الحقيقة من بحار القدم.

وذلك الشرب يكون للأرواح الطائفة بأجنحة القدم في القدم، وتلك الأرواح لاتبرح
من تلك البحار؛ لأنها تعيش بها أبدًا، ولا ترجع منها إلى غيرها من الصفات إلا ما شاء الله.
وأما انفتاح عين البقاء لقلوب العارفين؛ لأنها مصارف جميع الصفات، وهي أصل
ثاني.

ومنها: تنبت كشوف الصفات، وشهود أنوار الذات.
والعارف لا يبلغ إلى درجة المعرفة، إلّا بعد أن يشرب منها شراب وصال البقاء بنعت
السكر والصحو، ومن زاد سكره للبقاء زاد صحوه؛ لأن البقاء يوجب التمكين، وهم لا
يلفتون من ذلك المقام إلى مقام آخر؛ لأنّ قلوبهم استغرقت في ذلك البحر.
وبحر البقاء باقٍ لها، ليس له ساحل، وهي لزيادة العطش.
وأما انبجاس عين الجمال لعقول العاشقين؛ لأن الجمال يوجب العشق للعاشقين، ولا
يكون العاشق عاشقًا إلا بعد رؤيته جمال الحقّ سبحانه، وتلك العقول هائمة في ذلك لا
تسكن عنها أبدًا، ولا ترجع إلى مقام آخر من استلذاذها حلاوة الجمال.
وأما انفتاح عين تجلّي الوجه لأسرار الشائقين؛ لأنها سبب سكر العشاق، سكرت تلك
الأسرار برؤية تلك الأنوار، وهي هائمة أبدًا، لا يرجع منها إلى غيرها من المقامات
والحالات؛ لأنّ الشوق ألدّ الأحوال، ولا يبلغ الشائق إلى درجة الشوق إلا بعد كشف تجلّي
الوجه له.

وأما انفتاح عين الجلال لهمم المحيّن؛ لأن الجلال مشرب تلك الهمم بوقعها إلى

البحرين بحر الهيبة، وبحر الإجلال، والإجلال يورث لها الخوف، والهيبة تورث لها الحياء وهما أخص صفات المحبين، وصفة الجلال شاملة لصفة الجمال، والجمال يظهرها في الجلال؛ لذلك استروحت تلك الهمم في أوقات عن برحاء الجلال، وكلُّ محبٍّ لم يبلغ مشاهدة الجلال لم يبلغ إلى درجة المحبة بالكمال.

وتلك اهمة تنصرف بذاتها عن ذلك المقام تارة إلى محلّ الجمال؛ لاقتباس نور الشوق والعشق؛ لأن الجلال والجمال مصدرهما عين واحد، وإن كان تأثيرهما في التجلي والمباشرة مختلفاً.

وأما افتتاح عين القدرة لأفئدة الموقنين، وهي بكشفها تزيد أنوار الإيقان للموقنين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ومشربها تجري على سوابق الآيات، والأفعال في حدود الالتباس، ونحلت نفس الصفة صرفاً بغير رؤية الآيات إذا كان صرفاً، فهي توجب العرفان، وإذا لم تكن صرفاً توجب الإيقان، وكيف يكون الموقن موقناً، ولم يشرب فؤاده من هذين السقين، وأفئدة الموقنين هامت من سكرها من شرب سلسيل عين القدرة، ولا يرجع منها إلا بعد الاستيفاء منها إلى أعلى المقامات من شهود العين، ورؤية جميع الصفات، فهي على نعت الترقّي؛ لأن تأثير القدرة في الأشياء على نعوت التغاير، وإن كانت عينها مقدسة من علة التلوين.

وأما افتتاح عين العلوم الأزلية للندنية لخواطر المكاشفين، وذلك أن عرائس الغيوب بلباس المعلوم تنكشف لخواطر المكاشفين، وهي تورث لعيونها مشاهدة الصفات والذات، وتورث من فوائد وجدان نصارتها وبهجة سناها علوم المعارف الإلهية، كلُّ كشفٍ بغير علم لا يكون على حد الكمال والعلم إلا تفارق الكشف؛ لأن الكشف محلّ الخطاب، والخطاب يوجب العلم، لكن ربما تلوح بوادي الكشف لضعفاء الطريق بالبدية، ولا يفهمون عنها أنباء العجيبة الإلهية.

وكلُّ خاطرٍ لم يشرف على هذين المنزلين، فهو ناقص عن محلّ الربانيّة، وتلك الخواطر معادنها علوم الأزلية، مستلذة دقائق العلوم من حيث حلاوة الكشف، وحلاوة الخطاب.

وأما افتتاح عين السمع لصدور المشاهدين يوجب لها أسماع الإلهية التي تسمع لها أصوات جريان أقلام القضاء والقدر من العرش إلى الثرى، وتسمع من الحق بسمع الحق ما يقول الحق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَلْقَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وتلك الصدور حاضرة الغيب، لا تحس لهواجس النفوس، واصطكاك غيوم ظلام

الشياطين.

ومَن لم يبلغ إلى وجدان تلك الصفة في صدوره، لم يكن من السامعين أصوات جرس الوصلة.

وأما انفتاح عين البصر لعلوم السالكين، وذلك أن أنوارها تُبَيِّنُ لعلومهم طرائق الغيب، وأحكام المتشابهات، ومغيبات الحكم، ومَن لم يبلغ إلى ذلك المقام، ولم يشرب من شربه لم يكن من المتفرسين في القلوب، ولم يكن من المشاهدين في الغيوب.

وأما انفتاح عين الكلام الأزلي لنيات الصادقين، وذلك المشرب مخبر مشارب جميع الصفات؛ لأنه من كل صفة فراج، فكل صادق يتكلم الحق معه بكلام القديم، يصير بنوره مطلقاً على جميع الصفات، عالماً بأسائها ونعوتها، مشاهداً للذات مع جميع الصفات وتكون نيته معلقة بجريان خطاب الأزل، يجري بجريانه حيث يجري، ويدور حيث يدور، ولذلك هي محفوظة من خطرات الشك والريب، مرقومة بنور الإخلاص، ومَن لم يذوق طعم ذلك المشرب ليس بصادق في المعرفة؛ لأنه لم يكن معه مفاتيح كنوز الذات والصفات من الكلام.

وأما انفتاح عين الإرادة القديمة لمراد نور الراضين، وذلك أن الرضا بالإرادة يكون من نور الإرادة، مُزِيلاً كل إرادة غير إرادة الله، فإذا زالت الإرادات عن قرار نور أهل الرضا بقيت إرادة الله فيه، فتكسبه سناها حتى تصير إرادة الراضي إرادة الحق، فإذا كانت الإرادة إرادة فردة، ولم يبق غيرها، أورثت له حُسن الرضا، وذلك الرضا من رضوان الله، فصارا متصفيين، يورثان من معدن الأصل الرضا للراضي، فحيثُ إرادة الله، ورضي برضا الله، قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وكل ذلك جرى له في سابق الحكم والعلم، فباشر حين وقع تجلّيه على قلب الراضي بغير علة اكتسابه، ولا بحوله وقوته.

وأما انفتاح عين الحياة الأزلية لوجود المریدين، وذلك أن المرید ميّت عن حياتها لمعرفة، فيحييه الله بشربات ماء حياته، فلا يموت بعد ذلك أبداً.

قيل: العرفاء لا يموتون، فإذا شرب المرید من عين حياة الأزلية يستقيم بها في رؤية جميع الصفات؛ لأن الحياة أصل جميع الصفات، وجميع الصفات كأنه قائمة بها، ومن لم يشرب من ذلك المشرب شربة الحياة لم يقدر أن يسبح بهميته في بحار الملكوت والجبروت، ولم يرَ جواهر الصفات، ولآلى الحكم والعلم في بحر البقاء والأزل، وهؤلاء الطيارين في هواء الهويب، والسيّارين على مراكب الجود في ميادين الأحذية طيراناً وسيراً بقوة الشرب من مشارب الغيب، والترقي في المقامات والدرجات إلى أعلى معالي درجاتهم من القرب

والوصال.

وكل طائفة منهم عرفوا مشاربهم، قال الله تعالى في تمام الآية: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

لكل واحد منهم أعلام طريقة إلى الله من سلب المواجيد، وحركات الجذب، وظهور الصفة، وإلقاء السمع، واستماع الخطاب، ويعرف متهاه، ويعلم مقصده، وزيادة طلبه من قرب الحق ووصاله.

حكى عن الرضا عن أبيه، عن جعفر بن محمد في هذه الآية قال: ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ من المعرفة: ﴿أَنْتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ يشرب كل أهل مرتبة في مقام من عين من تلك العيون، على قدرها^(١)، «أول عين» منها: عين التوحيد.

و«الثانية»: عين العبودية، والسرور بها.

و«الثالثة»: عين الإخلاص.

و«الرابعة»: عين الصدق.

و«الخامسة»: عين التواضع.

و«السادسة»: عين الرضا، والتفويض.

و«السابعة»: عين السكينة، والوقار.

و«الثامنة»: عين السخاء، والثقة بالله.

و«التاسعة»: عين اليقين.

و«العاشرة»: عين الفعل.

و«الحادية عشرة»: عين المحبة.

و«الثانية عشرة»: عين الأنس والخلوة، وهي عين المعرفة بنفسها.

ومنها تنفجر هذه العيون، من شرب من عين منها يجد طلاوتها، ويطمع في العين التي هي أرفع منها، من عين إلى عين حتى يصل إلى الأصل، فإذا وصل إلى الأصل تحقق بالحق.

وقال بعضهم في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ﴾: ظهر لكل سالك سلوكه، وآثار برهانه، وبركات سعيه، وأنوار حقائقه.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

(١) قال الحدادي: الانبجاس خروج الماء قليلا والانفجار خروجه واسعا وإنما قال فانبجست لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً يتسع فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار.

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ
الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وإن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا
الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: تتابع الاستتار
والتجلى في أقل لحظة، أحدهما يتابع الآخر لبدا قهر القديم، ولطف القديم، وخفائها من
معدن الأصل توجبان القبض والبسط، والكشف والحجاب.

قال بعضهم: ما كان في القرآن من قوله: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: فإنها عقوبة الحجاب
عنه.

قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ
ذَلِكَ﴾: فوق الأولياء والأعداء في الأرض؛ ليعيش كل طائفة بما خلق لها من الطاعة
والمعصية. ﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾: خلفاء الأنبياء.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: المستبدّين بآرائهم غير مقتدين بالأولياء والصدّيقين.
﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾: جعلناهم جميعًا في درك الامتحان؛ لأن المولى
مقهور القهر، ومعطوف اللطف، فقهره يورث المعصية والحجاب، ولطفه يورث الطاعة
والكشف، ففي العقوبة مطالبون بالصبر، وفي النعمة مطالبون بالشكر، فالصبر منهم محال
إلا بمعرفة الله، والشكر منهم محال إلا بكشف جمال الله لهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: من البلاء إلى مُبْلِيهِم.

قيل: اختبرناهم بالنعم طلبًا للشكر، واختبرناهم بالمحن طلبًا للصبر، فأبى الجميع،
فلا هم عند النعم شاكرون، ولا هم عن المحن صابرون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: لما
ادّعوا قرب الله، والانبساط بين يديه، وأنه تعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا فضحهم الله بإظهاره

كذبهم بها قالوا على الله ما لم يعرفوا منه.

وكذا حال المدَّعين إلى يوم القيامة، وثق الحق سبحانه في كلامه على الصديقين، ألا يقولوا على الله إلا ما وصف به نفسه من التنزيه والتقديس من أوصاف الحدثان، وأن من العرش إلى الشرى تجري على مقاديره السابقة، ومشيتته القديمة.

قيل: ألم يبين لهم على لسان الوسائط، وفي الكتب المنزلة ألا يصفوا الحق إلا بنفاذ المشيئة وعلو القدرة، ثم بين سبحانه أنهم علموا بميثاق الله في كتاب الله، وتركوا ما ندبوا إليه من سني المعاملات، ورفيع المقامات، بقوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾^(١): درسوا، وما عرفوا حقائقه، ولو ذاقوا طعم الخطاب تابعوه ببذل المهجة.

قال سهل: تركوا العمل به.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

أخبر سبحانه عن سرِّ تقدير الأزل الذي في نفسه في أول الأول، قبل كل قبل، بلا تغاير الزمان وتواتر الملوان، وذلك إرادة سابقة أزلية ذاتية صفاتية أحدية، تكون بوجود إيجادها بظهور وجوده تعالى له، فتفاضت الإرادة من العلم، والعلم من القدرة، والقدرة من جميع الصفات، والصفات من الذات بغير تفرقة، ولا جمع بل الوجدانية، فأجابت الصفات للذات، والذات للصفات من غير حاجة، ولا وحشة، ولا أنس بالحدثان، بل الموجود أهل العرفان، فمضت أدهار الأزلية بلا زمان ولا مكان، بل قدم في القدم، وأزل في الأزل أخبر عن علم القديم، لا من الوقت ألا ترى قوله: ﴿وَإِذْ﴾، وليس عنده صباح ومساء لما تم أدهار الأولية، التي هي دهر الدهار المنزهة عن المكان والزمان، وتماها وقت إيجاد الأكوان والحدثان، وإبراز أهل العرفان من معدن العيان تجلَّتْ أنوار الذات لأنوار الصفات، وتجلَّتْ

(١) يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان، يعني التعرُّض لنفحات فضله - سبحانه - خبرٌ لمن أُمِّلَ جوده من مقاساة التعب من بَذَلٍ - في تحصيل هواه - بمجهوده، تفسير القشيري (٢/ ٤٦١).

أنوار الصفات لأنوار الذات، ثم تجلّت الذات بجميعها للإرادة والمحبة، ثم تجلّت الإرادة والمحبة لفعل الخاص، ثم تجلّى فعل الخاص لفعل العام، ثم تجلّى الفعل للعدم، وأخرج من مكنن الغيب الأرواح بنعت إيجادها فأجادها برؤية تجلّي الفعل العام، ثم كساها نور فعل الخاص، ثم أحضرها مشارب المحبة والإرادة، فسقاها من عين المحبة شراب العشق، ومن عين الإرادة شراب التوحيد، فاشتاقت من شراب المحبة، وسكرت من هذا العشق، وبهجت إلى معدن الصفة، وطارت بأجنحة التوحيد في أنوار الصفات، ثم طارت بنور الصفات في أنوار الذات، ففנית في القدم برؤية القدم، وبقيت في البقاء برؤية البقاء، فترفرت كل واحدة على مورد من موارد الصفات، وسكنت في العيون الصفات الأرواح، فبعضها في عين العظمة، وبعضها في عين الجلال، وبعضها في عين الجمال، وبعضها في عين الكبرياء، وبعضها في عين القدم، وبعضها في عين البقاء، وبعضها في عين البهاء، وبعضها في عين الحسن، وبعضها في عين القدس، وبعضها في نور الأنس، وبعضها في سناه، وبعضها في نور الأسماء والنعوت، وبعضها في عين الحياة، وبعضها في نور السمع، وبعضها في نور البصر، وبعضها في نور الكلام، وبعضها في نور الوجه، وبعضها في نور القدرة، وبعضها في نور العلم، وبعضها في نور المشيئة والإرادة، وبعضها في صفات الخاصة من الاستواء وغيره من الصفات، وبعضها في نور العطاء، وبعضها في نور اللطف، وبعضها في عين القهر، وكل واحدة منها قويت لسجية موردها، وقوة شربها.

وكل واحدة اشتاقت فيها إلى معدنها؛ لذلك طباعها مختلفة في المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات، فوقعت أهل الألفاف في عيون المعرفة، فبقيت في المعرفة أبداً، ووقعت أهل القهريات في النكرة، فبقيت في النكرة أبداً.

ألا ترى إلى مناهجهما من الكفر والإيمان، فلما أراد سبحانه عبوديتها أخرجها من الغيب إلى صورة البشرية بنعت الامتحان والعبودية، وكساها لباس الصلصالية، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أخرجهم جميعاً بظهور وجوده لهم، فخرجوا جميعاً بنور ظهوره، وتجلّى صفاته وذاته، أخذهم بمباشرة الصفة في الفعل، فوصل بركة أخذه إلى أهل معرفته؛ لأن أخذه لهم أخذ لطف ووصل، وقهر أخذه إلى أهل النكرة؛ لأنهم أهل قهر، فمن خرج بلباس اللطف شاهد الحق مشاهدة عيان، ومن خرج بنعت القهر، شاهد قهر الحق مشاهدة امتناع وحجاب؛ لذلك بعضهم جحدوه، أشهدهم على أنفسهم ليغيبوا عن مشاهدته، ولو أشهدهم مشاهدته ما احتاجوا إلى تعريف الخطاب، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: كانوا في الأول شاهدين، ثم كانوا غائبين، فلما صاروا غائبين عرفهم تلك

الموارد والمشارب في زمان الأول حين خرجوا من العدم بنور القدم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : خطاب تعريف وتذكير معاهد الأولية، وأنشد في معناه:

سَقِيَّا لِعَهْدِكَ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّبَابَةِ مَعْهَدًا
سَقَى اللَّهُ أَيَّامَنَا وَلِيَالِي مَضَتْ فَجَرْتُ مِنْ ذِكْرِهِنَّ دُمُوعُ
فَبَا هَلْ لَهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ أَوْبَةٌ وَهَلْ لِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ رَجُوعُ
سَلَامٌ عَلَى سَلَمِي وَإِنْ شَطَّ دَارُهَا سَلَامٌ عَلَى أَرْضِ قَدِيمٍ بِهَا الْعَهْدُ

في الأول كانوا غائبين عنه، فأدركهم نور محبته، فأولهم قبل ظهورهم في لباس آدم، فلما عرّفهم تلك الجلاوة ذكروا ما وجدوا، وأنشدوا:

أَتَانِي هَوَانًا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ صَبَابًا فَارِعًا فَنَمَكْنَا

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب

العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدايته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العياء والطغيان.

ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بني إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحير أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إياهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ : أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يجتجب المحب عن محبوه، ومحبته محيطه بجميع وجوده:

أَرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلَ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلٍ

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ : ترابًا لأهل الإيمان

بالسكون، فعرفوه، وسكنوا واطمأنوا، وترابًا لأهل الكفر بالتعظيم، فطاشت عقولهم، فتفرقوا عنه.

وقال يوسف: قد أخبر أنه خاطبهم ربهم، وهم غير موجودين إلا بإيجاده لهم إذا كانوا

واجدين الحق من غير وجودهم لأنفسهم، كان الحق بالحق في ذلك موجودًا بالمعنى الذي لا يعلمه غيره، ولا يجده سواه.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا: بلى من غير مشاهدة، ثم كوشفوا،

فشهدوا ما خوطبوا به، قالوا شهدنا أي: شهدنا حقائق حقل.

وقال الحسين: الحق أنطق الذر بالإيمان طوعاً وكرهاً، أنطقهم بركة الأخذ أخذهم عنهم وأنطقهم لا بهم، بل أخذهم عنهم، ثم أشهدهم حقيقة، فأنطقت عنهم القدرة من غير شركة كانت لهم فيه.

قال النصر آبادي: في هذه الآيات موئل الأكبر، وما ألف الأعظم معافون من السلالة والطين، وما بعده من النطف والمضغ، فأنتم في جملة أخذ الأول أو مردودون إلى معتاد الأخذ في السلالات والنطف، فإن أخذ الأول أول بأول الأول، وهو بأول الأول أول.

قال النصر آبادي: أخذ ربك تلطفاً وتكرماً، بل أخذه إجلالاً وعظمة، بل أخذه عز واستغناء.

وقال أيضاً: أخذ لا للحاجة بل للحجة، فمنع الخلق حاجتهم أن يروا ذرة من معاني الحجة.

وقال: أخذ ربك من معدن إلى معدن، ومن معدن لمعدن.

قال الجريري في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) قال: تعرّف إلى كلّ طائفة من الطوائف، وبما منحها من معرفته، فقالت: بلى وكلّ أقرب بما منح، ثم أخرجهم من صلب آدم، فقال الله: ﴿كُنْتُمْ أَغْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

وقال لنبية: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال بعضهم: خاطب منصوب القدرة في عين القدم.

وسئل عبد الرحيم عن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ قال: كانوا موجودين في القدرة، مغيبين في شهود الوجود.

وقال الواسطي في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بلى قال: هو تقرير في صورة السؤال. وقال بعضهم: القدرة أجابت عن القدرة.

وقيل في قوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ سمعوا كلامه أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وخلق حياتهم من ذلك النور، وجعل قوام جميعهم بتلك الكلمة، وأنشد:

(١) سئل شخص من العارفين، كأنه ذو النون قدّس سرّه عن علم الميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقال: كأنه في أذني الآن.

وآخر قال حين سئل عنه: سمعت سبعاً من الموثيق.

وآخر قال: إنّه صدق في كليات الموثيق أنّها سبعة، وأما جزئياتها فغير متناهية، فأنا مؤمن بذلك كله.

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا الْعَرْزَةَ رُكَّعًا وَسُجُودًا

قال ابن بنان: خالصة من خلقه انتخبهم للولاية، واستخلصهم للكرامة، وأفردهم به، فجعل أجسادهم دنياوية، وأرواحهم نورانية، وأذهانهم روحانية، وأوطان أرواحهم غيبية، وجعلهم فسوحًا في غوامض غيوب الملكوت للذين أوجدتهم لديه في كون الأزل، ثم دعاهم فأجابوا سرعًا، أجاب تركيبيهم حين أوجدتهم بعد الدعوة منه، وعرفهم نفسه حين لم يكونوا في صورة الأنسية، ثم أخرجهم بمشيئته خلقًا، فأودعهم صلب آدم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رُبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: فأخبر أنه خاطبهم، وهم غير موجودين إلا بإيجاده لهم، إذ كانوا واجدين للحق في عين وجودهم لأنفسهم، وكان الحق بالحق في ذلك موجودًا. قال الأستاذ: أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق عقده، وتأكيده ودّه بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سَقِيَا لِلْبَلَى وَاللَّيَالِي التِّي كُنَّا بَلِيلَى نَلْتَقَى فِيهَا
أَفْدِيكَ فِي أَيَّامٍ دَهْرِي كُلِّهَا يَفْدِينُ أَيَّامًا عَرَفْتُكَ فِيهَا

ويقال: جمعهم في الخطاب، لكنه فرّقهم في الحال، فطائفة خاطبهم بوصف القرية، فعرفهم نفس ما خاطبهم، وفرقة أبقاهم في أوطان الغيبة، فأقصاهم عن نعت العرفان، وحجبهم.

ويقال: أقوام لاطفهم في عين ما كاشفهم، فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم، فأقروا عن ناس الجمود.

ويقال: تجلّى لقلوب قوم، فتولى تعريفهم، فقالوا: بلى عن حاصل اليقين، وتعزز على الآخرين، فأثبتهم في أوطان الحجة، فقالوا: بلى عن ظنٍّ وتحمين.

ويقال: جمع المؤمنين في السماع، ولكن غاير بينهم في الرتب، فجذب قلوب قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المبار، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان، كاشفهم به من الأسرار.

ويقال: فرقة رَدَّهم إلى الهيبة فهاموا، وفرقة لاطفهم بالقرية فاستقاموا.

ويقال: كاشف قومًا في حال الخطاب بجماله، فطوّحهم في هيجان حبّه، فأسكنت محابهم في كوامن أسرارهم، فإذا سمعوا اليوم سماعًا، تجددت لهم تلك الأحوال، والانزعاج الذي يظهر فيهم، لتذكر ما سلف لهم من العهد المتقدم.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣٧﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا ظَالِمُونَ ﴿١٣٨﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٤٠﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾^(١).

خوف الله أهل ولايته من ضربة مقرعة قهر الأزل بنعت الغيرة على أعناق من رأى قيمة نفسه في جلال عظمة القدم من حيث صنيعة بيلعام؛ ليمتنع المسرورون بما وجدوا من سني الكرامات، ورفيع الآيات من النظر إلى مقاماتهم ومعاملاتهم، فإنه تعالى شغل عنه من نظر إلى غيره بغيره ونفسه، فإن مكره قديم.

﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ذكر أنه تعالى أناه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهداته ما سلخ منه؛ لأن من رآه أحبه، ومن أحبه اشتاق إليه، ومن اشتاق إليه عشقه، ومن عشقه استأنس به، واستوحش مما سواه.

فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه، وعداوة كليمه، بقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره مكر به في الأزل، فكان مكره مستنداً ما إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة له عارضة الامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر بالعارض الطارئ.

قال ابن عطاء: سوابق الأزل تؤثر على انتهاء الأبد، قال الله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾.

(١) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهداته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (٢/ ٣١٢).

قال الأستاذ: يظهر الأعداء في صدّ الخلّة، ثم برّدْهم إلى سوابق القسمة، ويبرز الأولياء بنعت الخلاف والزلة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال: أقامه في حجال القرية، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدّ له من سابق التقدير، فأصبح والكل دون رتبته، وأمسى والكلب فوقه مع خساسته، وفي معناه أنشدوا:

فَبِتَنَّا بَخِيرَ وَالِدُنَا مَطْمَئِنَّةً وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالزَّمَانُ ثَقَلَبًا

ثم إن الله سبحانه علّق ضلّالته بالقسمة السابقة، والمشيئة الأزلية التي لا تتأثر بتأثير الاكتساب بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

أي: ولو شئنا في الأزل اصطفايته لولايتنا لم يؤثر فيها مخالفة الظاهر؛ لأنّ قسمة الأزل تقسم تواترات الطبيعة، وتتصل بالعناية الأبدية، والرعاية السرمدية، وليس تقاعده عن طاعة مولاه علة المشيئة، بل المشيئة علة عصيانه.

قال ابن عطاء: ولو جرى له في حكم الأزل السعادة، لأثر ذلك عليه في عواقب سعيه وكدحه في أواخر أحواله.

وقال الأستاذ: لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن من قصمته السوابق لم تسعفه اللواحق، وصدق سبحانه بآية أخرى ما ذكرنا في الآية، بقوله:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: من اجتبه الله بقربه ومعرفته في الأزل، فجميع أمره على نظام تلك الاجتبائية.

قال بعضهم: ليس الناجي من سعي، وأحسن السعي، إنما الناجي من سبقت له الهداية من الهادي.

قال الله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾، ثم وصف الخاسرين بأنهم محجوبون عن ساحة كبريائه، ورؤية جلاله، بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا تَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: قلوبهم محجوبة عن مشاهدة الغيوب، ولو أدركت تلك المشاهد لذات طعم الوصال، وفهمت حقائق معالي النوال، وعيونهم في غواشي الشهوات، ولو خرجت منها لأبصرت أنوار الصفات، وما التفتت منها إلى جميع المراتدات، وآذانهم في أثقال الغفلات، ولو خرجت من تحتها لسمعت أصوات الوصلة، وألحان هواتف بلابل القرية، وطابت بسماعها وصاعت من جميع الملاهي.

قيل: لهم قلوب لا يفقهون بها شواهد الحق، ولهم أعين لا يبصرون بها دلائل الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها دعوة الحق، ثم وصفهم بأنهم أغفل من البهائم في الضلالة؛ لأن للبهائم استعداد قبول التأديب فيقبلون التأديب، ولهم أيضًا استعداد قبول التأديب، ولا

يقبلون التأديب.

قيل: الأنعام والبهائم لا يحسّون بالاستتار والتجلي، والأرواح نعيمها في التجلي، وعذابها في الاستتار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾^(١).

قال ابن عطاء: لهم قلوب لا يفقهون بها معاني الخطاب، ولهم آذان لا يسمعون بها حلاوة الخطاب، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد الحق.

وقال الأستاذ: لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهمه المحدثون، وليس لهم تمييز بين خواطر القلب، وهواجس النفس، ووساوس الشيطان، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين، ولا ينظرون إلا من حيث العقل، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا من سلك ركوب الشهوة، ثم وصف نفسه تعالى بأن له الأسماء الذاتية والأسماء الصفاتية، والأسماء الفعلية، والأسماء الخاصة المنبئة لقلوب العارفين عن عجائب صفاته الأزلية، والتي مصدرها ذاته القديم تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾: خبر الخلق في طلب تلك الأسماء العظام، ولا ينالونها إلا بكشفها، ولا تنكشف لهم تلك الأسماء إلا بكشف صفات الخاصة، التي تلك الأسماء مفاتيح خزانتها، ولا تنكشف تلك الصفات ألا بكشف الذات، فمن خُصَّ بهذه المكاشفات يهتدي إلى اسمه الأعظم، ويهتدي بنوره إلى معاني الصفات وأنوار الذات، إذا دعا به أجيب، ويكون قوله في مراده: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فكل اسم مخبر عن صفة، والصفة مخبرة عن الذات.

ولكل اسم للعارفين فيه مقام، وهم في الأسماء على مراتبها في معرفة الصفات، ومشاهدة الذات في بعضهم، كل اسم من أسمائه يبلغك مرتبة من المراتب، واسمه الله يبلغك إلى الوله في حبه، والرحمن الرحيم يبلغانك إلى رحمته، كذلك جميع أسمائه إذا دعوته عن خلوص ضمير، وصفاء عقيدة.

قال بعضهم: إن وراء الأسماء والصفات صفات لا تخرقها الأفهام؛ لأن الحق نار

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودفعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

يتضرع لا سبيل إليه، ولا بدّ من الاقتحام فيه.

وقال بعضهم: أبدى أسماءه للدعاء لا يطلب الموقوف عليها، وأتى يقف على صفاته

أحد.

وقيل: فادعوه بها أي: قفوا معها عن إدراك حقيقتها، حكى الإسناد عن بعضهم أن

الله سبحانه وقف الخلق بأسائه، فهم يذكرونها.

قال: وتعزّز بذاته، فالعقول وإن صفت لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك

لا يجوز على الحق، فالعقول عند بوادىء الحقائق منقبة بنقاب الحيرة عن التعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والإبصار حيرة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي منفرداً، ومثل هذا ذكره الأستاذ.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ
إِبْرَءِيمَ مَبِينٌ ﴿٣٨﴾ أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٠﴾
أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ
لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤٢﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِلَوْحِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا
بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من

كاشفنا له أحكام القدرة الغيبية المخبرة عن حوادث المقدرة، التي تنكشف بعد الواقعة ظاهرة في مرآة قلبه، فكذبها بمعارضة النفس، وشك الطبيعة مشتركة في ذلك، ولا نكشف له بعد ذلك أسرار الملك والملوك.

وهو بما استبدأ من صنيعه في العبادات الظاهرة يفرح، ولا يعرف احتجاجه عن رؤية

الغيب، وأيضاً من الكذب آيات أوليائي، وهو يترسم سلوك طريقهم، وهو معجب بذلك لا يبلغه إلى درجة القوم، وتركه في عزته وغروره ومحاله.

وأيضاً من أنعم عليه بتيسير الطاعات، ويقف معها ولا يطلب ما وراءها من القربات

نحجبه بها عنا، وهو لا يعلم، ومثل ما ذكرنا صورة من لم يسبق في مقاديره السابقة العناية له بالاصطفائية في البلوغ إلى درجة الولاية.

وَمَنْ خُصَّ بِتِلْكَ الْعَنَاءِ، كَيْفَ يَلْحَقُهُ الْاسْتِدْرَاجُ، وَهُوَ مُحْفُوظٌ بِعَيْنِ رِعَايَةِ الْأَزْلِ؟
قال سهل: يمدُّهم بالنعم، وينسيهم الشكر عليها، فإذا تَمَكَّنُوا إِلَى النِّعْمَةِ، وَحُجِبُوا عَنْ
الْمُنْعَمِ أَخَذُوا.

قال: الاستدراج أن يلقي في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة والحقيقة، السابق لهم من
القسمة حقائق الفرقة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾:
مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَظَارِ الْحَقَائِقِ، وَالْمُكَاشِفِينَ أَسْرَارِ الْجَبُرُوتِ فِي الْمَلَكُوتِ مِنْ أَهْلِ الدَّقَائِقِ، كَيْفَ
يَنْظُرُ إِلَى مِرَاةِ الصِّفَاتِ، الَّتِي تَبْرُزُ فِيهَا أَنْوَارُ الذَّاتِ، نَدْبَهُمُ الْحَقَّ إِلَى طَلَبِ مُشَاهَدَتِهِ وَقَرَبِهِ،
وإِلَى النَّظَرِ مِنَ الْقُلُوبِ إِلَى الْغُيُوبِ؛ لِيَدْرِكُوا بِصَفَاءِ الْعُقُولِ، وَأَبْصَارِ الْأَرْوَاحِ، وَعْيُونَ الْفُؤَادِ،
مَا لَمْ يَدْرِكُوا بِجَمِيعِ الْعِبَادَاتِ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ يُوَرِّثُ الْفِكْرَةَ، وَالْفِكْرَةَ تُورِّثُ الذِّكْرَ، وَالذِّكْرَ
يُورِثُ الْمَعْرِفَةَ، وَالْمَعْرِفَةَ تُورِثُ الْحِكْمَةَ، وَالْحِكْمَةَ تُورِثُ الْمَحَبَّةَ، وَالْمَحَبَّةَ تُورِثُ الشُّوقَ،
وَالشُّوقَ تُورِثُ الْعَشْقَ، وَالْعَشْقَ يُورِثُ الْأَنْسَ، وَالْأَنْسَ يُورِثُ الْإِنْفِرَادَ، وَالْإِنْفِرَادَ يُورِثُ
التَّوْحِيدَ، وَالتَّوْحِيدَ يُورِثُ الْفَنَاءَ، وَالْفَنَاءَ يُورِثُ الْبَقَاءَ، وَالْبَقَاءَ يُورِثُ رُؤْيَا الْأَزْلِ، وَرُؤْيَا
الْأَزْلِ تُورِثُ رُؤْيَا الْأَبَدِ، وَالْعَبْدَ هُنَاكَ يَطِيرُ بِهَذِهِ الْأَجْنَحَةِ مِنَ الْأَزَالِ إِلَى الْآبَادِ، وَمِنَ الْآبَادِ
إِلَى الْأَزَالِ.

ولو كان القوم أهل مناهج كبرى من المشاهدات أحاطهم الحق بالنظر إليه، لا إلى الملك
والمملوك، فإن النظر منه إلى غيره شرك في التوحيد، وهؤلاء ضعفاء مسالك المعرفة.
قال بعضهم: النظر في المملوك يورث الاعتبار، والنظر إلى المالك يسقط منك
الاشتغال بسواه.

وقال بعضهم: النظر إلى المملوك على مراتب ثلاث:
«أولها»: النظر بعين العبرة لا بعين الشهوة، و«الثانية»: النظر بعين اليقين إلى قدر
القادر، و«الثالثة»: النظر بعين المعرفة من المُلْكِ إِلَى الْمَالِكِ.
فَأَمَّا النَّاظِرُ بِعَيْنِ الْعَبْرَةِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ، وَالنَّاظِرُ بِعَيْنِ الْيَقِينِ يَجِدُ حَقِيقَةَ
الْإِخْلَاصِ، وَالنَّاظِرُ بِعَيْنِ الْمَعْرِفَةِ يَجِدُ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ.
قال الأستاذ: أطلع الله سبحانه أقطار الآيات، وأماط بضيائها سحاب الشبهات، فَمَنْ
استضاء بها تَرَقَّى إِلَى شُهُودِ الْقُدْرَةِ.

ويقال: ألاح الله لقلوب الناظرين بعيون الفكر حقائق التحصيل، فَمَنْ لَمْ يَعْجِزْ فِي
أوطان التقصير أنزلته مراكب السير بمباحات التحقيق.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنَّ ثُلُثُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٥) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٥٦﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٥٧﴾ أَتَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٦٠﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦١﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: لما أفرد ساحة الكبرياء من تكلف الاكتساب، وألحق المشيئة والقدرة بالأفعال إلى الأزل.

أي: لا أملك لنفسي قرب الله ولا بعده، إنما القرب والبعد منه، ولو علمت سر المقادير الغيبية، لكنت قادرًا بوصف الربوبية على نفع نفسي ودفع الضر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنَّ ثُلُثُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾.

قال أبو عثمان: عجز الخلق عن إيصال النفع إلى نفسه، أو دفعه عنها عاجلاً، فكيف يثق بإيمانه، وكيف يعتمد بطاعته؟

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

وقال بعضهم: لو كنت أملك الغيب، أو أقدر عليه، لما مَسْنِيَ السُّوء، ولكن طويت الغيوب عنا، وألزمت الملامة علينا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لم يجد آدم في الجنة إلا سنا تجلي الحق، فكاد يضمحل بنور التجلي لتراكمه عليه، فعلم الله سبحانه أنه لا يحتمل أثقال التجلي، وعرف أنه يذوب في حسنه، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن إليها، ويستوحش بها سويعات عن سطوات

التجلى، لذلك قال ﷺ لعائشة - رضي الله عنها -: «كلميني يا حميراء»^(١).

وفي أدنى العبارة هي كانت امتحانه، لشغل بها عن الحق، ليقع في فحج البلاء بها.

قال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلما سكن إليها، غفل عن مخاطبات الحقيقة بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة.

قال الواسطي: أكبر محنة آدم ﷺ خلق حواء من بدنه، قطعه بها عن نفسه، بقوله:

﴿لَيْسَ كُنْ إِلَيْهَا﴾، والسكون إلى غير الله محنة.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾: أثبت محبة

الأزلية، ورعاية الأبدية لحبيبه ﷺ في هذه الآية تولاه بعين الأزل، ورعاه بكفاية الأبدية، ونزل عليه من بحار خطابه قطرات وابل جواهر كلامه الأبدى الأزلى، وبيّن أنه تعالى كما ألحق إلى نفسه تولية حبيبه، فأيضاً ألحق إلى نفسه تولية الصديقين، ومحافظته للعارفين، يتولى الأنبياء بتقاب أنوار الذات، ويتولى الأولياء بسجوف أنوار الصفات، ويتولى العالمين بقوام أنوار الأفعال.

فالعوم في نور الآيات معصومون عن الزلات، والخصوص في نور الصفات معصومون عن الخطرات، وخصوص الخصوص في أنوار الذات معصومون عن المكر والقهريات.

قال بعضهم: لاحظ الأولياء بعين اللطف، ولاحظ العباد بعين البر، ولاحظ الأنبياء بعين التولي.

قيل في قوله: ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾: عن دعوته البشرية تولياً، وأصلح الخواص بصحة المقصود، والإفراد بالإخلاص للمعبود، وأصلح العوام بصحة الأوقات.

وسئل جعفر عن الحكمة في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، ونحن نعلم أنه يتولى العالمين.

فقال: التولية على وجهين: تولية إقامة أبداً، وتولية عناية ورعاية الإقامة الحق.

وقال الواسطي: يتولى الصالحين بالكفاية، ويتولى الفاسقين بالغواية.

(١) ذكره حقي في تفسيره (٦/٣٨).

وقال أيضًا: أصلح الأئمة بإصلاح سرائرهم عن دعوة البشرية توكيًا، وأصلح الخاصة بصحة المقصود، وأصلح العامة بالإثبات.

وقال الأستاذ: مَنْ قام بحق الله تولى الله أموره على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولا يدع شيئًا من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن أفضاله، فإن لم يفضل ما يريده، جعل العبد راضيًا بما يفعله، وروح الرضاء على الأسرار، أتم من راحة العطاء على القلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: نفى الله سبحانه سمع الخاص، ونظر الخاص عن أهل الغفلة، إذ أسماهم وعيونهم محجوبة بعوارض الضلالة وغواشي الغفلة، لا يسمعون بأذان قلوبهم نداء الغيب، ولا يبصرون بأبصار قلوبهم مشاهدة الحق في الشواهد، وذلك من ردّ الله إياهم عن شهودهم بنعت إلقاء سماعهم في محاضر المراقبات، وترائيهم بعيون قلوبهم أهلة الجلال في سموات اليقين، ولو شاء لأسمعهم وأراهم جلاله، ولكن منعهم قهر الأزلية وخذلان الأبدية.

كان ﷺ مصبوغًا بصبغ الألوهية في مجامع شريعة بحار القدس، مزيّنًا بزينة نور المشاهدة، مخبرًا بسنا لباس القدرة، موشحًا بوشاح الرسالة، متوجًا بتيجان الملكوت، راكبًا على مركب النبوة في ميادين الجبروت، وكان مرآة مشاهدة الله بين عباد الله، يتجلى الحق منه للعالمين، ولكن ما أبصره إلا من له منه بصر بصيرة، لذلك قال ﷺ في بعض إشارته في الحقيقة والاتصال قال: «من رآني فقد رأى الحق»^(١).

فلما رأى الناظر إليه بنظر الحقيقة إلى أين بلغ من رتبة القرية، قال: «طوبى لمن رآني وطوبى لمن رأى من رآني»^(٢).

لأن من تزود من جماله نورًا وبهاء، يفيض ذلك النور في جميع وجوده، ويتلأأ منه لعيون الناظرين:

أَدِرْ كَأْسَ السُّرُورِ عَلَى أَنْاسٍ لَقَاؤُكَ عَنْدهُمْ كُلُّ الْأَمَانِي
إِذَا اكْتَحَلُوا بِوَجْهِكَ لَمْ يَزَالُوا مِنْ الْخَيْرَاتِ فِي نَعَمٍ حَسَانِ

قل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾: كيف يسمع الدعاء من أصمّه الداعي عن الدعوة إليه؟ ولا يسمع نداء الحق إلا من أسمعه الحق، وبإسماعه يسمع لا بسمعه، ولا باستماعه.

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨/٦)، ومسلم (١٧٧٦/٤).

(٢) رواه ابن حبان (٢١٥/١٦).

وقيل في قوله: ﴿وَتَرَلَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]: بأنفسهم ينظرون إليك، ولا يبصرون خصائص ما أودعناه فيك، وبركات ما أجريناه في الخليقة بك. وكذا من نظر بنفسه إلى الرسول ﷺ، حُجب عن إدراك معانيه حتى ينظر ببركة الرسول ﷺ إلى الرسول، بل هو أيضًا قاصر البصر حتى ينظر بالحق إليه، ومن الحق إذ ذلك يتبين له شرف ما خصَّ به.

وقال سهل: هي القلوب التي لم تزينها أنوار القرب، فهي عمياء عن درك الحقائق، ورؤية الأكابر.

وقال أيضًا: ينظرون إليك بأعين لم تكحل بنور التوفيق، فلا يعرفون حقك، وينظرون إليك بالقلوب التي لم يشتها بنور هدايته شيئًا.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ١٠٠ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠١ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ١٠٢ وَأَخْوَاهُ يَمْدُودُهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ١٠٣ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيَاةٌ قَالُوا لَوْلَا آجَتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٠٤.

ويقال: رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام، وحصول الإيمان، ولما عظم شأنه ﷺ، وعزَّ عن إدراك ناظره، وعن أن يطَّلِع على ما في جلاله وجماله من أنوار الصفات، وبرجاء سنا الذات، وعَلِمَ الحق سبحانه عجز الخلق عن أداء حقه واحترامه بحد حقيقة أمره ﷺ بالعفو والكرم عند قصورهم عن رؤية ما كان من سطوع أنوار الرسالة والنبوة من وجهه، بقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقك.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بلطف عليهم في أمرك ونهيك بهم؛ فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإن منكر كرامات أوليائي، ومعجزات أنبيائي لا يبلغ إلى درجة القوم.

قال بعض المشايخ حين ذكر أهل الظاهر قال: دع ذكر هؤلاء الثقلاء، ثم إنه سبحانه ألبس حبيبه ﷺ أخلاق القدم بالتجلي، والكشف والمباشرة بالفعل، ثم أراد أن يلبسه خلقه بالأمر القديم، والكلام الكريم؛ ليكون متصفاً بجميع معانيه بجميع صفاته، متخلقا بجميع

أخلاقه حتى عظم الأمر عنده في ذلك، وأفاض لطفه على الجمهور، فأمر أمته بما أمر الله بقوله: «تَخْلُقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»^(١).

قال بعضهم: أمر النبي ﷺ بمكارم الأخلاق ظاهراً وباطناً، وهو الصفح عن زلات الخلائق، والأمر بمكارم الأخلاق.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعرض عن المعرضين عنا، فهم الجهال.

روي أن النبي ﷺ سأل جبريل صلوات الله عليه عن تفسير هذه الآية، فقال:

«تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك»^(٢).

قال ابن عطاء: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

الشیطان كلب قهر القدم، فإذا نبج وراء ساحة القلب في جانب النفس، ففر من قهرنا إلى لطفنا، ومننا إليك؛ لذلك قال: «أعوذ بك منك»^(٣).

فإذا كانت ساحة القلب مستضاءة بنور التجلي يفر الشيطان من نواحيه؛ لأنه لو يدنوا منه بقدر رأس إبرة تحترق.

قال الجريري: من أعقل السلاح، أسر الشيطان في أول لحظة.

وقال الأستاذ: إن سنح في باطنك من الوسواس أثر، فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هجس في صدرك من الحظوظ، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التأييد، وإن اعتراك في الترقى أن محل الوصول وقفه، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإن تقاصر عنك في خصائص القرب صيانة لك عن شهود المحل، فاستعذ بالله تثبتك له به لا لك بك.

ثم وصف سبحانه أهل التقوى من أهل الولاية أنهم ممتحنون بهواجس النفوس، ووساوس الشياطين، واستغاثتهم بالله، وذكره عن شرهم، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا لَهُمْ حَسَدَةٌ إِلَىٰ شَيْءٍ مِّنْهُ لَيَبْغِيَنَّ لَهُمْ فِيهِ حَسَدَةٌ فَإِذَا لَبِغُوا فِيهِ عَلَىٰ مَا لَمْ حَسَدُوا لَهُ مِن شَيْءٍ ذَكَرَهُ اللَّهُ﴾.

حسدة الشياطين يراقبون من البعد أولياء الله؛ ليرموهم بنيران الوسواس من قوارير الحسد حين تقاصروا عن مشاهدة الذكر والمذكور، وغفلوا لحظة عن مراقبتهم، ولو استقاموا على شريطة حضور مشاهدة الملكوت، لم يقدرُوا أن يمسّتهم من ألف فرسخ.

(١) ذكره الشيخ حقي في تفسيره (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٤/ ١٧٨).

(٣) رواه النسائي في الكبرى (١/ ٤٥٢).

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: فإذا وصل إليهم نار الوسواس، وأوجسوا في أنفسهم غبار سنابك، خيول الشيطان التجأوا بترابك الذكر إلى جناب الأزل، فإذا هم يرون ما أفسد الشيطان من محافل الأنس، ومجالس القدس في قلوبهم، ويرون طيف الشيطان أيضًا بنور العرفان، فيرمونهم بسهام الذكر، ونيران المحبة من قارورة الشوق فتحرقهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

رأى الجنيد في المنام إبليس، فقال: هل تقدر أن تمرّ على مجالس أهل الذكر؟ فقال: كما أن أحدًا منا يمر على أحد منكم، ويمسه، ويصير مجنونًا ومصروعًا، فمننا من يمر على مجلس الذكر يصير مصروعًا، ونسقيه بيننا مأنوسًا، كما تقولون مصروعًا منكم مجنون.

قال بعضهم: من حال سرّه في ميادين الأنس والقربة، وحجر نفسه عن طوارق الفتنة وطوائف الشيطان، هم الذين قال الله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١]، وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ [٢] إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ندب الحق سبحانه الجميع أن يسمعوا القرآن بقلوب حاضرة، ونيات صادقة، وأسرار ظاهرة عند سكوتهم عن الفضولات لوقار القرآن، فإذا رآهم الحق في منازل مقال الخطاب وحرمان الأمر، يتفضل عليهم بكشف أسرارهم لقلوبهم، ويذوق طعم خطابه أسرارهم، ويعرفهم نكات إشاراته اللطيفة، وأنبائه العجيبة، والحكمة الغريبة، فمن يرى مواقع أسرارهم بأنواره، ويسمع بالله كلام الله صار القرآن بصائر، يرى به جميع الصفات ومشاهدة الذات قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ [١]. فلعلّ ههنا توجيهًا للمستمعين، كلامه بالأدب والسكون أي: إذا كنتم كذلك؛ لعلكم تكاشفون بأسرارهم وأنواره ومواجيدهم.

قليل فيه: استمعوا له بأذانكم؛ لعلكم تسمعون بقلوبكم، وتفهمون مراد مخاطبة الحق

(١) أي: براهين توحيد، ودلائل معرفته، حاصلة من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه.
البحر المديد (٢/ ١٨٦).

إِيَّاكُمْ، وتتأدبون بلطائف مواعظه، فيوصلكم حُسن أدب الاستماع، وبركة الخطاب إلى رحمته، وهو أن يرزقكم آداب خدمته، كما يرزقكم سنن شريعته، وأجل رحمة، رحم الله بها عباده آداب العبودية التي خص بها الأكابر من الأصفياء، والسادات من الأولياء.

قال الأستاذ: الإنصات في الظاهر من آداب أهل الباب، والإنصات بالسرائر من آداب أهل البساط، ثُمَّ أمر نبيه ﷺ بأن يذكره بجلاله وعظمته في نفسه، بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ حتى تفنى نفسك في نفسي، ولا يبقى فيك إلا نفسي، لإذعانك بنعت العبودية في ساحة كبريائي، وبنعت رؤية جلالي، حيث لا ترى غيري، هذا معنى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

وأيضًا واذكر ربك بأوصافه في نفسك، كأنها تحمل أثقال أسرار قديمي، لا غيرها من النفوس.

وأيضًا أوصل الذكر بالنفس؛ لأن القلب موضع المذكور. وقال الحسين في هذه الآية: لا تظهر ذكرك لنفسك، فتطلب به عوضًا، وأشرف الذكر ما لا يشرف عليه إلا الحق، وما خفي من الأذكار أشرف مما ظهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: لا تكن مشغولًا بنا عنا، ولا عمّن بقي في رؤية العطاء عن المعطي.

أمر تعالى نبيه ﷺ بحفظ الأنفاس عن خطرات الوسواس، وجمع الهمة عن طارق الغفلة، أي: اذكرني بي، لا بك، فإن من ذكرني بنفسه غفل عني، ومن ذكرني بي آخذ من الذكر والفكر، وأكشف جمالي له حتى يصل بي إليّ.

قال سهل: ما من أحد ذهب منه نفس واحد بغير ذكر، إلا وهو غافل.

وقيل: «الغافل»: من غفل عن مراد الله فيه.

وقيل: «الغافل»: الذي غفل عن درك حقائق الأمور.

قال الأستاذ في معنى التضرع والخيفة: «التضرع»: إذا كوشف بوصف الكمال في أواني البسط.

و«الخيفة»: إذا كوشف بنعت الجلال في أحوال الهيبة، وهذا للأكابر، فأما من دونهم فتتنوع أحوالهم من حيث الخوف والرجاء بالرغبة والرغبة، ومن فوق الجمع فأصحاب البقاء والفناء والصحو والمحو، ووراءهم أرباب الحقائق مثبتون في أوطان التمكين، فلا تُلَوْنُ لهم، ولا تخنس لقيامهم بالحق، وامتحانهم عن شواهدهم.

ثم وصف الله كرام العارفين من الكروبيين، والمقربين أنهم في محل العندية مقدسون

عن شوائب نعوت الزائعين، وصفات المتكبرين، بل هم موسومون بسياء العبودية في محاضر الربوبية، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾: هم في نعوت العبودية عند بروز سطوات العظمة والفناء، بشرط التنزيه في ظهور قدس القدم يتملقون بنعت البهته في كشف جماله الأزلي، سبحان الذي حجبهم به عنهم، ولولا ذلك؛ لاحترقوا به فيه.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٣﴾ مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُجْطَلَ الْبَطْلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: لكل طائفة في طريق المجاهدة والقتال مع النفس فتح وغنيمة، فغنيمة المريدین صفاء المعاملات، وغنيمة المحبّين ذوق الحالات، وغنيمة العارفين كشف المشاهدات، والسؤال عن ذلك اقتباس نور الشريعة من مشكاة النبوة، واستعلام الأدب في طريق المعرفة لله، هذه الكرامة لا بالاكْتِسَاب يؤتیه من يشاء.

﴿وَالرَّسُولُ﴾: الحكم فيه لجهة تربية الأمة، وأن الله تعالى مستغني عن الخليفة، ورسوله يظهر في أداء رسالته عن حظوظ نفسه.

ثم حذرهم بنفسه عن نفسه في طريقه، ومواساة عبادته، بقوله: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في طلبه، ولا تلتفتوا إلى غيره، وأسوأ قلوب إخوانكم يُبدّل مُهْجَتَكُمْ إِلَيْهِمْ فِي مُوَاخَاتِكُمْ، ومصادقتكم لله وفي الله.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في الحقيقة، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في الشريعة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعوى المحبة.

قال سهل: «التقوى»: ترك كل شيء يقع عليه الذم.

وقال الأستاذ: «التقوى»: إيثار رضا الحق على مراد النفس، ثم وصف المؤمنين بالعلامات الصحيحة الدالة على صدقهم التي إذا رأيتها لا تشك في إيمانهم، وذلك تأثير وارد أنوار الغيب التي ترد على قلوبهم، فتظهر علاماتها في وجوههم، بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وصف السامعين من أهل الإيثار والإيقان عند جريان ذكره، وسماع خطابه، وتلاوة كتابه بالوجل، الذي يكون عند سماع الذكر من رؤية جلال الله وعظمته، تجلّاهما يزيد لإيمانهم نور الغيب، ولإيقانهم سنا القرب، ولحسن رضاهم في طاعته روح الأنس، حتى يصيروا خائفين من عظمته، عارفين بربوبيته، متوكلين بكفايته^(١).

قال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله بن خفيف - قدس الله روحه - في ذكر الوجل في هذه الآية قال: واعلم أن أحكام الوجل إنما تصح للوجلين عند تكشف أستار ألوان، وذهاب حجب الغفلات من القلوب، فيشهد بقوة علمه، وصفاء يقينه سطوات الخوف، فداخله لطيف الوجل برقة الإشفاق، وذلك مما جلى عن القلوب بعزّ جنابه وتعظيمه وترهيبه كلّ سائر.

قال أبو سعيد الخزاز: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع الذكر، أو عند سماع كتابه وخطابه، هل أخرسك سماع ذلك الذكر حتى لم تنطق إلا به؟ وهل أصمّك حتى لم تسمع إلا به منه، هيهات.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: هاجت من خشية الفراق، فخشعت الجوارح لله بالخدمة.

(١) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤاها عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ هُمْ إِنْهَا لَهِ وَلَكُمْ، ولرسوله ﷺ حُكْمُ فِيهَا بِمَا يَقْضَى بِهِ أَمْرًا وَشَرْعًا. قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيئوا لأمر الله، ولا تطيعوا ذَوَاعِي مَنَاحِكُمْ وَالْحُكْمَ بِمَقْضَى أَحْوَاغِهِمْ، وَابْتَغُوا إِثَارَ رِضَا الْحَقِّ عَلَى مَرَادِ النَّفْسِ، وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَذَلِكَ بِالْإِنْسِلَاخِ عَنْ شُحِّ النَّفْسِ، وَإِثَارِ حَقِّ الْغَيْرِ عَلَى مَا لَكُمْ مِنَ النَّصِيبِ وَالْحَقِّ، وَتَنْقِيَةِ الْقُلُوبِ عَنْ خَفَايَا الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ.

وقال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة، ربما يريه مواضع السطوة، وربما يريه مواضع المودة والمحبة، وربما يريه التقريب والتباعد.

وقال الجنيد: وجِلَّت قلوبهم من فوات الحق.

وقال بعضهم: الوجل على مقدار المطالعات، فإن طالع السطوة هاب به، وإن طالع وده وجَلَّ عليه مخافة فوته، ومن جملة ذلك من طالع التقريب بالتأديب وجَلَّ، ومن طالع التهديد بالتباعد وجَلَّ، ومن طالعه مغيبًا عن شاهده، قائمًا بسرمدته، خاليًا من أزلّه وأبده، فلا وجَلَّ حيثئذ ولا اضطراب، ولا تباعد، ولا اقتراب، فإنه محقق بالذات، ونسي الصفات، وفني عن الذات بالذات، كما هرب رسول الله ﷺ من الصفات إلى الذات، فقال: «أعوذ بك منك»^(١).

قال الجنيد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَىٰ هَمٍّ ۖ آيَّتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: إنَّ لا وصول إلى الله إلا بالله.

قال الأستاذ: يُجرِّهم الوجل من أوطان الغفلة، ويُزعجهم عن مساكن الغيبة، وإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وجاءوا إلى مشاهدة الذكر، نالوا السكون إلى الله، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقًا على تصديق، وتحقيقًا على تحقيق إذا طالعوا جلال قدره، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكلوا عليه في إمدادهم برعايته في نهايتهم، كما استخلصهم بعنايته في بدايتهم.

ويقال: سَنَة الحق سبحانه مع أهل العرفان، أن يودَّهم بين كشف جلاله ولطف جماله، فإذا كاشفهم بجلاله، وجِلَّت قلوبهم، وإذا لطفهم بجماله، سكنت قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويقال: وجِلَّت قلوبهم لخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أرواحهم بروح وصاله، فذكر الفراق يُفنيهم، وذكر الوصال يصحبهم ويُحييهم.

ثم إن الله سبحانه زاد في وصفهم بالعبودية، وبذل المهجة في الطريق، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم وصفهم باستكمال إيمانهم، بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: فشرط حقيقة الإيمان بهذه الخصال التي ذكرها في الآيتين اللتين في صدر السورة، كان من لم يتحلَّ بهذه الخصال المذكورة لم يتحقَّق في إيمانه، وهي التقوى والإصلاح بين المؤمنين، وذلك محل صحبتهم، وهو نوع من التمكين والانقياد

عند أمر الله ورسوله، بالإخلاص ووجل القلب عند سماع الذكر والقرآن ومزيد اليقين، وترك التدبير في استقبال التقدير، ومقام المناجاة من الصلاة، والانقطاع عن الاشتغال بالدنيا، وإيثار حقوق الإخوان على نفسه، فإذا استكمل هذه الجلال، وتم اسم تحقيق الإيثار عليه، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

ويستحق بعد هذا الشناء ما وعده الله المتحققين في إيمانه من المغفرة التامة، حيث لم يلتفت بفضله إلى خطراتهم، وبشرّ فهم إلى علي الدرجات، ويسقيهم شراب الوصال عند كشف المشاهدات، بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: يبين أن حقيقة الإيثار مكاشفة الغيب، وظهور ما وعد الله لهم، وتصديق ذلك سؤال النبي ﷺ عن الحارثة فقال: «يا حارثة، لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارئاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاودون، فقال ﷺ: عرفت فالزم»^(١).

فصح في الآية والحديث أن حقيقة الإيثار رؤية الغيب بالغيب، وثمرتها ما ذكره الله في الآية من المعاملات السيئة، والحالات الشريفة.

قيل: اجتمعت فيه أشياء حقق بها إيمانهم؛ لتعظيم الذكر والوجل عند سماعه، وإظهار الزيادة عليهم عند تلاوة الذكر وسماعه، وحقيقة التوكل على الله، والقيام بشروط العبودية على حدّ الوفاء، وأكملت أوصافهم في حقيقة الحقائق، فصاروا محققين بالإيمان.

قال الجنيد: حقاً إنه سبقت لهم من الله السعادة.

قال أبو بكر بن طاهر: حقيقة الإيثار بخمسة أشياء: باليقين، والإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبة، فباليقين يخرج من الشك، وبالإخلاص يخرج من الرياء، وبالخوف يخرج من المكر، وبالرجاء يخرج من القنوط، وبالمحبة يخرج من الوحشة والحيرة.

وقال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أن الحق سبحانه يُسرُّ مثالب العاصين، ولا يفضحهم؛ لئلا يجنبوا عن مأمول أفضاهم، ويستتر مناقب العارفين عليهم لئلا يعجبوا بأعمالهم وأحوالهم، والرزق للأسرار مما يكون استقلالها من المكاشفات، ثم بين تعالى أن لأهل حقائق الإيثار بعض طباع البشرية، وحركات الأنفس الأمارة عند وقوع أمر الله، ولا يتقلب ذلك بمنقصتهم، بل بفضله ورحمته اصطفاهم بهذه الكرامات قبل وجودهم في الأزل بخاصية اجتباؤه بغير علة اكتسابهم، وبيّن أن الولي الصادق وإن بلغ درجة الولاية لم

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص ١٠٦).

يُخْلُ من بعض خطرات النفس، ولم يكن ذلك لتقصانه، بل بيان اختصاصه باختصاصه القديم في سابق حكمه لهم، حتى لا يظن الظَّان أن الولي لم يبلغ درجة الولاية إلا بأداء جميع حقوق العبودية، فإنَّ محل النبوة لا يخلو من الخطرات، فكيف بمحل الولاية، وجملة ذلك قوله سبحانه لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم زاد في وصف طباعهم النفسانية، بقوله تعالى: ﴿مُجْتَدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

سبحانه من خصَّ هؤلاء بهذه الصفات بحقائق الإيمان ودرجاتها وأنوارها ومكاشفاتها، ولم ينل بتلك الصفات؛ ليعلم الخلق أن فضله سابق عليهم، وعنايته لهم قديمة. ومعنى الآية أن وضع قسمة الغنائم بقسمة الأزل، كما أرادت نفوسهم ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ من بيتك لقتال العدو، وهم في ذلك كارهون، أي: كراحتهم في القتال لكراحتهم في قسمة الغنائم، وتلك الكراهة من قبل النفس، وطبع البشرية لا من قبل الإنكار في قلوبهم لأمر الله ورسوله؛ فإنهم موقنون بقول الله ورسوله. وكذا حال جميع السالكين لم تفر نفوسهم من أوطان قلوبهم في جميع الأنفاس، إلا عند كشوف مشاهدة الحق سبحانه، فهناك لا يبقى على وجه أرض القلوب إلا إشراق أنوار الغيوب.

قيل: أن النفس لا تألف الحق أبدًا، جدالهم مع النبي ﷺ من جهة، لانبساطهم أطفال حجر الوصلة، وجدالهم كجدال الخليل عليه السلام من رأس الخلَّة والانبساط.

قال تعالى: ﴿مُجْتَدِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] والفرار ليلاً قبل وقوع المشاهدة، فإذا وقع الحق، ورفع الحجاب لم يبق من آثار النفوس ذرة، فالقوم كانوا في ذلك الوقت في مقام الغيبة، فلما انكشف لهم مأمولهم، بذلوا مهجتهم بطيب نفوسهم، حيث اختاروا الشهادة في الأحد، وإن من سنة الله لأهل السلوك إخراجهم إياهم من أوطانهم؛ ليدوقوا مرارة الفرقة في الغربة، ولا يبقى عليهم مألوفات البشرية؛ لذلك قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾. فالحقيقة في ذلك خروج الرجال من أوطان النفوس إلى فضاء المشاهدة، حتى لا يبقى معك غيره.

قال أبو يزيد - قدس الله روحه -: سألت الوصلة، فقال لي: دَع نفسك وتعال.

قال ابن عطاء: أخرجك من بلدتك؛ ليُحيي بك قلوبًا عمياء عن الحق.

﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ﴾: مفارقة أوطانهم، ولا تتم لعيد حقيقة الصحة والنصيحة، إلّا بعد هجران أقاربه ومفارقة أوطانه، أخرجهم من تلك البلدة حتى ألقوا غيرها من البلاد، ولم يبقَ عليهم مطالبة لها، فردّهم إليها؛ لئلا يملكنهم سوى الحق شيء. وقال بعضهم في هذه الآية: أفناك عن أوصافك، ومواضع سكونتك واعتبادك، وما كان يميل إليه قلبك؛ لئلا تلاحظ محلاً، ولا تسكن إلى مألوف، فأخرجك من المألوفات؛ ليكون بالحق قيامك، وعليه اعتيادك.

﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ﴾: ظاهر روحك ومفارتك أوطانك، ولا يعلمون أن خروجك منها الخروج عن جميع الرسوم المألوفة، والطبائع المعهودة، وأنت بمفارقة هذا الوطن المعتاد، يصير الحق وطناً.

ثم زاد سبحانه في وصف القوم في طلب ماهيتهم، بقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾^(١): سنة الله التي قد جرت في الأزل أن عند كل مشاهدة مجاهدة، وأن عند كل نعمة بلا ظهور فضل الربوبية، وإذعان الخليفة لأمر القدم بنعت العبودية.

قال بعضهم: مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَى الْحَقِّ بِالْجُهْدِ فَمَتَعَنَ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ الْجُهْدِ فَهِنَ.

قوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُتَبَلَ الْبَاطِلَ﴾: تعين بلطفه، وإبراز كرمه، وظهور جلاله لأهله، ويبين الصادق في محبته، والمدعي بكراماته.

وأيضاً ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾: الإيثار والصدق يبذل مهجتهم لله مما يجري على أوصافهم من خطور النفسانية.

وأيضاً: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾: حق المشاهدة المحبة في قلوبهم، ويُبطل الهواجس في نفوسهم.

قال بعضهم: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بالإقبال عليه و﴿يُتَبَلَ الْبَاطِلَ﴾ بالإعراض عنه.

(١) أي: ذات الحرب (تكون لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاته النفير لكثرة عددهم وعددهم، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ﴾ أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿وَيَقْطَعُ ذَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. البحر المديد (٢/ ٣٣٦).

وقال الواسطي: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بتجليه، و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ باستتاره.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بالكشف، و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ بالستر.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بالرضا، و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ بالسخط.

وقيل: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ للأولياء و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ للأعداء.

وقيل: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بالخدمة، و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ بالصرف.

وقيل: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ بالبراهين، و﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ بالدعاوى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْغَمِّ كَمَا مُمِدُّكُمْ بِالنَّارِ إِذْ كُنْتُمْ فِيهَا وَكَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْغَمِّ يَدٌ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَمَّاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾: الاستغاثة مقام الشكوى والتواضع في الانبساط والفناء في رؤية البقاء، فمن تعرض له حال الاستغاثة، فيفر منه إليه ويطلب هو منه يغيثه به لا منه، فإن القوم طلبوا منه بالاستغاثة المعونة على مأمولهم من النصر، ونيل الغنيمة، فأغاثهم بإمداد الملائكة، ثم صرفهم عن رؤية الغير.

بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: إجابتهم بالسرعة من صدق لجوئهم إليه، وكمال الإجابة، استغراقهم في بحار شهود سنا جماله، وأنوار جلاله.

قال بعضهم: من صدق اللجوء والاستغاثة، أجيب في الوقت.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾.

قال النصرآبادي: استغاثة منه، واستغاثة إليه، الاستغاثة منه لا يجاب صاحبها بجواب، بل يكون أبداً معلّقاً بتلك الاستغاثة، والاستغاثة إليه، فذلك الذي يجاب إليه الأنبياء والأولياء والأصفياء.

قال أيضاً: النفس تستغيث بطلب حظّها من البقاء، ودوام العافية فيها، والقلب يستغيث من خوف الثقليل، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

والروح تستغيث بطلب الرواح، والسرّ يستغيث لإطلاعه على الخفيات، قال تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

قال الأستاذ: الاستغاثة على حسب شهود الفاقة، وعدم المنة والطاقة، والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ إمداد الملائكة بشاره لصدق مواعيده، ولطمأنة قلوب عباده بأنوار بقاءه، وصورة البرهان يكون لضعف الإيقان، ولو كان الإيقان على حد الاستكمال بالعرفان، لم تتعلق الطمأنينة بالبرهان.

فلما عَزَّ في جلاله وكبريائه، صَرَفَ عيون القوم عن الوسائط إلى عِزِّ جلاله، بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: «النصرة»: كشف أنوار مشاهدته للأرواح السكرى بشراب شوقه، يظفرها بوصله؛ لانهمزام جنود قهرياته من ساحات لطفه.

قيل: بَيَّنَّ الله آثار النصره، وبدو السلامة، فمن لم يطلب النصره والسلامة بالذلة والافتقار إليه لا ينالها؛ لأن طلب النصره بالقوة والقدرة منازعة للربوبية، ومن نازع المولى قهره.

ثم تعزَّز بعزته في نصره أوليائه عند تبرئهم من حولهم وقوتهم، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: «عزيز»: بامتناعه عن مطالعة خلقه جلاله وجماله بعلته من العلل، «حكيم»: باختصاصه مقام مشاهدته، وكشف قربه لهم.

قال الواسطي: «العزيز»: الذي لا يدركه طالبوه، ولو أدركوه لذلَّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: فالطالب واجد، لكن يعطائه، والراغب واصل، ولكن إلى مباره، والسبيل سهل، ولكن إلى وجدان لطفه.

فأما الحق سبحانه، فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقرب وبعد، ما وصل إلى نصيبه، وما بقي أحدًا إلا عن حظٍّ، وأنشد:

وَقُلُوبُنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا تُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٌ وَلَا نَقْرَى
فَلَا بَذَلٌ إِلَّا مَا تَزَوَّدُ نَاطِرِي وَلَا وَصْلٌ إِلَّا بِالْخِيَالِ الَّذِي سَرَى

ثم وصف سبحانه زيادة امتنانه عليهم بعد نصرهم ونيْلهم مرادهم، بعد أن أراح أبدانهم من وجع الآلام، وقلوبهم عن كَدِّ القبض بإنزاله عليهم النعاس، بقوله تعالى: ﴿يُغْشِيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

«النعاس»: ارتفاع بخار الدم من حرقة القلب إلى الدماغ في أصل الحكمة؛ لاستراحة أعصاب الدماغ وقت استرخائها من حدة مشاغل تنفس أنفاس الدموية المختلطة برطوبات

صفاء البلغمية، وليس ذلك يقوى.

فإذا هاج ذلك الدم من أصل الكبد والقلب، ومشرعه المعدة، وارتفع إلى الدماغ يختلط هناك برطوبات الدماغ، فيصير ثقیلاً، فيسقط ثقله إلى القلب، ويصير الدماغ والقلب ثقیلین، ويجري ذلك الثقل في جميع العروق، فتصير جميع الأعضاء مسترخية من غشيان ذلك الدم، ويغلب على العقل والحواس، فيسمى ذلك بعينه النوم وهذه الصفات صفات حيوانية إنسانية، نفى الله تلك الصفة عن جلال ذاته، حيث وصف نفسه بالتزیه والتقدیس عن علّة الحدّثان، بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن فضلة وكرمه على أوليائه إذا أراد أن يروّج أبدان الصديقين من ثقل العبادات يغشي دماغهم بغفوة النعاس؛ ليستريحوا من عناء القبض، ويسكنوا بروح البسط.

ثم النعاس موضع ظهور أوائل أشكال المكاشفات، واشتغال هواتف الغيبة من عالم الملكوت، يرون بقلوبهم بين النعاس والنوم واليقظة، أشياء بديهية غيبية، تورث السكينة والطمأنينة والأمن، بقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي: أمنا منه من زيادة الامتحان، وغلبة النفس والشیطان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان»، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نومه نعاساً، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «تنام عيناى ولا ينام قلبي»^(١)؛ لأن القلب إذا نام لم يرَ من عالم الملكوت شيئاً، وهكذا حال الأولياء قلوبهم في جميع الأوقات يقظى، ونومهم ليس بكثير، وكل قلب يرى في نومه شيئاً من الغيب لم يكن في ذلك الوقت إلا نعاس.

قال سهل: «النعاس»: ينزل من الدماغ والقلب، والنوم محل بالقلب من الظاهر، وهو حكم النوم، وحكم النعاس حكم الروح، وفائدة النعاس هاهنا إعلام الله إياهم أن فيض كرمه ليس باكتسابهم، أفناهم عن نفسه، ثم أظهر فضله عليهم بأن يهزم عدوّهم بإلقائه عساكر الرعب في قلوبهم، قال صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالرعب»^(٢).

وإذا برّء العبد من حوله وقوته، يجيء نصر الله له، فيظفر بجميع مراده، ثم من الله عليهم بإنزاله رحمته من السماء عليه، بقوله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ الماء الطاهر يطهر الأشباح، وماء المعرفة يطهر الأرواح، ويعرفها مكان كل حقيقة من عين الفعل والصفة، فإذا عُرِفَت الأفعال والصفات عُرِفَت الذات، فمثالها مثال الأصداف في

(١) رواه البخاري (٣/١٣٠٨).

(٢) رواه البخاري (١/١٢٨)، ومسلم (١/٣٧٢).

البحار.

فالأرواح أصدا ف، بحار الأفعال تتلقف قطرات عرفان الصفات من بحار الذات، كما تتلقف الأصدا ف في البحار من قطر الأمطار، فتصير القطرة في أجوافها ذرًا، فكذلك قطرة المعرفة في جوف الأرواح، تصير ذرة الحقيقة، والحكمة الإلهية الأزلية.

قال بعضهم: ماء اليقين إذا نزل على الأسرار، أسقط عنها الاختلاج والشك.

قال الله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ﴾ من كل ما تدنستم به من أنواع المخالفات، ثم وصف ذلك الماء الحقيقي بأنه يربط به قلوبهم في معرفة العبودية والربوبية، وهو ماء اليقين الذي يقوي القلوب في معرفة الله، ويثبتها بوصف التمكين والاستقامة في سيرها في المقامات، بقوله:

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: نفس عن قلوبهم وخشة الفرقة، وأثبتها في رؤية الوصلة، وتجلي القرية يربط أبدانهم بالطاعات، ويربط عقولهم بالآيات، ويربط قلوبهم بأنوار الصفات، ويربط أرواحهم في سطوات الذات، ويربط أسرارهم بعلوم الآزال والآباد.

ثم أخذ أيدهم عن استغراقهم فيه بنعت الفناء، وثبتهم به في مقام البقاء، ولولا تثبيتهم، لفنوا في أول باد بدا من ربوبيته، وأول ظهور سطوة من سطوات عظمتهم كانوا يحتملون به، ومشاهدته قهر سلطان عزته.

قال بعضهم: ربط على قلوب أوليائه، لتلقي البلاء بالمحبة والصبر، ويربط على قلوب العارفين، لثبات الأسرار في مشاهدة ما يبدو لهم من الغيوب، ويثبت أقدام أهل الاستقامة، فاستقاموا له على جميع الأحوال، ولم يزالوا.

قال بعضهم: القلوب ثلاثة: قلبٌ مربوطٌ بالأكوان، وقلبٌ مربوطٌ بالأسماء والصفات، وقلبٌ مربوطٌ بالحق.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ذلك بأنهم شاقوا الله ورَسُولُهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ذَلِكَ﴾ ذلكم فذوقوه وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ وَمَنْ يُؤَلِّهْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

وَلَيْكِبُ ٱللَّهُ قَتْلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكِبُ ٱللَّهُ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَيْكِبُ ٱللَّهُ قَتْلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكِبُ ٱللَّهُ رَمَىٰ﴾: افهم أن في هذه الآية للعارفين موضع الاتحاد، ولهم في الاتحاد مقامات اتحاد بالأفعال، واتحاد بالصفات، واتحاد بالذات، وهاهنا إشارة اتحاد الأفعال، واتحاد الصفات، وإضافة فعل القوم إلى نفسه بالقتل اتحاد الفعل.

وذلك مقام جمع وتفرقة، ولهم تفرقة في الجمع، إذ ذكر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، نفي فعلاً بعد إثباته لهم، فإذا باشروا القتل كانوا في محل تفرقة، وإذا أضاف القتل إلى نفسه كانوا في محل جمع، فالتفرقة عالم الصورة ورسم الخليفة، إذ كانوا في الخليفة معارفين من مصدر خاصية فعله تعالى، ومن حيث إنهم قائمون في جميع الذرات بفعله الخاص المتعلق بالقدرة، كانت عينهم عين الفعل، خاصة أنه تعالى تجلّى من فعله الخاص لهم بنعت القهر للمقتولين، فهم مع فعله عين أخذ، فإذا كان كذلك، والإضافة إلى نفسه إضافة حقيقة، إذ لا يبقى في البين غير فعله من جميع الوجوه، وهكذا أحكام الخلق من العرش إلى الثرى في جميع الأوقات من جهة الفعلية والخلقية.

لكن إذا لم يكن وقت المباشرة تجلّى الفعل إلى الفعل، لم يكن هناك خاصية اتحاد الأفعال، كانوا كسيفٍ على يد ضاربٍ، بل السيف واليد واحد بالمراتب والترقي، وإذا كان المصدر مصدرًا واحدًا، لم يكن في البين من العرش إلى الثرى غير الله.

وللنبي ﷺ ههنا خاصية اتحاد الصفة، حيث اتّصف بصفته حين عاينه بنعت كشف تجلّى صفته تعالى في قلبه وروحه وعقله، وسره وظاهره وباطنه وصورته، فيصير جميع وجوده مستغرقًا في نور الصفة، فعله أضاف إلى صفته لا إلى فعله؛ لأن القوم كانوا في رؤية أنوار آياته، وكان ﷺ في رؤية أنوار صفاته، وخاصية اتحاد الذات بعد مروره بالآيات، وسباحته في بحر الصفات، وقع بعد مباشرة المقامين، واتّصافه بالصفتين صفة الفعل، وصفة الخاص إدراكه جلال الذات، وفناؤه فيه، وبقاؤه به معه، واستغراقه في آزاله وآباده، وخروجه من بحر الأوليّة والآخرية بنعت الصفة، وسنا الذات، حتى صار مرآة للذات والصفات والفعل، فأبرزه الله للعالمين؛ لتعريف نفسه به إياهم، كإخراجه خليفته آدم عليه السلام بعرفان الملائكة، وكان متّصفًا بالصفة، متّحدًا بها، والنبي ﷺ كان متّحدًا بنور الذات بعد اتّحاده بنور الذات والصفات، بعد اتّحاده بنور الصفات، وكان فوق آدم باتّحاد أنوار الذات، فلمّا كمل في اتّحاده عرف الله مكانه في تمام الخلق، بقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] لم

يَبْقَى فِي تَحْيَى عِلْمِهِ وَصِفَتِهِ وَذَاتِهِ مِنْ وَصْفِ الْحَدُوثِ شَيْءٌ.

لِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ، وَمَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ»^(١)

كَأَنَّ تَفَرُّقَهُ فِي عَيْنِ الْفِعْلِ جَمْعًا، وَجَمْعُهُ فِي الصِّفَةِ جَمْعُ الْجَمْعِ فِي عَيْنِ الذَّاتِ، وَفِي عَيْنِ الذَّاتِ مِنْ حَيْثُ الْأُلُوهِيَّةِ جَمْعٌ بَغَيْرِ تَفَرُّقَةٍ، وَمِنْ حَيْثُ الْخَلِيقَةِ تَفَرُّقَةٌ وَجَمْعٌ.

ذَكَرْتُ نَبْذَةً مِنْ مَقَامِ الْإِتِّحَادِ وَالْإِتِّصَافِ بِالْجَمْعِ، وَالتَّفَرُّقَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا إِلَّا صَاحِبُ رَجَاءِ الْعَشَقِّ، وَبَسْطِ الْمَحَبَّةِ، وَرُوحِ الشُّوقِ، وَأَنْسِ الْمَشَاهِدَةَ، وَانْبِسَاطِ الْمَعْرِفَةِ، وَفَنَاءِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالْبَقَاءِ وَالْإِتِّصَافِ، وَإِدْرَاكِ عِلْمِ اللَّهِ فِي الْمَجْهُولِ عِنْدَ عُلَمَاءِ، وَفَهْمِ الْفُقَهَاءِ.

وَمَا ذَكَرَ الْمَشَايِخَ فِي الْآيَةِ قَوْلَ فَارَسٍ: مَا كُنْتُ رَامِيًّا إِلَّا بِنَاءٍ، وَلَا مُصَيِّبًا إِلَّا بِمَعُونَتِنَا، وَإِمْدَادِنَا إِيَّاكَ بِالْقُوَّةِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا رَمَيْتَ، وَلَكِنْ رُمِيتَ بِسَهَامِ الْجَمْعِ، فَغِيْبِكَ عَنْكَ، فَرَمَيْتَ، وَكُنَّا رَامِيْنَ عَنْكَ؛ لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ لَكَ، وَالْحَقِيقَةَ كُنَّا إِذْ لَمْ يَفْتَرِقْ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ: «إِذْ رَمَيْتَ» فَرَقًا، وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى جَمْعًا، وَالْفَرْقُ صِفَةُ الْعِبُودِيَّةِ، وَالْجَمْعُ نَعْتُ الرُّبُوبِيَّةِ، ثُمَّ عَرَفَ مَوْضِعَ نِعْمَتِهِ بِرَمِيهِ بِنَفْسِهِ، وَصَرَفَ قَهْرَهُ عَنْهُمْ، بِقَوْلِهِ: «وَلْيُبَلِِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا» كَمَا بَاشَرَ بِأَنْوَارِ صِفَتِهِ قَلْبَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي الرَّمِيِّ وَأَسْرَارِهِمْ فِي الْقَتْلِ، بَاشَرَ بِهَا قُلُوبَهُمْ بِحَسَنِ تَحْيَلِهَا؛ لِيَعْرِفُوا بِهَا نَفْسَهُ، وَاتِّجَاهَ إِيَّاهُمْ مِنْ مَكْرِهِ وَقَهْرِهِ، وَالْبَلَاءُ الْحَسَنُ وَقَوَعُ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وَكَشَفَ جَمَالَهُ لِأَصْفِيَائِهِ، وَإِسْمَاعَ خُطَابِهِ لِنَجْبَائِهِ.

سُئِلَ الْجَنِيدُ عَنْ قَوْلِهِ: «وَلْيُبَلِِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا».

قَالَ: «الْبَلَاءُ الْحَسَنُ»: أَنْ يَثْبَتَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ، وَيَحْفَظُهُ عِنْدَ الْأَمْرِ، وَيَفْرُدُهُ بِهِ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ الْفَرِّ.

قَالَ رُوَيْمٌ: «الْبَلَاءُ الْحَسَنُ»: أَنْ تَكُونَ رُؤْيَا الْحَقِّ أَسْبَقَ إِلَيْهِ مِنْ نَزُولِ الْبَلَاءِ، فَيَمْرُ بِهِ الْبَلَاءُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ لِاسْتِغْرَاقِهِ فِي رُؤْيَا الْحَقِّ.

وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ: «الْبَلَاءُ الْحَسَنُ»: مَا يُوَرِّثُكَ الصَّبْرَ عَلَيْهِ، وَالرِّضَا بِهِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَنْ يُقْنِيَهُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ، فَإِذَا أَفْنَاهُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ، كَانَ هُوَ عَوْضًا لَهُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ.

قال الأستاذ: «البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المنحة، وتحقيق الصبر في المحنة.
ويقال: «البلاء الحسن»: أن يشهد الملبى في عين البلاء، ثم روح قلوب المحتملين بلاء محبته، وأثقال شوقه، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿سَمِيعٌ﴾: أنين أهل الشكوى في شوقه، ﴿عَلِيمٌ﴾: ألم فقدانه في قلوب أهل محبته.
قال الأستاذ: تنفيس لقوم، وتهديد لقوم، أصحاب الرفق يقول لهم: إن الله سميع لأنينكم، فيترّج عليهم بهذا وقتهم، ويحمل عنهم بلاءهم، وأنشد في هذا المعنى:
إِذَا مَا تَمَتَّى النَّاسُ رَوْحًا وَرَاحَةً تَمَنَّى أَنْ أَشْكُوَ إِلَيْهِ فَيَسْمَعُ

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهُنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨) ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَشْتَرُ بِمَا كُنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: حذر الله الصادقين عن الدعاوى الباطلة، التي لم يكن معها المعنى، فإن سماع الظاهر بغير فهم، ومتابعة أمر، فهو سماع غفلة.

ثم وصف هؤلاء المدعين بأنهم أغفل من الحيوان، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: «الصُّمُّ»: عن استماع هوائف الغيب، و«البكم»: عن نشر فضائل المعرفة، ووصف المعروف بنشاط المعرفة ورؤية المشاهدة، وذلك ميراث جهالتهم بأنفسهم، ومعرفة صانعهم عن طريق العقل والعلم في كل موضع.

العقل هناك أمير البدن، لا يقبل عن صاحبه إلا النظر إلى الحق، والسماع من الحق، والقول بالحق.

قال بعضهم: من سمع، ولم يؤثر عليه فوائد السماع وزوائده في أحواله، فهو غير مستمع، ولا سامع، والمستمع على الحقيقة من يرجع من حال السماع بزيادة فائدة، أو بزيادة حال، ومن حضر مجالس السماع، ولم يرجع بزيادة، فإنما يرجع بنقصان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقال بعضهم: «الصمُّ»: عن سماع الذكر، وفَهم معانيه، و«البكم»: عن مداومة تلاوة الذكر وطلب الزيادة منه، الذين لا يعقلون ما خوطبوا به، وما خُلقوا له، وما هم صائرون إليه في المآب.

وقال الأستاذ: مَنْ صَمَّ عن إدراك ما خوطب به وبسرِّه، وعمي عن شهود ما كُشف به قلبه، وخرس عن إجابة ما أرشد إليه من حجة فهمه وعقله، فدون رتبة البهائم قدره، وفوق كلِّ خسيسٍ من حكم الله ذلّه وصغره، ثم أن الله سبحانه أضاف حرمانهم من فهم الخطاب، وإدراكه حقائقه، ومتابعة أمره إلى قسمة أزلّه، ومشية سابق حكمه^(١)، بقوله:

﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لو علم الله في قلوبهم خير اصطفايته الأزليّة، لأسمعهم حقيقة خطابه، وعرفهم مكان مراده فيه، ولكن ماداموا لم يكونوا مصطفين في أزل الخيرية الاصطفائية، ما أسمعهم لطائف كلامه، وما عرفهم مواضع أنبائه العجيبة، وحقائق حكمه الغريبة، ويَبَيّن أنه تعالى لو أسمعهم خطابه بنعت ما وصفنا لم يدركوه، وهم معرضون عن متابعة أمره؛ لأنهم محرومون في الأزل من رؤية حُسن حضرته، وإدراك اجتهاته.

قال يحيى بن معاذ: إنّ هذا العلم الذي تسمعونه، إنّما تسمعون ألفاظه من العلماء، ومعانيها من الله بأذان قلوبكم، فاعملوا وتعقلوا ما تسمعون، فإن لم تعلموا كان ضره أقرب إليكم من نفعه.

قال بعضهم: علامة الخير في السماع لمن سمعه فناء أوصافه ونعوته وسمعه بحق من حق.

وقال الأستاذ: من أقصته سوابق القسمة لم يدنه لواحق الخدمة، ولها وصف حرمان الزائغين عن الحق وعي، فإن الخطاب خطاب أهل إرادة المحبة، ودعاهم إلى مشاهدته وقربه، وطلب منهم إجابة دعوته بنعت متابعتة، ومتابعة رسوله، بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

طيب أرواحهم بنسيم روائح قدس ندائه، وفتح آذان قلوبهم لحلاوة دعائه، وشوق أسرارهم بلذيد خطابه، وجعلهم مستبشرين بلطيف حكمه، وعلى وجدانهم أنوار قربه.

ألا ترى كيف قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: دعاءه

(١) انظر: تفسير القشيري (٣/ ١٢).

لا لأنفسكم وحظوظكم، وطلب أعواض أعمالكم.

﴿أَسْتَجِيبُوا﴾: يبذل أرواحكم وأشباحكم لداعية الأزل، حيث دعاكم منه إليه قبل وقوع حدّ وثبتكم، دعاكم بوصف السرمدية من محبته لكم، وشوقه إليكم، فأحبّوه واشتاقوا إليه بمحبته وشوقه، واستجيبوا للرسول بمتابعة أمره، فإنه روح الصغرى من عالم الملكوت أدرك من روح الكبرى، وهي نعوت الجبروت حياة القِدَم.

﴿تُحْيِيكُمْ﴾: بروح الصغرى والكبرى.

وأيضاً ﴿لِمَا تُحْيِيكُمْ﴾ أي: مشاهدة الأزليّة، وقربته الأبديّة، ومحبته الصفاتيّة، ومعرفته الذاتيّة.

قال الجنيد في هذه الآية: قرعَ أسماعهم، فُسمِعهم حلاوة الدعوة، فيتنسّموا روح ما أدّته إليهم الفهوم الطاهرة من الأدناس.

فأسرعوا إلى حذف العلائق المشغلة لقلوب الموافقين ومنعها، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر، وتجرعوا مرارة المكابدة، وصدّقوا الله في المعاملة، وحُسن الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصيبات، وعرفوا قدر ما يطلبون، واغتنموا سلامة الأوقات، وسجنوا همومهم عن التقلب إلى مذكور سوى وليهم، فحيا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال، فهذا معنى قوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾.

وقال الواسطي في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تُحْيِيكُمْ﴾: حياة تصفيها من كلّ معلول لفظاً وفعلاً.

وقال جعفر: أجبوه إلى الطاعة؛ ليحيي بها قلوبكم.

وقال أيضاً: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تُحْيِيكُمْ﴾: «الحياة»: هي الحياة بالله، وهي المعرفة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال بعضهم: استجيبوا لله بسرّائركم، وللرسول بظواهركم إذا دعاكم إلى ما يحييكم. فحياة النفوس بمتابعة الرسول، وحياة القلب بمشاهدة الغيوب، وهو الحياء من الله برؤية التقصير.

وقال جعفر الصادق: حياة القلوب في المعاشرة، وحياة الأرواح في المحبة، وحياة النفوس في المتابعة، ولما دعاهم إلى مشاهدته بنعت الشوق، عرفهم أن قلوبهم مسلوبة منهم بكشف جماله، وإلقاء محبته ومعرفته فيها، بقوله:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: قلوبكم معي فاتبعوا أثرها،

واطلبوها مِنِّي حتى أَطهرها لكم، متقلبات في بحر الصفات والذات، حائرات في المشاهدات، ساكرات بشارب القربات، دانيات مِنِّي، فانيات فِيّ، باقيات معي، لو تعرفونها تعرفوني، لذلك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١)؛ لأنه نفس النفس، وقلب القلب، وروح الروح، وعقل العقل، وحياة الحياة.

ثُمَّ وصف ﷺ تقلبها في عيون الصفات بنعت البقاء، وسباحتها في بحار الذات بنعت الفناء، بقوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»^(٢).

قيل: أن الله أشار إلى قلوب أحبائه بأنه يأخذها منهم، ويجمعها ويقلبها بصفاته، كما قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٣)، فيختمها بخاتم المعرفة، ويطبعها بطابع الشوق.

وقيل: «يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» أي: عقله وفهمه عن الله خطابه.

وقيل: يحول بين المؤمن والإيمان، وبين الكافر والكفر، ويردّهما إلى الذي سبق لهم منه في الأزل.

ويقال: حال بينهم وبين قلوبهم؛ لئلا يكون لهم رجوع إلا إلى الله.

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَفَاوَنَكُمُ وَأَيْدُكُمْ بَصَرُهُ ۖ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْسِيتُكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝».

قوله تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»: حذر الله أهل القصة من الدعاوى الكاذبة، وهي التي لم يبلغ صاحبها إلى ما تدعي من المقامات، فيفتن بها هو وغيره من المريدين، فإن من أظهر شيئاً من نفسه، ولم يكن أهل ذلك، فهو محتجب به عن كل مقصود.

ويُضِل من يقتدي به ممن لا يعرف الحق من الباطل، قال ﷺ: «المتبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٤).

قال أبو عثمان: اكتساب المال من الحرام من الفتن التي تصيب بغير مباشرة.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه ابن حبان (٤٩/١٣).

وقال الأستاذ: الإشارة إذا باشر زلة بنفسه، عاد إلى القلب منه الفتنة، وهي القسوة المعبد، وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصل منه زلة، وهو فيها لا يجوز يتأدى فتنته إلى السر، وهي الحجة.

ويقال: أن الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا ما فوق الكفاية، وإن كان من وجه الحلال تعدى فتنته إلى من تخرج به من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة في الدنيا وترك التقلل، فتؤديه إلى الانهماك في أودية الغفلة من الانشغال بالدنيا عن ربه.

والعابد إذا جنح إلى ترك الأوراد، تعدى في ذلك إلى من كان ييسر في المجاهدة، فيستوطن الكسل، ثم يحمله الفراغ، وترك المجاهدة على اتباع الشهوات فيصير كما قيل: أن الفراغ والشباب والحدة مفسدة للمرء، أي مفسدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: من الله على أوليائه بأنه وإن كان عددهم قليلاً، فهو عند الله عظيم، فأكثرهم بالإخوان من العارفين حين كانوا عند الأعداء خائفين من شرهم، ومن شر معصيتهم وقلة احترامهم، بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾؛ لأنهم في منادى الأحوال، فلما آواهم الله إلى مقام مشاهدته، وألبسهم لباس أنوار هيئته، وسقاهم شراب وصلته، غلبوا بنصرة الله على أعداء الله، وصاروا صاغرين عند هؤلاء الأولياء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَاوَنَكُمُ وَأَيْدِكُمْ يَنْصُرُهُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: آواهم من قهره إلى لطفه، ووسمهم بسما قدرته، وأطعمهم من موائد قربته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تعرفون مشكوركم حين تعجزون عن أداء شكر معرفته.

قال الأستاذ: رزق الأشباح من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، فلما وفقهم بعوالي تلك الدرجات، حذرهم الله عن الخيانة في الطريق، بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إذ عرفكم الله معالم الربوبية، وحقائق العبودية، وأعلمكم علوم حكم المعرفة لا تكتموها عن أهلها من المريدين الصادقين، وما وجدتم من ذلك من شرائع رسولي، وعلمه المأثور منه لا تمنعوا منه من يقتبس منكم، قال (عليه السلام): «بلغوا عني ولو آية»^(١)

وإذا عرفتم ذلك اعملوا به، ولا تخونوا في تلك الأمانة التي أودعها الله قلوبكم بترك رعايتها بنعت العمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك قوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ﴾،

وأنتم تعلمون أنكم خائنون في تضيعكم، ومن الله عليكم من علمه الذي علمكم. وأيضاً من عرف الله والتفت سره إلى شيء غير الله، فقد خان الله في محبته وأمانته، وودائع معرفته في صدور عباده التي توجب انفراد خواطرهم من كل العوارض النفسانية والشیطانية.

قال أبو عثمان: من خان الله في السر، هتك ستره في العلانية.

وقال بعضهم: خيانة الله في الأسرار من حب الدنيا، وحب الرئاسة، والإظهار خلاف الإضمار، وخيانة الرسول في آداب الشريعة، وترك السنن والتهاون بها، وخيانات الأمانات في المعاملات والأخلاق، ومعاشرة المؤمنين في ترك النصيحة لهم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالُوا أَلَلَّهُمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾: بين سبحانه أن من اتكل إلى المال في معيشته، وتولى إلى أولاده في طلب نصرته، فقد افتتن في طريق الله بغير الله. قال بعضهم: «أموالكم»: فتنة إن جمعها وأمسكها، ونعمة إذا أنفقت، وبذلت في وجوه الخيرات.

وقال بعضهم: «المال»: فتنة لمن طلب الفتنة، ونعمة لمن كان خازناً لله فيه يأخذه بأمره، ويخرجه بأمره إلى أربابه.

وقال أبو الحسين الوراق: ما اعتمدت سوى الله من الدنيا والآخرة، فهو فتنة حتى تعرض عن الجميع، وتقبل على مولاك، وتعتمد عليه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾: بين سبحانه من خرج بسره من جت شيء سوى الله من المال والولد والدنيا والآخرة، يسرج الله في قلبه في مسرجة التقوى مصباح أنوار الغيب، تُضيء الأبصار أسرار ما في خزائن ملك الملكوت، ويفرق بسناها بين المكاشفات والمخايل.

قال سهل: نورًا يفرق به بين الحق والباطل.
وقال الجنيد: إذا اتقى العبد ربه جعل له تبيانًا يتبين به الحق من الباطل، وهذه نتيجة التقوى.

ف قيل له: أليست التقوى فرقانًا؟ قال: بلى، الأول: بداية من الله، والثاني: اكتساب، فإذا اتقى الله، اكتسب بتقواه معرفة التفرقة بين الحق والباطل، فيتبين هذا من هذا.
وقال الأستاذ: «الفرقان»: ما يفرقون به بين الحق والباطل، من علم وافر، وإلهام قاهر، فالعلماء فرقانهم محبوب برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوب عرفانهم، فهؤلاء مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء لمقتضى جود ربهم، فالعرفان تعريف من الله، والتكفير تخفيف من الله، والغفران تشريف للعبد من الله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَلْمَسِكِينَ﴾ وصف تعالى نفسه بالمكر، ومكره منزلة عن الخيل والمخايل والأباطيل.

«مكره»: سخطه السابق، الذي ظهر سماته للعبد على وجوه المطرودين، وسوابق المشيئة الأزلية، وامتناع جماله بعزته عن مطالعة غير عاشقين به، فأخرجهم بصورة المقبولين، وكانوا في الأزل من المطرودين، فما عرفهم مكان قهره.

ومكره بهم وعليهم، فأبرز لهم أنوار السعادة، وأزمهم في ورطات قهرياته بأزمة الشقاوة، فما رأوا على أنفسهم حلي الطاعات، وغفلوا عن ظلمات بواطنهم؛ لأنهم مطموسون بطمس مكر الأزل.

قال تعالى في وصفهم: ﴿صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٤]، هذا وصف مكر البعد منه، فالمكر في الأولياء مكر انبساط وقرب، وهو من علم المجهول، وذلك مقام الالتباس حيث ظهر عين الصفة في عين الفعل على حد الجمع والتفرقة، وتلك لطائف مشاهدة التشابهات من الاستواء والنزول، وغيرهما من الصفات، وما ذكرنا بمجموعه، فيكون في إشارته ﷺ حين عاين العدم في مرآة الحدث، بقوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»^(١).

وهذا محلُّ العشق والبسط والانبساط، والأنس والشوق.

قال الشبلي: المكر في النعم الباطنة، والاستدراج في النعم الظاهرة.

وقيل: «المكر» مكران: مكر تلبس، ومكر هلاك.

وقال الأستاذ: من جملة مكره اغترار قوم بما يرزقهم من الطيبات الجميلة، وأجر كثير الطاعات عليهم، مع شرب لهم من قبول الناس إياهم، ثم أسرارهم تكون بالأغيار منوطة، وهم عند الله غافلون، وعند الناس أنهم عند الله مكرمون، وفي معناه قيل:

وَقَدْ حَسَدُونِي قُرْبَ دَارِي مِنْهُمْ فَكَمْ مِنْ قَرِيبِ الدَّارِ وَهُوَ بَعِيدٌ

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٨) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ (١١) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٨): كان ﷺ رحمة تامة للجمهور حياة ومماتاً، صرف الله عذابه المستأصل عمن كان على رأس المخالفة، ونبه ﷺ بين أظهرهم؛ لأن كل عين نظرت، واقتبست نوره، لم يكن مستأصلاً من أصلها، وإن كانت محجوبة عن رؤية مراتبه، وشرف منازل؛ لأن مكته وظله ﷺ كنف رحمة الله، ومن يدرك في نفسه قارعة لتنبه من غفلته، وتحلصه من عذاب الله. وأيضاً ما كان الله ليعذب قومك بعذاب البعد، وأنت قريب منهم، فإن من رآك رأي، لا يحتجب منا ما دام ينظر إليك (١٣).

(١) المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.

(٢) فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ الخ، كيف جعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سبباً لارتفاع العذاب، وباعثاً على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله

قال أبو بكر الورّاق: ما كان الله ليُظهر فيهم البدع، وأنت فيهم، وما كان الله ليأخذهم بذنوبهم، وهم يستغفرون.

قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم، ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق، وإذا أميتت سنته، فليتنظروا البلاء والفتن.

وقال الأستاذ: وما كان الله ليعذب أسلافهم، وأنت في أصلابهم، وليس يعذبهم اليوم، وأنت فيما بينهم إجلالاً لقدرك، وإكراماً لمحلّك، وإذا خرجت من بينهم، فلا يعذبهم وفيهم خدمك، الذين يستغفرون.

ويقال للجواد: حرمت فجاد الكرام في ظلّ أنعامهم، والكفار إن تمتعوا بقرب الرسول ﷺ، فقد اندفع العذاب بمجاورته عليهم، وأنشد في هذا المعنى:

وَأَحْبَبُّهَا وَأَحَبُّ مَنْزِلِهَا الَّذِي حَلَّتْ بِهِ وَأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ

ثم إن الله سبحانه ذكر أنه يُعَذَّب من يعادي نبيّه ﷺ في الدنيا بالسيف، ولا يعذبهم عذاب الاستئصال إلا في الآخرة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾: حرمة نبيّه ﷺ وإن المؤمن الصادق في إيمانه لا يعذبه الله في الآخرة؛ لأن نبيّه يكون فيهم يوم القيامة، وبشرنا سبحانه أنه لا يعذب أمته ما دام هو فيهم، فيكون في الآخرة هو فيما بين المؤمنين، فيدخل المؤمن النار؛ لتحلة قسمه، وبأن يُطفئ بنوره ناره، وذلك قوله ﷺ: «جَزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك ناري»^(١).

يدخل المؤمن والكافر في النار، فيبقى الكفار في النار، والمؤمنون يمرون على الصراط كالبرق الخاطف.

فإن وصلت النار إلى المجرمين من أمته، لا تصل إليهم لجهة الخلود، بل لجهة الخلوص، وفي هذا المعنى قيل:

إِذَا سَلِمَ الْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فَرُدِّي وَإِنْ شَطَّ الْمَرَارِ سَلِيمٌ

وهكذا قال الأستاذ- رحمه الله عليه- ثم يَبْنِ سبب إيصال العذاب إلى الكافرين، بقوله تعالى: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا

تعالى، والتبثّل إليه، فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

الْمُتَّقُونَ: كانوا يعملون شيئاً ليس لهم، فإنهم ليسوا من أهل الحرم مع جهلهم بالله، وهم لا يعلمون أن ليس لهم صد المؤمنين عنه، فإن أحبباء الكعبة، هم الذين قدسوا أعينهم من النظر إلى ما سوى الله غير الكعبة، التي هي مرآة تجلّي صفاته، بقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

إن الله سبحانه أراد بحشر الخلق يوم القيامة أن يزيد أشواق المحييين والعارفين والمشتاقين، بكشف جماله، وحسن جلاله، وتمييزهم من المدّعين الكاذبين، الذين يدّعون في الدنيا معرفته ومحبته وولايته؛ وليربح أصفياه من صحبة هؤلاء الكفرة الضالين، الذين صرفوا وجوههم من الحق إلى الخلق بالرياء والسمعة، وطلب الجاه والمنزلة.

وأيضاً يُخلّص أحبائه من مناهضة هواجس النفس الأمّارة، وخطرات الشيطانية، ويُقدّس قلوبهم وأرواحهم وعقولهم من هجوم طوارق القهريات، التي يأتي عليها بالابتلاء والامتحان.

قيل: المخلص من المرائي، والمؤمن من الكافر، والمطيع من العاصي.

﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُوا
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٥٥﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمْ الْمَوَالِ
وَنَعَمْ النَّصِيرُ ٥٦ * وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ بْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٧﴾ إِذْ أَنْتُمْ
بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَا خَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٨﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي
مَمَالِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَسَّدَتُمْ وَلَنَنْزَعَنَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٥٩﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ
فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٦٠﴾ يَتَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: الإشارة إلى كفرة النفوس الأمّارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقدّس مزارع أنوار اليقين،

ومرابع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحق، ويكون القلب كلّهُ مستغرقاً في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهاً في صحاري أزله وأبدّه، ولا يكون منها جميعاً نظراً إلى غيره.

فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها، وفي ذلك مدح نفسه تعالى، بقوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: نعم المولى لأولياته، ونعم النصير لعماله، أنعم بسبق ولايته ومحبّته على المحيين في أزله، وعلى المجاهدين له هواهم ونفوسهم، بنصرته لهم إلى أبد أبده.

قال بعضهم: نعم المولى لمن والاه، ونعم النصير لمن استنصره.

وقيل: نعم المولى لأهل الولاية، ونعم النصير لأهل الإرادة.

يقال: نعم المولى بالتعريف.

وقيل التكليف، ونعم الناصر لك بالتخفيف والتضعيف يضعف الحسنات، ويخفف عنكم السيئات، فأنشد:

هَـوَ أَكْ أَوَّلُ مَا عَرَفْتُ مِنَ الْهَوَىٰ وَالْقَلْبُ لَا يَنْسَى الْحَبِيبَ الْأَزَلَا

قوله تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: نفي التدبير عن ساحة التقدير، ويُخرج ما في المشيئة الأزلية على لباس الأمر بنقض العقود والعزائم التي اجتمعت عموم الخلق عليها.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: عرفت الله بنقض العزائم، وفسخ الهمم.

قال جعفر: ما قضى في الأزل يظهره في الحين والوقت بعد الوقت.

وقال بعضهم: ليكشف عن سوابق علمه في غيبه، باتّصال كلّ من الفريقين إلى ما سبق له منه في أزله، ثم صرف الخلق من ديمومة المشيئة، إلى صورة الأحكام، لعلمه بقلة إدراكهم سوابق القسمة في الأزل، بقوله تعالى: ﴿لَيَهْلِكَنَّ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قدّر في الأول، ونصب أعلام القهر واللفظ في الطريقة في الآخر، فيرجع الآخر بما يبدو منه إلى مصدر تقدير الأول، ويبيّن أنه منزّه عن الجهل والظلم، نصب الأدلة لبيان حكمته، وإثبات حجته.

﴿لَيَهْلِكَنَّ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: أمره السابق، وإرادته

القائمة.

﴿وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ﴾: بتلك البيّنات.

﴿مَنْ هَلَكَ﴾: بهواه ما هلك إلا بإهلاكه إياه في الأزل.

و﴿مَنْ حَيٌّ﴾: بمناه من مشاهدته ومعرفته، ما حيا إلا بإحيائه في الأزل إظهار الشريعة، وإبراز الأدلة حكم في محل الامتحان، وقضية الأزل غالبية على صورة الأمر. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

قال بعضهم: أظهر للخلق الآيات، ونصب لهم الأعلام، وفتح أعين القوم لرؤيتها، وأعمى قوماً دونها، وبعث إليهم الوسائط بالبراهين الصادقة، والأنوار النيرة، ولكن ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

وقدم هذه المقدمة: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. قال بعضهم: لا خير إلا لمن حيا بذكره وأنس بقربه، والخلق كلهم متحركون في أسبابهم، والحيّ منهم من تكون حياته، بالحيّ الذي لا يموت.

قال الأستاذ: الهالك من عمي في أودية التفرقة، والحي من حيا بنور التعريف. ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رَاحَتُكُمْ، وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٢) وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٣) إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (٦) كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أول الصبر التصبر، وهو مقام التكليف، والبصر مقام التشريف، الأول: مجاهدة، والآخر: مشاهدة، أي: اصبر بأني في لوعات شوقكم، إني أشتاق إليكم، واصبر كما يصبرون، فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وأيضاً اصبروا في بلاء محبتي، وانظروا إلى مقام البلاء حتى تروني، فإن التجلي للصابرين في مكان صبرهم في.

وأيضاً اصبروا لي، فإن الصبر معي يوجب مراد الصابرين في نُصرتهم على عدوّهم من النفوس والشياطين.

سُئل محمد بن موسى الواسطي عن ماهية الصبر، وحقيقة الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال: هو سؤال التولي قبل مخامرة المحنة، وإذا صادقت المحبة التولي حملها بلا كلفة، هذا صفة من كان الله معه في صبره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَظِيرٌ﴾: حذرًا وإبادة عن المشابهة بهؤلاء المرائين، الذين يخرجون من دورهم، وزواياهم الخبيثة بألوان زى السالوسيين، ويتبخثرون فيها من فرحهم بالجاه عند الظالمين، الذين لا يعرفون الهر من البر، وهم كالأنعام بل هم أضلّ، ويتبعون أهل الإرادة من صحبة الأولياء؛ لتسعير أسواقهم وترويج نفاقهم، حتى يجتمعوا عليهم، ويجلوهم في أعين الخلق، أهلكهم الله في أودية قهره.

ثم وصفهم بأن الشياطين تزين قبائح أعمالهم في أعينهم، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: يُريهم أعمالهم الفاسدة بصورة حسنة، وهم بها يغترون. قال بعضهم: عظم طاعتهم في أعينهم، وصغر نعم الله عندهم.

وقال الأستاذ: الشيطان إذا زين للإنسان يوسوسه أمراً، والنفس إذا استولت له شيئاً عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد، فينخر الغافل معه في قياد وسواسه، ثم يمحقه هو بهم التقدير وكوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي له بما يعده ولا النفس شيئاً مما يتمناه تجده، وهو كما قال القائل:

وَسَاءَ لَتِكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

وذكر الله سبحانه فعل ذلك الشيطان بعد تزينه مخايله لهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾: بين تعالى أن الشيطان زين للمريدين شيئاً من الأمل، ويدليه بخيال المنية في ورطة الغفلة؛ ليغويه عن طريق قربة الله، ويحججه عن مشاهدته، ويعده بالكرامات ووجدان الآيات، فلما أيده الله بجذبه، ووارد وجده نكص العدو على عقبيه، واحترز من احتراقه بنيران مواجيده، ويبقى المريد بلا خيال في مشاهدة الجمال، فتقول نفسه لشيطنه: أين أنت من الوسوسة؟

فيقول: إني أرى ما لا يرون من عجائب مكاشفة الملكوت له، وأخاف الله أن يجعلني في جنس مجاهدته أسيراً بأسر هيبته، وأيضاً يوسوس نفس الولي بأنها تغلب بشهواتها عليه بإعانتة.

فلما رأى صولة جدّه، واستعانتة بربه، ورمى به إليها بأنفاس محبته يفر منه، ويترك النفس أسيرة في يده، ويقول: إني برئ منكم، إني أرى ما لا ترون أي: أخاف الله.

بيّن الله سبحانه أن الشيطان يرى ما لا يرى الآدمي من أحكام الملكوت بعد ظهورها في هذا العالم، وذلك أنه رأى قبل هذا العالم عجائب الملكوت، ويُرِيه الله أنوار المؤمنين بتفريقه عنهم، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققاً في خوفه ما عصى الله طرفه عين.

قال الواسطي: ترك الذنوب على ضروب، منهم من تركها حياةً من نعمه كيوسف عليه السلام، ومنهم من تركها خوفاً كإبليس، حين قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانُ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ ^(١).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٢) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ^(٣) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٤) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْقٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ^(٥) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ^(٦) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ^(٧) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ^(٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

أخبر سبحانه عن مقام امتحان القوم حيث أراهم مقامات رفيعة، وبلغهم إلى بعضها، ولم يعرّشهاهم حقائقها، ولم يوفّقهم لأداء حقوقها، وشكر مراتبها، وأبقاهم في ذلك برهة من الدهر، ثم حجّ بهم عنها قليلاً بنعت الاستدراج، فبقوا معيّبين عن ملابس أنوار الملكوت،

(١) أي: إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباءً منثوراً.

وأثار الجبروت، وهذا إذا كانوا غير مصطفين في الأزل بالولاية السابقة في مشيئة الحكم، بل هم مخذولون بحرمانهم الأزلّي عن كمال البلوغ إلى معالي درجات المعرفة مثل بلعام وبرصيصا وإبليس، وحاشا من كرم الله العميم، وأفضاله القديمة أنه سلب أوليائه أنوار الولاية، الذين سبقت لهم اصطفايته، بحسن عنايته في أزله، وكنايته إلى أبده.

قال جعفر: ما دام العبد يعرف نعم الله عنده، فإن الله لا ينزع عنه نعمه، حتى إذا جهل النعمة، ولم يشكر الله عليها إذ ذاك جُزّي بأن تُنزع منه.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا يناها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباساً من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيئته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً، حتى يقول في همته وسره: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلي قلب وليه، ويريجهم من شرور معارضيهم ومنكريه، وذلك سهمٌ رمي بقوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه»^(١).

وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

سمعت أن ذا النون كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، ف قيل له: لو دعوت

الله، فنزله عن دابته وسجد، فهزم الكفار في لحظة، وأخذوا جميعاً، وأسروا وقتلوا.
وأيضاً اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقويكم في محاربتها
وجهادها.

قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله.

قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب
بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحق، معتمداً عليه، راجعاً عما سواه.

ثم بين أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي
أَيَّدَكَ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق
المؤمنين بإعانتك على عدوك.

قال الواسطي: قواك به، وقوى المؤمنين بك، بل أيدك به، وأيد المؤمنين بنصرك، ثم بين
سبحانه أن نصره المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبة الله، ومحبة رسوله
بعد تباينها بتفرقة الهموم في أودية الامتحان، بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع
أرواحها في بدء الأمر على موارد شريعة المشاهدة، ومشارع الحقيقة، فائتلفت بعضها بعضاً في
الحضرة القديمة عند مشاهدة الجليل جلّ جلاله، فارتفعت من بينهم المناكرة، وبقيت بينهم
المصادقة والمحبة والموافقة.

ثم تأكد ذلك الائتلاف بأنه لا يكون من صنع الخلق، ويكلف الاكتساب، بل من
إلقائه نور الإسلام في قلوبهم، وجمعه إياهم على متابعة نبيه بنظره ولطفه، بقوله تعالى: ﴿لَوْ
أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَيْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: أَلَّفَ بين
الأشكال بالتجانس والاستئناس؛ لأنها من مصدر فطرته.

قوله: ﴿خَلَقْتُ بَيْنَهُمْ﴾ [ص: ٧٥] وألَّفَ بين الأرواح بالتجانس والاستئناس من
جهة الفطرة الخاصة من قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]، وألَّفَ بين القلوب
بمعانية الصفة لها بإشارة قوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»^(١).

وألَّفَ بين العقول بتجانسها، وأصل فطرتها التي قيل فيها: العقل أول ما صدر من
البارئ، وذلك قوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»^(٢).

انصرف من مصدر الأزلية، وألَّفَ بين الأسرار بمطالعتها الأنوار، واتصال الأنوار بها

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٣).

من الغيب، بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قيل: أي يشاهدون أنوار الغيب، فموافقة الأشباح من حيث تجانس مقاماتها في الطاعات، ورؤية الآيات، والظفر بالكرامات، وموافقة الأرواح بابتلائها من مجانسة مقاماتها في المشاهدات، وسلوكها في مسالك المراقبات والمحاضرات، وموافقة القلوب من تجانس سيرها في الصفات.

فَمَنْ شاهد القدرة يأتلف بمن شاهد بقاءه في القدرة، وكذلك مقام رؤية جميع الصفات؛ لأن سيرها في أنوار الصفات، وموافقتها العقول من تجانس إدراك أنوار الأفعال، وتحصيلها سنا الحكميات من أصول الآيات، وتدبرها وتذكرها فيها بأنوار الهدايات، وموافقة الأسرار من تجانس مشاربها من مشاهدة القدم، ومطالعة الأبد، وكل سر يرد مشرب المعرفة، أو المحبة والشوق، أو التوحيد، أو الفناء، أو السكر، أو الصحو يستأنس بمن يكون شربه من مقامه من الأسرار، فسبحان الذي ألّف بين كل جنس مع جنس، رحمةً منه وتلطّفًا.

قال ﷺ في بيان ما شرحنا من ائتلاف هذه المؤلفات، واستئناس هذه المستأنسات في مقام القربات قال: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف»^(١)، فائتلاف المريدين في الإرادة، وائتلاف المحييين في المحبة، وائتلاف المشتاقين في الشوق، وائتلاف العاشقين في العشق، وائتلاف المستأنسين في الأنس، وائتلاف العارفين في المعرفة، وائتلاف الموحدين في التوحيد، وائتلاف المكاشفين في الكشف، وائتلاف المشاهدين في المشاهدة، وائتلاف المخاطبين في سماع الخطاب، وائتلاف الواجدين في الوجد، وائتلاف المتفرّسين في الفراسة، وائتلاف المتعبدين في العبودية، وائتلاف الأولياء في الولاية، وائتلاف الأنبياء في النبوة، وائتلاف المرسلين في الرسالة، فكل جنس يستأنس بجنسه، ويلحق بمن يليه في مقامه.

قال بعضهم: ألّف بين قلوب المرسلين بالرسالة، وقلوب الأنبياء بالنبوة، وقلوب الصديقين بالصدق، وقلوب الشهداء بالمشاهدة، وقلوب الصالحين بالخدمة، وقلوب عامة المؤمنين بالهداية، فجعل المرسلين رحمةً على الأنبياء، وجعل الأنبياء رحمةً على الصديقين، وجعل الصديقين رحمةً على الشهداء، وجعل الشهداء رحمةً على الصالحين، وجعل الصالحين رحمةً على عامة عباده المؤمنين، وجعل المؤمنين رحمةً على الكافرين.

وقال أبو سعيد الخراز: ألّف بين الأشكال، وغيّر الرسوم لمقام آخر، فكلّ مربوط بمنحته، ومستأنس في أهل نحلته.

(١) رواه البخاري (١٢١٣/٣)، ومسلم (٢٠٣١/٤).

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجنده»^(١).

ثم أن الله سبحانه امتنَّ على نبيِّه بأنه حسبه في كلِّ مرادٍ له منه، وحسب المؤمنين بما يريدون منه، وأفرد النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين؛ لتبريهم من حولهم وقوتهم، حيث ضمن دفع العدوان عنهم بنصرته وأزليته، بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾.

أولها مننتُ عليك باتتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محلِّ التوحيد، فإني حسبك وحدي بغير معاونة الخلق، فينبغي أن تفرد القدم عن الحدوث في سيرك مني إليَّ، وأنا حسب المؤمنين عن كلِّ ما دوني، وإن كان ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإن كان مني، وفي هذه الإشارة قد أشار بقوله سبحانه في وصف كبرياء مجالسه من المقربين، بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

قال الواسطي: حسبك بالله ولياً وحافظاً وناصرًا، ومن اتبعك من المؤمنين، فالله حسبهم.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢) مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَبَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: كلُّ مساعدةٍ من الله في المجاهدة تكون من كشف المشاهدة.

فالمستأنس بالله يكون خفيف القلب، خفيف البدن، خفيف الحِل، شريف الهمّة، لا يحتمل مع أنوار مشاهدته كثرة أنقال العبودية، فيخفف الله بأوليائه رحمةً عليهم، وتلطفاً منه عليهم؛ ليزيد روح قلوبهم من المراقبة والاستئناس من المحاضرة، ولذلك أكرم نبيّه ﷺ بأن رفع مشقة كثرة العبودية عنه حين تورمت قدماء من كثرة العبادة، بقوله تعالى: ﴿طه﴾ (٥) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ تَشْقَى (٦) [طه: ١، ٢]، بعد أن كان في البداية قد أقامه في أجواف الليالي لخدمته، بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ (٧) قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا [المزمّل: ١، ٢].

ثم مَنْ عَلَى أَصْحَابِهِ حِينَ بَلَّغُوا هَذِهِ الرِّبَّةَ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْقَنَ حَقْفَ اللَّهِ عَنْكُمْ﴾^(١) أي: ما تفعلون بقوتكم في المجاهدات والجهاد، فأنضركم بقوتي، وأريحكم بكشف مشاهداتي عن مشقة المجاهدة، وما أفعل لكم خير مما تفعلون لأنفسكم.

قال ابن عطاء: ما في السماء لا يوجد إلا بالافتقار، وما في الأرض لا يوجد إلا بالاضطرار.

وقال النصرآبادي: هذا التخفيف كان للأمة دون الرسول ﷺ، ومن لا تثقله حمل أمانة النبوة كيف يخاطب بتخفيف اللقاء للامتداد، وكيف يخاطب به الرسول ﷺ، وهو الذي يقول: «بك أصول وبك أجول»^(٢).

ومن كان به كيف يخفف عنه، أو يثقل عليه؟

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

أخبر سبحانه عن سر فطرة النفس الأمارة التي من حيلة ما إن تميل في أكثر الأوقات إلى شهواتها، وذلك ميلان النفس، لا ميلان القلب.

أخبر عن الخطرات دون الوطنات، وحاشا أنهم يريدون عرض الدنيا، ولا يريدون مشاهدة الحق، ولقاء الآخرة لكن ما مساحمهم الله في حرمان تلك الخواطر لقدس أسرارهم، وطهارة نيّاتهم في معرفته وخدمته، ألا ترى كيف حذر نبيّه ﷺ مع جلالاته عن النظر إلى عرض الدنيا، بقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ - طه: ١٣١﴾ أي: تريدون الرفاهية في المجاهدة من قبيل خاطر النفس، وأنا أريد بكم كشف مشاهدة الآخرة، ووصولكم إلى مقام القرية والمشاهدة.

قال جعفر: ما يريد الله لكم خير مما تريدون لأنفسكم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَحَدٌ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٥) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

(١) ذكره القشيري (٣/ ٥٣).

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَدِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصَائِهِمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضُهُمْ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: أمر الله سبحانه بأكل الحلال الطيب، الذي يتولد من كشف الحلال مثل الجهاد، وذلك أن لقمة الحلال معجونة بنظر لطفه، تقوي أبدان الصديقين، وقلوب المقرين، وأرواح المحبين، ولا يتولد منه الأمان فيها معجونا، وهو لطف الباري سبحانه، ويهجه إلى طهارة القلب من الوسواس؛ لأن الحرام ميراث الشيطان، وهم يتبعون ميراثهم، ويطلبون عوضه حال الصادق وإيانه.

قال جعفر: «الحلال»: ما لا يعصى الله فيه، و«الطيب»: ما لا ينسى الله فيه. وقال بعضهم: «الحلال»: ما أخذته عن ضرورة، و«الطيب»: من الحلال ما أثرت به مع الحاجة والفاقة.

وقال بعضهم: «الحلال»: ما يظهر لك من غير سبب، و«الطيب»: ما يبدو لك من السبب، وما أرى من الفرق بين الحلال والطيب أن الحلال ما تأكل في المجاهدة، والطيب ما تأكل في المشاهدة، وأيضا الحلال ما لم يحك الصدر، والطيب ما يروح القلب. قال ﷺ في هذه الإشارة: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، واستفت قلبك ولو أفناك المفتون»^(١).

وقال ﷺ: «الإثم ما حاك صدرك»^(٢) وأيضا «الحلال»: ما يتعرض لك من الغيب بمراقبتك وانتظارك، و«الطيب»: ما يبدو لك من الغيب بغير مراقبتك، واستشراق نفسك. وقال الأستاذ: «الحلال»: ما كان مأذونا فيه، و«الحلال الطيب»: أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضل لك من قبله، لا استحقاق.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٧٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ

(١) رواه الترمذي (٤/٦٦٨).

(٢) رواه مسلم (٤/١٩٨٠).

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الذين شاهدوا بأرواحهم مشاهدة الأزل، حين عَرَفَ سبحانه نفسه لها بتحقيق الخطاب، بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قالوا: بلى، فصحبته أنوار مشاهدته من الأزل إلى الأبد بنعت المعاينة، وحلاوة السماع، ومواجيد وارادت القُرب، مع اتصال نور الغيب على السرمدية، وهاجروا عن حظوظ طباعها من الأكوان والحدثان، وجاهدوا في مكابذتها في محلّ الامتحان مع النفس، والشيطان لرضا الرحمن، وخوف الهجران، فلما اتصفوا بهذه الأوصاف حصل لهم حقائق الإيمان والعرفان، وسَمَّاهم محققين في الإيقان، بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ثم ذكر امتنانه عليهم بغفرانه حركات ضمائرهم في وقت الامتحان، وتقصيرهم في حقيقة العرفان، وكشف جماله لهم في مرآة البرهان، بقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: سترهم عن عين القهر، حتى لا تصل إليهم ضرب عين القهريات، ورزقهم رزق قُربه بكشف المواصلات.

قال أبو يزيد: جهاد النفس في هجرانها نزاعها عن المألوفات، وإجراؤها على سبيل الله بإسقاط العلائق عن المال والأهل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾.

وقال بعضهم: أي: فارقوا قرناء السوء، والأعمال القبيحة، والدعاوى الباطلة.

قال بعضهم: آمنوا ببذل القلوب لله، وهاجروا ببذل الأملاك لله، وجاهدوا، وابدلوا الروح لله في سبيل الله، فمن بذل قلبه لمحبتة، وبذل ملكه لرضاه، وبذل نفسه وروحه لإعزاز دينه كان محباً حقيقة، ومن كان محباً حقيقة كان مؤمناً حقاً.

قال أبو بكر الوراق: فضّل أصحاب النبي ﷺ بشيئين: بصُحبتهُم مع النبي ﷺ والمجاهدة معه، وهجرانهم إلى الله بالسرائر، وغُربتهم مع أنفسهم.

ألا ترى الله تعالى يقول: الذين آمنوا من طوارق الخذلان، وهاجروا بقلوبهم في ملكوت الغيوب، وجاهدوا أنفسهم على طاعة رسوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. حقيقة إيمانهم ما قدم من الثناء عليهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحكم الغريية،

والأنبياء العجبية، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموقنين، والقاصدين المودين، والمحبين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعاً من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجليّ القدم، ومن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت.

ولا يعرف ألحان تلك الأطيّار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبة، والنبوة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما منّ الله عليه، بقوله: ﴿عَلَّمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

نسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسمت أرباب هذه الموارث.

قال عليه السلام في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١)، ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالماً في الأزل باختياره هؤلاء الصديقين بهذه الكرامات، محيطاً بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إياهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزلية، وما يبدو منهم من سنّيات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني، وأوله:

سورة التوبة



فهرس المحتويات

٣	التقديم
٥	ترجمة الشيخ المصنف
٩	نماذج من صور المخطوط
١١	مقدمة المصنف
١٥	سورة فاتحة الكتاب
٢٧	سورة البقرة
١٢٣	سورة آل عمران
٢٢٧	سورة النساء
٢٩٢	سورة المائدة
٣٤٣	سورة الأنعام
٤١١	سورة الأعراف
٥٠٨	سورة الأنفال
٥٤٢	فهرس المحتويات

